قصة الحضارة

ول وايريل ديورانت

قيصر والمسيح
أو
الحضارة الرومانية

ترجمة
محمد بدران

الجزء الثاني من المجلد الثالث



بيروت

١٠



تونس

الكتاب الثالث

الزعامة

٣٠ ق.م – ١٩٢ ب.م

جدول مسلسل للحوادث التاريخية

ق . م

٣٠ — أكتاڤيان تخلع عليه سلطة تريبونية مدى الحياة : كتاب الهجو الثانى لهوراس
٢٩ — كتاب Geogics لفرچيل . وكتاب Epodes لهوراس .
٢٧ — أكتاڤيان يصبح أغسطس (العظيم)
٢٧ — ٦٨ ب . م الأسرة البولية — الكلودية
٢٧ — ١٤ ب . م ، زعامة أغسطس
٢٥ — بنثيون أجريا ، تبيولس
٢٣ — الكتب الثلاثة الأولى من أغانى هوراس
٢٠ — الكتاب الأول من رسائل هوراس
١٩ — موت ڤرچيل ، پروپرثيوس
١٨ — قانون لوليا الخاص بالزنى
١٣ — ملهى مرسلس ؛ الكتاب الرابع من أغانى هوراس
١٢ — ٩ حملات دروسس فى ألمانيا ؛ تيبيريوس يخضع پانونيا
٩ — ليڤى ، Ara Pacis لأغسطس
٨ — موت ماسناس وهوراس
٦ — تيبيريوس فى رودس
٢ — نفى يوليا
٤ ب . م — أغسطس يتبنى تيبيريوس
٨ — أوڤد ينفى فى تومى
٩ — هزيمة ڤارس فى ألمانيا ؛ Lex Poppaeo & Lex Lulia de maritandis ordinibus
١٤ — موت أغسطس
١٤ — ٣٧ زعامة تيبيريوس
١٤ — ١٦ چرمنكوس وتيبيريوس فى ألمانيا
١٧ — ١٨ چرمنكوس فى الشرق الأدنى
١٨ — موت أوڤد
١٩ — موت چرمنكوس ؛ محاكمة پيزو
٢٠ — Lex maiestalia ؛ نشأة المخبرين
٢٣ — ٣١ حكم سيجانوس
٢٧ — ميبيريوس يستقر فى كبريا
٢٩ — موت ليڤيا ، نفى أجريپينا

ق . م

٣٠ — سلسس صاحب الموسوعة
٣١ — موت سجانوس
٣٧ — ٤١ زعامة جاموس (كالجيولا)
٤١ — ٥٤ زعامة كلوديوس
٤١ — ٤٩ نفى سنكا
٤٣ — فتح بريطانيا
٤٨ — موت مسالينا ؛ كلوديوس يتزوج أجرپينا الصغرى
٤٩ — سنكا يعين پريتورا ورببا لنيرون
٥٤ — ٦٨ زعامة نيرون
٥٥ — سنكا يملى de Clementia على نيرون . نيرو يسم بريطانيا نيكوس ،
٥٩ — نيرون يأمر بقتل أمه أجرپنيا
٦٢ — سقوط سنكا ؛ موت پرسيوس ؛ نيرون يقتل أكتاڤيا ويتزوج پوپيا
٦٤ — حرق رومة ؛ أول اضطهاد المسيحيين فى رومة .
٦٥ — إعدام سنكا ولوكان
٦٦ — موت پترونيوس وثراثيا پتيس
٦٨ — ٦٩ زعامة جلبا
٦٩ — (من يناير إلى إبريل) زعامة أثو
٦٩ — (من يوليه إلى ديسمبر) زعامة ڤيتليوس
٦٩ — ٢٩٦ زعامة ڤسپازيان
٢٧٠ — الكلوسيوم ؛ كونتليان يشغل منصب الأستاذ الأول فى الدولة
٧١ — ڤسپازيان ينفى الفلاسفة
٧٢ — انتحار هلڤيديوس پرسكس
٧٩ — ٨١ زعامة تيتس
٧٩ — ثوران بركان ڤيزوف ، موت پلنى الأكبر
٨١ — عقد تيتس
٨١ — ٩٦ زعامة دومشيان ؛ مارشالى واستاتيوس
٨١ — ٨٤ حروب أجركولا فى بريطانيا
٩٣ — اضطهاد اليهود والمسيحيين والفلاسفة
٩٦ — ٩٨ زعامة نرڤا
٩٨ — تاستس يعين قنصلا
٩٨ — ١١٧ زعامة تراچان
١٠١ — ١٠٢ حرب تراچان الأولى ضد الداشيين
١٠٥ — تواريخ تاستس

ق . م

١٠٥ — ١٠٧ حرب تراچان الثانية ضد الداشيين
١١١ — پلنى الأصغر يعين مشرفاً على بيثينيا
١١٣ — السوق وعمود تراچان
١١٤ — ١١٧ حملة تراچان على بارثيا
١١٦ — حوليات تاستس ؛ أهاجى چوڤنال
١١٧ — ١٣٨ زعامة هدريان
١١٩ — « حيوات القياصرة » لسيوثنيوس
١٢١ — ١٣٤ طواف هدريان بالإمبراطورية
١٣٤ — سلڤيوس چليانوس ، مشرع
١٣٨ — ١٦١ زعامة أنطونينس بيوس
١٣٩ — ضريح هدريان
١٦٠ — ١٨٠ زعامة ماركس أوليوس أنطونينس
١٦٠ — ١٦٩ اشتراك لوسيوس ڤيرى فى الحكم
١٦٠ — كتاب النظم Institutione لجيوس
١٦٠ — ١٦٥ الحرب على بارثيا
١٦٦ — ١٨٠ حرب المركمانى
١٧٤ — ماركس يكتب « التأملات »
١٧٥ — عصيان أڤديوس كاسيوس
١٨٠ — وفاة ماركس أورليوس
١٨٠ — ١٩٢ زعامة كمدوس
١٨٣ — مؤامرة لوسلا
١٨٥ — إعدام پرنيز
١٨٩ — القحط ؛ إعدام كليندر
١٩٠ — پرتناكس ، عريف
١٩١ — أول يناير : اغتيال كمدوس

الباب الحادى عشر

مواهب أغسطس السياسية

٣٠ ق . م — ١٤ ب . م

الفصل الأول

فى الطريق إلى الملكية

انتقل أكتافيان من الإسكندرية إلى آسية وواصل فيها توزيع الممالك والولايات. ولم يصل إلى إيطاليا إلا فى صيف عام ٢٩ ق . م . ولم تكد تبقى طبقة من طبقات الأهلين فيها إلا حيته واحتفلت بمقدمه ، وعدته منقذ البلاد ، واشتركت فى موكب النصر الذى دام ثلاثة أيام متوالية . وأغلق هيكل يانوس إشارة إلى أن إله الحرب قد نال كفايته إلى حين ، فقد أنهكت الحرب الأهلية التى دامت عشرين عاما شبه الجزيرة التى كانت تشتهى الحرب وتتعطش للدماء . وفى هذه الفترة أهملت المزارع ونهبت المدن أوضرب عليها الحصار ، وسرق الكثير من ثروتها أو دمر تدميراً ، وتحطم دولاب الإدارة ووسائل الدفاع عن النفس والمال ؛ وجعل اللصوص الشوارع كلها غير مأمونة خلال الليل ، وكان قطاع الطريق يجوبون المسالك يخطفون المسافرين ويبيعونهم بيع الرقيق . وكان من أثر هذا أن كسدت التجارة ، ووقفت حركة الاستثمار ، وارتفعت فوائد الديون ارتفاعاً فاحشاً ، ونقصت قيمة الأملاك . ولم يكن للفاقة والفوضى أثر فى تحسين الأخلاق التى انحلت بسبب الثروة والترف ؛ ذلك أنه قلما توجد ظروف أشد إفساداً للأخلاق من الفقر الذى يعقب الغنى ؛ ولذلك امتلأت رومة بالرجال

الذين فقدوا مركزهم الاقتصادى وخسروا اتزانهم الأخلاقى : من جنود ذاقوا طعم المغامرات وتعلموا فنون التقتيل ؛ ومواطنين أبصروا بأعينهم مدخراتهم تلتهمها الضرائب الفادحة وتضخم العملة وهما من مستلزمات الحروب ، وكانوا ينتظرون أن يحدث حادثا ما ينتشلهم من الوهدة التى ترددوا فيها ويعيد إليهم الثراء والنعيم ؛ ومن نساء ذهبت الحرية بعقولهن فكثر بينهن الطلاق والإجهاض والزنى ؛ وانتشر العقم لضعف الرجولة وأخذت السفسطة الضحلة تفحر بنزعتها المتشائمة الساخرة .

على أن هذا الوصف لا يحمل إلى القارئ صورة كاملة لرومة فى ذلك الوقت ، بل يجب أن يضاف إليه وباء فتاك ينخر عظامها وتسرى جراثيمه فى دمائها . فقد عادت القرصنة إلى البحار ، وكانت تزداد بهجة وسروراً كلما تدهورت الولايات وأشرفت على الدمار . وسغبت المدن والولايات لما توالى عليها من الابتزاز والنهب فى أيام صلا ، ولوكلس ، وبمپى ، وجابنيوس ، وقيصر ، وبروتس ، وكاسيوس ، وأنطونيوس ، وأكتافيان . وحل الخراب ببلاد اليونان التى كانت ميدانا للقتال ، ونهبت أموال مصر وأرزاق أهلها ، وأطعم الشرق الأدنى مائة جيش ورشا ألف قائد ؛ وكان أهله يبغضون رومة أشد البغض لأنها هى السيد الذى قضى على حريتهم دون أن يعوضهم عنها أمناً أو سلاماً ؛ وكانوا يتطلعون إلى زعيم يقوم بينهم ، فيكشف عما تعانيه إيطاليا من ضعف وخور ، ويجمع شتاتهم ويقودهم فى حرب يتحررون بها من سيطرة رومة .

وكان فى وسع مجلس الشيوخ القوى فى يوم من الأيام أن يواجه هذه الأخطار ، فيعبئ الفيالق الضخمة ، ويجد لها القادة المهرة ، ويمدهم بحنكته وكفايته السياسية البعيدة النظر . أما الآن فلم يبق من مجلس الشيوخ إلا اسمه ، فقد انقرضت الأسر التى كان يستمد منها القوة ، وقضى عليها النزاع الطويل أو العقيم ، ولم تنتقل تقاليد الحكم التى كانت تمتاز بها هذه الأسر إلى رجال

الأعمال وإلى الجنود وأهل الولايات الذين خلفوها فى المجلس الجديد . ومن أجل هذا فقد أسلم هذا المجلس معظم ما كان له من سلطان إلى رجل فى وسعه أن يرسم الخطط ، ويتحمل التبعات ، ويقود ، وأسلمها إليه وهو شاكر ومغتبط .

وتردد أكتافيان طويلا قبل إلغاء هذه الهيئة القديمة ، ويصوره ديو كاسيوس Dio Cassius ، وهو يبحث المسألة بحثاً مفصلا مع ماسيناس وأجريا ، فيقول إنهم كانوا يرون أن الحكومات كلها حكومات ألجركية ، ولذلك فإن المشكلة المعروضة أمامهم لم تكن مشكلة الاختيار بين الملكية ، والأرستقراطية ، والدمقراطية ؛ بل كان عليهم أن يقرروا : هل تضطرهم ظروف الزمان والمكان أن يفضلوا الألجركية فى صورة الملكية المعتمدة على الجيش ، أو فى صورة الأرستقراطية المتأصلة فى الوراثة ، أو فى صورة الدمقراطية التى تعتمد على ثروة طبقة رجال الأعمال ؟ وقد وفق أكتافيان بينها كلها فى « زعامة امتزجت فيها نظريات شيشرون وسابقات بمبى وسياسات قيصر » .

وقبل الشعب هذا الحل قبول الفلاسفة ؛ ذلك أنه لم يعد حريصاً على الحرية مولعاً بها ، بل كان قد مل الفوضى وتاقت نفسه إلى الأمن والنظام ، وكان يرضى أن يحكمه أى إنسان يضمن له الخبز والألعاب . وأدرك إدراكا يكتنفه الغموض أن جمعيات السمجة التى يتغلغل فيها الفساد ويمزقها العنف ، لا تصلح لحكم الإمبراطورية ، ولا تستطيع إعادة الحياة إلى إيطاليا المريضة ، بل أنها لا تستطيع أن تحكم مدينة رومة نفسها . هذا إلى أن الصعاب التى تكتنف الحرية تتضاعف كلما اتسعت رقعة الأراضى التى تعتنقها . فلما لم تعد رومة دولة لا تشمل أكثر من مدينة واحدة دفعها النظام الإمبراطورى دفعاً إلى أن تحذو حذو مصر وفارس ومقدونية ولم يكن فى وسعها أن تقاوم هذا الدفع الشديد ، وكان لابد أن تقوم على أنقاض الحرية ، التى استحالت فردية وفوضى ، حكومة جديدة تضع للدولة المترامية الأطراف نظاماً جديداً . وكان عالم البحر الأبيض المتوسط كله عالما

مختل النظام ، مترامياً تحت قدمى أكتافيان ، ينتظر منه أن يبسط عليه الحكم الصالح .

ونجح أكتافيان فيما أخفق فيه قيصر لأنه كان أكثر من قيصر صبراً ، وأوسع منه حيلة ، ولأنه كان يفهم فن الألفاظ والأشكال ، ويرضى أن يسير سيراً وئيداً حذراً فى المواقف التى اضطر فيها عمه العظيم لضيق وقته أن يخرج على التقاليد المرعية ، ويحدث فى نصف عام من حياته من التغييرات ما يتطلب جيلا كاملا . وفوق هذا فقد كان المال موفوراً لدى أكتافيان . ويقول سوتنيوس إنه لما جاء بكنوز مصر إلى رومة « كثرت فيها النقود كثرة انخفض معها سعر الفائدة» من اثنى عشر إلى أربعة فى المائة ،و« ارتفعت قيمة الأملاك الثابتة ارتفاعا عظيما » . وما كاد يتضح للناس أن حقوق الملكية قد عادت إليها قدسيتها وأن أكتافيان قد فرغ من أحكامه على أعدائه ومن مصادرة الأملاك ، حتى خرجت الأموال من مخابئها وعاد الاستثمار سيرته الأولى ، وراجت التجارة ، وأخذت الثروة تتجمع من جديد ، وتسرب بعضها إلى جيوب العمال والأرقاء . ولشد ما اغتبطت جميع الطبقات فى إيطاليا بعد أن عرفت أن تلك البلاد ستبقى هى المستمتعة بخيرات الإمبراطورية ، وأن رومة ستظل عاصمتها ، وأن خطر نهضة الشرق وبعثه قد زال إلى حين ، وأن ما كان يحلم به قيصر من قيام اتحاد من أمم حرة متساوية فى الحقوق لم يسفر إلا عن العودة فى هدوء إلى امتيازات الشعب المفضل صاحب السيادة .

وكان أول ما فعله أكتافيان بالأموال الجمة التى انتهبها أن وفى بما عليه لجنوده من الديون . وقد استبقى فى الخدمة منهم مائتى ألف رجل أقسم كل واحد منهم يمين الولاء له شخصياً ، وسرح الثلثمائة ألف الباقين بعد أن أقطع كلا منهم مساحة من الأراضى الزراعية ونفحة بهبة مالية سخية . ووزع الهدايا الثمينة على قواده وأنصاره وأصدقائه ، وكثيراً ما كان يسد العجز الذى يحدث فى الخزانة

العامة عن ماله الخاص . وكان إذا رأى ولاية من الولايات حل بها الضنك بسبب الأحوال السياسية أو الطوارئ الطبيعية أعفاها من خراج العام ، وبعث إليها بالمال الكثير لإنقاذها مما تعانيه . وألغى جميع المتأخر من الضرائب على أصحاب الأملاك ، وأحرق علناً السجلات التي تثبت ما عليهم للدولة من الديون ، وأدى من أموال الدولة ثمن ما يوزع من الغلال على المحتاجين ، وأقام الألعاب للشعب على نظام واسع ، وقدم المال لجميع المواطنين . ثم شرع فى إقامة المنشآت العامة ليقضى بذلك على التعطل ويجمل رومة ، وأنفق على هذه الأعمال من أمواله الخاصة ، فلا غرابة بعد هذا إذا نظرت إليه الأمة نظرتها إلى إله معبود .

وبينما كانت هذه الأموال الطائلة تتسرب من يديه كان هذا الإمبراطور المتواضع يعيش عيشة بسيطة خالية من مظاهر العظمة ، ويتجنب ترف النبلاء ، ومتع المنصب وأبهته ، يرتدى الأثواب التى تنسجها له النساء فى بيته . وينام على الدوام فى حجرة صغيرة فى الدار التى كانت من قبل قصر هورتنسيوس . ولما احترق هذا القصر بعد أن أقام فيه ثمانية وعشرين عاماً ، أقام له قصراً جديداً على نظام القصر القديم ، وكان ينام فى نفس الحجرة الضيقة التى كان ينام فيها من قبل . وكانت متعته الوحيدة أن يفر من الشئون العامة بركوب زورق تدفعه الرياح دفعاً بطيئاً على طول ساحل كمبانيا .

واستطاع على مر الوقت أن يقنع مجلس الشيوخ والجمعيات الوطنية ، أو أن يتفضل بالسماح لها ، بأن تخلع عليه السلطات التى جعلته فى مجموعها ملكا فى كل شىء إلا فى الاسم وحده . وقد احتفظ على الدوام بلقب إمبراطور imperator بوصفه القائد الأعلى لجميع القوات المسلحة فى الدولة . وإذ كان الجيش قد بقى معظمه خارج حدود العاصمة على الدوام ، وخارج حدود إيطاليا فى معظم الأحوال ، فقد كان فى وسع المواطنين أن ينسوا ، وهم يمارسون جميع المراسم الشكلية للجمهورية الميتة ، أنهم يعيشون فى كنف حكومة ملكية

عسكرية تختفى منها مظاهر القوة طالما كانت الألفاظ كافية للحكم . واختير أكتاڤيان قنصلا فى عامى ٤٣ و ٣٣ وفى كل عام من الأعوام المحصورة بين ٣١ ، ٢٣ . وخلعت عليه فى أعوام ٣٦ ، ٣٠ ، ٢٣ سلطات التربيون فكسب بذلك طول حياته الحصانة التى يتمتع بها التربيون ، وأصبح له حق وضع القوانين وعرضها على مجلس الشيوخ أو الجمعية ، وحق الاعتراض على أعمال كل موظف فى الحكومة ووقفها . ولم يعترض أحد على هذه الدكتاتورية المحبوبة ، ذلك أن رجال الأعمال الذين امتلأت خزائنهم أيام السلام والشيوخ الذين امتلأت خياشيمهم برائحة غنائم أكتاڤيان المصرية ، والجنود المدينين لكرمه بأرضهم أو مراكزهم ، وكل من عادت عليهم بالنفع قوانين قيصر ، ومناصبه ووصيته — كل هؤلاء كانوا يقولون ما يقوله هومر من أن حكومة الفرد خير أنواع الحكومات كلها ، أو أنها فى القليل خيرها إذا كان هذا الفرد كأكتاڤيان حر التصرف فى أمواله ، وإذا كان فى مثل جده وكفايته ، وإذا كان مثله بيِّن الإخلاص لخير البلاد .

ولما كان رقيباً مع أجريا فى عام ٢٨ أجرى إحصاء عاماً للسكان ، وأعاد النظر فى عضوية مجلس الشيوخ ، فأنقص عدد الأعضاء إلى ستمائة عضو ، ولقب هو نفسه مدى الحياة بلقب « زعيم الشيوخ » princeps senatus . هذا اللقب فى بادئ الأمر « الأول فى ثبت أعضاء مجلس الشيوخ » ، ثم ما لبث أن أصبح معناه « الزعيم » بمعنى الحاكم كما أصبح معنى لفظ imperator بعد أن خلع هذا اللقب على أكتاڤيان هو إمبراطور emperor بالمعنى الذى يفهم من هذا اللفظ فى هذه الأيام . ويسمى التاريخ بحق حكومته وحكومة خلفائه مدى قرنين من الزمان بحكومة « الزعامة » ولا يسميها الحكومة الملكية بالضبط ، وذلك لأن الأباطرة "emperors" كانوا يعترفون — نظرياً على الأقل — بأنهم لم يكونوا إلا زعماء (principes) مجلس الشيوخ . وأراد أكتاڤيان أن يجعل مظهر سلطته الدستورية أروع من ذى قبل ، فنزل فى

عام ٢٧ عن جميع مناصبه ، وأعلن عودة الجمهورية ، وصرح برغبته (وهو فى الخامسة والثلاثين من عمره) باعتزال الحياة العامة . وأكبر الظن أن هذه المسرحية قد أعدت من قبل ؛ فقد كان أكتاڤيان من أولئك الرجال الحذرين الذين يعتقدون أن الأمانة خير أساليب السياسة ، بشرط أن تمارس فى حكمة وحسن تدبير . ومهما تكن حقيقة هذا الأمر فقد قابل مجلس الشيوخ نزول أكتاڤيان عن حقوقه بنزوله هو أيضا عما له من حقوق ، وتوسل إليه أن يظل هادياً للدولة ومصرفاً لأمورها ، ومنحه لقب **أغسطس** وهو اللقب الذى أخطأ المؤرخون فحسبوه اسمه . ولم يكن هذا اللفظ يستعمل من قبل إلا فى وصف الأشياء والأماكن المقدسة وبعض الأرباب المبدعة أو المكثرة (ومعنى أوجير Augere باللاتينية « يزيد ») ؛ فلما أن أطلق على أكتاڤيان خلع عليه هالة من القداسة وحباه بحماية الدين والآلهة .

ويلوح أن سكان رومة قد بدا لهم زمناً ما أن « عودة » الجمهورية كانت عودة حقيقية ، وأنهم استعادوها فعلا فى نظير صفة خلعوها على أكتاڤيان . ولم لا ؟ ألا يزال مجلس الشيوخ والجمعيات هى التى تسن القوانين ، وتختار كبار الحكام ؟ إن أحداً لا ينكر ذلك وكل ما يفعله أغسطس وعماله هو أن « يقترحوا » القوانين و« يرشحوا » أرباب المناصب الهامة . وكان أكتاڤيان بوصف كونه **إمبراطورا** وقنصلا يسيطر على الجيش والخزانة ، وينفذ القوانين ، وكان بفضل امتيازاته التربيونية يشرف على كل ما عدا ذلك من أعمال الحكومة . ولم تكن حقوقه أوسع كثيراً من حقوق پركليز pericles أو پمپى أو أى رئيس نشيط من رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية . ولكن الفرق كله أن سلطاته هو كانت دائمة . وقد استقال فى عام ٢٣ من القنصلية ، ولكن مجلس الشيوخ منحه وقتئذ « سلطات القنصل » وإن لم يبق له اسمه ، فجعله بذلك المسيطر على الموظفين جميعهم فى الولايات كلها .

ولم يعترض أحد على ذلك فى هذه المرة أيضاً ؛ بل حدث عكس هذا

وذلك أنه لما لاح خطر نقص الحبوب حاصر الشعب مجلس الشيوخ ، وأخذ يطالب بجعل أغسطس دكتاتوراً . وكان سبب ذلك أنهم قد ساءت أحوالهم فى عهد ألجركية مجلس الشيوخ إلى حد جعلهم يميلون إلى الدكتاتورية التى ستخطب ودهم فى زعمهم لتقضى بذلك على سلطان الأغنياء . وأبى أغسطس أن يقبل هذا العرض ولكنه وضع الأنونا Annona أو موارد الطعام تحت سلطانه ، وقضى على خطر القحط فى أقرب وقت ؛ وحمد له الشعب عمله هذا حمداً جعل رومة ترتاح أشد الارتياح حين أقدم على تعديل نظم الدولة على النحو الذى رسمه لها فى ذهنه .

الفصل الثانى

النظام الجديد

والآن فلندرس حكومة الزعامة ببعض التفصيل لأنها كانت فى كثير من نواحيها من أعظم الأعمال السياسية فى التاريخ ومن أكثرها دقة .

لقد جمع الزعيم فى يده كل السلطات التشريعية والتنفيذية والقضائية ؛ فكان من حقه أن يقترح القوانين على الجمعيات أو على مجلس الشيوخ ويعرض المراسيم ؛ وكان فى وسعه أن ينفذها وأن يفرضها بالقوة إذا شاء ، وأن ينشرها ويعاقب الخارجين عليها . ويقول سوتونيوس إن أغسطس كان يجلس مجلس القاضى بانتظام وإن مجلسه كان يدوم فى بعض الأحيان حتى يجن الليل « وكان يأمر بوضع محفة فوق المنصة يلجأ إليها إذا أصابته وعكة ... وكان رجلا حى الضمير ليناً فى أحكامه إلى حد كبير » وإذ كان قد ألقيت عليه تبعة مناصب كثيرة فقد شكل له مجلساً غير رسمى من المستشارين أمثال ماسناس ، ومن المنفذين لقراراته أمثال أجربا ، ومن القواد أمثال تيبريوس ، كما أنشأ له هيئة من صغار الكتبة وعمال الإدارة البيروقراطية معظمهم من أرقائه ومعاتيقه .

وكان كيس ماسناس من أثرياء رجال الأعمال ،وكان قد قضى نصف حياته يساعد أغسطس فى الحرب والسلم وفى أعماله السياسية الداخلية والخارجية ، وساعده أخيراً على الرغم منه فى مغامراته النسائية . واشتهر قصره العائم على تل الأكولين بحدائقه الغناء وبزكة استجمامه ذات الماء المسخن . وكان أعداؤه يصفونه بأنه شخص . مخنث أبيقورى لأنه كان يتباهى بلبس الحرير والتحلى بالجواهر ،وأنه يعرف كل مايعرفه المبطان الرومانى . وكان يستمتع بالأدب والفن ويناصرهما بكرم وسخاء ، وقد أعاد إلى فرچيل ضيعته ووهب هوراس ضيعة

أخرى . وكان هو الموحى بكتابى الجورجيين Georgics والأناشيد . وأبى أن يشغل أى منصب من المناصب العامة ، مع أنه كان فى وسعه أن يحصل منها على أى منصب يريده إلا القليل . وقد ظل سنين طوالا يجهد نفسه فى بحث مبادئ السياسة الخارجية ووقائعها ، وبلغ من شجاعته أن كان يعنف أغسطس إذا ظنه قد وقع فى خطأ موبق . ولما مات (فى عام ٨ ق. م) حزن عليه الزعيم وعد موته خسارة لا تعوض .

ولعل أغسطس (وأصله من الطبقة الوسطى ولم يكن يحتقر التجارة كما يحتقرها الأشراف) كان يعمل بمشورته حين رشح كثيرين من رجال الأعمال للمناصب الإدارية الكبرى وإلى حكم الولايات نفسها . ولما تذمر مجلس الشيوخ من هذه البدعة ، استرضاه بأشياء كثيرة : فمنح بعض لجانه سلطات استثنائية ، وجمع حوله مجلساً من الزعماء المستشارين مؤلفا من حوالى عشرين رجلا كلهم تقريباً من الشيوخ ، وأصبح لقرارات هذا المجلس على مدى الأيام ما لقرارات مجلس الشيوخ نفسه من قوة ، وكانت سلطاته واختصاصاته تزداد كلما ضعفت سلطات مجلس الشيوخ ، ونقصت اختصاصاته . لكن مجلس الشيوخ لم يكن إلا أداته العليا على الرغم مما كان يغدق عليه من ضروب العطف والمجاملة .

وقد استخدم حقه بوصفه رقيباً فأعاد النظر فى عضويته أربع مرات ، وكثيراً ما استخدم حقه فى طرد بعض أعضائه منه لعجزهم عن القيام بالأعمال الرسمية أو لسوء سلوكهم الشخصى ، وقد رشح هو نفسه معظم أعضائه الجدد ؛ وكان من دخلوه من الكوسترين والبريتوزين والقناصل بعد انقضاء المدة المحددة لتوليهم مناصبهم ، كانوا كلهم ممن اختارهم هو أو ممن وافق على اختيارهم . وقد حشد فى هذا المجلس أغنى رجال الأعمال فى إيطاليا وانضمت الطبقتان إلى حد ما فى ذلك الائتلاف الذى هيأته لها سيطرتهما المتحدة التى اقترحها شيشرون فى الأيام الخالية . وبذلك وقفت قوة المال فى وجه كبرياء المولد وامتيازاته ، كما وقفت

الأرستقراطيةالوراثية فيوجه مساوئ الثروة وأعمالها التى لا تتحمل لها تبعة .

واقتصرت اجتماعات مجلس الشيوخ بناء على اقتراح أغسطس على اليومين الأول والخامس عشر من كل شهر ، ولم يكن اجتماعه يدوم فى العادة أكثر من يوم واحد . وإذ كان الذين يرأسون اجتماعه هم « زعماء الشيوخ » فإنه لم يكن يستطاع عرض أى اقتراح عليه بغير موافقته ، والحق أن كل اقتراح يعرض عليه كان يعده من قبل هو أو أعوانه . وأصبحت اختصاصات المجلس القضائية والتنفيذية وقتئذ أهم من اختصاصاته التشريعية ، فكان بمثابة محكمة عليا ، وكان يحكم إيطاليا بوساطة لجان ، ويوجه أعمال الأشغال العامة المختلفة . وكان يحكم الولايات التى لا تحتاج إلى إشراف عسكرى كبير ، ولكن الزعيم هو الذى كان يشرف على العلاقات الخارجية . ولما جرد المجلس بهذه الطريقة من سلطاته القديمة أهمل هو نفسه اختصاصاته الضيقة نفسها وصار يتخلى باستمرار عن كثير من التبعات للإمبراطور وموظفيه .

وظلت الجمعيات تعقد جلساتها ، ولكن عدد هذه الجلسات أخذ يقل شيئاً فشيئاً ؛ وظلت تقترع ولكنها لم تكن تقترع إلا على المشروعات أو الترشيحات التى يوافق عليها الزعيم ، وقضى على حق العامة فى تولى عليه المناصب أو كاد يقضى عليه فى عام ١٨ ق . م حين صدر قانون يقصر تولي هذه المناصب على الرجال الذين تبلغ قيمة أملاكهم أربعمائة ألف سسترس (٦٠٫٠٠٠ ريال أمريكى) أو أكثر[٢] . ورشح أغسطس نفسه للقنصلية ثلاث عشرة مرة ، وسعى لنيل أصوات الناخبين كما كان يسعى غيره من المرشحين ؛ ونزل بذلك من عليائه للاشتراك فى المسرحية التى كانت تمثل فصولها على مسرح السياسة الرومانية . وقد عمل على منع الرشا فى الانتخابات بأن طلب إلى كل مرشح أن يودع قبل عملية الانتخاب مبلغاً من المال ضماناً منه بأنه لن يلجأ إلى الرشوة[٣] . بيد أن أغسطس نفسه وزع فى وقت من الأوقات ألف سسترس على كل عضو ناخب

فى قبيلته حتى يضمن بذلك صحة أصوات القبيلة[٤]. وظل القناصل والتربيونون ينتخبون حتى القرن الخامس بعد الميلاد[٥] . غير أن المنصبين أصبحا بعد أن آلت معظم حقوقهما إلى الزعيم منصبين إداريين لا تنفيذيين ، ثم انتهيا إلى أن صارا منصبي شرف لا أكثر .

أما حكم رومة الفعلى فقد وضعه أغسطس فى أيدى موظفين إقليميين يتقاضون مرتبات من الدولة وتساعدهم فى عملهم شرطة مؤلفة من ثلاثة آلاف رجل يرأسها «كبير الشرطة البلدية Praefectus urbi ». وفضلا عن هذا فقد وُضع ست كتائب قوام كل منها ألف جندى بالقرب من رومة ، وثلاث كتائب فى داخلها ليضمن بذلك استتباب النظام من النوع الذى يريده ، ليؤيد بها سلطانه ، وإن كان قد اعتدى بعمله هذا على جميع السوابق أشد الاعتداء . وأصبحت هذه الكتائب فيما بعد هى الحرس البريتورى ، أى حرس البريتوريوم Praetorium أو مقر القائد الأكبر . وهذه الفرق هى التى جعلت كلوديوس إمبراطوراً فى عام ٤١ ب . م ، وهى التى بدأت عملية إخضاع الحكومة للجيش .

ثم امتدت عناية أغسطس الإدارية من رومة إلى إيطاليا وإلى الولايات الخارجية . فمنح حق المواطنية الرومانية أو حق الانتخاب الضيق المعروف « بالحقوق اللاتينية » لجميع العشائر التى اشتركت فى تحمل أعباء الحرب على مصر . ثم أعان المدن الإيطالية بما نفحها به من هبات ، وزينها بالمبانى الجديدة ، وابتكر طريقة تمكن أعضاء مجالسها من إعطاء أصواتهم فى انتخاب الجمعيات فى رومة بطريق البريد . ثم قسم الولايات فئتين : أولاهما ما تحتاج إلى دفاع جدى والثانية ما كانت فى غير حاجة إلى هذا الدفاع . فأما الثانية (وكانت تشمل صقلية ، وبيتكا ، وغالة النربونية . ومقدونية ، وآخية ، وآسية الصغرى ، وبيثينيا ، وبنطس ، وقبرص ، وكريت . وقورينة ، وأفريقية الشمالية ، فقد وضع حكمها فى يد مجلس الشيوخ . أما الثانية — وهى الولايات الإمبراطورية —

فكان يحكمها سفراؤه ، ووكلاؤه أو رؤساء حرسه . وقد أمكنه هذا النظام البديع من أن يحتفظ بسيطرته على الجيش ، الذى كان يقيم معظمه فى الولايات « المعرضة للخطر » . هذا إلى أنه وضع فى يده موارد مصر الغنية وأمكنه من أن يراقب الحكام المعينين من قِبَل مجلس الشيوخ بأعين وكلائه الذين كان يعينهم لجباية الخراج من الولايات جميعها بلا استثناء . وكان كل حاكم يتقاضى فى أيامه مرتباً محدوداً ، وبذلك قلّت رغبته إلى حد ما فى ابتزاز المال من أهل الولاية التى يحكمها . وكان إلى جانب الوالى هيئة من الموظفين المدنيين تساعد على دوام الاتصال فى الأعمال الإدارية وتمنع إلى حد ما رؤساءهم المؤقتين من الإقدام على الأعمال غير المشروعة .

أما أقيال الدول التى كانت خاضعة لنفوذ رومة فكانوا يعاملون معاملة طيبة حكيمة ، وظلوا بسببها موالين لأغسطس كل الولاء ، وقد أقنع الكثيرين منهم بأن يرسلوا إليه أبناءهم ليعيشوا فى قصره ، وليتلقوا فيه تربية رومانية ؛ وأصبح هؤلاء الشبان بفضل هذا التدبير الكريم رهائن لديه حتى يحين وقت تتويجهم ، ثم صاروا بعدئذ على غير علم منهم أداة لصبغ بلادهم بالصبغة الرومانية .

ويبدو أن أغسطس بعد انتصاره فى أكتيوم ، وما بعثه هذا الانتصار فى نفسه من حماسة وزهو ، وبعد أن رأى من حوله جيشاً ضخماً وأسطولاً قوياً ، يبدو أنه أخذ بعد هذا يعد العدة لتوسيع رقعة الإمبراطورية ومد حدودها إلى المحيط الأطلنطى ، والصحراء الكبرى ، ونهر الفرات ، والبحر الأسود ، ونهرى الدانوب والإلب ، وأنه كان يعتزم الاحتفاظ بالسلم الرومانية بسياسة العدوان عند هذه الحدود جميعها لا بسياسة الدفاع السلبى . وقد أتم الإمبراطور بنفسه فتح أسبانيا ، ونظم الإدارة فى بلاد غالة تنظيما يدل على مقدرته ومهارته ، وكان من نتائجه أن ساد السلام ربوع تلك البـلاد نحو قرن كامل . واكتفى فى پارثيا باسترجاع الأعلام ، ومن بقى على قيد الحياة من الأسرى الذين أخذوا من كراسس فى عام ٥٣ ؛ أما فى

أرمينية فقد أعاد إلى عرشها ملكها تجرانيس Tigranes الموالى لرومة . وأرسل بعثات لفتح بلاد العرب ولكنها أخفقت . وأخضع ربيباه تيبيريوس ودروسس فى العشر السنين المحصورة بين ١٩ ، ٩ ق . م بلاد إليريا Illyria وپانونيا Pannonia وريتيا Roetia ؛ ولما غزا الألمان غالة تذرع أغسطس بهذه الحجة فأمر دروسس أن يعبر نهر الرين ؛ ولشد ما اغتبط حين علم أن هذا الشـــاب قد شق طريقه إلى نهر الإلب . غير أن دروسس أصيبت أحشاؤه على أثر سقطة سقطها على الأرض عانى على أثرها المرض ثلاثين يوما . وكان تيبيريوس شديد الحب لأخيه ، فسار على ظهر جواده أربعمائة ميل من غالة إلى ألمانيا ليضمه إلى صدره فى آخر ساعات حياته ؛ ولما تم له ذلك نقل جثته إلى رومة ، وسار وراء الجنازة طول الطريق (٩ ق . م) ثم عاد بعدئذ إلى ألمانيا وحمل على القبائل الضاربة بين الإلب والرين حملتين (٨ — ٧ ق . م ٤ — ٥ ب . م) خضعت على أثرهما لرومة .

وحلت برومة بعدئذ وفى وقت واحد تقريبا كارثتان بدلت حمى الفتح والتوسع سياسة سلام . ذلك أن پانونيا ودلماشيا اللتين فتحتا حديثا ثارتا على رومة ، وقتل أهلهما جميع من كان فيهما من الرومان ، وأعدتا جيشاً مؤلفا من مائتى ألف رجل وهددتا إيطاليا نفسها بالغزو . وأسرع تيبيريوس فعقد الصلح مع القبائل الألمانية ، وسار على رأس قواته القليلة إلى پانونيا ، واستطاع بصبره وخططه العسكرية الفنية أن يستولى على محصولات البلاد أو يتلفها فيحرم العدو من مصادر تموينه ، كما استطاع بحرب العصابات أن يمنعه من إنتاج محصولات جديدة ، وعمل فى الوقت نفسه على أن يوفر المؤن لجنوده . وأصر على العمل بهذه السياسة ثلاث سنين رغم ما وجه إليه من النقد فى بلاده ، حتى نال أخيراً بغيته ، فرأى الثوار الجياع يلقون أسلحتهم ، وبسط هو السلطة الرومانية من جديد على ربوع البلاد . ولكن حدث فى تلك السنة نفسها (٩ ب.م) أن نظم أرمنيوس الثورة فى

ألمانيا ، وأوقع فيالق ڤاروس الوالى الرومانى فى كمين ، وقتل جنودها عن آخرهم إلا من انتحر بإلقاء نفسه على سيفه مثل ڤاروس نفسه . ولما سمع أغسطس بهذا النبأ « تأثر أشد التأثر » كما يقول سوتونيوس . وظل عدة شهور لايحلق لحيته ولا يقص شعر رأسه ، وكان فى بعض الأحيان يضرب الباب برأسه ويصيح بأعلى صوته : « أى كونتليوس ڤاروس أعد إلىَّ فيالقى(٦) ! » وأسرع تيبيريوس إلى ألمانيا : وأعاد فيها تنظيم الجيش ، وصد هجمات الألمان ، ورد حدود الدولة الرومانية ، بناء على أوامر أغسطس ، إلى نهر الرين .

وكان هذا قراراً خسر فيه أغسطس شطراً كبيراً من كبريائه ، ولكنه دل على حكمته وحصافة عقله . وقد اسلمت ألمانيا بمقتضاه إلى « البربرية » أى إلى ثقافة غير رومانية ولا يونانية ؛ وتركت حرة تسلح سكانها المتزايدين لمحاربة رومة . على أن الأسباب التى حملت الرومان على السعى لفتح ألمانيا كان من شأنها أن تتطلب منهم إخضاع سكوذيا — أى جنوبى الروسيا . لكنهم لم يفعلوا لأن الإمبراطورية يجب أن يقف امتدادها فى مكان ما ؛ وكان نهر الرين حداً للدولة خيراً من أى حد آخر غرب جبال أورال . هذا إلى أن أغسطس بعد أن ضم أسپانيا الشمالية والغربية ، وريشيا ، ونوركم ، وپانونيا ، وموزيا ، وجلاتيا ، وليسيا ، وپمفيليا شعر بأنه قد استحق بأعماله لقب « الإله المكثر » . وكانت الإمبراطورية حين وفاته تشمل مساحة قدرها ٣٤٠,٠٠٠ر٣ ميل مربع أى أكثر من مساحة الولايات المتحدة فى القارة الأمريكية ، وكانت تعادل مساحة رومة قبل الحروب البونية مائة مرة . ونصح أغسطس خليفته بأن يقنع بهذه الإمبراطورية وهى أعظم إمبراطورية شهدها التاريخ حتى ذلك الوقت ، وأن يوجه همه إلى توحيدها وتقويتها فى الداخل بدل أن يوسعها فى الخارج ، وأظهر دهشته من أن « الإسكندر لم ير أن تنظيم الإمبراطورية التى أنشأها أصعب من كسبها(٧) » وبهذا بدأت السلم الرومانية Pax Romana .

الفصل الثالث

عهد الرخاء

لا يمكن أن يقال عن أغسطس إنه « فر من الميدان وسمى هذا الفرار سلما » ؛ ذلك أنه لم تكد تمضى عشر سنين بعد معركة اكتيوم حتى انتعشت بلاد البحر الأبيض المتوسط انتعاشاً لم يضارعه فى سرعته انتعاش قبله . وقد كانت عودة النظام فى حد ذاتها باعثاً قوياً على هذا الانتعاش ؛ وكيف يمتنع الرخاء من إجابة هذه الدعوة الإجماعية التى يتقدم بها إليه ما عاد إلى البحار من أمن وسلامة ، وإلى الحكومة من الاستقرار ، مضافاً إلى استمساك أغسطس بالقديم الموروث وتحفظه ، وإلى استهلاك كنوز مصر المدخرة ، واستغلال المناجم الجديدة ، وإنشاء دور سك جديدة ، وإلى ثقة الأهلين بالنقد وسرعة تداوله ، ومعالجة الزحام فى إيطاليا بإقطاع الأهلين أرضاً يفلحونها ، وبنقلهم إلى أراضى المستعمرات ؟ ومن القصص المأثورة فى هذا الصدد أن جماعة من بحارة الإسكندرية نزلوا فى بتيولى ، وكان أغسطس قريباً منها ، فأقبلوا عليه فى ملابسهم الزاهية وأهدوا إليه البخور كما يهدى البخور إلى الآلهة ، وقالوا له إنهم استطاعوا بفضله أن يسيروا فى البحر آمنين ، وأن يتاجروا واثقين ، وأن يعيشوا سالمين(٨) .

ولم يكن أغسطس ، وهو حفيد رجل مصرفى ، يخالجه أدنى شك فى أن خير سياسة اقتصادية هى السياسة التى تجمع بين الحرية والأمان . ومن أجل ذلك وفر الحماية لجميع طبقات الأمة بسن القوانين ، وبالدقة فى تطبيقها ؛ ووضع فى الطرق العامة حراسة قوية ، وأقرض ملاك الأراضى المال من غير فائدة(٩) ؛ وهدأ ثائرة الفقراء بما وزعه عليهم من قمح الدولة ، و « باليانصيب » والهدايا فى بعض الأحيان . أما فيما عدا هذا فقد ترك للمشروعات الخاصة ، والإنتاج ، والتبادل ، حرية أوسع

مما كان لها من قبل ؛ على أن الأعمال التي تديرها الدولة كانت مع هذه الحرية كثيرة متنوعة إلى حد لم تبلغه من قبل ، وكان لها شأن أيما شأن في إنعاش الحياة الاقتصادية ؛ فقد شُيد في خلال هذه المدة اثنان وثمانون هيكلا ، وأنشئت سوق عامة جديدة وباسلقا(*) جديدة لتيسير الأعمال المالية وأعمال المحاكم ، وأقيم بناء جديد لمجلس الشيوخ بدل البناء الذي احترق فيه كلوديوس ؛ وشيدت صفوف الأعمدة لتخفيف حرارة الشمس ، وأكمل الملهى الذي بدأه قيصر وسمّي باسم مرسلس زوج ابنة أغسطس ؛ واستحث الإمبراطور الأثرياء على أن ينفقوا بعض أموالهم في تجميل إيطاليا بالباسلقات ، والهياكل ، ودور الكتب ، والملاهي ، والطرق . ويقول ديوكاسيوس إنه « أمر الذين يحتفلون بالنصر أن ينفقوا مغانمهم في تشييد مباني عامة تخلد ذكرى أعمالهم »[٩١] . وكان أغسطس يرجو من وراء ذلك أن يجعل عظمة رومة سبباً في ازدياد سلطانه ورمزاً لهذا السلطان .

ومن أقواله في آخر أيامه أنه وجد رومة مدينة من الآجر ثم تركها وهي من الرخام[٩١ب] ؛ وتلك مغالاة تغتفر لقائلها ، فقد كان فيها قبل أيامه كثير من الرخام ، وبقي فيها من بعده كثير من الآجر ، ولكن الحقيقة أنه قلما فعل رجل لمدينة ما فعله أغسطس لرومة .

وكان ساعده الأيمن في إعادة بناء رومة ماركس ڤسبانيوس أجربا Marcus Vispanius Agrippa ؛ وكان صديقه هذا قد اشترك مع ماسنياس في تنفيذ سياسة أغسطس . ولما كان أجربا إيديلا عام ٣٣ ق . م ضم الجماهير إلى جانب أكتافيان بأن فتح لهم ١٧٠ حماما ، ووزع عليهم الزيت والملح بلا ثمن ، وأقام لهم ألعاباً عامة دامت خمسة وخمسين يوماً ، وعين حلاقين لجميع المواطنين

(*) الباسلقا Basilica عند الرومان بهو كبير مستطيل الشكل ذو صفين من العمد ، ينتهي بطرف نصف دائري ، كان يستخدم في الأعمال المالية والقضائية . وقد حول كثير من الباسلقات آخر الأمر إلى كنائس (المترجم)

من غير أجور — ولعله أنفق ما تطلبه هذا كله من ماله الخاص . وكانت كفايته خليقة بأن تجعله قيصراً ثانياً ؛ ولكنه فضل أن يخدم أغسطس مدى جيل كامل. ومبلغ علمنا أنه لم يرتكب إثماً يشين حياته العامة أو الخاصة ، فقد تركه المغتابون الرومان ، الذين لم يتركوا أحداً غيره إلا سلقوه بألسنة حداد ، دون أن يمسوه بقالة سوء . وكان هو أول روماني أدرك ما للقوة البحرية من خطر عظيم ، فوضع خطة لإنشاء عمارة بحرية وأنشأها ، وتولى قيادتها ، وهزم بها سكستس بمبي ، وطهر البحر من القراصنة ، وكسب العالم لأغسطس معركة أكتيوم . وعُرض عليه ثلاث مرات أن يقام له موكب نصر بعد هذه الانتصارات الرائعة ، وبعد أن هدأ أسپانيا وغالة والمملكة اليسپورية ، ولكنه رفض فى كل مرة . وقد وهبه زعيمه ثروة طائلة اعترافاً منه بفضله ، ولكنه ظل رغم هذه الثروة يعيش عيشة خالية من البذخ والترف . وبذل جهوده كلها فى إقامة المنشآت العامة كما بذلها من قبل فى حفظ كيان الدولة ، فكان يستأجر بماله الخاص مئات من العمال لإصلاح الطرق ، والمبانى ، والمجارى العامة ، وإعادة فتح قناة مارسيس المغطاة . وأنشأ هو قناة من نوعها جديدة ، هى قناة يوليوس ، وأصلح وسائل مد رومة بالماء باحتفار سبعمائة بئر وإنشاء خمسمائة عين فوّارة ، ومائة وثلاثين خزاناً .

ولما شكا الناس من ارتفاع أثمان النبيذ أجابهم أغسطس بدهائه المعروف : « لقد عمل صهرى أجرپا على ألا تظمأ رومة أبداً »(١٠) .

وأنشأ أجرپا ، وهو أعظم المهندسين الرومان بلا منازع ، مرفأ واسعاً عظيماً ، ومركزاً لبناء السفن بإيصال بحيرتى لكرينس وأفرنيس بالبحر . وهو الذى أنشأ أول الحمامات العامة الرائعة الفخمة ، التى امتازت بها رومة فيما بعد على سائر مدن العالم . وشاد من ماله الخاص هيكلا للفينوس والمريخ أعاد بناءه هدريان وهو المعروف لنا بهيكل الآلهة Pantheon فى هذه الأيام ، ولايزال يظهر عليه حتى الآن هذه العبارة M. AGRIPPA... FECIT . ونظم أعمال مسح أراضى الإمبراطورية

مرة كل ثلاثين عاماً ، وكتب رسالة فى الجغرافية ، ورسم للعالم خريطة ملوّنة على الرخام . وكان مثل ليوناردو داڤنشي عالماً طبيعياً ، ومهندساً ، ومخترعاً للمقذوفات الحربية وفنّاناً . وكان موته المبكر وهو فى سن الخمسين (١٢ ق. م) من الأحزان الكثيرة التى عكرت صفاء سنى أغسطس الأخيرة . وقد زوجه أغسطس بابنته يوليا ، وكان يرجو أن يرث الإمبراطورية من بعده لأنه خير مَن يستطيع أن يحكمها حكماً صالحاً نزيهاً شريفاً .

وكانت المنشآت العامة الكثيرة النفقة ، مضافة إلى الخدمات الواسعة التى تقوم بها الحكومة سبباً فى زيادة المصروفات العامة زيادة لم يكن لها نظير من قبل . ذلك أن المرتبات كانت تؤدى وقتئذ للموظفين فى الولايات وفى المدن ، وللحكام ورجال الشرطة ؛ وكان يقوم على حراسة البلاد جيش قوى دائم وأسطول ضخم ، وكانت المبانى العامة التى لا عداد لها تشاد أو تصلح ، وكان العامة يرشون بالحبوب والألعاب ليظلوا هادئين . وإذ كانت هذه النفقات كلها إنما تؤدى من الإيرادات العادية ، ولم تحمل الأجيال التالية بدين أهلى ما ، فقد أصبحت الضرائب فى أيام أغسطس علماً وصناعة دائمة . ولم يكن أغسطس نفسه بالرجل الصلب الذى لا يلين : فكثيراً ما أعفى الأفراد المأزومين والمدن المأزومة من الضرائب أو أداها من ماله الخاص . وأعاد إلى البلديات خمسة وثلاثين ألف رطل من الذهب قدمت إليه « هدية تتويج » ، حينما اختير قنصلا للمرة الخامسة ، ورفض هبات أخرى كثيرة[١٢] ، وألغى ضريبة الأراضى التى فرضت على إيطاليا فى أثناء الحرب الأهلية ؛ وفرض بدلا منها على جميع سكان الإمبراطورية ضريبة مقدارها خمسة فى المائة على الأموال التى يوصى بها لأى إنسان عدا الأقارب الأدنين والفقراء[١٣] ، كما فرض ضريبة مقدارها واحد فى المائة على المزادات العامة ، وأربعة فى المائة من أثمان الأرقاء ، وخمسة فى المائة عند تحريرهم ، وقرر عوائد جمركية تتراوح بين اثنين ونصف وخمسة فى المائة على جميع البضائع.

الواردة إلى كل الموانى تقريباً . وكان سكان المدن جميعاً يؤدون ضرائب للبلديات ، ولم تكن الأملاك الرومانية الثابتة معفاة من الضريبة كما كانت الأراضى الإيطالية . وكانت الضرائب تؤدى على الماء المستمد من القنوات العامة . وكان دخل الخزانة كبيراً من تأجير الأراضى العامة ، والمناجم ، ومصائد الأسماك ، واحتكار الدولة للملح ، ومن الغرامات التى تفرضها المحاكم . وكانت الولايات تؤدى ضريبة على الأراضى tributum soli ، وضريبة الفرضة Tributum Capitis ، ومعناها الحرفى ضريبة على الرؤوس ، ولكنها كانت فى واقع الأمر ضريبة على الأملاك الشخصية . وكانت الضرائب تجمع فى خزانتين فى رومة كلتاهما فى معبد ، وهما الخزانة الأهلية (Aerarium) التى يشرف عليها مجلس الشيوخ ، والخزانة الإمبراطورية (fiscus) التى كان يملكها ويديرها الإمبراطور(*). وكانت ترد إلى الخزانة الثانية الأموال من أملاك الإمبراطور الخاصة ، ومن الأموال التى يوصى بها الخيّرون والأصدقاء . وبلغ ما تجمَّع من هذه الوصايا فى أيام أغسطس ٠٠٠ر٠٠٠ر٤٠٠ر١ سسترس .

ويمكن القول بوجه عام إن الضرائب فى أيام الزعامة لم تكن فادحة ، وإن ما أنفقت فيه حصيلتها إلى عهد كادوس كان يبرر ما عاناه الناس فى أدائها . وقد عم الرخاء الولايات وأقام الأهلون مذابح لأغسطس الإله شكراً له أو تطلعا إلى ما سوف يأتيهم به من خير . وقد اضطر فى رومة نفسها لأن يعنف الناس على إسرافهم فى مديحه . ومن أمثلة هذا الإسراف أن أحد المتحمسين أخذ يجرى فى شوارع المدينة ويدعو رجالها ونساءها لأن « يهبوا » حياتهم لأغسطس ؛ أى أن يقطعوا على أنفسهم عهداً بأن يقتلوا أنفسهم حين يموت . وحدث فى عام ٢ ب . م . أن اقترح مسالا كرڤينس Messala Corvinus الذى

(*) كانت الفسسى fisci على عهد الجمهورية هى السلال المختومة التى تحمل فيها أموال الخراج من الولايات إلى رومة .

استولى على معسكر أكتافيان فى فلپاى أن يمنح أغسطس لقب «أبى البلاد». ولشد ما اغتبط مجلس الشيوخ بمنح الإمبراطور هـذا اللقب وكثيراً غيره من ألقاب الثناء والتكريم، فقد سره ألا يتحمل إلا القليل من تبعة الحكم، وأن يحتفظ مع ذلك بالثراء ومظاهر الشرف. وكانت طبقة رجال الأعمال التى زادت ثروتها كثيراً عن ذى قبل تحتفل بذكرى مولده احتفالا يدوم يومين كاملين فى كل عام. ويقول سوتونيوس «إن الناس جميعاً على اختلاف أصنافهم وطبقاتهم كانوا يقدمون له الهدايا فى اليوم الأول من شهر يناير» — أي في عيد رأس السنة. ولما أن دمرت النيران قصره القديم تبرعت إليه كل مدينة فى الإمبراطورية بمقدار من المال ليستعين به على إعادة بنائه، ويبدو أن كل قبيلة وكل نقابة فعلت هى الأخرى مثل ما فعلت المدن. وأبى أن يأخذ من أى فرد أكثر من دينار واحد، ومع ذلك فقد حصل على ما يكفى لبناء القصر وزيادة. وقصارى القول أن جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط قد أحست بالسعادة بعد محنتها الطويلة، وكان فى وسع أغسطس أن يعتقد أنه استطاع بصبره وجهده أن ينجز العمل العظيم الذى أخذ على عاتقه أن ينجزه.

الفصل الرابع

إصلاحات أغسطس

لقد أشقى أغسطس نفسه إذ حاول أن يصلح قلوب الناس ويسعدهم معا ، وكان ذلك تطاولا منه لم تغفره له رومة أبداً ، ذلك أن إصلاح الأخلاق أشق أعمال الحكام وأكثرها دقة وخطورة ، وقل من الحكام من جرؤ على محاولته ، وقد تركه أكثرهم للمنافقين أو القديسين .

وبدأ أغسطس هذا الإصلاح بداية متواضعة لوقف تيار الانقلاب العنصرى فى رومة . ذلك أن سكان رومة لم يكونوا يتناقصون كما قد يتبادر إلى الأذهان ، بل كان هؤلاء السكان يزدادون زيادة مطردة بفضل المغريات الكثيرة ، وما كان يوزع عليهم من الأرزاق وما يستورد من الثروة ومن الرقيق . وإذ كان المحررون ينالهم نصيبهم من الأرزاق التى توزعها الدولة ، فقد أعتق كثيرون من المواطنين عبيدهم المرضى أو الطاعنين فى السن لكى تطعمهم الدولة ، وحرر أكثر من هؤلاء لبواعث إنسانية ، كما استطاع كثيرون منهم أن يقتصدوا من المال ما يبتاعون به حريتهم . وإذ كان أبناء المحررين يصبحون مواطنين رومانيين من تلقاء أنفسهم ، فقد تضافر تحرير الأرقاء وتكاثر الغرباء مع قلة تناسل عناصر السكان الأصليين على تبديل الطابع العنصرى لسكان رومة . وكان أغسطس يشك كثيراً فى إمكان استقرار أحوال بلد يسكنه هذا الخليط المختلف العناصر من الأهلين ، ويرتاب فى ولاء هؤلاء السكان إلى الإمبراطورية وهم الذين تجرى فى عروقهم دماء الشعوب المغلوبة على أمرها . لذلك عمل على سن قانون فوفيا كانينيا Lex Fufia Caninia (٢ ب . م) وغيره من القوانين التى تبيح لكل من يملك عبـــداً أو عبدين لا أكثر أن يعتقه أو يعتقهما جميعا ، ولمن يملك — ثلاثة عبيد إلى عشرة أن يعتق نصفهم ،

ومن يملك أحد عشر إلى ثلاثين أن يعتق ثلثهم ، ومن يملك واحداً وثلاثين إلى مائة أن يعتق ربعهم ، ومن يملك مائة عبد وعبد إلى ثلثمائة أن يعتق خمسهم ، والتي لا تبيح لسيد أن يعتق أكثر من مائة من عبيده .

وقد يتمنى الإنسان أن لو حدد أغسطس اقتناء العبيد لا تحريرهم . ولكن القدماء كانوا يرون الرق عملا لا غبار عليه . ويرون الاسترقاق قضية مسلماً بها لا تحتمل جدلا ، ولو أنه طلب إليهم أن يحرروا العبيد جملة لنظروا إلى ما ينجم عن هذا العمل من النتائج الاقتصادية والاجتماعية نظرة الرعب والهلع ، كما يخشى أصحاب الأعمال في وقتنا الحاضر ما عساه أن ينجم عن الضمان الاجتماعي للعمال من تراخ في العمل وقلة في الإنتاج . لقد كان تفكير أغسطس قائماً على المصالح العنصرية ومصالح الطبقات ، ولم يكن في مقدوره أن يرسم في ذهنه صورة لرومة القوية لا يتصف أفرادها بالخلق والشجاعة والمقدرة السياسية التي كان يمتاز بها الرومان الأقدمون بوجه عام والأشراف الأقدمون بوجه خاص . وكان ضعف العقيدة الدينية القديمة بين الطبقات العليا سبباً في القضاء على ما كان للزواج والوفاء والأبوة من حرمة وقداسة ، وكانت هجرة الناس من الأرياف إلى المدن قد جعلت الأطفال عبئاً ثقيلا على آبائهم أو لعباً يتسلون بها على أحسن تقدير ، بعد أن كانوا مصدر ربح لهم . واشتدت رغبة النساء في التجمل واجتذاب الأموال بعد أن كن يرين أن خير زينة لهن هي إنجاب الأبناء . وقصارى القول أن الرغبة في الحرية الفردية بدت في ذلك الوقت مجافية لحاجات العنصر الروماني الأصيل . ومما زاد الطين بلة أن السعي وراء الهبات والوصايا أضحى وقتئذ أكثر الأعمال ربحاً في إيطاليا(١) . فقد كان الرجال الذين لا أبناء لهم إذا بلغوا مرحلة العمر الأخيرة يجدون أحسن الترحيب في بيوت من لهم أبناء ، يستقبلون فيها ويطعمون ، وكان كثير من الرومان يحبون هذه المتعة وهذا النوع من الحياة اللينة ، حتى أصبحت سبباً آخر من أسباب العقم . يضاف إلى هذا أن طول سني الخدمة العسكرية حال بين كثيرين

من الشبان وبين الزواج فى أكثر سنى العمر صلاحية له . وامتنع كثيرون من الرومان الأصليين عن الزواج بتاتا ، وفضلوا الاتصال بالعاهرات أو اتخاذ السرارى والعشيقات حتى على تعدد الزوجات متفرقات . ويلوح أن الكثرة العظمى من المتزوجين عمدت إلى تحديد عدد أفراد أبنائها باللجوء إلى إجهاض الزوجات وقتل الأطفال ومنع الحمل(١٨) .

وأقلقت هذه المظاهر وأمثالها من مستلزمات الحضارة بال أغسطس وأقضّت مضجعه ، وبدأ يشعر أن لابد من العودة إلى العقائد والأخلاق القديمة . وعاد إليه بعد أن صفا ذهنه وأنهك جسمه بفعل السنين احترامه لتراث الآباء والأجداد ، فأخذ يشعر أن ليس من المصلحة فى شيء أن ينفصل الحاضر عن الماضى انفصالا تاما ، بل الواجب أن تعمل الأمة — إذا أرادت لنفسها حياة صحيحة سليمة — على استمرار تقاليدها الماضية ، كما يجب على الفرد أن تكون له ذاكرة . ولذلك أخذ يقرأ بجد أكسبته إياه السنون تواريخ رومة القديمة ويعجب بالفضائل التى يعزوها المؤرخون إلى أهلها ، ويحسدهم عليها . ولشد ما كان يعجب بخطبة كونتس متلس فى الزواج ، فتلاها فى مجلس الشيوخ وأصدر أمراً إمبراطوريا بإذاعتها بين طبقات الشعب . وكان كثيرون من رجال الجيل القديم يتفقون معه فى آرائه فألفوا من بينهم حزباً متزمتاً شديد الرغبة فى تقويم الأخلاق عن طريق التشريع ؛ وأكبر الظن أن ليفيا Livia أمدتهم بنفوذها . واستخدم أغسطس ماله من حقوق بوصفه رقيباً وتربيوناً فأصدر طائفة من القوانين — أو لعله حمل الجمعية على إصدارها — تهدف كلها إلى تقويم الأخلاق ، وتشجيع الزواج ، والوفاء بين الأزواج . والأبوّة الصالحة ، والحياة البسيطة ، والعودة بها إلى السنن القديمة . وحرمت هذه القوانين على المراهقين — والمراهقات — أن يحضروا دور اللهو العامة إلا فى صحبة الكبار من أقاربهم ؛ ومنع النساء من مشاهدة الاستعراضات الرياضية ، وقصر أماكنهن فى المجتلدات على

المقاعد العليا ؛ ثم حدد مقدار ما ينفق من المال فى البيوت ، وعلى الخدم ، والولائم ، والزواج ، والجواهر ، والملابس .

وكان أهم هذه « القوانين البولية »(*) كلها « القانون اليولياني الخاص بالعفة ومنع الزنى « Lex Julia de pudicitia et de coercendis adulterus » (١٨ ق . م) وبهذا القانون وضع الزواج لأول مرة فى التاريخ الرومانى تحت حماية الدولة بعد أن كان متروكا لسلطة الآباء فى أُسرهم Patria Potestas ، واحتفظ الأب بحقه فى قتل ابنته الزانية هى وشريكها ساعة أن يضبطهما متلبسين بهذه الجريمة ، وأُجيز للزوج أن يقتل عشيق زوجته إذا ضبطه فى منزله ، أما زوجته فلم يكن له أن يقتلها إلا إذا ارتكبت الفحشاء فى بيته هو . وكان يطلب إلى الزوج الذى يكشف عن خيانة زوجته أن يأتى بها إلى المحكمة فى خلال ستين يوما من هذا الكشف ؛ فإذا لم يفعل هذ كان يُطلب إلى والد الزوجة أن يقوم هو بهذا العمل ؛ فإذا لم يفعل الوالد نفسه ذلك جاز لأى مواطن أن يتهمها . وكان عقاب المرأه الزانية أن تنفى من البلاد طوال حياتها ، وأن تجرّد من ثلث ثروتها ومن نصف بائنتها ، وأن يحرم عليها الزواج مرة أخرى . وقد قُررت هذه العقوبات نفسها على الزوج الذى يتغاضى عن زوجته الزانية . غير أنه لم يكن من حق الزوجة أن تتهم زوجها بالزنى ، فقد كان له أن يتصل بالعاهرات الرسميات المسجلات دون أن يعاقبه القانون على هذا الاتصال . ولم يكن هذا القانون يطبق إلا على المواطنين الرومان .

وأكبر الظن أن أغسطس سن حوالى ذلك الوقت قانونا آخر يعرف عادة باسم القانون اليولياني الخاص بالزواج بين الطبقات Lex Julia de maritandis ordiniyrbus وذلك لاحتوائه على فصل خاص بالزواج بين الطبقات أى بين الطبقتين العليين . وكان الهدف الذى يرمى إليه هدفاً مزدوجاً ، فقد كان يرمى إلى تشجيع الزواج وإلى تحديده معاً ، وذلك لأنه كان يعطل امتزاج الدم الرومانى

(*) وسميت كذلك نسبة إلى القبيلة التى ينتمى إليها أغسطس بعد أن تبناه قيصر .

بالدم الغريب ، ويعيد إلى الزواج فكرته الأولى فكرة الاتحاد لإنجاب الأبناء .

وكانت السبيل التي سلكها القانون للوصول إلى هذين الهدفين هي فرض الزواج على جميع الصالحين له من الرجال إذا كانوا أقل من سن الستين ، وعلى الصالحات له من النساء إذا كن أقل من الخمسين . وألغيت الوصايا التي كانت تشترط في الموصى له أن يظل عزباً ؛ وفرضت عقوبات على العزاب : فحرموا من الميراث عدا ميراث الأقارب إلا إذا تزوجوا في خلال مائة يوم بعد وفاة المورث ؛ كما منعوا من مشاهدة الحفلات والأعياد العامة .

ولم تكن الأرامل أو المطلقات يرثن إلا إذا تزوجن مرة أخرى في خلال ستة شهور من موت الزوج في الحالة الأولى ومن الطلاق في الحالة الثانية . وحرمت العانس والزوجة العقيم من الميراث إذا بلغت الخمسين من عمرها ، أو كانت أصغر من ذلك وكانت تملك خمسين ألف سسترس (٧٥٠٠٠ ريال أمريكي) . وحرم على الرجال من طبقة أعضاء مجلس الشيوخ أن يتزوجوا من المحرَّرات ، أو الممثلات أو العاهرات ، كما حرم على الممثل والمحرَّر أن يتزوج ابنة من طبقة أعضاء مجلس الشيوخ . وفرضت على النساء اللاتي يمتلكن أكثر من عشرين ألف سسترس أن يؤدين ضريبة سنوية قدرها ١٪ من أموالهن حتى يتزوجن ، ثم تخفض هذه الضريبة بالتدريج كلما رزقن ابناً ، فإذا رزقن الطفل الثالث رفعت الضريبة عنهن ، وإذا كان لأحد القنصلين أبناء أكثر من زميله تقدم عليه . وكان يفضل في تولي المناصب العامة أكبر المتقدمين إليها أسراً متى كان صالحاً لتولي المنصب . وكان من حق الأم ذات الثلاثة الأبناء أن ترتدي جلباباً خاصاً ius trium liberorum وأن تحرر من سيطرة زوجها عليها .

وقد أغضبت هذه القوانين الطبقات جميعها حتى طبقة المتزمتين ، فقد اشتكى هؤلاء من أن « حق الثلاثة الأبناء » قد حرر الأم من سلطان الرجل تحريراً شديد الخطورة . ومن الرجال من أخذوا يبررون عدم الزواج بقولهم إن « المرأة

الحديثة » قد تطرفت فى استقلالها ، وغطرستها ، ونزقها ، وإسرافها . وكانوا يرون أن حرمان العزّاب من مشاهدة المعارض والألعاب العامة عقاب قاس مستحيل التنفيذ ، ولهذا أمر أغسطس بإلغائه فى عام ١٢ ق . م ؛ ثم خففت القوانين اليوليائية مرة أخرى بمقتضى قانون پُپْيَا پِپِّيَا Popia Poppea ، وذلك بتخفيف شروط الميراث على العزّاب ، وبمضاعفة الفترة التى تستطيع الأرامل والمطلقات فى أثنائها أن يرثن قبل أن يتزوجن مرة أخرى ، وبزيادة القدر الذى يستطيع أن يرثه من لا أبناء له . ثم أعفيت أمهات الأبناء الثلاثة من القيود التى وضعها قانون ڤوكونيا lex Voconia على الوصايا للنساء . وخفضت السن المحددة للتقدم للمناصب العامة بنسبة حجم أسرة من يتقدم لهذه المناصب . ولاحظ الناس بعد أن سنت هذه القوانين أن القناصل الذين وضعوا صيغتها وأطلقوا أسماءهم عليها عزّاب لا أبناء لهم . وأضاف النمامون إلى ذلك أن الذى اقترح هذه القوانين على أغسطس — وهو الذى لم يكن له إلا ولد واحد — هو مسناس الذى لم يكن له ولد ، وأنه فى الوقت الذى سنت فيه كان ماسناس يعيش عيشة الترف والخنوثة ، وكان أغسطس يغوى زوجة ماسناس على الفحشاء[١٩].

وليس فى وسعنا أن نحكم على أثر هذه الشرائع التى تعد أهم الشرائع الاجتماعية فى التاريخ القديم ، ولكننا نستطيع أن نقول إنها لم تسن بالعناية والدقة الواجبتين ، وإن من أرادوا خرقها كانوا يجدون فيها كثيراً من الثغرات ؛ فمنهم من تزوجوا إطاعة للقانون ثم ما لبثوا أن طلقوا زوجاتهم ؛ ومنهم من تبنّوا أطفالا ليحصلوا بذلك على المناصب أو الوصـايا ، ثم « حرروهم » — أى طردوهم من ديارهم بعدئذ[٢٠] . وأعلن تاستس بعد قرن من ذلك الوقت أن هذه الشرائع أخفقت فى الغرض الذى كانت ترمى إليه : « فالزواج وإنجاب الأبناء لم يزيدا على ما كانا عليه من قبل ، وذلك لأن مغريات عدم النسل مغريات عظيمة القوة »[٢١] .

ولم ينقطع الفساد الخلُقى وإن أصبح الناس أكثر تأدباً فيه عما كانوا من

تقبل ؛ ونتبين من أقوال أوفد أنه كان فى طريقه إلى أن يصير فناً من الفنون الجميلة ، وموضوعاً يعنى مهرة الخبراء بتعليمه للمبتدئين . والحق أن أغسطس نفسه كان يرتاب فى قوة هذه الشرائع . وكان يتفق مع هوراس فى أن القوانين عبث لا طائل منه إذا لم تتغير القلوب(٢٢) . ولقد كافح كفاح الأبطال ليصل إلى قلوب الناس ؛ فكان يعرض من مقصورته فى ساحة الألعاب أبناء جرمنيكوس الكثيرين ، وكان جرمنيكوس مضرب المثل فى الأبوة ؛ وكان يهب ألف سسترس للآباء ذوى الأسر الكبيرة(٢٣) ؛ وأقام نصباً تذكارياً لامة ولدت خمسة أبناء (وهى لم تفعل ذلك بالطبع لبواعث وطنية)(٢٤)؛ ولشد ما اغتبط حين رأى فلاحاً يأتى راجلا إلى رومة ومن ورائه ثمانية أبناء ، وستة وثلاثون حفيداً ، وتسعه عشر من أبناء أحفاده(٢٥) . ويصوره ديوكاسيوس يخطب فى الناس ويشهر « بانتحار العنصر » الرومانى الأصيل(٢٦) . وكان يلذ له أن يقرأ مقدمة تاريخ ليڤى الأخلاقية ، ولعله هو الموحى بها . وقد أصبحت الآداب فى عصره وبتأثيره آدابا تعليمية عملية الصبغة ، وأقنع بنفسه أو عن طريق ماسيناس ڤرچيل وهوراس بأن يستخدما شعرهما فى الدعاية إلى الإصلاح الخلقى والدينى ، فحاول ڤرچيل فى كتاب الزراعة Georgics أن يعيد الرومان بأغانيه إلى المزارع ، كما حاول فى الإنيادة Aeneid أن يجتذبهم إلى الآلهة القدامى . أما هوراس فبعد أن ذكر أمثلة كثيرة لمسرات العالم حول أغانيه إلى الموضوعات الرواقية . وأقام أغسطس فى عام ١٧ ب . م « الألعاب القرنية ludi saeculares(*) » — التى ظلت قائمة ثلاثة أيام ، وشملت حفلات ، ومباريات ، واستعراضات ؛ وقد أقامها احتفالا بعودة عصر زحل الذهبى ، وكلف هوراس أن يكتب Carmen saeculare لكى يغنيها فى الموكب سبعة وعشرون فتى ومثلهم من الفتيات . وحتى الفن نفسه قد استخدم للإشارة إلى

(*) معنى هذه العبارة الحرفى « الألعاب القرنية » لأنها لم تكن تقام إلا فى فترات متباعدة .

الأخلاق ، فقد مثلت فى نقش أراپاسس Ara pacis البارز الجميل حياة رومة وحكومتها ؛ وشيدت المبانى العامة الفخمة لتمثيل قوة الإمبراطورية وعظمتها ، وأقيمت عشرات الهياكل لتستثير فى قلوب الناس ذلك الإيمان الذى كاد يموت .

واقتنع أغسطس فى آخر الأمر — وهو الرجل المتشكك الواقعى — بأن إصلاح الأخلاق لابد أن ينتظر نهضة دينية . ذلك أن جيل المتشككين أمثال لكريشيوس وكاتلس وقيصر كان قد مضى وانقضى ، وأدرك أبناء هذا الجيل أن خشية الآلهة هى شباب الحكمة ، بل إن أوڤد الساحر نفسه أخذ يكتب بعد قليل من ذلك الوقت على طريقة ڤلتير فيقول : « إن من أسباب الراحة للإنسان أن تكون هناك آلهة ، وأن نعتقد بوجودها expeditesse deos, et un expedit esse putemuse »(٢٧) . وكانت عقول المتحفظين تعزو أسباب الحرب الأهلية وما جرته على الدولة من كوارث إلى إهمال الدين ، وما استتبع هذا الإهمال من غضب آلهة السماء . وأصبح الناس الذين حل بهم عقاب الآلهة فى كل مكان من إيطاليا على استعداد لأن يعودوا إلى مذابح البلاد القديمة ، وأن يسبحوا بحمد الآلهة الذين أبقوا عليهم ليستمتعوا بعودة الدين إلى سالف عهده السعيد . ولما خلف أغسطس لپدس Lepidus الفاتر الإيمان بعد أن ظل صابراً زمناً طويلا يترقب موته — لما خلفه فى منصب الكاهن الأكبر « احتشد الناس من كافة أنحاء إيطاليا لينتخبونى لهذا المنصب حتى بلغ عددهم حداً لم يبلغ مثله فى رومة من قبل »(٢٨) . وتزعم هو حركة إحياء الدين وسار على نهجها ، وكان يرجو أن يكون الناس أكثر قبولا لإصلاحاته السياسية والأخلاقية إذا ما ربطها رباطاً وثيقاً بالآلهة الرومانية . ومن أجل هذا رفع مقام الجماعات الأربع الكهنوتية ، وزاد ثروتها إلى حد لم يكن له مثيل فى الأيام السالفة ، واختار نفسه عضواً فى كل منها ، واضطلع بواجب اختيار أعضائها الجدد ، وكان يحرص كل الحرص على حضور اجتماعاتها ويشترك فى مواكبها الفخمة الرهيبة

ثم حرم ممارثة العبادات والطقوس المصرية والأسيوية فى رومة ، ولكنه استثنى اليهود من ذلك التحريم ، وأطلق الحرية الدينية لسكان الولايات ، وأغدق الهبات على الهياكل ، وجدد الاحتفالات والمواكب والأعياد الدينية القديمة . ولم تكن الألعاب القرنية احتفالات دنيوية كما يظن لأول وهلة ، فقد كانت تقام فى كل يوم من أيامها الثلاثة طقوس وتتلى فيه أناشيد ، أهم ما تشعر به عودة صلات الود الوثيقة بالآلهة . ولما أن تغذت العبادات القديمة بهذه المعونة الملكية العليا سرت فيها حياة جديدة ومست من جديد شغاف قلوب الناس وآمالهم السماوية . ومن أجل هذا ظلت ثلاثة قرون صامدة للفوضى الناشئة من العبادات المتعارضة التى تسربت إلى رومة بعد أيام أغسطس . ولما أن ماتت بعد هذه القرون الثلاثة عادت من فورها إلى الحياة من جديد ، وإن اتخذت لها رموزاً جديدة وتسمت بأسماء جديدة .

وكان أغسطس نفسه من أكبر المنافسين لآلهته ، وكان قيصر قد ضرب له المثل فى هذا التنافس : ذلك أن مجلس الشيوخ اعترف بألوهية قيصر بعد عامين من مقتله ، وما لبثت عبادته أن انتشرت فى سائر أنحاء الإمبراطورية . وكانت بعض المدن الإيطالية منذ عام ٣٦ ق . م قد أفسحت لأكتافيان مكاناً بين معبوداتها ؛ وما وافى عام ٢٧ ق . م حتى أضيف اسمه إلى أسماء الآلهة فى الترانيم الرسمية التى كانت تنشد فى رومة ، وحتى أصبح يوم مولده يوماً مقدساً لا عيداً فحسب ؛ ولما مات أصدر مجلس الشيوخ قراراً أن تعبده رومة من ذلك الوقت وأن تعده من الآلهة الرسمية . وكان ذلك كله يعد عملا طبيعياً لا غبار عليه عند الأقدمين لأنهم لم يدر بخلدهم قط أن ثمة ثغرة تفصل على الدوام بين الآلهة والآدميين ؛ فما أكثر ما كانت الآلهة تتخذ لنفسها أشكالا آدمية ، ولقد كان ما لهرقل ، وليقورغ والإسكندر ، وقيصر ، وأغسطس وأمثالهم من عبقرية مبدعة يبدو للشرق المتدين بنوع خاص إعجازاً خليقاً بالتقديس . ألم يعتقد المصريون أن الفراعنة ، والبطالمة ، بل وأنطونيوس نفسه أرباب يعبدون ؟ ولقد

كان عسيراً عليهم أن يضعوا أغسطس فى منزلة تقل عن هؤلاء . ولم يكن الأقدمون وهم يفعلون هذا من الغفلة والبلاهة بالدرجة التى يرميهم بها من يفعلون فعلهم فى هذه الأيام ؛ فلقد كانوا على علم تام بأن أغسطس بشر ، فإذا ألهوا روحه أو روح غيره فإنهم لم يكونوا يستعملون لفظ إله theos, deus إلا بالمعنى الذى نستعمل نحن فيه لفظ قديس فى هذه الأيام . والحق أن تقديس الموتى وليد التأليه الرومانى ، وأن الصلاة للآدمى المؤله لم تكن تبدو لهم فى ذلك الوقت أكثر سخفاً مما تبدو الصلاة للقديس فى هذه الأيام .

وارتبطت عبادة عبقرية الإمبراطور فى البيوت الإيطالية بعبادة أرباب المنازل وعبقرية أبى الأسرة ، ولم يكن فى هذه العبادة شىء عسير على شعب ظل عدة قرون يؤله الموتى من آبائه ، ويبنى لهم المذابح ، ويسمى مقابر أسلافه هياكل . ولما أن زار أغسطس آسية اليونانية فى عام ٢١ ق . م وجد أن عبادته قد انتشرت فيها انتشاراً سريعاً ؛ وكانت النذور تقدم إليه والخطب ترحب به بوصفه « المنقذ » و « ناقل الأنباء السارة » و « الإله ابن الإله » . وقال بعض الناس أنه هو المسيح الذى طال انتظاره أقبل يحمل السلام والسعادة لبنى الإنسان[٢٩] . وجعلت مجالس الولايات الكبرى عبادته المحور الذى تدور عليه احتفالاتها ، وعينت مجالس الولايات والبلديات طائفة جديدة من الكهنة يدعون بالأغسطيين لخدمة الإله الجديد . وأبدى أغسطس استياءه من هذا كله ، ولكنه قبله آخر الأمر على أنه تمجيد روحى للزعامة ، وتقوية للرابطة بين الدين والدولة ، وعبادة مشتركة موحدة بين عقائد مختلفة مفرقة ، وهكذا رضى حفيد المرابى أن يكون إلهاً .

الفصل الخامس

أغسطس نفسه

ترى أى رجل هذا الذى ورث ملك قيصر فى الثامنة عشرة من عمره ، وكان سيد العالم فى الحادية والثلاثين ، والذى حكم رومة نصف قرن من الزمان ، والذى شاد أعظم إمبراطورية فى التاريخ القديم ؟ لقد كان كثيباً جذاباً معاً ، ولم يكن أحد أسمج منه ، ولكن نصف عالم قد عبده رغم هذه السماجة . وكان ضعيف البنية ، لا يمتاز بالشجاعة النادرة ، ولكنه كان قادراً على أن يهزم جميع أعدائه وينظم شئون الممالك ، وينشئ حكومة أفاءت على الدولة المترامية الأطراف مدى قرنين من الزمان رخاءً منقطع النظير .

وقد استنفد المثالون كثيراً من الرخام والبرنز فى صنع تماثيل وصوّر له يظهره بعضها فى صورة الشاب الجاد المهذب الفخور الوجل ، وبعضها فى صورة الكاهن المنقبض الصدر ، وبعضها قد غطت فيه نصف جسمه شارات الملك ، وبعضها فى ثياب القائد العسكرى — فقد اضطر الفيلسوف على كره منه وبمشقة على نفسه أن يضطلع بواجب القواد . لكن هذه الصور لا تكشف عن الأمراض التى كان يشكو منها — وإن أوحت بها فى بعض الأحيان — وهى الأمراض التى جعلت حربه ضد الفوضى تتأثر فى كل خطوة بكفاحه فى سبيل صحته . ولم يكن بالرجل الوسيم الخلق ، وكان ذا شعر أصفر بلون الرمل ، ورأس مثلث عجيب الشكل ، وحاجبين مقترنين ، وعينين صافيتين نافذتى النظرات ؛ ولكن ملامحه مع ذلك كانت هادئة ساكنة — على حد قول سوتنيوس — وقد بلغ هدوؤه وسكونه حداً جعل أحد الغاليين ، وكان قد جاء ليغتاله ، يبدل نيته ويرتد عنه . وكان ذا جسد حساس يشوهه القوب من آن إلى آن ؛ وقد أضعف داء المفاصل

ساقه اليسرى فكان يعرج قليلا ، وكان يصاب فى بعض الأحيان بنوع من التصلب شبيه بتصلب المفاصل تعجزمعه يده اليمنى عن الحركة . وأصيب هو وعدد كبير من الرومان فى عام ٢٣ ق . م بوباء يشبه التيفوس ، وكان يشكو من وجود حصا فى المثانة ، ولا يستطيع النوم إلا بمشقة ، ويعانى فى كل ربيع تمدداً فى الحجاب الحاجز ، ويصاب بالزكام إذا هبت الريح من الجنوب » . وكان شديد التأثر بالبرد ، ولذلك كان يلبس فى الشتاء صديرية من الصوف يقى بها صدره ، ويلف اللفائف علىفخذيه وساقيه ، ويلبس شعاراً وأربعة إشارات وعباءة ثقيلة » . ولم يكن يجروء على تعريض رأسه للشمس ، وكان يتعبه ركوب الخيل ، فكان يحمل أحياناً فى محفة إلى ميدان القتال[٣٠] . وظهرت عليه آثار الشيخوخة وهو فى سن الخامسة والثلاثين بعد أن عاش فى إحدى الفترات الحاسمة فى تاريخ الإنسانية فأصبح عصبيا ، معتلا ، سريع التعب ، ولم يكن أحد يحكم وقتئذ بأنه سيعيش أربعين سنة أخرى . وجرّب عدداً كبيراً من الأطباء على اختلاف أنواعهم وجزاهم كلهم أحسن جزاء ، وكان منهم أنطونينس موسى الذى عالجه من مرض لم يكن معروفاً على وجه التحقيق (ولعله خرّاج فى الكبد) بالكمادات والحمامات ، وقد كرم موسى هذا بأن أعفى جميع الأطباء من الضرائب[٣١] . ولكنه كان يعالج نفسه بنفسه فى أكثر الأحيان ، فكان يعالج داء المفاصل بالاستحمام بالماء المالح الساخن وبالحمامات الكبريتية ، وكان يقل من الطعام ، ولا يتناول إلا الأطعمة البسيطة الخفيفة كالخبز الخشن ، والجبن ، والسمك ، والفاكهة . وقد بلغ من عنايته بمأكله أن كان « فى بعض الأحيان يتناول طعامه بمفرده قبل المآدب أو بعدها ، ولا يطعم أو يشرب شيئاً فى أثنائها »[٣٣] . وقصارى القول أن روحه هى التى أبقت على جسمه وحملته حمل الصليب شأنه فى هذا شأن القديسين فى العصور الوسطى .

وكان جوهر طباعة حيوية أعصابه ، وقوة عزيمته ، ونفاذ بصيرته ، وسعة

صدره ، وحسن تفكيره ؛ وقد قبل من المناصب عدداً يخطئه الحصر ، واضطلع بتبعات لم يضطلع أحد بأكثر منها إلا قيصر وحده ، وأدى ما تتطلبه هذه المناصب من واجبات بأمانة وذمة ، ولم تمنعه هذه الواجبات من أن يرأس جلسات مجلس الشيوخ بانتظام ، وأن يحضر المؤتمرات والاجتماعات ، وأن يحكم فى مئات من القضايا ، وأن يتحمل على مضض حضور المآدب والحفلات ، وأن يدبر الحملات الحربية فى البلاد النائية ، وأن يصرف أمور الفيالق الحربية والولايات ، وأن يزورها كلها تقريباً ؛ وأن يشرف على كل صغيرة وكبيرة من الأعمال الإدارية فى دولاب الحكومة .

وفوق هذا كله ألقى مئات الخطب ، وأعدها هو وحرص حرصاً يفخر به على أن يجعلها واضحة ، سهلة ، جميلة الأسلوب ، وكان يقرؤها بعد إعدادها ويفضل ذلك على أن يرتجلها حتى لا ينطق بألفاظ يندم عليها بعد النطق بها ، ويحاول سوتونيوس أن يقنعنا بأنه لهذا السبب عينه كان يكتب مقدماً أحاديثه الهامة مع الأفراد ، حتى مع زوجته نفسها ، ويقرأها ثم(٣٣) .

وقد ظل يؤمن بالخرافات كما كان يؤمن بها معظم المتشككين فى عصره بعد أن فقد إيمانه بدينه بزمن طويل . من ذلك أنه كان يحمل جلد عجل البحر ليتقى به شر الصواعق ، وكان يعتقد بالفأل والطيرة ، ويعمل فى بعض الأحيان بما يتراءى له فى منامه من نُذُر ، وكان يأبى أن يبدأ رحلة فى الأيام التى يرى أنها أيام مشئومة(٣٤) .

وقد اشتهر فى الوقت عينه بأنه واقعى فى أحكامه ، عملى فى تفكيره ، وكان ينصح للشبان بأن يبادروا بالانخراط فى سلك الأعمال التى تتطلب منهم همة ونشاطاً حتى تقوّم التجارب وضرورات الحياة ، ما أخذوه عن الكتب من آراء(٣٥) .

وقد احتفظ إلى آخر أيام حياته بعقليته الطيبة البرجوازية وبتحفظه وحذره

واعتداله فى نفقاته . وكانت الحكمة المحببة إليه هى قوله « بادر على مهل » وكان يفوق معظم أمثاله من ذوى السلطان العظيم فى تقبل النصح واحتمال التأنيب بصدر واسع وتواضع عظيم .

وقد زوّده الفيلسوف أثندورس Athendorus عندما همّ بوداعه وهو عائد من عنده إلى أثينة بعد أن عاش معه عدة سنين بنصيحة قال له فيها : « إذا غضبت فلا تقل كلمة أو تفعل شيئاً قبل أن تعدّ لنفسك الحروف الهجائية الأربعة والعشرين » .

وشكر أغسطس للفيلسوف تحذيره وتوسل إليه أن يبقى معه عاماً آخر وقال له : « لا خطر يتهـــدد الخير الذى يعود على الإنسان بفضل السكوت »[٣٦] .

لقد قلنا من قبل إن مما يثير الدهشة أن يتحول قيصر من رجل سياسى صخاب إلى قائد ماهر وحاكم سياسى محنك ؛ ولكن أكثر من هذا إثارة للدهشة تحول أكتافيان القاسى القلب المنطوى على نفسه إلى أغسطس المتواضع الكبير العقل النبيل الطبع . ولقد حدث هذا التحول فى خلال نموه . إن الشاب الذى أجاز لأنطونيوس أن يعلق رأس شيشرون فى السوق العامة ، والذى تنقّل من حزب إلى حزب دون أن يجد من ضميره تأنيباً على هذا التنقل ، والذى أطلق العنانَ لشهواته الجنسية ، والذى طارد أنطونيوس وكليوبطرة إلى منيتهما دون أن تؤثر فيه صداقة أو شهامة — إن هذا الشاب العنيد الذى لا يحب أحداً لم يُسَمّم عقله السلطان والجاه ، بل أصبح فى الأربعين سنة الأخيرة من حياته مضرب المثل فى العدل والاعتدال ، والإخـــلاص والنبل والتسامح ، يضحك من سخرية الشعراء به وهجوهم إياه ، وينصح تيبريوس أن يقنع بمنع أعمال العدوان أو محاكمة المعتدين ، وألا يسعى لتكميم أفواههم ، ولا يصر على أن يعيش غيره من الناس عيشة البساطة التى فرضها هو على نفسه . فكان إذا دعا إلى وليمة ، انسحب منها فى بدايتها لكى يترك لضيوفها الحرية التامة فى الاستمتاع بالطعام والمرح . ولم يكن

مزهواً بنفسه ؛ وكان يستوقف الناخبين ليطلب إليهم أن يعطوه أصواتهم فى الانتخاب ، وينوب عن أصحابه من المحامين فى القضايا . وكان إذا دخل رومة أو خرج منها يفعل ذلك فى السر لأنه يبغض مظاهر الأبهة ، وهو لا يظهر فى نقش أراپاسيز Ara Pacis مميزاً عن غيره من المواطنين بأية علامة من علامات الامتياز ، وكانت استقبالاته الصباحية مباحة لجميع المواطنين ، وكان يستقبلهم كلهم بالبشاشة والترحيب . ولما تردد أحد الناس فى أن يعرض عليه ملتمساً ، لامه مازحاً بقوله إنه يعرض عليه وثيقته «كأنه يقدم فلساً لفيل(٣٧) » .

ولما بلغ سنى الشيخوخة ، وأحفظته الخيبة ، واعتاد عظم السلطة ، بل اعتاد الألوهية ، تبدلت حاله فخرج عن تسامحه ، واضطهد أعداءه من الكتاب ، وصادر التواريخ التى تسرف فى الانتقاد ، وأصم أذنه عن سماع أشعار أوفد التى يقول فيها إنه تاب وأناب ، ويقال إنه أمر فى يوم من الأيام أن تكسر ساقا ثالس Thallus أمين سره لأنه أخذ خمسمائة دينار ليبوح بما يحتويه أحد الخطابات الرسمية ، وإنه أرغم أحد محرريه على الانتحار حين تبين له أنه زنى برومانية متزوجة . وقصارى القول أن الإنسان إذا نظر إلى أخلاقه فى جملتها لم يكن من السهل عليه أن يحبه ؛ وإن من واجبنا أن نتصور ما كان يعانيه من ضعف الجسم وما قاساه فى شيخوخته من أحزان قبل أن تتفتح قلوبنا له كما تتفتح لقيصر المقتول أو لأنطونيوس المغلوب .

الفصل السادس

آخر أيام أغسطس

تكاد مآسي أغسطس وهزائمه كلها أن تكون فى داخل بيته . وأول ما نذكره من هذه المآسى أنه لم يرزق من زوجاته الثلاث — كلاديا وأسكربونيا وليڤيا — إلا طفلة واحدة ! ذلك أن أسكربونيا قد ثأرت لطلاقها منه على غير علم منها بأن ولدت له يوليا Julia . وكان يأمل أن تلد له ليڤيا ولداً ينشئه ويعلمه أساليب الحكم ، ولكن زوجها بأغسطس قد تكشف لسوء حظه عن زواج عقيم ، وإن كانت قد كافأت زوجها الأول بأن أنجبت له ولدين عظيمين هما تيبيريوس ودروسس . وإذا استثنينا هذا العقم فقد كانت هى وأغسطس سعيدين بهذا الزواج ؛ فقد كانت هى ذات جمال وجلال ، وخلق مكين وذكاء عظيم ؛ وكان أغسطس يعيد على مسامعها أنباء أهم ما يعتزم القيام به من الأعمال ، ولم يكن تقديره لمشورتها ينقص عن تقديره لمشورة أرجح أصدقائه عقلا . وسئلت مرة كيف صار لها عليه هذا النفوذ العظيم ، فأجابت بقولها إن سبب ذلك أنى « عفيفة إلى أقصى حدود العفة . . . لا أتدخل مطلقاً فى شئونه ، وأنى كنت أدعى أنى لم أر خليلاته ولم أسمع شيئاً عنهن أو عما كان بينه وبينهن من وقائع غرامية (٣٨) » . وكانت مضرب المثل فى الفضائل القديمة ، ولعلها كانت تسرف فى الإصرار على الدعاية لهذه الفضائل . وكانت تقضى أوقات فراغها فى أعمال البر ؛ فتساعد الآباء ذوى الأسر الكبيرة ، وتهب البائنات للعرائس الفقيرات ، وتنفق على كثير من اليتامى من مالها الخاص . وكان قصرها نفسه أشبه بملجأ للأيتام ؛ ذلك أن أغسطس كان يشرف فى هذا القصر وفى قصر أخته أكتاڤيا على تربية أحفاده ؛ وأبناء إخوته وأخواته ، وبناتهن ، وحتى على أبناء أنطونيوس الستة

الذين بقوا أحياء . وكان يرسل الذكور فى سن مبكرة إلى الحروب ، ويعنى بتعليم البنات الغزل والحياكة ، « ويحرم عليهن أن يفعلن أو يقلن شيئاً خفية ، إن كان مما يصح أن يسجل فى يومية المنزل »(٣٩) .

وأحب أغسطس دروسس ابن ليڤيا ، وتبناه ورباه ، وكان يسره أن يورثه ثروته وملكه ، وكان موت هذا الفتى فى شبابه من أولى مآسى الأمبراطور . أما تيبيريوس فقد كان يحترمه ولكنه لا يحبه ، ذلك بأن تيبيريوس خليفة أغسطس كان صلفاً مفرطاً فى ثقته بنفسه ، ينزع إلى الكآبة والجفاء . ولا شك فى أن جمال ابنته يوليا وخفة روحها قد متعاه بالكثير من أوقات السعادة فى أيام طفولتها . ولما بلغت الرابعة عشرة من عمرها أقنع أكتاڤيا بأن تسمح بطلاق ابنها مارسلس من زوجته ، وأغرى الشاب بأن يتزوج يوليا ؛ ولكن مارسلس توفى بعد سنتين من هذا الزواج ؛ وبعد أن حزنت عليه يوليا حزناً قصير الأجل شرعت تستمتع بحرية طالما تاقت نفسها إليها . غير أن الإمبراطور الشديد الولع بعقد عقود الزواج لم يلبث أن حمل أجرپا على كره منه على أن يطلق زوجته ويقترن بالأرملة المرحة (٢١ ق . م) راجياً أن يثمر هذا الزواج حفيداً له يرثه بعد وفاته . وكانت يوليا وقتئذ فى الثامنة عشرة من عمرها ، أما أجرپا فكان فى الثانية والأربعين ، ولكنه كان رجلا صالحاً عظيما وكان له من الثروة ما يحبب الناس فيه . وقد جعلت يوليا بيته فى المدينة ندوة للمرح والفكاهة ، وأضحت هى روح الشباب المرح فى العاصمة « على نقيض ليڤيا التى كانت تتزعم طائفة المتزمتين . وانطلقت الألسن تتهم يوليا بخيانة زوجها الجديد وتعزو إليها جواباً غير معقول عن سؤال غير معقول كذلك . فقد قيل إنها سئلت لم كان أبناؤها الخمسة الذين ولدتهم لأجرپا مشابهين له فأجابت : « إنى لا أقبل راكباً قط إلا إذا كانت السفينة قد امتلأت Munquam nisi nave plena tollo vectorem »(٤٠) . ولما مات أجرپا عقد أغسطس آماله على ولدى يوليا الأكبرين جيوس ولوسيوس وعمرهما

بحبه ، وعنى بتربيتهما ، وأمر بترقيتهما إلى منصبين كبيرين لا تجيز قوانين البلاد ترقيتهما إليهما فى مثل سنهما . وأضحت يوليا أرملة مرة أخرى ، وكانت أبرع جمالا وأكثر ثراء من ذى قبل ، فاندفعت مستهترة فى كثير من مغامرات العشق أطلقت فيها ألسنة أهل رومة وجعلتها موضع تندرهم ولهوهم ، وخففت عنهم ما كانوا يجدونه من الضيق بسبب « القوانين اليوليوسية » . وأراد أغسطس أن يقطع ألسنة السوء عن الولوغ فى عرضه ولعله أراد أيضاً أن يزيل ما بين زوجته وابنته من شقاق فزوجها مرة ثالثة ؛ فأرغم تيبيريوس ابن ليڤيا على أن يطلق زوجته الحامل ڤبسانيا أجريبنا Vipsania Agrippina ، ابنة أجريا ، وأن يتزوج يوليا التى لم تكن أقل منه كرهاً لهذا الزواج (٩ ق . م) . وبذل هذا الشاب — وكان من الطراز الرومانى القديم — غاية جهده لكى يكون زوجاً صالحاً ، ولكن يوليا لم تلبث أن امتنعت عن بذل أى جهد للتوفيق بين حياتها الأبيقورية وحياته الرواقية ، وعادت إلى مغامرات الحب الخفية . وصبر تيبيروس على هذه الفضائح وكظم غيظه إلى حين ؛ وكان قانون يوليا الخاص بالزانيات Lex Julia de adulteriis يطلب إلى زوج الزانية أن يشكوها إلى المحاكم ؛ ولكن تيبيريوس عصى هذا القانون لكى يرد الأذى عن واضعه ، ولعله أراد بذلك أيضاً أن يرد الأذى عن نفسه ، لأنه هو وليڤيا كانا يأملان أن يتبناه أغسطس ، وأن يوليه زعامة الإمبراطورية من بعده . ولما تبين أن الإمبراطور يؤثر عليه أبناء يوليا من أجريا اعتزل مناصبه الرسمية ، وآوى إلى رودس ، وعاش فيها سبع سنين معيشة الرجل العادى البسيط قضاها فى الوحدة والفلسفة والتنجيم . وخلا الجو ليوليا ، وكان لها من الحرية ما لم تستمتع به قط من قبل فأخذت تتنقل من عشيق إلى عشيق حتى كان قصف عشاقها ومرحهم يملآن السوق العامة صخباً وضجيجاً طوال الليل [٤١] .

وقاسى أغسطس وقتئذ (٢ ق . م) ، وهو شيخ محطم فى الستين من عمره ،

كل ما يقاسيه أب وحاكم يشهد بعينيه انهيار أسرته وشرفه وشرائعه . وكانت هذه القوانين تحتم على أبي الزانية أن يتهمها بالزنى علناً إذا لم يقم زوجها بهذا الاتهام . وقد عرضت عليه أدلة قاطعة على سوء سلوكها ، ولما أعلن أصدقاء تيبريوس أنهم سيتولون هم اتهام يوليا أمام المحاكم إذا لم يتهمها أغسطس ، قرر أن يسبقهم إلى العمل ؛ فأصدر قراراً بنفي ابنته الى جزيرة پندتيريا Pandateria ، وهي صخرة جرداء بالقرب من شاطئ كمپانيا ، في الوقت الذى بلغ فيه مرحها وفسادها ذروتهما ، وأرغم أحد عشاقها وهو ابن من أبناء أنطونيوس أن ينتحر ، ونفى عددا آخر من العشاق خارج البلاد . وقتلت فوبى Phoebe إحدى معتوقات يوليا نفسها شنقاً مفضلة ذلك على الشهادة عليها . ولما سمع الوالد المنكوب بهذا النبأ قال : « وددت لو أني كنت والد فوبى ولا أكون والد يوليا »

وكان ولداها جيوس ولوسيوس قد سبقاها إلى الدار الآخرة بزمن طويل ؛ فأما لوسيوس فقد توفى مرسيليا فى العام الثانى قبل الميلاد على أثر مرض من الأمراض ، وأما جيوس فقد مات من جرح أصيب به فى أرمينية (٤ ب . م) . وألفى أغسطس نفسه فى شيخوخته من غير أنيس ولا وريث ، في الوقت الذى كانت فيه ألمانيا ، وپانونيا ، وغالة تهدد بالانتقاض عليه ، فأضطر على الرغم منه إلى استدعاء تيبريوس (٢ ب.م) ، وتبناه ، وأشركه معه فى الحكم ، وأرسله لإخماد نار الثورة ؛ ولما غاد فى العام التاسع بعد الميلاد بعد حروب طاحنة مظفرة دامت خمس سنين أقرت رومة ، وكانت تحتفل عليه لتزمته ، بأن تيبريوس قد شرع يحكم البلاد بحق وإن كان أغسطس لا يزال زعيمها .

وبعد فإن آخر مآسى الحياة أن تدوم مأساتها على الرغم من صاحبها — أى أن يعيش الإنسان بعد أن يخسر كل شيء ، وأن يحرم حتى من الموت . ولم يكن أغسطس ، إذا نظرنا إلى عدد السنين وحده ، قد بلغ أرذل العمر حين أخرجت يوليا من البلاد ، فقد كان غيره من الرجال وهم فى سن الستين أقوياء

أشداء ؛ أما هو فقد حيي أكثر من حياة ، ومات أكثر من ميتة ، مذ جاء إلى رومة غلاماً فى الثامنة عشرة من عمره ليثأر لمقتل قيصر وينفذ وصيته . وكم من حرب خاض غمارها من ذلك الحين ، وكم من هزيمة أوشكت أن تحيق به ، وما أكثر ما عانى من آلام وأمراض وتعرض لمؤامرات وأخطار ، وما أكثر ما شاهد من مرارة الخيبة ، وانهيار أغراضه النبيلة وتبددها ؛ وقد حدث له كل ذلك فى فترة لا تزيد على أربعين عاماً ، ملئت كلها بالآلام والمنغصات ، ورأى فيها آماله تضيع أملاً بعد أمل ، وأعوانه يختطفون منه واحداً بعد واحد ، حتى اختطف منه آخر الأمر تيبيريوس العنيد الشجاع نفسه ! ولعله كان يرى وقتئذ أنه كان خيراً له وأحكم أن يموت ميتة أنطونيوس فى أوج العظمة وبين ذراعى حبيبته . وما من شك فى أنه كان يتحسر إذا ما عاد بذاكرته إلى تلك الأيام الجميلة ، حين كان قلبه يفيض بالسعادة إذا رأى يوليا وأجربا من حوله ، أو شاهد أحفاده يمرحون ويلعبون فى أرض قصره . وها هو ذا يرى يوليا أخرى ابنة ابنته قد شبت عن الطوق وأخذت تسير سيرة أمها ، كأنها أخذت على نفسها أن توضح للناس جميع ما ورد فى أشعار صديقها أوفد من أفانين العشق . ولما جاءت أغسطس الأدلة القاطعة على أنها زانية نفاها فى عام ٨ ب . م إلى جزيرة فى البحر الأدرياوى ، ونفى أوفد فى الوقت نفسه إلى تومى Tomi على شاطئ البحر الأسود ؛ ويروى أن الإمبراطور اليائس الضعيف قال وقتئذ : « يا ليتنى لم أتزوج قط ، أو ياليتنى مت دون أن يكون لى ولد ! » وقد فكر فى بعض الأحيان أن يميت نفسه جوعاً .

ولاح له أن الصرح العظيم الذى شاده قد انهار من أساسه ، ذلك أن السلطات التى اضطلع بها لكى يحفظ الأمن والسلام فى ربوع البلاد قد أضعفت مجلس الشيوخ والجمعيات التى استمد منها هذه السلطات ، حتى فقدت كل مقومات الحياة . فقد مل الشيوخ التصديق على ما يطلب إليهم التصديق عليه كما ملوا إطراء أغسطس وتملقه ، فلم يعودوا يحضرون الجلسات . وأما الجمعيات فلم تكن يجتمع فيها إلا حفنة من المواطنين ، وأصبح الموظفون الأكفاء ينفرون من المناصب التى

كانت من قبل تستثير مطامع الرجال المبدعين المبتكرين بما تخلعه عليهم من الجاه والسلطان ، وأضحى هؤلاء يرونها من دواعي الغرور الكاذب الكبير الأكلاف . وحتى السلم التى بسط أغسطس لواءها على البلاد ، والأمن الذى وطد دعائمه فى رومة ، قد أضعفا قوى الشعب وأوهنا عزيمته ، فلم يكن أحد يرغب فى الانضمام إلى الجيش ، أو يعترف بأن الحرب شر محتوم ، وأن لابد من خوض غمارها من آن إلى آن ؛ وحل الترف محل البساطة فى العيش ، والعلاقات الجنسية الطليقة محل الأبوة والأمومة ، وأخذ الشعب العظيم يسير مسرعاً بإرادته المضمحلة المنهوكة فى طريق الفناء .

وكان الإمبراطور الشيخ يشهد هذه المآسى ويشعر بها ويدركها حق الإدراك . ولم يكن فى وسع أحد من الناس أن يقول له وقتئذ إن الزعامة العجيبة الحاذقة التى أنشأها ستهب الإمبراطورية الرومانية أطول فترة من الرخاء عرفها البشر فى تاريخهم كله ، وإن السلم الرومانية التى بدأت فى صورة السلم الأغسطسية ستعد فى عصور التاريخ المقبلة أجل الأعمال فى تاريخ الحكم والسياسة رغم ما فيها من العيوب الكثيرة وعلى الرغم من أنه قد جلس على العرش فى أثنائها بضعة ملوك بلهاء . لقد كان أغسطس وقتئذ يعتقد ، كما يعتقد ليوناردو دافنشى ، أنه أخفق فيما كان يبتغيه .

ووافته المنية وهو هادئ ساكن فى نولا Nola ، وكان قد بلغ السادسة والسبعين من عمره (١٤ ب . م) ، وقال لأصدقائه الذين التفوا حوله وهو على فراش الموت تلك الكلمات التى طالما اختتمت بها الملهاة الرومانية : « والآن وقد أتقنت تمثيل دورى ، فصفقوا بأيديكم وأخرجونى من المسرح بتصفيقكم » ، ثم عانق زوجته وقال لها : « تذكرى عشرتنا الطويلة ياليڤيا . الوداع ! » .

ثم فاضت روحه بعد هذا الوداع البسيط[٤٢] . وبعد بضعة أيام من وفاته حملت جثته فى شوارع رومة على أكتاف الشيوخ إلى ميدان المريخ حيث أحرقت بينما كان أطفال كبار الأسر فى البلاد يرتاون ندبة الأموات .

الباب الثانى عشر

العصر الذهبى

٣٠ ق . م – ١٨ م

الفصل الأول

الحافز الأغسطى

إذا كان الأمن والسلام أكثر ملاءمة لإنتاج الآداب والفنون من الحروب والقلاقل ، فإن الحرب والهزات الاجتماعية العنيفة تزيل الثرى من حول نبات الفكر ، وتغذى البذور التى تنضج فى أوقات السلم . والحياة الهادئة لا تخلق الأفكار العظيمة ولا عظماء الرجال ، ولكن الأزمات القاسية والكفاح من أجل البقاء تقتلع موات الأشياء من جذورها وتعجل نماء الآراء والأساليب الجديدة . والسلم التى تعقب النصر فى الحرب فيها من الحوافز والدوافع ما فى دور النقاهة السريع من حيوية وقوة ، والناس فى هذه الفترة يبتهجون لمجرد أنهم أحياء وكثيراً ما يرفعون عقيرتهم بالغناء .

حمد الشعب لأغسطس أنه عالج سرطان الفوضى الذى كان يقوض دعائم حياتهم المدنية وإن كان قد استعان على ذلك بجراحة كبرى . وقد دهشوا حين ألفوا أنفسهم وقد أثروا إثراء سريعاً بعد ما حل بهم من الخراب ، وتاهوا كبرياء حين وجدوا أنهم ، رغم ما كانوا يرزحون تحته منذ قليل من ضعف واضطراب ، لا يزالون سادة العالم المعروف لهم . وأخذوا يعودون بنظرهم إلى تاريخهم ، من بدايته إلى الوقت الذى يعيشون فيه ، من عهد منشئ رومة الأول إلى عهد معيد

حياتها ومجدها ، وقالوا إنه تاريخ عجيب حقا ، وإنه أشبه ما يكون بملحمة شعرية . ولم يثر دهشتهم أن يصوغ فرچيل وهوراس حمدهم ومجدهم وزهوهم شعرا ، وأن يصوغه ليڤى نثراً .

وخير من ذلك كله أن الأقاليم التى فتحوها إلا القليل منها لم يكن يسكنها أقوام همج غير متحضرين ، فقد كان جزء كبير منها يشمل البلاد التى تثقفت بالثقافة اليونانية — فكانت ذات لغة رقيقة ، وأدب سام ، وعلم عظيم ، وفلسفة ناضجة ، وفن نبيل . وأخذت هذه الثروة الروحية وقتئذ تتدفق على رومة ، وتثير فى أهلها الرغبة فى تقليدها ومنافستها ، وتبعث فى لغتها وآدابها الحياة والنماء ، فسرت إلى المفردات اللاتينية ، عشرة آلاف كلمة يونانية ، ودخلت الأسواق الرومانية عشرة آلاف تمثال ونقش وهيكل وشارع وبيت .

وأخـــذت الأموال تنتقل إلى غير الطبقات العليا ، وإلى الشعراء والفنانين ، من أيدى الذين استولوا على كنوز مصر ، ومن ملاك الأراضى الإيطالية الغائبين عنها ، ومن الذين يستغلون موارد الإمبراطورية وتجارتها . وشرع الكتّاب يهدون مؤلفاتهم إلى الأغنياء يرجون بذلك أن ينالوا أعطية تعينهم على مواصلة أعمالهم الأدبية ، فأهدى هوراس أغانيه إلى سالست ، وإيليوس لاميا Aelius Lamia ومانليوس تركواتس Manilius Turquatus وموناتيوس Munatius ، وجمع مسالا كورڤينوس Messala Corvinus حوله طائفة من المؤلفين كان نجمهم اللامع تيبلس Tibullus ، واستعاد ماسناس ثروته وقيمة شعره بما قدمه من العطايا لفرچيل وهوراس وپروپيرتيوس Propertius ؛ وظل أغسطس حتى سنيه الأخيرة التى استولى عليه فيها الاضطرب والغيظ يجزل العطاء للأدباء ، فكان يسره أن تتحول إلى الآداب والفنون تلك القوى التى كانت سبباً فى اضطراب السياسة ، فكان يجزل العطاء للمؤلفين ليؤلفوا الكتب ، إذا ما تركوه يحكم الدولة كما يشاء . وقد ذاعت أنباء سخائه على الشعراء فاجتمعت حوله طائفة كبيرة منهم تسير فى ركابه أينما سار .

وأصرّ شاعر يونانى على أن يتعقبه كلما خرج من قصره كل يوم ، يعرض عليه أبياتاً من الشعر ، فما كان منه فى يوم من الأيام إلا أن وقف وهو خارج من القصر وكتب وهو بعض أبيات من عنده ، وأمر أحد أتباعه أن يضعها فى يد الشاعر اليونانى ، فعرض الشاعر عليه بضعة دنانير وقال إنه يأسف لأنه لا يستطيع أن يقدم له أكثر منها ، فأجازه قيصر على فكاهته لا على شعره بمائة ألف سسترس[1] .

ونُشر من الكتب فى ذلك الوقت ما لم ينشر مثله فى أى عهد من العهود الماضية . أما الشعر فأصبح عمل كل إنسان فيلسوفاً كان أو أبله[2] . وإذ كان المقصود بالشعر كله وبمعظم الكتب أن يقرأ على الناس بصوت عال ، فقد كانت تعقد الاجتماعات من الأصدقاء الذين يدعون لهذا الغرض ، أو من الجماهير ليقرأ عليهم المؤلفون ثمار قرائحهم . وكان يحدث فى أوقات التسامح ، وهى نادرة ، أن يقرأ المؤلفون هذه الثمار بعضهم على بعض . وكان جوڤنال Juvenal يقول إن من الأسباب التى تضطره لسكنى الريف هو أن يفر من الشعراء الذين تزدحم بهم رومة[3] . وكان الكتاب يجتمعون فى محال بيع الكتب التى يزدحم بها حى الأرجليتم Argiletum ليحصوا عدد من أنجبتهم البلاد من عباقرة الأدب ، بينما كان المفلسون من محبى الكتب يقرؤون خلسة نتفاً من الكتب التى يعجزون عن شرائها . وكانت الإعلانات تلصق على الجدران معلنة أسماء الكتب الجديدة وأثمانها . فكان المجلد الصغير يباع بأربعة سسترات أو خمسة ، والمجلد المتوسط يباع بعشرة (نحو ريال أمريكى ونصف ريال) ؛ أما الكتب الأنيقة كحكم مارتيال Martial والتى كانت تزين فى الغالب بصور مؤلفيها فكان الواحد منها يباع بخمسة دنانير أو نحوها (٣ ريالات[4]) . وكانت الكتب تصدر إلى جميع أنحاء الإمبراطورية أو تنشر فى رومة ، وليون ، وأثينة والإسكندرية فى وقت واحد[5] . وقد اغتبط مارتيال

من أن كتابه يشترى ويباع فى بريطانيا . وكان لمعظم الناس فى ذلك الوقت حتى الشعراء أنفسهم مكتبات خاصة . ويصف أوفد مكتبته وصفاً ينم عن تعلقه بها . ويستدل من أقوال مارتيال على أن المولعين باقتناء الكتب قد وجدوا حتى فى ذلك العهد السحيق ، فكانوا يجمعون النسخ الأنيقة الفخمة والمخطوطات النادرة ؛ وقد أنشأ أغسطس دارين من دور الكتب العامة ، وحذا حذوه تيبريوس ، وڤسپازيان ، ودومتيان Domitian ، وتراچان ، وهدريان ، فلم يحل القرن الرابع قبل الميلاد حتى كان فى رومة وحدها ثمان وعشرون من هذه الدور . وكان الأجانب من الطلاب والكتاب يقبلون عليها وعلى المحفوظات العامة للدرس والبحث ؛ فأقبل ديونيشيوس من هليكرنسس Halicarnassus ، وديودوز من صقلية وأخذت رومة تنافس الإسكندرية فى الحياة العلمية ، وأضحت العاصمة الأدبية للعالم الغربى .

وكان هذا الازدهار سبباً فى تحول الأدب والمجتمع كله عما كان عليه من قبل ، فعلت مكانة الآداب والفنون ، وأخذ النحاة يحاضرون عن الأحياء من المؤلفين ، وكان الناس ينشدون مقطوعات من أقوالهم فى الطرقات ، والكتاب يختلطون بكبار الحكام وبنساء الطبقات العالية فى الندوات الخاصة إلى حد لم يشهد التاريخ له نظيراً من بعد إلا فى عصر ازدهار الآداب فى فرنسا . وأضحى الأشراف أنفسهم رجال أدب ، كما أضحى الأدب نفسه أرستقراطياً ، وحل محل فجورلينوس ، وپلوتس ، ولكريشيوس العارم جمال رقيق أو تعقيد بغيض فى التعبير والتفكير . وامتنع الكتاب عن الاختلاط بالجماهير ، فامتنعوا بذلك عن وصف أساليبهم فى الحياة وعن التحدث بلغتهم ؛ فبدأ الأدب ينفصل عن الحياة انفصالا أفقد الآداب اللاتينية ما كان لها من حيوية . وأضحت الآداب تصاغ على الأنماط اليونانية ؛ كما كانت موضوعاتها تؤخذ من التقاليد اليونانية أو من بلاط أغسطس . وكان الشعراء إذا بقى لديهم وقت بعد وصف الرعاة على نحو ما كان يفعل ثيوكريتس ، أو الحب كما كان يفعل أناكريون Anackreon ،

يقضونه فى التغنى بجمال الزرع وبفضائل الآباء ، ومجد رومة وعظمة الآلهة . وسار الأدب فى ركاب الحكم ، وأضحى مواعظ تدعو الأمة إلى الاستمساك بالأفكار الأغسطية .

وكانت فى البلاد قوتان تقاومان تسخير الأدب لخدمة الدولة على النحو السالف الذكر . أولاهما « جموع هوراس البغيضة الدنسة » التى كانت تحب الأدب القديم والمسرحيات القديمة وما فيهما من هجو لاذع وتجريح وتفضلهما على جمال الأدب الجديد المعطر المنمق . أما القوة الثانية فكانت دنيا الأراذل والعاهرات ، دنيا المرح والرذيلة ، التى كانت تنتمى إليها كلوديا ويوليا . وقد ثارت هذه الفئة الغنية ثورة جامحة على القوانين اليوليوسية ، وكانت تعارض كل إصلاح خلقى ، وكان لها شعراؤها ، ومجامعها ومعاييرها الأخلاقية والاجتماعية . وأخذت القوتان المتعارضتان تتطاحنان فى الأدب كما تتطاحنان فى الحياة ، فتلتقيان تارة كما التقتا فى تيبلس ، وپروبرتيوس ، وتقاومان تقى ڤرجيل وعفته ببذاءة أوڤد وجرأته ، وتقضيان على يوليا وابنتها(*) وعلى شاعر بالنفى من البلاد ، وتظلان فى هذا التطاحن حتى تنهك كلتاهما الأخرى العصر الفضى . ولكن ضمائر الأحداث العظيمة ، وما هيأته الثروة والسلم للناس من فراغ أطلق قرائحهم ، وعظمة العالم الذى كان يدين لرومة بالطاعة ، كل هذا قد غلب على ما فى طبيعية الدولة من جمود ، وأنتج عصراً ذهبياً ظل الناس فى مستقبل الأيام يرون أنه أخرج أكمل الأدب طرا فى صورته ولفظه .

(*) يقصد يوليا ابنة أغسطس وابنتها يوليا . (المترجم)

الفصل الثاني

ڤرچيل

ولد ڤرچيل أحب الرومان إلى القلوب فى عام ٧٠ق . م فى ضيعة قرب منتوا Mantua حيث يتعرج نهر منسيو Mincio ويتجه على مهل نحو البو . ولم تنجب العاصمة من بعده إلا عدداً جد قليل من العظماء ، فقد كانوا فى القرن الذى تلا مولد هذا الشاعر والذى ولد المسيح فى منتصفه يجيئون من إيطاليا ، ثم جاءوا فيما بعد ذلك من الولايات . ولعل الدم الكلتى كان يجرى فى عروق ڤرچيل لأن الغاليين سكنوا منتوا قبل مولده بزمن طويل . وكان هو من الوجهة القانونية غالىّ المولد لأن أهل غالة الجنوبية لم يمنحوا حق المواطنية الرومانية على يد قيصر إلا بعد مولده باثنين وعشرين عاماً . ولعل هذا هو الذى جعل هذا الشاعر الذى كان أفصح من تغنى بعظمة رومة ومصيرها لا يذكر فيما بعد شيئاً عما يتصف به الجنس الرومانى من قوة فى الجسم وقدرة على مغالبة الصعاب ، بل يتغنى بما فى خلق الكلت من تصوف ورقة ورشاقة ، وهى صفات قل أن يجـــدها الإنسان فى العنصر الرومانى الأصيل .

وكان والده كاتب محكمة ، فادخر من مرتبه ما يكفى لشراء ضيعة وتربية النحل فيها ، وقضى الشاعر طفولته فى هذه البيئة الهادئة الطنانة ، ولذلك ظلت أشجار الشمال الظليلة ومياهه الغزيرة عالقة بخياله بعد أن شب وترعرع ، ولم يكن يحس بالسعادة الحقة إلا بين تلك الحقول والمجارى المائية . ولما بلغ الثانية عشرة من عمره أرسل إلى المدرسة فى كرمونا Cremona ، ثم أرسل فى الرابعة عشرة إلى ميلان ، وفى السادسة عشرة إلى رومة ، وهنا درس البلاغة وما يتصل بها من الموضوعات على الرجل الذى درسها عليه أكتاڤيان

فيما بعد : والراجح أنه حضر بعدئذ محاضرات سيرو Siro الأبيقورى فى نابلى ، وبذل غاية جهده ليتقبل فلسفة اللذة ، ولكن نشأته الريفية حالت بينه وبين هذا الهدف ، ويلوح أنه عاد إلى موطنه فى الشمال بعد أن أتم دراسته ، وذلك لأننا نجده فى العام الرابع بعد الميلاد يسبح فى الماء لينجو بحياته من جندى اغتصب ضيعة أبيه ؛ فقد صادرها أكتاڤيان وأنطونيوس لأن هذه البلاد انتصرت إلى أعدائهما . وحاول أسنيوس پليو Asinius Pollio العالم وحاكم غالة الإيطالية أن يرد الضيعة إلى مالكها ولكنه عجز ، فعوضه عن ذلك بأن تولى رعاية الشاب ڤرچيل وشجعه على الاستمرار فى كتابة « المختارات Eclogues » وهى القصائد التى كان ينشئها فى ذلك الوقت .

ولم يكد يحل عام ٣٧ حتى كان اسم ڤرچيل على كل لسان فى رومة . ذلك أن المختارات نشرت قبيل ذلك الوقت وتقبلها أهل رومة بقبول حسن ، وكانت إحدى الممثلات قد أنشدت أبياتها على المسرح ، وصفق لها النظارة تصفيقاً ملؤه الحماسة والإعجاب(٦) . وموضوع القصائد هو وصف الرعى والرعاة على نمط قصائد ثيوقريطس Theocritus ، ونجد فيها أحياناً ألفاظها نفسها ؛ وهى جميلة الأسلوب والتوقيع وأنغامها أجمل الأنغام السداسية الأوزان التى استمعت لها رومة فى تاريخها كله ، وهى مليئة بالحنان التأملى ، والحب التخيلى . ذلك أن الشاب وإن قضى شطراً كبيراً من حياته فى العاصمة قد انفصل عنها زمناً يكفى لأن يجعله يمجد حياة الريف ويعدها المثل الأعلى للحياة الحقة . وكان من أثر شعره أن أصبح كل إنسان يسره أن يتخيل نفسه راعيا يسير مع قطعانه على سفوح الأپنين صاعداً أو نازلا ، ويحطم قلبه بالحب وصد الحبيب .

وكان أكثر واقعية من هذه الأشباح الثيوقريطية(*) ما كان فى شعر ڤرچيل

(*) أى الشبيهة بالأشباح التى يصفها فى شعره ثيوقريطس شاعر الرعاة اليونانى الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد . (المترجم)

من وصف للمناظر الريفية . وقد مجد ڤرچيل هذه المناظر أيضاً كما مجد مناظر الرعى واتخذها هى الأخرى مثلا أعلى للحياة ؛ ولكنه هنا لم يكن مقلداً ، فقد استمع من قبل إلى أغانى الحطاب الشهوانية ، وشهد بعينيه النحل القلق يحوم حول الأزهار(٨) ، وعرف يأس الزارع الخلى البال الذى خسر أرضه كما خسر آلاف الناس أراضيهم فى تلك الأيام(٩) . على أن أهم من هذا كله أنه كان شديد الإحساس بما كان يرتجيه ذلك العصر من القضاء على التخرب والحرب . وكانت الكتب السبيلية Sibylline قد تنبأت بأن عصر زحل الذهبى سيعود مرة أخرى بعد العصر الحديدى ؛ ولما أن ولد فى عام ٤٠ ق . م ولد لأسينيوس پليو نصير ڤرچيل أعلن الشاعر فى الكتاب الرابع من المختارات أن مولده سيكون بداية المدينة الفاضلة فقال :

والآن يعود العصر الأخير الذى (يبشر به) نشيد كومية (سبيل) ، وهاهى ذى الأحقاب العظيمة المتعاقبة تولد من جديد وتعود العذراء(*) ، ويعود حكم زحل (Saturn) وينزل من السماء العليا جيل جديد . أى لوسينا الطاهرة العفيفة (ربة المواليد) ! ابتسمى للغلام الذى ولد منذ قليل ، والذى سيزول فى عهده لأول مرة جيل الحديد ، وينشأ فى العالم جيل الذهب . إن إلهك أپلو قد أصبح الآن ملكا على الأرض » .

وتحققت هذه النبوءات بعد عشر سنين من ذلك الوقت ، فتخلص الناس من عدد الحرب الحديدية ، وسيطر على البلاد جيل جديد مسلح بالذهب ومفتون به ؛ ولم تشهد رومة فى السنين القليلة الباقية من حياة ڤرچيل اضطرابات جديدة ، وعمها الرخاء والسعادة ، وحيا الناس أغسطس ولقبوه بالمنقذ وإن لم يلقبوه أپلون . ورحب بلاط الإمبراطور — وإن لم يكن فيه من مظاهر العظمة والأبهة إلا نصف ما فى بلاط الملوك —

(*) هى أسترئيا Astraea أو العدالة ، وهى آخر من غادر الأرض من الآدميين كما ورد فى أسطورة عصر زحل . (المترجم)

بما فى شعر ڤرچيل من تفاؤل ؛ واستقدمه إليه ما سيناس ، وأحبه ، ورأى فيه أداة شعبية ينفذ بها إصلاحات أكتاڤيان . وكان حكمه هذا دليلا على بعد نظره ؛ ذلك أن ڤرچيل — وكان فى الثالثة والثلاثين من عمره — كان يبدو وقتئذ رجلا ريفياً سمحاً ، شديد الحياء إلى حد يجعله يتلعثم إذا تكلم ، يتجنب الظهور فى أى مكان عام يمكن أن يعرفه الناس فيه ويشيروا إليه ، لا يطيق مجتمعات رومة الراقيــة الحديثة المهذارة المتطاولة . وفوق هذا فقد كان ڤرچيل معتل الجسم كأغسطس بل أكثر منه اعتلالا ، يشكو شكوى مستمرة من الصــداع وأمراض الحلق ، واضطرابات المعدة والبصاق الدموى الكثير . ولم يتزوج ڤرچيل قط ، ويلوح أنه لم يكن أكثر إحساساً بالحب العارم الطليق من بطلة إنياس . ويبدو أنه أتى عليه حين من الدهر كان يواسى نفسه فيه بالعطف على غلام من الرقيق ؛ أما فيما عدا هذا فقد كان معروفاً فى ناپلى باسم « العذراء »(١٠) .

وكان ماسناس كريماً فى معاملة الشاعر الشاب ، فأقنع أكتاڤيان بأن يرد له ضيعته ، واقترح على الشاعر أن يكتب عدة قصائد يمجد فيها الحياة الزراعية . وكانت إيطاليا فى ذلك الوقت (٣٧ ق . م) تجزى أشد الجزاء على تحويل كثير من أرضها الزراعية إلى مراع وبساتين ، وكروم ؛ وكان سكستس پمپى يمنع عنها الطعام الذى يرد من صقلية وأفريقية ؛ ونقص القمح ينذرها بانفجار بركان الثورة من جديد . وكانت حياة المدن توهن ما فى شباب إيطاليا من رجولة ، ولاح أن صحــة الأمة من جميع نواحيها تتطلب العودة إلى حياة الزرع . فلما اقترح ماسيناس على ڤرچيل أن يكتب القصائد التى تمجد الزرع أجاب الشاعر الطلب من فوره ، فقد كان عليما بحياة الريف ، وكان أجدر الناس بتصوير ما فيها من جاذبية وجمال معتمداً على ما اختزنه فى ذاكرته من حب لها عظيم ، وإن كان ضعف صحته فى ذلك الوقت يحول بينه وبين احتمال ما فيها من صعاب . وخبأ

الشاعر نفسه ' ناپلى ، وبعد أن ظل يعمل سبع سنين خرج على العالم بأعظم ما أنشأه من القصائد وهى القصيدة المعروفة باسم Georgics وترجمتها الحرفية « العمل فى الأرض » . وسر منها ماسيناس وجاء معه بڤرچيل إلى الجنوب ليقابل أكتاڤيان ، وكان وقتئذ (٢٩ ق . م) عائداً من انتصاره على كليوبطرة . واستراح القائد المضنى ' بلدة أتلا Atella الصغيرة ، وأخذ يستمع أربعة أيام كاملة لألفى بيت ، وهو مأخوذ بجمالها مفتتن بسحرها . هذا إلى أن القصائد تتفق مع سياسته اتفاقاً يفوق كل ما كان يتوقعه ماسيناس. فقد كان يعتزم الآن أن يسرح الجزء الأكبر من جيوشه الجرارة التى ساد بها العالم : وأن يعمل على أن يستقر جنوده المضرسون فى الأرض فيستطيع بذلك أن يهدئ بالهم ، وأن يطعم المدن الإيطالية ، ويحفظ كيان الدولة ، كل ذلك بفلح الأرض فى الريف . وأصبح ڤرچيل من ذلك الوقت حراً فى أن يفكر فى الشعر دون غيره .

فى هذه القصائد نرى فناناً عظيما يعالج أشرف الفنون بأجمعها — فن زراعة الأرض . وفيها يأخذ ڤرچيل عن هزيود Hesiod وأراتس Aratus ، وكاتو ، وڤارو ولكنه يحول نثرهم الخشن أو أبياتهم العرجاء إلى شعر رقيق مصقول ؛ وهو يطرق جميع فروع الفلاحة ويوفيها حقها — فيتحدث عن أنواع التربة ووسائل علاجها ، وفصول الزرع والحصاد ، ويبحث فى غرس أشجار الزيتون والكروم ، وتربية الماشية والخيل والضأن ، والعناية بالنحل . ويستهويه كل عمل من أعمال الزراعة ويثير اهتمامه ويستحوذ على فكره حتى ليحتاج إلى أن يحذر نفسه من الانهماك فى الموضوع الذى يتحدث عنه ونسيان ما بعده ، فيقول :

« ولكن الوقت يمر مراً سريعاً ، وما مر منه لا يمكن أن يعود أبداً ، على حين أننا نحن يسحرنا حب (موضوعنا) فنطيل الوقوف عند كل دقيقة من دقائقه » . ولا ينسى ڤرچيل أن يقول كلمة عن أمراض الحيوانات وطريقة علاجها ، ويصف حيوانات المزرعة المعروفة وصفاً يدل على فهمه

لطبائعها وعطفه عليها ، وهو لا يفرغ أبداً من الإعجاب ببساطة غرائزها وقوة انفعالاتها ، وكمال أشكالها . وهو يمجد الحياة الريفية ويجعلها هي المثل الأعلى للحياة ، ولكنه لا ينسى ما فيها من المشاق ومن تقلبات الحظوظ ، ومن الجهود المضنية ، والكفاح الدائم للحشرات ، وتناوب الجدب والعواصف ، وما تسببه هذه وتلك لأهل الريف من عذاب أليم . ولكن العمل في رأيه *يقهر كل شيء*[١٢] ، كما أن للجهود التي تبذل في أعمال الزراعة غرضاً ونتيجة تكسبانها كرامة ، وليس لأي روماني أن يشعر بالخجل من قيادة المحراث . ومن أقوال ڤرچيل إن الأخلاق الكريمة تنشأ في المزارع ، وإن جميع الفضائل التي قامت على أساسها عظمة رومة قد غرست وغذيت في الريف ، وإن الإنسان قلما يجد عملا من أعمال إلقاء البذور ووقايتها ، والغرس والعزق والحصاد إلا له ما يقابله في تنمية الروح وتقويتها ، وإن الروح إذا كانت في الحقول ، حيث معجزات النماء وتقلبات الجواء تنبئ عن وجود القوى الخفيـــة ، لتحس بوجود الحياة المبدعة الخالقة ، وتتأثر بالإلهام الإلهي ، وتدرك ضآلتها أمام عظمة هذه الحياة ، وتمتلئ إجلالا لها وتعظيما ، أسرع من إحساسها وتأثرها وإدراكها للملك كله وامتلائها به في المدينة . وهنا ينشد أشهر أبياته كلها ، ويبدؤها بترديد صدى معاني لكريشيوس ، ولكنه ينشدها بنغمة ڤرچيلية خالصة فيقول :

« ألا ما أسعد الرجل الذي استطاع أن يتعلم علل الأشياء ، ويطأ بقدمه جميع المخاوف والأقدار القاسية العنيدة وصخب الجحيم الشره . ولكن الرجل الذي يعرف الأرباب الريفية پان ، وسلڤانوس الهرم ، والأخوات الحوريات لا يقل عنه سعادة[١٣] » . وهو يرى أن الزارع على حق حين يسترضي الآلهة بالضحايا ، ويستجلب عطفها ورضاها ؛ لأن هذه الأعمال الدالة على التقى والصلاح تبعث بأعيادها وحفلاتها الضياء في أعمال الفلاحة الشاقة ، وتخلع على الأرض وعلى الحياة معنى ، وشاعرية وخيالا ذا روعة .

وكان دريدن يرى أن هذه القصائد « خير أشعار أحسن الشعراء[١٤] ».
وهى تشترك مع De Rerum Natura فى تلك الميزة النادرة الوجود وهى أنها تلقينية جميلة معاً . ولم تأخذها روما بجد على أنها كتاب فى الزراعة ، ولسنا نعرف أن أحداً ممن قرؤوها قد استبدل المزرعة بالسوق العامة ؛ ولعل ڤرچيل إنما كتب هذه النفحات الريفية كما يظن سنكا ليطرب بها أهل المدن . ومهما يكن من شىء فقد أحس أغسطس أن ڤرچيل أدى الأمانة التى عرضها عليه ماسناس على خير وجه وأكمله ، فاستدعى الشاعر إلى قصره واقترح عليه أن يقوم بواجب أشق من الأول موضوعه أوسع وأعم من الزرع وحياة الريف .

الفصل الثالث

الإنيـــاذة

لقد كانت الفكرة الأولى أن يتغنى ڤرچيل بمعارك أكتافيان(١٥) ، ولكن ما يفترضه القدماء من انحدار قيصر ربيب أكتافيان من الزهرة (فينوس) وإنياس هو الذى جعل الشاعر — أو لعله جعل الإمبراطور — يفكر فى إنشاء ملحمة فى تأسيس رومة . ثم تفتح الموضوع أمام الشاعر ، فشمل الأحداث التى وقعت بعد تأسيس رومة ، والتنبؤ بإنشاء إمبراطورية أغسطس ، وبالسلم التى كانت أثراً من أعماله . وشمل مشروع الملحمة أيضاً وصف أخلاق الرومان فى أثناء هذه الأعمال المجيدة ، والسعى نبث حب الفضائل القديمة فى قلوب الرومان ، وتصوير بطلها فى صورة الإنسان الذى يعظم الآلهة ، ويهتدى بهديها ، ويدعو إلى الإصـــلاحات والمبادئ الأخلاقية التى دعا إليها أغسطس فيما بعد .

فلما رسم ڤرچيل خطوط الملحمة الرئيسية آوى إلى عدة أماكن نائية منعزلة فى إيطاليا ، وقضى العشر السنين التالية (٢٩ — ١٩) فى تأليف الإنياذة . وكان يكتب فيها على مهل مخلصاً فى عمله إخلاص فلوبير Flaubert ، فيملى بضعة أسطر فى صدر النهار ثم يعيد كتابتها فى الأصيل .

وكان أغسطس فى هذه الأثناء ينتظر إتمام الملحمة بفارغ الصـــبر ، وكثيراً ما كان يسأل عما تم منها ، ويلحّ على ڤرچيل بأن يبعث إليه كل ما يفرغ من كتابته . وظل الشاعر يستمهله أطول وقت مستطاع ، ولكنه أخيراً قرأ له الكتب الثانية والرابعة والسادسة منها . ولما سمعت أكتاڤيا أرملة أنطونيوس الفقرة التى تصف ابنها مرسلس الذى مات من عهد قريب ، أغمى عليها(١٦) .

ولم تتم الملحمة ولم تراجع المراجعة الأخيرة ، لأن ڤرچيل سافر إلى بلاد

اليونان فى عام ١٩ ق . م والتقى بأغسطس فى أثينة ، وأصيب بضربة شمس فى مجارا ، فقفل راجعاً إلى بلده ومات بعد أن وصل برنديزيوم بزمن قليل ، وطلب وهو على فراش الموت إلى أصدقائه أن يتلفوا مخطوط الملحمة قائلا إنه كان يحتاج إلى ثلاث سنين على أقل تقدير لصقلها وإعدادها للنشر ، ولكن أغسطس أمرهم ألا ينفذوا هذه الوصية .

أما قصة الإنياذة فيعرفها كل تلميذ . وخلاصتها أنه بينا كانت مدينة طروادة تحترق يظهر شبح هكتور القتيل إلى « إنياذ الصالح » قائد أحلافه الدروانيين ، ويأمره أن يستعيد من اليونان ما كان فى طروادة من « أشياء مقدسة وآلهة منزلية » . وأهمها كلها البلاديوم Palladium أو صورة بلاس أثينى Pallas Athene ؛ وكانوا يعتقدون أن بقاء الطرواديين موقوف على الاحتفاظ بها . وفى ذلك يقول هكتور Hector بطلهم المعروف : « ابحثوا عن هذه » الرموز المقدسة « لأنكم بعد أن تطوفوا بالبحار ستقيمون لكم آخر الأمر مدينة عامرة »[١٧] . ويفر إنياس مع أبيه الشيخ أنكيسيز Anchises وابنه اسكنيوس ، فيركبون سفينة تقف بهم فى أماكن مختلفة ، ولكن أصوات الآلهة تناديهم على الدوام أن يواصلوا السير . وتدفعهم الريح إلى مكان قريب من قرطاجنة حيث يجدون أميرة فينيقية تدعى ديدو Dido تشيد مدينة جديدةً . (وبينا كان ڤرچيل يكتب هذا كان أغسطس ينفذ مشروع قيصر وهو إعادة بناء قرطاجنة) . ويقع إنياس فى حب الأميرة ، وتهب عاصفة مواتية فتتيح لهما الفرصة لأن يلجأ معاً إلى كهف واحد ، ويتم بينهما ما تعده ديدو زواجاً ، ويقبل إنياس تفسيرها هذا إلى حين ، ويشترك هو ورجاله وهم راضون فى بناء المدينة ، ولكن الآلهة القاسية ، التى لا نراها قط فى الأساطير القديمة تعنى كثيراً بالزواج ، تنذره بالسفر وتقول له إن هذه ليست هى البلدة التى يجب عليه أن يتخذها عاصمة له . ويصدع إنياس بما يؤمر ، ويترك الملكة الحزينة وهو يودعها بهذه الألفاظ الشبيهة بالغناء :

« لن أنكر قط أيتها الملكة أنك تستحقين مني ما تعجز الألفاظ عن التعبير عنه ... إني لم أمسك قط مشعل الزوج ولم أقسم يمين الزواج ... ولكن أپلو قد أمرني الآن بركوب البحر ... فامتنعي إذن عن أن تهلكي نفسك وتهلكيني بهذه الشكايات : إني لا أسعى إلى إيطاليا بمحض إرادتي »(١٨).

« لا أسعى إلى إيطاليا بمحض إرادتي » ، هذا هو سر القصة ومحورها الذي تدور عليه ، ونحن الذين نحكم على ڤرچيل وبطله بعد ثمانية قرون من كتابة الأدب العاطفي وقراءته ، نعلق على الحب الروائي ، وعلى العلاقات بين غير الأزواج ، أكثر مما كان يعلقه عليها اليونان والرومان . فقد كان الزواج عند الأقدمين رابطة بين الأسر أكثر مما كان رابطة بين الأجسام والأرواح ، وكانت مطالب الدين أو الوطن أسمى منزلة من حقوق الأفراد ونزواتهم . ويعطف ڤرچيل على ديدو ويسمو إلى ذروة البلاغة في فقرة من أجمل فقرات ملحمته حين يتحدث عنها وهي تلقي بنفسها فوق كومة من الحطب المعد لحرق الموتى وتحرق نفسها حية ؛ ثم يسير في ركاب إنياس إلى إيطاليا .

وينزل القرطاجنيون إلى البر عند كومي ثم يثيرون إلى لاتيوم حيث يستقبلهم ملكها لاتنس ويرحب بهم وكانت ابنته لاڤينيا Lavinia مخطوبة لترنس Turnus وهو شاب وسيم وزعيم الروتوليين المجاورين لهذه المدينة ، ويوقع إنياس الجفوة بينها هي وأبيها وبين خطيبها ؛ ويعلن ترنس الحرب عليه وعلى لاتيوم ، وتنشب معارك حامية الوطيس . وتعتزم سيبيل الكومائية Cumaean Sibyl أن تقوى إنياس وتشجعه ، فتأخذه إلى ترتاروس بطريق بحيرة إيرنس Aernus . وكما أن ڤرچيل قد كتب ملحمة عن تجوال إنياس على نمط أوذيسية هومروس وأخرى قصيرة عن حروبه شبيهة بالإلياذة ، فإنه الآن يستوحي رحلة أوديسيوس في الجحيم ، ويصبح هو نفسه مثلا يحتذيه دانتي ويهتدي بهديه في ملهاته المقدسة . وفي هذا يقول ڤرچيل : « ما أسهل النزول إلى الجحيم Facilis descensus

Averni » ، ولكن بطله يجد الطريق إليها وعراً شديد العذاب ، كما يجد العالم السفلى معقداً شديد الاختلاط . وفى هذا العالم يلتقى بديدو ، فتشيح بوجهها عما يبثه من وجده ؛ ويشهد ضروب العذاب التى يعاقب بها من ارتكبوا الذنوب على وجه الأرض ، والسجن الذى يعذب فيه أنصاف الآلهة(*) المتمردون كما يعذب الشيطان . ثم تأخذه سيبيل إلى أيلك السعداء حيث ينعم الصالحون فى الأودية الخضراء بالنعيم السرمدى . وهنا يشرح له والده أنكيسيز ، الذى توفى فى الطريق ، أسرار الجنة ، والمطهر والجحيم ويصور له فى أوضح صورة وأشملها مجد رومة وأبطالها فى مستقبل الأيام . وتكشف له الزهرة فى رؤيا أخرى عن موقعة أكتيوم وانتصارات أغسطس. وبعد أن تنتعش روح إنياس بهذه المناظر يعود إلى عالم الأحياء ، ويقتل ترنس ، وينشر الموت من حوله ببطشه وشدة بأسه . ويتزوج بلڤينيا الخيالية ثم يموت والدها فيرث عرش لاتيوم ، ولا يلبث أن يخر صريعا فى إحدى المعارك ، وينتقل إلى جنان الفردوس ، ويشيد ابنه أسكانيوس Ascanins ألبالنجا لتكون عاصمة جديدة للقبائل اللاتينية ، ومنها يخرج من نسله رميولرس وريموس ليشيدا مدينة رومة .

ويبدو أن من سوء الأدب أن ينتقد الإنسان نفساً كريمة رفيعة كنفس ڤرجيل لما تغمر به بلدها وإمبراطورها من ثناء وتعظيم ، أو أن ينقب الإنسان عن عيوب فى ملاحم لعله لم يرغب قط فى كتابتها ، ولم يعش ليتمها. ولا حاجة إلى القول بأنه كتبها على نمط الملاحم اليونانية ، وتلك هى السنة التى جرى عليها الأدب الرومانى كله إذا استثنينا منه الهجاء والمقالة . غير أننا نستبيح لأنفسنا هذا القدر من النقد ، وهو أن مناظر المعارك الحربية ليست إلا أصداء ضعيفة لما فى مناوشات الإلياذة من قعقعة وضجيج ، وأن أورورا Aurora

---

(*) أى من كان فى طبائعهم شىء من الألوهية وخاصة أولئك الأبطال الذين تصفهم الأساطير بأنهم تناسلوا من زواج الآلهة بالآدميين . (المترجم)

لتظهر فى الإنياذة بقدر ما تظهر ربة الفجر ذات الأصابع الوردية فى إلياذة هومر : ويستعير الشاعر من نئيفيوس وإنيوس ، ولكريشيوس حوادث وعبارات ، وسطوراً كاملة فى بعض الأحيان ، كما أن أپولونيوس الرودسى Apllonius of Rhodes هو الذى يمده بالمثل الذى يحتذيه فى حب ديدو المفجع ، وهذا الأنموذج هو أرجوتونكا Argonautica . وكانت هذه الاستعارات الأدبية جائزة لا غبار عليها فى عصر ڤرچيل ، كما كانت جائزة فى عصر شيكسپير ، ذلك أنه كان ينظر إلى آداب البحر الأبيض المتوسط كلها على أنها تراث عقول البحر الأبيض المتوسط كلها ، والمعين الذى تستمد منه هذه العقول . ولا جدال فى أن ما تقوم عليه الملحمة من أساطير تتعب القارئ وتبعث فى نفسه الملل ، وذلك لأننا نضع لأنفسنا الآن أساطير أخرى جديدة ؛ ولكن الذى لا شك فيه أيضاً أن هذه الإشارات واللمحات الإلهية التى تتخلل القصيدة كانت مألوفة محبوبة حتى لقراء الشعر الرومانى المتشككين . ولسنا نجد فى ملحمة ڤرچيل العليل ذات الشعر الهادئ السلس ما نجده فى قصة هومر من حوادث دافقة ، كما أننا لا نجد فيها الحقائق التى يسرى فيها دم الحياة والتى تحرك جبابرة الإلياذة ، أو أهل إثكا Ithaca السذج ؛ يضاف إلى هذا أن قصة ڤرچيل كثيراً ما تمشى الهوينا ، وأن أشخاصه كلهم تقريباً مرضى إلا الذين يهجرهم إنياس أو يقضى عليهم. وديدو الإنياذة امرأة حية لطيفة ، خادعة ، شديدة الانفعال ، وترنس محارب ساذج شريف يغدر به لاتنس ، وتحكم عليه الآلهة السخيفة بموت هو غير جدير به . وبعد أن يقرأ الإنسان عشر مقطوعات كلها نواح وندب ، تشمئز نفسه من « تقى » إنياس الذى يتركه مساوب الإرداة . يُغتفر له عذره ، ولا يواتيه النجاح إلا بتدخل القوى السماوية ، وفوق هذا كله فإننا لا نستمتع بالخطب الطويلة التى يقتل بها الشاعر الصالحين من الرجال ، والتى تكون بلاغتها سبباً آخر من أسباب مللنا ، يضاف

إلى هذا ما نجده فيها من تمحيص هو محك الإنسانية النهائى لمعرفة الحقيقة .

وإذا شئنا أن نفهم الإنياذة على حقيقتها ونقدرها التقدير الذى هى جديرة به كان علينا أن نتذكر فى كل قسم من أقسامها أن ڤرچيل لم يكن يكتب رواية خيالية ، بل كان يكتب لرومة كتاباً مقدساً ، وليس ذلك لأنه يقدم لها شريعة دينية واضحة ، فإن الآلهة الذين يسيرون الحوادث فى تمثيليته من وراء الستار لا يقلون خبثاً عن آلهة هومر ، وإن لم يكونوا قريبين من البشر الفكهين قرب هؤلاء ؛ بل إنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن كل ما فى القصة من شر وشقاء ليس منشؤه من فيها من رجال ونساء بل منشؤه الآلهة أنفسهم . وأكبر الظن أن ڤرچيل لم يكن يرى فى أولئك الأرباب إلا أنهم أدوات لشعره ، ورموز للظروف الظالمة المستبدة ، والحادثات المفاجئة التى تخل بسير العالم المنتظم ؛ الرتيب وهو على العموم يتذبذب بين جوف رب الأرباب وبين القدر اللاشخصى ، فهذا يسيطر على الكائنات تارة وذلك يسيطر عليها تارة أخرى . وآلهه القرية والحقل أحب إليه من آلهة أولمپس ، فهو لا يترك فرصة تتاح له إلا مجد الأولى ووصف طقوسها ومراسمها ، وتمنى لو استطاع الناس أن يعودوا إلى ما كانوا عليه من حب الآباء ، والوطن ، والآلهة ، وهو الحب الذى كانت تغذيه العقيدة الريفية البدائية : « أسفى على تقوى الأقدمين وإيمانهم ! » غير أنه لا يؤمن بالفكرة القديمة عن الجحيم حيث يحشر الموتى جميعاً الصالح منهم والطالح بل تخالجه أفكار أرفية(*) فيثاغورية عن تجسد الأرواح بعد الموت ، وعن الحياة فى الدار الآخرة ، وهو يوضح إلى أقصى حد يستطيعه فكرة الثواب فى الجنة والمطر ، والعقاب فى الجحيم .

لكن الدين الحقيقى فى الإنياذة هو دين الوطنية ، وإلهها الأعم هو رومة

(*) نسبة إلى أرفيوس وهو الشاعر الذى يقال عنه إنه كان يحرك الجماد بصوت مزماره .
(المترجم)

لمصير رومة هو المحرك لحبكة القصة ، وكل ما فى القصة من محن وشدائد إنما يرجع إلى « الواجب المضنى واجب بعث الشعب الرومانى tantae molis erat Romanam Condere gentem » . والشاعر فخور بالإمبراطورية فخراً يمنعه أن يحسد اليونان على تفوقهم فى الثقافة ويقول فى ذلك : فلتحول الشعوب الأخرى الرخام والبرنز إلى شخوص حية ولترسم مسارات النجوم .

« أما أنت يا ابن رومة ، فواجبك أن تحكم العالم ، وستكون فنونك أن تعلم الناس طرائق السلم ، وأن تشفق على الذليل ، وتذل الفخور[٢٠] » . وفرچيل لا يأسف على موت الجمهورية ، وهو يدرك أن حرب الطبقات هى التى قضت عليها ولم يقض عليها قيصر ؛ وهو فى كل جزء من أجزاء قصيدته يبشر بأن حكم أغسطس سيعيدها سيرتها الأولى ، ويرحب به ويصفه بأن حكم زحل قد عاد إلى الأرض ، ويعده بأنه سيجزى على عمله بأن يحشر فى زمرة الأرباب . وقصارى القول أن أحداً من الناس لم يوف بما ألقى على كاهله من واجب أدبى بأكمل مما وفى به فرچيل .

يبقى بعد ذلك أن نسأل لم نحتفظ بحبنا الشديد لهذه الدعاوة للتقى وصالح الأخلاق ، وحب الوطن ، والنعرة الإمبراطورية ؟ إن من أسباب هذا الحب ما نجده فى كل صفحة من رقة روح الشاعر وظرفه ، وأننا نشعر بأن عطفه قد امتد من إيطاليا بلاده الجميلة إلى جميع بنى الإنسان ، بل إلى جميع الكائنات الحية ؛ فهو يدرك آلام الطبقات العليا والدنيا ، ويعرف أهوال الحرب وما يصحبها من فحش ورذيلة ، ولا ينسى أن أنبل الناس أقصرهم آجالا ، وأن ما فى الحياة من أحزان وآلام ، وما فى « الأشياء من دموع lacrimae rurum » تذهب ببهجة الأيام تارة وتزيدها تارة أخرى . وهو حين يكتب عن « العندليب الذى يبكى فى ظلال شجرة الحور فقد صغاره التى أبصرها الحراث فانتزعها من قبل أن يكسوها الريش ، فيقضى الليل كله ينتحب ، ثم يجثم على فنن ويعيد أغنيته الحزينة ،

ويملأ الغابة بها وبعويله »[٢١] . نقول إنه حين يفصل هذا لا يقلد لكريشيوس فحسب . وإن الذى يجذبنا نحو ڤرچيل مراراً وتكراراً هو ما فى حديثه من جمال لا ينقطع أبداً . ولم يكن عبثاً منه أن ينكب على كل سطر من سطوره « فيلعقه بلسانه ليسويه ويصقله ، كما تلعق الدبة ديسمها »[٢٢] . ولن يستطيع أحد غير القارئ الذى حاول الكتابة أن يتصور ما عاناه الشاعر من التعب حتى أكسب قصته ما فيها من نعومة وسلاسة ، وزينها بكثير من الفقرات ذات الأنغام القوية الرنانة التى تطالعنا فى كل صفحتين من الكتاب ، وتغرى القلم باقتباسها واللسان بالنطق بها . ولعل القصيدة مفرطة فى جمالها المتناسق المتماثل ، لأن جمال اللفظ نفسه يمل إذا أفرطت فصاحته فى الطول . وفى ڤرچيل سحر نسائى ولكنا لا نطالع فيه قط ما نجده فى شعر لكريشيوس من رجولة وقوة التفكير ، كما لا نجد فيه تلك الأمواج الصاخبة التى نراها ذلك « البحر المتلاطم العجاج » المسمى هومر . ونحن نبدأ نفهم ما يعزى إلى ڤرچيل من حزن واكتئاب ، حين نتصوره يدعو إلى عقائد لم يكن فى وسعه قط أن يستعيدها فى نفسه ، ويقضى عشر سنين فى كتابة ملحمة تتطلب كل حادثة من حوادثها ، ويتطلب كل سطر من سطورها ، ما يحتاج إليه الفن المصطنع من جهود ، ثم يموت والأفكار تساوره بأنه عجز عن تحقيق غرضه ، وأن خياله لم ينره وميض من الإبداع والابتكار ، وأنه لم يبعث فى أشخاصه نسمة الحياة . ولكن أحـــداً لا يجادل فى أن الشاعر قد انتصر نصراً موئزراً على أداته إن لم يكن قد نال هذا النصر نفسه على موضوعه . وقلما بلغت الصناعة ذلك الحد الأعلى من الإعجاز الذى بلغته فى شعر ڤرچيل .

وبعد عامين من وفاته أخرج منفذو وصيته قصيدته إلى العالم ، وقام بعضهم يعيبها ويسفهها : فنشر أحد النقاد ثبتاً طويلا بعيوبها ، ونشر غيره ثبتاً آخر بما فيها من سرقات ، وأصدر ثالث ثمانية مجلدات محتوية على ما بين شعر ڤرچيل والشعر القديم من شبه[٢٣] . ولكن رومة سرعان ما نسيت هذه الشيوعية

الأدبية ، فوضع هوراس ڤرچيل فى مستوى هومر ، ونشأت مدارس أدبية بدأت بها قرون تسعة عشر ، ظل الناس فيها يحفظون الإنياذة عن ظهر قلب ، وظل الناس جميعهم خاصتهم وعامتهم يهتفون باسمه ، والصناع ، والتجار ، يقتبسون من شعره ، وشواهد القبور والجدران تنقش عليها عباراته ؛ ومتنبئو الهياكل يجيبون السائلين بعبارات غامضة يقتطعونها من أبيات ملحمته ؛ وبدأت من ذلك الوقت تلك العادة التى لم تنقطع إلى عصر النهضة ، عادة فتح ملحمة ڤرچيل فتحاً عشوائياً للبحث عن نصيحة أو نبوءة فى أول فقرة تقع عليها عين الفاتح . وانتشر صيته حتى كان يعد فى العصور الوسطى من السحرة والقديسين . كيف لا وهو الذى تنبأ فى النشيد الرابع بمجيء المنقذ ، ووصف رومة فى الإنياذة بالمدينة المقدسة التى ستخرج منها قوة الدين وتنتشل العالم مما يتخبط فيه ؟ ألم يصور فى الكتاب السادس الرهيب يوم الحشر وعــذاب المذنبين ، وتطهيرهم فى نار المطهر ، ونعيم الصالحين فى الجنــة ؟ لقد كان ڤرچيل أيضاً كما كان أفلاطون ذا روح مسيحية طبيعية رغم آلهته الوثنية ، وكان دانتى يعجب بعذوبة شعره ، ولم يكن يسترشد به فى وصف الجحيم والمطهر فحسب ، بل كان يسترشد به أيضاً فى تدفق فنه القصصى وجمال حديثه ؛ وكان ملتن يفكر فيه وهو يكتب الفردوس المفقود وخطب الشياطين والآدميين الطنانة والرنانة ؛ وكان فلتير — وهو الذى كنا نتوقع أن يكون أقسى مما كان فى الحكم على ڤرچيل — يصف الإنياذة بأنها أجمل ما خلفه لنا الأقدمون من تراث أدبى (٧٤) .

الفصل الرابع

هوراس

إن من أجمل الصور التي يشاهدها الإنسان في عالم الأدب — والتي تبدو فيها الغيرة بين الناس شديدة لاتفوقها إلا غيرة العشاق — هي صورة ڤرچيل وهو يقدم هوراس إلى ماسيناس . فقد التقى الشاعران في عام ٤٠ ق . م ، حين كان ڤرچيل في الثلاثين من عمره وهوراس في الخامسة والعشرين ، وفتح له ڤرچيل أبواب ماسيناس بعد عام من ذلك الوقت وبقي الثلاثة بعدئذ أصدقاء أوفياء حتى فارقوا هذا العالم .

واحتفلت إيطاليا في عام ١٩٣٥ بمرور ألفي عام على مولد كونتس هوراشيوس فلاكس Quintus Horatius Flaccus ، وكان مولده في بلدة ڤنوزيا Venusia الصغيرة من أعمال أپوليا Apulia ، وكان والده رقيقاً معتوقاً ارتفعت منزلته حتى أصبح جابياً — أو صياداً كما يقول بعض الناس[٢٣] . ومعنى كلمة فلاكس ذو الأذن المدلاة ، وأكبر الظن أن هوراشيوس هو اسم السيد الذي كان الوالد في خدمته . وأثرى العبد المعتوق بطريقة ما ، وأرسل ابنه إلى رومة ليدرس البلاغة ثم أرسله إلى أثينة ليدرس فيها الفلسفة . وفي هذه المدينة انضم الشاب إلى جيش بروتس وتولى قيادة أحد الفيالق ، وقال وقتئذ قالته المأثورة « إن من ألذ الأشياء وأشرفها أن يموت الإنسان في سبيل بـــلاده dulce et decorum »[٢٦] pro patria mori » . ولكن هوراس — وكان يقلد أركلوكس Archilochus في أغلب الأحيان — ألقى بدرعه في إبان المعركة وولى الأدبار . ولما وضعت الحرب أوزارها ألفى نفسه وقد جرد من جميع أملاكه ومن كل ما ورثه

عن أبيه ، « ودفعتنى المسغبة إلى قرض الشـــعر »[٢٧] ، ولكن الحقيقة أنه كان يكسب قوته من منصب كاتب كوستر .

وكان قصيراً بديناً ، مزهواً حيياً ، لايحب السوقة ولكنه لايجد من الثياب أو المال ما يعينه على الاختلاط بالأوساط التى نالت من التعليم ما ناله هو. وكان يخشى عواقب الزواج فاكتفى على حد قوله بالسرارى والعشيقات ؛ وهو قول قد يكون حقاً ، وقد لايكون إلا نوعاً من الترخص الشعرى اخترعه للدلالة على نضوجه . وقد كتب عن العاهرات كتابة جمعت بين حذر العلماء وتعقيد الشعراء ، وأظن أنه جدير بأعظم الثناء لأنه لم يُغوِ النساء المتزوجات[٢٨] . وإذ كان أفقر من أن يقضى على نفسه بالانهماك فى الشهوات الجنسية فقد عمد إلى قراءة الكتب وكتابة الأغانى باللغتين اليونانية واللاتينية ، وبأصعب أوزان الشعر اليونانى وأكثرها اختلاطاً . وأطلع ڤرچيل على إحدى هذه القصـــائد وامتدحها لماسيناس . وسر الأبيقورى الرحيم من حياء هوراس وتلجلجه فى الحديث ، ووجد فى سفسطته الفكرية ما يدعوه إلى حبه . وفى عام ٣٧ اصطحب ماسيناس ڤرچيل وهوراس وغيرهما من الصحاب فى سفرة قصيرة مخترقين إيطاليا فى قارب قنوى تارة ، وعربة ومحمل تارة أخرى ؛ ثم سيراً على الأقدام فى بعض الأوقات . وبعد قليل من ذلك الوقت قدم ماسيناس الشاعر لأكتاڤيان ، واقترح عليه أن يعينه أمين سره . فاعتذر الشاعر قائلا إنه لا يجد من نفسه ميلا إلى العمل . وفى عام ٣٤ أهدى إليه ماسيناس بيتاً وضيعة تدر عليه بعض المال فى الوادى السابينى بيستيكا Ustica على بعد خمسة وأربعين ميلا من رومة . وبذلك أصبح فى استطاعة هوراس أن يعيش فى المدينة أو فى الريف كما يشاء ، وأن يكتب كما يأمل المؤلفون

أن يكتبوا — فى الوقت الذى تحلو لهم فيه الكتابة ، وبالعناية والجهد اللذين يحلو لهم أن يبذلوهما فى كتابتهم(*) .

وأقام بعض الوقت فى رومة يمتع نفسه بحياة من يتسلى بمشاهدة العالم المسرع المندفع . وكان يختلط بجميع طبقات الناس ، ويدرس جميع الأصناف التى تتكون منها رومة ، ويفكر فى حماقات العاصمة ورذائلها وهو مسرور سرور الطبيب إذا كشف علة المريض . وقد وصف بعض تلك الأصناف فى كتابين من كتب هجوه (٣٤ ، ٣٠ ق . م) ، حذا فيهما أولا حذو لوسليوس Lucilius ، ثم خفف فيما بعد من حدته وأصبح أكثر مما كان تسامحاً . وكان يطلق على هذه القصائد اسم المواعظ Sermones — وإن لم تكن مواعظ فى أية صورة من الصور ، بل كانت أحاديث خالية من التكلف والصناعة ؛ وكانت أحياناً محاورات ودية خاصة فى أشعار سداسية الوزن تكاد لغتها أن تكون هى اللغة العامية ؛

وقد اعترف هو نفسه بأنها نثر فى كل شىء عدا الوزن ، « لأنك لاتستطيع أن تطلق اسم الشاعر على رجل يكتب كما أكتب أنا أبياتاً أقرب ما تكون إلى الكلام المنثور » . ونحن نلتقى فى هذه الأشعار اللاذعة بالأحياء من رجال رومة ونسائها ، ونستمع ، إليهم يتحدثون كما يتحدث الرومان : فلسنا نجد فيها رعاة فرچيل وزرّاعه وأبطاله ، ولا فُساق أوفد الخرافيين وبطلاته ، بل نشاهد العبد الوقح البذىء ، والشاعر المزهو بنفسه ، والمحاضر ذا الألفاظ الطنانة ، والفيلسوف الشره ، والثرثار الممل ، والسامىّ الحريص على المال ، ورجل الأعمال ، والحاكم ، ورجل الشارع العادى ، فنشعر أنا نشهد آخر الأمر رومة الحقة . فها هو ذا هوراس يضع فى قصائده لمن يشاء

(*) وقد كشف المنقبون عن ضيعة هوراس فى عام ١٩٣٢ ، فإذا هى تشمل بيتاً ريفياً فسيحاً ، يبلغ طوله ٣٦٣ قدماً وعرضه ١٤٢ ، به أربع وعشرون حجرة وثلاث برك للاستحمام ، وعدة أبواب مزينة بالفسيفساء ، وحديقة واسعة يحيط بها رواق مسقوف فى خارجه سور . ومن وراء هذا البيت ضيعة فسيحة يعمل فيها عشرة عبيد وخمس أسر من المستأجرين(٢٨) » .

أن ينقب عن آثار الأقدمين القواعد التي يجب أن يسير عليها من يريد النجاح في هذه الحلبة التي تصطرع فيها الفيلان من الناس ، ويضعها ، في صورة مرحة ولكنها مهلكة قاتلة[٢٩] . وهو يسخر من النهمين الذين يملئون بطونهم بشهي الطعام ، ولكنهم لا يستطيعون المشي على أرجلهم لأنهم مصابون بالرثية[٣٠] ، ويذكر من « يمتدح الأيام الماضية » بأنه إذا جاءه إله ليعيده إلى تلك الأيام أبى وتمنع[٣١] ، ويقول إن أحسن ما في الماضي هو علم الإنسان أنه لن يضطر إلى أن يحيا مرة أخرى . وهو يعجب كما يعجب لكريشيوس من ذوى الأرواح القلقة الذين إذا كانوا في المدن تاقوا إلى سكنى الريف ، فإذا سكنوا الريف تاقوا إلى المدن ، والذين لا يستطيعون أن يستمتعوا بما عندهم ، لأن من الناس من عنده أكثر منهم ؛ والذين لا يقنعون بزوجاتهم ويهيمون بخيالهم المفرط في العظمة وفي الحقارة معاً بجمال غيرهن من النساء اللائي أصبحن في نظر غيرهم من الرجال ولا جمال لهن . ويختتم نصائحه بقوله إن جنون المال هو مرض رومة القتال ، ويسأل من يقضي أيامه في جمع الذهب : « لم تسخر من تنتلس لأن الماء يبتعد عن شفتيه الظامئتين على الدوام ؟ ليس عليك إلا أن تبدل الأسماء فتنطبق القصة عليك أنت[٣٢] » ثم يهجو نفسه أيضاً ؛ فهو يصور عبده يقول له في وجهه إنه ، وهو الداعي إلى حسن الخلق ، رجل أحمق حاد الطبع لا يعرف قط ما يدور في عقله أو ما يهدف إليه ، وإنه عبد شهواته ككل إنسان آخر . وما من شك في أنه يوصي نفسه ، كما يوصي غيره ، بسلوك الطريقة الوسطى الذهبية إذ يقول : « إن للأشياء حداً ومقياساً[٣٤] » لا يقصر الرجل الذكي عنه ولا يتجاوزه . وهو في بداية كتاب الهجاء الثاني يشكو إلى صديق له أن المجموعة الأولى قد انتقدت أشد النقد ، فقيل إنها مفرطة في الخشونة وفي الضعف ، ثم يستنصح الصديق فيقول له : « استرح » فيعترض عليه الشاعر بقوله : « ماذا ؟ ألا أكتب الشعر قط » ؟ فيجيبه « نعم » فيقول : « ولكني لن أستطيع النوم[٣٥] » .

وكان خيراً له أن يعمل بهذه النصيحة إلى حين . وكان كتابه الثانى المسمى ردود الغناء Epodes (٢٩ ق . م) آقل كتبه شأنا . فأشعاره خشنة مؤذية للسمع خالية من الشهامة ، بعيـــدة عن الذوق ، بذيئة فى الأمور الجنسية ، كل ما يستطيع الإنسان أن يقوله فى وصفها إنها تجربة فى الأوزان الشعرية ذات المقاطع المتعاقبة منبورة وغير منبورة ، وهى المقاطع التى سار عليها أركلوكس Archilodhus . ولعل اشمئزازه من « دخان رومة وما لها وضجيجها »[٣٦] قد زاد حتى أمَرّ نفسه ؛ ولعله لم يطق صبرا على ضغط السوقة الجهال ذوى التفكير الخبيث». وهو يصور نفسه متدفقا ومدفوعا بين أراذل العاصمة ، وينادى قائلا : « أيها البيت الريفى ! متى أراك ؟ متى أستطيع وأنا بين كتب الأقدمين تارة ، وأستمتع بالنوم والفراغ تارة أخرى ، أن أتجرع النسيان الحلو لمتاعب الحياة ؟ متى يقدم لى صحاف الفول إخوان فيثاغورس نفسه ، ومعها الخضر المخلوطة باللحم السمين ؟ آه ، أيتها الليالى والولائم القدسية ! »[٣٧] ثم قصرت فترات إقامته فى رومة ؛ وصار يقضى كثيراً من وقته فى بيته السبينى الريفى حتى شكا أصدقاؤه وشكا ماسيناس نفسه بأنه « اقتطعها من حياته » . ولكن الحقيقة أنه بعد أن عانى حر المدينة وعثيرها وجد فى الهواء النقى والعمل الرتيب المادئ ، والعمال السذج فى ضيعته بهجة تطهره من أدران المدن . هذا إلى أنه كان وقتئذ ضعيف الجسم ، وأنه كان يعيش على الأكثر ، كما يعيش أغسطس ، على الخضر وحدها . وفى ذلك يقول : إن فيما أمتلكه من مجرى الماء النقى وأفدنة قليلة من الأشجار ، ووثوقى من أنى سأجنى محصولا من الحب ، إن فى هذا لسعادة دونها سعادة سيد أفريقية الخصبة ونعيمها البراق »[٣٩] . وإن حب الريف ليجد فى غيره من شعراء عهد أغسطس من يعبر عنه تعبيرا حماسيا نادر الوجود فى أدب اليونان .

ما أسعد من يعيش بعيدا عن قلق الأعمال ومتاعبها .

كما كانت تعيش أقدم شعوب العالم .

يفلح بثيرانه الأرض التي ورثها عن أبيه .
وليس عليه دين . . .
ما أحلى النوم تحت شجرة السنديان القديمة .
والنهر يجرى بين جسريه العاليين .
وطيور الأيك تغرد .
والماء يتدفق من العيون .
يدعو الإنسان للنوم الهنيء ![٤٠]

* * *

وجدير بنا أن نضيف إلى هذا أن الذى ينطق بهذه الأبيات مراب من أهل المدن ، ينطقه بها هوراس فى سخرية يمتاز بها عن كثيرين من الشعراء ، وأن هذا المرابى بعد أن ينطق بها لا يلبث أن ينساها ويفقد نفسه بين أكوام نقوده .

وأكبر الظن أن هذه المرابض الهادئة هى التى كان يكدح فيها كدح السعداء المجدين »(*) فى تأليف هذه الأغانى التى يعلم أن ذيوع اسمه أوخمول ذكره موقوف عليها . لقد مل الأشعار السداسية الوزن ولم يعد يطربه انسجام أوزانها المقيسة المحددة ، أو التى تقتطع من آخر البيت لضرورة الشعر كأنها جُزّت بمقصلة . وكان قد استمتع فى شبابه بالأوزان الدقيقة المرحة التى رآها فى شعر سابفو Sappho والكيوس Alckeus ، وأركلوكس Archilochus ، وأنكريون Anacreon ، فأراد الآن أن ينقل هــذه الأوزان « السابفية » والألكية ، والتفاعيل المركبة من مقطعين ومن أحد عشر مقطعا ، إلى صورة الشعر الغنائى الرومانى ، وأن يعبر عن آرائه فى الحب والخمر ، والدين ، والدولة ، والحياةوالموت فى مقطوعات جديدة منعشة للنفس جامعة رصينة التركيب ، قابلة للتلحين ،

(*) هذه هى العبارة العجيبة الموفقة التى وصف بها پترونيوس هوراس[١٤] .

معقدة تعقيداً يتطلب حلها الجهد الكثير . ولم يكن يكتب هذه الأشعار لذوى العقول الساذجة التي تريد أن تمر بها مرًّا سريعاً دون أن تبذل فى إدراكها أى مجهود ؛ والحق أنه قد حذر أمثال هؤلاء فى مستهل المجموعة الثالثة من الإقدام على قراءتها فقال :

« إنى أبغض السوقة النجسين وأجنبهم . صه ! أنا ، كاهن ربات الشعر ، أغنى للعذارى والشباب أغانى لم يسمعها أحد من قبل » .

ولو أن العذارى قد عنين بشق طريقهن وسط أقوال هوراس ورغباته المقلوبة لارتعن وسررن مما فى أغانيه من أبيقورية مهذبة مصقولة . فالشاعر يصور مسرات الصداقة ، والطعام والشراب ، والمغازلة ، وإن المرء ليصعب عليه أن يستدل من هذه الترانيم على أن كاتبها رجل زاهد لا يأكل إلا قليلا ولا يشرب إلا أقل . ثم يسأل الشاعر نفسه (قبل أن يسألها قارئ هذه الصفحات) : « لم نشغل أنفسنا بالسياسة الرومانية وبالحروب فى الأقاليم النائية ؟ ولم نعنى هذه العناية كلها بتدبير أمور المستقبل الذى يسخر من تدبيرنا(*) . إن الشباب والجمال يمسان مساً ويمران بنا مرًّا سريعاً فلنستمتع بهما الآن » ، مضطجعين إلى شجرة الصنوبر ، وغدائرنا الشمطاء متوجة بالأزهار ومعطرة بالناردين السورى[٤٢] » . وبينما نحن نتحدث هذا الحديث يمر الوقت الحسود وينقضى ، فلنغتنم الفرص « ولنختطف الأيام Carpe diem[٤٣] » . ويتلو الشاعر أسماء طائفة من النساء الخليعات اللاتى يقول إنه أحبهن : لالاج ، جلسيرا ، تثيرا ، إيانثا ، رستارا كنديا ، ليسى ، بيرها ، ليديا ، تندارس ، كلو ، فليس ، مرتال . ولا حاجة بنا إلى أن نصدق كل ما يدعيه من ذنوب يقول إنه ارتكبها ، فقد كانت هذه الأقوال وقتئذ دعاوى أدبية يكاد يفرضها شعراء تلك الأيام على أنفسهم فرضاً ؛ وشاهد ذلك أنا نجد أولئك السيدات أنفسهن فى خدمة

(*) « وتقدرن فتضحك الأقدار » . (المترجم)

أقلام غير قلمه قبـــل ذلك الوقت . ولم يكن أغسطس الذى تاب وقتئذ وأناب لينخدع بهذه الضلالات الشعرية ، فقد كان يسره أن يجد بينها تعظيماً لحكمه وثناء عليه ، وعلى انتصاراته ، وأعوانه ، وإصـــلاحاته الأخلاقية ، وعلى السلم التى بسط لواءها فى أيامه . وقد ألف هوراس أغنيته المشهورة فى الشراب Nunc ets bibendum (٤٤) حين جاءته الأنباء بأن كليوبطرة قضت نحبها ، وأن أغسطس استولى على مصر ، فقد كان لهذا النبأ وقع عظيم حتى فى نفس هذا الشاعر السوفسطائى الذى سر من انتصار الإمبراطورية واتساع رقعتها إلى حد لم تبلغه قط من قبل . وهو يحذر قراءه من الاعتقاد بأن القوانين الجديدة يمكن أن تحل محل الأخلاق القديمة ، ويأسف لانتشار الترف والزنى ، والخلاعة ، والعقائد المنحطة الفاسدة ، ويقول مشيراً إلى الحرب الأخيرة : « وا أسفا على ما أصابنا من جروح وما ارتكبنا من جرائم ، وعلى من مضوا من إخوتنا صرعى فى الميدان ! وهل ثمة شىء قد اشمأزت منه نفوسنا نحن أبناء هذا الجيل ؟ وأى ظلم لم نرتكبه ؟ »(٤٥) ويقول إن رومة لن تنجو إلا بالرجوع إلى الأساليب البسيطة وإلى الثبات الذى كان شعار الأيام الخالية . وهكذا نرى الشاعر المتشكك الذى كان من الصعب عليه أن يؤمن بأى شىء يحنى رأسه الأشيب أمام النصب القديمة ، ويقر أن الناس يهلكون إذا لم تكن لهم أساطير يؤمنون بها ، ويسخر قلمه لخدمة الآلهة المرضى الضعاف .

وبعد فليس فى أدب العالم كله ما يشبه هذه القصائد تمام الشبه — فهى رقيقة وقوية ، وفيها تأنق ورجولة ، وحذق وتعقيد ، تخفى ما فيها من فن بالفن البالغ درجة الكمال ، وتخفى ما استلزمته من جهد بما يبدو عليها من يسر وسلاسة . فهى موسيقى من طراز غير طراز ڤرچيل ، ذلك أن موسيقاها أقل من موسيقى ڤرچيل عذوبة فى النغم وأكثر منها تعقلاً ، وهى لم تكتب للشبان والعذارى بل كتبت للفنانين والفلاسفة . وليس فى القصائد كلها شىء من الانفعال أوالتحمس ، أو « اللفظ المنمق » ؛ بل الألفاظ كلها سهلة حتى فى الجمل المقاوبة

التي يجب أن يكون أولها آخرها . ولكن فى الأغانى الكبرى كبرياء وجلالا فى التفكير ، حتى ليخيل إليك وأنت تستمع إليها أن إمبراطوراً هو الذى يتحدث وأنه لا يتحدث بألفاظ من حروف بل من برنز :

لقد أقمت نصباً أبقى على الزمان من البرنز ،
وأعلى من قمة الأهرام الملكية ؛
لا تستطيع العواطف الهوج أن تحطمه .
ولا ريح الشمال الضعيفة ، ولا كر السنين .
التى لا عداد لها . ولا مر الزمان السريع .
إنى لن أموت الميتة الكبرى .

وأغفلت الجماهير التى هجاها هوراس أغانيه ، وشهر بها النقاد ووصفوها بأنها مملة متكلفة ، وندد المتزمتون بما فيها من أغانى الحب ؛ أما أغسطس فوصف القصائد بأنها قصائد خالدة ، وطلب إلى الشاعر أن يتبعها بمجموعة رابعة تصف أعمال دروسس وتيبيريوس فى ألمانيا ؛ واختار هوراس لكتابة الأناشيد « القرنية » يصف فيها المباريات القرنية . وأجابه الشاعر إلى ما طلب ولكنه لم يجد من نفسه الإلهام الذى يمكنه من تنفيذ هذه الرغبة ؛ ذلك بأن الأغانى قد استنفدت كل جهوده ، ولهذا رجع فى كتابه الأخير إلى الشعر السداسى الأوتاد الذى كتب به كتبه فى الهجاء ، والذى هو أليق الأوزان بالحديث ، فكتب به رسائله ، وهى أشبه بحديث ينطق به صاحبه من مقعد مريح . وكان هوراس يريد على الدوام أن يكون فيلسوفاً ، وقد غلبت عليه هذه النزعة فى تلك الرسائل ، فاسترسل فى الحكم حتى فى أثناء ثرثرته . وإذ كان الفيلسوف شاعراً ميتاً وفقيها محتضراً ، فقد كان هوراس وهو شيخ فى الرابعة والخمسين من عمره قد نضجت سنه للبحث فى طبيعة الله ، والإنسان ، والأخلاق ، والأدب والفن .

وكتبت أشهر رسالة من هذه الرسائل كلها — وهى المعروفة لدى النقاد باسم « فن الشعر » إلى آدبيزونس Ad Pisones — وهم أفراد غير معروفين معرفة أكيدة من عشيرة پيزو Piso . ولم تكن هذه رسالة بالمعنى الحقيقى للرسائل ، بل كانت نصيحة قصيرة من صديق إلى صديق يبين له فيها طريقة الكتابة ، يقول له فيها : عليك أن تختار موضوعا يتفق مع مواهبك ، واحذر أن ينطبق عليك المثل القائل تمخض الجبل فولد فأرة(*)(٤٧) ؛ والكاتب المثالى هو الذى يعلم ويسلى فى وقت واحد ، « ومن يمزج النافع بالسار يكسب جميع الأصوات(٤٨) » . وتجنب الألفاظ الجديدة ، والعتيقة المهملة ، والمسرفة فى الطول . وأوجز بالقدر الذى يجيزه وضوح معانيك ، وامض مسرعا إلى لباب الموضوع . وإذا كتبت الشعر فلا تظنن أن العاطفة هى كل شىء ، نعم إنك إذا شئت أن يحس قارئك بعاطفة ما فلابدّ لك أنت أن تحس بها(٤٩) ، ولكن الفن غير الشعور ، إنه الصورة التى يعبر بها عنه (وهنا أيضاً يتحدى الأسلوبُ الاتباعى الأسلوبَ الإبداعى(**)) ، ولكى تصل إلى حسن الصيغة ، عليك أن تواصل دراسة آداب اليونان ليلا ونهاراً ؛ ولكن ما تمحوه من كتابتك قدر ما تثبته أو قريباً منه .

« واعرض ما تكتبه على ناقد قدير وحاذر من أصدقائك ، فإذا اجتازت

(*) ليس فى ترجمة هذا المثل شىء من التصرف بل هى ترجمة حرفية للعبارة الإنجليزية
Labouring like a mountain and producing a mouse
ولعل العبارة الإنجليزية هى الأخرى ترجمة حرفية للمثل اللاتينى (المترجم).

(**) كاد الناس ينسون هوراس فى العصور الوسطى ، ولكنه استعاد منزلته فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، وهما عصر العقل والإتباع فى الزمن الحديث ، حين عمد كل سياسى وكل كاتب وخاصة فى إنجلترا إلى نثر عبارات الشاعر وترديدها فى صورة ثابتة لا تغيير فيها ولا تبديل .

ولقد أعاد بوالو **Boilean** فى كتابه الفن الشعرى **L'art poétique** كتاب هوراس **Ad Piones** إلى الوجود ، وكان هو المشكل والمثبط للمسرحيات الفرنسية حتى زمن هوجو . وحاول پوپ **Pope** فى « مقاله فى النقد » **Essay on Citicism** أن يضعف من قوة الأدب فى إنجلترا بالطريقة عينها ولكن بيرن قضى على كل ما كان لپوپ من أثر فى هذه الناحية .

كتاباتك هذه المراحل كلها ، فأخفها ثمانى سنين ، فإذا لم تجد بعدئذ إنك قد أفدت من نسيانها فانشرها ، ولكن اذكر على الدوام أنها لن يعيدها إلا الزمن وحده . وإذا كتبت مسرحيات فلتجعل الأعمال لا الأقوال هى التى تقص القصة ، وتصور الأشخاص . ولا تمثل الرعب على المسرح ، والزم وحدة الأعمال والزمان والمكان ، واجعل القصة قصة واحدة ؛ تقع حوادثها فى زمن قصير وفى مكان واحد . وادرس الحياة والفلسفة ، لأن الأسلوب مهما بلغ لا قيمة له من غير الملاحظة والفهم . كن جريئاً فى المعرفة » . وعمل هوراس نفسه بكل هذه القواعد إلا قاعدة واحدة — فهو لم يتعلم البكاء ؛ ذلك أنه لم يكن قوى الشعور ، أو أن شعوره ، قد اختنق فصمت ، ولذلك لم يسم قط إلى ذلك الفن الأعلى الذى يجسم الإخلاص فى العطف أو « العواطف التى يذكرها أصحابها فى هدوء » ؛ يضـــاف إلى هذا أنه كان مسرفاً فى تمجيد المدن . ولقد كان قوله : « Nil admirari تعجب بشيء قط[٥٠] » نصيحة غير قويمة ، لأن الشاعر الحق يجب أن يعجب بكل شيء حتى ولو كان كشروق الشمس أو منظر الشجر يحييه كل يوم . وكان هوراس يلاحظ الحياة ويرقبها ، ولكنه لم يكن يتعمق فى هذه المراقبة ؛ وقد درس الفلسفة واحتفظ على الدوام « باعتدال عقله » ولذلك لم يسم شيء من أغانيه فوق المرتبة الوسطى[٥٢] » وكان يعظم الفضـــيلة تعظيم الرواقيين ، ويحترم اللذة احترام الأبيقوريين فيسأل نفسه « أى الناس هو الحر إذن ؟ » ثم يجيب كما يجيب زينون : «هو الرجل الحكيم ، سيدنفسه ، الذى لا يرهب الفقر ولا الموت ولا الأغلال ، والذى يتحدى شهواته ويزدرى بالمطامع والذى هو كل فى نفسه[٥٣] » ؛ ومن أنبل قصائده قصيدة تضرب على نغمة رواقية وتقول :

« إذا كان الرجل عادلا حازما فقد تتصدع الدنيا كلها من حوله وتتساقط فوق رأسه ، وتجده تحت حطامها غير هياب ولا وجل[٥٤] ». ولكن هوراس رغم هذا كله يلقب نفسه بأمانة جذابة : خنزيرا من حظيرة أبيقور[٥٥] » .

وهو كأبيقور يقدر الصداقة فوق الحب ، وكفرچيل يمتدح إصلاحات أغسطس ، ويعيش حياته كلها عزبا » . وقد بذل كل ما فى وسعه دعيا إلى الدين ولكنه كان لا دين له ، وكان يشـــعر أن الموت يقضى على كل شيء[٥٦] .

وقد أظلمت أفكاره أيامه الأخيرة — وأوتى حظه من الأسقام ، فكان ممعوداً مصاباً بالنقرس وبغيره من الأمراض . ومن أقواله فى رثاء حاله : « إن السنين وهى تمر تسلبنا كل مسراتنا واحدة بعد واحدة[٥٧] » . ويقول لصديق آخر : « واحسرتاه ياپستيوس إن السنين تمر بنا سراعا ؛ ولن تستطيع تقوانا أن تمنع عنا غضون أجسامنا ، أو تقدم أعمارنا ، أو الموت الذى لا يقهر[٥٨] » . وقد ذكر فى قصيدته الهجائية الأولى كيف كان يأمل إذا حانت منيته أن يفارق الحياة الدنيا راضيا « كالضيف الذى نال من الوليمة كفايته[٥٩] » . وها هو ذا الآن يقول لنفسه : « لقد لعبت ما شئت أن تلعب ، وأكلت ما شئت أن تأكل ، وشربت ما شئت أن تشرب . وقد آن أن ترحل[٦٠] » . وقد انقضت خمس عشرة سنة مذ قال لماسيناس إنه لن يطول أجله كثيرا بعد رجل المال[٦١] . وقد مات ماسيناس فى عام ١٨ ق . م وتبعه هوراس بعد بضعة أشهر ، وأوصى بأملاكه إلى الإمبراطور ودفن بجوار قبر ماسيناس .

الفصل الخامس

ليفى

لم يظفر النثر فى عهد أغسطس بمثل ما ظفر به الشعر من مؤلفات عظيمة قيمة ، فقد اضمحلت الخطابة بانتقال التشريع والقرارات ، فى الواقع إن لم يكن فى الشكل ، من مجلس الشيوخ والجمعيات إلى حجرات الزعيم السرية . وظل العلم يجرى فى مجراه الهادئ تحميه من العواصف والأحداث أغراضه ومصالحه الخيالية ، ولم ينتج العصر كله آية أدبية خالدة إلا فى التاريخ . وكان صاحب هذه الآية الخالدة تيتس ليڤيوس Titus Livius :

ولد تيتس فى پتاڤيوم Patavium (پدوا Padua) فى عام ٥٩ ق . م . ثم وفد إلى العاصمة ، وأكب على دراسة البلاغة والفلسفة ، وخص السنين الأربعين الأخيرة من حياته بكتابة تاريخ لرومة (٢٣ ق . م — ١٧ م) . وذلك كل ما نعرفه عن هذا المؤرخ « فمؤرخ رومة لا تاريخ له »[٦٣] . وكان موطنه الأصلى ، كموطن ڤرجيل ، هو إقليم الپو ، وقد احتفظ على الدوام بفضائل الأقدمين وبساطتهم وتقواهم ، ثم نشأ فيه احترام قوى للمدينة الخالدة — لعل سببه ما كان يصله عنها من أنباء وهو بعيد عنها . وقد وضع خطة كتابه على أساس واسع عظيم ، وقدر له أن يتمه وإن لم يصلنا من « كتبه » البالغة مائة واثنين وأربعين كتاباً إلا خمسة وثلاثون . وإذ كانت هذه الكتب الباقية تحتويها ستة مجلدات فإن فى وسعنا أن نقدر ضخامة هذا المؤلف. ويلوح أن الكتاب قد ظهر أجزاء متتابعة لكل منها عنوان خاص ، ويجمعها كلها عنوان واحد هو « من أسس المدينة Ab urbe condita » وكان فى وسع أغسطس أن يتغاضى عن ميوله الجمهورية وأبطاله الجمهوريين لأن روح الكتاب الدينية والأخلاقية والوطنية كانت تتفق كل الاتفاق مع خطط

الإمبراطور السياسية . ومن أجل ذلك اتخذ ليفى صديقاً له وشجعه ليجعل منه ڤرچيلا ناثراً يبدأ عمله من حيث تركه الشاعر . وقد فكر ليفى فى يوم من الأيام وهو فى وسط مرحلته الطويلة التى بدأت فى عام ٧٥٣ ق . م أن ينقطع عن العمل بحجة أنه نال ما يبتغيه من الشهرة الخالدة ؛ ثم واصل العمل لأنه على حد قوله وجد نفسه قلقاً حائراً حين امتنع عن الكتابة .

وكان المؤرخون الرومان يرون أن الشعر ولد هجين من أبوين هما البلاغة والفلسفة ! وإذا كان لنا أن نصدقهم فإنهم كانوا يؤرخون ليوضحوا المبادئ الأخلاقية بالقصص البليغة ، أى أن يجلوا المغزى الخلقى بقصة . وقد نُشِّئ ليفى ليكون ممثلا ، ولكنه حين وجد الخطابة خطرة معرضة للنقد ، « اتجه نحو التاريخ » كما يقول تين Taine « لكى يظل كما كان خطيباً »(٦٥) . ويبدأ كتابه بمقدمة جافة ندد فيها بما كان شائعاً فى عصره من فساد وترف وخنوثة ؛ وقال إنه دفن نفسه فى الماضى لكى ينسى مساوئ الحاضر ، « الذى لا نطيق ما ابتلانا من أمراض كما لا نطيق لها علاجاً » ، ثم يقول إنه سيتخذ التاريخ سبيلا لتصوير الفضائل التى رفعت من شأن رومة . وكانت سبباً فى عظمتها ، وهى اتحاد الأسرة وقداستها ، وتقوى الأبناء ، والعلاقة المقدسة بين الناس والآلهة فى كل خطوة من الخطوات ، وقدسية ما يقطعه الناس من عهود وضبط النفس والوقار إلى أقصى حد . ويقول إنه سيجعل رومة الرواقية هذه أمة نبيلة كريمة الأخلاق إلى حد يرى الناس معه أن فتح بلاد البحر الأبيض المتوسط كان من الأعمال التى تحتمها الأخلاق الكريمة ، أو أنها أمر إلهى وشريعة مقدسة نزلت على ما فى الشرق من فوضى وما فى الغرب من همجية ، وسيجعل ما نالته رومة من ظفر نتيجة لما تحلى به أهلها من كريم الخلق ، كما عزاه پولبيوس إلى نظــام حكومتها الصالح الرشيد .

وأكبر ما فى الكتاب من عيوب إنما يرجع إلى هذه النزعة الأخلاقية

ففى الكتاب كثير من الشواهد الدالة على أن مؤلفه رجل يخضع لحكم العقل ؛ وكان احترامه للدين احتراما مسرفاً إلى حد يكاد يحمله على الإيمان بكل خرافة ، ويملأ صحف كتابه بالفأل والطيرة والتنبؤ بالغيب حتى المشعر ونحن نقرؤها أن الذين يدبرون الحوادث ويقومون بالأعمال هم الآلهة كما نشهد ذلك فى أشعار ڤرچيل . ولسنا ننكر أنه يعبر عن شكه فيما يروى من أساطير تاريخ رومة الأول ، ويبتسم حين يذكر من الروايات أقلها احتمالا ، ولكنه حين يواصل الكتابة لا يفرق بين الأساطير والتاريخ الحقيقى ، ويسير وراء أسلافه بلا تمييز كبير بين الباطل من أقوالهم والصحيح ، ويقبل الأقاصيص والروايات الخيالية التى اخترعها المؤرخون الأولون ليمجدوا بها أسلافهم[٦٦]. وقلما يعنى بالرجوع إلى المصادر الأصلية أو الآثار ، ولا يشغل نفسه قط بزيارة الأماكن التى وقعت فيها أهم الحوادث . وتراه أحياناً يعمد إلى شرح صحائف كاملة من پوليبيوس[٦٧] . ويلجأ إلى طريقة القساوسة القديمة طريقة الحوليات ، فيقص الحوادث التى وقعت فى عهد كل قنصل من القناصل ، ولهذا فإنك إذا ضربت صفحاً عما فيه من بحوث أخلاقية لن تجد فيه أثراً للتعليل الصحيح وربط النتائج بأسبابها ، بل كل ما تجده فيه سلسلة متتابعة من الأحداث الرائعة . وهو لا يفرق بين الآباء الأجلاف الأولين الذين عاشوا فى عهد الجمهورية المبكر وبين أشراف عصره ، أو بين السوقة الأشداء الذين أنشئوا الدمقراطية الرومانية والغوغاء الأدنياء الذين قوضوا أركانها ، وهو يتحيز للأشراف على الدوام .

ولقد كان السر الحقيقى فى عظمة ليڤى هو العزة الوطنية التى تجعل رومة فى نظره محقة على الدوام . وهذا السر هو الذى حباه بالسعادة الدائمة فى أثناء كدحه الطويل ؛ ولهذا السبب فإننا قلما نجد كاتباً نفذ خطة واسعة كخطته بمثل ما نفذها هو فى أمانة أشعرت قراءه الأقدمين ولا تزال تشعرنا نحن بعظمة رومة وبما قدر لها فى عالم الغيب من مصير . ولقد كان هذا الشعور

بعظمة رومة هو مصدر ما فى أسلوب ليفى من نشاط ، وما فى أشخاصه من قدرة ، وما فى وصفه من بهجة وقوة ، وما فى نثره من انسجام رائع جليل وإن الخطب التى اخترعها من عنده وبثها فى تاريخه لتعد آيات فى الخطابة أصبحت من بعده نماذج تحتذى فى المدارس ، وإن القارئ ليسحر لبه ما يتخلل الكتاب كله من أخلاق كريمة ؛ فليفى لا يعمد قط إلى الصخب والضجيج ، ولا يقسو فى أحكامه على الناس ، وعطفه على الدوام أوسع من علمه وأعمق من فكره . وهذا العطف يفارقه حين يروى قصة هنيبال ، ولكننا لا يسعنا إلا أن نغفر ذلك له ، وهو إلى هذا يكفر عن هذا الذنب بتتابع حوادث القصة وروعتها التى تصل إلى ذروتها حين يصف الحرب البونية الثانية .

ولم يكن قراؤه يهتمون بما فى كتابه من أخطاء ، ومن نقص فى الدقة ، ومن تحيز ، وكانوا يحبون أسلوبه وقصصه ، ويبتهجون بالصورة الواضحة التى صور بها ماضيهم . وكانوا يعدون كتابه « من أسس المدينة » ملحمة منثورة ومن أنبل ما خلفه عصر أغسطس ، والنزعة التى سادت ذلك العصر. ولقد ظل كتاب ليفى يلون أفكار الناس عن تاريخ رومة وأخلاق أهلها ثمانية عشر قرناً كاملة تبدأ من أيامه . وحتى الذين كانوا يقرءون كتابه من أهل البلاد الخاضعة لسلطان الرومان قد تأثروا بهذا السجل الضخم للفتوح التى لم يكن لها نظير من قبل ، وبالأعمال الضخمة الجبارة التى قام بها رجالها. ويقص پلنى الأصغر قصة رجل أسپانى تأثر بكتاب ليفى تأثراً حمله على أن يسافر من قادس Cadiz إلى رومة لعله يلقاه فيها . فلما حقق رغبته وصلى لربه ، نسى كل ما عدا ذلك من الحقوق ، وعاد راضياً إلى موطنه عند المحيط الأطلنطى(٦٨) .

الفصل السادس

ثورة العاشقين

وظل الشعر فى هذه الأثناء ينتشر وتعلو مكانته ، ولكن على غير ما كان يشتهى أغسطس . ذلك أن الفنانين العظماء ، أمثال ڤرچيل وهوراس ، هم وحدهم الذين يستطيعون قرض الشعر الجيد فى الموضوعات التى تطلبها الحكومة ؛ فأما من كانوا أعلى من هذين الشاعرين قدراً فإنهم لا ينصاعون إلى هذه المطالب ، وأما من كانوا أقل منهما شأناً فإنهم لا يستطيعون إجابتها . وقد خضع مصدران من مصادر الشعر الكبرى — الدين ، والطبيعة ، والحب — إلى سلطان الإمبراطورية ، أما المصدر الثالث فقد ظل خارجا على سلطانها غير خاضع لأى قانون حتى فى أغانى هوراس . ثم فر الشــعر فراراً بطيئاً على يدى تيبلس Tibullus وپروپرتيوس Propertius ، وثار ثورة سارت فى طريق يحفه المرح المتزايد إلى خاتمة مفجعة .

وتفصيل ذلك أن ألبيوس تيبلس (٥٤ — ١٩) خسر الأرض التى ورثها عن آبائه كما خسر ڤرچيل أرضه حين وصلت نيران الحرب الأهلية بلدة پدوم Pedum — قرب تيبور Tibur مسقط رأسه — وأنقذه مسالا من الفقر وأخذه مع حاشيته إلى بلاد الشرق ، ولكن تيبلس مرض فى الطريق وعاد إلى رومة ، مغتبطا بنجاته من الحرب ومن السياسة ، فقد أمكنه ذلك من أن يصرف جهوده كلها فى التغنى بعشق الفتيات والفتيان ، ونظم المراثى المصقولة على نمط يونانىّ الإسكندرية . وكتب الابتهال المألوف إلى دليا Dilia (وهو اسم لا نعرف عنه أكثر من هذا ولعله لم يقصد به فتاة بعينها بل كان يسمى به الكثيرات من عشيقاته) التى تجلس أمام بابها كالحارسة العنيدة(٦٩) ، يُذكِّرها كما ذُكرت كثيرات من الغانيات قبلها أن الشباب

لا يجيء إلا مرة ثم ينقضى مسرعاً خفية ؛ ولم يقلق باله أن دليا متزوجة ، فقد أنام زوجها بأن قدم له نبيذاً مركزاً ، ولكنه استشاط غضباً حين فعل به عاشقها الجديد ما فعله هو بزوجها(٧٠) : ولعل هذه الموضوعات العتيقة لم تكن خليقة بإقلاق بال أغسطس ، أما الذى جعل تيبلس ، وپروپرتيوس وأوڤد مبغضين إلى حكومة تلقى أشد الصعاب فى وجود مجندين للجيش فهو النزعة المؤثرة القوية المضادة للجندية ، والتى كانت تتصف بها هذه العصبة المتحللة فى حبها من جميع القيود . ذلك أن تيبلس يسخر من المحاربين الذين يسعون إلى الموت فى الوقت الذى يستطيعون فيه أن يغرّروا بالنساء ، ويتحسر على عهد زحل ويتصوره عهداً :

لم يكن فيه جيوش ، ولا حقد ، ولا حرب . . . فلم تكن حرب حين كان الناس يشربون من أقداح خشبية . . . ألا فأعطنى الحب وحده ودّع غيرى يذهب إلى الحرب . . . فالبطل هو الذى يدركه الكبر فى كوخه المتواضع بعد أن وُلد له بنون ، فتراه يرعى الماشية وابنه يرعى الضأن ، وزوجته الصالحة تسخن المـــاء لجسمه المتعب . فلأعش حتى تصبح كل شعرة من شعر رأسى ناصعة البياض ، وأحدّث عن الأيام الخوالي كما يتحدث الشيوخ »(٧١) .

أما سكستس پروپرتيوس (٤٩ — ١٥) فكانت أغانيه أقل بساطة وأقل حناناً ، يزينها العلم أكثر مما يزين أشعار تيبلس ، وتماثلها فيما تحتويه من أناشيد الدعارة الهادئة . وقد ولد سكستس فى أمبريا Umbria وتلقى العلم فى رومة ، وسرعان ما مال إلى قرض الشعر ، وضمه ماسيناس إلى ندوته على الإسكولين Esquiline وإن لم يكن فى القراء — إلا قلة ضئيلة منهم — من يستطيع أن يستخرج أفكاره من أغوار حذلقته . وهو يصف فى زهو وسرور الولائم التى كانت تقام على شاطىء نهر التيبر ، حيث كان يحتسى خمر لزبس Lesbos فى كؤوس من صنع الفنانين العظام « وهو جالس كأنه على عرش بين النساء ،

المرحات » ، يرقب السفن تجرى فى النهر من تحته[٧٢] . وكان پروپرتيوس يتغنى بمدح الحرب من حين إلى حين ليطرب بذلك ولى نعمته وزعيمه ؛ أما حبيبته سنثيا Cynthia فكانت لها عنده نغمة أخرى ، فهو يقول لها : « لِمَ أنجب أبناء ليضحى بهم فى الانتصارات البارثية Parthian ؟ لا ، لن يكون ولد من أبنائنا جنديا »[٧٣] ، وهو يؤكد لها أن كل ما فى العالم من أمجاد عسكرية لا يعادل ليلة واحدة مع سنثيا[٧٤] .

وإذا أحصينا كل هؤلاء الأبيقوريين خفاف القلوب والأحلام ، الذين كانوا يقضون حياتهم بين الحب والصد كان پبليوس أفديوس نازو Pudlius Ovidius Naso أنموذجهم السعيد وحامل لوائهم جميعاً . وكان مولده عام ٤٣ ق . م فى سلمو Sulmo (سلوما) ، وهى بلدة فى واد جميل من وديان الأپنين على بُعد تسعين ميلا أو نحوها شرق رومة . وكان يتخيلها من منفاه فى سنيه الأخيرة بلدة جميلة ذات كروم وغياض من شجر الزيتون ، وحقول من القمح ، ومياه جارية . وأرسله أبوه — وكان رجــلا ثريا من رجال الطبقة الوسطى — ليدرس القانون فى رومة ، ولكنه صُدم حين سمع أن ابنه يريد أن يكون شاعراً . فأخذ يذكر للصبى ما لقيه هومر من مصير محزن ؛ فقد مات هذا الشاعر — كما يقول أحسن الناس علماً بأخباره — فقيراً أعمى . وأثَّر هذا التحذير فى أوفد فواصل دراسة القانون وارتقى حتى صار قاضياً فى المحاكم البريتورية ، وأبى أن يتقدم ليكون كوسترا ، فحزن لذلك أبوه أشد الحزن (لأن هذا المنصب كان يؤهله لأن يكون عضواً فى مجلس الشيوخ) ؛ وفضل أن يعمد إلى دراســة الأدب وإلى الحب ، محتجاً بأنه لا يسعه إلا أن يكون شاعراً « ولثغت بالأوزان فجاءت الأوزان »[٧٥] .

وسافر أوفد على مهل إلى أثينة وإلى الشرق الأدنى وصقلية ، ولما عاد انضم إلى زمرة أكثر الناس مجوناً وخلاعة فى العاصمة ، وكان ذا نصيب موفور

من الجمال ، والذكاء ، والعلم ، والمال ، فاستطاع بذلك أن يفتح جميع الأبواب المغلقة . وتزوج مرتين فى شبابه ، وطلق زوجته ، ثم قضى بعض الوقت يرعى فى المراعى العامة(*) ويقول : « فليجد غيرى مسراتهم فى الماضى ، أما أنا فما أسعدنى إذ ولدت فى العصر الذى توائم أخلاقه أخلاقى(٧٦) . وكان يسخر من الإنياذة ، ولم يفد منها إلا نتيجة واحدة ، هى أنه لما كان ابن الزهرة هو الذى أنشأ رومة فقد وجب أن تصبح مدينة الحب لتدل على تقى أهلها وصلاحهم إن لم يكن ذلك لسبب اخر(٧٧) . وخلبت لبه غاهر جميلة يسميها كورنا Corinna إخفاء لاسمها عن القراء ، أو لعل ذلك اسم يطلقه على كثيرات غيرها من النساء اللاتى وقع فى حبهن . وسرعان ما وجدت أشعاره المكشوفة فيها من ينشرها له ، فنشرت بعنوان الغزليات Amores فى عام ١٤ م ، ولم تلبث إلا قليلا حتى جرت على لسان كل شاب فى رومة حديثاً وغناء . ويقول هو فى ذلك : « إن الناس فى كل مكان يريدون أن يعرفوا من تكون كورنا هذه التى أتغنى بحبها »(٧٨) . وقد أضلهم هو فى مجموعة أخرى من الغزليات فى وصف الحب الخليط فقال :

« ليس الذى يثير عاطفتى الجمال الثابت ؛ بل إن ثمة مائة سبب تحفظ لى حبى ، فإذا رأيت فتاة جميلة ذات عينين ناعستين مطرقتين إلى حجرها اشتعلت نار الحب فى قلبى ، وأسرتنى بسذاجتها . وإذا أبصرت فتاة خليعة ، اخترقت سهام لحاظها قلبى ، لأنها ليست قروية ساذجة ، ولأنها تقوى أملى فى أن أضمها إلى صدرى على فراشى الوثير . وإذا تمنعت وتظاهرت بالعناد والصلابة حكمت بأنها ستخضع لى لا محالة ، ولكنها ممعنة فى خداعها . وإذا كنت عالمة ضليعة بما فى الكتب استهويتنى بشمائلك النادرة ... وتخطر

(*) يريد من غير زواج . (المترجم)

إحداهن الهوينا فأحد ا لحسن خطاها ، وتخطو الأخرى بقوة ، ولكنها ترق إذا طاف بها طائف الحب . . وإذا غنت فتاة بصوت شجى . . . . خطفت منها القبلات فى أثناء الغناء ، وإذا ضربت الأخرى بأناملها الخفيفة على الأوتار الشاكية — فمنذا الذى لا يقع فى حب هاتين اليدين الماهرتين ؟ وهذه تأسرنى بحركاتها ، إذا ما حركت يديها فى اتزان وانسجام ، وتفننت فى ثنى خصرها الرقيق فتذكى النار فى قلبى الذى تلتهب فيه نيران الحب لأقل الأسباب . . . . ضع هپوليتس Hippolytus فى مكانى يصبح پرياپس Priapus ! . . . إنى لتفتننى الطويلة القصيرة على السواء ، فكلتاهما تضرم النار فى قلبى . . . وإنى لأتقدم إليهما ضارعاً متوسلا أن يستجيبا لحبى(٧٩) .

واعتذر أوفد عن عدم التغنى بمجد الحرب ، وقال إن كيوبد Cupid جاءه واختلس قدماً من شعره وتركه أعرج(٨٠) . وكتب مسرحية لم يعثر عليها بعد وهى مسرحية ميديا Medea قوبلت بقبول حسن ، ولكنه كان على العموم يفضل الشعر الغزلى أو كما يسميه هو « ظلال الزهرة الكسول » ، ولا يرغب فى أكثر من أن يسمى « المنشد المعروف بأساليبه التافهة »(٨١) . وأغانيه هى بعينها هى أغانى جماعة التروبدور سبقتها بألف عام كاملة ، وموجهة مثلها للسيدات المتزوجات . وهى تجعل المغازلة أهم أعمال الحياة . ويعلم أوفد كورنا كيف تتحدث إليه بالإشارات وهى مضطجعة على فراش زوجها(٨٢) ، ويؤكد لها أنه سيظل وفياً لها أبد الدهر ، وأنه لن يزنى بغيرها أبداً : « فلست زير نساء يتنقل من هذه إلى تلك ويحب مائة امرأة فى وقت واحد » . ثم يحظى بها آخر الأمر ويكتب قصيدة ابتهاجاً بنصره ، ويثنى فيها عليها لطول صدها عنه ، وينصحها بأن تعود إلى هذا الصد من حين إلى حين ، حتى يدوم حبه لها أبد الدهر . ثم يخاصمها ويضربها ، ويندم على فعلته ، ويحزن ويجن بحبها أكثر من ذى قبل ، ويفعل ما يفعله رميو فيتوسل إلى الليل أن يطول وإلى الفجر ألا يطلع ، ويرجو أن تهب

ريح موانية فتحطم قطب عربة الفجر . وتخدعه كورنا كما خدعها ، ويستشيط هو غضباً حين يعرف أنها لا تجد فيما يقدمه لها فى شعره من خشوع جزاء كافياً لحبها له ؛ وتقبّله طالبة إليه أن يصفح عنها ولكنه لا يسامحها لما كسبته من حذق جديد فى بث لواعج الهوى ، ويقول إن معلماً جديداً قد علمها هذا الحذق(٨٣) . وبعد بضع صفحات من الكتاب نجده يحب فتاتين فى وقت واحد كلتاهما جميلة حسنة الذوق فى اختيار ملابسها ، و مهذبة ، مثقفة »(٨٤) . ثم لا يلبث أن يساوره الخوف من أن يقضى عليه توزيع قلبه بين حبيبتيه ، ولكنه يقول إنه يسعده أن يخر صريعاً فى ميدان الحب(٨٥) .

ولاقت هذه القصائد قبولا لا بأس به من المجتمع الرومانى بعد أربع سنين من صدور قوانين الإصلاح اليوليوسية ، وظلت بعض الأسر العظيمة أمثال أسرة الفابيين والكرفيليين ، والپمپونيين تستضيف أوفد فى بيوتها ؛ وازدهى الشاعر بما ناله من نصر فأصدر كتاباً فى التغرير بالنساء سماه فن الغرام ars amatoria (٢م) يقول فيه . « لقد عينتنى الزهرة معلما للحب الرقيق » . وهو يحذر قراءه تحذيراً ينطوى على العفة والطهارة فيقول إن أمثاله يجب ألا تطبق إلا على الجوارى والسرارى ؛ ولكن ما يفيض به الكتاب من تصوير للصداقات الوثيقة ، ومواعيد اللقاء السرية ، والرسائل الغرامية ، ومن هزل وفكاهة ، وخيانة أزواج ، وخادمات محتالات ماهرات ، كل هذا يوحى بأن الكتاب إنما يصور أحوال الطبقتين العليا والوسطى فى رومة . وأراد أن لا تكون دروسه سريعة الأثر فوق ما يجب أن تكون فأضاف إلى رسالته الأولى رسالة ثانية فى علاج الحب Remedia Amoris يقول فيها إن خير علاج من داء الحب هو العمل الشاق ، ثم يليه فى القوة الصد ، ويأتى بعدهما الغياب ، ومن المفيد أيضا أن تفاجئ حبيبتك فى الصباح قبل أن تتم زينتها(٩٠) . ثم أراد آخر الأمر أن يوفق بين آرائه الأولى والثانية فأخرج رسالة ثالثة عنوانها : Demedicamina fociei feminineae وهى رسالة شعرية فى

أصباغ التجميل وأدهانه ، أخذ ما فيها عن اليونان . ولاقت هذه الرسائل الصغيرة رواجاً عظيما ، انتشرت بسببه سمعة أوفد السيئة فى كل مكان ، ويقول فى ذلك : « ما دامت شهرتى قد طبقت العالم كله فإنى لا يعنينى قط ما يقوله عنى شخص أو شخصان »(٩١) ولم يكن وهو يقول هذا يعرف أن أحد هذين الشخصين الحقيرين هو أغسطس نفسه ، وأن قصائده قد أغضبت الزعيم ، وأنه يراها إهانة لحقت بالقوانين اليوليوسية ، وأنه لن ينسى هذه الإهانة حين تخطر الفضائح الإمبراطورية على بال الشاعر الغافل .

وفى السنة الثالثة بعد الميلاد تزوج أوفد للمرة الثالثة ، وكانت زوجته الجديدة من أكبر الأسر الممتازة فى رومة ؛ واستقر الشاعر ، وكان وقتئذ فى السادسة والأربعين من عمره ، فى حياته المنزلية الهادئة ، ويلوح أنه هو وزوجته قد تبادلا الوفاء والإخلاص والهناءة فى فابيا Fabia ، وفعلت به السن ما لم يفعل به القانون ، فأخمدت نيران عواطفه وجعلت شعره جديراً بالاحترام . فروى فى كتابه Heroides قصصاً عن حب شهيرات النساء أمثال پنلپى Penelope وفيدرا Phaedra وديدو ، وأريدنى Ariadne ، وسابفو ، وهلن Helen ، وهيرو Hero ، ولعله أسرف فى طول هذه القصص حتى أمل ، لأن التكرار قد يجعل كل شىء حتى الحب نفسه مسئما . على أن مما يثير الدهشة حقاً فى هذه القصص جملة على لسان فدرا تعبر فيها عن فلسفة أوفد : « لقد حكم چوف بأن الفضـيلة هى كل ما يهبنا اللذة »(٩٢) . ونشر الشاعر حوالى ٧ م أعظم مؤلفاته كلها وهو كتاب « التحول Metamorphoses » . ويتألف من خمسة عشر سفرا ، تقص فى شعر سداسى الأوتاد تحول الجماد والحيوان والناس والآلهة . وإذ كان كل شىء فى الأساطير اليونانية والرومانيـة ، إلا القليل النادر ، قد بدل صورته ، فقد استطاع أوفد بفكرته هذه أن يغترف من بحر الأساطير القديمة كلها من خلق العالم إلى تأليه قيصر . وكانت كتاباته هى القصص التى ظلت ذات شأن عظيم فى برامج الكليات جميعها حتى الجيل السابق على جيلنا

هذا ، بل إن ثورة هذه الأيام لم تمح بعد ذكراها من العقول : كقصص عربة فيتون Phaethon's Chariot ، وپيراموس وثزبى Pyramus & Thisbe وپرسيوس وأندرمدا Perseus & Andromeda ، وسرقة پرسبرين The Rape oF Prosperine ، وأرثوزا Arethusa ، وميـــديا Medea ، ودبدالوس وأيكاروس Daedalus & Icarus ، وبوسيز وفليمـــون Baucis & Philemon ، وأورفيوس ويوريديس Orpheus & Eurydice ، وأطلنطا Atlanta ، وڤينوس وأدنيس Venus & Adonis وكثير غيرها .

هذا هو المعين الذى استمدت منه مئات الآلاف من موضوعات القصائد ، والرسوم والتماثيل . وإذا كان لا بد للإنسان أن يواصل دراسة الأساطير القديمة ، فإن أيسر السبل إلى دراستها أن يقرأ قصص هذا الحشد العظيم من الآدميين والآلهة ، وهى قصص تروى بكثير من التشكاك الفكه النزعة الغزلية ، وللفن فيها أثر دائم عظيم يعجز عنه العابث غير القدير ، ولا يصل إليه إلا من أوتى المقدرة والصبر الطويل . فلا عجب والحالة هذه أن يعلن الشاعر الواثق من نفسه فى ختامها أنه من الخالدين : « per saecula omnia vivam سأعيش إلى آخر الدهر » .

وما كاد يفرغ من كتابة هذه العبارة الأخيرة حتى ترامى إليه أن أغسطس قد أمر بنفيه إلى بلدة تومى Tomi الباردة الهمجية الواقعة على ساحل البحر الأسود وهى المعروفة الآن بقنسطنطة ، والتى لا تزال غير محببة إلى غير أهلها . وتلك كارثة لم يكن الشاعر مستعداً لتحملها فى مثل سنه ، وكان قد أتم فى هذا الوقت إحدى وخمسين عاماً ، وفرغ تواً ، قبيل انتهائه من كتاب « التحول » ، من قصيدة من الشعر الجيد يثنى فيها على الإمبراطور ويعترف فيها بأن سياسته قد نشرت لواء السلام والأمن والرفاهية التى يستمتع بها الجيل الذى يعيش فيه أوفد . وكان فوق هذا قد أتم نصف قصيدة تدعى فاستى Fasti وهى قصيدة تكاد تكون من القصائد التقية تتحدث عما فى السنة الرومانية من أعياد دينية . وكان يوشك

أن يجعل هذه القصيدة ملحمة يستمد موضوعها من التقويم الرومانى ، لأنه استخدم فى رواية قصص الدين القويم وفى تكريم هياكله وآلهته ما استخدمه فى الأساطير اليونانية والغزَل الرومانى من أسلوب سهل واضح وعبارات وجُمل رقيقة . وكان يرجو أن يهدى القصيدة إلى أغسطس ليشترك بها فى إعادة الدين القويم إلى سابق عهده ، ولتكون بمثابة اعتذار منه عن سخريته بهذا الدين ، وإنكار لما فرط منه فى حقه .

ولم يبين الإمبراطور فى قراره أسباب نفيه ، وليس فى مقدور أحد أن يعرف فى هذه الأيام حقيقة هذه الأسباب . على أن ثمة إشارة بعيده من الإمبراطور لأسباب هذا النفى ، فقد نفى فى الوقت نفسه حفيدته يوليا وأمر بإخراج كتب أوفد من دور الكتب العامة . ويلوح أن الشاعر كان له بعض الشأن فى مسلك يوليا الشائن ، سواء كان حظه فيه حظ الشواهد ، أو المشارك ، أو الفاعل الأصلى . أما هو نفسه فيقول إنه عوقب بسبب « خطإ » وقع فيه وبسبب قصائده ، ويذكر ما يوحى بأنه شهد على الرغم منه منظراً غـير لائق[٩٣] . وأجيز له أن يبقى فى أثناء الشهور الباقية من عام ٨ م ينظم فيها شئونه . وكان القرار مجرد إبعاد ، أخف من النفى ، يسمح له أن يحتفظ بأملاكه ، ولكنه أقسى منه إذ يلزمه بالإقامة فى مدينة واحدة. فلم يكن منه إلا أن أحرق كتاب التحول ، وإن يكن بعض القراء قد نقلوا صوراً منه واحتفظوا بها لأنفسهم . وابتعد عنه معظم أصدقائه[٩٤] وعرض بعضهم أنفسهم لأشد الأخطار ببقائهم معه إلى ساعة رحيله ؛ وشجعته زوجته وأعانته على تحمل محنته بما أظهرت له من الحب والإخلاص ، وإن لم تسافر معه إطاعة لأمره . وإذا استثنينا هذه المظاهر القليلة فإن رومة بأسرها لم تظهر شيئاً من الاهتمام بشاعر أفراحها ومسراتها حين أبحر من أستيا ليبدأ سفره الطويل وابتعاده عن كل شىء يحبه . وكان البحر هائجاً طوال أيام الرحلة تقريباً ،

وخيل إلى الشاعر مرة أن الأمواج ستبتلع سفينته ، ولما أبصر تومى حزن إذ بقى على قيد الحياة واستسلم للحزن واليأس .

وكان فى أثناء الرحلة قد شرع ينظم القصائد المعروفة لنا باسم **الأحزان** Tristia . فلما جاء المدينة واصل نظمها وبعث بها إلى زوجته وابنته وربيبته وأصدقائه . وأكبر الظن أن الرومانى المرهف الحس قد بالغ فى وصف أهوال موطنه الجديد حين قال عنه إنه : مكان قفر خال من الأشجار لا ينبت فيه شىء وإن كان ضباب البحر الأسود حجبَ عنه الشمس ، وإن البرد يشتد فيه حتى يبقى ثلج الشتاء فى بعض السنين طوال فصل الصيف ؛ ويتجمد ماء البحر الأسود فى فصل الشتاء المظلم الكئيب كما يتجمد ماء نهر الدانوب حتى ليسهل أن يمر عليه البرابرة الضاربون حول المدينة ويغيروا على أهلها وهم خليط من الجيتا Getae حملة الخناجر واليونان المهجنين . ولما فكر فى سماء رومة الصافية وحقول سلمو Sulmo الناضرة تحطم قلبه أسى وحسرة ، وسرى فى شعره — وكان لا يزال جميلا فى شكله ولفظه — شعور عميق قوى لم يسر فيه قبل .

وتتصف « **الأحزان** » هى والرسائل الشعرية التى كتبها لأصدقائه « **من البحر الأسود** Ex Ponto » بكل ما تتصف به أعماله العظيمة من سحر وجمال ، فقد بقى له فى مَنفاه كل ما كان له من ألفاظ سهلة يبعث بها السرور فى القلوب حتى وهو فى المدرسة ، ووصف للمناظر تكتسب وضوحها من نفاذ بصره ومن خياله ، وقدرة على تصوير الأشخاص وبث الحياة فيهم بما أوتى من دقة ومهارة سيكولوچية ، وعبارات موجزة مليئة بالتجربة والتفكير ، ورقة فى الحوار ، ويسر وسهولة فى الأوزان ، كل هذه الخصائص قد بقيت له فى منفاه وخالطها جِدٌّ ووقار ورقة ، كان افتقار قصائده الأولى إليها مما جعلها غير جديرة بالرجال . وكان ينقصه فى جميع مراحل حياته قوة الخلق ؛ كما أنه قد أفسد

شعره فى وقت من الأوقات بما ملأه به من وصف الشهوات الجنسية التافهة ، فقد أغرق الآن أشعاره بفيض من الدموع والتضرع للزعيم والتذلل له .

وكان يحسد القصائد التى تسطيع الوصول إلى رومة ، ومن أقواله فى هذا المعنى : ارحلى أيتها الكتب وحيي باسمى الأماكن التى أحبها » و « أرض بلادى العزيزة على »(٩٥) ويتمنى لو أن صديقاً شجاعاً حمل هذه الرسائل إلى الإمبراطور فأشفق عليه . وهو يفصح فى كل رسالة عن أمله فى أن يعفو الإمبراطور عنه ، أو يأمر بنقله إلى مكان أقل قسوة من منفاه . وهو لا ينفك يذكر فى زوجته ويردد اسمها فى أثناء الليل ، ويتمنى أن يقبل شعرها الأبيض قبل أن تحين منيته(٩٦). ولكنه لم يصله عفو ، حتى إذا قضى فى المنفى تسع سنين وبلغ من العمر ستين عاما ، رحب بالموت ، وجىء بعظامه إلى إيطاليا استجابة لرجائه ، ودفنت بجوار عاصمة البلاد .

وحققت الأيام ما تنبأ به لنفسه من شهرة خالدة ، وكان له فى العصور الوسطى ما لفرجيل من أثر عميق ، وأضحى كتاباه « التحولات » و « الهيرويدات » مصدر كثير من روايات الحب فى تلك العصور ، واستمد منه بوكاشيو ، وتسو ، وتشوسر ، واسپنسر كثيراً من موضوعاتهم ، ووجد مصورو النهضة فى أشعاره الشهوانية كنزا من الموضـــوعات لا ينضب له معين ، وملاك القول أنه كان أعظم شاعر وجدانى إبداعى فى العصر العقلى الاتباعى .

وانقضى بموته عهد من العهود الزاهرة فى تاريخ الأدب . ولا جدال فى أن عصر أغسطس لم يكن من أزهى عصور الأدب كما كان عصر بركليز فى اليونان أو عصر إلزبث فى إنجلترا .

وقد كان حتى فى أحسن ما أخرجه من النثر بلاغة طنانة ، وفى خير ما أخرجه من الشعر كمال فى الشكل قلما ينتقل كلاهما من القلب إلى القلب ؛

ولسنا نجد فى هذا العصر من يضارع إسكاس أو يوريبديز أو سقراط أو حتى لكريشيوس أو شيشرون . لقد كان احتضان الإمبراطور للأدباء هو الذى يلهم أدب رومة ويغذيه ويقمعه ويضيق عليه . وإن العصر الأستقراطى — كعصر أغسطس أو لويس الرابع عشر أو القرن الثامن عشر فى إنجلترا — إن هذا العصر ليعلى من شأن الاعتدال والتوسط ، وحسن الذوق ، ويوجه الأدب وجهة « اتباعية » فى الأسلوب يعلو فيها العقل والشكل على الوجدان والحياة . وذلك أدب أكثر صقـــلا وأقل حيوية ، وأنضج وأقل تأثيراً من أدب العصور أو العقول المبدعـــة العاطفية . ولكننا إذا غضضنا الطرف عن هذا ونظرنا إلى أدب ذلك العصر فى نطاق الأدب العقلى الاتباعى وجدناه جديراً باسمه ؛ فنحن لا نرى من قبله حكماً رزيناً قد عبر عنه بمثل هذا الفن البالغ أوج الكمال ، وحتى المرح الجنوبى الذى وصـــفه أوفد قد خفف من حدته القالب الاتباعى الذى صب فيه . وقد بلغت اللغة اللاتينية فى شعره وشعر ڤرچيل وهوراس أعلى ما وصلت إليه بوصفها أداة لقرض الشعر ، ولم تبلغ بعدهم ما بلغته فى أيامهم من ثراء فى اللفظ ، وفخامة فى النغم ، ودقة فى التعبير مع إيجاز ومرونة وعذوبة ألفـــاظ .

الباب الثالث عشر

الجانب الآخر من الملكية

١٤ – ٩٦ م(*)

الفصل الأول

تيبريوس

إذا نزل العلماء من عليائهم إلى ميدان العواطف زاد العالم ولعاً بها ؛ أما إذا كانت العواطف هي المسيطرة على السياسة تصدعت أركان الإمبراطوريات وزلزلت دعائمها . وكان اختيار أغسطس لتيبريوس اختياراً حكيماً ، ولكنه جاء بعد فوات الفرصة . ولما كان تيبريوس يعمل على إنقاذ الإمبراطورية بصبره وحسن قيادته أوشك الإمبراطور أن يحبه ، فقد جاء في ختام إحدى الرسائل التي وجهت إليه : « وداعاً يا أحب الناس إليّ ... ويا أشجع الرجال ، ويا أعظم القواد إخلاصاً وأحياهم ضميراً »(١) . ولكن عاطفة الجوار وقرب الدار أعمت أغسطس كما أعمت من بعده أورليوس ، فنأى بجانبه عن تيبريوس وقرب إليه أحفاده الصغار ، واضطره إلى التخلي عن زواج سعيد موافق ليكون ديوث يوليا ، وغضب منه حين لم يرض عن سلوكها ، وتركه يبلغ سن الشيخوخة وهو يدرس الفلسفة في رودس . ولما تولى تيبريوس رياسة الدولة في آخر الأمر كان قد بلغ الخامسة والخمسين من عمره ، وكره المجتمع ، ولم يعد يرى في السلطان سعادة .

(*) ستكون كل التواريخ الواردة في هذا الباب وما يليه بعد الميلاد إلا إذا نبهنا بأنها قبله .

وإذا شئنا أن نفهمه على حقيقته وجب علينا أن نذكر أنه من آل كلوديوس وأنه كان أول الفرع الكلودى من الأسرة اليوليوسية الكلودية التى كان آخرها نيرون . وقد ورث عن أبويه أنبل دم فى إيطاليا ، وأضيق أهلها أفقاً ، وأقواهم إرادة . وكان طويل القامة شديد البأس ، حلو الملامح ، ولكن حبّ الشباب ضاعف من حيائه ، وسماجة طباعه ، وإحجامه وحبه للعزلة[٢] . ويمثله رأسه الجميل المحفوظ فى متحف بسطن فى صورة قس شاب عريض الجبهة ، واسع العينين غائرهما ، ذى وجه يدل على الحزن وعميق التفكير ، وقد بلغ من جده ووقاره فى شبابه أن أطلق عليه بعض المجان اسم « الرجل العجوز » . وقد أخذ من التربية كل ما يستطيع أن يأخذه عن الرومان واليونان والبيئة والتبعة ، وأتقن اللغتين اليونانية والرومانية وآدابهما ، وكتب الأغانى الشعرية ، ودرس التنجيم و « غفل عن الآلهة »[٣] . وكان يحب أخاه الأصغر دروسس رغم أنه كان أحب منه إلى الشعب ؛ وكان زوجاً مخلصاً وفياً لفِبسانيا Vipsania مكرماً لأصدقائه إكراماً لم يكونوا يترددون معه فى أن يهدوا إليه الهدايا وينتظروا منه أن يهدى إليهم أربعة أمثالها . وكان أقسى قواد زمانه وأقدرهم ، فنال بذلك إعجاب جنوده وتعلقهم به ، لأنه كان يعنى بكل شئونهم مهما صغرت ، ولأنه كان يكسب المعارك بفنه أكثر مما يكسبها بدماء جنده .

ولكن فضائله هى التى قضت عليه ، فقد كان يصدق القصص التى تروى عن أعمال أسلافه ، وكان يتوق إلى رؤية صرامة الرومان الأقدمين تعود إلى المدنية الجديدة ، وارتاح إلى إصلاحات أغسطس الأخلاقية ، ولم يخف قط عزمه على تنفيذها طوعاً أو كرهاً . ولم يكن يحب ذلك الخليط من الأجناس الذى كان يغلى فى بوتقة رومة ، فقدم إليهم الخبز ولكنه لم يقدم إليهم الألعاب ، وأغضبهم بامتناعه عن حضور ما كان يقدمه إليهم منها أثرياء المدينة . وكان قوى الاعتقاد بأن رومة لا ينجيها مما تردت فيه من الانحطاط إلا طبقة

من الأشراف الصلاب ذوى الخلق القويم والذوق الجميل . ولكن الأشراف والعامة على السواء لم يطيقوا صلابة عوده ، وصرامة وجهه ، وصمته الطويل ، وحديثه البطىء ، وما يبدو عليه من علم بتفوقه ، وفوق هذا كله اقتصاده الشديد فى أموال الدولة . فهو والحالة هذه رواقى ولد خطأ فى عصر أبيقورى . وقد حالت أمانته الصارمة بينه وبين تعلم فن سنكا ، فن الدعوة إلى عقيدة بلغة مزينة جميلة ، واتباع عقيدة أخرى والمثابرة عليها بتجمل وكياسة .

وظهر تيبريوس أمام مجلس الشيوخ بعد أربعة أسابيع من وفاة أغسطس ، وطلب إليه أن يقرر إعادة الجمهورية ؛ وقال للأعضاء إنه لا يصلح لحكم تلك الدولة المترامية الأطراف ، « وإن خير طريقة لإدارة أعمال المصالح المختلفة التى تشرف على الشئون العامة فى مدينة احتوت هذا العدد الجم من الرجال النابهين ذوى الأخلاق العالية . . . أن يتولاها جماعة مؤتلفون من خير المواطنين وأعظمهم كفاية »[٤] . ولم يجرؤ أعضاء المجلس على أن يصدقوا ما يقوله لهم ، فحيوه كما حياهم بطأطأة رؤوسهم ، وما زالوا به حتى قبل أن يتولى السلطة التى قال عنها « إنها استرقاق مهظ مذل » على أمل أن يسمح له المجلس فى يوم من الأيام أن يعتزلها ليحيا حياته الخاصة متمتعاً بالحرية[٥] . وهكذا مثلت الرواية من كلا الجانبين أحسن تمثيل . وما من شك فى أن تيبريوس كان يريد أن يتولى الزعامة وإلا لوجد سبيلا إلى الفرار منها ، وأن مجلس الشيوخ كان يخشاه ويبغضه ، ولكنه كان يرهب عودة جمهورية تقوم ، كما كانت تقوم الجمهورية القديمة ، على جمعيات تعد من الوجهة النظرية مصدر السلطات جميعها ، وكان يرغب فى نظام أقل دمقراطية من هذا النظام السالف الذكر لا أكثر منه . ولشد ما ابتهج حين أقنعه تيبريوس (١٤ م) أن يأخذ من الجمعية المئوية حق اختيار الموظفين العموميين . وشكا المواطنون من هذا الانقلاب بعض الوقت وكان سبب شكواهم أنهم خسروا الأموال التى كانت تبتاع بها أصواتهم ، وأضحى كل ما بقى بعدئذ من السلطة لعامة الناس هو سلطة

اختيار الإمبراطور بقتل سلفه . ذلك أن الدمقراطية بعد تيبريوس قد انتقلت من الجمعيات إلى الجيش ، وكانت أداة الانتخاب هي حد السيف .

ويلوح أنه كان يبغض الملكية بغضاً حقا خالياً من الرياء ، وأنه كان يعدّ نفسه رأس مجلس الشيوخ الإدارى وذراعه المنفذة ؛ ولذلك رفض من الألقاب كل ما تشتم منه رائحة الملكية وقنع بلقب « زعيم الشيوخ » Princeps senatus وقضى على كل محاولة ترمى إلى تأليهه ، أو عبادة روحه ، وأظهر كرهه للملق . ولما أراد مجلس الشيوخ أن يسمى أحد الأشهر باسمه ، كما سمى من قبل شهرين باسم قيصر وأغسطس ، رد هذه التحية رداً ينطوى على الفكاهة فقال : « وماذا تفعلون إذا وجد لديكم ثلاثة عشر قيصراً ؟ »(*) . ورفض اقتراحا يطلب إليه أن يعيد النظر فيمن يختارون لعضوية مجلس الشيوخ ، وقال إنه لا شيء مطلقاً يفوق احترامه لهذه الجمعية القديمة « جمعية الملوك » . وكان يحضر اجتماعات المجلس ، ويحيل إليه « حتى أصغر الأمور ليحكم فيها » ، ويجلس فيه ويتكلم كأنه عضو عادى لا أكثر ، وكثيراً ما كان يقترع مع الأقلية ، ولم يحتج يوماً من الأيام إذا وافق المجلس على قرارات تتعارض مع رغبته التى أبداها جهرة(٧) . و « كان منطوياً على نفسه ، صبوراً » . على حد قول سوتونيوس « إذا ما وجهت إليه وإلى أسرته الشتائم والافتراءات والمطاعن » . وكان يقول فى ذلك « إن البلد الحر يجب أن تطلق فيه حرية القول والفكر »(٨) . ويعترف تاستس وهو من المعادين له أن ترشيحاته « كانت تصدر عن حكمة ، وأن من كان يرشحهم من القناصل والبريتورين كانوا يتصفون بصفات الشرف والكمال القديمة الخليقة بمناصبهم . وكان من يلونهم من الموظفين يمارسون سلطات مناصبهم بعيدين عن

(*) ولقد كان على مجلس الشيوخ أن يعمل بقوله هذا فيقسم السنة إلى ثلاثة عشر شهراً كل منها ثمانية وعشرون يوماً يعقبها يوم عطلة (أو يومان فى السنة الكبيسة) .

تدخل الإمبراطور . وكانت القوانين إذا استثنينا ما يختص منها باغتصاب الملك تجرى فى مجراها الطبيعى . . . وكانت أعمال الإيرادات العامة يصرفها رجال امتازوا بالاستقامة والنزاهة . . . ولم تفرض على أهل الولايات أعباء جديدة ، وكانت الضرائب القديمة تجبى فى غير عنف أو قسوة . . . وساد النظام بين عبيده . . . وكانت دور العدالة مفتحة الأبواب لتفصل فى كل نزاع يقع بين الإمبراطور وأفراد الشعب ، وكان القانون وحده هو الفيصل فى هذا النزاع »(٩) .

ودام هذا الحكم الصالح ، حكم تيبيريوس ، تسع سنين ، استمتعت فيها رومة وإيطاليا والولايات بحكومة صالحة لم تر خيراً منها فى تاريخها كله . وحسبنا أن نذكر شاهداً على هذا أن تيبيريوس الذى وجد حين اعتلائه العرش فى خزانة الدولة مائة مليون سسترس ترك فيها حين وفاته ٢٫٧٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ دون أن يفرض ضرائب جديدة ، وعلى الرغم من هباته الكثيرة للأسر والمدن التى حلت بها الكوارث ، وبالرغم من عنايته بإصلاح جميع المنشآت العامة وعدم اشتباكه فى حروب تجر له المغانم ، ورفضه كل ما أراد أن يوصى به إليه أشخاص لهم أبناء أو أقارب أدنـَون . ولم يدخر جهداً فى العناية بجميع شئون البلاد الداخلية والخارجية . وكان يكتب للولاة الذين يريدون أن يجبوا من الضرائب أكثر مما كان مفروضاً على ولايتهم يقول لهم : « لقد كان من واجب الراعى الصالح أن يقص صوف غنمه لا أن يجزها »(١٠) . ولم يكن يعزو إلى نفسه مجد الظفر فى ميدان القتال وإن كان من القادة المحنكين ، وقد بسط لواء السلام على الإمبراطورية واحتفظ به بعد السنة الثالثة من حكمه .

وكانت سياسة السلام هذه هى التى حالت بينه وبين ما كان يبغيه من تقدم فى عهده . ذلك أن جرمنكوس ابن أخيه ، وهو الشاب الوسيم الذى تبناه بعد موت دروسس ، كسب بعض المعارك فى ألمانيا ورغب فى أن يواصل الزحف عليها ليفتحها . وكان من رأى تيبيريوس عدم التورط فى هذا الفتح ،

فأغضب بذلك الشعب ذا النزعة الاستعمارية . وإذ كان چرمنكوس حفيد ماركس أنطونيوس فإن الذين كانوا لا يزالون يحلمون بإعادة الجمهورية قد اتخذوه رمزاً لقضيتهم ، فلما أن نقله تيبريوس إلى بلاد الشرق عد نصف أهل رومة هذا القائد الشاب شهيدا لحسد الزعيم . ولما أن فاجأ چرمنكوس المرض ومات ظنت رومة كلها أن الإمبراطور قد أمر بأن يدس له السم فى الطعام (١٩) ، واتهم بهذه الجريمة أكنپوس پيزو أحد الموظفين المعينين من قِبَل تيبريوس فى آسية الصغرى . وحاكمه مجلس الشيوخ ، وأيقن الرجل أن مجلس الشيوخ سيدينه فانتحر لكى يحتفظ بأملاكه لأسرته . ولم تكشف المحاكمة عن شواهد تدل على ارتكاب تيبريوس لهذه الجناية أو تثبت براءته منها ، وكل ما نعرفه أنه طلب إلى مجلس الشيوخ أن يمكن پيزو من أن يحاكم محاكمة عادلة ، وأن أنطونيا أم چرمنكوس ظلت إلى آخر أيام حياتها أخلص أصدقاء تيبريوس(١١) .

واضطر تيبريوس أمام تدخل الجمهور الثائر المهتاج هذه القضية المشهورة ، والقصص البذيئة التى كانت تذاع عن الإمبراطور ، ودسائس أچرپينا أرملة چرمنكوس وإثارتها الناس عليه اضطر تيبريوس أمام هذا كله أن يلجأ إلى قانون الخيانة العظمى الذى أصدره قيصر والذى ينص على الجرائم التى ترتكب ضد الدولة . وإذ لم يكن لرومة مدع عومى أو نائب عومى ، ولم يكن لها (قبل أغسطس) شرطة ، فقد كان من حق كل مواطن ومن واجبه أن يوجه التهمة أمام المحاكم لكل شخص يعرف أنه خرق القانون ، فإذا أدين المتهم كوفئ المخبر أو المبلغ بربع أملاك المحكوم عليه وصادرت الدولة بقية أملاكه . واستعان أغسطس بهذا الإجراء الخطير لإرغام الناس على إطاعة قوانينه الخاصة بالزواج . والآن وقد انتشرت المؤامرات ضد تيبريوس فقد كثر المخبرون الذين رأوا أن يستفيدوا بالتبليغ عنها ، وكان أنصار الزعيم من الشيوخ على أتم استعداد للسير فى محاكمة المتآمرين بمنتهى الصرامة ، وحاول الإمبراطور أن يمنعهم ، ونفذ القانون

تنفيذاً صارماً فى حالة الذين اتهموا بتسوىء ذكرى أغسطس أو تدنيس تماثيله ؛ أما « الأشخاص الذين كانوا يوجهون التهم له فقد حرم أن يوقع عليهم عقاب ما » كما يقول تاستس . وأكد لمجلس الشيوخ أن والدته ليفيا تريد منهم هذه المعاملة الرحيمة لمن يعتدون على سمعتها الطيبة[١٢] .

وأضحت ليفيا نفسها فى ذلك الوقت إحدى المشكلات الكبرى فى الدولة . ذلك أن عجز تيبريوس عن الزواج قد تركه وليس له من يحميه من امرأة ذات عقلية جبارة اعتادت أن يكون لها سلطان عليه . وكانت تشعر أن تدبيرها هو الذى هيأ له السبيل لاعتلاء العرش ، وأفهمته أنه إنما يتولاه بوصفه ممثلا لها لا أكثر[١٣] . وكانت رسائله الرسمية فى سنى حكمه الأولى تحمل توقعيه وتوقيعها معاً ، وإن كان وقتئذ قدقارب الستين من عمره ، « ولكنها لم تقنع بأن تكون مساوية له فى شئون الحكم » كما يقول ديو « بل أرادت أن تفرض سيادتها عليه . . . وشرعت تصرف الأمور جميعها كأنها هى وحدها الحاكمة »[١٤] . وصبر تيبريوس على هذه الحال صبر الكرام ولكن ليفيا عاشت بعد أغسطس خمسة عشر عاما ، فشاد تيبريوس لنفسه قصراً خاصاً ، وترك أمه لا ينازعها منازع فى امتلاكها القصر الذى شيده أغسطس . وراحت ألسنة السوء تتهمه بقسوته عليها ، وبأنه أمات زوجته المنفية من الجوع . وكانت أجريبينا فى أثناء ذلك تدفع ابنها نيرون ليخلف تيبريوس على العرش أو ليغتصبه منه إن أمكن[١٥] . وتحمل هذا أيضاً على مضض ، وكل ما فعله أن أنبها على فعلتها بعبارة مقتبسة من اللغة اليونانية : « هل تظنين يا ابنتى العزيزة أنك تظلمين إذا لم تكونى إمبراطورة ؟ »(*) وكان أصعب شىء على نفسه أن يعرف أن وحيده دروسس الذى رزقه من زوجته الأولى كان فتى رقيعاً ، دنيئاً ، قاسياً ، فاسد الأخلاق ، شهوانياً ، فاجراً .

(*) أجريبينا ابنة يوليا من أجربا ، وربيبة تيبريوس بعد زواجه من يوليا ، وزوج متبناه جرمنكوس ، وكان ابنها نيرون عم الإمبراطور نيرون المعروف ، وكانت ابنتها أجريبينا الصغرى أم هذا الإمبراطور .

وكان هذا الكبت الذى فرضه تيبيريوس على نفسه ، وصبره على هذه المحن ، سبباً فى إثارة أعصابه وضيق صدره ، فأخذ يزداد انطواء على نفسه ، وبدت على وجهـــه الكآبة ، وفى حديثه الصرامة ، مما نفر منه الناس جميعاً ، وأبعدهم عنه ، اللهم إلا أصدقاءه الذين يرجون له الخير . وكان ثمة رجل واحد بدا أنه أكثر الناس وفاء له ، ذلك هو لوسيوس إيليوس سچانوس Lucius Aelius Sejanus .

وأثرت فى تيبيريوس خيبته وحزنه ، وأضحى رجلا حزيناً فريداً فى السابعة والستين من عمره ، فغادر العاصمة الهائجة المحمومة وآوى إلى كاپرى حيث عاش عيشة العزلة بعيداً عن سائر الناس . ولكن ألسنة السوء لم تنقطع عن الاستطالة فيه ، ولم يعقها عائق عن أن تتبعه فى عزلته ، فقال بعضهم إنه يريد أن يخفى عن أعين الناس جسمه الهزيل ووجهه الخنازيرى (*) ، ويطلق العنان لشهواته ورذائله غير الطبيعية[١٦]. ولا شك فى أن تيبيريوس كان كثير الشرب ، ولكنه لم يكن سكيراً ، أما قصة رذائله فأكبر الظن أنها افتراء عليه[١٧]، ويقول تاستس إن معظم من كانوا حوله من الأصدقاء فى كاپرى كانوا من اليونان الذين لا يمتازون بشىء إلا بالأدب »[١٨] . وظل وهو فى عزلته يصرف شئون الإمبراطورية تصريفاً حازماً حكيما ، إلا أنه كان يبلغ آراءه ورغباته إلى الموظفين وإلى مجلس الشيوخ على لسان سچانوس Sejanus . وإذ كان المجلس يخشاه خشية متزايدة ، أو يخشى سچانوس أو الحرس العسكرى فقد كان يقبل رغبات الإمبراطور ، ويرى أنها أوامر واجبة الطاعة . وبذلك استحالت الزعامة إلى ملكية تحت سلطان الرجل الذى عرض أن يعيد الجمهورية ، ومن غير أن يحدث أى تغيير فى دستور البلاد ، ومن غير أن يبدو من تيبيريوس نفسه أى دليل واضح على عدم الإخلاص .

وانتهز سچانوس الفرصة التى أتيحت له فنفى عدداً كبيراً من أعدائه بعد اتهامه إياهم بتهم ينطبق عليها « قانون الخيانة أو » « قانون الجلالة « حسب اسمه

(*) المصاب بداء الخنازير وهو داء من أعراضه انتفاخ الغدد فى أجزاء مختلفة من الجسم وخاصة فى العنق . (المترجم) .

اللاتيني . ولم يتدخل الإمبراطور المتعب فى هذا الأمر . وإذا كان لنا أن نصدق ما يقوله سوتنيوس فإن تيبريوس نفسه قد ارتكب كثيراً من أعمال القسوة(١٩) ، ويقول تاستس — وهو ممن لا يعتمد على أقوالهم — إنه طلب تنفيذ عقوبة الإعدام فى پپيوس سبينوس Poppaeus Sabinus بحجة أن عيونه قد سمعوه وهو يأتمر بالحكومة(٢٠) . وماتت ليڤيا بعد سنة من ذلك الوقت (٢٧) ، حزينة وحيدة فى بيت زوجها السابق ؛ ولم يحضر تيبريوس جنازتها ، ولم يكن قد رآها بعد أن غادر رومة إلا مرة واحدة . وتحرر سجانوس بموتها مما عساه أن تفرضه عليه « أم بلادها » من قيود ، فأقنع تيبريوس بأن أجرپينا وابنها نيرون كانت لهما يد فى مؤامرة سبينوس ، فنفيت الأم إلى پندتيريا Pandateria ونفى الابن إلى جزيرة پنتيا Pontia حيث قتل نفسه بعد ذلك بزمن وجيز .

وإذ كان سجانوس قد كسب كل شيء إلا عرش البلاد فقد أخذ يعمل جاهداً للوصول إليه . وكان قد أغضبه خطاب كتبه تيبريوس إلى مجلس الشيوخ يرشح فيه جيوس ابن أجرپينا ليكون زعيما من بعده ، فدبر مؤامرة لاغتيال الإمبراطوار عام (٣١) . ونجا الإمبراطور بفضل أنطونيا أم جرمنكوس إذ خاطرت بحياتها لتبعث إليه تحذره من الخطر الذى يتهدده ؛ ولم يكن الزعيم الشيخ قد فقد عزيمته بعد فعين فى السر رئيساً جديداً للحرس ، وأمر بالقبض على سجانوس ، واتهمه بالخيانة أمام مجلس الشيوخ . ولم يكن هذا المجلس فى يوم من الأيام أكثر استجابة لرغبات الأباطرة منه فى هذه المرة ، فقد أدان سجانوس من فوره ، ونفذ فيه حكم الإعدام خنقاً فى الليلة نفسها . وأعقبت ذلك فترة من حكم الإرهاب تولى قيادتها أحياناً شيوخ أضر سجانوس بمصالحهم ، أو آذى أقاربهم أو أصدقاءهم ، وأحياناً أخرى تولاها تيبريوس نفسه . ودفعه الخوف والغضب ، اللذان استوليا عليه بعد أن زال عن عينيه ما كان يغشاهما من خداع ، إلى صورة جنونية من الانتقام . وفى هذه الفترة قتل كل إنسان ذى خطر عاون سجانوس

أو كانت له يد فى تنفيذ أغراضه ، ولم تنج من القتل ابنته الصغرى نفسها ؛ وإذ كان القانون يحرم قتل العذارى فقد فضت بكارتها قبل خنقها ؛ وانتحرت مطلقته أبكاتا Apicata ، ولكنها أرسلت قبل انتحارها خطابا إلى تيبريوس تبلغه فيه أن ليڤلا Livilla ابنة أنطونيا قد اشتركت مع سجانوس فى تسميم زوجها دروس ابن الإمبراطور ، فما كان من تيبريوس إلا أن أمر بمحاكمة ليڤلا ، ولكنها امتنعت عن الطعام حتى ماتت . وبعد سنتين من ذلك الوقت (٣٣) انتحرت أجرپينا فى منفاها كما امتنع عن الطعام ابن آخر من أبنائها ، كان قد حكم عليه بالسجن ، وظل ممتنعا عنه حتى مات .

وعاش تيبريوس ستة أعوام بعد سقوط سجانوس ، وأكبر الظن أنه أصيب وقتئذ بخبال فى عقله ، وبغير هذا الافتراض لا نستطيع أن نفسر ما يعزى إليه من أعمال القسوة التى لا يصدقها عقل . فنحن نسمع أنه كان فى ذلك الوقت يؤيد تهم الخيانة العظمى التى توجه إلى الناس بدل أن يعارض فيها ، كما كان يفعل من قبل ، حتى بلغ مجموع مَن أدينوا بتلك التهمة فى حكمه ثلاثة وستين شخصاً ، وتوسل إلى مجلس الشيوخ أن يعمل على حماية « شيخ وحيد طاعن فى السن » . وفى عام ٣٧ غادر كاپرى بعد تسع سنين من السجن الاختيارى ، وطاف ببعض مدن كمپانيا . وبينا كان يستريح فى بيت لوكلس الخاوى فى ميسنوم انتابته نوبة إغماء وخيل إلى من حوله أنه قضى نحبه . والتفّت بطانته من فورها حول جايوس الذى سيصبح فى ظنها إمبراطوراً بعد قليل ، ولكنهم روعوا حين رأوا تيبريوس يفيق من نوبته . ثم أنجاهم من هذه الورطة صديق لهم جميعاً بأن كتم أنفاسه بوسادة (٣٧)[٢١] .

ويصفه ممسن Mommsen بقوله إنه كان « أقدر حاكم شهدته الإمبراطورية »[٢٢] . وقد حلت به فى حياته كل الكوارث التى يمكن أن تحل بإنسان إلا القليل النادر منها ، وحتى بعد وفاته لم ينج من قلم تاستس .

الفصل الثاني

جايوس

واحتفل الشعب بموت الإمبراطور الشيخ بهتافه : « تيبيريوس إلى نهر التيبر » ورحب بإقرار مجلس الشيوخ تنصيب جايوس قيصر چرمنكوس خليفة له . وكانت أجربينا قد ولدت جايوس وهي ترافق چرمنكوس في حروبه عند الحدود الشمالية ، فنشأ بين الجند ، ولبس لباسهم ، ولقبوه تدليلا له بلقب كالجيولا Caligula أو الحذاء الصغير أخذا من الحذاء النصفي Caliga الذي كان يحتذيه الجيش . فلما جلس على العرش أعلن أنه سيسير على المبادئ التي كان يسير عليها أغسطس في سياسته ، وأنه سيتعاون مع مجلس الشيوخ في جميع الأمور . ووزع على المواطنين التسعين مليون سسترس التي أوصى لهم بها تيبيريوس وليفيا وأضاف إليها ثلثمائة سسترس لكل واحد من المائتي ألف الذين يأخذون حبوباً من الدولة . وأعاد إلى الجمعية حق اختيار كبار الحكام ، ووعد بتخفيض الضرائب وإقامة الألعاب الكبرى ، وأرجع ضحايا تيبيريوس المنفيين ، وجاء برماد أمه إلى رومة مصحوباً بمظاهر التقوى والتكريم . ولاح أنه سيكون على النقيض من سلفه في كل شيء ، فقد كان متلافاً للمال ، مرحاً ، رحيما ، ولم يمض على اعتلائه العرش ثلاثة أشهر حتى قرب الناس للآلهة مائة وستين ألفاً من الضحايا شكراً لها على أن وهبتها زعيما فاتنا محسناً(٢٣) .

وكان الشعب قد نسي حسبه ونسبه فقد كانت جدته لأبيه ابنة أنطونيوس وكانت جدته لأمه ابنة أغسطس ، وقد تجددت في دمه الحرب التي ثار عجاجها من قبل بين أنطونيوس وأكتافيان وانتصر فيها أنطونيوس . وكان كالجيولا يفخر بمهارته في المبارزة ، والمجالدة ، وركوب العربات ، ولكنه

« كانت تنتابه نوبات الصرع » ، ويكاد فى بعض الأحيان » يعجز عن المشى أو التفكير »[٢٤] . وكان يختفى أسفل سريره إذا سمع هزيم الرعد ، ويفر مذعوراً إذا شاهد اللهب فوق بركان إتنا ؛ وكان مصاباً بالأرق يطوف به ليلا فى جنبات قصره الواسع يصيح طالباً طلوع الفجر . وكان طويل القامة ، ضخم الجسم ، كثيف الشعر ، إذا استثنينا رأسه الأصلع . وكان له صدغان منخفضان ، وعينان غائرتان ، تنفر الناس منه ، ويسر هو من ذلك النفور . وكان « يمثل بوجهه أمام المرآة كل المناظر المخيفة »[٢٥] . وكان قد أحسن تعليمه فى صباه ، فكان خطيباً مفوهاً ، حاد الذكاء ، فكهاً لا يراعى فى فكاهته احتشاماً ولا قانوناً . وقد افتتن بحب التمثيل فأعان كثيرين من الممثلين ، وكان هو نفسه يمثل ويرقص سراً . وكان إذا رغب أن يشهده النظارة دعا زعماء مجلس الشيوخ متظاهراً بأنه يدعوهم إلى اجتماع خطير ، ثم يعرض أمامهم رقصه[٢٦] . ولو أنه أتيحت له حياة هادئة يعمل فيها عملا يتحمل تبعته لجاز أن يهدئ ذلك من أعصابه ، ولكن سم السلطة ذهب بعقله ، ذلك أن صحة العقل ، كالحكم ، تحتاج إلى ضوابط وموازين ، وما من أحد من بنى الإنسان يستطيع أن يكون قادراً على كل شىء وأن يكون فى نفس الوقت سليم العقل . ولما أسدت إليه جدته أنطونيا بعض النصح أنبها بقوله : « اذكرى أن فى مقدورى أن أفعل أى شىء بأى إنسان » . وذكر لضيوفه فى إحدى الولائم أن فى وسعه أن يقتلهم كلهم وهم متكئون فى مقاعدهم ؛ وكان وهو يحتضن زوجته أو عشيقته يقول لها ضاحكا : « سيطيح هذا الرأس الجميل بكلمة تخرج من فى »[٢٧] .

وسرعان ما أخذ الزعيم الشاب يصدر الأوامر إلى مجلس الشيوخ ويطلب إليه الخضوع لهذه الأوامر ، بعد أن كان يظهر له أعظم الاحترام ، فصار يسمح

للشيوخ أن يقبلوا قدميه تعظيما له وتبجيلا ؛ ثم يتقبل الشكر منهم على تشريفه إياهم بهذا التقبيل[٢٨] . وكان شديد الإعجاب بمصر وأساليبها ، وأدخل كثيراً من هذه الأساليب إلى رومة ، وكان يتوق إلى أن يعبد على أنه إله كما كان يعبد الفراعنة ملوك مصر الأقدمون ، وجعل دين إيزيس أحد الأديان الرسمية فى الدولة ، ولم ينس أن جده الأكبر كان يعتزم ضم إقليم البحر الأبيض المتوسط تحت سلطان دولة ملكية شرقية ، فأخذ هو أيضاً يفكر فى نقل عاصمة ملكه إلى الإسكندرية ، ولم يحل بينه وبين تنفيذ قصده إلا ارتيابه فى ذكاء أهلها. ويصفه سوتونيوس بأنه كان يقضى وقته « فيما تعوده من فصاحة أخواته كلهن »[٢٩] ، فقد بدا له أن هذه عادة من أحسن العادات المصرية القديمة . ولما مرض أوصى بأن تكون أخته دروزلا Drusilla وريثة عرشه من بعده ، فلما تزوجت أرغمها على أن تطلق زوجها وأخذ « يعاملها كأنها زوجته الشرعية »[٣٠] . وكان يرسل إلى غيرها من النساء اللاتى كان يحبهن رسائل باسم أزواجهن يبلغهن فيها نبأ طلاقهن ، ثم يدعوهن إلى معانقته ، فلم توجد امرأة ذات مكانة إلا دعاها إليه . على أن هذه الصلات كلها مضافاً إليها صلات أخرى بينه وبين كلا الجنسين لم تمنعه أن يتزوج أربع مرات . وحضر مرة زفاف ليڤيا أرستلا Livia Orestilla وكيوس بيزو Caius Piso ، فما كان منه إلا أن أخذ العروس إلى بيته ، وتزوجها ثم طلقها بعد بضعة أيام . وسمع أن لوليا پولينا Lollia Paulina بارعة الجمال ، فاستدعاها إليه ، وطلقها من زوجها ، وأمرها ألا تكون لها من ذلك اليوم علاقة ما بأى رجل . وكانت زوجته الرابعة سيزونيا Caesonia حاملا من زوجها حين تزوج بها ، ولم تكن صغيرة السن أو جميلة ولكنه أحبها وأخلص لها الحب .

وكانت شئون الحكم فى هذا العبث الإمبراطورى من الأمور التى لا يعبأ بها وفى وسعه أن يتركها لغيره من أصحاب العقول الصغيرة . وقد راجع كاليجيولا السجل المحتوى على أسماء رجال الأعمال مراجعة تدل على

مقدرة فائقة ، ورقى خير هؤلاء الرجال أعضاء فى مجلس الشيوخ . ولكن إسرافه لم يلبث أن أفرغ خزانة الدولة من الأموال التى ملأها بها تيبيريوس، فبددها تبديداً منقطع النظير ؛ من ذلك أنه لم يكن يستحم بالماء بل بالعطور ، وقد أنفق على إحدى الولائم عشرة ملايين سسترس[٣١]، وبنى قوارب عظيمة للنزهة ذات عمد وشاد أبهاء للمآدب ، وحمامات ، وحدائق ، وأشجار فاكهة ، مطعمة فى مؤخرها بالجواهر . وأمر مهندسيه أن يقيموا على خليج بايا Baiae جسراً مستنداً إلى عدد من القوارب بلغ من كثرته أن عز الطعام فى رومة لعدم وجود السفن لنقل الحبوب . ولما تم بناء الجسر أقيم احتفال عظيم ، وأضيء مكان الاحتفال بالأضواء الغامرة على الطريقة الحديثة ، وأخذ الناس يقصفون ويطربون ويشربون ، حتى انقلبت بهم القوارب وغرق منهم كثيرون . وكان من عادته أن ينثر من قصر يوليا النقود الذهبية والفضية على الشعب من تحته ، ثم يراقبهم فى مرح وسرور وهم يتنازعون نزاعاً قاتلاً على اختطاف هذه النقود . وبلغ من حبه للعصبة الخضراء فى سباق الخيل أن منح سائق إحدى العربات مليونى سسترس ، وأن بنى اصطبلا من الرخام ومذوداً من العاج لجواد السباق انستاتس Incitatus ، ودعاه إلى وليمة واقترح أن يعينه قنصلا .

وأراد أن يجمع المال اللازم لعبثه وشهواته التى لم تنقطع طوال حياته فأرجع العادة القديمة ، عادة تقديم الهدايا إلى الإمبراطور ؛ وكان يتسلم هذه الهدايا بيده ، وهو جالس فى شرفة قصره ، من كل من يقدمها إليه ؛ ويشجع المواطنين على أن يذكروه فى وصاياهم ويجعلوه وارثاً لهم ، وفرض الضرائب على كل شيء : على كل طعام يباع ، وعلى كل الإجراءات القضائية ، وفرض ١٢٫٥٪ على أجور الحمالين . ويؤكد سوتونيوس أنه فرض « على مكاسب العاهرات » ضريبة « تعادل مقدار ما تناله الواحدة منهن نظير عناقها مرة » ، وقرر القانون أن تظل من كانت يوماً ما عاهراً خاضعة لهذه الضريبة وإن تزوجت[٣٢].

وكان الأغنياء فى أيامه يتهمون بالخيانة ويحكم عليهم بالإعدام لتصادر أموالهم لصالح الخزانة العامة . وكان هونفسه يبيع المجالدين والأرقاء بالمزاد العلنى ، ويرغم أشراف البلاد على حضور هذا المزاد والاشتراك فيه ؛ وكان الواحد منهم إذا غفا فسر إغفاءه بأنه عطاء ، حتى إذا استيقظ وجد نفسه قد كسب ثلاثة عشر مجالداً وخسر تسعة ملايين سترس(٣٣) ، وكان يرغم الشيوخ والفرسان على أن يجالدوا هم أيضاً فى المجتلدات. ودبرت بعد ثلاث سنين مؤامرة للقضاء على هذا العبث المذل ، ولكن كاليجولا كشف سر المؤامرة ، وانتقم لنفسه بأن فرض على البلاد عهداً من الإرهاب زاده وحشية حبه الجنونى للأذى ، فكان يأمر الجلادين بأن يقتلوا الضحايا بإثخانهم بالجراح الصغيرة الكثيرة حتى يشعروا بأنهم يموتون »(٣٤) . وإذا كان لنا أن نصدق ديوكاسيوس فإنه أرغم أنطونيا جدته التقية على أن تقتل نفسها(٣٥) ويقول سوتونيوس إنه لما قل ما يلزمه من اللحم لإطعام الوحوش التى كان يستخدمها فى الألعاب أمر أن يقدم « جميع الصلع » المساجين طعاماً لهذه الوحوش لأن فى ذلك الخير كل الخير للناس ، وإنه أمر أن يكوى جميع رجال الطبقات العليا بالحديد المحمى وأن يحكم عليهم بالعمل فى المناجم ، وأن يلقوا للحيوانات الضارية ، أو يحبسوا فى أقفاص حديدية ثم تنشر أجسامهم نصفين بالمناشير(٣٦) . تلك قصص ليس فى وسعنا أن ننفيها أو نؤيدها ونحن نوردها هنا على أنها من الروايات التى كان الناس يتناقلونها . وكل ما نستطيع أن نقوله نحن بشأنها أن سوتونيوس كان مؤرخاً ثرثاراً مولعاً باغتياب الناس ، وأن الشيخ تاستس كان يكره الأباطرة ، وأن ديوكاسيوس كتب تاريخه بعد مائتى عام من حكم كاليجولا(٣٧) . وأصدق من هذه القصص فى رأينا ما يروى من أن كاليجولا أشعل نار الحرب بين الزعامة والفلسفة بنفيه كريناس سكندس Carrinas Secundus وإصدار حكم الإعدام على اثنين آخرين من المعلمين ، وأدرج اسم الشاب سنكا بين أسماء المحكوم بإعدامهم ، ثم أنجاه من الموت مرضه واعتقاد الإمبراطور أنه

سيقضى نحبه دون حاجة إلى تجريح جسمه . ونجا كلوديوس عم كالجيولا لأنه كان أو تظاهر بكونه أبله حقيراً غلبت عليه شهوة قراءة الكتب .

وآخر ما لجأ إليه كالجيولا من العبث أن أعلن أنه إله معبود لا يقل شأناً عن جوپتر نفسه ، وحطمت رؤوس التماثيل الشهيرة المقامة لجوف وغيره من الأرباب ، ووضعت فى مكانها رؤوس للإمبراطور . وكان يسره أن يجلس فى هيكل كاسترو بلكس Castor and Pollux ويتلقى عبـادة الناس . وكان يحلو له فى بعض الأحيان أن يتحدث إلى تمثال من تماثيل جوبتر ، وكان هذا الحديث فى الغالب تأنيباً للإله ، وقد استطاع بحيلة من الحيل أن يجيب عن قصف الرعد ووميض البرق كلما قصف الأول وأومض الثانى(٣٨) . وأقام هيكلا لعبادته ، وعين له جماعة من الكهنة ، وأمده بطائفة مختارة من الضحايا ، وعين جواده المحبوب كاهناً من بين كهنته . وادعى أن إلهة القمر قد نزلت إليه وعانقته ، وسأل ڤيتليوس Vitellius ألم يرها بعينه ؟ فكان جواب تابعه الحكيم « لا ، إن أمثالك من الآلهة هم وحدهم الذين يرى بعضهم بعضاً(٣٩) . ولكن الناس لم تخدعهم هـذه السخافات ؛ من ذلك أن إسكافاً غالياً رأى كالجيولا متخفيا فى صورة جوبتر ، وسئل عن رأيه فى الإمبراطور فقال : « مخادع كبير » وعلم بذلك كالجيولا ولكنه لم يعاقب الرجل على هذه الشجاعة السارة(٤٠) .

وما كاد هذا الإله يبلغ التاسعة والعشرين من عمره حتى أضحى شيخاً منهوك القوى من طول الإفراط ، ولعله أصيب ببعض الأمراض السرية ، وحتى كان له رأس صغير نصف أصلع فوق جسم مسترخ بدين ، ووجه كالح ، وعينان غائرتان ، ونظرات خبيثة تنم عن الغدر والخيانة . ووافته المنية على غفلة ، وكانت منيته على يد الحرس البريتورى الذى طالما ابتاع معونته بالهدايا . وذلك أن ضابطا من ضباط الحرس يدعى كاسيوس كثيريا

Cassius Chaerea أهانه كالجيولا مراراً كثيرة بالألفاظ البذيئة التى كان يبلغها إليه كل يوم لتكون بمثابة سر الليل وجواز المرور ؛ فقتله سراً فى أحد ممرات الملهى (٤١) . ولما ذاع الخبر فى المدينة تردد أهلها فى تصديقه ، وظنوا أنه حيلة من حيل الإمبراطور الخبيث يريد بها أن يعرف أى الناس يبتهج بموته . وأراد مغتالوه ألا يتركوا الناس فى شكهم فقتلوا زوجته الأخيرة ؛ وحطموا رأس ابنته بدقه فى أحد الجدران . ويقول ديو إن كالجيولا عرف فى ذلك اليوم أنه ليس إلها(٤١) .

الفصل الثالث

كلوديوس

ترك كاليجولا الإمبراطورية والأخطار تتهددها من كل ناحية : فالخزانة خاوية ، ومجلس الشيوخ قد اضمحل وضعف شأنه ، والشعب غاضب ثائر ، وموريتانيا Moretania ثائرة ، وبلاد اليهود قد امتشقت الحسام لأنه أصر على أن يوضع تمثاله ليعبد فى هيكل أورشليم ، ولم يكن أحد يعرف أين يوجد الحاكم القدير الخليق بأن يواجه هذه المشاكل . ولكن حدث أن عثر الحرس البريتورى على كلوديوس الظاهر البلاهة مختبئاً فى أحد الأركان ، فنادوا به إمبراطوراً . وخشى مجلس الشيوخ صولة الجند ، ولعل هذا الاختيار قد انجاه من موقف لم يكن يحمده ، وسره أن يتعامل مع إنسان متحذلق عديم الأذى بدل أن يتعامل مع رجل مجنون مستهتر لا يعبأ بشىء . ولهذا أيد الحرس فى اختياره وارتقى تيبيريوس كلوديوس قيصر أغسطس جرمنكوس عرش الإمبراطورية فى تردد وخشية .

وكلوديوس هذا ابن انطونيا ودروسس وأخو جرمنكوس وليڤلا ، وحفيد أكتاڤيا وأنطونيوس ، وليڤيا وتيبيريوس كلوديوس نيرون . وكان مولده فى لجدنوم Lugdunum (ليون الحالية) فى السنة العاشرة قبل الميلاد ، وكان وقت أن اختير إمبراطوراً فى الخمسين من عمره ، طويل القامة ممتلىء الجسم ، ذا شعر أبيض ووجه بشوش ، ولكن شلل الأطفال وغـيره من الأمراض قد أضعفت بنيته . وكانت ساقاه رفيعتان لا تكادان تقويان على حمله ، فكان يحجل فى مشيته ، وكان رأسه يتأرجح فوق كتفيه . وكان مغرماً بالخمر الجيد والطعام الشهى ، وكان يشكو داء الرثية ، ويتمتم قليلا إذا تحدث ، وإذا ضحك رفع صوته

إلى حد لا يليق بالأباطرة . ويقول عنه شانتوه القساة إنه كان إذا غضب خرج الزبد من فمه وسال المخاط من أنفه »(٤٣) . وقد قام على تربيته النساء والأرقاء المحررون ، فنشأ هياباً حساساً ، وهما صفتان قلما تصلحان للحكام ، ولم تكد تسنح له الفرص للتدرب على ممارسة شئون الحكم . وكان أقرباؤه يرونه إنساناً مريضاً ضعيف العقل ؛ وكانت أمه التى ورثت عن أكتافيا رقتها وظرفها تسميه « الهولة التى لم يكتمل خلقها » ، وكانت إذا أرادت أن تعير إنساناً بشدة البلاهـــة وصفته بأنه : « أشد بلاهة من ابنى كلوديوس » . وإذا كان محتقراً من جميع الناس فقد عاش خاملا مغموراً آمنا لذلك على نفسه ، يقضى وقته بين الميسر والكتب والشراب ؛ وتفقه فى اللغة وفى العاديات ، وكان ضليعاً فى الفنون « القديمة » ، والدين ، والعلوم الطبيعية ، والفلسفة ، والقانون . وقد كتب تاريخاً لإترووريا ، وقرطاجنـــة ، ورومة ، ورسالة فى النرد ، وأخرى فى حروف الهجاء ، وملهاة يونانية ، وترجمة لحياته . وكان العلماء والفلاسفة يراسلونه ويهدون إليه مؤلفاتهم ، وينقل عنه بلنى الأكبر ويعده من الثقاة الذين يعتمد عليهم . وقد علم الناس وهو إمبراطور كيف يعالجون عض الأفاعى ، وهدأ مخاوف الشعب الخرافية بأن تنبأ بكسوف الشمس فى يوم ميلاده وفسر لهم سبب هذا الكسوف . وكان يحسن الكلام باللغة اليونانية ، وكتب عدداً من مؤلفاته بهذه اللغة ؛ وكان حسن النية ، ولعله كان صادقاً حين قال فى مجلس الشيوخ إنه كان يتظاهر بالغباوة لينجو من الموت .

وكان أول أعماله وهو إمبراطور أن منح كل جندى من جنود الحرس الذين رفعوه على العرش خمسة عشر ألف سسترس . وكان كالجيولا قد وهبهم من قبل هبات من هذا النوع ولكنه لم يهبها لتكون ثمناً صريحاً لعرش الإمبراطورية . واعترف كلوديوس وقتئذ بسلطان الجيش وسيادته فى الوقت الذى ألغى فيه مرة أخرى حق الجمعية فى اختيار كبار الحكام . وكان أكثر حكمة وكرماً من سلفه ، فوضع حداً للاتهام بالخيانة ، وأطلق

سراح من سجنوا من قبل بمقتضى هذا الاتهام ، وأعاد جميع المنفيين إلى أوطانهم ، ورد الأموال المصادرة إلى أصحابها ، وألغى الضرائب التي فرضها جايوس . لكنه أمر بإعدام قتلة كاليجولا ، وحجته في هذا أن الخطر كل الخطر في التغاضي عن قتلة الأباطرة . وحرم عادة السجود للإمبراطور ، وأعلن في صراحة أنه لا يريد أن يتخذ إلهاً يعبد . وحذا حذو أغسطس في إصلاح المعابد ودفعه شغفه بالآثار القديمة إلى السعي لبعث الدين القديم . وانكب بجد وإخلاص على العناية بالشئون العامة ، وبلغ من عنايته بها أن كان «يطوف بمن يبيعون السلع ويؤجرون المبـــانى ، ليقوم كل ما يعتقد أن فيه ضرراً بمصالح الشعب »(٤٤) . ولكنه وإن جارى أغسطس في اعتداله خرج عن تحفظ أغسطس وحذره إلى سياسة قيصر الجريئة المتشعبة ، فسعى إلى إصلاح أداة الحكم والقانون ، وأنشأ المباني والخدمات العامة ، وأعلى من شأن الولايات ، ومنح الحقوق الانتخابية لغالة وفتح بريطانيا وصبغها بالصبغة الرومانية . وقد أدهش الناس جميعاً حين أظهر أنه ذو خلق وإرادة ، وليس ذا علم وذكاء فحسب . ولم يكن أقل ثقة من قيصر وأغسطس بأن كبار الحكام في الأقاليم قليلو العدد ناقصو المران ، وأن مجلس الشيوخ يمنعه كبرياؤه ونزقه من الاضطلاع بمهام الإدارة البلدية والإمبراطورية المعقدة المتنوعة ؛ من أجل هذا كان يعظم المجلس فترك له سلطات كثيرة ، ومظاهر شرف وكرامة أكثر من هذه السلطات ؛ أما شئون الحكم الحقيقية فكان يضطلع بها بنفسه يعاونه مجلس يعين هو أعضاءه ، وهيئة من الموظفين العموميين نظمها تدريجاً واختار أفرادها ، كما اختارهم قيصر وأغسطس وتيبريوس ، من أرقاء بيت الإمبراطور المحررين ؛ واستخدم في الأعمال الكتابية والواجبات الصغرى أرقاء « عموميين » . وكان على رأس هذه الإدارة البيروقراطية أربعة وزراء : وزير دولة (« للمواصـــلات » ab epistulis) ، ووزير مالية (« للحسابات » a rationibus) ، ووزير آخر (« للملتمسات » a libellis » ، ونائب عمومي (« للقضـــايا القانونية » a cognitionibus) . وتولى الثلاثة

المناصب الأولى ثلاثة من أقدر الأرقاء المحررين — نارسس Narcissus ، وبلاس Pallas ، وكالستس Callistus . وكان ارتقاؤهم إلى هذه المناصب ذات الثراء والجاه إيذاناً بارتفاع شأن طبقة المحررين إلى أعلى الدرجات ، وهو ارتقاء كان يسير فى مجراه منذ قرون عدة ، وبلغ فى عهد كلوديوس هذه الدرجة الرفيعة . ولما احتج الأشراف على وضع السلطة فى أيدى هؤلاء العصاميين الحديثى النعمة كان جواب كلوديوس أن أعاد منصب الرقيب ؛ وأن اختير هو ليشغل هذا المنصب ، وأن أعاد النظر فى سجل الأشخاص الذين يختار منهم أعضاء المجلس ، فمحا منه أسماء كبار المعارضين لسياسته ، وأضاف إليه أعضاء جدداً من الفرسان ومن أهل الولايات .

ولما تهيأت له هذه الأداة الإدارية وضع لنفسه منهاجاً واسعاً من المنشئات العامة والإصلاحات ، فأصلح نظام المرافعات أمام المحاكم وفرض عقوبات على تأخير القضايا ، وجلس على منصة القضاء ساعات طوالا كل أسبوع ، وحرم تعذيب أى واحد من المواطنين . وأراد أن يقى مدينة رومة غائلة الفيضانات المخربة التى أصبحت تهددها وقتئذ أكثر من ذى قبل لأن سفوح الأپنين أخذت تجرد من الأشجار ، فأمر بحفر مجرى إضافى فى الجزء الأدنى من نهر التيبر . ولكى يعجل باستيراد الحبوب إلى إيطاليا أمر بإنشاء مرفأ جديد بالقرب من أستيا Ostia ، وأقام فيه مخازن ، وأحواضاً ، ورصيفين عظيمين لتقليل حدة أمواج البحر ، وحفر قناة توصل الميناء بنهر التيبر فى نقطة بعيدة عن مصبه الذى يسده الغرين . وأتم بناء قناة « كلوديوس » التى بدأها كاليجولا لنقل الماء العذب إلى رومة ، وشاد قناة أخرى ، وكانت كلتاهما من الأعمال الضخمة المشهورة بجمال منظرها وبعقودها الشامخة . ولما رأى أن أراضى المرسيين Marsians تتحول فى بعض فصول السنة إلى مناقع حين تفيض بحيرة فوسنس ، خصص جانباً من أموال الدولة تؤدى منه أجور ٣٠٫٠٠٠ عامل مدة أحد عشر عاماً

ليحفروا نفقاً طوله ثلاثة أميال يصل البحيرة بنهر سريز Ciris مخترقاً بعض الجبال . وقبل أن تنطلق مياه البحيرة فى هذا النفق أجرى فوق مياه البحيرة معركة بحرية صورية بين أسطولين عليهما تسعة عشر ألفاً من المجرمين الذين أدانتهم المحاكم ، وشهدها خلائق اجتمعوا من كافة أنحاء إيطاليا فوق التلال المشرفة على البحيرة . وحيت هذه الجموع الإمبراطور بالعبارة التاريخية المأثورة : « مرحباً بقيصر ! نحن الذين نوشك أن نموت نحييك Ave Caesar ! morituri salutamus te (٤٥) .

وازدهرت أحوال الولايات فى عهده كما ازدهرت فى عهد أغسطس ، وعاقب الموظفين على سوء استخدام سلطة وظائفهم إلا فى حالة واحدة هى حالة فلكس المدعى العمومى فى بلاد اليهود ، وذلك لأن پلاس Pallas شقيق الشخص الذى نم على القديس پولس أخفى جرائمه عن الإمبراطور ، وكان يهتم بكل صغيرة وكبيرة من أعمال الولايات . وتمتاز مراسيمه التى عثر عليها فى كافة أنحاء الإمبراطورية بالإسهاب والتكرار ، ولكنها تكشف عن عقلية وعن إرادة منصرفتين إلى تحقيق الصالح العام . وقد بذل جهده لإصلاح وسائل المواصلات والنقل ، وحماية المسافرين من اعتداء اللصوص وقطاع الطريق ، وفى خفض ما تتكلفه الهيئات من نفقات الوظائف العامة المنشأة لخدمتها . وكان يرغب كما يرغب قيصر فى رفع شأن الولايات حتى تعادل إيطاليا نفسها وحتى تكون كلها وحدات متساوية فى مجموعة الأمم الرومانية ، فنفذ ما كان يعتزمه قيصر من منح حقوق المواطنية الرومانية لبلاد غالة الجنوبية ، ولو استطاع أن ينفذ رغباته لمنح هذا الحق جميع الرجال الأحرار فى الإمبراطورية (٤٦) . ولقد كشفت فى مدينة ليوم عام ١٥٢٤ لوحة برنزية احتفظت لنا بجزء من الخطبة الطويلة الكثيرة الاستطراد التى أقنع بها مجلس الشيوخ بأن يقبل فى عضويته وفى المناصب الإمبراطورية أولئك الغاليين الذين منحوا حق المواطنية الرومانية ، ولم يسمح فى الوقت نفسه بأن يضعف الجيش أو يعتدى على حدود الدولة ، فظل الجيش عاملا

قائما بمهمته ومستعداً على الدوام للقيام بها ، ونشأ فى أيامه قوّاد عظام من أمثال كربولا Carbula ، وڤسپازيان Vespasian ، وپولينسPaulinus ؛ وتكونوا بفضل اختياره وتشجيعه . وقرر كذلك أن يتم مشروعات قيصر فغزا بريطانيا فى عام ٤٣ وفتحها ، وعاد منها إلى رومة بعد أن غاب عنها ستة أشهر ، ولما أقيم له احتفال بالنصر بعد عودته خالف جميع السوابق بأن عفا عن كركتكوس Caractacus ملكها الأسير . وسخر أهل رومة من عمل إمبراطورهم العجيب ولكنهم أحبوه ، ولما أن راجت مرة من المرات فى أثناء غيابه عن العاصمة ، شائعة كاذبة بأن الإمبراطور قد قتل ، عمت المدينة موجة من الحزن لم يسع مجلس الشيوخ معها إلا أن يؤكد للناس تأكيداً رسمياً بأن الإمبراطور لم يصب بسوء ، وأنه سيعود قريباً إلى رومة .

لكنه سقط من هذا العلو الشاهق لأنه أقام نظاماً للحكم أكثر تعقيداً مما يستطيع الإشراف عليه بنفسه ، ولأن عبيده المحررين وأفراد أسرته أساءوا استغلال لطفه وعطفه . لقد أصلحت البيروقراطية التى أنشأها أحوال الإدارة ، ولكنها نتحت فيهـــا آلاف الثغرات للرشا والفساد ؛ وكان نارسس وبلاس من أعاظم رجال السلطة التنفيذية الذين يرون أن مرتباتهم أقل من كفايتهم ، فكانا يستعيضان عن هذا الفرق ببيع المناصب واغتصاب الرشا بالتهديد ، وتوجيه التهم الكاذبة إلى من يريدون مصادرة ضياعهم من الأثرياء . وكانت نتيجة ذلك أن أصبحا أغنى الناس جميعاً فى التاريخ القديم كله فكان نارسس يمتلك ٤٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ سسترس (٨٦ر٠٠٠ر٠٠٠ ريال أمريكى) وكان بلاس يشكو البؤس لأنه لم يكن له إلا ٣٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ فقط(٤٧) . ولما شكا كلوديوس من وجود عجز فى خزانة الإمبراطورية ، قال الثرثارون الرومان إن فى وسعه أن ينال كفايته من المال وفوق كفايته منه إذا أشرك معه فى الحكم عبديه المحررين(٤٨) . وروّعت هذه السلطات العظيمة والأموال المكدسة الأسر الشريفة القديمة التى أضحت وقتئذ فقيرة

بالقياس إلى هؤلاء العصاميين ، وكانت تتلظى غيظا حين تضطر إلى رجاء العبيد السابقين أن يسمحوا لها بأن تتحدث إلى الإمبراطور .

أما كلوديوس فقد كان منهمكا فى العمل ، يكتب إلى الموظفين والعلماء ، ويعد المراسيم والخطب ، ويؤدى حاجات زوجته . ذلك رجل كان خليقاً به أن يعيش عيشة الرهبان ، وأن يحصن نفسه من الحب ، لأن زوجاته كن سبباً فى القضاء عليه ، كما كانت سياسته فى منزله أقل نجاحا من سياسته الخارجية . وقد تزوج كما تزوج كاجيولا أربع مرات ، فأما زوجته الأولى فماتت فى يوم زفافها ، وأما الثانية والثالثة فقد طلقهما ؛ ولما كان فى الثامنة والأربعين من عمره تزوج فليريا مسالينا وهى فتاة فى السادسة عشرة ، لم تكن بارعة الجمال . فقد كان رأسها مستوياً ، ووجهها متورداً ، وصدرها قبيح الشكل(٤٩) . ولكن المرأة ليست فى حاجة إلى الجمال لكى تكون زانية ، ولما أن اعتلى كلوديوس عرش الإمبراطورية تخلقت بأخلاق نساء الملوك ، وادعت لنفسها حقوقهن ، فكانت ترافقه فى مواكب نصره ، وعملت على أن تحتفل بعيـــد ميلادها فى سائر أنحاء الإمبراطورية . ثم أحبت الراقص منستر Mnesrer ، ولما صد عنها طلبت إلى زوجها أن يأمره بأن يكون أكثر إطاعة لرجائها ؛ وأجابها كلوديوس إلى ما طلبت ، وخضع الراقص إليها استجابة لدواعى الوطنية . وابتهجت مسالينا بنجاحها فى خطتها التى لم تكلفها إلا أقل العناء ، واتبعتها مع غيره من الرجال ، فأما الذين لم تنجح معهم هذه الخطة وظلوا على صدودهم فقد اتهمهم الموظفون الخاضعون لسلطانها بجرائم اخترعوها من عندهم اختراعا ، فصودرت أملاكهم وحرموا من حريتهم ومن حياتهم نفسها فى بعض الأحيان(٥٠) .

ولعل الإمبراطور كان يسمح بهذا العبث وتلك الأعمال الشاذة ليضمن لنفسه هو الآخر حرية الاستمتاع بما يريد من الملاذ ، « فقد كان مفرطاً فى شهواته

النسائية » كما يقول سوتونيوس ، ثم يضفى عليه بعدئذ هذه الميزة العجيبة التى يفضل بها غيره من الناس فيقول : « وكان مبرءاً من الرذائل غير الطبيعية »[٥١] ويقول ديو : إن مسالينا « كانت تقدم إليه بعض الفتيات ذوات الجمال الجذاب ليضاجعهن »[٥٢] . وإذ كانت الإمبراطورة فى حاجة إلى المال تستعين به على عيشها واستهتارها فقد كانت تبيع المناصب ، والتوصيات ، وعقود الأعمال العامة . ونقل المؤرخون عن چوڤنال أنها كانت تدخل المواخير متخفية ، وتستقبل كل من يدخلها ، وتأخذ منهم كل ما يقدمون لها من الأجور وهى منشرحة الصدر راضية . وأكبر الظن أن هذه القصة منقولة عن المذكرات الضائعة التى كتبتها أجربينا الصغرى التى خلفت مسالينا وكانت من ألد أعدائها . ويروى تاستس أنه « بينما كان كلوديوس يقضى وقته كله فى تصريف شئون منصب الرقيب الذى كان يتولاه »[٥٣]— والذى يشمل فيما يشمله من الواجبات رفع مستوى أخلاق الرومان — كانت مسالينا « تطلق العنان لحبها » ، وبلغ من استهتارها آخر الأمر أن تزوجت رسمياً من شاب وسيم يدعى كيوس سليوس Caius Silius حين كان زوجها غائباً فى أستيا ، وأن تزوجت به « فى احتفال مهيب صحبتــه كل المراسيم المعتادة[٥٤] . وأبلغ نارسس النبأ إلى الإمبراطور عن طريق سراريه[٥٥]، وحذره من مؤامرة تدبر لاغتياله وإجلاس سيليوس مكانه على العرش . فعجل كلوديوس بالعودة إلى رومة ، واستدعى الحرس البريتورى ، وامر بذبح سليوس وغيره من عشاق مسالينا ثم آوى إلى حجراته محطم الأعصاب منهوك القوى . أما الإمبراطورة فقد أخفت نفسها فى حدائق لوكلس التى كانت قد صادرتها لتتخذها مسرحاً للهوها وملذاتها . وبعث إليها كلوديوس برسالة يدعوها فيها إلى الحضور للدفاع عن نفسها .وخشى نارسس أن يصفح عنها الإمبراطور ويصب جام غضبه عليــه هو فأرسل إليها بعض الجند وأمرهم بقتلها ، فوجدوها وحدها مع أمها ، وقتلها بعضهم بضربة واحدة وترك جثتها بين ذراعى

أمها(٥٨). وقال كلوديوس لحرسه البريتورى إنهم فى حل من دمه إذا تزوج مرة أخرى ولم يرد ذكر مسالينا على لسانه من تلك الساعة(*) .

ولكن لم تمض سنة على وعده هذا حتى كان يتردد بين الزواج من لوليا پولينا Lollia Paulina أو من أجرپينا الصغرى . فأما لوليا زوجة كاليجولا السابقة فكانت ذات ثروة طائلة ، ويقال إنها كانت فى بعض الأحيان تتحلى بجواهر تبلغ قيمتها أربعين مليون سسترس(٥٩) ، ولعل كلوديوس كان يعجب بمالها أكثر من إعجابه بذوقها ؛ وأما أجرپينا فكانت ابنة أجرپينا الكبرى من جرمنكوس . وكانت هى الأخرى يجرى فى عروقها دم أكتافيان وأنطونيوس اللذين ماتا عدوين . وقد ورثت عن أمها جمالها ، وكفايتها ، وقوة عزيمتها وحبها للانتقام حبا لا يحد منه شيء من وخز الضمير . وكانت قد ترملت مرتين ، ورزقت من زوجها الأول أكنيوس دومتيوس أهينوباربس Cnoeus Domitius Ahenobarbus ابنها نيرون ، وكان كل همها طول حياتها أن يرتقى ابنها هذا عرش الإمبراطورية . وأما زوجها الثانى كيوس كرسپس Caius Crispus الذى تقول الشائعات إنها قتلته بالسم فقد ورثت عنه الثروة الطائلة التى استخدمتها للوصول إلى أغراضها . وكان هدفها أن تتزوج كلوديوس ، وأن تتخلص بوسيلة ما من ابنه برتنكس ، وأن تجعل نيرون بعد أن يتبناه كلوديوس وارث العرش من بعده . ولم يعقها عن تنفيذ قصدها أنها ابنة أخت كلوديوس ، بل أتاحت لها هذه الصلة فرصاً ثمينة للاتصال بالحاكم الشيخ اتصالا أثار فيه عواطف ليست من قبيل عواطف الخال نحو ابنة أخته . ولم يكن منه إلا أن وقف فجأة أمام مجلس الشيوخ وطلب إليه أن يأمره بالزواج

(*) وقد حاول فريرو(٥٦) Ferrero ، وبيورى Bury (٥٧) أن يفسرا زواج مسالينا من رجلين تفسيراً يبرره ، ولكن تاستس يؤكد القصة « التى يؤكدها الكتاب المعاصرون كما يؤكدها رجال موقرون كبار كانوا يعيشون فى ذلك الوقت ، وكانوا على علم بأحواله كلها »(٥٨)

مرة أخرى لخير الدولة ؛ ووافق المجلس على طلبه ، وسخر منه رجال الحرس البريتورى ، ووصلت أجرپينا إلى العرش (٤٥) .

وكانت و ئذ فى الثانية والثلاثين من عمرها ، أما كلوديوس فكان فى السابعة والخمسين ؛ وكانت قواه آخذة فى الانحلال ، أما هى فكانت فى عنفوان قوتها ، وتغلبت عليه بكل ما وهبت من سحر وفتنة ، فأقنعته بأن يتبنى نيرون وأن يزوج الشاب البالغ من العمر ستة عشر عاما بابنته أكتاڤيا وهى فتاة فى الثالثة عشرة من عمرها (٥٣) . ولما تم لها هذا أخذت تزيد من سلطانها السياسى عاما بعد عام ، حتى استطاعت فى آخر الأمر أن تجلس معه على سرير الملك ، ثم استدعت الفيلسوف سنكا من حيث كان منفياً بأمر كلوديوس ، وعينته مدرساً خاصا لابنها (٤٩) ، وأفلحت فى تعيين صديقها بروس Burrus رئيسا للحرس البريتورى . فلما استحوذت على السلطان بهذه الطريقة حكمت البلاد حكما قويا خليقاً بالرجال ، وساد النظام والاقتصاد فى بيت الإمبراطور ؛ ولو أنها لم تطلق العنان لجشعها وحرصها على المال وحبها للانتقام لكان حكمها خيراً لرومة ورحمة بها ، لكنها أطلقت العنان لهذا الجشع فأمرت بقتل لوليا پولينا لأن كلوديوس نطق عفواً فى لحظة من اللحظات بكلمة أشار فيها إلى رشاقة لوليا وهى إشارة لاتعفو عنها قط زوجة . ثم أمرت بدس السم لماركس سلانس Marcus Silanus لخوفها أن يعينه كلوديوس وارثاً له من بعده ، وائتمرت مع پلاس ونارسس ، وبذلك قضى ملك المال ، الذى لم يكن وفاؤه يقل عن تلوث يده ، بقية حياته فى السجن . وكان الإمبراطور قد أضعفه اعتلال صحته ، وجهوده الفنية ، ومغامراته النسائية ، فترك پلاس وأجرپينا يروعان البلاد بحكم إرهابى آخر . فكان الناس ينهبون وينفون أو يقتلون لأن الخزانة خلت من المال الذى أنفق فى الأعمال العامة والألعاب وأضحت فى حاجة إلى أن تملأ بالأموال المصادرة . وكانت نتيجة هـذا أن خمسة وثلاثين من الشيوخ وثلثمائة من الفرسان حكم عليهم بالإعدام فى

الثلاثة عشر عاما التى حكمها كلوديوس . وقد يكون لبعض هذه الأحكام ما يبررها لأن من نفذت فيهم دبروا المؤامرات أوارتكبوا الجرائم ، وإن كنا لانستطيع أن نقرر هذا واثقين . ولقد ادعى نيرون فيما بعد أنه فحص عن جميع أوراق كلوديوس ، وأنه تبين من ذلك الفحص أن الامبراطور نفسه أمر بأن يحاكم كل واحد ممن سيقوا أمام القضاء[٦٠] .

وتنبه كلوديوس إلى ما كانت تفعله أجربينا بعد زواجه بها ، فاعتزم أن يضع حدا لسلطانها ، وأن يفسد عليها ما دبرته لنيرون ، فيعين برتنكس وارثا للملك من بعده ، ولكن أجربينا كانت أقوى منه عزما وأقل منه إصغاء لصوت الضمير ، فلما علمت نية الإمبراطور جازفت بكل شيء ، فأطعمت كاوديوس فطراً ساماً قضى عليه بعد آلام مبرحة دامت اثنتى عشرة ساعة دون أن يستطيع النطق بكلمة واحد (٥٤) . ولما ألهه مجلس الشيوخ ، وكان نيرون قد اعتلى العرش ، قال إنه لا يشك فى أن الفطر هو طعام الآلهة ، لأن كلوديوس أصبح بعد أن أكله إلهاً يعبد[٦١] .

الفصل الرابع

نيرون

ينتمى نيرون من جهة أبيه إلى أسرة الدوميتين الأهينوياربين Domitii Ahenobarbi ، وقد لقبوا بهذا اللقب لأن رجال هذه الأسرة كانت لهم لحى شبيهة فى لونها بلون البرنز . وقد اشتهروا فى رومة مدى خمسمائة عام بقدرتهم وجرأتهم ، وغطرستهم ، وشجاعتهم ، وقسوة قلوبهم . وكان جد نيرون لأبيه مولعاً بالألعاب وبالمسرح ، وكان يسوق عربة فى السباق ، وينفق الكثير من الأموال على الوحوش والمجتلدات ، وقد اضطر أغسطس إلى تأنيبه لقسوته الوحشية فى معاملة موظفيه وأرقائه . وقد تزوج بأنطونيا ابنة أنطونيوس وأكتافيا . وزاد ابنه أكنيوس دوميتيوس من شهرة الأسرة بانهماكه فى الفسق ، ومضاجعة المحارم ، والوحشية والخيانة . وقد تزوج فى عام ٢٨ م بأجرپينا الثانية ولم تكن وقتئذ تزيد على الثالثة عشرة من عمرها ، وإذ كان على علم بآباء زوجته وآبائه فقد اعتقد : « أن لا خير مطلقاً يمكن أن يؤدى إليه قراننا »(٦٢) . وقد أطلقا على ابنهما الوحيد اسم لوسيوس Lucius وأضافا إليه لقب نيرون ، ومعناه فى اللغة السبينية : القوى الشجاع .

وكان أهم من علموه هما كرمون Chaeremon الرواقى الذى علمه اللغة اليونانية ، وسنكا الذى علمه الأدب والأخلاق ولكنه لم يعلمه الفلسفة ؛ ذلك أن أجرپينا منعته من تعلم الفلسفة لزعمها أنها تجعل نيرون غير صالح لتولى عرش الإمبراطورية(٦٣) . وما من شك فى أن نتيجة هذا التحريم تشهد بفضل الفلسفة . وقد شكا سنكا ، كما يشكو كثير من الأساتذة ، من أن الأم كانت تفسد عليه عمله بتدخلها فيه ، فقد كان الغلام يهرول إليها كلما أنّبه مدرسه ، ولم يكن يشك فى أنها ستحنو عليه وتدلله . وقد حاول

سنكا أن ينشّئه على حب التواضع ، ودماثة الخُلق ، والبساطة ، والتقشف ، والصبر على الشدائد ؛ وإذا كان قد حرم عليه أن يفصل له القول فى عقائد الفلاسفة وجدلهم ، فلا أقلّ من أن يهدى إليه الرسائل البليغة التى كان يؤلفها ، ويأمل أن يقرأها تلميذه فى يوم من الأيام . وكان الأمير الشاب طالباً مجدًّا ، وكان فى وسعه أن يكتب شعراً لا بأس به ، وأن يخطب فى مجلس الشيوخ بالرقة والأدب اللذين كان يخطب بهما أستاذه نفسه . ولما مات كلوديوس لم تجد أجرپينا صعوبة ما فى تثبيته على العرش ، وخاصة بعد أن ضمن له بروس تأييد الحرس بكامل قوّته .

وكافأ نيرون الجند مكافأة مجزية ووهب كل مواطن أربعمائة سسترس ، وألقى فى تأبين سلفه خطبة أثنى عليه فيها ثناء جماً ، كتبها له سنكا[٦٤] . وهو الذى نشر بعد قليل بغير توقيع هجاء مقذعاً فى الإمبراطور المتوفى قال فيه إنه طرد من أوليمپس . وقدم نيرون مظاهر الخضوع المعتادة إلى مجلس الشيوخ ، واعتذر فى أدب وتواضع عن صغر سنه ، وأعلن أنه لن يحتفظ بشىء من السلطات التى كان الزعيم يتمتع بها حتى ذلك الوقت عدا قيادة الجيوش — وهو اختيار عملى يشعر بذكاء تلميذ الفيلسوف . والراجح أنه كان مخلصاً فى وعده — لأن نيرون وفى به بأمانة مدى خمسة أعوام[٦٥] — وهى الخمسة الأعوام النيرونية Quinquennium Neronis التى كان تراچان يراها خير السنين فى تاريخ الحكومة الإمبراطورية[٦٦] . ولما اقترح مجلس الشيوخ أن تقام تماثيل من الذهب والفضة تكريماً له ، رفض الإمبراطور الذى لم يتجاوز السابعة عشرة من عمره هـذا العرض . ولما اتهم رجلان بأنهما يفضلان عليه برتنكس أمر أن يلغى هذا الاتهام ، وتعهد أمام مجلس الشيوخ أن يتمسك طوال حكمه بفضيلة الرحمة التى كان سنكا وقتئذ يمجدها فى إحدى رسائله المسماة De Clementia (الرحمة) ولما طلب إليه مرة أن يوقع وثيقة بإدانة أحد المجرمين قال فى حسرة

« ليتني لم أتعلم قط الكتابة ! » وقد خفض الضرائب الباهظة أو ألغاها إلغاء تاماً ، وخصص معاشات سنوية للمتازين من الشيوخ الذين أحنى عليهم الدهر . وإذ كان يعرف أن عقله لم ينضج بعد ، فقد سمح لأجربينا أن تدير له شئونه ، فكانت تستقبل السفراء ، وأمرت أن تنقش صورتها على نقود الإمبراطورية إلى جانب صورته . وارتاع سنكا وبروس لتدخل الأم فى شئون الحكم فاتفقا على أن يضربا على وتر كبرياء نيرون لينالا لأنفسهما حق القيام بمهام الحكم . واستشاطت الأم غضباً فأعلنت أن برتنكس الوارث الشرعى للعرش ، وأنذرت ولدها بأنها ستسقطه بنفس الوسائل القوية التى استخدمتها فى رفعه . ورد نيرون على هذا التهديد بأن أمر بدس السم لبرتنكس فما كان من أجربينا إلا أن آوت إلى قصرها الصغير وكتبت فيه مذكراتها ، وهى آخر سهم فى كنانتها ، وطعنت فيها على جميع أعدائها وأعداء أمها ، واغترف منها تاستس وسوتنيوس ذلك التيار الجارف من المثالب والأعمال الوحشية التى صورا بها النواحى السوداء من صور تيبيريوس وكلوديوس ونيرون .

وعم الرخاء الإمبراطورية ، وصلحت أحوالها الداخلية والخارجية ، بفضل إرشاد الفيلسوف الأول وقوة النظام الإدارى الذى كانت تساس به شئونها . فوضعت على الحدود حراسة قوية ، وطهرت البحر الأسود من القراصنة ، وأعاد كربولا أرمينية إلى حظيرة الإمبراطورية بأن بسط عليها الحماية الرومانية ، ووقّعت برثيا معاهدة صلح دامت خمسين عاما ، وقلّت الرشوة فى دور القضاء وفى الولايات ، وأصلحت أحوال الموظفين فى دواوين الحكومة ، وصرفت الشئون المالية بالاقتصاد والحكمة ، واقترح نيرون — ولعل ذلك كان بإيعاز من سنكا — ذلك الاقتراح البعيد الأثر القاضى بإلغاء جميع الضرائب غير المقررة ، وخاصة الرسوم الجمركية التى كانت تجبى عند الحدود وفى الثغور ، حتى تكون التجارة حرة فى جميع أنحاء الإمبراطورية . غير أن مجلس الشيوخ لم يوافق على

هذا الاقتراح ، متأثراً فى ذلك بنفوذ نقابة الجباة . وتدل هذه الهزيمة على أن الزعامة كانت لا تزال تلتزم حدود سلطتها الدستورية .

وأراد سنكا وبروس أن يمنعا نيرون من التدخل فى شئون الدولة فتركاه ينهمك فى ملذاته الجنسية كما يهوى . وفى ذلك يقول تاستس : « لم يكن ينتظر من الأباطرة أن يحيوا حياة التقشف وكبح الشهوات فى الوقت الذى كانت فيه الرذيلة تستهوى جميع طبقات الناس » ولم تكن العقائد الدينية تشجع نيرون على أن يراعى جانب الفضيلة ؛ ذلك أن القدر الضئيل الذى ناله من الفلسفة قد حرر عقله من قيود الدين دون أن ينضج حكمته . « فقد كان يزدرى جميع أنواع العبادات » كما يقول سوتنيوس . « ويسلح على صورة الإلهـة — سيبيل — التى كان يجلها أعظم الإجلال »(٦٨) . وكان نهماً مفرطاً فى الطعام ، غريب الأطوار والشهوات ، ينفق على الولائم بغير حساب ، حتى كانت أزهار الوليمة وحدها تكلفه أربعة ملايين سسترس(٦٩) . وكان يقول فى هذا إن البخلاء وحدهم هم الذين يحسبون ماينفقون . وكان يعجب بكيوس پترونيوس **Caius Petronius** ويحسده لأن هذا الشريف المثرى علمه طرقاً جديدة للجمع بين الفضيلة والذوق السليم . ويقول تاستس فى فقرة مأثورة يصف فيها المثل الأعلى للأبيقورية إن پترونيوس « كان يقضى أيامه فى النوم ولياليه فى العمل ، والمرح واللهو . وكان الخمول شهوته وطريقه إلى الشهرة ، وكان ينجز بحب اللذات والراحة المترفة ما ينجزه غيره بالقوة والجد . ولم يكن كغيره من الناس الذين يجهرون بأنهم يعرفون كيف تكون المتعة . الاجتماعية ، ثم يبددون فى ذلك أموالهم ، بل كان يحيا حياة كثيرة النفقة ولكنها خالية من التبذير ، فكان أبقوريا ولكنه غير مسرف ، يطلق العنان لشهواته ولكنه يستمتع بها فى تجمل وحكمة . وهو شهوانى متعلم رقيق الحاشية ، حديثه مرح ممتع لطيف ، يخلب لب من يستمع له بشىء من عدم الاكتراث اللطيف الباعث على السرور . وكان أكثر ما يبعث السرور فى حديثه أنه ينساب

انسياباً طبيعياً غير متكلف من مزاجه الصريح . ولقد أظهر وهو وال على بيثينيا ، كما أظهر وهو قنصل ، أن قوة العقل ودماثة الخلق قد تجتمعان معاً فى شخص واحد ، وذلك رغم ما كان يتصف به من دقة : وأخذه الأمور فى يسر وإهمال . . . وكان يعود من أعماله الرسمية إلى مألوف حياة اللذة والمتعة ، مولعاً بالرذيلة أو بالملاذ التى تقترب من حدود الرذيلة ، وكان نيرون وعصبته مولعين بحسن الذوق والرشاقة فكانوا لذلك يتخذونه المحكم فى كل ما يتصل بهما ، ولم يكن شيء بديعا ، كما لم يكن شيء ساراً أو نادراً إلا إذا أراد هو أن يكون(٧٠) .

ولم يبلغ نيرون من الرقة مبلغاً يصل به إلى هذه الأبيقورية الفنية ، بل كان يتخفى ويزور المواخير ، ويطوف بالشوارع ، ويتردد على الحانات بالليل فى صحبة أمثاله من رفاق السوء يسطون على الحوانيت ويسيئون إلى النساء ، ويفسقون بالغلمان ، ويجردون من يقابلون مما معهم ، ويضربونهم ويقتلونهم »(٧١) وحدث أن شيخاً لجأ إلى القوة فى رد اعتداء الإمبراطور عليه فأرغم بعد قليل على أن يقتل نفسه . وحاول سنكا أن يوجه شبق الإمبراطور نحو معتوقة تدعى كلوديا أكتى Claudia Acte ، فلما تبين له أن أكتى وفية له وفاء تعجز بسببه عن الاحتفاظ بحبه استبدل بها امرأة بارعة فى كل فنون العشق تدعى پوبيا سابينا Poppea Sabina وكانت پوبيا تنتمى إلى أسرة عريقة ذات ثروة طائلة ، يقول عنها تاستس إنها «كان لها نصيب موفور من كل شيء إلا الشرف» . وكانت من النساء اللواتى يقضين النهار كله فى تزيين أنفسهن ، ولا يحيين قط إلا حين يرغبن فى الحياة . وحدث أن افتخر زوجها بجمالها أمام نيرون ، فما كان من الإمبراطور إلا أن عينه والياً على لوزتانيا Lusitania (البرتغال) وضرب حصاراً على پوبيا ، ولكنها أبت أن تكون عشيقة له ، وقبلت أن تتزوجه إذا طلق أكتاڤيا .

وكانت أكتاڤيا قد صبرت على مساوئ نيرون صبر الكرام ، وحافظت

على تواضعها وعفتها وسط تيار الدعارة الجارف التى اضطرت أن تحيا فى غمرته من يوم مولدها ، ومما يذكر بالفضل لأجرپينا أنها ضحت بحياتها فى الدفاع عن أكتاڤيا ضد پوپيا ، فلم تترك وسيلة تثنى بها الإمبراطور عن طلاق أكتاڤيا إلا لجأت إليها ، وبلغ من أمرها أن عرضت محاسنها على ولدها ، وقاومتها پوپيا مقاومة شديدة وتغلبت عليها ، ولجأت فى كفاحها إلى نزق الشباب ، فعيرت نيرون بأنه يخشى والدته ، وأقنعته بأن أجرپينا كانت تأتمر به لتسقطه ، وما زالت به حتى رضى فى ساعة من ساعات جنون الشهوة أن يقتل المرأة التى حملته فى بطنها وأعطته نصف العالم . وقد فكر أولا فى أن يقتلها مسمومة ، ولكنها كانت قد حصنت نفسها من السم بما تعودته من الأدوية المضادة له . ثم حاول أن يقتلها غرقاً ولكنها أنجت نفسها بالسباحة من السفينة التى تحطمت بتدبير الإمبراطور ، وطاردها رجاله إلى دارها ، فلما قبضوا عليها خلعت ثيابها وقالت لهم : « ادفعوا سيوفكم فى رحمى » واحتاج قتلها إلى عدة طعنات ، ولما رأى الإمبراطور جثتها العارية كان كل ما قاله : « لم أكن أعرف أن لى أماً بمثل هذا الجمال »(٧٢) ؛ ويقال إن سنكا لم تكن له يد فى هذه المؤامرة ، ولكن أسوأ ما خط فى تاريخ الفلسفة وأدعاه للأسى هو تلك السطور التى تشرح كيف كتب الفيلسوف الرسالة التى وجهها نيرون إلى مجلس الشيوخ يقول فيها إن أجرپينا كانت تأتمر بالزعيم ، فلما افتضح أمرها انتحرت(٧٣) ؛ وقبل مجلس الشيوخ هذا التفسير فى سرور ظاهر ، وأقبل أعضاؤه مجتمعين ليهنئوا نيرون لما أن عاد إلى رومة ، وحمدوا للآلهة أن كلأته بعنايتها وأنجته من كل سوء .

وإن المرء ليصعب عليه أن يصدق أن هذا الإنسان الذى قتل أمه شاب فى الثانية والعشرين من عمره ، مغرم بالشعر والموسيقى والفنون الجميلة ، والتمثيل والألعاب الرياضية ؛ وأنه كان يعجب باليونان لمبارياتهم التى تنمى فيهم القوة الجسمية والمهارة الفنية ، وأنه عمل على إدخال هذه المباريات فى رومة فأقام فى

عام ٥٩ ألعاب الشباب ludi iuvenales ، وأنشأ فى السنة التالية الألعاب النيرونية Neronia على نمط الاحتفال الذى كان يقام كل أربع سنين فى أولمبيا ، ويشمل سباقا للخيـــل ، ومباريات فى الألعاب الرياضية ، وفى « الموسيقى » — ويدخل فيها الخطابة والشعر ، وبنى المذلك مدرجاً كبيراً وملعباً رياضيا وحماما عاما فخما ، وأنه يمارس الحركات الرياضية بمهارة فائقة ، كما كان مولعا بسوق العربات ، وأنه اعتزم أخيراً أن يشترك هو نفسه فى المباريات . لكنها هى الحقيقة ، وقد بدا لعقله المولع بكل ما هو يونانى أن هذا العمل لاغبار عليه ، بل كان يعتقد أنه يتفق مع أحسن التقاليد اليونانية . أما سكنا فكان يرى أن هذا سخف أيما سخف ، وحاول أن يقصر هذا العرض الإمبراطورى على من يضمهم ميدان خاص ، ولكن نيرون تغلب عليه ودعا الجماهير لتشهد ألعابه ، فأقبلت عليه وحيته تحية حماسية حارة .

ولكن أهم ما كان يرغب فيه هذا المخلوق الغريب بحق هو أن يكون فناناً عظيما . ذلك أنه ، وقد استحوذ على كل سلطة ، كان يتوق إلى الأستحواذ على كل ضروب الكمال والتهذيب . ومما يذكر له مقروناً بالثناء أنه جد فى دراسة فنون النقش ، والتصوير ، والنحت ، والموسيقى ، والشعر(٧٤) . ولجأ فى تحسين صوته إلى وسيلة غريبة فكان « يستلقى على ظهره ، ويضع لوحاً من الرصاص على صدره ، ويفرغ أمعاءه بمحقن أو بالقىء ، ويمتنع عن أكل الفاكهة وعن كل طعام يضر بالصوت »(٧٥) . وكان فى بعض الأيام يقصر طعامه على الثوم وزيت الزيتون يتخذهما وسيلة للغرض نفسه . ودعا ذات ليلة أكابر الشيوخ إلى قصره وعرض عليهم أرغناً مائياً جديداً ، وأخذ يشرح لهم نظريته وتركيبه(٧٦) . وقد بلغ من إعجابه بالنغمات التى كان يضربها ترپنوس Terpnos على العود وافتتانه بها أن كان يقضى معه بعض الليالى بأكملها يتعلم العزف على هذه الآلة . وكان يجمع الفنانين والشعراء حوله : ويعقد المباريات بينه وبينهم فى قصره ، ويفاضل بين

صوره وصورهم ، ويستمع إلى أشعارهم ويقرأ عليهم شعره . وكان ينخدع بثنائهم ، ولما أن أنبأه أحد المنجمين بأنه سيفقد عرشه ، أجابه ضاحكا بأنه فى هذه الحال سيكسب قوته من فنه . وكان يحلم أنه فى يوم من الأيام سيعزف على ملأ من الناس على الأرغن المائى والناى ، وينفخ فى المزامير ، ثم يظهر على المسرح راقصاً وممثلا لأدوار فى مسرحية ترنس Turnus لڤرچيل . وفى عام ٥٩ أقام حفلة موسيقية شبه عمومية عزف فيها على العود citharoedus فى حديقته الواقعة على نهر التيبر . وظل خمس سنين لا ينفذ ما تتوق له نفسه من إظهار مهارته فى جمع حاشد ، ثم نفذ هذا العزم فى ناپلى آخر الأمر . وسيطرت الروح اليونانية على هذا الحفل ، وعفا الناس عن تقصيره ، وأدركوا ما يرمى إليه . وازدحمت قاعة الاحتفال بالمستمعين ازدحاماً حال بينه وبين إجادة العرض ، وقد بلغ من شدة الازدحام أن تهدمت القاعة عقب خروج النظارة منها . وشجع هذا النجاح الإمبراطور الشاب فظهر فى ملهى پمپى العظيم فى رومة (٦٥) يغنى ويضرب على العود . وأنشد فى هذه المرة عدة قصائد لعلها كانت من قوله هو نفسه(*) . وقد بقيت أبيات من هذه ، وهى تدل على مقدرة فى القريض لا بأس بها . وكتب من أغانيه الكثيرة ملحمة طويلة عن طروادة (جعل بطلها باريس Paris) ، ثم شرع يكتب ملحمة أطول منها عن رومة . ولم يكفه هذا التنوع فى مواهبه فظهر على المسرح ممثلا دور أوديب Oedipus ، وهرقل ، وألكميون ، بل إنه مثل أيضاً دور أرستيز قاتل أمه . واغتبط النظارة إذ شاهدوا إمبراطوراً يغنى بتسليتهم ويركع على المسرح أمامهم ويطلب إليهم أن يصفقوا له حسب مألوف عادتهم . وتلقف الشعب الأغانى التى كان ينشدها نيرون وأخذ يرددها فى الحانات والطرقات ، وانتشر

(*) يقول سوتونيوس إنه شاهد المخطوطات الملكية مكتوبة ومصححة بخط نيرون نفسه(٧٧)

تحمسه للموسيقى والغناء بين جميع الطبقات ، وازدادت بذلك محبة الناس له ، وكان أخلق بها أن تنقص .

وارتاع مجلس الشيوخ من هذه المظاهر أكثر مما ارتاع من كل ما كان يدور من اللغط عما يحدث فى القصر من فجور ومن علاقات جنسية شاذة ، وأجاب نيرون عن مخاوف الشيوخ بقوله إن العادة التى كان يجرى عليها اليونان وهى قصر المباريات الرياضية والفنية على طبقة المواطنين كانت أفضل مما اعتاده الرومان وهو تركها للأرقاء ؛ وأن من الواجب ألا تتخذ المباريات صورة قتل المجرمين قتلا بطيئاً ؛ وأعلن الشاب المجرم أنه لن يسمح ما دام حياً بأن يستمر القتال فى المجتلد حتى يموت المجتلدون(٧٨) . وأراد أن يعيد التقاليد اليونانية إلى سابق عهدها ، وأن يمجد أعماله هو فى المباريات العامة ، فأقنع بعض الشيوخ أن يشتركوا فيها — أو لعله أرغمهم على هذا الاشتراك — ممثلين ، وموسيقيين ، ورياضيين ، ومصارعين وسائقى عربات . وأظهر بعض الأشراف أمثال ثراسى پيتس Thrasea Paetus نفورهم من هذه الأساليب ، فكانوا يتعمدون الغياب من مجلس الشيوخ كلما جاء نيرون ليخطب فيه ، وندد به بعضهم مثل هلڤيديوس برسكس Helvidius Priscus تنديداً عنيفاً فى المنتديات الأرستقراطية التى أضحت الملجأ الوحيد لحرية الرأى ؛ وأخذ الفلاسفة الرواقيون فى رومة يتحدثون جهرة عن هذا الأبيقورى الخبيث الجالس على العرش . ودبرت المؤامرات لخلعه ، ولكن عيونه كشفوا أمرها ، فكان جوابه كجواب أسلافه ، وهو التورط فى عهد من الإرهاب الشديد ، فأعيد قانون الخيانة (٦٢) ، ووجهت التهم إلى كل من كان موتهم مرغوباً فيه من الناحية الثقافية أو المالية بسبب مقاومتهم أو ثرائهم . ذلك أن نيرون كان قد أفقر خزانة الدولة كما أفقرها كاليجولا من قبله بإسرافه وهباته وألعابه ، وجهر بعزمه على مصادرة جميع ضياع المواطنين الذين لا يوصون للإمبراطور بعد وفاتهم إلا بمبالغ قليلة ، ثم جرد كثيراً من الهياكل من نذورها ، وصهر ما كان

فيها من تماثيل ذهبية وفضية ؛ ولما أن احتج سنكا على هذه الأعمال وانتقد سلوكه وشعره — وكان غضب الإمبراطور على نقد شعره أشد من غضبه على نقد سلوكه — أقاله نيرون من منصبه فى البلاط (٦٢) ، وقضى الفيلسوف الشيخ الثلاث السنين الباقية من حياته فى عزلة عن العالم فى بيته ، وكان بورس قد مات قبل إقالة سنكا ببضعة شهور .

وأحاط نيرون بعدئذ نفسه بطائفة جديدة من القرناء ، معظمهم من قرناء السوء ذوى الغلظة والفظاظة ، فأصبح تجلينس ، رئيس شرطة المدينة ، مستشاره الأول ، وييسر للزعيم كل سبيل للملذات . وفى عام٦٢ طلق نيرون أكتافيا بحجة أنها عقيم ، ولم يمض على طلاقها اثنا عشر يوماً حتى تزوج بوبيا ؛ واحتج الشعب على هذا العمل احتجاجاً صامتاً بتحطيم التماثيل التى أقامها نيرون لبوبيا وتتويج تماثيل أكتافيا بالزهور . وغضبت بوبيا من ذلك العمل وأقنعت حبيبها أن أكتافيا تعتزم الزواج مرة أخرى ، وأن مؤامرة تدبر لخلعه وإحلال زوج أكتافيا الجديد محله . وإذا كان لنا أن نصدق ما يقوله تاستس فإن نيرون دعا أنسيتس Anicetus قاتل أجربينا وطلب إليه أن يعترف بأنه ارتكب الفحشاء مع أكتافيا ، ويتهمها بأنها شريكة فى مؤامرة لاغتيال الزعيم . ومثل أنسيتس الدور الذى أمر بتمثيله ، ونفى إلى سردينية حيث قضى بقية حياته ينعم بالثروة والراحة ؛ أما أكتافيا فقد نفيت إلى بندتيريا Pandateria ، ولكنها لم يكد يمضى على مجيئها إليها إلا بضعة أيام حتى أقبل عليها وكلاء الإمبراطور يريدون اغتيالها . ولم تكن وقتئذ قد جاوزت الثانية والعشرين من عمرها ، ولم تكن تعتقد أن الحياة يليق أن تختتم هذه الخاتمة العاجلة ، وبخاصة إذا كانت حياة فتاة مثلها لم ترتكب قط ذنباً . ودافعت عن نفسها أمام قاتليها وقالت لهم إنها لم تعد إلا أخت نيرون ، وإنها عاجزة عن الإساءة إليه ، ولكنهم قطعوا رأسها وجاءوا به إلى بوبيا يطلبون إليها مكافأتهم على عملهم هذا . ولما أبلغ الشيوخ أن أكتافيا قد توفيت شكروا

للآلهة مرة أخرى أن قد حفظوا الإمبراطور وأنجوه من السوء[٧٩] .

وكان نيرون وقتئذ إلهاً من أولئك الآلهة . ذلك أن أحد القناصل المنتخبين اقترح بعد موت أجريبينا أن يقام هيكل « لنيرون المألّه » . ولما أن ولدت له پوپيا فى عام ٦٣ ابنة توفيت بعد مولدها بقليل أعلن المجلس ربوبية هذه الطفلة ، ولما أن أقبل تريداتس Tiridates ليتلقى من نيرون تاج أرمينية خر راكعاً أمام الإمبراطور وعبده بوصفه الإله متراس Mithras ، ولما أن شاد نيرون بيته الذهبي أقام أمامه تمثالا ضخماً ارتفاعه مائة وعشرون قدماً ، فى أعلاه رأس شبيه برأسه ، تحيط به هالة من أشعة شمسية دلالة على أنه هو فيبس أپلو Phoebus Apollo . هذا ما كان يتصوره أما حقيقته فإنه وهو فى الخامسة والعشرين من عمره كان إنساناً فاسداً ، منتفخ البطن ، رفيع الأطراف ، ضعيفها ، ضخم الوجه ، مجعد الجلد ، أصفر الشعر ملتويه ، عسلى العينين كلتيهما .

وكان ، وهو كما يزعم إله وفنان ، يضايقه ما فى القصور التى ورثها من عيوب ، ولذلك صمم على بناء قصر جديد لنفسه . ولكن تل الپلاتين كان مزدحماً بالقصور وكان فى أسفله المضمار الأكبر من ناحية ، والسوق الكبرى من ناحية أخرى ، والأكواخ القذرة الحقيرة من بقية النواحى ، وكان يحزنه أن يرى رومة قد نشأت على غير نظام موضوع ، بدل أن تخطط تخطيطاً علمياً كالإسكندرية وأنطاكية ، ولذلك كان يحلم بأن يعيد بناءها من جديد ، وأن يكون هو منشئها الثانى ، وأن يسميها نيروپوليس (مدينة نيرون) .

وحدث فى اليوم الثامن عشر من شهر يوليو عام ٦٤ أن شبت النار فى المضمار الأكبر ، وانتشرت انتشاراً سريعاً ، وظلت مشتعلة تسعة أيام حتى التهمت ثلثى المدينة . وكان نيرون غائباً فى أنتيوم Antium حين شبت النار ، فلما وصله النبأ أسرع بالعودة إلى رومة فبلغها فى الوقت الذى استطاع فيه أن يرى القصور القائمة على تل الپلاتين تلتهمها النيران . وكان البناء المعروف

بالدومس ترنستوريا (بيت المرور) الذى أقامه منذ زمن قريب ليربط به قصره بحديقة ماسيناس ، كان هذا البناء من أوائل ما تهدم من الأبنية ؛ ونجت أبنية السوق والكپتول من الحريق كما نجت أيضا الأحياء الواقعة فى شرق نهر التيبر . أما سائر أجزاء المدينة ، فقد دمر فيها ما لا يحصى من البيوت والهياكل والمخطوطات النفيسة والتحف الفنية . وهلك آلاف من السكان بين أنقاض المبانى المتهدمة فى الشوارع المزدحمة ، وهام مئات الآلاف على وجوههم فى الطرقات أثناء الليل لا يجدون لهم مأوى يبيتون فيه وقد ذهب الرعب بعقولهم ، وهم يستمعون إلى الشائعات القائلة بأن نيرون هو الذى أمر بإشعال النار فى المدينة ، وبأنه ينشر المواد الحارقة فيها ليجدد ما خبا منها ، وبأنه يرقبها من برج ماسيناس وهو ينشد على نغمة القيثارة ما كتبه من الشعر عن نهب طروادة(*) . وقد قام بجهود كبيرة فى قيادة المحاولات التى بذلت لحصر النيران أو التغلب عليها ، وإغاثة المنكوبين ، وأمر بأن تفتح جميع أبواب المبانى العامة والحدائق الإمبراطورية ليلجأ إليها المعدمون ، وأقام مدينة من الخيام فى ميدان المريخ ، وأمر بالاستيلاء على الطعام من الإقليم المجاور للمدينة، ووضع الخطط الكفلية بإطعام الأهين(٨٠) ؛ وصبر على ما وجهه إليه الشعب الهائج الحانق من تهم وطعون . ويقول تاستس (وهو الرجل الذى يجب ألا ننسى قط تحيزه لأعضاء مجلس الشيوخ) إنه أخذ يتلفت حوله ليجد من يستطيع أن يلقى عليه التهمة حتى وجده فى :

« طائفة من الناس يحقد عليهم الشعب لأعمالهم الخبيثة ، ويسمون غالباً بالكرستيانى Chrestiani (المسيحيين) . والاسم مشتق من كرستس Chrestus وهو اسم رجل عذبه بنتيوس پيلات Pontius Pilate المشرف

(*) يجمع تاستس (ص ٣٨ من الفصل الخامس عشر) وسوتونيوس (فى « نيرون » ص ٣٨) وديوكاسيوس (فصل ٦٧ ص ١٦) على اتهام نيرون بأنه هو الذى أشعل النار وأعاد إشعالها لكى يستطيع بناء رومة من جديد ، وليس لدينا ما نستند إليه فى إثبات التهمة عليه أو نفيها عنه .

على الشئون المالية فى بلاد اليهود على عهد تيبيريوس . وكان ما حل به من العذاب ضربة شديدة وجهت إلى الشيعة التى أوجدها هذا الرجل ، وبفضل هذه الضربة وقف نمو هذه الخرافات الخطيرة إلى حين ، ولكنها لم تلبث أن عادت إلى نشاطها وانتشرت انتشاراً سريعاً قويا فى بلاد اليهود . . . وفى مدينة رومة نفسها ، وهى مستودع الأقذار العام الذى ينساب إليه كل ما هو دنىء ممقوت انسياب السيل المنحدر من أقطار العالم . ولجأ نيرون إلى أساليبه المعهودة فى الحيل ، فعثر على جماعة من الفجار والسفلة الأراذل ، وأغراهم بمختلف الوسائل على أن يعترفوا بأنهم هم مرتكبو الجريمة النكراء ؛ وبناء على اعتراف أولئك السفلة أدين عدد من المسيحيين ، ولم يصدر الحكم عليهم بناء على أدلة واضحة تثبت أنهم هم الذين أشعلوا النار فى المدينة : بل أدينوا لأنهم يكرهون الجنس البشرى كله . واستخدمت فى إعدامهم أفانين من القسوة المتناهية ، ولم يكتف نيرون بتعذيبهم بل أضاف إلى هذا التعذيب السخرية منهم والازدراء بهم ، فألبس بعضهم جلود الوحوش وتركوا تلتهمهم الكلاب ، وسمر غيرهم فى الصلبان ، ودفن الكثيرون منهم أحياء ، ودهنت أجسام البعض الآخر بالمواد الملتهبة وأشعلت فيها النيران ، لتكون مشاعل فى الليل . . . وفى آخر الأمر أفعمت هذه الوحشية قلوب الناس جميعاً رأفة ورحمة ، ورقت هذه القلوب أسى على المسيحيين[٨١] .

ولما أزيلت الأنقاض أخذ نيرون يعيد بناء المدينة كما صورتها له أحلامه والغبطة بادية فى أسارير وجهه . وطلب إلى كل مدينة فى الإمبراطورية أن تقدم معونتها لهذا الغرض ، أو أرغمت على تقديم هذه المعونة ، واستطاع الذين دمرت بيوتهم أن يبنوا لهم بيوتاً جديدة بعد أن أمدهم بالمال المتجمع من هذه المعونة . وشقت الشوارع الجديدة مستقيمة متسعة ، وشيدت واجهات المنازل الجديدة وطبقاتها الأولى من الحجارة ، وجعلت بينها وبين غيرها من المبانى المجاورة لها فواصل تمنع انتشار النار من بناء إلى

آخر . وشقت تحت الأرض مجار تنساب فيها مياه العيون السفلى إلى خزان يحتفظ فيه بالماء ليستعان به على إطفاء النار فى المستقبل . وشاد نيرون من أموال الخزانة الإمبراطورية عقوداً ذات عمد على جانبى الشوارع الرئيسية فى المدينة ، لتكون مداخل مسقوفة ظليلة لآلاف من البيوت . وأسف المولعون بالقديم ، كما أسف الشيوخ المسنون ، على ما كان فى المدينة القديمة من مناظر جميلة خلع عليها الدهر هالة من الرواء والتقديس ، ولكنهم لم يلبثوا أن أجمعوا على أن رومة جديدة قد خرجت من بين اللهب أصح وآمن وأجمل من رومة القديمة .

ولو أن نيرون أعاد تنظيم حياته كما أعاد تنظيم عاصمته لغفر له الناس جرائمه ، ولكن بوبيا ماتت فى عام ٦٥ فى الأيام الأخيرة من حملها ، ويقال إنها ماتت من ركلة فى بطنها . وراجت بين الناس شائعة فحواها أن هذه الركلة كانت عقاباً لها على عودتها متأخرة من السباق[٨٢] وحزن نيرون حزناً شديداً على موتها ، لأنه كان ينتظر على أحر من الجمر وجود وارث له من صلبه ، وأمر أن تحنط جثتها بالأفاويه النادرة وتدفن بموكب مهيب وأبنها بنفسه . ثم عثر على شاب يدعى أسبورس Sporus عظيم الشبه ببوبيا ، فأمر بخصيه ، وتزوجه فى احتفال رسمى و « استعمله فى كل شىء كما تستعمل النساء » ، وقال فى ذلك أحد المتفكهين إنه يتمنى لو أن والد نيرون قد عثر على مثل هذه الزوجة[٨٣] . وشرع فى السنة نفسها يشيد بيته الذهبى ، وكان إسرافه فى زينته ، كما كانت تكاليفه الباهظة ومساحته الواسعة — فقد أقيم على رقعة من الأرض كانت تشغلها من قبل آلاف من بيوت الفقراء — كان هذا كله سبباً فى إثارة سخط الأشراف عليه وارتياب العامة فيه من جديد .

وأقبل جواسيس نيرون فجاء يبلغونه نبأ مؤامرة واسعة النطاق تهدف إلى إجلاس كلپرنيوس بيزو Calpurnius Piso على العرش (٦٥) ؛ وقبض صنائعه على عدد من الشخصيات غير الكبيرة متهمين بتدبير المؤامرة ، وانتزعوا منهم

بالتهديد تارة وبالتعذيب تارة أخرى اعترافات تدين ، بين من تدين من الشخصيات المعروفة ، الشاعر لوكان Lucan والفيلسوف سنكا Seneca ، وتكشف الخطة التي كان يرمى إليها الإمبراطور وأعوانه شيئاً فشيئاً . وبلغ انتقام نيرون درجة من الوحشية لم يسع رومة معها إلا أن تصدق ما شاع وقتئذ من أنه أقسم ليبيدنّ طبقة الشيوخ عن آخرها . ولما تلقى سنكا الأمر بأن يقتل نفسه شرع يجادل ساعة من الزمن ثم أطاع ، وقطع لوكان بعض أوردته ومات وهو ينشد أبياتاً من شعره . وأغرى تجلينس Tigellinus بالمال عبداً من عبيد پترونيوس Petronius فتقدم بالشهادة على سيده ، لأن تجلينس كان يحسد هذا الرجل الأبيقورى على منزلته عند نيرون فأغراه بقتله . ومات پترونيوس ميتة بطيئة بأن قطع أوردته ثم سدها ، وأخذ يتحدث مع أصدقائه حديثاً لطيفا كمألوف عادته ، ويقرأ لهم أبياتاً من شعره . ثم تنزه وأغفى بعض الوقت وفتح أوردته مرة أخرى وفارق الحياة فى هدوء واطمئنان(٨٤) . وأدين ثراسپاپيتس زعيم الداعين إلى الفلسفة الرواقية فى مجلس الشيوخ ، ولم تكن التهمة التى وجهت إليه أنه اشترك فى المؤامرة ، بل كانت تهمة عامة يمكن أن توجه إلى أى إنسان وهى ضعف حماسته للإمبراطور ، وعدم استمتاعه بغنائه وتأليفه كتاباً فى حياة كاتو أثنى عليه فيه . واكتفى بنفى هلفيديوس برسكس Helvidius Priscus زوج ابنته ، ولكن رجلين آخرين أعدما لأنهما كتبا يمتدحان برسكس وصهره . ونفى موسونيوس روفس Musonius Rufus أحد الفلاسـفة الرواقيين وكاسيوس لنجينس Cassius Longinus أحد علماء القانون ، وحكم على أخوين لسنكا وهما أنيوس ميلا Annaeus Mela والد لوكان وأنيوس نوفاتس Annaeus Novatus — وهو جليو Gallio الذى أطلق سراح القديس بوليس فى أثينة — هذان حكم عليهما بأن ينتحرا .

وبعد أن طهر نيرون مؤخرته على هذا النحو سافر فى عام ٦٦ ليتبارى فى الألعاب الأولمبية ويطوف ببلاد اليونان فى رحلة موسيقية ، لأن « اليونان »

على حد قوله « هم الشعب الوحيد الذى له آذان موسيقية »[٨٥] . واشترك فى أولمبيا فى سباق العربات وساق فيها بنفسه مركبة ذات عجلتين تجرها أربعة جياد فى صف واحد أفقى مستعرض Quadriga وسقط من العربة فى حلبة السباق وكاد يقضى عليه ، ولما أعيد إلى العربة واصل السباق وقتاً ما ، لكنه انقطع عنه قبل نهاية الشوط . وكان المحكمون يفرقون بين الإمبراطور والرجل الرياضى ، فقدموا له تاج النصر . وتملكته نشوة الفرح حين رأى الجماهير تصفق له طرباً فأعلن من فوره أن بلاد اليونان كلها لا أثينة وأسپارطة وحدهما ستكون من تلك الساعة حرة طليقة — أى أنها لن تعطى الجزية لرومة . وكان جواب المدن اليونانية على هذا الكرم أن أقامت الألعاب الأولمبية والپيثية Pyth an والنيميائية Nemean والبرزخية Ishmian[*] فى عام واحد . ورد هو على ذلك بأن اشترك فيها جميعها مغنياً ، وعازفاً ، وممثلا ، ومتبارياً فى الألعاب الرياضية . وقد حرص أشد الحرص على إطاعة قوانين المباريات ، وكان شديد المجاملة لمنافسيه ، ومنحهم حق المواطنية الرومانية تعزية لهم على تفوقه عليهم جميعاً . وتلقى فى أثناء رحلته أنباء بأن الثورة شبت نارها فى بلاد اليهود ، وأن لهيبها اندلع فى الغرب كله . وكان كل ما فعله أن تنهد وتحسر ثم واصل رحلته . ومن أقوال سوتنيوس فى التعليق على هذه الرحلة أنه كان إذا غنى فى ملهى « لا يسمح لأحد بالخروج منه ، ولو كان ذلك لعذر شديد يحتم عليه الخروج ؛ وكان من نتائج ذلك أن ولدت بعض النساء وهن فى الملهى ، وأن تظاهر بعض الرجال بالموت حتى يحملوا إلى الخارج »[٨٦] . ولما جاء إلى مضيق كورنثة أمر أن يبدأ العمل فى شق قناة فى هذا المضيق كما كان قيصر ينتوى أن يشقها ؛ وبدئ العمل فعلا ، ولكنه وقف فى أثناء الاضطراب الذى حدث فى العام الثانى . وارتاع نيرون لتوالى أنباء الفتن والمؤامرات فعاد إلى

(*) سميت كذلك لأنها كانت تقام فى الساحة المقدسة الممتدة على الشاطئ الشمالى الشرقى لبرزخ كورنثة .

رومة (٦٧) ودخلها فى موكب رسمى ، وعرض فى هذا الموكب غنائم نصره ، وهى الجوائز التى ظفر بها فى بلاد اليونان والبالغ عددها ١٨٠٨ جائزة .

وكانت المآسى جادة مسرعة فى أعقاب هذه المهازل . من ذلك أن يوليوس ڤندكس Julius Vindex حاكم ليون الغالى أعلن استقلال بلاد الغاليين فى شهر مارس من عام ٢٦٨ ، ولما عرض نيرون جائزة قدرها ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ سسترس لمن يأتيه برأسه أجاب ڤندكس عن هذا بقوله : « أن من يأتينى برأس نيرون سيأخذ فى مقابل ذلك رأسى »[٨٧] . وأخذ نيرون يعد العدة لملاقاة هذا العدو الشديد البأس فى الميدان ، وكان أول ما عنى به أن اختار العربات لينقل عليها آلاته الموسيقية وأدوات المسرح[٨٨] . وبينا هو يعد العدة إذ جاءته الأنباء فى شهر إبريل بأن جلبا Galda قائد الجيش الرومانى فى اسپانيا انضم إلى ڤندكس فى ثورته ، وأنه يزحف على رومة . وسمع مجلس الشيوخ أن الحرس البريتورى يتأهب للخروج على الإمبراطور طمعاً فيما يناله رجاله من أجور عالية ، فنادى بجلبا إمبراطورا . فما كان من نيرون إلا أن وضع بعض السم فى صندوق صغير ، وبعد أن تسلح بهذا السلاح الفتاك فر من بيته الذهبى إلى الحدائق السرڤيلية الواقعة فى طريق أستيا . وطلب قبل فراره إلى من كان فى القصر من الضباط أن يرافقوه ، فرفضوا جميعا طلبه ، وأنشد له أحدهم بيتاً من شعر ڤرجيل يقول فيه : « وهل من الصعب على الإنسان إذن أن يموت ؟ » . ولم يكن فى مقدوره أن يصدق أن قد فارقه فجاءة ذلك السلطان القاهر الذى كان سبباً فى القضاء عليه ، فأخذ يرسل النداء تلو النداء إلى الكثيرين من أصدقائه يطلب إليهم النجدة ، ولكن أحداً منهم لم يرد على رسالة من رسائله ، فذهب إلى نهر التيبر يريد أن يغرق نفسه فيه . حتى إذا بلغه خارت . قواه ، وعرض عليه فاؤون أحد معاتيقه أن يخفيه فى بيته القائم على طريق سلاريا ، ورحب نيرون بهذا الاقتراح ، واجتاز فى ظلام الليل على ظهر جواد أربعة أميال من وسط المدينة إلى بيت فاؤون . وقضى تلك الليلة

فى مخزن الطعام ، وعليه جلباب قذر ، يتلوى من الجوع ، ولم يطف بجفنه النوم ، ترتعد فرائصه فرقاً من كل صوت يقع على أذنيه . وجاء رسول فاؤون يبلغه أن مجلس الشيوخ قد نادى بأن نيرون عدو الشعب وأمر بالقبض عليه ، وقرر أن يعاقب « حسب السنة القديمة » . وسأل نيرون عن ماهية تلك السنة فقيل له : « إن الرجل المذنب يجرد من ثيابه ، ويصلب جسمه فى عمود بمسمار ذى شعب يدق فى عنقه ، ثم يضرب حتى يقضى نحبه . وارتاع من هول هذا العقاب ، فحاول أن يطعن نفسه طعنة تقضى عليه ، ولكنه أخطأ إذ جرب سنان الخنجر أولا ووجده حاداً لا يطيقه فنادى قائلا : « أى فنان يموت موتى ! » :

وسمع فى مطلع الفجر وقع حوافر الخيل ، فأدرك أن جنود مجلس الشيوخ قد أدركوه ، فأنشد بيتاً من الشعر يقول : « استمعوا ؛ ها هى ذى أصوات الساعين إلىّ تقع على أذنى » — ثم طعن نفسه بخنجر فى حلقه ، ولكن يده اضطربت ووهنت فأعانه إپرودیتس أحد معاتيقه على أن يدفع سن الخنجر إلى نهايته ، وكان قد طلب إلى من حوله قبل موته أن يحولوا دون تشويه جسمه ، واجابهم رجال جلبا إلى ما طلبوا . وقامت مربياته العجائز وأكتى عشيقته السابقة بدفن جثته فى قباب قصر دومتيوس (٦٨) وابتهج كثيرون من العامة بموته ، وأخذوا يطوفون بأحياء رومة وعلى رؤوسهم قلانس الحرية . ولكن الذين حزنوا كانوا أكثر منهم لأن سخاءه على الفقراء لم يكن يقل عن قسوته الشديدة على العظماء ، وأصغوا إلى ما أشيع وقتئذ من أنه لم يمت بحق ، بل إنه يقاتل أعداءه فى طريق رومة ، ولما أن رضوا آخر الأمر بأن يصدقوا نبأ موته ، ظلوا شهوراً كثيرة يحجون إلى قبره وينثرون الأزهار أمامه[٨٩] .

الفصل الخامس

الأباطرة الثلاثة

وصل سرڤيوس سلپيوس جلبا Servius Sulpius Galba رومة فى يونية من عام ٦٨ ، وكان من أصل شريف ، فقد كان أبوه على حد قوله ينحدر من نسل چوپتر ، كما كانت أمه تنتمى إلى باسفائى Basiphaê زوجة مينوس Minos . وكان فى السنة التى ارتقى فيها العرش أصلع الرأس متقلص اليدين والقدمين من داء المفاصل ، فكان لا يستطيع أن يلبس حذاء أو يمسك كتابا(٩٠) . وكان يتصف بالرذائل المألوفة فى تلك الأيام ، سوية كانت أو غير سوية ، ولكن هذه الرذائل لم تكن هى التى قصرت حكمه ، بل إن الذى أحنق الجيش والشعب عليه هو اقتصاده الشديد فى الأموال العامة ، وحرصه الشديد على تنفيذ العدالة(٩١) ؛ ولما أن قرر أن يرد كل من نالوا أعطية من نيرون تسعة أعشار ما استولوا عليه إلى خزانة الدولة ، خلق لنفسه آلافاً من الأعداء الجدد وتصرمت أيامه سراعا :

وذلك أن شيخاً مفلساً يدعى ماركس أتو Marcus Etho أعلن أنه لا يستطيع أداء ديونه إلا إذا أصبح إمبراطوراً(٩٢) . وانضم إليه الحرس ، وزحفوا على السوق والتقوا بجلبا راكباً فى هودج ، ومد جلبا عنقه إلى سيوفهم دون أن يبدى أية مقاومة ، فقطعوا رأسه وذراعيه ، وشفتيه ، وحمل واحد منهم رأسه إلى أتو ، ولكنه لم يستطع أن يقبض بقوة على شعره القليل المبلل بالدماء فأدخل إصبعه فى فمه . وأسرع مجلس الشيوخ فوافق على تولية أتو فى الوقت الذى كان الجيش الرومانى فى ألمانيا ينادى بقائده أولس ڤيتليوس Aulus Vitillius والجيش الرومانى فى مصر ينادى بقائده تيتس فلاڤيوس ڤسـپازبانس Vespasianus Titus Flavius إمبراطوراً . وزحف ڤيتليوس على إيطاليا بفيالقه القوية ، وقضى

على ما أبدته الحاميات الشمالية ، وما أبداه الحرس البريتورى ، من مقاومة ضعيفة ، وانتحر أتو بعد أن حكم خمسة وتسعين يوما ، وارتقى ڤيتليوس عرش الإمبراطورية .

وليس مما يشرف النظام العسكرى الرومانى أن يتولى القيادة فى أسپانيا شيخ ضعيف مثل جلبا ، وفى ألمانيا أبيقورى متهاون مثل ڤيتليوس . لقد كان ڤيتليوس نهما أهم ما يعرفه عن الزعامة أنها وليمة يشبع فيها نهمه ، ويجعل كل وجبة من وجباته وليمة كبرى ، أما شئون الحكم فكان يكفيها ما بين الوجبات من فراغ ؛ وإذ كانت هذه الفترات قد أخذت تقصر شيئا فشيئا ، فقد ترك شئون الدولة فى يد معتوقه أسياتكس Asiaticus . فلم تمض على هذا المعتوق أربعة أشهر حتى أصبح أغنى رجل فى رومة . ولما علم ڤيتليوس أن أنطونيوس قائد ڤسپازيان يزحف بجيشه على إيطاليا ليخلعه ، عهد بالدفاع عنه إلى جماعة من أتباعه واستمر هو فى ولائمه . وكانت النتيجة أن جيوش أنطونيوس هزمت أنصار ڤيتليوس عند كرمونا Cremona فى شهر أكتوبر عام ٦٩ ؛ وفى هذه المعركة جرت الدماء كما لم تجر فى أية معركة أخرى فى التاريخ القديم كله ، وزحفت الجيوش الظافرة على رومة فقاومتها فلول فيالق ڤيتليوس مقاومة باسلة بينا كان هو مختبئاً فى قصره . ويقول تاستس « إن الجماهير احتشدت لتشاهد المعركة ، كأن منظر القتل وإراقة الدماء لم يكن إلا منظراً يعرض عليهم لتسليتهم » . وبينا كانت المعركة حامية الوطيس كان بعضهم ينهبون المتاجر والمنازل وكانت العاهرات يمارسن مهنتهن(٩٣) . وانتصرت جيوش أنطونيوس فى المعركة ، وأعملوا السيوف فى رقاب المهزومين بلا رحمة ، وأطلقوا لأنفسهم العنان فى السلب والنهب ، وساعدهم الغوغاء — وهم الذين لا يقلون عن التاريخ تمجيداً للمنتصرين — على إخراج أعدائهم من مخابئهم ، وسحبوا ڤيتليوس من مخبئه وطافوا به نصف عام فى أنحاء المدينة ، وحول رقبته طوق معقود ، وألقيت عليه الأقذار ، وعذب تعذيباً بطيئاً ، ثم أشفقوا عليه فقتلوه (ديسمبر من عام ٦٩) وسحبت جثته بخطاف فى شوارع المدينة وألقيت فى نهر التيبر(٩٤) .

الفصل السادس

ڤسپازيان

لشد ما يغتبط الإنسان بعد ما قرأه عن الأباطرة السابقين أن يرى رجلا متصفاً بالحكمة والكفاية والشرف ! لقد كان ڤسپازيان ، وهذه الأحداث قائمة ، يخوض غمار الحرب فى بلاد اليهود ، ولذلك لم يتعجل فى القدوم إلى رومة ليشغل المنصب العالى المحفوف بأشد الأخطار الذى رفعه إليه جنوده وبادر مجلس الشيوخ إلى الاعتراف به . فلما وصل إليها فى اكتوبر عام ٧٠ أخذ يعمل بجد على إعادة النظام إلى المجتمع الذى اضطرب فى كل ناحية من نواحيه ، وسرى جده هذا إلى نفوس أعوانه . ولما أدرك أن لابد له أن يعانى نفس المشاق التى عاناها أغسطس ، سار على سيرة ذلك الزعيم وسلك مسلكه فى أخلاقه وسياسته ، فسالم مجلس الشيوخ ، وأعاد الحكم الدستورى إلى البلاد ، وأطلق سراح من حكم عليهم من قبل بمقتضى قانون الخيانة فى عهد نيرون وجلبا وأتو وڤيتليوس ، واستدعى من كان منهم منفياً خارج البلاد . ثم أعاد تنظيم الجيش وزاد عدد الحرس البريتورى ووسع سلطة رجاله ، وعين قواداً كفاة لقمع الثورات التى شبت نارها فى الولايات ، واستطاع بعد قليل أن يغلق هيكل يانوس Janus رمزاً لعودة السلام وعهداً منه بالمحافظة عليه .

وكان قد بلغ الستين من العمر ، ولكنه كان محتفظاً ببنيته القوية التى لم يوهنها الإفراط . وكان مفتول العضلات ، قوى الأخلاق ، ذا رأس عريض أصلع ضخم وملامح غليظة ولكنها مهيبة ، وعينين صغيرتين حادتين تخترقان المظاهر الخداعة إلى الحقائق المستورة . ولم يكن يتصف بشيء من شذوذ العباقرة ، ولا يزيد على كونه رجلا قوى الإرادة شديد

الذكاء العملى . وكان مولده فى قرية سبنية قريبة من ريتى Reate وأسرته من عامة الشعب. وكان جلوسه على العرش ثورة رباعية : فهاهو ذا قائد يتربع على عرش الإمبراطورية ، وهاهو ذا جيش من جيوش الولايات قد غلب الحرس البريتورى وتوج من يريده إمبراطوراً ، وهاهى ذى أسر الفلاڤيين Flavians قد خلفت أسرة اليوليو — كلوديين ، وعادات الطبقات الوسطى البسيطة وفضائلها قد حلت فى بلاط الإمبراطور محل الإتلاف الأبيقورى الذى كان يتصف به أنباء أغسطس وليڤيا الذين نشأوا فى الحواضر. ولم ينس ڤسپازيان قط أصله المتواضع ، ولم يحاول أن يخفيه عن الناس ، ولما حاول علماء الأنساب أن يصلوا بنسب أسرته إلى حد أصحاب هرقل طمعاً منهم فى عطائه أرغمهم بسخريته على الصمت . وكان يعود بين الفينة والفينة إلى البيت الذى ولد فيه ليستمتع بما فيه من أساليب وأطعمة ريفية ، ولم يسمح بأن يغير فيه شىء قط . وكان يزدرى الترف والبطالة ، ويأكل طعام الفلاحين ، ويصوم يوماً من كل شهر ؛ وأعلن حرباً عواناً على التبذير والإتلاف . وجاءه فى يوم ما رجل رومانى رشحه لمنصب من المناصب تفوح منه رائحة العطر ، فقال له : « لقد كنت أوثر أن تفوح منك رائحة الثوم » ، ورجع عن ترشيحه لذلك المنصب . ولم يحجب بابه عن الناس ، وكان يعيش كما يعيش عامتهم ويتحدث إليهم حديث الرجل الذى لا يترفع عنهم ، ويضحك من الفكاهة التى كانت توجه إلى شخصه ، ويسمح لكل إنسان أن يوجه إلى خلقه وسلوكه ما شاء من النقد بكامل حريته . وكشف مرة عن مؤامرة تدبر له فعفا عن المتآمرين، وقال إنهم بلهاء لايدركون عبء المتاعب التى ينوء بها كاهل الحاكم . ولم يعرف عنه أنه فقد حلمه إلا مرة واحدة . وذلك أن هلفديوس برسكس Helvidius Priscus بعد أن عاد إلى مجلس الشيوخ من منفاه الذى أخرجه إليه نيرون ، أخذ يطالب بعودة الجمهورية ويطعن على ڤسپازيان طعناً مراً فى السر والعلن ، فطلب إليه ڤسپازيان أن يمتنع عن حضور جلسات المجلس إذا

كان يريد أن يواصل هذا السباب ، فلما رفض هلفديوس أن يجيبه إلى ما طلب نفاه إلى خارج البلاد ولوث حكمه الصالح بأن أمر بإعدامه . وقد ندم على عمله هذا فيما بعد واستمسك فى سائر عهده ، على حد قول سوتونيوس « بأعظم الصبر وهو يستمع إلى عبارات أصدقائه الصريحة . . . وإلى قحة الفلاسفة »(٩٥) . وكان هؤلاء فلاسفة كلبيين ساخرين أكثر منهم رواقيين ؛ كانوا فوضويين متفلسين يشعرون أن كل حكم أياً كانت صفته عبء مفروض على الناس فرضاً ، وكانوا يهاجمون كل إمبراطور يجلس على العرش .

وأراد أن يطعم مجلس الشيوخ بدم قوى جديد ، بعد أن أوهنته الحرب الأهلية والقيود المفروضة على اختلاط الأسر ، فعمل على أن يعين رقيباً ، ثم جاء إلى رومة بألف أسرة من الأسر الممتازة فى إيطـــاليا والولايات القريبة ، وسجل أسماءها فى سجلات طبقتى الأشراف والفرسان ، وملأ ما كان فى مجلس الشيوخ من فراغ من بين هذه الأسر الجديدة ؛ وحذا هؤلاء الأشراف الجدد حذوه بعد أن ضرب لهم أحسن الأمثلة ، فأصلحوا بسلوكهم الأخلاق الرومانية والمجتمع الروومانى ؛ ذلك أن أفراد هاتين الطبقتين لم يكونوا ممن أفسدتهم الثروات الطائلة ، ولم يكونوا ممن طال عليهم العهد ببعدهم عن العمل الشاق وزراعة الأرض ، فلم يستنكفوا أن يقوموا بالواجبات والأعمال الرتيبة فى الحياة وتصريف شئون الحكم . وكانت تتصف بما يتصف به الإمبراطور من نظام حسن وآداب رقيقة . وقد خرج من هذه الطبقة الجديدة أولئك الحكام الذين صلحت بهم حكومة رومة بعد دومتيان Domitian مدى جيل كامل ، وأدرك فسبازيان ما جره من المساوئ استخدام العبيد المحررين منفذين لأوامر الإمبراطور ، فاستبدل بمعظمهم رجالا ممن جاء بهم من الأقاليم ومن طبقة رجال الأعمال التى أخذ عددها يزداد فى رومة . واستطاع بمعونة هؤلاء وأولئك أن يرد إلى رومة كرامتها وهو عمل يكاد يكون معجزة من المعجزات .

وقدر أنه فى حاجة إلى ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس لكى ينتشل البلاد من وهدة الإفلاس ويعيد الثقة إلى خزانة الدولة(٩٦)(*) فعمل على جمع هذا المال بأن فرض الضريبة على كل شىء تقريباً ، وزاد خراج الولايات ، وأعاد فرض الخراج على بلاد اليونان ، ورد إلى الدولة الأراضى العامة وأجرها للأفراد ، وباع القصور والضياع الإمبراطورية ، وفرض الاقتصاد الدقيق فى نفقات الدولة إلى حد جعل الناس يندون به ويقولون عنه إنه فلاح بخيل ، وقرر ضريبة على المباول العامة التى كانت تزدان بها رومة القديمة كما تزدان بها رومة الحديثة . واحتج ابنه تيتس على هذه الضريبة الأخيرة المنافية للكرامة ، ولكن الإمبراطور الشيخ أمسك بيده بعض النقود المحصلة منها وقربها من فم الشاب وقال له : « انظر يا بنى ، هل تشم لها رائحة كريهة ؟ »(٩٧) . ويتهمه سوتونيوس بأنه ضاعف أموال الخزانة العامة ببيع المناصب ، وترقية أشد الموظفين شراهة فى جباية الضرائب من الولايات ، حتى يتخموا جيوبهم بالمال حين يعزلهم فجاءة ، ثم يفحص عن أعمالهم ويصادر ما جمعوه لأنفسهم . على أن هذا المالى الماهر الواسع الحيلة لم يستخدم لنفسه شيئاً مما جمعه ، بل استنفد هذا المال كله فى إنعاش الحالة الاقتصادية ، وفى تجميل رومة بالمنشآت العامة وفى تقدمها الثقافى .

وبقى بعدئذ على هذا الجندى الخشن أن ينشئ أول نظام للتعليم تقوم به الدولة فى التاريخ القديم ، فكان أول ما عمله فى هذا الميدان أن أمر بأن تؤدى لطائفة من ذوى الكفاية من مدرسى الآداب وعلوم البلاغة اللاتينية واليونانية أجورهم من خزانة الدولة ، وأن يوظف لهم معاش بعد عشرين عاما من الخدمة . ولعل هذا الشيخ المتشكك قد أحس بأن للمدرسين نصيباً فى تكييف الرأى العام ، وبأنهم سيمتدحون الحكومة التى تؤدى إليهم أجر أعمالهم .

(*) هذا الرقم مأخوذ عن سوتنيوس ، ويرى كثيرون من المؤرخين أنه رقم مبالغ فيه ولا يقبله العقل ، ولكن يغلب على الظن أنه قدر بالنقد المنخفض القيمة فى ذلك الوقت .

ولعل سبباً كهذا هو الذى حدا به إلى إعادة بناء كثير من الهياكل القديمة فى الحواضر وفى بلاد الريف نفسها . فقد أعاد بناء هيكل جوپتر ، ويونو ومنيرڤا ، وكان جنود ڤيتليوس قد أحرقوا هذه الهياكل وهدموها فوق رؤوس جنوده . وشاد معبداً لپاكس Pax إلهة السلام ، وبدأ أشهر المبانى الرومانية كلها وهو مبنى الكولسيوم . وغضبت الطبقات العليا حين رأت الضرائب تفرض على ثروتها لإقامة المنشآت للدولة وأداء الأجور للعمال الفقراء ، كما أن العمال أنفسهم لم يحمدوا له كثيراً عمله هذا . ومن أعماله الأخرى أنه حشد الشعب لإزالة ما خلفته الحرب الأخيرة من أنقاض ، وحمل هو نفسه أول ما حمل منها ، ولمـا أن عرض عليه أحد المخترعين تصميم آلة رافعة تقلل الحاجة إلى العمل الجثمانى إلى حد كبير أبى أن يستخدمها وقال : « إنى أريد أن أطعم شعبي »(٩٨) وكان هذا الحظر المؤقت الذى فرضه ڤسپازيان على الاختراع اعترافاً منه بمشكلة التعطل الفنية ، وقراراً بالحيلولة دون حدوث ثورة صناعية .

وعم الرخاء الأقاليم إلى حد لم يكن له نظير من قبل ، فكانت ثروتها فى ذلك الوقت — إذا قدرت بالنقد على الأقل — ضعفى ما كانت عليه فى عهد أغسطس ، ولذلك تحملت أعباء ما زاد من الخراج من غير أن يصيبها ضرر ما . وعين ڤسپازيان أجركولا Agricola الرجل القدير حاكما على بريطانيا ، وعهد إلى تيتس أن يخمد ثورة اليهود ، فاستولى على أورشليم ثم عاد إلى رومة بكل مظاهر الشرف التى تتوج الإسراف فى التقتيل ، وسار القائد المظفر فى موكب نصره ومن ورائه صف طويل من الأسرى وقدر كبير من الغنائم مخترقا شوارع رومة ، وأقيم له قوس نصر شهير لتخليد ذكرى هذا النصر الباهر . وازدهى ڤسپازيان بانتصار ولده ولكنه ساءه وأقلق باله أن رأى تيتس يأتى معه بأميرة يهودية جميلة تدعى برنيس Berenice لتكون خليلة له ، ويرغب أن يتزوجها ، وفى هذه المرة أيضاً حمل الآسر معه آسره ؟

ولم يكن الإمبراطور يرى سببا يدعو لأن يتزوج الإنسان خليلته ، وقد ظل هو نفسه بعد وفاة زوجته يعيش مع جارية معتوقة ولم يعن قط بأن يعقد عليها ، ولما ماتت كثينس هذه وزع قلبه بين عدة محظيات[٩٩] . وكان قوى الاعتقاد بأنه يجب أن يستقر على رأى فى وراثة العرش قبل وفاته ، لأن هذه هى السبيل الوحيدة لمنع الفوضى . ووافقه مجلس الشيوخ على هذا الرأى ، ولكنه طلب إليه أن يختار « خير الأخيار » ويتبناه — ولعل المجلس كان يريد منه أن يختار أحد أعضائه . ورد ڤسپازيان بأنه يرى تيتس خير الأخيار . وأراد ولده أن ييسر الأمر لأبيه فأبعد عنه برنيس ، واستعاض عنها بالشيوعية الجنسية[١٠٠] . ثم أجلس الإمبراطور ولده معه على العرش وعهد إليه قسطا متزايداً من الحكم .

وزار ڤسپازيان ريتى مرة أخرى ، وشرب وهو فى الإقليم السبينى كثيراً من ماء بحيرة كوتليا Cutelia المسهل فأصيب بإسهال شديد . وظل وهو طريح الفراش يستقبل الرسل ويؤدى واجبات منصبه . وقد احتفظ إلى آخر لحظة بفكاهته السمجة رغم علمه بأنه قاب قوسين أو أدنى من الموت فقال : « وا أسفاه أظن أنى صائر إلى أن أكون إلها Vae i deus Puto fio ووقف على قدميه وهو يكاد أن يغمى عليه ، وأعانه على ذلك بعض أتباعه وقال : « إن الإمبراطور يجب أن يموت واقفا » . وبهذا ختم حياة كاملة بلغت التاسعة والستين عاما ، واختتم حكما صالحا دام عشر سنين .

الفصل السابع

تيتس

كان أكبر ولديه المسمى باسمه تيتس فلافيوس ڤسپازيانس Titus Vespasianus Flavius أسعد الأباطرة كلهم حظا . ذلك أنه مات فى السنة الثانية من حكمه وفى الثانية والأربعين من عمره وهو لا يزال « محبوب بنى الإنسان » . ولم يطل به الوقت حتى تفسده السلطة(*) أو تتكشف له خيبة الرجاء . لقد امتاز وهو فى ريعان الشباب ببأسه وقسوته فى الحرب ، ولوث سمعته بالانغماس فى الملذات ، فلما أن تولى الحكم لم تسكره السلطة ، وصلحت أخلاقه ، وجعل حكومته مضرب المثل فى الحكمة والنزاهة . وكان أكبر عيوبه كرمه الحاتمى ، فكان يرى أن اليوم الذى لم يسعد فيه إنساناً ما بهبة يقدمها يوما أضاعه من حياته . وقد أسرف فى الإنفاق على المعارض والألعاب ، وترك خزانة الدولة الغاصة بالمال وهى تكاد أن تكون خاوية كما وجدها أبوه . ومن أعماله أنه أتم تشييد الكلسيوم ، وبنى حماما عاما جديداً فى رومة ، ولم يحكم على أحد بالإعدام فى أثناء حكمه القصير ، بل فعل عكس هذا ، فقد كان الواشون والمخبرون يضربون بالسياط وينفون من البلاد ، وأقسم أنه يفضل أن يقتل هو على أن يكون سبباً فى قتل إنسان ، ولما عرف أن اثنين من الأشراف يأتمران به ليخلعاه ، لم يعمل أكثر من أن يرسل إليهم يحذرهم ، ثم أرسل رسولا يطمئن والدة أحد المتآمرين ، ويبلغها أن ابنها لم يصب بسوء .

(*) يشير الكاتب بقوله « تفسده السلطة » إلى قول لورد أكتن Acton المشهور كل سلطة مفسدة ، والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة All Power corrupts and absolute power corrupts absolutely (المترجم)

وكان ما أصابه من سوء الحظ ناشئاً من نكبات لا سلطان له عليها ؛ ذلك أن حريقاً شب فى رومة ودام ثلاثة أيام ، دمر فيها كثيراً من الأبنية الهامة ، وكان مما دمر فيها مرة أخرى هيا كل چوپتر ، ويونو ، ومنيرڤا ؛ وفى السنة نفسها ثار بركان ڤيزوف ، وخرب پمپى ، وأهلك آلافاً من الإيطاليين ؛ وفى السنة التالية تفشى فى رومة طاعون لم تشهد وباء أشد منه فتكا فى تاريخها كله . وبذل تيتس كل ما فى وسعه ليخفف وقع هذه الكوارث الشديدة ، ولم تظهر فى ذلك العمل عناية الإمبراطور برعاياه فحسب ، بل ظهر كذلك عطف الوالد الحنون على أولاده »[١٠٢] . ومات تيتس بالحمى فى سنة ٨١ فى نفس البيت الريفى الذى توفى فيه أبوه من زمن قصير . وحزنت عليه رومة كلها إلا أخاه الذى خلفه على العرش .

الفصل الثامن

دومتيان

إن المؤرخ الذى يريد أن يرسم صورة صادقة لدومتيان ليجد فى ذلك صعوبة لا تعادلها صعوبة رسم صورة لنيرون نفسه . ذلك أن أهم المصادر التى نستمد منها معلوماتنا عن حكمه مصدران هما تاستس وپلنى Pliny الأصغر ، وكلاهما ممن علا نجمهم فى عهده ، ولكنهما كانا من حزب الشيوخ الذين كانت بينهم وبينه حرب عوان يريد فيها كلا الطرفين أن يضرب الآخر الضربة القاضية . ولدينا فى مقابل هذين المؤرخين المعاديين له شاعران هما استاتيوس Statius ، ومارتيال Martial اللذين كانا ينالان رفده أو يسعيان لنيله ، واللذين شادا بذكره ورفعاه إلى عنان السماء . ولعلهم هم الأربعة كانوا على حق فيما قالوه عنه ، لأن دومتيان آخر الفلاڤيين بدأ حياته كالملائكة وختمها كالشياطين ، وكان شأنه فى هذا شأن كثيرين من اليوليوسيين — الكلوديين . وقد سايرت روح دومتيان جسمه فى هذا التطور : فقد كان فى شبابه متواضعاً ، رشيقاً ، لطيفاً ، وسيما ، طويلا ؛ ثم صار فيما بعد « بطيناً ، رفيع الساقين ، أصلع الرأس » — وإن كان قد ألف كتاباً « فى العناية بالشعر »(١٠٣) . وكان فى كهولته يقرض الشعر أما فى شيخوخته فلم يكن يثق بنثره ، وكان يعهد إلى غيره كتابة خطبه وتصريحاته . ولو لم يكن تيتس أخاه لأمكن أن يكون أسعد مما كان ؛ ولكن أنبل الناس وحدهم هم الذين يغتبطون بنجاح أصدقائهم . أما دومتيان فقد استحالت غيرته من أخية فى أول الأمر نكداً صامتاً ثم مكائد تدبر سراً لإسقاطة . واضطر تاستس أن يرجو أباه أن يصفح عن أخيه الأصغر . ولما مات ڤسپازيان ، أدعى دومتيان أن أباه قد أوصى بأن يكون شريكا فى

الحكم ولكن الوصية عبثت بها الأيدى ؛ ورد تيتس على هذا الادعاء بأن عرض عليه أن يكون شريكه وخليفته ، فرفض دومتيان هذا العرض وظل سادراً فى مؤامراته ؛ ويقول ديوكاسيوس إنه لما مرض تيتس عجل دومتيان منيته بأن أحاط جسمه بالثلج[١٠٤] . وليس فى وسعنا أن نتأكد من صحة هذه الأخبار أو غيرها من القصص التى وصلت إلينا عن شهواته الجنسية الطليقة — كقولهم إن دومتيان كان يسبح فى الماء مع العاهرات ، وإنه ضم ابنة تيتس إلى سراريه ، وإنه « كان فاجراً فاسقاً بالنساء والغلمان على السواء »[١٠٥] . ذلك أن التواريخ اللاتينية كلها لا تختلف فى شىء عن سياسة هذه الأيام ، فقد كانت ضربات توجه للوصول إلى أغراض رجال العصر الذى كتبت فيه .

فأما من حيث سياسة دومتيان نفسها فإنه كان فى العشر السنين الأولى من حكمه متزمتاً فى أخلاقه قديراً فى سياسته إلى حد دهش معه جميع عارفيه ؛ فقد اتخذ سياسة تيبيريوس واخلاقه مثلا يحتذيه ، كما اتخذ فسبازيان أغسطس مثلا آخر له . من ذلك أنه جعل نفسه رقيباً مدى الحياة ، ثم حرم نشر المطاعن البذيئة (وإن كان قد غض النظر عن فكاهات مارتيال الشعرية) . ونفذ القوانين اليوليوسية الخاصة بالزنى ، وحرم تمثيل المسرحيات الصامتة لمجافاتها الأخلاق ، وأمر بضرب عنق عذراء فستية حكم عليها بالزنى أو بمضاجعة أحد أقربائها المحرمين عليها ، وقضى على عادة الخصاء وهى العادة التى انتشرت مع ارتفاع أثمان الأرقاء الخصيان ، ولم يكن يطيق رؤية الدم المسفوك ولو كان دم الثيران التى يضحى بها فى المواسم الدينية . وكان رجلا شريفاً ، واسع الفكر ، لم يؤخذ عليه بخل أو شره فى حب المال ، أبى أن يقبل الوصايا ممن لهم أبناء ، وألغى جميع الضرائب المتأخرة من أكثر من خمس سنين ، وأعرض عن التجسس والمتجسسين . وكان فى أحكامه صارماً نزيهاً ، وكان له أمناء سر من معاتيقه ولكنه ألزمهم جميعاً أن يكونوا أمناء صالحين .

وكان عهده من أعظم عهود العمارة الرومانية ، فلما رأى أن النار التي شبت في عامى ٧٩ ، ٨٢ قد دمرت كثيراً من المبانى وأنزلت بالبلاد كثيراً من البلايا ، وضع برنامجاً واسعاً للمنشآت العامة ليوفر بذلك العمل للأهلين ويساعد على توزيع الثروة[١٠٦] ، وكان هو أيضاً ممن يأملون في إحياء الإيمان القديم بتجميل الهياكل والأضرحة والإكثار منها : ومن أعماله أنه أعاد بناء هياكل چوبتر ويونو ومنيرڤا ، وأنفق ما يعادل ٠٠٠ر٠٠٠ر٢٢ ريال أمريكى فى صنع أبوابها المصفحة بالذهب وأسقفها المطلية به ، وأعجبت رومة بنتائج هذه الجهود وأسفت على ما أنفق فيها من أموال طائلة . ولما أن شاد دومتيان لنفسه ولموظفيه الإداريين قصره الرحب المعروف باسم دومس فلاڤيا Domus Flavia شكا الأهلون بحق من كثرة ما أنفق فى بنائه من الأموال ، ولكنهم لم يرفعوا أصواتهم بالاحتجاج على الألعاب الكثيرة الأكلاف التى حاول أن يخفف بها من كراهية الشعب . وقد دشن هيكلا باسم أبيه وأخيه ، وأعاد بناء الحمامات ، وهيكل الآلهة الذى أنشأه أجرپا ، والرواق ذى العمد الذى أقامته أكتاڤيا ، وهيكلى إيزيس وسراپس ، وأضاف أجنحة جديدة للكلسيوم ، وأتم حمامات تيتس ، وبدأ الحمامات التى أكملها تراچان .

ولم تشغله هذه المنشآت عن بذل الجهود الجبارة فى تشجيع الفنون والآداب حتى بلغ النحت الفلاڤى الملون فى أيام زعامته ذروة مجده ، وحتى النقود التى سكت فى أيامه رائعة الجمال . ومن الوسائل التى استعان بها على تشجيع الشعر أن أقام فى عام ٨٦ الألعاب الكبتولية ، وكانت تشمل مباريات فى الأدب والموسيقى . وأقام معهداً وبهواً للموسيقى فى ميدان المريخ ؛ وقدم معونة متوسطة لاستاتيوس Statius ذى المواهب الوسطى ، وأخرى لمارتيال ذى المواهب الوضيعة ، وأعاد بناء دور الكتب العامة التى دمرتها النيران ، وجدد ما كانت تحتويه من الكتب بأن أرسل الكتبة لنسخ المخطوطات المحفوظة فى الإسكندرية — وذلك برهان آخر

على أن مكتبتها العظيمة لم يحرق إلا جزء صغير من كنوزها فى النار التى أوقدها فيها قيصر .

وإلى هذا كله كان يصرف شئون الإمبراطورية أحسن تصريف ، وكان يتصف بما يتصف به تيبريوس من عزيمة قوية صارمة فى الشئون الإدارية ، وقد ضرب على أيدى المختلسين والمرتشين ، وكان شديد الرقابة على تعيين الموظفين ومصائرهم . وكما فعل تيبريوس بجرمنكوس إذ حد من جشعه ، كذلك استرجع دومتيان أجركولا من بريطانيا بعد أن قاد هذا القائد المغامر جيوشه ودفع حدود الأملاك الرومانية حتى وصلت اسكتلندة ، ويلوح أن أجركولا كان يعتزم مواصلة الزحف ولكن دومتيان أبى عليه ذلك . وقد عزا بعضهم استرجاع أجركولا لحسد دومتيان له وغيرته من مجده ، وجوزى الإمبراطور على هذا أشد الجزاء حين كتب تاريخ حكمه صهر أجركولا نفسه . وخانه الحظ فى الحرب أيضاً حين عبر الداشـــيون نهر الدانوب فى عام ٨٦ ، وغزوا ولاية موئيزيا Moesia الرومانية ، وهزموا قواد دومتيان ، فما كان من الزعيم إلا أن تولى القيادة بنفسه ، ووضع خطة الحرب فأحكم وضعها ، وأوشك أن يدخل داشيا ولكن أنطونينس ستورنينس Antoninus Saturninus الوالى الرومانى على ألمانيا العليا أقنع فيلقين من الفيالق المعسكرة فى مينز Mainz بأن تنادى به إمبراطوراً . وأخمد أعوان دومتيان الفتنة ، ولكنها أفسدت عليه خطته إذ مكنت أعداءه من جمع شملهم والاستعداد لقتاله . فلما أن عبر الدانوب لملاقاة الداشيين هزمه هؤلاء على ما يظهر ، فعقد الصلح مع دسبالس Dacibalus ملك الداشيين ، وأرسل إليه هدية كان يرسل مثلها فى كل عام يسترضيه بها ، وعاد إلى رومة ليحتفل بنصر مزدوج على الشاتين Chatti والداشيين ، واكتفى فيما بعد بإنشاء طريق محصن بين نهرى الرين والدنواب وآخر بين الثنية الشمالية لهذا النهر والبحر الأسود .

وكانت فتنة سترنينس نقطة الانقلاب فى حكم دومتيان ، أو الحد الفاصل

بين نفسه الطيبة ونفسه الخبيثة . لقد كان على الدوام شديداً لا يلين ، أما الآن فقد انحدر إلى القسوة والوحشية ؛ ولقد كان قادراً على أن يحكم حكماً صالحاً ، ولكن مقدرته هذه كانت موقوفة على أن يكون حاكماً أوتوقراطياً لا معقب لحكمه ؛ ففى عهده لم يلبث مجلس الشيوخ أن فقد سلطته ، وكانت اختصاصاته الواسعة بوصفه رقيباً سبباً فى إذلال هذا المجلس وبث روح الانتقام فى نفوس أعضائه . هذا إلى أن غرور دومتيان لم يقف عند حد ، والغرور كما هو معروف من الصفات التى تترعرع حتى فى نفوس الوضيعين من الناس : ومن مظاهر غروره أنه ملأ الكبتول بتماثيله ، ونادى بتأليه أبيه وأخيه وزوجته وأخته كما نادى بتأليه نفسه ، وأنشأ طائفة جديدة من الكهنة سمو الفلافيال Flaviales ليشرفوا على عبادة أولئك الأرباب ، وطلب إلى الموظفين ألا يذكروه فى وثائقهم إلا بلقب « سيدنا وإلهنا Dominus et Deus Noster » . وكان يجلس على عرشه ويشجع زائريه على أن يحتضنوا ركبتيه ، وأدخل فى قصره المزخرف آداب القصور الشرقية ، لأن الزعامة أصبحت بقوة الجيش وانحلال مجلس الشيوخ ملكية غير دستورية . واشتعلت نيران الفتن على هذا التطور الجديد بين صفوف الأشراف وبين الفلاسفة والأديان التى أخذت تتسرب إلى رومة من بلاد الشرق . وأبى اليهود والمسيحيون أن يعبدوا دومتيان ويتخذوه إلهاً من دون الله ، وندد الكلبيون بكل أنواع الحكومات ، وأقسم الرواقيون ليقاومن كل مستبد جبار ويكرمن قتلة المستبدين وإن قبلوا أن يحكم البلاد ملوك . وفى عام ٨٩ طرد دومتيان الفلاسفة من رومة ، ثم أخرجهم من إيطاليا كلها فى عام ٩٥ ، وكان قرار طردهم من رومة يشمل معهم المنجمين ، لأن تنبؤهم بموت الإمبراطور أوقع الرعب فى قلب رجل خال قلبه من الإيمان ومستعد لقبول الخرافات والأوهام . وفى عام ٩٣ أعدم دومتيان بعض المسيحيين لأنهم أبوا أن يقربوا القرابين بين يدى تمثاله ؛

وتقول الروايات المتواترة إن فلاڤيوس كلمنز Flavius Clemens ابن أخيه كان من هؤلاء القتلى[١٠٧] .

وزاد خوف الإمبراطور من المؤامرات حتى بلغ فى السنين الأخيرة من حكمه حد الجنون ، فكان يبطن بالحجارة البراقة جدران الأروقة التى يمشى تحت سقفها ، حتى يرى صورة من كان وراءه معكوسة فيها . وكان يندب سوء حظ الحكام لأن أحداً لا يصدقهم إذا قالوا إن الناس يأتمرون بهم إلا إذا نجحت المؤامرة ، وكان كتيبيريوس يستمع للواشين حين تقدمت به السنون ، فلما أن تضاعف عدد الوشاة ، لم يكن أحد من المواطنين ذوى المكانة يأمن على نفسه وهو فى عقر داره من الجواسيس . وزادت التهم والأحكام زيادة سريعة بعد فتنة سترنينس ، فنفى الأشراف أو قتلوا تقتيلا ، وعذب كل من اشتبه فيه عذاباً شديداً ، وكان من بين ضروب العذاب « إدخال النار فى أعضائهم التناسلية »[١٠٨] . واتُّخذ مجلس الشيوخ المروع — وكان من أعضائه تاستس الذى يقص هذه الأخبار والحقد يملأ قلبه — أداة لهذه المحاكمات والأحكام ، وكان كلما أعدم إنسان يحمد للآلهة أن أنجت الزعيم .

وكان من الأخطاء التى وقع فيها دومتيان أن قذف الرعب فى قلوب آل بيته أنفسهم . من ذلك أنه أمر فى عام ٩٦ بإعدام إپفرديتس Epaphraidtus أمين سره لأنه أعان نيرون على الانتحار قبل ذلك الوقت بسبع وعشرين سنة . وأحس معاتيق بيته وقتئذ بأنهم مهددون بالخطر ، فاعتزموا أن يتقوا الشر بقتل دومتيان ، وانضمت إليهم دوميتيا Domitia فى هذه المؤامرة . وحدث فى الليلة السابقة لليلة مقتله أن قفز من فراشه مذعوراً . ولما حلت الساعة المتفق عليها وجه خادم دوميتيا الضربة الأولى ؛ واشترك أربعة عشر غيره فى الهجوم عليه ؛ وقاوم دومتيان هذا الهجوم مقاومة المجنون ، ثم خر صريعاً ، وكان ذلك فى السنة الخامسة والأربعين من عمره والخامسة عشرة من حكمه (٩٦) . ولما علم الشيوخ بالنبأ

مزقوا ما كان له فى قاعة المجلس من صور وحطموا ما وضع له فيها من تماثيل وأمروا أن يحطم كل ما فى الإمبراطورية بأجمعها من تماثيل له ومن نقوش يذكر فيها اسمه .

وبعد فقد ظلم التاريخ هذا العهد « عهد الطغاة » ، وكان سبب هذا الظلم أنه تحدث عنه أكثر ما تحدث بلسان أعظم المؤرخين نباهة وأبعدهم عن الإنصاف . ولسنا ننكر أن ثرثرة سوتونيوس كثيراً ما تؤيد اتهامات تاستس أو تحذو حذوها ، ولكن دراسة الأدب والنقوش قد حكمت عليهما بأنهما يظنان خطأ أن كتابة تاريخ الإمبراطورية ، وتاريخ القرن الذى كانا يعيشان فيه ، لا تخرج عن تسجيل رذائل الأباطرة العشرة وخطاياهم . إن أسوأ هؤلاء الحكام لم يكن مجرداً من كل خير — فقد كان تيبيريوس حاكماً مخلصاً فى عمله ، وكان كالجيولا مرحاً جذاباً ، وكان كلوديوس يكدح لتعلم الحكمة ، وكان نيرون مرهف الحس بالجمال ، وكان دومتيان قديراً فى حكمه صارماً فيه . وقام من خلف مظاهر الفجور والتقتيل نظام إدارى حفظ للولايات قسطاً كبيراً من النظام خلال هذه الفترة الطويلة كلها . يضاف إلى هذا أن الأباطرة أنفسهم كانوا أكبر ضحايا سلطانهم ، فقد كان مرض من نوع ما يجرى فى دمائهم ، أشعلت ناره حرارة شهواتهم الطليقة ، وظل يلازم اليوليوسيين — الكلوديين حتى قضى عليهم كما قضى على أبناء أتريوس Atreus . وكان عيب من نوع ما فى نظام الحكم هو الذى حط من شأن الفلاڤيين فى مدى جيل واحد ، فهوى بهم من حزمهم فى شئون الحكم وصبرهم على متاعبه إلى القسوة الوحشية المروعة . ولقد اختتمت حياة سبعة من هؤلاء الرجال العشرة أسوأ خاتمة ، وكانوا كلهم تقريباً غير سعداء فى حياتهم ، فقد عاشوا فى جو من المؤامرات والدسائس والخيانة ، يحاولون أن يحكموا عالما من بيت تسوده الفوضى . وإذا كانوا قد أطلقوا العنان لشهواتهم فما ذلك إلا لأنهم كانوا يعرفون أن سلطانهم العظيم سريع الزوال وأنهم كانوا يعيشون يروعهم فى كل يوم

علمهم بأنهم مقضى عليهم بالموت الباكر المفاجئ ، وإذا كانوا قد انحطوا إلى الدرك الأسفل فما ذلك إلا لأنهم كانوا فوق متناول القانون ، وإذا كانوا قد أضحوا أقل من الرجال فما ذلك إلا لأن السلطة جعلت منهم آلهة يعبدون .

ولكننا مع ذلك لا يحق لنا أن نغفر لهذه الحقبة أو للزعامة ما اقترفته من الجرائم الخسيسة الدنيئة ؛ نعم إنها نشرت السلام فى ربوع الإمبراطورية ، ولكنها بسطت حكم الإرهاب على رومة ، وأفسدت الأخلاق بما ضربته من أمثلة القسوة المروعة والفجور الطليق ، وقطعت أوصال إيطاليا بإشعال نار الحرب الأهلية التى كانت أشد هولا ووحشية من حروب قيصر وبمپى ، وملأت الجزائر بالمنفيين ، وأفنت خير الرجال وأشدهم بأساً . وأقواهم قلباً . ونشرت الغدر والخيانة بين الأقارب والأصدقاء بإجزال العطاء للجواسيس الشرهين . وقد استبدلت فى رومة حكم القانون بطغيان الأفراد وشادت صروحاً ضخمة بجمع الخراج من الولايات ، ولكنها أضعفت النفوس بإرهاب ذوى المواهب والابتكار حتى يذلوا أو يصمتوا . وشر من هذا كله أنها جعلت الجيش صاحب السلطة العليا فى البلاد . فلم يكن منشأ سلطة الزعيم على مجلس الشيوخ هو عبقريته الفذة ، أو ما جرى به العرف ، أو مكانة الزعيم وهيبته ، بل كان عماد هذه السلطة أسنة الحرس . ولما رأت جيوش الولايات كيف كان الأباطرة يرفعون على العرش ، وكيف كانت العطايا توزع فى العاصمة والغنائم تؤخذ منها ، استولت على سلطة الحرس البريتورى ، وتولت هى صنع الملوك . ولقد استطاع الحكام العظام ، الذين كانوا يختارون بالتبنى لا بالوراثة ، استطاعوا بالحكمة أو بالبطش أو بالمال أن يكبحوا جماح الفيالق الرومانية ويؤمنوا الحدود والثغور ، فلما أن عادت البلاهة إلى الجلوس إلى العرش بعمل فيلسوف عاشق ، شق الجند عصا الطاعة وفسد نظامهم ، ومزقت الفوضى غشاء النظام الرقيق ، وتآزرت الحرب الأهلية والبرابرة المتربصون فتحطم صرح الحكم النبيل المزعزع الذى شادته عبقرية أغسطس .

الباب الرابع عشر

العصر الفضى

١٤ – ٩٦ م

الفصل الأول

المولعون بالفنون

أطلقت الرواية المتواترة على الآداب اللاتينية فيما بين ١٤ ، ١١٧ م اسم العصر الفضى للدلالة على أن هذه الآداب قد نزلت عن المستوى الثقافى الرفيع الذى بلغته فى عصر أغسطس ؛ والرواية هى صوت الزمان ، والزمان هو الوسط الذى يختار فيه بين الطيب والخبيث ، والعقل الحذر يجل حكمهما لأن الشباب وحده هو الذى يعرف ما لا تعرفه عشرون قرناً من الزمان . على أننا نرجو أن يؤذن لنا بأن نرجئ حكمنا على هذا العصر ، وأن نستمع بلا تحيز إلى ما يقوله عنه لوكان ، وپترونيوس ، وسنكا ، وپلنى الأكبر ، وسلسس Celsus ، واستاتيوس Statius ومارتيال ، وكونتليان ، وأن نستمع فى أبواب أخرى من هذا الكتاب إلى أقوال تاستس ، وجوڤنال ، وپلنى الأصغر ، وإپكتتس Epictetus ، وأن نستمتع بأقوالهم استمتاع من لم يسمعوا قط بأنهم عاشوا فى عصر من عصور الاضمحلال . ذلك أنا نجد فى كل عصر شيئاً يضمحل وشيئاً ينمو ؛ فالمقطوعات الشعرية الفكهة ، والهجاء ، والروايات القصصية ، والتاريخ ، والفلسفة ، بلغت كلها فى العصر الفضى ذروة مجدها ، كما أن فن النحت الواقعى ، والعمارة الضخمة قد بلغا فيه ما لم يبلغاه فى عصر آخر من عصور الفن الرومانى .

وفى هذا العصر دخل حديث رجل الشارع مرة أخرى فى الأدب ، وأهملت بعض قواعد النحو والصرف ، وحذفت الحروف الساكنة من أواخر الكلمات ، ولم يعبأ بها الرومان أكثر مما كان يعبأ بها الغاليون . وحدث فى منتصف القرن الأول أو حواليه أن رقق الحرفان اللاتينيان V (وكان ينطق كما ننطق حرف W (و) فى اللغة الإنجليزية) ، B (إذا كان بين حرفين متحركين)(*) حتى أصبحا مماثلين فى النطق لحرف V الإنجليزى . وهكذا أصبحت كلمة babere ومعناها التملك ينطق بها bavere ، وكان هذا تمهيداً للكلمة الإيطالية avere ، وللفرنسية Avoir ؛ وأخذت كلمة vinum ومعناها النبيذ أو الخمر تقترب فى النطق من كلمة vino الإيطالية ، وكلمة vin الفرنسية وذلك بإهمال الحرف الساكن الأخير المتغير . وقصارى القول أن اللغة اللاتينية شرعت تمهد السبيل للغات القومية الأيطالية والأسبانية والفرنسية .

وجدير بنا أن نعترف فى هذا المقام بأن الخطابة ازدهرت وقتئذ على حساب البلاغة ، وأن النحو ارتقى على حساب الشعر ؛ وأن المقتدرين الكفاة وجهوا كل جهودهم إلى دراسة شكل اللغة وتطورها ودقائقها ، وإلى نشر النصوص التى أصبحت فى ذلك العهد نصوصاً « فصحى » ، وإلى صياغة قواعد الكتابة الأدبية الراقية والخطب القضائية ، وأوزان الشعر ، وتقاسيم الجمل فى النثر . وحاول كلوديوس أن يدخل بعض الإصلاح على الحروف الهجائية ، وجعل نيرون الشعر طراز العصر المحبب ، وألف سنكا الأكبر كتباً فى البلاغة ، وحجته فى هذا أن الفصاحة تزيد كل قوة إلى ضعفيها ؛ ولم يكن أحد يرقى فى رومة بغير الفصاحة إلا قواد الجند وخدمهم ، وحتى هؤلاء القواد كان يجب أن يكونوا خطباء . واستحوذ جنون البلاغة على جميع أشكال الأدب : فأصبح الشعر خطابياً والنثر

(*) لقد فضلنا أن نستعمل هذا اللفظ (الحرف المتحرك) لترجمة كلمة vowel الإنجليزية وإن كان بعضهم يفضل تسميته « بالحركة » ، وذلك للدلالة على كيانه المستقل . (المترجم)

شعرياً ، وحتى پلنى نفسه كتب صفحة بليغة فى المجلدات الستة من كتابه فى **التاريخ الطبيعى** . وأخذ الناس يشغلون أنفسهم باتزان عباراتهم ، وتناغم جملهم ، وأضحت التواريخ خطباً حماسية ، وأخذ الفلاسفة يجهدون أنفسهم فى البحث عن النكات ، وشرع كل إنسان يكتب أمثالا مركزة موجزة ، وصار الأدباء كلهم يكتبون الشعر ويقرءونه لأصدقائهم حول مناضد فى ردهات أو دور تمثيل يستأجرونها لهذا الغرض ، بل إنهم كانوا يقرءونه فى الحمامات نفسها ، حتى شكا من ذلك مارتيال مر الشكوى . وعقدت مباريات عامة للشعراء ، ينال الفائزون فيها جوائز وتحتفل بهم المجالس البلدية ، ويضع الأباطرة على رؤوسهم أكاليل النصر . وكان الأشراف والزعماء يرحبون بأن تهدى إليهم المؤلفات أويثنى عليهم فيها وكانوا يجيزون أصحابها بالولائم أو الأموال . وكانت شهوة الشعر مما أكسب هذه الفترة وتلك المدنية اللتين دنستهما الإباحية الجنسية وعهود الإرهاب المتكررة نقول كانت هذه الشهوة مما أكسب هذه الفترة ذلك الجمال الذى يخلعه المؤلفون الهواة على العصر الذى يعيشون فيه .

واجتمع الشعر والإرهاب فى حياة لوكان ، وكان سنكا الكبير جده ، وسنكا الفيلسوف عمه . وقد ولد قرطبة عام ٣٩ وسمى ماركس أنيوس لوكانس Marcus Annaeus Lucanus ، وجىء به فى طفولته إلى رومة ونشأ فى بيئة أرستقراطية يصطرع فيها الشعر والفلسفة مع دسائس الحب ومع السياسة فى سبيل الغلبة والمكانة السامية فى الحياة . ولما بلغ الحادية والعشرين من عمره اشترك فى المباريات التى عقدت أثناء الألعاب النيرونية ، وتقدم إليها بقصيدة « فى مدح نيرون » نال عليها جائزة . وأدخله سنكا فى بلاط الإمبراطور ، وسرعان ما أخذ الشاعر والإمبراطور يتطارحان الملاحم . وارتكب لوكان غلطة شنيعة إذ كسب الجائزة الأولى فى مباراة شعرية مع الزعيم ، فما كان نيرون إلا أن أمره بألا ينشر بعدها شعراً ، وانسحب لوكان ليثأر لنفسه سراً بتأليف ملحمة قوية ولكنها خطابيــة

سماها فرسالیا رأى فيها الحرب الأهلية بعين الأرستقراطية البمبية . ولم يبخس لوكان فى هذه الملحمة قيصر حقه ، وقد وصفه فيها بتلك العبارة البليغة « nil actum credens cum quid supersset agendum يظن أنه لم يفعل شيئاً إذا ما بقى شىء ما لم يفعله »[1] ، ولكن البطل الحقيقى فى هذه الملحمة هو كاتو الأصغر الذى يضعه لوكان فى مصاف الآلهة فى سطر مشهور من سطور كتابه «victrix causa deis placiut sed victa Catoni إن القضية الرابحة سرت الآلهة ، ولكن القضية الخاسرة سرت كاتو »[2] . وقد أحب لوكان أيضاً القضية الخاسرة ، ومات فى سبيلها . فقد اشترك فى مؤامرة ليحل بيزو محل نيرون ، وقبض عليه ، فخارت قواه (ولم يكن قد جاوز السادسة والعشرين من عمره) ، وباح بأسماء شركائه فى المؤامرة ، حتى اسم أمه نفسها — على حد قول المؤرخين . ولما أيد نيرون حكم الإعدام الذى صدر عليه ، استعاد شجاعته ، ودعا أصدقاءه إلى وليمة ، وأكل معهم حتى شبع ، ثم فتح بعض أوردته ، وأنشد ما قاله من الشعر فى هجو الظلم والطغيان بينا كان دم الحياة ينزف من جسمه .

الفصل الثاني

پترونيوس

لسنا واثقين من أن پترونيوس الذى لا يزال كتابه المسمى الساتريكون satyricon يجد له كثيراً من القراء هو نفسه كيوس پترونيوس Caius Petronius الذى قتل بأمر نيرون بعد عام من مقتل لوكان . وليس فى الكتاب كله كلمة واحدة يمكن أن يستدل منها على هويته ؛ ولا يذكر تاستس فى وصفه القوى البليغ لهذا « الحاكم الظريف » كلمة واحدة عن هذه الآية الأدبية التى بلغت الغاية فى سوء السمعة ، وتعزى نحو أربعين مقطوعة فكهة إلى كاتب يدعى پترونيوس ومنها بيت يكاد يمثل فلسفة لكريوشيوس كلها وهو : « إن الخوف هو الذى أوجد الآلهة فى العالم أول الأمر »[٣] ولكن هذه النتف أيضاً لا تذكر شيئاً يفصح عن حقيقة مؤلفها .

وكتاب الساتريكون مجموعة من الهجاء يغلب على الظن أنها كانت فى ستة عشر كتاباً لم يبق منها إلا الكتابان الأخيران ، وحتى هذين الكتابين ناقصان . واسمها مشتق من ساتورى saturae اللاتينية ومعناها « خليط » — وهى تارة نثر وتارة شعر ، وتختلط فيها المغامرات بالفلسفة ، وجراحة المعدة بالصيد . وهى مدينة فى صورتها هذه لكتب منبس Menippus الهجائية ؛ ومنبس هذا فيلسوف سورى كلبي Cynic كان يقيم فى جدارا Gadara وفيها كتب مؤلفة عام ٦٠ ق . م ، ومنها « القصص الميليزية » Milesian أو الروايات الغرامية التى انتشرت فى العالم ذى الحضارة اليونانية . وإذ كان كل ما لدينا من أمثلة لهذا النوع من الكتابات إنما يرجع إلى ما بعد عصر پترونيوس فإن كتاب الساتريكون يمتاز عن أمثاله من الكتب بأنه أقدم رواية قصصية معروفة .

ولا يكاد الإنسان يصدق أن رجلا مترفاً أرستقراطياً نبيلا ، اشتهر بذوقه الراقى ، ينزل إلى الدرك الذى نزل إليه كتاب الساتريكون . إن كل ما فيه من الشخصيات العاملة من العامة ، والأرقاء السابقين ، وكل ما فيه من المناظر مأخوذة من أسفل أنواع الحياة ؛ وبه ينتهى فجاءة العهد الأغسطى الذى كانت تؤخذ فيه موضوعات الأدب من حياة الطبقات العليا. فإنكلپيوس Encolpius الذى تروى القصة على لسانه زان ، مخنث . كاذب لص ، يرى من الطبيعى أن يكون كل ذى عقل على شاكلته . وهو يقول عن نفسه وعن صديقه : « لقد اتفقنا فيما بيننا على أن نختلس كل ما تصل إليه أيدينا كلما أتيحت لنا فرصة الاختلاس ، لنملأ به خزينتنا المشتركة »(٤) . وتبدأ القصة فى بيت للدعارة ، يلتقى فيه إنكلپيوس بأسيلتوس Ascyltos بعد أنْ لجأ هـذا إلى ذلك المكان فراراً من محاضرة فى الفلسفة ، ومغامراتهما بين مدن إيطاليا الجنوبية وكهوفها هى الرباط الذى يربط أجزاء القصة المبعثرة ، كما أن تنازعهما على جيتون Giton الغلام الرقيق الوسيم هو الذى يفرق بينهما فى قصة اللصوص الغرامية . ويصل الرجلان آخر الأمر إلى بيت التاجر تريملكيو Trimalchio ، ثم يدور الجزء الباقى لدينا من الكتاب حول وصف السنا تريملكيونس Cina Trimalchionis وهو أعجب غذاء فى الأدب كله .

وتريملكيو هذا عبد سابق جمع ثروة طائلة واشترى ضياعاً واسعة ، يحياحياة المترفين الحديثى النعمة ، بين جدران قصر وفى جو ملىء بالاضطراب. وقد بلغت ضياعه من الاتساع حداً لا بد معه من كتابة صحيفة يومية يعرف بها مكاسبه ، وهو يطلب إلى ضيوفه أن يشربوا ويقول :

« إذا لم يعجبكم الخمر استبدلت به غيره ، ولست مضطراً إلى شرائه وذلك ما أحمده للآلهة : إن كل ما يُسيل لعابكم فى هذا المكان قد جاءنى من إحدى مزارعى التى لم أرها بعد ؛ ولكنهم يقولون لى إنها فى طريق ترسينا Terracina

وتارنتم ، وإنى أفكر فى أن أضم صقلية لأملاكى الصغيرة الأخرى ، حتى إذا ما أردت أن أسافر إلى أفريقية استطعت أن أسير مجاوراً لشواطئ أملاكى . . . وإذا ما حدثتكم عن الفضة فإنى أحدثكم عنها حديث الخبير فعندى منها أقداح فى حجم دنان الخمر . . . وعندى ألف جفنة تركها مميوس Mummius لسيدى . . . وأنا أشترى الأشياء بأبخس الأثمان وأبيعها بأغلاها وقد يكون لغيرى من الناس آراء غير هذه الآراء(٥) » وهو رغم هذا رجل ظريف ، يسب عبيده ولكنه يعفو عنهم من فوره ، وهم من الكثرة بحيث لا يعرف صورته منهم إلا عشرهم ، وهو لا ينسى أنه فى الأصل عبد مثلهم ولذلك يقول عنهم قولا كريماً : « إن العبيد رجال قد رضعوا اللبن الذى رضعناه . . . وسوف يشرب عبيدى إذا طال بهم العمر الماء الذى يشربه الأحرار » . وهو يبرهن على حسن نواياه بأن يأمر بإحضار وصيته وقراءتها على ضيوفه فيجدون فيها أموالا مخصصة لقبريته التى يختمها بقوله مفتخراً إنه « اغتنى من لا شىء ، وإنه ترك وراءه ثلاثين مليون سسترس ، وإنه لم يستمع قط إلى فيلسوف »(٦) .

واختص وصف العشاء بأربعين صفحة ، وإن عدداً قليلا من الجمل لتكفى لوصف نكهته :

وكانت لدينا صينية مستديرة نقشت على أطرافها أبراج النجوم ، وقد وضع الخادم على كل برج خير ما يلائمه من الطعام ؛ فوضع جلبان الضأن على برج الحمل ولحم البقر على برج الثور . . . ورخم خنزيرة لم تلد على برج السنبلة . . . ووضع على برج الميزان كفتين فى إحداهما فطيرة وفى الأخرى كعكة . . . وأقبلت أربعة راقصات مسرعات ليرفعن الغطاء عن الطعام . وكان من تحته طيور محشوة ، وبطون خنازير ، يتوسطها أرنب ، وفى الجوانب أربعة تماثيل لمارسياس Marsyas يخرج من مثاناتها حساء متبل يقع على سمك يسبح فى الصحاف . . . ثم جاءت صينية أخرى عليها خنزيرة ، علقت فى أنيابها سلال مثقلة بالبلح . ومن حولها صغارها مصنوعة

من الفطائر . . . ولما دفع الخادم السكين فى جانب الخنزيرة طار منها طير السمانى وحط كل واحد على ضيف من الأضياف (٧) .

ثم تدخل الحجرة أربعة خنازير بيضاء ويختار الضيوف ما يريدون أن يطهى لهم منها ؛ ويشوى لهم ما يختارونه وهم يطعمون ؛ ويؤتى لهم به ، فإذا قطع خرجت من بطنه أمعاؤه المحشوة والفطائر . وإذا قدمت الحلوى لم يجد أنكلپيوس لديه شهية لتناولها ، ولكن تريملكيو يحث ضيوفه على الأكل ويؤكد لهم أن الحلوى قد صنعت كلها من لحم خنزير . ويدلى خطاف من السقف ، يحمل لكل ضيف إبريقاً من المرمر مملوءاً بالعطر ويملأ العبيدأقداحاً فارغة بالخمر المعتق . وتذهب الخمر بعقل تريملكيو فيغازل غلاماً ، وتحتج عليه زوجته البدينة ، ويقذفها بكأس فى رأسها ويقول : « إن هذه العاهر السورية الرقاصة ضعيفة الذاكرة ، فلقد انتشلتها من سوق النخاسة وجعلتها امرأة ، وها هى ذى تنفخ أوداجها كالضفدعة . . . وهذه سنة الخلق إذا ولدت فى علية تحت سطح منزل ، فلن تستطيع أن تنام فى قصر » (٨) ثم يأمر قهرمانه أن يبعد تمثالها عن قبره « وإلا فإنها ستؤنبنى حتى بعد أن أموت » .

هذا كتاب فى الهجاء القوى المقذع ، واقعى فى تفاصيله وحدها ، ولا يصدق إلا على قسم صغير من الحياة الرومانية . وإذا كان كاتبه هو پترونيوس الذى عاش فى عهد نيرون ، وجب علينا أن نعده هجاء مقذعا للأغنياء المحدثين من الأرقاء المحررين ، كتبه رجل من الأشراف ، لم يكسب قط بعمله ما كان له من المال . والكتاب كله خلو من الرحمة ليس فيه شىء من العطف على الناس ، ولا يهدف إلى مثل أعلى ، ويرى كاتبه أن الفساد وسوء الخلق أمر طبيعى لا غبار عليهما ، وتعرض فيه حياة السوقة من الناس عرض من يستمتع بها ويعجب بها ولا يعلق بكلمة ما عليها . وفى هذا الكتاب تنساب الأقذار انسياباً سريعاً إلى الأدب الرومانى ، وتحمل إليه أحكام أصحابها ، وأذواقهم ، وألفاظهم الوقحة ، وحيويتهم

المرحة . وترى القصة أحياناً تصـــل إلى أعلى درجات السخف والبذاءة والسباب التي تتوج ملحمة جرجنتوا وپنتجرول ، وتعد تمهيداً لقصة « الأثان الذهبية » لأپوليوس Apuleius وتضارعها جيل بلاس Gils Blas التي كتبت بعدها بسبعة عشر قرنا ، وتواصل قصتا ترسترام شاندى Tristram Shandy وتم چونز Tom Jones ما في قصَصها من التواء ، وجملة القول أن هذا الكتاب هو أعجب كتاب في الأدب الروماني كله .

الفصل الثالث

الفلاسفة

فى هذا العصر الشديد التعقد والانحلال ، الذى فرضت فيه على الحرية أضيق القيود وتحررت فيه الحياة من كل قيد ، فى هذا العصر ازدهرت الفلسفة إلى جانب الفسق والفجور ، ولم تترفعا قط عن التعاون والاتفاق . لقد ترك ما طرأ على الدين القومى من انحلال ثغرة فى الأخلاق حاولت الفلسفة أن تسدها ، فكان الآباء يرسلون أبناءهم ، وكثيراً ما كانوا يذهبون هم أنفسهم ، ليستمعوا إلى محاضرات رجال يعرضون عليهم قانوناً عقلياً للأخلاق الصالحة ، أو ستارا رسميا للشهوات المكشوفة ، وكان بعض من أوتواسعة من المال يستأجرون الفلاسفة ليعيشوا معهم ، وليعلموهم ، ليكونوا لهم مستشارين روحيين ، وأصحاباً عالمين . هكذا كان أتيوس لأغسطس ، لايكاد يبرم أمراً حتى يستشيره فيه ، ومن أجله (إذا كان لنا أن نصدق الحكام فيما يقولون) لم يقس على مدينة الإسكندرية ، ولما مات دروسس استدعت ليفيا « فيلسوف أبيها » — وهذا نص عبارة سنكا — « ليعينها على تحمل أحزانها » . وكان لنيرون ، وتراچان وأورليوس بطبيعة الحال فلاسفة يقيمون معهم فى بلاطهم ، كما للملوك أمناء فى هذه الأيام . وكان الناس فى الساعات الأخيرة من حياتهم يستدعون الفلاسفة ، ليمهدوا لهم طريق الموت ، كما جرت العادة بعدئذ أن يستدعى الناس القساوسة(١٠) .

ولم يكن الشعب ليغفر لهؤلاء الفلاسفة أنهم يتقاضون على أعمالهم هذه مرتبات أو أجوراً ، بل كان يرى أن الفلسفة فى حد ذاتها تغنى عن الطعام والشراب ؛ وكان الفلاسفة الذين لايقدرون مهنتهم حق قدرها عرضة لسخرية الشعب ، وانتقاد كونتليان Quintilian ، وهجو لوشيان Lucian وعداء

الأباطرة. والحق أن الكثيرين منهم كانوا جديرين بهذا كله، لأنهم كانوا يلبسون لباس الفلاسفة الخشن ، ويطلقون لحاهم طويلة ، ليستروا بثوب العلم نهمهم ، وأطماعهم ، وبخلهم . وغرورهم . وفي ذلك يقول أحد الأشخاص للوسيان إن :

« دراسة قصيرة للحياة قد أقنعتني بما في جميع الأغراض الدنيوية من سخف وحقارة . . . وخير ما أستطيع أن أفكر فيه وأنا في هذه الحالة النفسية هو أن أعرف حقيقة الحياة كلها من الفلاسفة . . . من أجل هذا اخترت أحسنهم — إذا كان وقار المنظر ، واصفرار الوجه ، وطول اللحية هي المقياس الذي يعتمد عليه في هذه الحال . . . ثم وضعت نفسي بين أيديهم . وطلبت إليهم أن يعلموني نظام الكون في نظير مبلغ كبير من المال أؤديه إليهم فوراً ، ومبلغ آخر أؤديه إليهم حين أصل إلى الغاية في الحكمة . ولكن الذي حدث لسوء الحظ أنهم لم يبددوا ما كنت فيه من جهل ، بل زادوا عقلي ارتباكا فوق ارتباكه بما جرعوني من بدايات وغايات ، وذرات وفراغ ، ومواد وأشكال . وكان أصعب ما لقيته أنهم جميعاً كانوا يريدون أن أصدقهم ، رغم ما بينهم من خلاف ، ورغم ما كان في أقوالهم كلها من تناقض ؛ فكان كل واحد منهم يجذبني نحوه . . . وكثيراً ما كان يعجز عن أن يخبرك بما بين مجارا وأثينة من أميال ، ولكنه لا يتردد مطلقاً في أن يخبرك بما بين الشمس والقمر من أقدام(١١) .

وكان معظم الفلاسفة الرومان من أتباع المذهب الرواقي ، أما الأبيقوريون فلم تترك لهم الخمر والنساء والطعام وقتاً للنظريات الفلسفية . وكان في أماكن قليلة من رومة متسولون يدّعون إلى الفلسفة الكلبية لا يعنون بالتفكير ، ويدعون الناس إلى البساطة والتقشف ، ويذعنون لما يطلبه الشعب إلى الفلاسفة أن يكونوا فقراء ، ومن أجل هذا كانوا أقل طوائف الفلاسفة احتراماً . ولكن سنكا اتخذ واحداً من هؤلاء صديقا وفياً له ؛ وقال في هذا متسائلا : « ولم لا أجل دمتريوس وأعظمه ؟ لقد وجدته

كاملا لا ينقصه شيء . وقد دهش الحكيم صاحب الملايين حين رفض الفيلسوف الكلبي ، الذى لم يكد يجد عنده ثوباً يستر به عورته ، عطية من كالجبولا مقدارها مائتا ألف سسترس(١٢) .

وإذ كان الرواقي الروماني رجل قتال لا رجل تأمل وتفكير ، فقد كان يتجنب ما وراء الطبيعة ، ويرى ذلك من المطالب الميئوس منها ، وكان يجد في الرواقية فلسفة أخلاقية تقوم على الآداب الإنسانية ، وتضم شمل الأسرة ، وتثبت النظام الاجتماعي من غير حاجة إلى رقابة علوية وسيطرة إلهية . وكان جوهر قانونه الأخلاقي هو سيطرة المرء على نفسه ، فكان يدعو إلى إخضاع الشهوات للعقل ، وكان يعوّد إرادته ألا تطلب شيئاً يجعل راحته النفسية تعتمد على الطيبات الخارجية . وكان في الناحية السياسية يعترف بأخوة البشر الخاضعين لأبوة الله . وكان في الوقت نفسه يحب بلده وتراه على الدوام مستعداً لأن يضحي بحياته لكي يرد عنها وعن نفسه المذلة والعار . وكانت الحياة على الدوام رهن تصرفه ، له أن يغادرها حين تصبح نقمة عليه لا نعمة له ، وكان الرواقي يسعى لأن يكون ضمير الإنسان أقوى من كل قانون ، وكانت الملكية في رأيه شراً لا بد منه لحكم الأقطار الشاسعة المتباينة ، ولكن قتل الطاغية المستبد كان أمراً طيباً مرغوباً فيه كل الرغبة .

وقد استفادت الرواقية الرومانية أول الأمر من الزعامة ، ذلك أن القيود التي فرضت على الحرية السياسية دفعت الناس من السوق العامة إلى الدرس ، وبعثت في أرق هؤلاء الناس وأظرفهم نزعة إلى الفلسفة التي تجعل الشخص المسيطر على نفسه ذا سلطان أقوى من سلطان الملك الثائر المنفعل . ولم تقيد الحكومة حرية الفكر أو القول ما دامت الأفكار والأقوال لا تتجه علناً إلى مهاجمة الإمبراطور وأسرته ، أو إلى الطعن على الآلهة الرسمية . فلما أن شرع الأساتذة وأولياؤهم من الشيوخ يندّدون بالظلم والاستبداد شبت بين الفلسفة والحكم المطلق حرب عوان ، دامت حتى جمع بينهما الأباطرة المتبنَّون فوق العرش .

ولما أمر نيرون ثراسى Thrasea بأن يقتل نفسه (٦٥) نفى فى الوقت نفسه موسونيوس روفس Musonius Rufus صديق ثراسى ، وأخلص فلاسفة رومة الرواقيين فى القرن الأول عقيدة ، وأشدهم عملا بفلسفته . وكان روفس قد عرف الفلسفة بأنها هى البحث عن السلوك الطيب ، وشرع فى هذا البحث بجد ومثابرة . وقد شهر بالتسرى رغم شرعيته ، وكان يطلب إلى الرجال أن يحافظوا فى أخلاقهم الجنسية على المستوى الذى يطالبون به النساء . وكان الرجل التولستوى النزعة يقول إن العلاقات الجنسية لا تباح إلا فى حالة الزواج وللمحافظة على النسل . وكان يعتقد بوجوب تكافؤ الفرص التعليميه للرجال والنساء على السواء ويرحب بوجود النساء فى محاضراته ، ولكنه يأمرهن أن يبحثن فى الزينة والفلسفه عن الوسائل التى يكملن بها أنوثتهن[١٣] . وكان الأرقاء أيضاً يشهدون محاضراته . وقد شرف أحد هؤلاء وهو Epictetus أستاذه بأن تفوق عليه . ولما أن شبت نار الحرب الأهلية فى رومةبعدموت نيرون خرج موسونيوس للجيش المهاجم ، وأخذ يخطب فيه ويشرح له فوائد السلم وفظائع الحرب . وسخر منه جنود أنطونيوس وعادوا إلى تحكيم السيف . ولما أن طرد ڤسپازيان الفلاسفة من رومة استثنى منهم روفس ، ولكنه احتفظ بسراريه .

الفصل الرابع

سنكا

وجدت الفلسفة الرواقية فى حياة لوسيوس أنيوس سنكا Lneius Annaeus Seneca أكثر مظاهرها مدعاة إلى الريبة ، كما وجدت فى كناياته أصدق تعبير عنها . وكان مولده فى قرطبة (Corduba) حوالى العام الرابع قبل الميلاد ، وسرعان ما جئ به إلى رومة وتلقى فيها كل ما كان يستطيع أن يتلقاه من تربية وتعليم . وقد تشرب الفلسفة من أبيه ، والرواقية من أتالس Attalus والفيثاغورية من سوتيون Sotion ، والفلسفة العملية من زوج عمته حاكم مصر من قبل الرومان . وحاول مدى عام أن يعيش على الأطعمة النباتية ، ثم عدل عن هذا ، ولكنه ظل طوال حياته مقلا من الطعام والشراب ، فكان من ذوى الملايين فى بيئته لا فى عاداته . وقد عانى كثيراً من مرض الربو وضعف الرئتين ، حتى فكر فى بعض الأحيان فى الانتحار . ومارس مهنة المحاماة ، واختير كوسترا فى عام ٣٣ م ، وبعد عامين من ذلك الوقت تزوج بمبيا پولينا Pompeia Paulina وعاش معها عيشة مستمرة عجيبة حتى مماته .

ولما ورث ثروة أبيه ، ترك مهنة المحاماة ، واشتغل بالكتابة . ولما أرغم كالجيولا كرمتيوس كوردس Cremutius Cordus على أن يقتل نفسه (٤٠) كتب سنكا إلى ابنته مقالة تعزية Consolatis ، وكانت هذه المقالات من الموضوعات التى يكتبها الخطباء والفلاسفة فى تلك الأيام . وأراد كالجيولا أن يقتله عقاباً له على وقاحته ، ولكن أصدقاءه أنجوه من القتل بقولهم إنه لن يلبث أن يموت من السل إذا ما ترك وشأنه . وبعد قليل من ذلك الوقت اتهمه كلوديوس بوجود علاقات غير شريفة بينه وبين يوليا ابنة چرمنكوس ،

وحكم عليه مجلس الشيوخ بالإعدام ، ولكن كلوديوس استبدل بهذا الحكم النفى فى جزيرة كورسكا .

وفى هذه الجزيرة الصخرية الوعرة قضى الفيلسوف فى عزلته ثمانى سنين (٤١ — ٤٩) بين أقوام لم يرتفعوا قط عن بدائيتهم التى وصفهم بها أوفد فى تومى Tomi . وصبر فى أول الأمر على هذه الكارثة صبر الرواقيين الحقيقيين ، وكتب إلى أمه مقالا يواسيها فيه « Consolatio ad Helviam » فلما أن توالت عليه أعوام الشقاء ، ضعفت نفسيته واستولى عليه اليأس ، فكتب إلى أمين سر كلوديوس مقالة Consolatio ad Polybium يرجوه فيها متذللا أن يعفو عنه ، ولما لم يفده هذا الرجاء حاول أن يخفف من آلامه بكتابة المآسى .

وأكبر الظن أن هذه المسرحيات العجيبة التى يكاد كل شخص فيها أن يكون خطيباً ، إنما كتبت لتقرأ وتدرس لا لتمثل على المسرح ، ذلك أننا لم نسمع قط أن واحدة منها مثلت ، وغاية ما فى الأمر أن بعض الحادثات ذات الروعة أو بعض الخطب الطنانة الرنانة ، لحنت ومثلت تمثيلا هزليا . ونرى الفيلسوف الرقيق فى هذه المسرحيات يجرى الدماء على المسرح كأنه يريد ألا يكون هذا المسرح أقل بشاعة وسفكا للدماء من الاحتفالات والألعاب . على أنه رغم ما بذله فيها من جهود جبارة ، لم ينجح فى مسرحياته لانصرافه فيها إلى التفكير أكثر من انصرافه إلى الإخراج المسرحى ، فهو يفضل الأفكار على الرجال ، ولا يدع فرصة تمر دون أن يشغلها بالتأملات والعواطف والفكاهة . ولسنا ننكر أن مسرحياته أبياتاً جميلة ، ولكن الإنسان لا يلام إذا لم يعلق شىء منها بذاكرته بعد سماعها . على أننا يجب أن نضيف إلى هذا أن كثيرين ممن يعتد بحكمهم لا يتفقون معنا فى الرأى ، ومن هؤلاء اسكلجر Scaliger سيد النقاد جميعاً فى عصر النهضة والذى يفضل سنكا عن يوربيديز .

ولما أن عادت الآداب القديمة إلى الحياة ، كان سنكا هو الذى اتخذ

نموذجاً لأولى المسرحيات التى كتبت باللغات الحديثة ، وعنه أخذت الصيغ الفصيحة ، ووحدة الزمان والمكان التى امتازت بها مسرحيات كورنى Corneille وراسين Racine ، والتى ظلت مسيطرة على المسرح الفرنسى حتى القرن التاسع عشر . ولقد كانت ترجمـــة هاى وود Heywood (١٥٥٩) لمسرحيات سنكا فى إنجلترا ، التى كانت أقل البلاد تأثراً بنفوذه ، المثال الذى نسجت على منواله مأساة جوربودك Gorboduc أولى المآسى الإنجليزية ، وكان لهذه المآسى أثرها فى مسرحيات شيكسپير .

وحدث فى عام ٤٨ أن حلت أجرپينا الصغرى محل مسالينا فى السطرة على كلوديوس وعلى رومة ، وكانت تتوق إلى أن تجعل من ابنها نيرون ، وكان وقتئذ فى الحادية عشرة من عمره ، اسكندراً ثانياً ، فأخذت تتلفت حولها تبحث له عن أرسطاطاليس ، حتى وجدته فى جزيرة كورسكا ، فأمرت باستدعاء سنكا وأعادته إلى مكانه فى مجلس الشيوخ ، وظل خمس سنين يعلم تلميذه الشاب ، وخمس سنين أخرى يرشد الإمبراطور ويمسك بزمام الدولة . وكان طوال هذه العشر السنين يدبج الرسائل لإصلاح شأن نيرون ، كما كتب عدة رسائل مختلفة يعرض فيها الفلسفة الرواقية عرضاً ظريفاً . ومن هذه الرسائل رسائله : **فى الغضب** ، **وفى قصر الحياة** ، **وفى هدوء الروح** ، **وفى الرحمة** ، **وفى الحياة السعيدة** ، **وفى ثبات المسرح** ، **وفى الفوائد** ، **وفى حسن التدبير** . وهذه الرسائل التى تعنى أكثر ما تعنى بالشكل والمظهر لا تبرز أحسن مواهب سنكا ، فهى كمسرحياته ملأى بالنكات ، ولكن هذه النكات التى يجدها القارئ منثورة فى غير ارتباط فى صحف الكتاب كلها تفقد بهجتها آخر الأمر وتبعث الملل فى نفس القارئ . على أن قراء سنكا مع ذلك كانوا يقرءون هذه المقالات من حين إلى حين ، ولم يكونوا يشمئزون من النكات المرحة التى أغضبت كونيان الصارم(١٤)

الملتزمت[١٤] ، ولا من المحسنات اللفظية التي لم يرض عنها ذوق فرنتو Fronto العتيق . لقد كان يسر أولئك القراء أن وزيرهم الأول ينطق بأقواله الظريفة ، وأنه يحاول كما يحاول تلميذه بكل ما أوتى من جهد أن يكسب ثناءهم عليه . وقد ظل سنكا كثيراً من السنين حامل لواء الكتاب ، والساسة ، وزراع الكروم فى إيطاليا .

وضاعف ما ورثه عن أبيه من ثروة باستثمارها استثماراً استعان عليه فيما يظهر بمنصبه الرسمي وعلمه الواسع ؛ وإذا كان لنا أن نصدق ديو فإنه كان يقرض المال لأهل الولايات بربافاحش أثار الفزع والفتنة فى بريطانيا حين فاجأ مدينيه فيها بطلب أمواله البالغ قدرها ٤٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس[١٥] . ويقال إن ثروته بلغت ٣٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس أى (٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ ريال أمريكى)[١٦] . وقد اتهمه جاسوس من أصدقاء مسالينا يدعى پبليوس سوليوس Publius Sullius علناً بأنه « منافق ، زان ، خليع ، يذم حاشية الإمبراطور ولا يفارق قصره : ويذم الترف ، ويتباهى بأن له خمسمائة خوان من الأرز والعاج ، ويندد بالثروة ويستنزف دماء الولايات بالربا الفاحش »[١٧] . وقنع سنكا كما قنع قيصر بمقارعة الحجة بالحجة ، وكان فى وسعه أن يأمر بإعدام خصمه . ولقد أعاد ذكر هذه التهم فى مقاله « عن الحياة السعيدة » ورد عليها بأن الحكيم لا يتحتم عليه أن يكون فقيراً ، فإذا جاءه المال من طريق شريف كان فى وسعه أن يقبله ؛ ولكن يجب أن يكون فى مقدوره أن يتخلى عنه متى شاء دون أن يندم عليه »[١٨] ، وكان فى هذه الأثناء يعيش عيشة الزهد والتقشف بين أثاثه الجميل ، ينام على خشبة صلبة خشنة ، ولا يشرب إلا الماء القراح ، ولا يتناول إلا القليل من الطعام ، حتى ضمر جسمه من قلة التغذية قبل وفاته[١٩] . وكتب فى ذلك يقول : « إن كثرة الطعام تذهب بالذكاء ، والإفراط فيه يخنق الروح »[٢٠] . أما ما اتهم به من الشذوذ الجنسي فلعله كان

يصدق عليه أيام شبابه ، ولكنه اشتهر بعطفه الدائم على زوجته . والحق أنه لم يقرر فى حياته أيهما أحب إليه الفلسفة أو السلطة ، الحكمة أو السعادة ؛ ولم يقتنع فى يوم من الأيام بتعارض الفلسفة مع السلطة ، أو الحكمة مع السعادة ؛ وكان يعترف بأنه حكيم جد ناقص ، ومن أقواله فى هذا : « إنى لا أمتدح الحياة التى أحياها بل الحياة التى يجب أن أحياها ، وهى الحياة التى أحبو إليها حبواً ، وهى بعيدة عنى كل البعد »(٢١) ، وأينا لا يصدق عليه هذا الوصف ؟ وإذا لم يكن مخلصاً فى قوله إن « الرحمة لا تزين أحداً من الناس بقدر ما تزين الملك أو الزعيم »(٢٢) ، فلا أقل من أنه قد وصف هذه العاطفة وصفاً لا يقل جمالا عن وصف بورشيا Portia لها(*). وقد ندد بمعارك المجتلدات التى كانت تنتهى بقتل المصارعين(٢٤) ، وكان من أثر ذلك أن حرمها نيرون ، وخفف من حدة النقد فى أيامه بما يسميه تاستس : « كياسته فى تلقين الحكمة »(٢٥) ، ولم يكن فى حياته يتطلب الكمال ، كما لم يكن يمارسه عملياً .

ولقد سبق القول بأنه حكم الإمبراطورية حكما صالحا وأنه أساء إلى سمعته بالتغاضى عن شر ما ارتكبه نيرون من الجرائم ، و « السماح بارتكاب الكثير من الشر حتى يكون فى مقدوره أن يفعل القليل من الخير »(٢٧) . وكان يحس بما فى منصبه الرسمى من ذلة ومهانة ، ويتوق إلى التحرر من عبوديته ، ووصف قصر الإمبراطور بأنه « سجن يشقى فيه العبيد » . وكان يتمنى أن لو قضى حياته كلها فى دراسة الحكمة ، وتجنب دياجير السلطان . وكان يسره أن يتخلى من حين إلى حين عن مشاغله السياسية ، وأن يستمع وهو فى سن الستين إلى محاضرات مترونا كس Metronax فى الفلسفة كما يستمع إليها الصبى الحريص على الإفادة منها . وطلب فى عام ٦٢ — وكان وقتئــذ فى السادسة والستين من عمره — أن يؤذن له باعتزال منصبه فى القصر ، وكان وقتئذ أقل شأناً من منصبه الأول ،

(*) يشير المؤلف إلى وصف بورشيا البليغ للرحمة فى رواية تاجر البندقية لشيكسبير . (المترجم) .

ولكن نيرون لم يجبه إلى طلبه . ولما طلب نيرون إلى جميع من فى الإمبراطورية أن يكتتبوا فى إعادة بناء رومة بعد الحريق العظيم الذى دمرها فى عام ٦٤ ، تبرع هو بالجزء الأكبر من ثروته لهذا الغرض . واستطاع فيما بعد أن ينسحب شيئاً فشيئاً من بلاط الإمبراطور ، وأن يقضى جزءاً متزايداً من وقته فى بيوته فى كمبانيا ، لعله يستطع بعزلته الشبيهة بعزلة النساك أن يفر من الإمبراطور ومن جواسيسه . وظل وقتاً ما لا يطعم إلا التفاح البرى ولا يشرب إلا الماء الجارى خشية أن يدس له السم فى الطعام .

وفى هذا الجو المليء بالرعب والفزع دوّن بين عامى ٦٣ ، ٦٥ دراساته فى التاريخ الطبيعى Questiones Naturales كما كتب ألطف كتاباته كلها وهى رسائله الأخلاقية Epistulae Morales . وهذه الرسائل أحاديث عارضة شخصية موجهة إلى صديقه لوسليوس والى صقلية المثرى ، الشاعر ، الفيلسوف والأبيقورى الصريح . وقل أن يجد الإنسان فى الأدب الرومانى كتباً تبعث على السرور خيراً من هذه المحاولات الطريفة لتكييف الرواقية حسب حاجات الرجل الواسع الثراء . وتعد هذه الرسائل بداية المقالة الخالية من التكلف والصنعة التى أمست فيما بعد الوسيلة التى لجأ إليها أفلوطرخس ، ولوسشيان ، ومنتانى ، وڤلتير ، وروسو ، وبيكن ، وأدسن واستيل للتعبير عن آرائهم . وإن القارئ ليشعر وهو يقرأ هذه الرسائل بأنه على اتصال برومانى مستنير ، رحيم ، متسامح ، سما إلى الذروة وتعمق إلى أبعد حد فى الأدب ، والسياسة ، والفلسفة ، ويحس كأن زينون يتحدث فيها برقة أبيقور وتسامحه وبسحر أفلاطون . ويعتذر سنكا للوسليوس عن أسلوبه المهلهل الذى لا يبدو فيه كبير أثر للعناية (وهو مع ذلك أسلوب لاتينى رائع الحسن) ، ويقول فى اعتذاره هذا : « وأحب أن تكون رسائلى إليك هى عين حديثى ، إذا ما جلسنا أو سرنا معاً »(٣٠) . ويضيف إلى ذلك قوله :

« لست أكتب هذا لجمهرة الناس ، بل أكتبه إليك ، فحسبي وحسبك

أن يستدع كل منا للآخر « Satis magnum alteri theatrum sumus »(٣١)، وإن كان السياسى الشيخ يرجو بلا ريب أن يسترق الناس هذا الحديث . وهو يصف ربوه وصفاً رائعاً وإن كان لا يرثى فيه لنفسه ، ويسمى هذا المرض تسمية مرحة ظريفة فيقول إنه « التدويب على الموت » بأخذ « أنفاس أخيرة » متقطعة تدوم كل منها ساعة . وكان وقتئذ فى السابعة والستين من العمر ولكنه لم يبلغها إلا بجسمه ، أما « عقلى فقوى يقظ ، يجادلنى فى موضوع الشيخوخة ، ويجهر بأنها فترة ازدهاره »(٣٢) . وهو يبتهج إذ واتته الفرصة آخر الأمر لقراءة الكتب القيمة التى اضطر إلى إغفالها زمناً طويلا . ويلوح أنه فى ذلك الوقت قد عاد إلى قراءة كتب أبيقور ، لأنه ينقل عنها فقرات كثيرة وينقلها بحماسة تزرى بأمثاله من الرواقيين ، ويستولى عليه الرعب حين يشهد تطرف كالجيولا ، ونيرون . وآلاف غيرهما من الرومان فى نزعتهم الفردية وفى الجرى وراء شهواتهم ؛ يريد أن يجد وسيلة يقاوم بها المغريات التى تحيط بمن يتحرر عقله قبل أن ينضج خلقه ، ويبدو أنه أخذ على نفسه أن يرد على الأبيقوريين ويفحمهم بأقوال نطق بها زعيمهم الذى دنسوا اسمه بأعمالهم ، والذى لا يجرؤون على فهم تعاليمه .

وأول درس يلقيه على الناس فى الفلسفة هو أننا لا نستطيع أن نكون عقلاء حكماء فى كل شىء ، وأنا لسنا فى حقيقة أمرنا إلا قطعاً متناثرة فى الفضاء اللانهائى ، ولحظات قصيرة فى الأبدية ، وإن محاولة هذه الذرات المتشعبة أن تصف الكون ، أو الكائن الأعلى ، لعمل ترتج منه الكواكب سخرية ومرحاً . ومن أجل هـــذا فإن سنكا لم يكن فى حاجة إلى الدين أو إلى علم ما وراء الطبيعه ؛ وفى وسع الإنسان أن يثبت من كتاباته أنه كان من الموحدين ، أو المشركين ، أو الكافرين ، أو الماديين ، أو الأفلاطونيين ، أو القائلين بوحدة الموجود ، أو ثنائيته . وهو يرى فى بعض الأحيان أن الله قوة مدبرة شخصية ،

تهيمن على كل شيء ، « تحب الصالحين من الناس »[٣٣] ، وتستجيب إلى دعواتهم ، وتعينهم بلطفها الإلهي[٣٤] . ثم تراه فى فقرات أخرى يقول إن الله هو العلة الأولى فى سلسلة متصلة الحلقات من العلل والمعلولات ، وإن القوة النهائية هى القدر وهو علة لا ترد ولا تنقض ، تصرف شئون البشر والآلهة على السواء . . . تقود الطائعين وتجر الغاضبين »[٣٦] . وهذا التردد نفسه يطمس فكرته عن النفس البشرية ، فهى عنده نسمة مادية رقيقة تبعث الحياة فى الجسد ولكنها أيضاً « إله يسكن » فى الهيكل البشرى « كما يسكن الضيف » عند مضيفه[٣٧] . وهو يتحدث حديث المرتجى عن حياة بعد الموت ، تكمل فيها المعرفة والفضيلة[٣٨] ؛ ويسمى الفساد الخلقى كما سماه من قبل « حلماً جميلا »[٣٩] . وحقيقة الأمر أن سنكا لم يفكر فى هذه المسائل تفكيراً يصل به إلى نتيجة متسقة (أو عامة) ، بل هو يتحدث عنها حديث السياسى المذبذب الذى يوافق الناس جميعاً . ذلك أنه عمل بدروس أبيه الخطابية فنجح فيما كان يبغيه نجاحاً فوق ما يجب ، واستطاع أن يعبر عن جميع الآراء المتناقضة بعبارات بليغة لا يستطيع القارئ أن يقاوم أثرها فى نفسه .

وهذا التردد عينه يفسد فلسفته ويجملها معاً ، فهو مسرف فى رواقيته إلى حد يجعل فلسفته غير عملية ، وهو لين إلى حد لا يستطيع معه أن يكون رواقيا حقيقيا ، وهو يرى من حوله فساداً خلقيا ينهك الجسم ويزرى بالنفس ، ولا يرضى هذا أو ذاك ؛ ويرى أن الشره والترف قد قضيا على الطمأنينة والصحة ، وأن كل ما أفاده الإنسان من القوة أن صار وحشاً أقدر على الأذى من سائر الوحوش فهل من سبيل إلى نجاة الإنسان من هذا الاضطراب الشائن المذل ؟

لقد قرأت اليوم قول أبيقور : « إذا شئت أن تستمتع بالحرية الحقة ، وجب عليك أن تكون عبداً للفلسفة ؛ ذلك أن الرجل الذى يخضع لها يتحرر لساعته .. إن الجسم إذا شفى من مرضه مرة كثيراً ما ينتابه المرض مرة أخرى ..

أما العقل ، فإذا شفى ، فلن يعود إليه المرض أبداً ، وسأحدثكم عما أعنيه بالصحة : إن الصحة فى رأيى أن يكون عقل الإنسان راضياً واثقاً ، يدرك أن الأشياء التى يسعى إليها الناس جميعاً ، وكل الفوائد التى يعملون لها أو ينالونها ، لا أثر لها فى الحياة السعيدة ... وسأدلكم على قاعدة تقيسون بها أنفسكم وتحولكم من حال إلى حال ! إنكم تصلون إلى ما تبغونه لأنفسكم فى ذلك اليوم الذى تدركون فيه أن الناجحين هم أكثر الناس شقاء(٤٠) .

« والفلسفة هى علم الحكمة ، والحكمة هى فن العيش ، والسعادة هى الغرض الذى نبتغيه ، ولكن الطريق إليها هو الفضيلة لا اللذة . والحِكَم القديمة التى يهزأ بها الناس صحيحة صادقة تثبت التجارب صدقها فى كل يوم . وسوف ننال آخر الأمر بالشرف ، والعدالة ، والحلم ، والرأفه ، قدراً من السعادة أكثر مما نناله بالجرى وراء اللذة . وما من شك فى أن اللذة طيبة مستحبة ، ولكنها لا تكون كذلك إلا إذا اتفقت مع الفضيلة ؛ وليس فى المقدور الرجل العاقل أن يتخذها هدفاً له ، ومثل الذين يجعلونها غرضهم فى الحياة كمثل الكلب الذى يختطف كل قطعة من اللحم تلقى إليه ، ويبتلعها كلها ، وهو بعدئذ لا يستمتع بها ، بل يقف فاغراً فاه يتلهف على قطعة أخرى(٤١) .

ولكن كيف يحصل الإنسان على الحكمة ؟ إن السبيل إلى ذلك أن تمارسها كل يوم بقدر مهما يكن ضئيلا ، وأن تمتحن سلوكك فى آخر كل يوم ، وأن تكون قاسياً على أغلاطك ليناً على أغلاط غيرك ، وأن تصاحب من هم أعظم منك حكمة وفضيلة ، وأن تتخذ لنفسك رجلا لا تراه عينك مشهوداً له بالحكمة ليكون لك ناصحاً وقاضياً تحتكم إليــه فى شئونك ، ويساعدك على الوصول إليه أن تقرأ كتب الفلاسفة ، ولست أقصد بهذه الكتب قصص الفلسفة الموجزة ، بل أقصد بها مؤلفات الفلاسفة أنفسهم ، « ولا تزُجَّ قط أنك ستستطيع فى يوم من الأيام أن تحصل على زبد حكمة النابهين من الرجال بقراءة خلاصات موجزة لهذه

الحكمة »(٤٢)، « إنك ستغادر كل واحد منهم أسعد مما كنت وأشد رغبة فى حكمته ، ولن يتركك واحد منهم تفارقه صفر اليدين ... ألا ما أعظم تلك السعادة ، وما أنبل تلك الشيخوخة اللتين تنتظران ذلك الرجل الذى يحتمى بحماهم ويتخذهم سادة له وأنصاراً ! »(٤٣) . اقرأ الكتب الطيبة مراراً ، فذلك خير لك من قراءة الكتب الكثيرة ؛ وسافر سفراً بطيئاً ، ولا تسرف فى الأسفار ، لأن « الروح لا تنضج وحدتها إلا إذا كبحت جماح تشوفها وتجوالها »(٤٤) . وأولى سمات العقل المنظم أن يكون صاحبه قادراً على أن يبقى فى مكان واحد ، وأن يطيل المكث مع أصدقائه(٤٥) . وإياك والجموع الكبيرة فإن « الناس وهم مجتمعون أخبث منهم وهم فرادى ، فإذا اضطررت أن تكون فى حشد كبير ، فأنت أشد ما تكون فى حاجة إلى الانطواء على نفسك »(٤٦) .

وآخر درس يتعلمه الرواقى هو احتقار الحياة وإيثار الموت . ذلك أن الحياة ليست على الدوام ممتعة إلى الحد الذى يجعلها جديرة بأن يطول أجلها ؛ ومن الخير للإنسان بعد حمى الحياة ونوباتها أن ينام ليستريح . « وهل ثمة شىء أحط من أن يضطرب الإنسان ويغضب وهو على عتبة السلام ؟ »(٤٧) . وإذا وجد الإنسان الحياة محزنة ، واستطاع أن يغادرها دون أن يضر ذلك ضرراً بليغاً بغيره من الناس ، فعليه أن يشعر بأن من حقه أن يختار الوقت الذى يغادرها فيه والطريقة التى يغادرها بها . ويحبذ سنكا للوسليوس الانتحار كأنه سيكون هو وريثه فيقول :—

« من الأسباب التى لا يستطيع الإنسان معها أن يتذمر من الحياة أنها لا تستبقيه فيها رغم إرادته ... كم من مرة قطع لك وريد ليقل بذلك وزنك ! وإذا ما طعنت نفسك فى قلبك فإنك لن تكون فى حاجة إلى جرح واسع حتى تموت ؛ وإن مشرطا يشق لك الطريق إلى الحرية ، وفى وسعك أن تشترى راحتك بوخزة إبرة ...(٤٨) وحيثما أدرت بصرك وجدت الوسيلة التى تقضى بها

على متاعبك . فهل ترى هذه الربوة الشديدة الانحدار ؟ إنها تهبط بك إلى الحرية ؟ أو هل ترى هذا النهر أو ذاك الحوض أو ذلك البحر ؟ — إن الحرية فى أعماقها[٥٠] ... ولكنى نحدث فأطلت الحديث ، وكيف يستطيع الإنسان أن يختم حياته إذا لم يكن فى وسعه أن يختم رسالة يكتبها ؟ [٥١]... أما أنا ياعزيزى لوسليوس فقد بلغت أرذل العمر ، وقد عشت كفايتى ، وها أنا ذا فى انتظار الموت . وداعاً أيها الصديق »[٥٢]

واستجابت الأقدار لدعائه ، فقد أرسل إليه نيرون تربيونا يستجوبه فيما اتهم به من أنه يتآمر على جعل پيزو إمبراطوراً ؛ فأجاب الرسول بأنه لم يعد يهتم بالسياسة ، وأنه لا ينشد غير السلام ، وأن تتاح له الفرصة للعناية « ببنيته المتهدمة الضعيفة » . ويقول التربيون : « إنه لم تظهر عليه أعراض الخوف أو أمارات الحزن . . . وإن أقواله ونظراته كانت تنم عن عقل هادئ قويم ثابت » . وقال نيرون للتربيون : « عد إليه وقل له أن يموت » ويقول تاستس إن « سنكا تلقى النبأ بهدوء واطمئنان » ، ثم عانق زوجته ، وطلب إليها أن تتخذ من حياته الشريفة النبيلة ومن دروس الفلسفة سبباً للسلوى والاطمئنان . ولكن پولينا أبت أن تعيش بعد مماته ، فلما أن فتحت أوردته ، أمرت هى الأخرى بفتح أوردتها ، ثم استدعى أحد أمناء سره وأملى عليه رسالة وداع للشعب الرومانى . وطلب بعدئذ قدحاً من شراب السكران ، فجىء له به ، كأنه اعتزم أن يموت ميتة سقراط . ولما أن وضعه الطبيب فى حمام فاتر ليخفف به ألمه ، رش الماء على أقرب الخدم له وهو يقول : « هذا ماء ساكب لجوف المنقذ » ثم فارق الحياة بعد آلام مريرة (٦٥) ، وأمر نيرون الطبيب بأن يربط معصمى پولينا على الرغم منها ، ويمنع خروج الدم من أوردتها ففعل ، وبذلك عاشت بعد زوجها بضع سنين ؛ ولكن امتقاع لونها الدائم كان يدل على عزمها القوى الثابت .

ورفع الموت من قدر سنكا وأنسى جيلا من الأجيال مواقفه وتذبذبه . وكان

ككل الرواقيين يستخف بالسّلطة ولا يقدر قوة الوجدان والعواطف حق قدرها ، ويغالى فى قيمة العقل ويفرط فى الاعتماد عليه ، ويثق فوق ما يجب بالطبيعة وهى منبت جميع أزاهير الشر والخير على السواء . ولكنه جعل الرواقية فلسفة بشرية وأنزلها من عليائها حتى أضحت فلسفة حية فى متناول بنى الإنسان ومهد بها للمسيحية . ولقد كان تشاؤمه ، وتنديده بفساد الأخلاق فى أيامه ، ودعوته الناس أن يقابلوا الغضب بالحلم(٥٤) ، وانشغاله بأمر الموت(٥٥) ، كان كل هذا مما حمل ترتليان Tertullian على أن يقول عنه إنه « منّا »(٥٦) ، كما حمل أوغسطين على أن يقول فيه « ماذا يستطيع المسيحى الصميم أن يقول أكثر مما قاله هذا الوثنى ؟ »(٥٧) . نعم إن سنكا لم يكن مسيحياً . ولكنه فى القليل طالب بالقضاء على القتل والسلب ، ودعا إلى الحياة البسيطة المهذبة ، وقلل ما كان هناك من فروق بين الرجل الحر والمحرز والرقيق حتى أضحت هذه الفروق لا تزيد على « الألقاب التى خلقتها المطامع أو الأخطاء »(٥٨) . وكان الذى استفاد أكبر فائدة من تعاليم سنكا عبداً فى بلاط نيرون وهو إبكتتس . كذلك صاغت كتاباته نرڤا Nerva وتراجان إلى حد ما ، وكانت أعماله مثالا يحتذى فى السياسة الإنسانية القائمة على الإخلاص وإرضاء الضمير . وقد ظل إلى آخر العهود القديمة كما ظل طوال العصور الوسطى محبباً للجماهير ؛ ولما حل عهد النهضة وضعه پترارك فى الموتبة الثانية بعد ڤرجيل ، وصاغ نثره على مثال نثر سنكا . وترجم صهر منتانى كتاباته إلى اللغة الفرنسية ، وكان منتانى نفسه يقتبس من أقواله كما يقتبس سنكا من أبيقور . وكان إمرسن يقرأ مؤلفاته مراراً وتكراراً(٥٩) . حتى أضحى سنكا الأمريكيين . نعم إن الإنسان قلما يجد فى أقوال سنكا أفكاراً جديدة مبتكرة ، ولكن هذا يغتفر له ، لأن كل الحقائق الفلسفية قديمة ، ولا شىء فيها مبتكر إلا الخطأ ، ولقد كان رغم أخطائه كلها أعظم الفلاسفة الرومان ، كما أنه كان فى كتبه على الأقل أرجحهم عقلا وأرقهم قلباً ؛ وكان بعد شيشرون أحب المنافقين إلى القلوب فى التاريخ كله .

الفصل الخامس

علوم الرومان

لقد أطلنا الكلام فيه أكثر مما يجب ؛ ولكننا مع ذلك لم نفرغ منه بعد ، فقد كان عالماً طبيعياً أيضاً . ذلك أنه أخذ يسلى نفسه فى السنين الخصيبة الواقعة بين اعتزاله شئون الحكم وموته بالتفكير فى المسائل الطبيعية كالبحث عن تفسير للمطر ، والبرد ، والثلج ، والرياح ، والمذنبات ، وأقواس قزح والزلازل ، والأنهار ، والينابيع . وقد أشار فى مسرحية ميديا Medea إلى وجود قارة أخرى على الجانب الآخر من المحيط الأطلنطى[٦٠] . وبنفس هذه اللقانة الطبيعية كتب وهو يتأمل ملايين النجوم فى السماء : « كم من كرات تتحرك فى أعماق الفضاء لم تصل بعد إلى عيون بنى الإنسان »[٦١] . ثم يضيف إلى هذا وكأنه قد كشف عن بصره الغطاء : « كم من أشياء سيتعلمها أبناؤنا ولا نستطيع الآن أن نتصورها فى خيالنا ! — وكم من أشياء ستظل مجهولة مئات السنين بعد أن تنسى أسماؤنا ! . . . ويدهش أبناؤنا من جهلنا »[٦٢] ، ولقد صدق فى قوله هذا ، فنحن يدهشنا جهله . ذلك أن سنكا رغم بلاغته لا يضيف شيئاً إلى ما قاله أرسطاطاليس وأراتس Aratus ، وهو يستعير الشىء الكثير من بوسيدونيوس Poseidonius . ويؤمن بأن فى مقدور الإنسان أن يتنبأ بالغيب بالرغم من معارضة شيشرون لهـذه العقيدة ، ويتورط فى بيان العلل النهائية للمعلولات مخالفاً بذلك عقيدة لكريشيوس ، وكثيراً ما يقطع أقواله العلمية بما يصفه فيها من وصايا أخلاقية ، فهو ينتقل بحذق عظيم من الكلام على بلح البحر إلى الكلام فى الترف ، ومن المذنبات إلى أسباب الانحطاط . وكان آباء الكنيسة يحبون هذا الخلط بين الأجرام السماوية والأخلاق ، ولذلك جعلوا كتاب

المسائل الطبيعية أشهر كتاب علمي فى العصور الوسطى .

وكان فى رومة عدد قليل من الرجال ذوى النزعة العلمية والولع بالعلوم ، ومن هؤلاء ڤارو ، وأجرپا ، وپمپنيوس ميلا Pomponius Mela ، وسلسس Celsus ، ولكن علمهم لم يكن يتعدى نطاق تقويم البلدان ، وفلاحة البساتين ، والطب . أما فيما عدا هذا فلم يكن العلم الطبيعى قد انفصل بعد عن السحر ، والخرافات ، والدين ، والفلسفة ، وكان قوامه ما تجمع من المشاهدات والروايات ؛ وقلما كان يشمل بحوثاً جديدة عن حقائق الأشياء ، وكانت التجارب فيه جد نادرة . وبقى الفلك حيث تركه البابليون واليونان ، فكان الوقت يقاس بالساعات المائية ، وبالمزاول ، وبالمسلة الكبرى التى اختلسها أغسطس من مصر وأقامها فى ميدان المريخ ؛ وكان ظلها يقع على طوار نقشت عليه علامات من نحاس ، تدل على ساعات النهار وعلى فصول السنة(٦٣) . وكان النهار والليل يحددان بشروق الشمس وغروبها ، وينقسم كل منهما إلى اثنتى عشرة ساعة ، وبذلك كانت تطول ساعة النهار ، وتقصر ساعة الليل فى فصل الصيف عنها فى فصل الشتاء وكان التنجيم من المعتقدات الشائعة التى يكاد يؤمن بها كل إنسان . وفى هذا يقول پلنى إن الناس كلهم فى أيامه (٧٠ م) — السذج منهم والمتعلمون — يعتقدون أن مصير الإنسان يقرره النجم الذى يولد هو ساعة مطلعه(٦٤) . وكانوا يؤيدون هذه العقائد بحجج طلية كقولهم إن نمو النبات ، مرده إلى الشمس (*) ، ولعل فصول التزاوج عند الحيوانات مردها إليها كذلك ، وإن خصائص الناس الجسمية والخلقية تتأثر بعوامل المناخ التى تتأثر هى أيضاً بالشمس ، وإن أخلاق الأفراد ومصائرهم لا تختلف عن هذه الظواهر العامة فى أنها نتيجة لأحوال جوية لا نعرفها حق المعرفة . ولم يرفض أحد التنجيم إلا المتشككون أتباع الأقديمية المتأخرة الذين أنكروا ما يدعيه

(*) إن الكثيرين من الزراع فى هذه الأيام ينظمون زرعهم حسب أوجه القمر

رجاله من علم ، والمسيحيون الذين سخروا منه وعدوه ضرباً من الوثنية . أما الجغرافية فكانت دراستها أكثر واقعية وكان الغرض منها أن يستعان بها على الملاحة . وقد نشر بمپنيوس ميلا Pomponius Mela (٤٣ م) خرائط قسم فيها سطح الأرض إلى منطقة حارة فى الوسط ، ومنطقتين معتدلتين شمالية وجنوبية . وكان الجغرافيون الرومان يعرفون أوربا وشمالى آسية الغربى ، وشمالها الشرقى ، أما سائر أجزاء العالم فكانت لديهم عنها أفكار غامضة ، وأقاصيص خرافية غريبة . وقد وصلت السفن الأسبانية والأفريقية الصغيرة إلى جزائر مديرة Madeira وقناريا أو الخالدات (Canary) [٦٥] غير أنه لم يقم فى ذلك الوقت رجل مثل كولمبس ليحقق حلم سنكا .

وكان أوسع المنتجات العلمية الإيطالية . وأكثرها دلالة على الجد ، وأبعدها عن العلم الصحيح ، كتاب التاريخ الطبيعى Historia Naturalis [٦٧] الذى وضعه كيوس پلنيوس سكندس Caius Plinius Secondus . وقد قضى كيوس حياته كلها تقريباً جنديا ، ومحامياً ، ورحالة ، وحاكما ، وقائداً للأسطول الرومانى فى غربى البحر المتوسط ، ولكنه رغم هذه المشاغل كلها ألف رسائل فى الخطابة ، والنحو ، والحراب ، وكتب تاريخاً لرومة ، وتاريخا . آخر لحروب رومة فى ألمانيا ، وسبعة وثلاثين « كتاباً » فى التاريخ الطبيعى هى كل ما بقى من هذا الفيض العظيم من المؤلفات . أما كيف استطاع أن يفعل هذا كله فى خمس وثلاثين سنة فيفسره خطاب كتبه ابن أخيه يقول فيه :

لقد كان سريع الفهم ، متحمساً حماسة لا تكاد يصدقها العقل ، وله قدرة على ترك النوم منقطعة النظير . كان يستيقظ من نومه فى منتصف الليل أو فى الساعة الواحدة صباحاً . ولم يحدث قط أن ظل نائما إلى ما بعد الساعة الثانية ، ثم يبدأ عمله الأدبى . . . وقبل أن يطلع النهار يمثل بين يدى ڤسبازيان ، وكان هو أيضاً يختار ذلك الوقت لتصريف شئون الدولة . فإذا انتهى من الأعمال التى عهدها إليه الإمبراطور عاد إلى منزله وواصل الدرس . وكان يتناول فى الظهيرة . . . وجبة خفيفة لا تستغرق إلا القليل من

الوقت ، فإذا كان الفصل صيفاً ... فإنه كثيراً ما يستريح قليلا فى الشمس ؛ ولكنه كان فى أثناء ذلك يستمع إلى كتاب يقرأ له ، ويقتبس منه بعض عبارات ، ويكتب عنه بعض مذكرات . . . وتلك كانت عادته فى كل ما يُقرأ . وكان بعد هذا يستحم عادة بالماء البارد ، ويتناول بعض المرطبات الخفيفة ، ويستريح قليلا ، ثم يواصل الدرس حتى موعد العشاء ، كأنه يبدأ يوماً جديداً . وفى أثناء العشاء يقرأ له كتاب آخر يكتب عنه مذكرات ... تلك كانت خطته فى الحياة وسط ضجيج المدينة وصخبها أما فى الريف فكان يقضى وقته كله فى الدرس اللهم إلا حين كان يستحم فعلا . وحتى فى الوقت الذى كان يدلك فيه جسمه ويجفف كان يستمع فيه إلى كتاب يقرأ له أو يملى هو شيئاً من عنده . وكان يرافقه فى أسفاره على الدوام كاتب ملم بطريقة الاختزال يجلس معه فى عربته أو فى هودجه . . . وقد لامنى فى يوم من الأيام على المشى وقال لى : « لم يكن لك أن تضيع هذه الساعات » لأنه كان يرى أن كل وقت لا يصرف فى الدرس وقت ضائع (٦٦) :

وكتابه هذا فى جملته وتفصيله دائرة معارف كتبها رجل واحد ، وجمع فيها خلاصة علم زمانه وأخطائه . وفى ذلك يقول : « إن الغرض الذى أرمي إليه هو أن أعرض وصفاً عاما لكل ما نعرف أنه موجود على سطح الأرض »(٦٧) . فهو يبحث فى عشرين ألف موضوع ويعتذر عما تركه من الموضوعات الأخرى ، ويشير فى هذا الكتاب إلى ألفى مجلد كتبها ٤٧٣ مؤلفاً ، ويعترف بدينه إلى من رجع إليهم من الكتاب ويذكر أسماءهم جميعاً بصراحة لا نظير لها فى الأدب القديم ، ويشير عرضاً إلى أنه وجد أن كثيراً من المؤلفين نقلوا أقوال من سبقوهم بنصها دون أن يعترفوا بهذا النقل . أما أسلوب الكتاب فثقيل ممل وإن كان منمقاً فى بعض المواضع ؛ ولكننا ليس من حقنا أن ننتظر أن تكون دوائر المعارف جذابة الأسلوب ساحرته .

ويبدأ پلنى بالكفر بالآلهة ، ويظن أنها لا تعدو أن تكون ظواهر طبيعية ، أو كواكب سيارة ، أو خدمات جسدت وألهت : والإله الأوحد فى رأيه هو الطبيعة ، أى مجموع القوى التى فى الكون ، ويلوح أن هذا الإله لا يعنى عناية خاصة بالشئون الدنيوية[٦٨] . ويرفض پلنى فى تواضع أن يقيس الكون ، وليس ما يورده من معلومات فلكية إلا خليطا من السخافات والمستحيلات (كقوله « إن الشمس فى أيام الحرب التى شبت بين أكتاڤيان وأنطونيوس ظلت قاتمة ما يقرب من عام كامل »[٦٩]) ، ولكنه يشير إلى الشفق القطبي ويقدر الزمن الذى يستغرقه كل من المريخ ، والمشترى ، وزحل فى دورته بسنتين واثنتى عشرة سنة وثلاثين سنة على التعاقب ، ويورد بعض البراهين على كرية الأرض[٧١] . ويحدثنا عن جزائر خرجت من قاع البحر الأبيض المتوسط فى أيامه ، ويظن أن صقلية وإيطاليا ، وپوشيا وعوبية ؛ وقبرص وسوريا قد انفصلت كل واحدة من الثانية بفعل مياه البحر على مدى الأحقاب الطوال[٧٢] . ويتحدث عن أعمال التعدين الشاقة المذلة ويذكر فى ألم وحسرة أن « كثيراً من الأيدى تبلى لكى يزين مفصل صغير »[٧٣] ، ويتمنى أن لو كان الناس لم يعثروا على الحديد ، لأنه جعل الحرب أشد هولا مما كانت عليه قبل أن يعثروا عليه ، « كأننا أردنا أن نعجل بموت الناس ، فجعلنا للحديد أجنحة وعلمناه الطيران »[٧٤] — وهو يشير بقوله هذا إلى القذائف الحديدية التى تجهز بريش من الجلد يساعدنا على الاحتفاظ بخط سيرها . ويذكر كما يذكر ثيوفراستس Theophrastus تحت اسم انثراسيت Anthracitis « حجراً يحترق »[٧٥] ، ولكنه لا يذكر عن الفحم شيئاً غير هذا . ويشير إلى نوع من « الكتان لا يحترق » يطلق عليه اليونان اسم أزبستنون Asbestinon « ويستخدم فى تحنيط جثث الملوك » ، ويصف كثيراً من الحيوانات ويورد قوائم بأسمــاء حيوانات أخرى ، ويمتدح ذكاءها ، ويذكر الطريقة التى يستطاع بها التحكم فى نســلها ، فنجعلها ذكوراً

طبقاً لإرادتنا : « فإذا أردت أن تكون صغارها إناثاً فلتول الأم وجهها نحو الشمال فى أثناء الوثب »(٧٦) . وله اثنا عشر كتاباً عجيباً فى الطب ، أى فى القيمة العلاجية لمختلف المعادن والنباتات ، فالكتب المرقومة من ٢٠ إلى ٢٥ كلها فى النباتات الرومانية ، التى انتقلت من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة ، وأضحت بداية المعلومات النباتية فى الطب الحديث . وعنده علاج لكل شيء من السُّكْر والبَخَر إلى « آلام العنق »(٧٨) . ويصف بعض منبهات الغريزة الجنسية(٧٩). ويحذر النساء من العطس بعد الجماع خشية أن يجهضهن لساعتهن ، قبل أن يقمن من مقامهن(٨٠). ويصف الجماع علاجا للتعب ، وبحة الصوت ، وآلام الحقوين ، وضعف البصر ، والاكتئاب ، « واختلال القوى العقلية(٨١) .

وقصارى القول أن فى هذا الكتاب دواء لكل داء ، وأنه من هذه الناحية يضارع ما قاله الأسقف بيركلى فى فوائد ماء القطران . ولكننا نجد وسط هذا الهراء كثيراً من المعلومات النافعة وخاصة ما كان منها متصلاً بالصناعات القديمة والأخلاق والعقاقير ، وفيه إشارات طريفة لعقيدة التأسل فى الوراثة Atavism(*) وإلى الزيت المعدنى ، وإلى تغير الشخص بعد مولده من ذكر إلى أنثى أو العكس .

ويحدثنا مسيانس Muscianus أنه رأى فى أرجوس Argos يوما من الأيام شخصاً كان يسمى وقتئذ أرسكون Arescon ، ولكنه كان يسمى قبل أرسكوزا Arescusa ؛ وأن هذا الشخص تزوج من قبل برجل ، ولكنه لم يلبث أن نبتت له لحية ، وبعض خصائص الذكران الأخرى ، وأنه اتخذ لنفسه بعدئذ زوجة « (٨٢) . ونجد فى مواضع متفرقة من الكتاب بعض إشارات قيمة . من ذلك أن هلمى Hilmy (١٨٠٠) حين قرأ فى كتاب پلنى فقرة(٨٣) عن استخدام عصير اللبن (Anagalis) قبل عملية الكتركتا (إظلام العين)(٨٤) حمله ذلك على أن يبحث عن مفعول

(*) ويقصد بها الوراثة التى تتخطى بعض طبقات وتظهر فيما بعدها أو العودة إلى الجد الأكبر وتسمى احيانا « الرجعة » . (المترجم)

نباتى السكران Jusquiamus ، و « ست الحسن » Belladonna فى إنسان العين . وفى الكتاب أيضاً فصول قيمة عن التصوير والنحت تعد أقدم وأهم ما وصل إلينا من وصف الفن القديم .

ولم يقنع پلنى بدراسة التاريخ الطبيعى ، بل آراد بعد ذلك أن يكون فيلسوفاً ، ولذلك تراه ينثر فى جميع صحف كتابه معلومات عن الآدميين . ويرى أن حياة الحيوان أفضل من حياة الإنسان لأنها « لا تفكر قط فى المجد أو المال أو المطامع أو الموت »[85] ، ولأن فى وسعها أن تتعلم دون حاجة إلى معلم ، وأنها لا تضطر إلى ارتداء الملابس ، ولا تشن الحرب على أبناء جنسها . وهو يقول إن اختراع النقود كان ضربة قاضية على سعادة بنى الإنسان ، فهى التى أوجدت الربا ، وبه استطاع بعض الناس أن يعيشوا من كد غيرهم ، دون أن يقوموا بعمل ما »[87] . وكانت نتيجة ذلك أن وجدت الضياع الواسعة التى يمتلكها الكبراء الغائبون عنها ، وأن حلت المراعى محل الزراعة ، فجر ذلك على الأهلين الخراب والدمار . ويقول پلنى إن الحياة تجلب للإنسان من الحزن والألم أكثر مما تجلبه من السعادة ، وإن الموت هو النعمة الكبرى[88] ، وأن ليس شىء قط وراء الموت .

وكتاب التاريخ الطبيعى أثر خالد لجهل الرومان ، ففيه يجمع پلنى الخرافات والتنبؤات ، ورقى الحب ، والعلاج بالسحر ، ويجد فى جمعها كجده فى غيرها من المعلومات . ويلوح أنه يؤمن بمعظمها ، فهو يظن مثلا أن فى مقدور الإنسان — وخاصة إذا كان صائماً — أن يقتل الأفعى إذا بصق فى فمها[89] . « ومن المعروف جيداً أن إناث الخيل تحمل فى لوزتانيا Lusitania بفعل ريح الشمال[91] . وهى مسألة غفل عنها شلى Shelley فى أغنيته ويندد بلنى بالسحر ولكنه يقول لنا إنه « إذا أقبلت المرأة الحائض حمض عصير العنب وفسدت البذور التى تلمسها فلا تنبت ، وسقطت الثمار من الشجرة

التى نجلس تحتها ؛ وإذا نظرت إلى الصلب تثلم حده ، وإلى العاج ذهب لمعانه وصقله ؛ وإذا سقطت على ثول من النحل مات من فوره »[٩٢] .
وهو لا يؤمن بالتنجيم ولكنه يملأ صفحات من كتابه بالحوادث « المنذرة » المستمدة من مظاهر الشمس والقمر[٩٣] . كقوله : « حدث فى عهد قنصلية م . أسليوس M. Acilius وفى عهود أخرى كثيرة أن أمطرت السماء لبناً ودماً »[٩٤] ، وإذا ما ذكرنا أن هذا الكتاب هو وكتاب **المسائل** لسنكا أهم ما خلفه الرومان للعصور الوسطى من علم التاريخ الطبيعى ، ثم فاضلنا بينهما وبين ما يماثلهما من كتب أرسطو وثيوفراسطس وبين عقلية هذين الرجلين وقد عاشا قبل عهد پلنى وسنكا بأربعمائة عام ، إذا ما فعلنا ذلك بدأنا نشعر بالمأساة المروعة مأساة موت الثقافة موتاً بطيئاً . لقد فتح الرومان العالم اليونانى ، ولكنهم خسروا قبل فتحه أثمن تراث هذا العالم .

الفصل السادس

الطب عند الرومان

أما فى الطب فكانوا خيراً منهم فى التاريخ الطبيعى . فلقد أخذوا علم الطب أيضاً عن اليونان ، ولكنهم أحسنوا صياغته ، وتنظيمه ، وطبقوه على الصحة العامة والخاصة . لقد كانت رومة تحيط بها من جميع جهاتها تقريباً مناقع واسعة ، وكانت معرضة للفيضانات الوبائية ، فكانت لذلك فى أشد الحاجة إلى العناية بالصحة العامة ، فنحن نسمع أن الملاريا كانت منتشرة فى رومة فى القرن الثانى قبل الميلاد ، وأن بعوضة الأنوفيل كانت فى ذلك الوقت مستقرة فى مناقع پنتين Pontine [٩٥] . وانتشر داء النقرس بانتشار الترف ، وفى ذلك يحدثنا پلنى الأصغر أن صديقه كورليوس روفس Corellius Rufus ظل يعانى آلامه من السنة الثالثة والثلاثين إلى السابعة والستين قبل أن ينتحر بعد أن استمتع بلذة البقاء حياً يوماً واحداً بعد موت « ذلك اللص دومتيان»[٩٦] . وتدل بعض الفقرات فى كتابات الهجائين الرومان على ظهور الزهرى فى القرن الأول بعد الميلاد[٩٧] . واجتاحت الأوبئة الفتاكة إيطاليا الوسطى فى عام ٢٣ ق . م وفى أعوام ٦٥ ، ٧٩ ، ١٦٦ ميلادية .

وكان الناس من أقدم الأزمنة يحاولون التغلب على المرض والطاعون بالسحر والصلوات ، وحتى فى الوقت الذى نتحدث عنه طلبوا إلى ڤسبازيان المتشكك اللين الجانب أن يداوى عماهم ببصاقه ، وعرجهم بمس قدمه[٩٨] . وكانوا يحملون مرضاهم وقرابينهم إلى هيكلى إيسكلپيوس Aesculapius ومنيرڤا ، وكان الكثيرون منهم يتركون فيهما الهدايا شكراً على نعمة الشفاء . فلما أن حل القرن الأول قبل الميلاد أخذت عنايتهم بالطب الدنيوى تزداد شيئاً فشيئاً . ولم تكن الدولة فى ذلك الوقت

قد وضعت نظاماً لممارسة مهنة الطب ، فكان الحذاؤون ، والحلاقون ، والنجارون يمارسونها مع مهنهم الأصلية إذا شاءوا ، ويستعينون بالسحر ، ويخلطون عقاقيرهم بأنفسهم ويبيعونها للناس(٩٩) . ولم تخل تلك الأيام من التقريع والشكاوى المألوفة . وقد كرر پلنى تنديده بأطباء اليونان الذين « يغوون زوجاتنا ، ويجمعون الثروات الطائلة بتسميمنا ويتعلمون بتعذيبنا ويتدربون بقتلنا »(١٠٠) . واشترك پترونيوس ، ومارتيال ، وچوڤنال فى هذا الهجوم العنيف ، وبعد قرن من ذلك الوقت نرى لوسيان يندد بعجز من يمارسون مهنة الطب ، والذين يخفون هذا العجز بجمال أجهزتهم وأدواتهم(١٠١) .

وفتحت فى عهد ڤسپازيان مجمعات Auditoria لتعليم الطب يتولى التعلم فيها أساتذة تعترف بهم الدولة وتؤدى إليهم راتبهم ، وكانت اللغة اليونانية لغة التعليم فى هذه المعاهد كما أن اللغة اللاتينية هى اللغة التى تكتب بها تذاكر الدواء هذه الأيام ، وللسبب عينه — وهو أن اللغة اليونانية كانت وقتئذ اللغة التى يفهمها أصحاب اللغات المختلفة . وكان يطلق على خريجى هذه المعاهد اسم أطباء الجمهورية ، وكانوا هم وحدهم الذين يستطيعون ممارسة صناعة الطب بصفة قانونية فى رومة بعد عهد ڤسپازيان(١٠٣) . ونص فى قانون أكويليا Les Aquilia على أن تشرف الدولة على الأطباء ، كما نص فيه على وجوب تحملهم تبعة إهمالهم . وكان قانون كرنليا Les Cornelia يفرض أشد العقوبات على من يتسببون فى موت المرضى بسبب إهمالهم أو خطئهم الناشئ من جهلهم بأعمالهم(١٠٤) . ومع هذا فإن الدجالين ظلوا يمارسون دجلهم ، ولكن عدد الأطباء المتعلمين ظل يزداد شيئاً فشيئاً . وكانت كثرة الرومان ممن أخرجتهم القابلات إلى هذا العالم ، ولكن هاته النسوة كن مدربات على عملهن أحسن تدريب(١٠٥) . وقد وصل الطب العسكرى فى عام ١٠٠ م إلى أرقى ما وصل إليه فى الزمن القديم : فكان فى كل فيلق أربعة وعشرون جراحاً ، كما كان له هيئة للإسعاف الأولى

ونقالات ميدان منظمة أحسن تنظيم ، وكان بالقرب من كل معسكر هام مستشفى عسكرى(١٠٦) . وافتتح الأطباء مستشفيات خاصة ، Valetudinaria ، كانت هى التى تطورت منها المستشفيات العامة فى العصور الوسطى . وكانت الدولة تعين الأطباء لمعالجة الفقراء مجاناً وتؤدى لهم أجورهم(١٠٧) ، أما الأغنياء فكان لهم أطباؤهم الخصوصيون وكان «رؤساء المداوين Archiarti » يعنون بالإمبراطور وأسرته ، وخدمه وأعوانه ، وتؤدى لهم على ذلك أجور طيبة . وكانت بعض الأسر تتعاقد أحياناً مع بعض الأطباء على أن يعنوا بصحتها ويداووها من أمراضها مدة معينة ، وكان كونتس استرتنيوس يكسب بهذه الطريقة ٦٠٠ر٠٠٠ سسترس فى العام(١٠٨) . وأدى الجراح الكون Alcon الغرامة التى فرضها عليه كلوديوس ومقدارها ١٠ر٠٠٠ر٠٠٠ سسترس من أجوره فى بضع سنين(١٠٩) .

وبلغت مهنة الطب فى ذلك الوقت درجة عظيمة من التخصص ، فكان فى البلاد إخصائيون فى المجارى البولية ، وفى أمراض النساء ، وكان فيها أطباء مولدون وأطباء رمديون ، وإخصائيون فى أمراض العين والأذن ، وأطباء بيطريون . وجراحو أسنان . وكان فى وسع الرومان أن تكون لهم أسنان صناعية من ذهب ، وأسنان مرتبطة بأسلاك ، وكبارى، وأسنان ذات قشرة(١١٠) ذهبية . وكان لديهم عدد كبير من الطبيبات ، وقد كتبت الكثيرات منهن كتباً فى الإجهاض كانت واسعة الانتشار بين سيدات الطبقات الراقية وبين العاهرات . وكان الجراحون يتخصصون فى فروع الجراحة المختلفة وقلما كان يوجد جراح غير متخصص فى فرع خاص . وكان عصير اليبروح(*) (المندراغورا) والأتروبين يستعملان فى التخدير(١١١) ، وقد وجدت فى خرائب بمبي أكثر من مائتى أداة جراحية مختلفة . وكان تشريح جثث الآدميين عملا غير مشروع ولكنهم كانوا يستعيضون عن ذلك بالفحص عن أجسام المجالدين المجروحين أو المحتضرين .

(*) جنس من النباتات الباذنجانية فى العالم القديم . (المترجم)

وكان العلاج بمياه العيون واسع الانتشار وكانت العيون الحارة الكبرى معاهد للعلاج والاستشفاء . وقد جمع شارميس Charmis المرسيلى ثروة طائلة بإدارة حمامات باردة . وكان المصابون بالسل يرسلون إلى مصر أو شمالى إفريقية . وكان الكبريت يستخدم لعلاج الأمراض الجلدية ولتبخير الحجرات بعد انتشار الأمراض المعدية(١١٢) . وكانت العقاقير آخر ما يلجأ إليه الناس من وسائل العلاج ، ولكنهم كانوا يلجأون إليها فى كثير من الحالات ، وكان الأطباء يصنعونها بأنفسهم بطرق يحتفظون بسريتها ولا يطلعون الجماهير عليها ، ويبيعونها بأغلى الأثمان التى يطيقها المرضى(١١٣) . وكانت العقاقير الكريهة ذات منزلة كبيرة ، فكانت فضلات العظاية تستخدم مسهلات ، وكانت أحشاء الآدميين توصف أحياناً ؛ وقد وصف أنطونيوس موسى براز الكلاب لعلاج مرض الذبحة ، واستخدم جالينوس براز الغلمان لعلاج أورام الحلق(١١٤) . وفى مقابل هذه الأدوية الكريهة عرض أحد الدجالين المرحين أن يداوى بالخمر كل داء تقريباً(١١٥) .

وليس بين الكتاب المعروفين فى علم الطب فى ذلك العهد كاتب من أصل رومانى إلا واحداً فقط ، وحتى هذا الكاتب لم يكن طبيباً . لقد كان أورليوس كرنليوس سلسس Aurelius Cornelius Celsus من أبناء الأشراف ، جمع حوالى عام ٥٠ م فى دائرة معارف كل ما درسه عن الزراعة ، والحرب ، والخطابة ، والقانون ، والفلسفة ، والطب . وقد ضاع كل ما كتبه إلا القسم الخاص بالطب ، ويعد كتابه فى هذا العلم أعظم مؤلف فيه وصل إلينا من القرون الستة المحصورة بين أبقراط وجالينوس ، ويمتاز فوق هذا بأنه كتب بلغة لاتينية فصحي نقية لقب سلسس من أجلها **بشيشرون الطب** . ولقد ظلت الأسماء اللاتينية التي تترجم بها المصطلحات الطبية اليونانية تسيطر على علم الطب من ذلك الوقت إلى أيامنا هذه . ويدل الكتاب السادس من كتبه على علم بالأمراض السرية يعد فى ذلك العهد القديم علماً واسعاً غزيراً . ويصف الكتاب السابع فى جلاء ووضوح بعض

الجراحات ، ويحتوى أقدم وصف معروف للأربطة ، ويصف عملية قطع اللوز ، واستخراج حصاة المثانة بشق الجنب ، وجراحة الترقيع ، وعمليات إظلام عدسة العين (الكتاركتا) . وهذا الكتاب فى مجموعه هو خير ما ألف فى الآداب العلمية الرومانية ، وإنه ليوحى إلينا بأنه لو لم يبق الدهر على كتاب پلنى لكان تقديرنا للعلوم عند الرومان أعلى منه فى الوقت الحاضر ومما يؤسف له أن العلماء قد أجمعوا على أن كتاب سلسس بيس فى أكثر أجزائه إلا جمعاً أو شرحاً للنصوص اليونانية القديمة[١١٦] . وقد فقد هذا الكتاب فى العصور الوسطى ، ثم عثر عليه مرة أخرى فى القرن الخامس عشر ، وأعيد طبعه قبل أن يطبع كتاب أبقراط أو جالينوس ، وكان له شأن أيما شأن فى إحياء علم الطب فى العصر الحديث .

الفصل السابع

كونتليان

لما أنشأ ڤسپازيان كرسيا رسميا للبلاغة فى رومة عين فى هذا المنصب رجلا من أصل أسپانى ، وكان كثير من المؤلفين فى العصر الفضى من أبناء تلك البلاد . وقد ولد ماركس فابيوس كونتليانس Marcus Fabius Quintilianus فى كلاجوريس Calagurris (عام ٥٣ ؟ م) ثم رحل إلى رومة ليدرس فن الخطابة وافتتح مدرسة لتدريس البلاغة كان من بين طلابها تاستس وپلنى الأصغر . ويصفه چوڤنال بأنه كان فى أيام شبابه وسيما ، نبيلا ، حكيما ، حسن التربية ، ذا صوت رخيم ، ولقاء جميل ، ومهابة كمهابة أعضاء مجلس الشيوخ . وآثر العزلة فى شيخوخته ليكتب كتاباً يرشد فيه ولده إلى الطريقة المثلى لمعالجة فن الخطابة ، واسم هذا الكتاب Institutio Oratoria(٩٦) « ظننت أن هذا الكتاب سوف يكون أثمن ما يرثه ولدى ، وقد أظهر من الكفاية النادرة العجيبة ما أوجب على أبيه أن يحرص الحرص كله على تثقيفه . . . وقد واصلت الليل بالنهار سعياً وراء هذه الغاية ، وعجلت بإتمامها خشية أن ينصرم أجلى فيحول الموت بينى وبين إتمام هذا الواجب . ثم حلت بى الكارثة فجأة فأضحى نجاحى فى عملى لايهم إنساناً آخر أقل مما يهمنى أنا نفسى . . . ذلك أنى فقدت من كان معقد آمالى ومن كنت أرجو أن يكون سلوة لى فى شيخوختى(١١٧) » .

وكانت زوجته قد توفيت فى سن التاسعة عشرة ، وخلفت ولدين ، توفى أحدهما فى سن الخامسة « وكأننى قد فقدت بفقده إحدى عينى » ، والآن يختطف الموت ولده الثانى ويترك المعلم الشيخ « يعانى ألم فراق أقرب الناس إليه وأعزهم عليه » .

وهو يعرف البلاغة بأنها العلم الذى يؤدى إلى حسن الكلام ، ويقول إن تدريب الخطيب يجب أن يبدأ قبل مولده ، إذ يحسن أن يولد لأبوين متعلمين ، حتى يتنفس الكلام الصحيح والأخلاق الطيبة من الهواء الذى يستنشقه ، ذلك أنه من المستحيل أن يصبح الإنسان متعلماً ومهذباً معاً فى جيل واحد . ويجب على من يريد أن يكون خطيباً أن يدرس الموسيقى ، حتى يستطيع تمييز الأصوات المتناسقة المتناغمة ؛ كما يجب عليه أن يتعلم الرقص ليكتسب الرشاقة والاتزان ، والتمثيل لكى يبعث الحياة فى خطبه بما يبثه فيها من حركات اليدين والجسم ؛ والألعاب الرياضية ليستطيع الاحتفاظ بصحته وقوته ؛ والأدب ليصلح به أسلوبه ويدرب به ذاكرته ، ويمده بكنز من الآراء العظيمة ؛ والعلوم لكى يدرك بها أسرار الطبيعة ؛ والفلسفة لكى يصوغ نفسه حسبما يمليه عليه العقل ونصائح الحكماء . وذلك لأن كل إعداد سيذهب أدراج الرياح إذا خلا من استقامة الخلق وسمو الروح وهما اللذان لاغنى عنهما لوجود الإخلاص فى الحديث ، وهو قوة لا يمكن قط أن تقاوم . وعلى الطالب بعد ذلك أن يكتب أكثر ما يستطيع وأن يبذل فى كتابته أقصى ما فى وسعه من العناية . ويقول كونتليان : إن هذا تدريب شاق « ويقينى أن أحداً من قرائى لن يفكر قط فى احتساب قيمته المالية[١١٨] » .

وللخطابة فى رأيه خمسة أوجه : التفكير ، والتنظيم ، والأسلوب ، والذاكرة ، والإلقاء . فإذا ما اختار الخطيب موضوعه ، وحدد غرضه بوضوح ، وجب عليه بعــدئذ أن يجمع مادته بالمشاهدة والبحث ، ومن الكتب ؛ فإذا تم له ذلك وجب عليه أن ينظمه تنظيما منطقيا ونفسانياً حتى يكون كل جزء منه فى موضعه الصحيح مؤدياً إلى ما بعــده أداء طبيعياً كأنه جزء من برهان نظرية هندسية[١١٩] . وكل خطبة حسنة التنظيم تتألف من مقدمة (exordium) ، وقضية ، وبرهان ، ودحض ، وختام . ويجب ألا تكتب الخطبة كلها إلا إذا

أريد حفظها بأجمعها عن ظهر قلب ، أما حفظ بعض الأجزاء المكتوبة دون البعض الآخر فإنه يفسد الأسلوب الارتجالى ويعوقه ، وإذا كتبت الخطبة فلتكتب بعناية « فإذا أسرعت فى الكتابة ، فإنك لن تحسنها أبداً ، وإذا أحسنت الكتابة فإنك لن تلبث أن تكتب بسرعة » ؛ تجنب « ترف الإملاء الذى أخذ ينتشر بين الكتاب فى هذه الأيام »(١٢٠) ، والذى يدل على التهاون والكسل ، « والوضوح ألزم الأشياء للخطب ، ثم يليه الإيجاز والجمال والقوة . وعليك أن تصحح أخطاءك المرة بعد المرة ولا تبال بما يصيبك فى هذا من عنت .

« وليس المحو بأقل أهمية من الكتابة ، امح كل ما لا ضرورة له ، واسم بكل ما هو عادى ورتب ما تراه مضطربا ، واجعل العبارات متزنة إذا ما وجدتها خشنة غير رقيقة ، وخففها إذا وجدتها دسمة أكثر مما يجب ... وخير طريقة للإصلاح أن يغفل الإنسان ما كتبه بعض الوقت ، حتى إذا عاد إليه بعدئذ بدا عليه مظهر الجدة ، كأنه من عمل إنسان آخر ؛ وبهذه الطريقة لا يكلف الإنسان بكتابته كلفه بطفله الحديث الولادة(١٢١) .

ويجب أن يضرب الإلقاء والكتابة على أوتار العواطف والقلوب ، ولكن عليك ألا تسرف فى الحركات والإشارات ، لأننا « لا نكون بلغاء إلا بالوجدان وقوة الخيال » . أما إذا « صرخت ، وخرت ، ورفعت يدك ، ولهثت ، وهززت رأسك ، وصفقت بيديك ، وضربت فخذك وصدرك وجبهتك ، فإنك ستهوى من فورك إلى قلوب أحط من يستمعون إليك(١٢٢) » .

ويضيف كونتليان فى كتابه الثانى عشر إلى هذه النصائح القيمة خير نقد أدبى بقى لدينا من أيام الأقدمين ، فهو يدلى بدلوه ، وهو أشد ما يكون حماسة ، فى ذلك الصراع القديم والحديث بين القدامى والمحدثين ، ويجد الحقيقة تتأرجح فى الوسط بين هؤلاء وهؤلاء ؛ وهو لا يرغب كما يرغب فرنتو Franto فى أن يعود إلى البساطة والخشونة اللتين ينادى بهما كاتو وإنيوس ؛

ولكنه أقل من ذلك رغبة فى أن يجرفه أسلوب سنكا « الفخم المتكلف » ، ويرى أن يكون المثل الذى يجب على طالب البلاغة أن يحتذيه هو أسلوب شيشرون فى خطبه القوية المهذبة ، ويقول : إن شيشرون هو الكاتب الرومانى الوحيد الذى فاق اليونان فى مجال الخطابة(١٢٣) . أما أسلوب كونتليان نفسه فهو فى كثير من المواضع أسلوب المدرس ، تخنقه التعاريف ، والتصانيف ، وتحديد الفروق ، ولا يرقى إلى مستوى عال من البلاغة إلا حين يطعن على سنكا : ولكنه مع ذلك أسلوب قوى يخفف من جلاله حيناً بعد حين قليل من الفكاهة ومن العطف على الإنسانية ، ويحس الإنسان على الدوام أن وراء معنى الألفاظ الجميل طيبة الرجل الهادئة ، وإن قراءته لحافز قوى إلى الخلق الطيب الكريم . ولعل الرومان الذين أسعدهم الحظ بالاستماع له قد أخذوا عنه بعض ذلك التجديد الخلقى الذى سما بعصر بلنى الأصغر وتاستس أكثر مما سما به الأدب الرفيع .

الفصل الثامن

استاتيوس ومارتيال

لقد استبقينا إلى آخر هذا الباب شاعرين عاشا فى وقت واحد ، وسعيا للحظوة لدى إمبراطور واحد وأنصار بعينهم ، ومع ذلك فكلاهما لا يذكر اسم الآخر : وكان أحدهما أعف شاعر فى تاريخ روما الإمبراطورية كما كان الآخر أفحش شاعر فيه . فأما أولهما فهو پبليوس پاپنيوس استاتيوس Publius Papinius Statius وهو ابن شاعر ونحوى من مدينة ناپلى . وقد هيأت له بيئته وتربيته كل شىء يطمع فيه عدا المال والعبقرية . فكان يعانى قرض الشعر ، ويفاجئ الندوات بما يرتجله منه ، وكتب منه ملحمة تدعى الطيبية Thebaid فى حرب السبع المدن ضد طيبة . ولسنا نستطيع قراءتها فى هذه الأيام لأن أبياتها تزدحم بأسماء الآلهة الموتى ، ولأن الإنسان لا يطيق ما لأشعارها السلسة من قدرة على التخدير ؛ ولكن معاصريه كانوا يغرمون بها ، وكانت الجموع تهرع لتستمع إليه وهو ينشدها فى أحد ملاهى مدينة ناپلى ؛ وكانوا يفهمون ما تحتويه من أساطير ويعجبون برقة إحساساته ، ويجدون أشعاره تجرى سهلة على ألسنتهم ، وقد منحه المحكمون فى مباريات الشعر فى أولبان الجائزة الأولى ، وكان الأثرياء يخطبون وده ويعينونه على التخلص من فقره[١٢٤] ، ودعاه دومتيان Domitian نفسه فى قبة فلافيا Flavia وجازاه استاتيوس على فعله هذا بأن شبه القصر بالجنة والإمبراطور بالإله .

ووجه استاتيوس ألطف قصائده وأبعثها للسرور إلى دومتيان وغيره من نصرائه . وكانت هذه القصيدة وهى قصيدة سلڤا Silva تشتمل على طائفة من المدح ومن أناشيد الرعاة فى شعر خفيف ظريف فى الدرجة الوسطى من الجودة . على أنه لم يكسب الجائزة الأولى فى مباريات الكپتولين بل نالها

شاعر آخر . وأخذ نجمه فى الأفول فى رومة المتقلبة ، فما كان منه إلا أن أقنع زوجته بمغادرة المدينة والعودة معه إلى البلد الذى قضى فيه حداثته . وفى ناپلى شرع يكتب ملحمة أخرى هى الأخيلية Achelleid ولكن المنية فاجأته فى عام ٩٦ فتوفى ولما يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره . ولم يكن استاتيوس شاعراً عظيما ولكنه كان يضرب على نغمة من الرأفة والحنان محببة إلى النفوس فى وسط أدب كثيراً ما تغلب عليه السخرية والحقد المرير ، وفى مجتمع بلغ من الفساد والفحش درجة لم يكن لها من قبل مثيل ، ولو أنه بلغ من الدناءة ما بلغه مارتيال لكان خليقاً بأن ينال ما ناله من الشهرة .

وولد ماركس ڤليريوس مارتيالس فى بلبليس من أعمال أسپانيا فى السنة الأربعين بعد الميلاد ، ولما بلغ الرابعة والعشرين من عمره جاء إلى رومة وعقد أواصر الصداقة مع لوكاس وسنكا ، وأشار عليه كونتليان أن يتخذ المحاماة وسيلته للثراء ، ولكنه فضل عليها الشعر مع الإملاق . وأطاحت مؤامرة بيزا فجاءة بأصدقائه فاضطر إلى توجيه قصائده للموسرين الذين يستطيعون أن يطعموه إذا قال لهم نكتة شعرية . وكان يسكن فى علية فى الطابق الثالث ، وأكبر الظن أنه كان يعيش فيها وحيداً ؛ نقول هذا لأنه وإن كان يوجه قصيدتين من قصائده لامرأة يقول عنها إنها زوجته فإن ما فى القصيدتين من فحش لا يترك مجالا للشك فى أن هذه المرأة إما أن تكون اختراعا من عنده وإما أن تكون قوادة(١٢٦) .

وهو يخبرنا بأن قصائده كانت تقرأ فى جميع أنحاء أوربا لا يستثنى منها القوط أنفسهم . وهو يغتبط إذ يعلم أنه اشتهر فيها شهرة جواد السباق ، ولكنه كان يؤلمه أن يرى الناشر الذى يبيع كتبه يجمع الثروة الطائلة ، وأنه هو لا يجنى منها شيئاً . وأشار مرة فى إحدى قصائده إلى أنه فى أشد الحاجة إلى جبة رومانية ، فلما أرسلها إليه پارثنيوس الثرى معشوق الإمبراطور رد عليه بمقطوعتين مدح فى إحداهما جدة الجبة وندد فى الثانية بحقارتها ورخص ثمنها . على أنه عثر بعد

قليل على نصراء أكرم من پارثنيوس وأكثر منه سخاء أهدى إليه أحدهم ضيعة صغيرة فى نومنتم Nomentum ، واستطاع بطريقة ما أن يجمع مالا يكفى لشراء منزل بسيط على تل الكوزينال Quirinal . وصار من ذلك الوقت يضع نفسه تحت رعاية عظيم بعد عظيم ، يقوم بخدمتهم فى الصباح ، ويتلقى منهم الهدايا فى بعض الأحيان ؛ لكنه ما لبث أن أحس بحطة منزلته هذه ، وأخذ يتحسر لأنه لم يوت من الشجاعة ما يجعله يقنع بفقره فيحرر نفسه من ذل التبعية(١٢٧) . غير أنه لم يكن فى وسعه أن يعيش فقيراً لأنه كان مضطراً إلى الاختلاط بمن يستطيعون أن يكافئوه على شعره فأخذ يبعث لدومتيان بالقصيدة تلو القصيدة يمدحه فيها ويمجده ، ويقول إنه لو دعاه چوبتر ودومتيان إلى الطعام فى يوم واحد لرفض دعوة الإله وأجاب دعوة دومتيان ؛ ولكن الإمبراطور كان يفضل عليه استاتيوس فدبت الغيرة من الشاعر الشاب فى قلب مارتيال ، وقال فى إحدى قصائده : إن نكتة حية أغلى قيمة من ملحمة ميتة(١٢٨) .

وكانت القصائد الموجزة ذات النكت مما يقال فى كل موضوع سواء كان إهداء ، أو تحية ، أو قبرية ، ولكن مارتيال هذبها فجعلها أقصر وأعظم حدة مما كانت ، وأضاف إليها الكثير من الهجاء اللاذع . وإنا لنظلمه إذا قرأنا قصائده ذات النكت البالغ عددها ١٥١٦ قصيدة فى جلسات قليلة ، فالقد صدرت هذه القصائد فى اثنى عشر كتابا فى أوقات مختلفة ، ولم يكن ينتظر من القارئ أن يلتهمها كما يلتهم طعام الوليمة ، بل كان ينتظر منه أن يتناولها تناول المشهيات قبل الطعام . ويبدو الكثير منها غثاً تافهاً فى هذه الأيام ، ذلك أن ما فيها كان خاصاً بهذين الزمان والمكان ، فكان لذلك قصير الأجل غير جدير بالبقاء . ولم يكن مارتيال نفسه يقدرها كثيراً ، ولم يكن يجادل فى أن الغث منها يزيد على الثمين ، ولكنه كان مرغما على أن يملأ بها مجلداً فى إثر مجلد(١٢٩) . وهو رجل قادر على قرض الشعر ، عارف بجميع أوزانه وبجميع ما يتطلبه من حيل وأساليب ، ولكنه يتجنب

ـنون الخطابة ويفخر بهذا كما يفخر به بترونيوس الشريف الذى كان مقامه في النثر يضارع مقام مارتيال فى الشعر . ولم يكن يعنى أقل عناية بالأساطير التي كانت تغص بها آداب تلك الأيام ، بل كان أكبر همه رجال ذلك العهد ونساؤه وحياتهم الخاصة ، وهو يصف هذه الحياة وصفاً ينم عن ضغن ومسرة . ويقول فى إحدى قصائده « إن صفحاتى تطالعك بالرجال »(١٣٠) ، ولقد كان فى وسعه أن « يتناول » أحد الأشراف الفظاظ ، أو الأثرياء البخلاء ، أو المحامين المزهوين ، أو الخطباء المشهورين . لكن أكثر من يحب التحدث عنهم هم الحلاقون والأساكفة ، والبائعون الجوالون ، ومدربو الخيول ، واللاعبون على الحبال ، والدلالون ، وناقعو السم ، والمفسدون والعاهرات ، وليست المناظر التى يضعها مأخوذة من بلاد اليونان القديمة بل يستمدها من الحمامات ، ودور التمثيل ، والشوارع ، والملاعب ومنازل رومة ، ومساكن فقرائها ، وقصارى القول أنه شاعر السفلة والرعاع .

وهو يعنى بالمال أكثر مما يعنى بالحب ، وإذا فكر فى الحب فإن أكثر ما يفكر فيه هو حب الرجال للرجال ، أو النساء للنساء . على أن شعره لا يخلو من العاطفة ، وهو يحدثنا فى إحدى قصائده حديثاً ملؤه الحنو والأسى على ابن صديق له عاجلته المنية ؛ ولكن كتبه كلها لا يوجد فيها بيت واحد ينم عن المروءة والشهامة ، أو عن الغضب الشريف . وهو يرتل قصائده ترتيلا تفوح منه أخبث الروائح ويقول عنها « إننى أفضل هذه الروائح الكريهة على قصائدك كلها يا بسا Bassa »(١٣١) . ويصف إحدى خليلاته بقوله :

« إن ضفائرك يا جلا Galla قد صنعت فى مكان بعيد وإنك لتخلعين أسنانك فى الليل كما تخلعين أثوابك الحريرية ، وأنت ترقدين مختزنة فى مائة برميل ، ولكن وجهك لا ينام معك ؛ وتغمزين بحاجب جىء به إليك

فى الصباح وقد تجردت من كل احترام لجيفتك البالية التى تستطيعين أن تعديها لقدمها جيفة جدة من جداتك .

وهو يتحدث فى حقد غير خليق بالرجال عن النساء اللاتى أبين أن يخضعن له ، ويلقى عليهن نكاته القذرة كما يلقى الكناس الأقذار . ويوجه أغانيه الغزلية للغلمان ، وتتملكه النشوة من عبير « قبلاتك أيها الغلام »(١٣٣) .

وقد قلد أحد شعراء الإنجليز إحدى قصائده التى قال فيها :

لا أحبك يا سبيديوس ، ولست أعرف لذلك سبباً ؛

وكل ما أستطيع أن أقوله أنى أبغضك أشد البغض .

والحق أن الذين لا يحبهم مارتيال كثيرون ويصفهم بعد أن يطلق عليهم أسماء مستعارة لا تخفى حقيقتهم وبألفاظ لا يجد الإنسان لها مثيلا إلا على جدران مراحيض المواخير(١٣٥) . ولست تجده إلا هاجياً لأعدائه كما لا تجد استاتيوس إلا مادحاً أصدقاءه . وقد أراد بعض ضحاياه أن ينتقموا لأنفسهم منه فنشروا بإمضائه قصائد أشد قذارة من قصائده الحقيقية ، أو هاجموا باسمه بعض من كان مارتيال يحرص على إرضائهم . وفى وسع الإنسان أن يؤلف من هذه النكات الشعرية التى أوفت على الغاية من الناحية الفنية معجماً كاملا يحوى أقذر ما فى اللغة من ألفاظ .

غير أن فى مقدور الإنسان أن يعفو بعض الشىء عن بذاءة مارتيال ، فهو يشترك فيها مع خلق عصره ، ولا يشك فى أن فتيات الأسر الراقية يسرهن أن يقرأنها فى عرائش قصورهن . « واستحت لكريشا وعلت وجهها حمرة الخجل وألقت بكتابى ، وكان بروتس حاضراً فابتعد عنها يا بروتس ؛ إنها ستقرؤه »(١٣٦) ذلك أن ما كان يطلقه هذا العصر للشعر من حرية مفرطة يسمح بكل ضروب البذاءة على شريطة أن تكون الأوزان والألفاظ صحيحة . بل إن مارتيال ليفخر بفجوره أحياناً فيقول فى أحد كتبه « لا تخلو صحيفة من صحفى من الفجور »(١٣٧) . لكنه فى أكثر الأحيان

يستحى قليلا من فجوره ، ويطلب إلينا أن نعتقد أن حياته أطهر من شعره .

ومل آخر الأمر ابتياع الطعام والشراب بالمديح والهجاء ، وتاقت نفسه الى حياة أهدأ من حياته السابقة وأطهر منها ، وحن إلى موطنه فى أسبانيا . وكان وقتئذ قد بلغ السابعة والخمسين من عمره ، وسرى الشيب فى شعر رأسه ، وأطال لحيته ، واسمرت بشرته ، حتى ليستطيع أى إنسان — على حد قوله — بمجرد النظر إليه أن يدرك أنه ولد بالقرب من نهر التاجة Tagus . وأرسل طاقة شعرية إلى پلنى الأصغر فأرسل له هذا بدلا منها مبلغاً من المال يكفى نفقات سفره إلى بلبليس . ورحبت به تلك البلدة الصغيرة ، وعفت عن سوء أخلاقه بسبب ما نال من الشهرة . ووجد نصراء ومعينين لم يبلغوا من الثراء مبلغ من كانوا يناصرونه فى رومة ولكنهم كانوا أندى منهم يداً . وأهدت إليه سيدة رحيمة بيتاً ريفياً متواضعاً ذا حديقة قضى فيه ما كان باقياً له من سنين قليلة . وفى عام ١٠١ كتب پلنى يقول : « لقد سمعت تواً بموت مارتيال ، وقد أحزننى النبأ وأقض مضجعى ، فلقد كان مارتيال ذا فكاهة قوية لاذعة ، يمزج فى شعره الملح بالشهد ، وأظهر ما يمتاز به هو الصراحة »(١٣٨) . وإذا كان پلنى قد أحب هذا الرجل فلا بد أن كانت فيه فضيلة خافية على سائر الناس .

الباب الخامس عشر

رومة العاملة

١٤ – ٩٦ م

الفصل الأول

الزراع

فى العصر الفضى ظهر المرجع الرومانى الهام فى الزراعة وهو كتاب يونيوس كلوملا Junius Columella المسمى De Re Rustica ومؤلفه من أصل أسپانى فهو من هذه الناحية شبيه بكونتليان ومارتيال وآل سنكا . وكان يستغل عدة ضياع فى إيطاليا ثم اتخذ مسكنه بعدئذ فى رومة . ذلك أنه وجد أن أحسن الأراضى قد شيدت عليها البيوت ذات الحدائق وسويت لتكون مسارح للأثرياء ، وأن التى تليها فى الجودة قد غرست فيها بساتين الزيتون والكروم ، ولم يبق للزراعة إلا أردأ الأراضى . ومن أقواله فى هذا : « لقد وكلنا حرث أراضينا لأحط العبيد ، وهم يقومون بعملهم قيام الهمج » . وكان يرى أن أحرار إيطاليا يتدهورون فى المدن على حين أنه كان فى مقدورهم أن يقوّوا أجسامهم وأخلاقهم بالعمل فى الأرض ، « فنحن نعمل فى الملاعب ودور التمثيل ولا نعمل بين المزارع والكروم » . وكان كلوملا يحب الأرض ويحس بأن فلحها أعود على الناس من ثقافة المدن ، ويقول فى ذلك إن « الزراعة من أخوات الحكمة » وكان يغرى الناس بالعودة إلى الحقول بتجميل موضوعاته بالألفاظ اللاتينية المصقولة . وإذا تحدث عن الحدائق والأزهار بلغت حماسته الشعرية غايتها .

وتلك هى الفترة التى نطق فيها پلنى العالم الطبيعى بقبرية لم يكن موعدها قد حان : « إن الضياع الكبيرة قد خربت إيطاليا »، وذلك حكم أصدره غيره من الكتاب وهم سنكا ، ولوكان ، وپترونيوس ، ومارتيال ، وجوڤنال . فقد وصف سنكا مسارح الأنعام التى كانت أوسع رقعة من الممالك يزرعها عبيد مصفدون فى الأغلال . ويقول كالوملا إن بعض الضياع قد بلغت من السعة حداً يستحيل معه على مالكيها أن يطوفوا حولها راكبين[1] . ويحدثنا پلنى عن ضيعة يعمل فيها ٤١١٧ من العبيد ، و ٧٢٠٠ ثور ، و ٢٥٧٫٠٠٠ من الحيوانات الأخرى[2] . نعم إن ما عمله ابنا جراكس ، وقيصر ، وأغسطس من توزيع الأراضى على الرومان قد زاد عدد صغار الملاك ، ولكن معظم هؤلاء تركوا أملاكهم فى أثناء الحروب التى قامت بعدئذ وابتاعها الأغنياء ، ولما أن قللت الإدارة الإمبراطورية من أعمال السلب والنهب فى الأقاليم ابتاع الأشراف بأموالهم ضياعاً كبيرة .. وكان سبب انتشار المراعى والضياع الواسعة أن تربية الماشية وزراعة أشجار الزيتون والكروم كانت أكثر ربحاً من زراعة الحبوب والخضر ، وأن أصحابها قد تبينوا أن المراعى إذا أريد أن تستغل على خير وجه وجب أن تكون متسعة المساحة موحدة الإدارة . فلما أشرف القرن الأول بعد الميلاد على الانتهاء كانت هذه المزايا قد أخذت فى الزوال بسبب ما حدث من الزيادة فى تكاليف العبيد ، ومن النقص فى إنتاجهم ، ومن ضعف قدرتهم على الابتكار[3] . وقد بدأ فى هذه الأثناء الانتقال الطويل الأجل من استخدام العبيد إلى استخدام أقنان الأرض . وكان سبب ذلك أن السلام قلل من استرقاق أسرى الحروب ، فعمد بعض ملاك الضياع الواسعة إلى تقسيمها أقساماً صغيرة لا يستخدمون فى فلحها العبيد بل يؤجرونها إلى زراع أحرار يؤدون لهم فى نظير ذلك مالا وعملا . وكان معظم « الأراضى العامة » التى تملكها الحكومة تستغل وقتئذ بهذه الطريقة ، كما كانت تستغل بها أيضاً الأراضى الواسعة التى يمتلكها پلنى الأصغر الذى يصف

مستأجريه بأنهم فلاحون أصحاء ، أقوياء ، طيبو القلوب ، ثرثارون ، وهو وصف ينطبق كل الانطباق على الفلاحين الإيطاليين فى هذه الأيام ، فقد بقوا على حالهم رغم ما حل بالبلاد من أحداث وما طرأ عليها من تغيير .

وكانت أساليب الزراعة وأدواتها لا تختلف اختلافاً جوهرياً عما كانت عليه منذ قرون ؛ فقد احتفظ المحراث ، والمجرفة ، والمعزقة ، والفأس ، والمذراة ، والمنجل بصورتها التى كانت عليها فى تلك الأيام ، ولم تكد تتغير فى شىء . وكانت الحبوب تطحن فى طواحين تديرها المياه أو الحيوانات . وكانت المضخات اللولبية والسواقى ترفع الماء من العيون أو الأنهار إلى قنوات الرى . وكانوا يحتفظون بخصب التربة باتباع الدورة الزراعية ، واستخدام المخصبات والنباتات التى تفيد الأرض كالفصفصة والبرسيم والشيلم والفول(٤) . وكانوا يتفننون فى انتخاب البذور ، وكان فى وسعهم بعنايتهم وحذقهم أن يجنوا ثلاثة محاصيل أو أربعة فى بعض الأحيان من حقول كمپانيا ووادى الپو الخصبة الغنية(٥) . وكان فى مقدورهم أن يحصلوا من زرعة واحدة من الفصفصة على أربعة محصولات أو ستة فى كل عام لمدة عشرة أعوام(٦) . وكانوا يزرعون كل الخضر الأوربية المعروفة عدا أندرها ، وكانوا يزرعون بعضها فى البيوت الزجاجية ليتجروا فيها أثناء الشتاء . وكانت أشجار الفاكهة والنقل على اختلاف أنواعها كثيرة ، لأن القواد والتجار الإيطاليين ، والتجار الأجانب ، والأرقاء حملوا معهم إلى إيطاليا الكثير من أصنافها ، فجاءوا بأشجار الخوخ من بلاد الفرس ، والمشمش من أرمينية ، والكرز من كراسس فى إقليم بنتس (ومنها اشتق اسم هذه الفاكهة) ، والكرم من سوريا ، والبرقوق من دمشق ، والخوخ والبندق من آسية الصغرى ، والجوز من بلاد اليونان ، والزيتون والتين من أفريقية . . . واستطاع المهرة من زراع الأشجار أن يطعموا شجر القطلب (الأربوطس) بأغصان شجر الجوز ، وشجر الدلب بأغصان الخوخ ، وشجر الدردار بأغصان الكرز . ويذكر پلنى تسعة وعشرين نوعاً

من شجر التين كانت تزرع فى إيطاليا[٧] ، ويقول كالوملا : « لقد عرفت إيطاليا بفضل عناية زراعنا كيف تنتج فاكهة العالم كله تقريباً »[٨] . ثم نقلت هذه الفنون إلى غربى أوربا وشماليها . وجملة القول أن ألوان الطعام الكثيرة التى نأكلها قد تجمعت من رقعة واسعة من الأرض ، وأن لها من ورائها تاريخ طويل . وقد يكون هذا الطعام جزءاً من التراث الذى ورثناه من بلاد الشرق أو بلاد اليونان والرومان الأقدمين .

وكانت بساتين الزيتون كثيرة العدد ، أما الكروم فلم يكن يخلو منها مكان ، وكانت تدرج لها سفوح الجبال فتبدو ذات روعة وجمال . وكانت إيطاليا تخرج خمسين نوعاً من أنواع النبيذ المشهورة ، وكانت رومة وحدها تحتسى منها خمسة وعشرين مليون جالون فى كل عام ؛ أى بمعدل نصف جالون لكل شخص من ساكنيها رجالهم ونسائهم وأطفالهم وعبيدهم كل أسبوع . وكان معظم النبيذ من إنتاج المنظمات الرأسمالية — أى بطريقة الإنتاج الكبير الذى تموله رومة[٩] . وكان الكثير مما تنتجه يصدر إلى خارج البلاد لكى تذوق البلاد التى تشرب الجعة كألمانيا وغالة لذة النبيذ . وشرعت أسبانيا وأفريقية وغالة تزرع كرومها ، وأخذ زراع الكروم الإيطاليون يفقدون من البلاد التى يصدرن إليها نبيذهم أسبوعا بعد أسبوع ، ويغمرون سوقهم المحلية بأكثر مما تطيقه من النبيذ فى إحدى أزمات الإنتاج الوفير التى عانتها رومة فى الزمن القديم . وحاول دومتيان أن يخفف من أثر هذه الحال السيئة ، وأن يعيد زراعة الحبوب إلى حالها الأولى ، فحرم غرس كروم جديدة فى إيطاليا وأمر بأن تدمر نصف الكروم المزروعة فى الولايات[١٠] . وأثارت هذه الأوامر عاصفة من الاحتجاج الشديد ، وعجزت الحكومة عن تنفيذها فكانت النتيجة أن نبيذ غالة وزيتون أسبانيا وأفريقية وبلاد الشرق أخذا يطاردان الغلات الإيطالية من أسواق البحر الأبيض المتوسط وبدأ من ذلك الوقت اضمحلال إيطاليا الاقتصادى .

وخصص جزء كبير من أراضى شبه جزيرة إيطاليا للمراعى ، فكانت الأرض غير الموفورة الخصب ، وكان العبيد ذوو الأجور الرخيصة يستخدمان لتربية الماشية والضأن والخنازير ، وكانوا يعنون بتربيتها على الطريقة العلمية . وكانت الخيل تربى فى الغالب للأغراض الحربيه ، وللصيد وألعاب الفروسية ، وقلما كانت تستخدم لجر المركبات ؛ وكانت الثيران تجر المحاريث والعربات ، والبغال تحمل الأثقال على ظهورها ؛ وكانت البقر والغنم والماعز تمد الأهلين بثلاثة أنواع من اللبن يصنع منه الإيطاليون وقتئذ كما يصنعون منه فى هذه الأيام أصناف الجبن اللذيذ . وكانت الخنازير تربى فى الغابات الغنية بالجوز وثمار البلوط . ويقول استرابون إن إيطاليا كانت تعيش فى الغالب على لحم الخنازير التى تربى فى غابات البلوط الكثيرة فى شمالى إيطاليا . وكان الدجاج يمد المزارع بالسماد المخصب والأسر الإيطالية بالطعام اللذيذ ، كما كان النحل يمد الأهلين بالشهد الذى كان منذ القدم يستعمل بدل السكر . وإذا أضفنا إلى ما سبق بعض مساحات من الكتان والتيل ، وقليلا من صيد الحيوان ، وكثيراً من صيد السمك ، تكونت لدينا الصورة التى كان عليها الريف الإيطالى منذ ألف وتسعمائه عام والتى لا يزال محتفظاً بها إلى اليوم .

الفصل الثاني

الصنـــاع

لم يكن فى الحياة الرومانية — ولعله لا يصح أن يكون فيها إذا صلحت الأحوال الاقتصادية — فرق جغرافى بين الزراعة والصناعة مثل ما بينهما من فرق فى هذه الأيام . ذلك أن الموطن الريفى القديم — سواء أكان كوخاً أم بيتاً صغيراً ذا حديقه أم بيتاً كبيراً فى ضيعة — كان مصنعاً يدويا بالمعنى الحرفى لهذا اللفظ يعمل فيه الرجال بأيديهم فى صناعات هامة متعددة لا غنى لهم عنها ، بينا تملأ النساء البيت وما يجاوره بما لا يحصى من منتجات الفنون والصناعات . فهناك تستحيل الغابات ملاجئ ويتخذ منها الوقود والأثاث ، وتذبح الماشية وينتفع بجلودها ولحومها ، وتطحن الحبوب وتخبز ، وتعصر الزيوت والخمور ، ويعد الطعام ويحفظ ، وينظف الصوف والتيل وينسجان ، ويحرق الطين فى بعض الأحيان وتصنع منه الآنية والآجر والقرميد ، وتطرق المعادن وتصنع منها الأدوات . والحياة فى الريف مليئة بالعمل المهذب المثقف المختلف الأنواع الذى لا يستمتع به إلا القليلون منا فى عصرنا الحاضر عصر الحركة الواسعة والتخصص الضيق . ولم يكن تعدد الصناعات فى المنزل الواحد دليلا على أن الحال الاقتصادية فى الريف فقيرة وبدائية ، فقد كانت أكثر البيوت ثراء أكثرها اعتماداً على نفسها واكتفاء بمنتجاتها ، وكان أهلها يفخرون بأنهم ينتجون معظم ما هم فى حاجة إليه . وكانت الأسرة فى تلك الأيام منظمة من وحدات اقتصادية متعاونة متحدة الجهود فى الأعمال الزراعية والصناعية التى تقوم بها فى منزلها .

ولما أن تعهد صانع ما بالقيام بعمل لعدة أسر ، وأقام لنفسه حانوتاً فى موضع يسهل على هذه الأسر جميعها أن تصل إليه ، لم ينفصل هذا أحد اقتصاد القرية

يكمل ما ينقص من اقتصاد الأسرة ، ولكنه لم يحل محله . مثال ذلك ان الطحان أخذ يحمل الحبوب من عدة حقول ويطحنها لأصحابها ؛ ثم أخذ بعدئذ يصنع لها الخبز ، وقام آخر الأمر بتوزيعه . وقد عثر فى أنقاض پمپي على أربعين مخبزاً ، وكان لصناع الفطائر فى رومة نقابة خاصة بهم . كذلك كان هناك متعاقدون يشترون محصول الزيتون على شجره ويجمعونه فيما بعد[١١] . على أن معظم الضياع ظلت تجمع زيتونها وتصنع خبزها بنفسها . وكانت ملابس الزراع والفلاسفة تغزل فى البيوت ، أما الأثرياء فكانت ثيابهم تغزل فى البيوت كملابس الفقراء ولكنها كانت تمشط ، وتنظف ، وتبيض ، وتفصل فى أماكن معدة لهذه الأغراض . وكانت بعض المنسوجات الصوفية الرفيعة تنسج فى مصانع خاصة ، وكان الكتان الذى تصنع منها أشرعة السفن أو شباك الصيد ينسج فى المصانع قاشاً رفيعاً تتخذ منه ملابس للسيدات ومناديل للرجال[١٢] . وكان النسيج فى بعض الأحيان يرسل بعدئذ إلى صباغ لا يقتصر عمله على تلوينه بل كان يطبع عليه رسوماً جميلة كالتى نراها مطبوعة على الملابس المصورة على جدران پمپي ، وتطورت دباغة الجلود فأصبحت لها مصانع خاصة بها ، وإن بقيت صناعة الأحذية يقوم بها الأفراد فيصنعون منها ما يطلب إليهم صنعه . وكان فيهم إخصائيون لا يصنعون إلا (شباشب) النساء .

وكانت الصـــناعات التى تستخرج موادها الغفل من باطن الأرض يقوم بها كلها تقريباً العبيد والمجرمون ، وكانت مناجم الذهب والفضة فى داشيا وغالة وأسپانيا ؛ ومناجم الرصاص والقصـــدير فى أسپانيا وبريطانيا ، ومناجم النحاس فى قبرص والبرتغال ، ومناجم الكبريت فى صقلية ، والملح فى إيطاليا ، والحديد فى إلبا ، والرخام فى لونا Luna وهيمتس Hymettus وباروس Paros ، والحجر السماقى فى مصر ، كانت هذه كلها وغيرها من موارد الثروة التى تستخرج من باطن الأرض تمتلكها الدولة وتستغلها بنفسها أو تؤجرها لغيرها ، وكانت مصدراً

هاما من مصادر الإيراد القومى ؛ وحسبنا دليلا على أهميتها أن ڤسپازيان كان يحصل من مناجم الذهب فى أسبانيا وحدها على ما قيمته ٤٤٫٠٠٠٫٠٠٠ دولار فى كل عام[١٣] . وكان البحث عن الثروة المعدنية من أهم أسباب الفتوح الاستعمارية ، ومن أقوال تاستس فى هذا المعنى أن ثروة بريطانيا المعدنية كانت « جزاء النصر » الذى ظفر به كلوديوس فى حروبه[١٤] . وكان الخشب والفحم النباتى أهم أنواع الوقود ، وكان البترول معروفاً فى كمچينى Commagene وبابل وبارثيا[١٥] ، وكان المدافعون عن ساموساتا Samosata يلقونه متقداً فى مشاعل على جنود لوكلس ، ولكننا لم نعثر على شاهد يدل على أنه كان يستخدم وقوداً على نطاق تجارى(*) . وقد عثر على الفحم الحجرى فى البلوپونيز وفى شمالى إيطاليا ، ولكن أكثر من كانوا يستخدمونه هم الحدادون[١٦] . وكانت صناعة كبرتة الحديد لتحويله إلى فولاذ قد انتشرت من مصر إلى كافة أنحاء الإمبراطورية . وكان معظم صناع الحديد ، والنحاس والذهب ، والفضة ، يقومون بأعمالهم فى مصاهر خاصة يعملون فيها بمساعدة صبى أو صبيين . وفى كاپوا ومنتورنى Menturnae وپتيولى Puteoli وأكويليا Aquileia وكومو Como وغيرها من البلاد انضمت عدة أفران ومصاهر وتكونت منها مصانع كبيرة . ويلوح أن مصانع كاپوا كانت مشروعات رأسمالية ذات إنتاج ضخم ، تعتمد على أموال تأتيها من خارجها .

وكانت صناعة البناء حسنة التنظيم عظيمة التخصص ، فكان « حاملو الأشجار » Dendrophoroi يقطعون الأشجار ويوردونها ، و« صناع الخشب » fabri lignarii يصنعون الأثاث ، و « صانعو الأسمنت » Caementarii

(*) كان من بين الأسلحة الحربية فى القرن الرابع سهم نارى مملوء بالنفط الملتهب يطلق من قوس أو منجنيق ، ويقول عنه أميانس مرسلينيس **Ammianus Marcellinus** « إنه يحرق كل ما يقع عليه ، وإذا ألقى عليه ماء زاد ناره حرارة ، وما من سبيل إلى إطفائه إلا إذا رش عليه التراب » .

يخلطونه ، و « والمشيدون » Structres يضعون الأساس ، و « القباءون » arcuarii يثبتون العقود ، و « مقيمو الجدران » parieutarii يرفعون الحوائط ، و « الطلاسون » يطلونها بالجص ، والمبيضون albarii يطلونها بالجير ، وصانعو الأدوات الصحية Artifices plumbarii يصنعون أدواتها وهي في الغالب أنابيب من الرصاص (plumbum) ، وكان المبلطون marmorii يفرشون الأرض بالرخام ، وفي وسعنا أن نتصور ما تؤدى إليه هذه الأعمال كلها من نزاع . وكان الآجر والقرميد يأتيان من معامل الفخار ، وكان معظمها قد بلغ مرحلة المصانع الكبيرة ، وكان تراجان ، وهدريان ، وماركس أورليوس يمتلكون عدداً منها ويجنون منها أرباحاً طائلة[١٧] . وكانت قمائن أرتيوم Arretium ، وموتينا Mutina ، وپيتولى وسرنتم ، وبولنتيا Pollentiae تصنع أدوات الموائد العادية اللازمة لإيطاليا ولجميع الولايات الأوربية والأفريقية . ولم تكن هذه المنتجات الكثيرة ذات صبغة فنية راقية ، بل كان أهم ما يعنى به أصحابها هو كثرة الإنتاج ، ولذلك كانت الأدوات الخزفية التي امتلأت بها أسواق إيطاليا أقل جودة من منتجات أرتيوم السالفة الذكر . وكانت هناك أدوات متقنة ذائعة الصيت تصنع من الزجاج ، وسنذكر شيئاً عنها فيما بعد .

وليس من حقنا أن نعزو إلى إيطاليا القديمة وجود رأسمالية صناعية مستندين إلى ما نجده فيها من مصانع للزجاج ، والآجر ، والقرميد ، والفخار ، والأدوات المعدنية . ذلك أن رومة نفسها لم يكن فيها إلا مصنعان كبيران أحدهما مصنع للورق والثاني مؤسسة للصباغة[١٨] ؛ وأكبر الظن أن المعادن والوقود لم يكن من الميسور الحصول عليها بكميات وفيرة ، وأن مكاسب السياسة كانت تبدو لأهل رومة أعظم شرفاً من أرباح الصناعة . أما في مصانع إيطاليا الوسطى فإن الصناع على بكرة أبيهم تقريباً وبعض المشرفين على المصانع كانوا من العبيد ، وفي مصانع شمالي إيطاليا كان عدد غير قليل من الصناع أحراراً ، وكان عدد العبيد

لا يزال كبيراً إلى الحد الذى يحول دون استخدام الآلات . ولم يكن من المنتظر أن يعمد المهملون المتراخون الذين لا مصلحة لهم فى الإنتاج إلى الاختراع والابتكار ، بل إنهم كانوا يرفضون بعض الوسائل التى توفر المجهود العضلى خشية أن تنتشر البطالة بين الصناع ، كما أن قدرة الشعب على الشراء كانت أضعف من أن تمول الإنتاج الكبير بالآلات ، أو تشجع عليه (١٩) . ولسنا ننكر أنه كانت هناك بعض الآلات البسيطة بطبيعة الحال فى إيطاليا ومصر والعالم اليونانى : كالمضاغط والمضخات اللولبية ، والآلات الرافعة للمياه ، ومطاحن الحبوب التى تجرها الحيوانات ، وعجلات الغزل ، والأنوال ، والروافع ، وعجلة الفخرانى الدوارة . . . ولكن الحياة الإيطالية فى الوقت الذى نتحدث عنه (٩٦ م) لم يكن فيها من الحركة الصناعية إلا بقدر ما كان فى حياة الناس إلى ما قبل القرن التاسع عشر . ولم يكن مستطاعاً أن تزيد هذه الحياة على هذا القدر ما دامت قائمة على الرقيق وعلى تركيز الثروة أشد التركيز . يضاف إلى هذا أن القانون الرومانى لم يكن يشجع المنشآت الكبيرة لأنه كان يتطلب من كل شريك فى أى مشروع صناعى أن يكون شريكا مسئولا من الوجهة القانونية ، وكان يحرم قيام الشركات ذات « المسئولية المحددة » ، ولا يسمح بقيام الهيئات المساهمة إلا لأداء الأعمال الحكومية . ولما كانت هذه القيود وأمثالها تحد من نشاط المصارف ، فإنها قلما كانت تقدم رؤوس الأموال اللازمة لمشروعات الإنتاج الكبير ، ولم يكن فى وسع التطور الصناعى فى رومة أو إيطاليا أن يبلغ فى وقت من الأوقات ما بلغه فى الإسكندرية أو فى بلاد الشرق ذات الحضارة اليونانية .

الفصل الثالث

الحمالون

كانت المركبات ذات العجلات محرمة فى رومة أثناء النهار من عهد قيصر إلى كومودس ؛ وكان الناس وقتئذ يمشون أو يحملهم العبيد فى كراسى أو هوادج ، أما المسافات الطويلة فكانوا يقطعونها على ظهور الخيل أو فى مركبات تجرها الجياد ، وكان متوسط ما تقطعه المركبات العامة نحو ستين ميلا فى اليوم . وقد اجتاز قيصر مرة ثمانمائة ميل فى ثمانية أيام ، واجتاز الرسل الذين حملوا إلى جلبا فى أسپانيا نبأ وفاة نيرون ٣٣٢ ميلا فى ست وثلاثين ساعة ؛ وقطع تيبيريوس فى ثلاثة أيام واصل فيها السير راكباً ليلا ونهاراً ستمائة ميل ليكون إلى جوار أخيه ساعة وفاته . وكان البريد العام الذى ينقل فى العربات أو على ظهور الخيل فى ساعات النهار والليل جميعها بسير بسرعة يبلغ متوسطها مائة ميل فى اليوم . وكان أغسطس قد أنشأه على غرار نظام البريد الفارسى ، لأنه وجد ألا غنى له عنه فى تصريف شئون الإمبراطورية . وكان يطلق عليه لفظ البريد العام لأن مهمته هى خدمة المصلحة العامة بنقل الرسائل الرسمية . أما الأفراد فلم يكونوا يستطيعون الانتفاع به إلا ظروف قليلة وبتصريح خاص تصدره الحكومة ويسمى دپلوما أى « مطويا مرتين » يبيح لحامله بعض الامتيازات ، ويمكنه من الاتصال فى الطريق ببعض أصحاب المقامات الدپلوماسية الكبيرة . وكان ثمة وسيلة أخرى للاتصال أسرع من هذه الوسيلة ، وهى طريقة إرسال الرسائل بمصابيح مرفوعة على أعمدة ترسل إشارات بالضوء من نقطة إلى نقطة ؛ وبهذا البرق البدائى عرفت رومة المضطربة القلقة نبأ وصول السفن التى تحمل الحبوب إلى پتى . أما الرسائل غير الرسمية فكان ينقلها رسول خاص ، أو ينقلها التجار أو الأصدقاء المسافرون . ولدينا من الشواهد ما يوحى

بوجود شركات خاصة فى عهد الإمبراطورية تتكفل بنقل بريد الأفراد . وكانت الرسائل الخاصة فى ذلك الوقت أقل من مثيلاتها فى هذه الأيام وأحسن منها . على أن نقل الأخبار فى غربى أوربا وجنوبها لم يكن فى عهد قيصر أقل سرعة منه فى أى وقت من الأوقات قبل مد السكك الحديدية . وشاهد ذلك أن الخطاب الذى أرسله قيصر من بريطانيا إلى شيشرون فى عام ٥٤ ق . م وصل إلى رومة فى تسعة وعشرين يوماً ، وأن سير ربرت پيل لما سافر مسرعاً من رومة إلى لندن فى عام ١٨٣٤ احتاج إلى ثلاثين يوماً[٢٠] .

وكانت الطرق القنصلية من أهم العوامل فى تيسير سبل الاتصال والنقل : وكانت هذه الطرق هى الوسائل التى ينفذ بها القانون الرومانى ، والأعصاب التى تصبح بها رغبات رومة إرادة الدولة بأجمعها . وقد أحدثت هذه الطرق فى العالم القديم انقلاباً تجاريا من نوع الانقلاب الذى أحدثه إنشاء الطرق الحديدية فى القرن التاسع عشر . وحسبنا شاهدا على عظمة هذه الطرق أن طرق أوربا فى العصور الوسطى وفى العصور الحديثة ظلت إلى أيام استخدام البخار فى النقل أقل شأناً من طرق الإمبراطورية الرومانية فى عهد الأنطونيين . لقد كان فى إيطاليا وحدها فى ذلك الوقت ٣٧٢ طريقاً رئيسياً ، ١٢٠٠٠ ميل من الطرق الكبرى المرصوفة ، وفى الإمبراطورية بأجمعها ٥١,٠٠٠ ميل من الطرق العامة المرصوفة ، فضلا عن شبكة أخرى من الطرق الثانوية . وكانت الطرق الكبرى تسير فوق جبال الألب إلى ليون ، وبردو ، وپاريس وريمس ، وبولونى ؛ وكانت طرق أخرى تجرى إلى ڤينا ، ومينز ، وأجزبرج ، وكولونى ، وأوترخت ، وليدن ؛ وكان ثمة طريق يبدأ من أكويليا محازيا ساحل البحر الأدريادى ، ويصل هذه المدينة ، عن طريق إجناشيا بسلانيك Thessalonica . وأقيمت جسور فخمة لتحل محل القوارب التى كانت تنقل الركاب والبضائع فى عرض المجارى التى كانت تعطل سبل الاتصال فى الزمن القديم . وكانت توضع عند كل ميل فى الطرق

المنفصلة شواهد حجرية تبين المسافة بين كل شاهد والبلدة التى تليه . ولا تزال أربعة آلاف من هذه الشواهد باقية إلى يومنا هذا ؛ ووضعت على مسافات معينة مقاعد يستريح عليها المسافرون المتعبون . وأنشئت بعد كل عشرة أميال محاط يستطيع من شاء أن يستأجر منها خيلا ، وأقيم بعد كل ثلاثين ميلا نزل Mansio كان أيضاً مستودعاً للسلع وندوة وماخورا(٢١) . وكانت نقط الاستراحة الرئيسية هى المدائن التى أنشئت فيها عادة فنادق جميلة تمتلكها وتديرها أحياناً الحكومات البلدية(٢٢) . وكان معظم أصحاب النزل يسرقون أموال النزلاء كلما تيسرت لهم أسباب السرقة ، كما كان غيرهم من اللصوص يجعلون الطرق غير آمنة فى أثناء الليل على الرغم من وجود حاميات من الجند فى كل محطة . وكان فى استطاعة المسافرين أن يبتاعوا كتباً للإرشاد تبين الطرق والمحاط ، وأطوال ما بينها من المسافات(٢٣) . وكان الأثرياء الذين يستنكفون أن ينزلوا فى النزل يحضرون معهم ما يلزمهم من الحاجيات ، ويصطحبون العبيد وينامون فى عرباتهم بحراسة رجالهم ، أو فى بيوت أصدقائهم ، أو موظفى الحكومة المحليين

وأكبر الظن أن الأسفار فى عهد نيرون كانت أكثر منها قبل أن نولد نحن رغم ما كان يعترضها من الصعاب . وفى ذلك يقول سنكا : « إن كثيرين من الناس كانوا يركبون البحار مسافات طويلة ليشاهدوا منظراً بعيداً »(٢٤) .

ويحدثنا أفلوطرخس عن الجوابين الذين يقضون خير أيام حياتهم فى النزل وفى القوارب »(٢٥) . وكان الرومان المتعلمون يهرعون جماعات إلى بلاد اليونان ومصر وآسية اليونانية ، وينقشون أسماءهم على الآثار التاريخية ، ويرتادون الجواء ومنابع المياه المفيدة للعلاج والصحة ، أو يأتون لمشاهدة المجموعات الفنية فى الهياكل ، أو يسافرون للدرس على مشهورى الفلاسفة والخطباء والأطباء ؛ وما من شك فى أنهم كانوا يسترشدون بپوسنياس كما نسترشد نحن ببدكر(٢٦) .

وكانت هذه الرحلات الطويلة تتضمن عادة رحلة بحرية على ظهر سفينة

أو أكثر من السفن التجارية التى تمخر عباب البحر الأبيض المتوسط ، متتبعة عشرات العشرات من طرق الملاحة التجارية . وقد وصف جوڤنال هذه الطرق بقوله : « انظر إلى الموانى والبحار تجدها غاصة بالسفن وعلى ظهرها من الخلائق أكثر ممن على الأرض »[٢٧] . وكانت الثغور التى تنافس رومة فى عظمتها ، وهى پتيولى ، وپورتس ، وأستيا ، تحوى كثيراً من دور الصناعة تبنى المراكب[*] وفيها القياورن يجلفطونها والعمال يضعون فيها صابورات من الرمال ، والحمالون يفرغون الحبوب فى أكياس ، والوزانون يزنونها ، والملاحون يسيرون القوارب الصغيرة بين السفائن الكبرى والبر ، والغواصون يغوصون فى البحر لينتشلوا ما يسقط فيه من البضائع . وكانت خمس وعشرين سفينة من سفن الحبوب وحدها تجر إلى نهر التيبر فى كل يوم من أيام العمل ، فإذا أضفنا إليها ناقلات حجارة البناء والمعادن ، والزيت ، والخمور ، وعشرات المئات من المواد الأخرى تكونت لدينا صورة من النهر الغاص بالمتاجر وما يصحب شحنها وتفريغها من ضجيج الآلات ، ورجال الأهوسة ، والحمالين ، والخازنين ، والتجار ، والسماسرة ، والكتبة .

وكانت السفن تسير بالأشرعة يساعدها صف أو صفوف من المجاديف ، وكانت فى ذلك الوقت أكبر حجما فى العادة من ذى قبل ؛ فأثنيوس Athenaeus يصف سفينة من ناقلات الحبوب بأنها كانت ٤٢٠ قدماً فى الطول و ٥٧ فى العرض[٢٩] ، ولكن هذا الحجم كان حجما شاذاً كل الشــذوذ . وكان لبعض السفن ثلاثة أسطح ، وكانت حمولة الكثير منها ٢٥٠ طنا ، وحمولة بعضها ألف طن من البضائع . ويحدثنا يوسفوس عن سفينة تحمل ستمائة رجل ما بين راكب وبحار[٣٠] ، وقد حملت سفينة أخرى مسلة مصرية فى حجم المسلة المقامة فى سنترال پارك Centrel bark بنيويورك ، ومعها ٣٠٠ ملاح ، و ١٣٠٠ راكب ،

(*) فى القاموس الجلفاط بالكسر سادّ درو ز السفن الجدد وقد جلفطها . (المترجم)

و ٩٣٠٠٠ بشل(*) من القمح ، ومقادير من الكتان ، والفلفل ، والورق ، والزجاج(٣١) . على أن السفر بالسفن بعيداً عن السواحل كان لا يزال معرضاً للأخطار ، كما وجده القديس بولس فى أسفاره . ولم يكن يجرؤ على عبور البحر الأبيض المتوسط فيما بين نوفمبر ومارس إلا عدد قليل من السفن ، وكانت الرياح الموسمية تجعل السفر فى وسط الصيف مستحيلاً جهة الشرق . وكانت الأسفار بالليل كثيرة فى تلك الأيام ، وكان فى كل ميناء ذى شأن منارة صالحة ، وكادت القرصنة أن تختفى من البحر الأبيض المتوسط ، وقد جد أغسطس فى القضاء عليها ومنع الطعام عن الولايات التى تثور عليه بوضع أسطولين حربيين كبيرين فى رافنا من ثغور البحر الأدرياوى ، وميسينم Misenum على خليج نابلى ، فضلا عن أساطيل أصغر منها فى عشر نقط أخرى متفرقة فى أنحاء الإمبراطورية . وفى وسعنا أن نقدر قول قيصر عن « فخامة السلم الرومانية العظيمة » إذا ذكرنا أننا لم نسمع شيئاً قط عن هذه الأساطيل مدى قرنين كاملين .

ولم تكن مواعيد السفر محددة مضبوطة لأن سير السفن كان يتأثر بعوامل الجو وبالأغراض التجارية . أما الأجور فكانت منخفضة ، فقد كان أجر السفر من أثينة إلى الإسكندرية مثلا درهمين (أى ٢٠ر١ ريال أمريكى) ، ولكن المسافرين كانوا يبتاعون طعامهم ، والراجح أن معظمهم كانوا ينامون على سطح المركب . وكانت سرعة السفن معتدلة اعتدال أجورها ، وكانت تختلف باختلاف الريح ، ويبلغ متوسطها ستة أميال بحرية فى الساعة .

وقد لا يستطيع المسافر فى بعض الأحيان أن يجتاز البحر الأدرياوى إلا فى يوم كامل ، وكان يلزمه أحياناً ثلاثة أسابيع للسفر من پترى Patrae إلى برنديزيوم كما فعل شيشرون . وكان فى وسع الطراد السريع أن يقطع

(*) يعادل البشل نحو ثمانية جالونات . (المترجم)

٢٣٠ ميلا بحريا فى أربع وعشرين ساعة(٣٢) . وإذا ما صلحت الريح استطاع الإنسان أن يسافر من صقلية إلى الإسكندرية أو من قادس إلى أستيا فى ستة أيام ، ومن يوتكا Utica إلى رومة فى أربعة(٣٣) .

وكانت أطول الرحلات وأكثرها تعرضاً للخطر الرحلة البحرية التى تستغرق ستة أشهر من عدن فى بلاد العرب إلى بلاد الهند ، وذلك لأن الرياح الموسمية كانت تضطر السفن إلى ملازمة السواحل الغاصة بالقراصنة فى الطريق كله ؛ وقد استطاع ملاح يونانى من أهل الإسكندرية فى وقت ما قبل سنة ٥٠ م ، أن يبين بالرسم أوقات هبوب الرياح الموسمية ، ويعرف أن فى مقدوره فى بعض الفصول أن يعبر المحيط الهندى فى طريق مستقيم وهو آمن . وكان هذا الكشف يعادل فى أهميته بالنسبة لهذا البحر أهمية عبور كولمبس المحيط الأطلنطى ؛ ذلك أن السفن قد استطاعت بعد هذا العمل أن تسير من الثغور المصرية الواقعة على البحر الأحمر إلى بلاد الهند فى أربعين يوماً . وحدث حوالى ٨٠ م أن كتب بحار آخر من أهل الإسكندرية غير معروف اسمه كتاباً عن « الطواف بالبحر الإريترى » . وكان بمثابة دليل للتجار الذين يتجرون بين ثغور ساحل أفريقية الشرقى والهند . وكان غيره من الملاحين فى ذلك الوقت قد ساروا فى المحيط الأطلنطى إلى بلاد غالة ، وبريطانيا ، وألمانيا ، بل إنهم وصلوا إلى اسكنديناوة وروسيا(٣٤) . ولسنا نعرف فى تاريخ الإنسانية قبل ذلك العهد أن البحر قد حمل من السفن ومن البضائع ومن الخلق ما حمله فى تلك الأيام .

الفصل الرابع

المهندسون

كانت السفن والطرق التى تحمل عليها البضائع ، والقناطر التى تربط الطرق بعضها ببعض ، والموانى والأحواض التى تستقبل السفن ، والقنوات المبنية التى يجرى فيها الماء النقى إلى رومة ، والمصارف التى تنصرف فيها مياه المستنقعات الريفية وأقذار المدن ، كانت هذه كلها من عمل المهندسين الرومان واليونان والسوريين يساعدهم آلاف من العمال الأحرار وجنود الفيالق والعبيد . وكانوا يرفعون الأحمال أو الحجارة الثقيلة ، أو يجرونها بوساطة البكرات أو القوائم الخشبية العمودية تديرها الروافع التى يدفعها فيها الحيوانات أو الآدميون[٣٥] . وقد أقاموا على شاطئ التيبر الغدار جدراناً ذات درجات ثلاث حتى لا ينكشف الطين فى قاع النهر إذا انخفض ماؤه(*) وقد أنشئوا ميناء مزدوجاً عند أستيا لكلوديوس ونيرون وترچان ، وافتتحوا موانى أصغر منها فى مرسيليا وپتيولى ، وميسينم ، وقرطاجنة ، وبرنديزيوم ، ورافنا ؛ وجددوا أعظم موانى الإمبراطورية كلها فى الإسكندرية . وقد جففوا البحيرة الفوسية ، واستصلحوا أرضها للزراعة وذلك بأن شقوا لها نفقاً يخترق جبلا من الصخر الصلد ، وأنشئوا تحت الأرض فى رومة مصارف من الأسمنت المتحجر والآجر والقرميد قاومت البلى مئات السنين ، وجففوا مناقع كمپانيا حتى أصبحت صالحة للسكنى ، ويدل ما عثر عليه فيها من آثار على أن قصوراً فخمة كثيرة أقيمت فيها(**) ، وقاموا بتنفيذ

(*) أنشأت الحكومة الإيطالية فى عام ١٨٧٠ جسوراً بمحاذاة شاطئ النهر تجعل مجراه متساوى العرض ، وقد أدى ذلك إلى نتائج غير مستحبة فى فصل الجفاف .

(**) والظاهر أن الفلشيين قد جففوا مناقع بنتين قبل عام ٦٠٠ ق . م ، غير أن الرومان الذين فتحوا بلادهم قد أهملوا المصارف فعاد الإقليم مناقع وانتشرت فيه الملاريا . ووضع قيصر مشروعاً لتجفيفه وواصل أغسطس ونيرون العمل فى هذا التجفيف ولكن المشروع لم يتم إلا فى عام ١٩٣١ .

المشروعات العامة المدهشة التى خفف بها قيصر وغيره من الأباطرة التعطل فى البلاد وجملوا بها رومة .

وكانت الطرق القنصلية من أقل أعمالهم مشقة ، ولكنها لم تكن تنقص عن طرق هذه الأيام . وكانت سعتها تختلف من ست عشرة إلى أربع وعشرين قدماً ولكن بعض هذا العرض كان يشغله بالقرب من رومة ممرات جانبية مرصوفة بألواح حجرية مستطيلة الشكل . وكانت تسير مستقيمة إلى أهدافها مضحية بالنفقات العاجلة فى سبيل الاقتصاد الدائم ؛ وأقيمت على المجارى التى لا حصر لها قناطر كثيرة النفقات ، فإذا وصلت إلى المستنقعات اخترقتها فوق قباب مقامة على جدران من الآجر والحجارة ، وكانت تصعد فوق الجبال الوعرة وتنحدر على سفوحها دون أن تستخدم النفق ، وسارت بمحاذاة الجبال أو الجسور العالية تحميها الجدران القوية . واختلفت المواد التى ترصف بها باختلاف الأماكن التى تمر بها . وكانت الطبقة السفلى تصنع فى العادة من الرمل ويتراوح سمكها بين أربع بوصات وست ، أو من الملاط بسمك بوصة واحدة . ثم تقام فوق هذه الطبقة أربع طبقات من البناء : الأولى وسمكها قدم وتبنى من الحجارة يمسكها الأسمنت أو الطين ، تليها طبقة ثانية سمكها عشر بوصات من الأسمنت القوى ، ثم طبقة ثالثة سمكها ما بين اثنتى عشرة وثمان عشرة بوصة وتتألف من عدة طبقات من الأسمنت المقوى أيضاً ، وفوقها الطبقة الرابعة وتتخذ من قطع من حجر الصوان أو الحمم البركانية الكثيرة الأضلاع والتى يختلف قطر كل منها بين قدم واحدة وثلاث أقدام ، وسمكها بين ثمان بوصات واثنتى عشرة بوصة . وكانوا يسوون الوجه الأعلى لهذه القطع ، وكانت مواضع اتصالها بعضها ببعض لا تكاد تتبينها العين . وكانت الطبقة العليا تصنع فى بعض الأحيان من الأسمنت المقوى ، وفى الطرق القليلة الأهمية كانت تصنع من الحصباء ؛ وفى بريطانيا كانت من حجر الصوان المخلوط بالأسمنت فوق طبقة من الحصباء . وكان سمك الطبقات السفلى كبيراً إلى حد جعل المهندسين

لا يعنون كثيراً بتصريف الماء الجوفى . ويمكننا أن نقول عن هذه الطرق بوجه عام إنها أطول الطرق أعماراً فى التاريخ كله ، ولا يزال بعضها يستخدم إلى اليوم ، ولكن منحنياتها الشديدة التى صنعت لسير البغال والعربات الصغيرة جعلتها غير صالحة لوسائل النقل الحديث .

وكانت القناطر التى تحمل هذه الطرق نماذج طيبة لتضافر العلم والفن ، ولقد ورث الرومان عن مصر البطليموسية أصول الهندسة المائية ، واستخدموها على نطاق بلغ من السعة حداً لم يسبقهم إليه أحد من قبل ، وبقيت الأساليب التى نقلت عنهم لم يطرأ عليها تغيير إلى هذه الأيام . وقد وضعوا الأسس وأشادوا الأرصفة تحت الماء كما كانت تشاد هذه وتلك فى أقدم العهود . وكانوا يدفعون فى أنواع المجارى اسطوانات مزدوجة مملوءة بمواد البناء ، وقد أحكموا إغلاق كل منهما ونزحوا الماء مما بينهما ، وغطوا الجزء المعرى بالحجارة أو الجير ، وأقاموا الرصيف المطلوب إقامته على هذا الأساس . وقد أقيمت على نهر التيبر قبالة رومة تسعة جسور بعضها قديم مقدس كجسر سبليسيوس الذى لم يكن يجوز استخدام المعادن فيه ، وبعضها كجسر فبريسيوس متقن البناء إتقاناً أبقاه صالحاً للاستعمال إلى هذه الأيام . وعن هذه الجسور نقلت العقود الرومانية لتستخدم فى بناء مئات المئات من القناطر فوق المجارى فى العالم الذى يسكنه البيض .

وكان بلنى يظن أن قنوات المياه المبنية أعظم أعمال الرومان ، وفى ذلك يقول : « إذا فكر الإنسان فى مقدار ما يصل إلى المدينة من ماء للأغراض العامة والخاصة التى يخطئها الحصر ، وإذا شاهد القنوات المشيدة العالية التى لا بد أن تحتفظ بالعلو والتدرج المطلوبين ، والجبال التى لا بد من اختراقها ، والمنخفضات التى لا بد من ملئها — لم يسعه إلا أن يحكم أن الأرض كلها ليس فيها ما هو أعجب وأعظم من هذه الأعمال »(٣٨) وكانت أربع عشرة قناة من هذا النوع يبلغ مجموع أطوالها ١٣٠٠ ميل

وتخترق النفق وتسير فوق عقود فخمة ، كانت هذه القنوات تحمل إلى روما من عيون بعيدة ما لا يقل عن ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ جالون من الماء فى كل يوم ، ينال منها كل فرد فى رومة ما يناله أى إنسان فى مدننا الحديثة[٣٩] . على أن هذه المبانى الضخمة لم تكن تخلو من عيوب . فقد كانت أنابيب الرصاص تخرق وتتطلب الإصلاح المرة بعد المرة ، وأصبحت هذه القنوات كلها غير صالحة للاستعمال قبل نهاية عهد الإمبراطورية الغربية[*] . ولكننا إذا ذكرنا أنها كانت تحمل إلى المبانى ، « والمساكن ، والقصور ، والفساقى ، والحدائق ، والبساتين ، والحمامات العامة التى يستحم فيها آلاف الناس مجتمعين ، وأن ما بقى بعد ذلك من الماء كان يكفى لإنشاء بحيرات صناعية للمعارك الحربية ، إذا ذكرنا هذا كله بدأنا ندرك أن رومة كانت أحسن الحواضر القديمة إدارة ، وأنها كانت من خير المدن المزودة بما تحتاج إليه من الضروريات والكماليات ، رغم ما كان فيها من فساد ، وما كان ينتابها من رعب فى كثير من الأحيان .

وكان يشرف على مصلحة المياه فى ختام القرن الأول الميلادى سكستس يوليوس فرنتينس الذى جعلته كتبه أشهر مهندسى الرومان الأقدمين . وكان قبل أن يتولى هذا المنصب قد عمل بريتوراً ، وواليًا على بريطانيا ، وتولى القنصلية مراراً عدة . وكان كالحكام الإنجليز فى هذه الأيام يجد متسعاً من الوقت لتأليف الكتب وحكم الولايات ، فقد نشر كتابا فى العلوم الحربية لا يزال ختامه باقياً إلى هذه الأيام[**] ، وترك لنا وصفاً بقلمه لعملية المياه فى رومة (De aquis urbis Romanae) . وهو يصف ما وجده فى تلك المصلحة حين تولى أمورها من ضروب الفساد والرشوة ، وكيف كانت القصور والمواخير تخرق الأنابيب الكبرى

(*) ولا تزال إحداها وهى قناة « فرجو » Virgo تمد بالماء فوارة تريفى Trevi ، وقد أصلحت ثلاث قنوات أخرى وهى تمد رومة بالماء فى هذه الأيام .

(**) ويبدأ الكتاب الثالث بهذه الملاحظة الهامة : « إن اختراع آلات الحرب قد وصل من زمن بعيد إلى أبعد غاياته ، ولا أمل فى أن يتقدم هذا الفن عما هو عليه الآن » .

وتسرف فى الماء إسرافاً جعل رومة فى بعض الأيام تطلب الماء فلا تجده[٤١] .
ثم يصف ما أدخله بحزمه وهمته من ضروب الإصلاح ، ويفصل القول فى زهو وإعجاب فى مبدإ كل قناة وطولها والغرض منها ، ويختم هذا القول كما يختم پلنى قوله بهذه العبارة : « منذا الذى يجرؤ على أن يوازن هذه القنوات العظيمة بالأهرام السخيفة أو بأعمال اليونان الذائعة الصيت العديمة النفع »[٤٢] . ونحن نحس هنا بما يؤمن به هذا الرومانى من مبدإ النفعية ، وبعدم تذوقه للجمال المجرد من النفعية . ولسنا نلومه على هذا ، ونقر بأن من الواجب أن تحصل المدينة على الماء النقى قبل أن يكون فيها هياكل جميلة ، ونحن نستشف من خلال هذه الكتب الخالية من التجميل الفنى أنه كان لا يزال فى رومة فى أيام الطغاة رومان من الطراز القديم ، رجال ذوو كفاية وصلاح ، وإداريون يعملون بوحى ضمائرهم ، وقد أفلحوا فى نشر الرخاء فى أنحاء الإمبراطورية ، تحت حكم الأباطرة السفهاء الفاسدين ، وكانوا هم الذين مهدوا السبيل لعصر الملكية الذهبى .

الفصل الخامس

التجـــــار

اتسعت تجارة البحر البيض المتوسط اتساعاً لم يسبق له مثيل من قبل بسبب إصلاح إدارة الحكم ووسائل النقل . ففى أحد طرفى عملية التبادل كان البائعون الجائلون يطوفون بالريف ويبيعون أهله كل شيء من عيدان الثقاب إلى الحرير المستورد الغالى الثمن . وشبيه بهؤلاء من يبيعون البضائع « بالمزاد » ، وكان من عملهم أيضاً المناداة على البضائع المفقودة والعبيد الآبقين . وكانت هناك أسواق يومية وأخرى دورية ، وكنت ترى أصحاب الحوانيت يساومون المشترين ويخسرون الموازين ، ويرقبون فى حذر مفتشى الحكومة (الإيديل) الذين كانت مهمتهم مراقبة المكاييل والموازين . وكان أرقى من هؤلاء فى السلم التجارى الحوانيت التى تصنع بنفسها سلعها ؛ وكانت هذه الحوانيت عماد الصناعة والتجارة جميعاً . وكان فى الثغور البحرية أو بالقرب منها بائعو الجملة (magnarii) يبيعون لتجار التجزئة أو للمستهلكين البضائع المستوردة حديثاً من خارج البلاد ؛ وكان صاحب السفينة أو رئيس بحارتها فى بعض الأحيان يبيع ما فيها من البضائع قبل أن يفرغها .

وظلت إيطاليا مائتى عام وميزان التجارة فى غير صالحها ، فقد كانت تشترى أكثر مما تبيع ، وكانت راضية بذلك مغتبطة . كانت تصدر بعض الفخار الأريتينى Arretine وبعض الخمر والزيت ، والأدوات المعدنية والزجاج ، والروائح العطرية من كمبانيا ، أما ما عدا هذه من المنتجات فقد كانت تحتفظ به لنفسها وكان لتجار الجملة فى هذه الأثناء وكلاء يشترون البضائع لإيطاليا من كافة أنحاء الإمبراطورية ، وكان للتجار الأجانب سماسرة يعرضون

بضائعهم فى إيطاليا ؛ وبهذه العملية المزدوجة جاءت طيبات نصف العالم إلى إيطاليا لتتلذذ بها أفواه عظماء الرومان ، وتكتسى بها أجسادهم ، وتزدان بها بيوتهم ؛ وفى ذلك يقول إيليوس أرستيديس Aelius Aristides : « من شاء أن يرى جميع طيبات العالم فعليه أن يطوف العالم كله أو يقيم فى رومة »(٤٥) . وكانت صقلية ترسل لها الحبوب ، والماشية ، والجلود ، والخمور ، والصوف ، والأدوات الخشبية الفنية الجميلة ، والتماثيل ، والحلى ؛ وكانت ترد من شمالى إفريقية الحبوب والزيت ؛ ومن قورينة الأنجدان Silpium(*) ؛ ومن أفريقية الوسطى الوحوش اللازمة للملاعب والمجتلدات ؛ ومن بلاد الحبشة وشرق أفريقية العاج والقردة ، وأصداف السلاحف ، والرخام النادر الطبيعى ، والتوابل ، والعبيد الزنوج ؛ ومن غربى أفريقية الزيتون ، والحيوانات البرية ، والأترج ، والخشب ، واللؤلؤ ، والأصباغ ، والنحاس ؛ ومن أسبانيا السمك ، والماشية ؛ والصوف ، والذهب ، والفضة ، والرصاص ، والقصدير ، والنحاس ، والحديد ، والزنجفر ، والقمح ، والتيل ، والفلين ، والخيل ، ولحم الخنزير وخير أنواع الزيتون وزيته ؛ ومن بلاد غالة الملابس ، والخمور ، والقمح والخشب ، والخضر ، والماشية ، والدجاج ، والفخار ، والجبن ؛ ومن بريطانيا القصدير ، والرصاص ، والفضة ، والجلود ، والقمح ، والماشية والعبيد ، والمحار ، والكلاب واللؤلؤ ، والمصنوعات الخشبية ؛ وكانت أسراب الإوز تسير من بلجيكا إلى إيطاليا لتملأ أكبادها بطون الأشراف من أبنائها . وكانت ألمانيا تورد الكهرمان ، والعبيد ، والفراء ؛ وبلاد نهر الدانوب تورد القمح ، والماشية ، والحديد ، والفضة ، والذهب ؛ وبلاد اليونان والجزائر اليونانية تصدر الحرير الرخيص ، والتيل ، والخمر ، والزيت ، وعسل النحل ، والخشب ، والرخام ، والزمرد ، والعقاقير ،

(*) نبات من الفصيلة الخيمية ، وهو يحتوى على سائل راتنجى اشتهر عند القدماء بنفعه لكثير من الأمراض الباطنية ، ورسم على نقود قورينة موطنه الأصلى . (المترجم)

والمصنوعات الفنية ، والروائح العطرية ، والماس ، والذهب ؛ وكانت بلاد البحر الأسود تصدر الحبوب ، والسمك ، والفراء ، والجلود ، والعبيد ؛ وآسية الصغرى تصدر المنسوجات التيلية والصوفية ، والجلد المرقق للكتابة ، والخمر ، وتين أزمير وغيرها من البلاد ، والعسل ، والجبن ، والمحار ، والسجاجيد ، والزيت ، والتفاح ، والكمثرى ، والبرقوق ، والتين ، والبلح والرمان ، والبندق ، والناردين ، والبلسم(*) ، والصمغ القرمزى(**) ، والأرجوانى ، وأرز لبنان ؛ وكانت تدمر تورد المنسوجات والعطور والعقاقير ؛ وبلاد العرب تورد البخور ، والصمغ ، والصبر ، والمر ، والأفيون ، والزنجبيل ، والقرفة ، والأحجار الكريمة ؛ ومصر تورد الحبوب ، والورق ، والتيل ، والزجاج ، والحلى ، والحجر الأعبل ؛ وأحجار البازلت ، والمرمر ، والبرفير ؛ وكانت آلات الأدوات المصنوعة المختلفة الأنواع ترد إلى رومة وغربى أوربا من الإسكندرية ، وصيدا ، وصور ، وأنطاكية ، وطرسوس ، ورودس ، وميليتس ، وإفسوس وغيرها من كبريات مدائن الشرق ؛ وكانت بلاد الشرق نفسها تستورد المواد الغفل والنقود من الغرب .

وكانت هناك فضلا عن هذا كله تجارة واردات ضخمة من خارج الإمبراطورية . فكانت ترد إلى إيطاليا من پارثيا وبلاد الفرس الجواهر ، والعطور النادرة ، والجلود الرقيقة ، والطنافس ، والحيوانات البرية ، والخصيان ؛ وكان يرد من الصين بطريق پارثيا أو الهند أو القوقاز الحرير منسوجاً أو غير منسوج ؛ وكان الرومان يظنونه محصولاً نباتياً يستخرج من الشجر ويقومونه بوزنه ذهباً(٤٤) . وكان معظم هذا الحرير يرد إلى جزيرة كوس Cos حيث ينسج ملابس لنساء رومة وغيرها من المدن ؛ واضطرت ولاية مسينيا Messenia — وهى الولاية الفقيرة نسبياً — أن تحرم على نسائها ارتداء الملابس الحريرية

(*) صمغ راتينى عطرى . (المترجم)

(**) صمغ يتخذ من المحار أو الأصداف . (المترجم)

الشفافة في الاجتماعات الدينية ؛ وهذه الملابس هي التي غزت بها كليوبطرة قلبي قيصر وأنطونيوس(٤٥). وكانت الصين تستورد من الإمبراطورية الرومانية في نظير صادراتها إليها الطنافس والحلى ، والكهرمان ، والمعادن ، والأصباغ ، والعقاقير ، والزجاج . ويحدثنا المؤرخون الصينيون عن بعثة تجيء بطريق البحر إلى الإمبراطور هوان دي عام ١٦٦ ، من قبل الإمبراطور « آن – طون » – أي ماركس أورليوس أنطونيوس . وأكبر الظن أن هذه البعثة لم تكن إلا جماعة من التجار انتحلوا صفة السفراء . وقد عثر في ولاية شانسي الصينية على ست عشرة قطعة من النقود الرومانية مضروبة فيما بين حكم تيبيريوس وحكم أورليوس ، وكانت الهند تورد إلى إيطاليا الفلفل ، وسنبلة الطيب ، وغيرها من التوابل (التي سافر كولمبس ليبحث عنها) ، والأعشاب ، والعاج ، والأبنوس ، وخشب الصندل والنيلة ، واللآلئ ، والعقيق المشطب (سردونتس) ، وحجر الظفر (الخرز اليماني) والجمست ، والياقوت الأحمر ، والماس ، والمصنوعات الحديدية ، وأدوات التجميل ، والمنسوجات ، والنمورة ، والفيلة ، وفي مقدورنا أن ندرك مقدار هذه التجارة وحب الرومان لأسباب الترف إذا عرفنا أن إيطاليا كانت تستورد من الهند أكثر مما تستورد من أي بلد آخر عدا أسبانيا(٤٦) . ويذكر استرابون أن مائة وعشرين سفينة كانت تبحر كل عام من ثغر واحد من الثغور المصرية إلى الهند وسيلان(٤٧) . وكانت الهند نفسها تستورد في مقابل صادراتها مقداراً غير كبير من الخمور ، والمعادن ، والصبغة الأرجوانية ، وتأخذ ثمن ما بقي من بضائعها أكثر من مائة مليون سسترس نقوداً أو سبائك . وكان مثل هذا القدر من المال يرسل إلى بلاد العرب والصين ، ولعل مثله أيضاً كان يرسل إلى أسبانيا .

وظلت هذه التجارة الواسعة مصدر رخاء عظيم مائتي عام ، ولكن أساسها غير السليم جر الخراب على الاقتصاد الروماني في آخر الأمر . ذلك أن إيطاليا لم تحاول قط أن تتعادل صادراتها ووارداتها ، وأنها استولت على مناجم خمسين

ولاية أو نحوها ، وفرضت على أهلها الضرائب لتستمد منها المال الذى تدفعه لموازنة صادراتها بوارداتها . فلما أن استنفدت العروق المعدنية الغنية ولم تنقص شهوة الرومان للترف والكماليات ، حاولت رومة أن تؤجل انهيار نظام الاستيراد بفتح بلاد جديدة اشتهرت بمعادنها مثل داشيا Dacia ، وبتخفيض قيمة نقدها الذى كان من قبل أبعد النقود عن الفساد والانحطاط ، فصارت تصنع أكثر ما تستطيع صنعه من النقود من أقل ما لديها من السبائك . ولما أن اقتربت نفقات الإدارة والحروب من مكاسب الإمبراطورية ، كان على رومة أن تؤدى ثمن ما تستورده من البضائع بضائع أخرى ، ولكنها عجزت عن هذا . وكان اعتماد إيطاليا على ما تستورده من الطعام أهم أسباب ضعفها . ذلك أنها ساعة أن عجزت عن إرغام غيرها من البلاد على أن ترسل إليها الطعام والجنود ، آذن مجدها بالزوال وفى هذا الوقت عينه أخذت الولايات تسترد رخاءها وأولويتها الاقتصادية : فكاد التجار الإيطاليون فى القرن الأول الميلادى يختفون من الثغور الشرقية ، واستقر التجار السوريون واليونان فى ديلوس وبتيولى ، وتضاعف عددهم فى أسپانيا وغالة ، وأخذ الشرق بين مد التاريخ وجزره المتباعدى الأجل يستعد لأن يسيطر مرة أخرى على الغرب .

الفصل السادس

رجال المـــال

ترى كيف كان الإنتاج والتجارة يمولان ؟ لقد كانا يمولان قبل كل شيء بنقد محترم موثوق به فى العالم إلى حد كبير . نعم إن النقود الرومانية جميعها قد انحطت قيمتها شيئاً فشيئاً من أيام الحرب البونية الأولى ، لأن الخزانة وجدت أنه يسهل عليها أن تؤدى ما استدانته الحكومة من المال بسبب الحروب بسماحها بالتضخم الذى ينشأ بطبيعته من ازدياد النقود ونقص السلع ؛ من ذلك أن الآس وكان فى الأصل رطلا من النحاس انخفض وزنه إلى أوقيتين فى عام ٢٤١ ، وإلى أوقية واحدة فى عام ٢٠٢ ، وإلى نصف أوقية فى عام ٨٧ ق . م ، وإلى ربع أوقية فى عام ٦٠ م ؛ وفى المائة العام الأخيرة من عهد الجمهورية كان قواد الجند يسكون نقودهم ، وكانت هذه النقود فى العادة هى الأورى وهو نقد ذهبى كانت قيمته فى الغالب مائة سسترس . ومن هذه النقود الحربية جاءت نقود الأباطرة ، وقد جرى هؤلاء على سنة قيصر فطبعوا صورتهم على ما يسكونه من النقود رمزاً لضمان الحكومة إياها . وسك السسترس وقتئذ من النحاس بدل الفضة ، وجعلت قيمته أربعة آسات(*) ، وأنقص نيرون ما كان يحتويه الدينار من الفضة إلى ٩٠ ٪ مما كان يحتويه منها قبل ، ثم أنقصه تراجان إلى ٨٥ ٪ ، وأورليوس إلى ٧٥ ٪ ، وكمودس إلى ٧٠ ٪ وسبتميوس سفيرس **Septimius**

(*) سنقوم العملة الرومانية حين نشير إلى العهد الذى أعقب حكم نيرون بثلثى قيمتها المعتادة فى زمن الإمبراطورية ، فيقوم الآس بـ ٠٫٠٢٥ من الريال الأمريكى ، والسسترس بـ ٠٫١ منه ، والدينار بـ ٠٫٤ ، والتالنت بـ ٢٫٤٠٠ حسب قيمة الريال الأمريكى فى عام ١٩٤٢ . وإذ كنا سنغفل فى هذا التقويم ما طرأ على العملة الرومانية من اختلافات قليلة ، فجدير بالقارئ أن يذكر أن هذا التقويم كله تقريبى .

Severus إلى ٥٠ ٪ . وأنقص نيرون قيمة الأوريوس من ١/٤٠ من الرطل من الذهب إلى ١/٤٥ ، وأنقصها كركلا إلى ١/٥٠ . وصحب هذا التخفيض ارتفاع عام فى أثمان السلع ، ولكن يلوح أن الدخل ارتفع بنسبة هذا التخفيض وظل يرتفع حتى زمن أورليوس . ولعل هذا التضخم غير الطليق الخاضع لإشراف الحكومة ، لم يكن إلا وسيلة سهلة لتخفيف العبء عن المدينين على حساب الدائنين ، لأن هؤلاء لو تركوا وشأنهم لاستطاعوا بفضل ما يمتازون به من كفاية ، وما يتاح لهم من فرص ، أن يركزوا الثروة فى أيد قليلة إلى حد يقف معه دولاب الاقتصاد وينذر بالثورة السياسية . ومن واجبنا أن نعد النظام المالى الرومانى من أكثر النظم المالية نجاحاً وثباتاً فى التاريخ رغم ما طرأ عليه من تغيرات . ذلك أن معياراً واحداً للنقد ظل قائماً موثوقاً به مدى قرنين من الزمان ، وبفضل هذا الثبات راجت التجارة واستثمار المال رواجاً لم يكن له نظير فى أى عصر من العصور السابقة .

ومن أجل هذا انتشر الصيارفة فى كل مكان ، يبدلون النقود بعضها ببعض ، ويراجعون الحسابات والودائع ذات الفوائد ، ويصدرون التحاويل المالية للمسافرين وتوكل إليهم إدارة أملاك الأفراد وبيعها ، وشرائها ، واستثمار الأموال ، وأداء الديون ، وإقراض المال للأفراد والشركات . وكان مصدر هذا النظام المصرفى بلاد اليونان وبلاد الشرق اليونانى ، وكان أكثره فى أيدى اليونان والسوريين حتى فى إيطاليا نفسها وفى غربى أوربا ؛ وكان اللفظان اللذان يطلقان على السورى ، والمصرفى فى غالة مترادفين[49] ؛ وانخفض سعر الفائدة إلى أربعة فى المائة لكثرة الغنائم التى جاء بها أغسطس من مصر ، ولكنه عاد فارتفع إلى ٦ ٪ بعد موته ، وبلغ حده القانونى الأقصى وهو ١٢ ٪ قبيل عصر قسطنطين .

ويدل « الذعر » المشهور الذى حدث فى عام ٣٣ م على ما وصلت إليه حال المصارف والتجارة فى أيام الإمبراطورية ، كما يدل على اعتماد كلا النظامين على الآخر . ذلك أن أغسطس سك العملة بلا حساب ، وبسط يده فى الإنفاق

كل البسط ، على أساس أن كثرة تداول المال ، وانخفاض سعر الفائدة ، وارتفاع الأثمان ، ستبعث النشاط فى الأعمال المالية والتجارية . وقد حدث هذا فعلا ، ولكن هذه العملية لم يكن من شأنها أن تستمر إلى غير نهاية ، ولذلك حدث انتكاس ولما يمض على بدايتها زمن طويل ؛ فقد حدث فى عام ١٠ ق . م أن وقف إصدار العملة ، وعاد تيبريوس إلى عكس النظرية السابقة وهى أن خير ضروب الاقتصاد هو أشدها اقتصاداً . ولذلك فرض القيود الشديدة على النفقات الحكومية ، وحدد إصدار العملة تحديداً شديداً وجمع فى خزانة الدولة ٢٫٧٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس . ونشأ عن هذا أن قل تداول النقود قلة زاد أثرها سوءاً نزوح الأموال إلى بلاد الثراء لابتياع الكماليات منها . ونتج عن ذلك انخفاض الأثمان ، وارتفاع سعر الفائدة . وعجز المدينون عن الوفاء بديونهم ، فباعوا أملاكهم ، وقاضى المدينون المرابين ، وامتنع الاقتراض أو كاد . وحاول مجلس الشيوخ أن يمنع تصدير رؤوس الأموال فطلب أن يستثمر قدر كبير من ثروة كل عضو من أعضائه فى الأراضى الإيطالية ، فعمد الشيوخ من أجل ذلك إلى المطالبة بما لهم من الديون ، وباعوا أملاك مدينيهم للحصول على الأموال ، وازدادت الأزمة سوءاً على سوء ؛ ولما أن أبلغ الشيخ پبليوس أستنثر Publius Spinther مصرف بلبس وأليوس Balbes & Ollius أنه لا بد له أن يسحب ٣٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس للوفاء بما يتطلبه القانون الجديد ، أعلن المصرف إفلاسه . وحدث فى الوقت نفسه أن أفلست شركة بالإسكندرية هى شركة سوثيس وولده Seuthes & Son على أثر ضياع ثلاث سفن لها تحمل التوابل ، وانهارت شركة ملكس Malchus للصباغة فى مدينة صور ، فشاع فى طول البلاد وعرضها أن مصرف مكسمس وڤيبو Maximus & Vibo الرومانى على وشك الإفلاس بسبب ما له من ديون كثيرة على هاتين الشركتين . ولما أن هرع أصحاب الودائع إلى هذا المصرف لسحبها أغلق أبوابه ، وحدث بعدئذ فى اليوم نفسه أن أجل الدفع مصرف كبير آخر

هو مصرف أولاد پتيوس Pettius . ووصلت فى الوقت عينه تقريباً أنباء تقول إن مصارف مالية كبرى فى ليون ، وقرطاجنة ، وكورنثة ، وبيزنطية قد أفلست هى الأخرى ، وأغلقت مصارف رومة واحداً بعد واحد ، ولم يكن من المستطاع اقتراض المال إلا بفوائد أعلى كثيراً من السعر المصرح به قانوناً ؛ واضطر تيبريوس فى آخر الأمر أن يعالج الأزمة بوقف قانون الاستثمار فى أرض إيطاليا ، وتوزيع ١٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ سسترس على المصارف لتقرضها من غير فائدة لآجال تبلغ ثلاث سنين ، بضمان الأملاك العقارية ، فاضطر المرابون من الأفراد إلى تخفيض سعر الفائدة ، وخرجت الأموال من مخابئها ، وعادت الثقة شيئاً فشيئاً إلى السوق المالية والتجارية[٥٠] ؛

الفصل السابع

الطبقات

كان كل إنسان فى رومة إلا أقلية لا يعتد بها يعبد المال عبادة جنونية ؛ وكان الناس جميعاً عدا أصحاب المصارف يلعنون المال ويذمونه : من ذلك أن أوفد يقول فى أحد كتبه على لسان إله من الآلهة : « ما أقل ما تعرف عن العصر الذى تعيش فيه إذا توهمت أن الشهد أحلى من المال فى يدك »(٥١) . وبعد مائة عام من ذلك الوقت يشيد جوفنال فى سخرية : « بجلال الثروة المقدس أعظم التقديس » ؛ وظل القانون الرومانى إلى آخر عهد الإمبراطورية يحرم على الشيوخ استثمار أموالهم فى التجارة أو الصناعة ؛ ومع أنهم كانوا يحتالون على هذا التحريم بأن يجيزوا لمعتوقيهم أن يستثمروا لهم المال ، فإنهم كانوا يحتقرون وكلاءهم ، ويرون أن الحكم بحق المولد هو وحده الذى يليق بهم أن يستبدلوا به الحكم بحق المال أو الأساطير أو السيف . وقد ظلت الانقسامات الطائفية باقية فى البلاد بعد ماقام فيها من الثورات ، وبعد أن نقص عدد الأشراف نقصاناً كبيراً ، واتخذوا لهم ألقاباً جديدة : فأصبح أفراد طبقتى الشيوخ ، والفرسان ، والحكام ، والموظفين ، يلقبون « رجال الشرف » honestiores أو رجال المناصب ؛ ولقب كل من عداهم « بالأدنياء » humiliores أو الضعفاء « tenuiores ؛ وكان وقار الشيخ وزهوه يمتزج بهما اعتزاز بالشرف والكرامة ، وكان يعمل فى عدد من المناصب بعضها فى إثر بعض من غير أجر بل تفرض عليه نفقات طائلة ، وكان يضطلع بالواجبات التى تفرضها عليه مناصبه العامة بدرجة لا بأس بها من الكفاية والاستقامة ؛ وينفق من ماله على الألعاب العامة ، ويساعد الموالى والمحررين من العبيد ، ويقتسم بعض ثروته مع الأهلين بضروب الصدقات التى يخرجها فى أثناء حياته أو بعد

مماته . وإذ كان مركزه يتطلب منه كثيراً من الواجباب ، كان يطلب إليه إذا أراد أن ينضم إلى طبقة الشيوخ أو يبقى فيها أن يكون لديه مليون سسترس ؟

وقد بلغت ثروة أحد الشيوخ وهو نيوس لنتولس **Gnaeus Lentulus** ٤٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سسترس ، ولكننا إذا استثنينا هذا الشيخ وحده كان أعظم الناس ثراء فى رومة هم رجال الأعمال الذين لم يكونوا يستنكفون أن يشتغلوا بالشئون المالية أو التجارية . وبينا كان الأباطرة ينقصون من سلطان مجلس الشيوخ كانوا يختصون رجال الأعمال بالمناصب الكبرى ، ويحمون الصناعة والتجارة والأعمال المالية ، واتخذوا معونة الفرسان سنداً للزعامة ضد دسائس الأشراف . وكانت عضوية هذه الطبقة الثانية ، طبقة الفرسان ، تتطلب من صاحبها أن يكون مالكا لأربعمائة ألف سسترس ، وأن يرشح الزعيمُ نفسه أعضاء هذه الطبقة ؛ ومن أجل هذا كان كثيرون من ذوى الثراء من طبقة العامة .

وكانت هذه الطبقة وقتئذ تتألف من رجال الأعمال الذين لم يرشحوا إلى العضوية فى طبقة أخرى ، ومن العمال الأحرار المولد ، والفلاحين الملاك ، والمدرسين ، والأطباء ، والفنانين والعبيد المحررين . ولم يكن الإحصاء يحدد طبقة الصعاليك حسب أعمال أفرادها بل كان يحددها حسب مولدهم ؛ وقد وصفتهم إحدى الرسائل القديمة بأنهم « السوقة الذين لا يقدمون للدولة إلا الأطفال »(٥٢) وكان الكثيرون منهم يعملون فى الحوانيت ، وفى المصانع ، وفى تجارة المدن بأجر يبلغ متوسطه ديناراً (٣/٨ من الريال الأمريكى) فى اليوم . وزاد هذا الأجر فى القرون التالية ، ولكن زيادته لم تكن أسرع من زيادة الأثمان(٥٣) . وجدير بنا ألا ننسى أن استغلال الأقوياء للضعفاء أمر طبيعى كالطعام والشراب ، ولا يختلف عنهما إلا فى السرعة ؛ وأنه لا يخلو منه عصر من العصور ولا مجتمع من المجتمعات أيا كان نوعه وأيا كان نظام الحكم الذى يخضع له ؛ ولكن هذا

الاستغلال لم يكن فى بلد من البلاد أكمل مما كان فى رومة القديمة ، كما لم تكن الطبقات فى بلد آخر أقل تعاطفاً من الطبقات فيها . لقد كان ساكنوها جميعاً فى وقت من الأوقات فقراء لا يشعرون بفقرهم ؛ ولكن الفقر والثراء ما لبثا أن وجدا معا فى صعيد واحد ، فشعر الفقراء وقتئذ بفقرهم . على أن نظام الإعانات الحكومية والصدقات التى كان السادة يحسنون بها على مواليهم ، والوصايا القيمة التى كان يوصى بها الأثرياء أمثال بلبس الذى أوصى لكل ساكن فى رومة بخمسة وعشرين ديناراً ، كل هذا قد حال بين الأهلين وبين الفقر المدقع . وكاد نظام الطبقات فى رومة أن يصبح شبيهاً بنظيره فى الهند الحاضرة فيقسم الأمة أقساماً منفصلة متنافرة ، ولكن من كان ذا قدرة من الأهلين كان فى وسعه أن يتحرر من الرق ، وأن يجمع المال ، ويرقى إلى المناصب العالية فى خدمة الزعيم . وكان ابن العبد المحرر يتمتع بجميع حقوق الأحرار ، وكان فى وسع حفيده أن يصبح عضواً فى مجلس الشيوخ ، بل إن حفيد أحد المحررين قد أصبح إمبراطوراً بعد قليل من هذا الوقت الذى نتحدث عنه .

وتولى العبيد المحررون فى القرن الأول الميلادى كثيراً من المناصب العامة : وكثيراً ما كان يعهد إليهم الإشراف على أموال الإمبراطورية فى الولايات ، وعلى عمليات المياه فى رومة ، وعلى مناجم الإمبراطور ، ومقالع أحجاره وضياعه ، وعلى تموين معسكرات الجيش . وكان المحررون أو العبيد ، وكلهم تقريباً من اليونان أو السوريين ، يديرون شئون القصور الإمبراطورية ، ويتولون أخطر المناصب فى مجالس الدولة . وتحولت الصناعات والتجارة الصغرى شيئاً فشيئاً إلى أيدى المحررين ، وأصبح الكثيرون منهم على مر الأيام من أصحاب رؤوس الأموال وملاك الأراضى ؛ وقلما كان ماضيهم يتيح لهم الفرص لرفع مستواهم الخلقى أو يسمو بأغراضهم وأسباب اهتمامهم ، فلما أن تحرروا أصبح المال شغلهم الشاغل فلم يكونوا يتورعون عن سلوك أى سبيل توصلهم إليه ، أو يراعون فى إنفاقه وازعاً

من ضمير أو ذوق سليم . وقد ندد بهم پترونيوس Petronius أشنع تنديد في تريملكيو ، وسخر سنكا ، وإن يكن أقل من پترونيوس حدة ، بالأثرياء المحدثين الذين يبتاعون مجاميع مزينة من الكتب ولكنهم لا يقرأونها أبداً[٥٤] . وأكبر الظن أن بعض هذا الهجاء كان رد فعل مبعثه غيرة طبقة من الناس رأت أن ما كانت تختص به من استغلال الناس والاستمتاع بضروب الترف والملاذ قد أخذ يعتدى عليه هؤلاء المحدثون ، ولم يكن فى وسعها أن تصفح عن أولئك الذين قاموا يشاركونها فى أموالها وسلطانها .

وما من شك فى أن ما لقيه المحررون من نجاح قد بعث بعض السلوى والأمل فى نفوس تلك الطبقة التى كانت تقوم بمعظم الأعمال اليدوية فى إيطاليا . وقد قدر بلوك Peloch عدد العبيد فى رومة حوالى سنة ٣٠ ق . م بما يقرب من ٤٠٠٫٠٠٠ أى نحو نصف عدد سكانها جميعاً ، وقدر عددهم فى إيطاليا بنحو ١٫٥٠٠٫٠٠٠ . وإذا جاز لنا أن نصدق ثرثرة أثنيوس فإن بعض الرومان كان يمتلك الواحد منهم ٢٠٫٠٠٠ عبد[٥٥] . ومن أكبر الشواهد على كثرتهم أن مجلس الشيوخ قد رفض اقتراحاً عرض عليه يرمى إلى إلزام العبيد بأن يلبسوا زياً خاصاً ، وكان سبب الرفض خوف المجلس أن يدركوا بذلك كثرة عددهم[٥٦] . وقدر جالينوس نسبة العبيد إلى الأحرار فى برجموم Pergamum حوالى سنة ١٧٠ م بواحد إلى ثلاثة أى ٢٥٪ ، وأكبر الظن أن نسبتهم فى المدن الأخرى لم تكن تختلف كثيراً عن هذه النسبة[٥٦] . وكان ثمن العبد يختلف من ٣٣٠ سسترس يبتاع بها من يعمل فى الضياع ، إلى السبعمائة ألف (١٠٥٫٠٠٠ ريال أمريكى) التى ابتاع بها ماركس أسكورس Marcus Scaurus دفنيس Daphnis النحوى[٥٧] . وكان متوسط ثمن العبد فى الوقت الذى نتحدث عنه ٤٠٠٠ سسترس (٤٠٠ ريال) ، وكان ثمانون فى المائة من العمال فى الصناعة وفى تجارة الأشتات من العبيد ، كما كانت معظم الأعمال اليدوية والكتابية فى المصالح

الحكومية يؤديها « عبيد عموميون » servi publici . أما عبيد المنازل فكانوا أنواعاً لا حصر لها ، كما كانت مراكزهم وأعمالهم كثيرة متنوعة : كانوا يقومون بخدمة سادتهم ، وكانوا صناعاً يدويين ، ومعلمين خصوصيين ، وطهاة ، وحلاقين ، وموسيقيين ، ونساخين وأمناء مكاتب ، وفنانين ، وأطباء ، وفلاسفة وخصياناً ، وغلماناً حساناً أقل ما يقومون به من الأعمال أن يكونوا سقاة ، ومقعدين يسلون سادتهم بأجسامهم المشوهة . وكانت فى رومة سوق خاصة يستطيع الإنسان أن يبتاع فيها عبداً أعرج ، وأقطع الذراع ، أو ذا أعين ثلاث ، أو طويلا مفرطاً فى الطول ، أو قزماً أو خنثى[٥٨] . وكان عبيد المنازل يضربون أحياناً وأحياناً يقتلون ؛ وقد قتل والد نيرون عبيده المحررين لأنهم أبوا أن يشربوا من الخمر القدر الذى يرغب فيه[٥٩] . ويصف سنكا فى فقرة له غاضبة « العذراء الخشبية وغيرها من آلات التعذيب ؛ والجب وغيره من السجون ؛ والنيران التى كانت توقد فى الحفر حول أجسام المساجين ؛ والخطاطيف التى كانت تجر بها جثثهم ؛ والأغلال الكثيرة الأنواع ، وضروب العقاب المختلفة ؛ واقتلاع الأعضاء وكى الجباه »[٥٩ا] . ويلوح أن هذه كلها كان يلقاها عبيد المزارع . ويصف چوڤنال سيدة كان عبيدها يضربون واحداً بعد واحد أثناء تصفيف شعرها[٦٠] ، ويصور أوڤد سيدة أخرى تدفع دبابيس الشعر فى ذراعى خادمة لها[٦١] ؛ ولكن هذه القصص يبدو عليها أنها من اختراع الأدباء ، ومن واجبنا ألا نعدها من الحقائق التاريخية المقطوع بصحتها .

ونحن معرضون لخطأ المبالغة فى قسوة الماضى لنفس السبب الذى يحملنا على المبالغة فى جرائم الحاضر وفساد أخلاقه — ذلك بأن ندرة القسوة تجعلها طريفة مستملحة . والحق أن متاعب عبيد البيوت أيام الإمبراطورية قد أخذت تقل شيئاً فشيئاً على أثر قبولهم أعضاء فى الأسر التى كانوا يخدمونها ، وبالإخلاص المتبادل بينهم وبين سادتهم ، وبالعادة الطريفة عادة أن يقوم

السيد بخدمة عبيده فى بعض الأعياد ، وبما كان يضمنه العبد من عمل دائم فى خدمة سيده قل أن يكون له نظير فى هذه الأيام . ولم يكن العبيد يحرمون من مسرات الحياة العائلية ؛ وتدل شواهد قبورهم على أنهم لم يكونوا يقلون رحمة وشفقة عن الأحرار . انظر مثلا إلى ما كتب على قبر واحد من أبنائهم : « لقد أقام والدا يوكوبيون Eucopion هذا الأثر لابنهما الذى عاش ستة أشهر وثلاثة أيام ؛ كان فيها أظرف الأطفال وأكثرهم إدخالا للسرور على قلوب من حولهم ؛ ولقد كان أكبر أسباب سعادتنا وإن لم يكن قادراً على الكلام »(٦٢) . وثمة شواهد أخرى تدل على ما كان بين السادة والعبيد من حب وعطف . من ذلك أن أحد الأسياد يجهر بأن خادمه الميت كان عزيزاً عليه كولده ، وأن أحد الشبان النبلاء يبدى حزنه الشديد على موت مربيته ، وأن مربية أخرى تظهر حزنها لموت طفل ترعاه ، وأن سيدة متعلمة أقامت نصباً تذكارياً جميلا لأمين مكتبتها (٦٣). وقد كتب استاتيوس Statius «قصيدة إلى فلاڤيوس أورسس Flavius Ursus يعزيه فى موت عبد عزيز عليه »(٦٤). ولم يكن من غير المعتاد أن يخاطر عبد بحياته لحماية سيده ؛ ومنهم كثيرون صاحبوا سادتهم فى منفاهم طائعين مختارين ، ومنهم من ضحوا بحياتهم من أجل سادتهم . ومن النساء من حررن عبيدهن وتزوجنهم ، ومن الرجال من كانوا يعاملونهم معاملة الأصدقاء ، وكان سنكا يأكل معهم(٦٥) . وقد كان للأخلاق الرقيقة ، والحس المرهف ، وعدم وجود فارق فى اللون بين السيد والعبد ، ولمبادئ الفلسفة الرواقية ، وللعقائد الدينية التى جاءت من بلاد الشرق والتى لم تكن تعرف الفروق بين الطبقات ، كان لهذه كلها نصيب فى تقليل الرق وتحسين حال الأرقاء ؛ ولكن العوامل الأساسية فى هذه القلة وذلك التحسين كانت هى المزايا الاقتصادية التى تعود على السيد ، وارتفاع ثمن العبيد . وكان كثيرون من العبيد ينالون احترام سادتهم لثقافتهم الراقية ، فقد كان منهم مختزلون لخطبهم ، ومساعدون لهم فى بحوثهم ، وأمناء لهم فى شئونهم المالية ،

ومدبرون لأعمالهم ، وكان منهم فنانون ، وأطباء ، ونحاة ، وفلاسفة . وكان فى مقدور العبد فى كثير من الأحوال أن يتجر لحسابه الخاص ، وأن يعطى جزءاً من مكاسبه لمالكه ، وأن يحتفظ بما بقى منها لتكون « ماله القليل Peculium » ، أى ملكا خالصاً له . وكان فى وسع العبد بهذه المكاسب ، أو بأمانته وإخلاصه فى خدمة سيده ، أو بالقيام له بخدمة غير عادية ، أو بجمال خلقه ، أن ينال حريته عادة فى ست سنين(٦٦) .

وقد تحسنت أحوال العمال وأحوال العبيد أنفسهم بعض التحسن بفضل منظمات العمال Collegia ونحن نسمع قبيل هذا الوقت الذى نتحدث عنه بوجود عدد كبير من هذه المنظمات وبتخصصها إلى حد يدعو إلى الفخر ، فكانت هناك هيئات خاصة بالمداحين ، والنافخين فى الأبواق ، والقرون ، والناى والمزمار ، وغيرها من الآلات ، وكانت هذه المنظمات تنشأ عادة على مثال الهيئات البلدية ، فكان يقوم عليها عدد من الرؤساء ذوى الرتب المتدرجة ؛ وكان لها إله واحد أو آلهة متعددون تقيم له أولهم معبداً وعيداً سنوياً . وكانت تعمل ما تعمله المدن فتطلب إلى ذوى المال أو ذواته رعايتها ، والأخذ بناصرها ، ومساعدة أعضائها فى رحلاتهم ، وإقامة قاعات اجتماعهم ومعابدهم . وكانوا يجدون هذه المساعدة على الدوام . ونحن نخطئ إذا ظننا أن هذه المنظمات كانت شبيهة باتحادات العمال فى هذه الأيام . وخير ما نصورها به هو أن نقول إنها كانت أشبه بالهيئات الأخوية ، ذات العدد الذى لا يحصى من المناصب ، وألقاب الشرف ، وضروب اللهو ، والرحلات ، والمعاونات المتبادلة البسيطة . وكثيراً ما كان الأغنياء يساعدون على قيام هذه المنظمات ولا ينسونها فى وصاياهم . وكان رجال المنظمة كلهم « إخوة » كما كان نساؤها « أخوات » . وكان فى مقدور العبد فى بعضها أن يجلس أمام مائدة الطعام ، أو فى مجلس إدارتها ، مع الرجل الحر . وكان كل « عضو ذى مقام » يضمن لنفسه جنازة طيبة ..

وقد وجد الزعماء الشعبيون على اختلاف طبقاتهم فى آخر قرن من حياة الجمهورية أن فى وسعهم أن يقنعوا هذه المنظمات بأن يقترع أفرادها على بكرة أبيهم للمرشح الذى يقدم لها المال . وبهذه الطريقة أصبحت أدوات سياسية فى أيدى الأشراف ، وأصحاب المال ، والمتطرفين من السياسيين ، وكان لتنافسها فى الفساد أكبر الأثر فى القضاء على الدمقراطية الرومانية . وقد حرم قيصر وجودها ولكنها بقيت رغم هذا التحريم ، وحلها أغسطس كلها إلا عدداً قليلا من المنظمات النافعة ، وعاد تراچان فحرم وجودها ، ثم سمح أورليوس بوجودها ، وما من شك فى أنها ظلت قائمة طوال هذه العهود كلها داخل نطاق القانون أو خارجة عنه ، ثم أمست فى آخر الأمر مسالك دخلت منها المسيحية إلى البلاد وتغلغلت فى حياة رومة .

الفصل الثامن

النظام الاقتصادى والدولة

ترى إلى أى حد حاولت الحكومة فى عهد الإمبراطورية أن تسيطر على الحياة الاقتصادية ؟ لقد حاولت أن تعيد ملكية الأرض إلى الفلاحين ، ولكنها عجزت عن ذلك إلى حد كبير . ولقد كان الأباطرة فى هذه الناحية أكثر استنارة من مجلس الشيوخ لأن هذا المجلس كان خاضعاً لسيطرة أصحاب الضياع الكبيرة . وأراد دومثيان أن يشجع زراعة الحبوب فى إيطاليا ولكنه لم يفلح فيما كان يرمى إليه ، ولهذا كانت إيطاليا على الدوام تخشى الهلاك جوعاً . وأرغم ڤسپازيان مجلس الشيوخ على أن يرضى به إمبراطوراً بسيطرته على مصر وكانت وقتئذ مصدر القمح الذى تحتاجه إيطاليا ، وأراد سپتميوس أن يحذو حذوه باستيلائه على شمالى أفريقية . وكان على الدولة أن تضمن استيراد الحبوب إلى إيطاليا وتوزيعها . وقد اضطرها هذا إلى أن تشرف بنفسها على الاستيراد والتوزيع . وكانت تمنح بعض الامتيازات للتجار الذين يستوردون الحبوب إلى إيطاليا وقد ضمن لهم كلوديوس أن يعوضهم مما عساهم أن يتعرضوا له من الخسارة ؛ وأعفى نيرون سفنهم من ضريبة الأملاك ، وكان تأخر سفن أسطول الحبوب عن الوصول فى موعدها أو تحطمها هو السبب الوحيد الذى يدفع الشعب الرومانى إلى شق عصا الطاعة .

وكانت السياسة الاقتصادية الرومانية تسير على مبدأ التخلى **Laissez faire** مع استثناء امتلاك الدولة للمناجم ومقالع الأحجار ، ومصايد السمك ، ورواسب الملح ، ومساحات واسعة من الأراضى المنزرعة(٦٨) . وكانت الفيالق الرومانية تصنع الآجر والقرميد اللازمين لمبانيها ، وكثيراً ما كانا

يستعملان فى المنشآت العامة وخاصة فى المستعمرات ، والراجح أن صناعة الأسلحة وعدد الحرب كانت وقفاً على دور الصناعة التى تمتلكها الدولة ، وليس ببعيد أنه قد وجدت فى القرن الأول مصانع تمتلكها الحكومة كالتى نسمع عنها فى القرن الثالث(٦٩) . وكانت الأعمال العامة تعطى فى العادة للمقاولين تراقبهم الحكومة مراقبة بلغت من الدقة حداً اضطرهم إلى القيام بها عادة على الوجه الأكمل ، وبأقل ما يستطاع من الارتشاء والفساد(٧٠) . ثم أصبحت هــذه الأعمال حوالى سنة ٨٠ م يقوم بعدد متزايد منها المحررون من عبيد الإمبراطور ، ويعمل فيها عبيد الحكومة ، ويلوح أن الغرض الوحيد من إقامة هذه المشروعات فى جميع الأوقات هو تخفيف حدة التعطل(٧١) .

وكانت تفرض على التجارة ضريبة يسيرة مقدارها ١٪ من ثمن المبيعات ، ورسوم جمركية قليلة ، وعوائد فى بعض الأحيان على مرور البضائع فوق الجسور واجتيازها المدن . وكان الإيدليون Aediles يراقبون تجارة الأشتات وفق نظام بلغ الغاية فى الجودة ، ولكننا إذا جاز لنا أن نصدق ما ورد على لسان شخص حانق فى بترونيوس فإنهم لم يكونوا خيراً من أمثالهم من الموظفين فى غير ذلك الوقت ؛ « فقد كانوا يقبلون الرشوة من الخبازين وأمثالهم من السفلة ... وأفواه الرأسماليين مفتوحة على الدوام »(٧٢) وكانت الشئون المالية تتأثر بتدخل الحكومة فى قيمة العملة ، وبمنافسة مالية الدولة للمصارف ، ويلوح أن بيت المال كان يضطلع بأكثر الأعمال المصرفية فى الإمبراطورية بأجمعها . فكان يقرض المال بالربا للزراع بضمان محصولاتهم ولسكان المدن بضمان أثاث بيوتهم(٧٣) . وكانت الحروب عوناً للتجارة لأنها كانت تفتح لها موارد وأسواقاً جديدة وسيطرة على الطرق التجارية . من ذلك أن حملة جالس Gallus على بلاد العرب فتحت الطريق إلى بلاد الهند وتغلبت على منافسة العرب والبارثيين . وكان بلنى

يشكو أن الحروب تشن كى تجد السيدات الرومانيات ويجد الغنادرة(*) من الشبان مجالا واسعاً للحصول على القصور(٧٤) .

ويجب ألا نبالغ فى تقدير ثروة روما القديمة ، ذلك أن مجموع إيرادات الدولة فى أيام ڤسبازيان لم تزد على ٠٠٠ر٠٠٠ر٥٠٠ر١ سسترس (٠٠٠ر٠٠٠ر١٥٠ ريال أمريكى) ... وهى أقل من خمس ميزانية مدينة نيويورك اليوم . ولم تكن الوسائل التى تمكن الناس من جمع ثروات طائلة بطريق الإنتاج الكبير معروفة فى ذلك الوقت أو أنها لم تكن يعنى بها ، ولم تكن قد نشأت وقتئذ صناعة العالم الحديث وتجارته اللتان يمكن أن تفرض عليهما الضرائب العالية . ولم تكن الحكومة الرومانية تنفق على الأسطول الحربى إلا القليل من المال ، ولم تكن تنفق شيئاً على خدمة الدين العام ، فقد كانت تعيش على مواردها لا على ديونها وإذ كانت معظم الصناعات منزلية فإن منتجاتها كانت تنتقل إلى المستهلك دون أن يعترضها من الوسطاء والضرائب ما يعترضها فى هذه الأيام ، فقد كان الناس ينتجون للبيئة التى يعيشون فيها أكثر مما ينتجون للسوق العامة ، وكانوا يعملون لأنفسهم أكثر مما نعمل اليوم ، ولغيرهم ممن لا يرونهم أقل مما نعمل نحن . وكانوا يستخدمون أجسامهم أكثر منا ، ويعملون زمناً أطول منا ، وكانوا فى عملهم أقل منا حدة وانكباباً على العمل ، ولم يكونوا يشعرون بأنهم محرومون من آلاف الكماليات التى لا تتراءى لهم أحلامهم ، ولم يكن فى مقدورهم أن يشرعوا فى اقتناء الثروة التى تضارع ثروتنا نحن حتى فى السنين العجاف ؛ ولكنهم كانوا يستمتعون بقدر من الرخاء لم تعرف أمم البحر الأبيض المتوسط نظيراً له من قبل ونستطيع أن نقول بوجه عام إنها لم تر ما يماثله بعد . وملاك القول أن العالم القديم وصل فى تلك الأيام إلى أعلى درجات عظمته المادية .

(*) الغلام الغندر كجندب وقنفد سمين غليظ ناعم وهو الذى يطلق عليه عامة الناس لفظ « غندور » . (المترجم)

الباب السادس عشر

رومة وفنونها

٣٠ ق . م – ٩٦ م

الفصل الأول

ما تدين به لليونان

لم يكن الرومان بطبعهم شعباً فنياً ، فقد كانوا قبل أغسطس محاربين وكانوا بعده حكاماً ، يرون أن استقرار النظام واستتباب الأمن على أيدى الحكام خير أعظم وواجب أنبل من خلق الجمال أو الاستمتاع به. وكانوا يبتاعون أعمال الأساتذة الموتى بأعلى الأثمان ، ولكنهم كانوا يحتقرون الفنانين الأحياء ويحشرونهم فى زمرة الخدم . ومن أقوال سنكا وهو الرجل الرحيم الشفيق : « إنا وإن كنا نعبد التماثيل لنحتقر الذين يصنعونها » ، وكان يبدو لهم أن أشرف سبل الحياة سبيل القانون والسياسة ؛ أما الفنون اليدوية فكان أشرفها لديهم الزراعة (إذا صح أن تعد الزراعة فناً من الفنون) . وكان معظم رجال الفن فى رومة ، إذا استثنينا المهندسين المعماريين ، من اليونان الأرقاء أو المحررين أو المستأجرين ، وكانوا كلهم يعملون بأيديهم ويعدون من طبقة الصناع ، ولم يعن المؤلفون اللاتين قط بذكر أسمائهم أو حوادث حياتهم ؛ ومن أجل هذا يكاد رجال الفن الرومانى كلهم أن يكونوا مجهولى الأسماء ، فليس ثمة شخصيات حية تصبغ تاريخه صبغة إنسانية أو تضيئها كما يضىء ميرون Myron ، وفدياس ،

وبركستيلز Praxiteles ، وبرونوچنيس Protogenes قصة الفنون الجميلة فى بلاد اليونان . ففيه يضطر المؤرخ إلى الحديث عن الأشياء لا عن الأشخاص وأن يحصى النقود ، والآنية ، والتماثيل ، والنقوش ، والصور ، والمبانى ، ويبذل فى ذلك جهد اليائس لعله يستطيع بما يبذله من الكد فى جمعها أن يصور للقارئ صورة عظمة رومة المليئة بأسباب العظمة . ذلك أن منتجات الفن تستهوى العين أو الأذن ، أو اليد ، أكثر مما تستهوى العقل ، ويذهب ، جمالها أو يكاد إذا خففته فأحلته أفكاراً وألفاظاً . وليس عالم التفكير إلا واحداً من عوالم كثيرة لكل فكرة عالمها الخاص ، ومن أجل هذا كان لكل فن وسيلته الخاصة التى ينفذ بها إلى النفوس ، والتى لا يمكن أن تستحيل ألفاظاً وكلاما ، وحتى الفنان نفسه إذا كتب عن الفن فإنه يعجز عن تصويره .

وثمة سحابة قاتمة مشئومة تغشى سماء الفن الرومانى خاصة : تلك هى أننا نصل إليه عن طريق الفن اليونانى الذى يبدو فى أول الأمر أنه المثل الذى احتذاه ، والمرشد الذى اهتدى بهديه . وكما أن مشاعرنا تضطرب لما نشاهده فى فن الهند من صور وأشكال غريبة ، فكذلك تخمد جذوة عواطفنا لما فى الفن الرومانى من تكرار ممل للصور والأشكال المألوفة ، ولقد تحدثنا من قبل عن الأعمدة والتيجان الدُّورية والأيونية والكورنثية ، كما تحدثنا عن النقوش الملساء التى اتخذت مثلا أعلى يحتذى ؛ وقد كانت التماثيل النصفية للشعراء والحكام والآلهة ، والمظلات المدهشة التى تكشف عنها آثار پمپى منقولة كما يقول لنا المختصون عن أصول يونانية . ولم يكن هناك فن رومانى الأصل سوى الطراز « المركب » ، وهو الذى ننفر منه لتعارضه مع فكرتنا عن الوحدة والبساطة والتقيد التى ألفناها فى الفن القديم . وما من شك فى أن فن رومة فى عصر أغسطس كان فناً يونانياً بقضه وقضيضه ، فقد انتقلت أشكال الجمال وطرائقه ومثله العليا من بلاد اليونان إلى الفن الرومانى عن طريق صقلية وإيطاليا اليونانية ، وعن طريق كمپانيا وإتروريا

وأخيراً من بلاد اليونان نفسها والإسكندرية والشرق المصطبغ بالصبغة اليونانية ؛ ولما أن اصبحت رومة سيدة بلاد البحر الأبيض المتوسط أقبل الفنانون اليونان إلى مركز الثروة والرغاية الجديد وأخرجوا صوراً لا حصر لها من روائع الفن اليوناني للهياكل والقصور والميادين الرومانية ، وكان كل فاتح يحمل معه إلى بلاده نماذج من هذه الروائع ، وكل موظف كبير ينقب في المدائن عما كان باقياً فيها من كنوز الصناعة اليونانية ؛ حتى أصبحت إيطاليا على مر الأيام متحفاً للرسوم والتماثيل المشتراة أو المسروقة التي صارت النسق الذي يحتذيه الفن الروماني مدى قرن كامل . وقصارى القول أن رومة قد ابتلعها العالم المتأغرق من الناحية الفنية .

على أن هذا كله ليس إلا نصف الحقيقة . أما النصف الآخر فهو أن تاريخ الفن الروماني ، كما سنرى فيما بعد ، كان من ناحية نزاعاً بين العقود والعوارض المركبة على الأعمدة ، ومن الناحية الأخرى نزاعاً بين الفن الواقعي الإيطالي الأصل الذي يحاول أن يسترد ما فقده لما أن غزا شبه الجزيرة الفن اليوناني الذي كان يصور الآلهة لا الناس ، وبين الطراز الأفلاطوني والفكرة الأفلاطونية المجردة لا الفرد الأرضي الدنيوي الذي كان يسعى إلى تمثيل الكمال النبيل في الشكل بدل الحقيقة في الإدراك والقول . لقد أصابت الفن الروماني القوي الأصيل الذي أعان على نحت الصور على القبور التسكانية سنة من النوم بين فتح بلاد اليونان وافتتان نيرون بفنونها ؛ ولكنه في آخر الأمر حطم القالب اليوناني الصبغة وأحدث في الفن القديم انقلاباً كاملا بما أدخله فيه من النحت الواقعي ، والتصوير التأثري وهندسة العقود والقباء . وأضحت رومة بفضل هذه الخصائص ، وبفضل جمالها المستعار ، العاصمة الفنية للعالم الغربي ، وظلت كذلك ثمانية عشر قرناً من الزمان .

الفصل الثانى

روما الكادحة

كان الرحالة القديم ، الذى يطوف برومة فى عهد الأسرة الفلافية ، إذا سار صعداً فى نهر التيبر من أستيا متجهاً إلى الشمال ، يشاهد من بادئ الأمر سرعة التيار المحمل بالغرين الذى يأتى به من التلال والوديان ويلقيه فى البحر . وهذه الحقيقة البسيطة هى منشأ مأساة التحات البطيئة ، والصعاب التى تعترض التجارة الصاعدة فى النهر والمنحدرة فيه ، وانطمار فم التيبر من حين إلى حين ، والفيضانات التى كانت فى كل ربيع تقريباً تطغى على أرض رومة المستوية ، وتقصر المساكن على الطبقات العليا التى يصل إليها ساكنوها بالقوارب ، وتتلف الحبوب المخزونة فى الأهراء على أرصفة الميناء ؛ فإذا انحسرت المياه جرفت معها المنازل ودمرتها وأهلكت الحرث والنسل(٢) .

فإذا اقترب الزائر من المدينة استرعى نظره الحى التجارى الذى كان يمتد مدى ألف قدم محاذياً ضفة النهر الشرقية ، وكان يعج بضجيج العمال والحوانيت والأسواق والسلع الرائحة والغادية . وكان يقوم من ورائه التل الأفنتى Aventine الذى « استقر عليه » العامة الغضاب حين غادروا رومة مضربين فى عامى ٤٩٤ و ٤٤٩ ق . م . وعلى ضفة النهر اليسرى فى هذه البقعة كانت الحدائق التى أوصى بها قيصر للشعب ، ومن ورائها الجانكيولم Janiculum .. وكان بالقرب من الضفة الشرقية عند جسر إيماليوس الجميل سوق الماشية ومعبداه (القائمان إلى هذا الوقت) المقامان للحظ ولإلهة الفجر . وإلى شمال هذه السوق على الضفة اليمنى يظهر تل بلتين وتل كبتلين المليئان بالقصور والهياكل . وقامت على الضفة اليسرى حدائق أجربا ومن

ورائها تل الفاتكان ، وإلى شمال وسط المدينة بالقرب من الشاطئ البحر الشرقى كانت تمتد الخمائل الواسعة والمبانى الفخمة الجميلة التى يزدان بها ميدان المريخ حيث أقيم ملهى بلبس ، وملهى بمبى ، وحلبة فلامينوس ، وحمامات أجريا ، وملعب دومتيان . وهنا كانت الفيالق تتدرب على الحركات العسكرية ، ويتبارى المتبارون فى الألعاب الرياضية ، وتستبق المركبات ، ويلعب اللاعبون الكرة(٣) ، وتعقد الجمعية جلساتها برياسة الأباطرة لتبحث القرارات التى يتمخض عنها شبح الدمقراطية .

فإذا نزل الزائر إلى المدينة عند طرفها الشمالى أبصر بقايا السور الذى يعزى إلى سرفيوس تليوس ، وأكبر الظن أن رومة قد أعادت بناءه بعد أن أغار الغاليون عليها فى عام ٣٩٠ ق . م ، ولكن الرومان تركوا هذا السور يتهدم اعتماداً على قوة الجيوش الرومانية وعلى مناعة العاصمة ؛ ولم يشيد سور آخر إلا فى عهد أورليان (سنة ٢٧٠ م) ، فكان ذلك دليلا على ذهاب هذه المتعة . وكانت قد فتحت فى الجدار أبواب ذات أقواس مفردة أو ثلاثية لتنفذ منها الطرق الكبرى التى سميت بأسمائها . وإذا طاف الزائر بجدود المدينة من شرقيها إلى جنوبيها شاهد حدائق سالست الغناء ، ومعسكر الحرس البريتورى المتعب ، وعقود مجارى الماء التى أقامها مارسيوس وأپيوس وكلوديوس ، وأبصر عن يمينه التلال البنسيانية والكويريتالية ، والڤيمينالية ، والاسكويلينية ، والكثيلية يتلو بعضها بعضاً . فإذا ما ابتعد عن الأسوار واتجه نحو الشمال الغربى عن طريق أپيوس اجتاز باب كاپينا ومر بالسفح الجنوبى من تل پلاتين إلى الشارع الجديد Nova Via ، ثم اتجه بعدئذ شمالا مجتازاً متاهة من العقود والمبانى حتى يصل إلى السوق القديمة رأس رومة المفكر وقلبها النابض .

وكانت هذه السوق فى بادئ الأمر سوقاً حقة للبيع والشراء ، طولها ستمائة قدم ، وعرضها مئتان ؛ أما فى الوقت الذى نتحدث عنه (٩٦ م) فكان البائعون قد غادروها إلى الشوارع القريبة منها أو إلى غيرها من الأسواق ، ولكن الناس

كانوا فى الباسلقات(*) المجاورة يبيعون الأسهم فى اتحادات الحمارين ، ويتعاقدون مع الحكومة ، ويدافعون عن أنفسهم فى المحاكم ، أو يستشيرون المحامين ليرشدوهم إلى آهون السبل للفرار من القانون .

وكانت قد أقيمت حول السوق ، كما أقيمت حول وول استريت Wall Street فى نيويورك الحديثة ، هياكل متواضعة للآلهة ، وصروح كبيرة للأعمال المالية ، وازدانت بعدد كبير من التماثيل . وكان المارة يجدون من ظلال العمد المقامة فى العمائر العظيمة ما لا يجدونه من ظلال الأشجار القديمة . وظلت من عام ١٤٥ ق . م إلى أيام قيصر مكان انعقاد الجمعيات ، فكان فى كل طرف من طرفيها منصة للخطباء تسمى المنطح لأن واحداً منها قد زين من قبل بمناطح السفن التى استولى عليها الرومان فى أنتيوم عام ٣٣٨ ق . م . وكان عند طرفها الغربى « الحجر الذهبى » وهو عمود من البرنز المذهب أقامه أغسطس علامة على التقاء عدة طرق قنصلية وعلى بدايتها ، وقد نقشت عليه أسماء المدن الكبرى التى توصل إليها هذه الطرق ، وبعد كل منها عن رومة . وكان يسير بحذاء جانبه الشمالى الغربى الطريق المقدس Sacra Via الموصل إلى هيكل المشترى وهيكل زحل على تل الكبيتول . وإلى شمال هذه السوق يجد الزائر سوقاً أخرى أكبر منها وهى سوق لوليوم Lulium التى أنشأها قيصر ليخفف بها الضغط الواقع على السوق القديمة ؛ وكان بالقرب منها أسواق ثانوية أنشئت لأجل أغسطس وفسبازيان ، ثم عمد تراجان بعد قليل من الوقت إلى توسيع أكبر هذه الأسواق وتزيينها .

ولم يكن يسع السائح حتى فى هذا التجوال السريع إلا أن يحس بما بين أهل المدينة من فوارق جمة ، وبأن كثيراً من الأجناس المختلفة قد حشرت فيها حشراً

---

(١) الباسلقا بناء رومانى يتكون من بهو واسع مستطيل الشكل ذى صفين من العمد وسقف مقبب كان يستخدم فى الأغراض القضائية والتجارية ، وقد استحالت معظم الباسلقات فيما بعد كنائس مسيحية . (المترجم)

وأن شوارعها قد شقت فيها على غير نظام موضوع ، ولذلك كانت عاجزة عن الوفاء بأغراض السكان عجزاً يضايقهم ويسبب لهم أشد المتاعب والآلام . لقد كان عدد قليل من هذه الشوارع يختلف عرضه بين ست عشرة وتسع عشرة قدماً ، أما كثرتها فكانت أزقة ملتوية من الطراز الشرقى . ويشكو چوڤنال من أن عربات النقل التى تعج بها الشوارع المرصوفة أثناء الليل تجعل النوم مستحيلا ، وأن الجماهير التى تزدحم بها طرقات المدينة تجعل السير فيها بالنهار أشبه الأشياء بالحرب والكفاح ؛ « فمهما أسرعنا سد علينا الطريق جيش لجب من أمامنا ، وكتل بشرية كثيفة تدفعنا دفعاً من خلفنا ، فمنهم من يضربنى بمرفقه ، ومنهم من يدفعنى بعمود هودج ، هذا يسقط على أم رأسى كتلة خشبية ، وذاك قارورة خمر ؛ ورجلاى يغطيهما الوحل ، وتطؤنى أرجل ضخمة مقبلة من جميع الجهات . وهذا جندى يطأ أصابع قدمى بمسامير حذائه »[٤] . وكانت الشوارع الرئيسية فى المدينة مرصوفة بكتل من الحمم البركانية خماسية الأضلاع مثبتة فى الأرض بقوة أمكنتها من البقاء فى مكانها إلى اليوم . ولم تكن الشوارع تضاء ، ولذلك كان كل من يجرؤ على الخروج من منزله ليلا يحمل بيده مصباحاً أو يسير خلف عبد يحمل مشعلا ، ولم يكن فى كلتا الحالين بمأمن من اللصوص ، وما كان أكثر عددهم فى طرقات المدينة المظلمة . وكانت الأبواب تغلق بالأقفال والمفاتيح ، والنوافذ تشد بالمزالج ليلا ، وما كان منها فى الطابق الأرضى تحميه قضبان من الحديد كالتى تشاهد فى أمثالها من نوافذ هذه الأيام . ويضيف چوڤنال إلى هذه الأخطار ما كان يلقى على المارة من السوائل والجوامد من نوافذ الطبقات العليا ، ويختم حديثه بقوله إن الأبله وحده هو الذى كان يخرج من بيته للعشاء دون أن يكتب وصيته[٥] .

ولم يكن بالمدينة مركبات عامة تنقل العمال من مساكنهم إلى مقر أعمالهم ، ومن أجل ذلك كان معظم السوقة يقيمون فى مساكن عامة من الآجر بالقرب من

وسط المدينة أو فى حجرات خلف حوانيتهم أو فى أعلاها . وكان كل مسكن عام يشغل فى العادة مربعاً كاملا من الأرض ، ولذلك كان يطلق عليه لفظ إنسولا Insula أو جزيرة . وكان الكثير من هذه المبانى يعلو ستة طباق أو سبعة ، وكانت ضعيفة البناء ضعفاً جعل الكثير منها ينهار على من فيه ويقضى على حياة مئات منهم . وقد حدد أغسطس ارتفاع واجهات المبانى بسبعين قدماً رومانية ، ولكن يبدو أن هذا القانون كان يسمح بارتفاع الأجزاء الخلفية منها إلى أكثر من هذا القدر لأن مارتيال يحدثنا عن « بائس مسكين يسكن حجرة عليا يرتقى إليها بمائتى درج »[٦] . وكان فى الطبقات السفلى لكثير من المساكن حوانيت ، وكان لبعضها شرفات فى الطبقة الثانية وكان قليل منها يصلها من أعلاها بالمساكن المقابلة لها فى الشارع ممرات ذات عقود تحتوى حجرات إضافية يتخذها بعض العامة منازل لهم غير مأمونة . وكانت هذه الجزائر تكاد تغص بها الطريق الجديدة النوڤاڤيا Novavia ، والكليڤس ڤكتوريا Clives Victoriae (تل النصر) ، فى أعلى تل البلاتين ، وحى الصابورا وهو حى صاخب ملىء بالمواخير بين الڤمنال Viminal والإسكويلين Esquiline حيث كان يسكن صيادو الأسواق وقصابو مسيلوم Macellum وبائعو السمك من رجال سوق السماكين ، وبائعو الماشية أهل سوق البقر ، وبائعو الخضر ، أهل سوق الخضر ، وجميع عمال رومة وكتبتها وأهل الحرف فيها . وكانت أحياء رومة الفقيرة تمتد إلى أطراف السوق العامة الكبرى .

وكانت الحوانيت تقوم على جانبى هذه السوق ، وكانت تتردد فيها أصداء ضجيج العمال وبلجاجة المساومين . وكان بائعو الفاكهة ، والكتب ، والعطور ، والطحانون ، والصباغون ، وتجار الزهور والآلات الحادة والأقفال ، والصيادلة ، وغيرهم ممن يقضون حاجات الناس وشهواتهم وأسباب غرورهم وكبريائهم ؛ كان هؤلاء جميعاً يزحمون الشوارع بمظلاتهم وأكواخهم الممتدة فيها : وكان

الحلاقون يمارسون مهنتهم فى الهواء الطلق حيث يستطيع الناس جميعاً أن يستمعوا لثرثرتهم . وبلغت حانات الخمر من الكثرة درجة خيل معها إلى مارتيال أن رومة حجرة استقبال واحدة ضخمة(٧) . وكان أهل كل حرفة ينزعون إلى التجمع فى حى أو شارع واحد وكثيراً ما كان يطلق اسم هذه الحرفة على الحى أو الشارع الذى تستقر فيه . فكان صناع الأحذية ذات السيور (الصنادل) يتجمعون فى الفيكس سندلريوس Vicus Sandalarius ، وصناع السروج فى الفيكس لورازيوس Vicus Lolarius ، وصناع الزجاج فى الفيكس ڤتراريوس Vicus Vitrarius ، والصياغ فى الفيكس مرجرتريوس Vicus Margaritarius

وفى هذه الحوانيت وأمثالها كان الفنانون الطليان يقومون بأعمالهم لا يستثنى منهم أحد إلا أعظمهم شأناً ممن كانوا يؤجرون على أعمالهم أسخى الأجور ، ويحيون حياة الترف والتجوال أمثال أرسسلوس Arcesilaus الذى منحه لوكلس مليون سسترس لكى يصنع تمثالا للإلهة پلستاس Pelicitas ، وزندورس Zenordorus الذى أعطى ٤٠٠ر٠٠٠ ليقيم تمثالا ضخماً لعطارد(٨) . وكان المهندسون المعماريون والمثالون يقدرون كما يقدر الأطباء والمدرسون ، والكيميائيون لأنهم جميعاً يمارسون فنون الأحرار Artes liberales ؛ مع أن الذين يقومون بمعظم الأعمال الفنية فى رومة كانوا إما عبيداً أو محررين ، وكان بعض من يملكون العبيد يعلمونهم النحت والتصوير وغيرهما من الفنون التى تتطلب الحذق ، وكانوا يبيعون ما يخرجونه لهم فى إيطاليا وفى خارجها . وكان العمال فى هذه الحوانيت منقسمين أقساماً متباينة كل التباين ومنفصلة بعضها عن بعض ، فمنهم الإخصائيون فى صنع آنية النذور ، ومنهم من يصنعون مظلمات الزينة ، ومنهم من يقطعون الأعين الزجاجية للتماثيل ، ومن الرسامين من كان يصنع النقوش على الطراز العربى أو الأزهار أو المناظر الطبيعية ، أو الحيوانات ، أو الرجال ؛ وكان يحدث أن يعمل عدد من هؤلاء بالتناوب فى الصورة الواحدة . وقد برع جماعة من الفنانين

فى تزييف التحف الفنية ، فكانوا يقلدون ما صنع منها فى عصر من العصور القديمة التى يرغب الناس فى اقتناء مخلفاتها[٩] . وكان أهل القرن الأول قبل الميلاد يخدعون بسهولة فى هذه المخلفات ، لأنهم كغيرهم من الأغنياء المحدثين يميلون إلى تقويم الأشياء حسب أثمانها وندرتها ، بدل أن يقوموها حسب جمالها ومنافعها . ولما أضحى الثراء من غير المميزات فى عهد الإمبراطورية صلحت أذواق الناس وجاء حب الجمال والجودة الحقة إلى آلاف عدة من الأسر بالآنية الرقيقة والتحف الجميلة التى لم يعرف أمثالها فى مصر وأرض الجزيرة واليونان إلا عدد قليل من الناس . وكان شأن الفن فى الزمن القديم كشأن المنتجات الصناعية فى هذه الأيام . نعم إن الناس لم يكونوا ينعمون بالمنتجات الكثيرة النافعة التى تخرجها آلاتنا فى هذه الأيام ، ولكنهم كان فى وسعهم ، إذا شاءوا أن يحيطوا أنفسهم شيئاً فشيئاً بالتحف التى عنى الفنانون أشد العناية بصنعها وصقلها ، والتى كانت تهب من يقتنيها كل ما تهبه الروائع الفنية الجميلة من أسباب السعادة الخفية الهادئة .

الفصل الثالث

بيوت العظماء

لو أن زائراً فى ذلك الوقت أراد أن يدرس مساكن الطبقة الوسطى من سكان رومة لوجدها بعيدة عن وسط المدينة على جانبى الطرق الرئيسية المتفرعة منه إلى أطرافها . وكانت جدرانها الخارجية المقامة من الآجر والجبس لا تزال تبنى كما كانت تبنى قبل على النمط البسيط المتين الذى تحتمه ضرورات الأمن وحرارة الجو ؛ ولم يكن أهل الطبقة الوسطى من الرومان أسخياء بما عندهم من الفن يضيعونه لكى يتمتع به من يمرون ببيوتهم . وقلما كانت البيوت تعلو أكثر من طابقين ، وكانت السراديب التى تتخذ لخزن المؤن نادرة ، والسقوف تتلألأ عليها قطع القرميد ، والنوافذ ذات مصاريع أو ألواح من الزجاج فى بعض الأحيان . وكان لمدخل الدار فى العادة باب ذو مصراعين يدور كل منهما على عقبين من المعدن . وكانت أرض الدار تصنع من مزيج متماسك من الكلس والحصا والرمل أو من القرميد ؛ وكثيراً ما كانت تصنع من مربعات الفسيفساء ، ولم تكن تفرش عليها طنافس . وكانت الحجرات الرئيسية فى البيت تتجمع حول الردهة الوسطى . وهذا النظام هو الأصل الذى نشأت منه هندسة الأديرة والساحات المربعة المحاطة بالأبنية فى مقر المجامع العلمية . وكانت إحدى الحجرات فى بيوت الأغنياء من أهل هذه الطبقة تستخدم للاستحمام ، وذلك فى أحواض شبيهة كل الشبه بما نستخدمه منها الآن . أما الأدوات الصحية فقد بلغت عند الرومان درجة من الرقى لا نظير لها قبل القرن العشرين . فقد كانت أنابيب من الرصاص تحمل الماء من القنوات المائية المبنية ومن الأحواض الرئيسية إلى معظم المبانى والمساكن ، وكانت الصنابير والمحابس تصنع من البرنز ويشكل بعضها أشكالا

جميلة . وكانت الأنابيب والميازيب المتخذة من الرصاص تحمل الماء من أسطح المبانى ؛ وقلما كانت الحجرات تدفأ تدفئة صناعية ، فإذا أرادوا تدفئتها اتخذوا لذلك مواقد متنقلة يحرقون فيها فحم الخشب . وكان عدد قليل من البيوت ، وكثير من منازل الضواحى ذات الحدائق ، وقصور الأغنياء والحمامات العامة ، كانت هذه كلها تستمتع بمراكز رئيسية للتدفئة ذات أفران يحرق فيها الخشب أو فحمه ، وتمد عدداً كبيراً من الحجرات بالهواء الساخن يسير فى أنابيب من القرميد أو فى ممرات فى أرض المنزل وجدرانه(*) .

ثم أضيفت إلى بيوت الأغنياء فى أوائل عهد الإمبراطورية متعة جديدة مأخوذة عن اليونان . ذلك أن الأغنياء لحرصهم على أن يهيئوا لأنفسهم مكاناً منعزلاً لا يجدونه فى الردهة الوسطى كانوا يبنون خلفها بهواً من غير سقف يغرسون فيه الأزهار والشجيرات ، ويزينونه بالتماثيل ، ويحيطونه بالأروقة ذات العمد ، وينشئون فى وسطه فسقية أو بركة للاستحمام . وكانوا يشيدون حول هذا البهو طائفة جديدة من الحجرات : واحدة للطعام ، و « بيتاً » للنساء ، ومتحفاً لمجموعاتهم الفنية ، ومكتبة لكتبهم ، وهيكلا لآلهة بيوتهم . وقد يكون لهم أيضاً حجرات إضافية للنوم ، وقباب صغيرة بارزة فى الحجرات تتخذ أيضاً مخادع فى الليل وترفع منها الأسرة بالنهار . وأما البيوت التى لا يبلغ أصحابها من الثراء مبلغ أصحاب البيوت السابقة فكانوا يستبدلون بذلك البهو الكبير حديقة ، وإذا لم يجدوا فيها متسعاً لها وضعوا أصص الأزهار فى النوافذ ، أو غرسوا الأزهار والشجيرات على أسطح الدور . ويقول سنكا إن بعض الأسطح الكبيرة كان فوقها عرائش كروم وأشجار فاكهة ، وأشجار للظل مغروسة

(*) ويصف فتروفيوس Vitruvius هذه الوسيلة من وسائل التدفئة كما كانت فى عام ١٠٠ ق . م[١١] . ولم يكد يحل العام العاشر بعد الميلاد حتى انتشرت انتشاراً واسعاً وخاصة فى الشمال حتى وصلت إلى بريطانيا نفسها وها هى ذى الآن قد أخذت تعود عوداً بطيئاً .

فى صناديق ملأى بالطين[١٢] . وكان لعدد غير قليل منها مشامس يعرض فيها أصحابها أجسامهم لأشعة الشمس .

ومن الرومان عدد كبير سئموا حياة الضجيج والسرعة فى رومة ففروا منها إلى هدوء الريف وسكونه . وقد نشأ عند الأغنياء والفقراء على السواء ميل شديد إلى الطبيعة يفوق كل ما عرفناه عن هذا الميل عند اليونان . وكان چوڤنال يرى أن الأحمق وحده هو الذى يسكن فى العاصمة ، وفى وسعه أن يبتاع بالأجر الذى يؤديه فى علية مظلمة فى رومة ، بيتاً جميلا فى بلدة إيطالية هادئة ، وتحيط به « حديقة أنيقة خليقة بأن يقيم فيها مأدبة لمائة من أتباع فيثاغورس »[١٣] . وكان أغنياء رومة يتركونها فى بداية الصيف ليقيموا فى بيوت خلوية على سفوح الأپنين أو على سواحل البحر أو البحيرات . وقد ترك لنا پلنى الأصغر وصفاً ممتعاً لبيته الريفى فى لورنتم على ساحل لاتيوم . ويقول عنه إنه من السعة بالقدر الذى يستريح له ، وإن نفقاته لا ترهقه ؛ ولكنه بعد أن يستمر فى وصفه يخيل إلينا أن فى هذا الوصف شيئاً من التواضع ، فهو يحدثنا فيه عن مدخل من فوقه نوافذ زجاجية وتعلوه طنف . . . وبه حجرة جميلة للطعام تعانقها آخر أمواج البحر عناقاً خفيفاً ، وتضيؤها نوافذ واسعة تطل على البحر من ثلاث جهات فتحسبه ثلاثة أبحر مختلفة ، وبه ردهة كبرى « يمتد بصر من فيها إلى الغابات والجبال » ، وحجرتا استقبال ومكتبة على شكل نصف دائرة تستقبل نوافذها الشمس طول النهار » ، وحجرة للنوم وعدة حجرات للخدم . وكان للبيت جناح منفصل عنه يحتوى « حجرة استقبال ظريفة » ، وحجرة أخرى للطعام وأربع حجرات صغيرة ، وحماماً ، وتوابعه وتشمل « حجرة جميلة لخلع الملابس » ، وحماماً بارداً ، وحماما فاتراً به ثلاث برك مختلفة حرارتها ، وحماما ساخنا ، تسخنها كلها أنابيب من الهواء الحار . وكان فى خارج البيت بركة للسباحة ، وساحة للعب الكرة ، ومخزن ، وحديقة متنوعة الغروس ، وحجرة خاصة للمطالعة ، وردهة للمآدب ، وبرج للأرصاد يحتوى على شقتين وحجرة للطعام

ويختم پلنی هذا الوصف بقوله : « والآن حدثونی : ألست علی حق إذا آثرت هذا الملجأ اللطيف بوقتی وحبوته بعطفی ؟ »[١٤] .

وإذا كان فی مقدور عضو فی مجلس الشيوخ أن يكون له هذا المسكن الريفی علی شاطئ البحر ، ومسكن آخر علی بحيرة كومو ، فإن فی وسعنا أن نتصور ما كان عليه قصر تيبيريوس فی ضيعته عند كبری أو قصر دومتيان عند ألبالنجا ، دع عنك قصر هدريان الذی أنشأه فی تيبور Tipur بعد قليل من هذا الوقت الذی نتحدث عنه .

وإذا أراد الزائر أن يجد مثيلا لهذا الإسراف فما عليه إلا أن يتخذ سبيله إلی قصور الأثرياء والأباطرة علی تل البلاتين . ولم يكن الرومان يحرصون فی هندسة منازلهم علی محاكاة هندسة بلاد اليونان القديمة حيث كانت البيوت المتواضعة وحيث لم يكن يوجد من الأبنية الفخمة إلا القصور ، بل شادوا قصورهم علی نمط قصور الملوك الذين كانوا يحكمون البلاد المصطبغة بالصبغة اليونانية ، والذين تأثروا أشد التأثر بالعادات والأنماط الشرقية . فقد جاءت أنماط البطالمة إلی رومة مع ذهب كليوبطرة ، ورافقت هندسة البناء الملكية أساليب الملوك السياسية . وقد اتسع قصر أغسطس الذی سمی باسم التل المقام فوقه بما أضيف إليه من الملحقات حين تضاعفت الشئون الإدارية الخاصة بالقصر الإمبراطوری . وشاد معظم خلفائه قصوراً إضافية لهم ولموظفيهم ، فشاد تيبيريوس قصره المسمی دومس تيبيريانا Domus Tiberiana وكلجيولا قصره المعروف باسم دومس جيانا Domus Giana وشاد نيرون دومس أوريا Domus aurea أی القصر الذهبی .

وأضحی هذا القصر الذهبی أعجوبة الأعاجيب فی رومة ، فقد أقيمت مبانيه وحدها علی مساحة قدرها تسعمائة ألف قدم مربعة ، ولم تكن هذه إلا جزءاً صغيراً من القصر الذی انتشر من تل البلاتين إلی التلال المجاورة له . وكان يحيط به بستان عظيم يشمل حدائق وخمائل وبركا للسمك : ومسارح

لحيوان الصيد ، وأبراجاً للطير وكروماً ، ومجارى مائية ، وعيوناً فوارة ، ومساقط مائية ، وبحيرات وسفائن إمبراطورية ، وبيوتاً للهو ، ومصاريف ، ومشاتل لتربية الأزهار ، وأروقة ذات عمد يبلغ طولها ثلاثة آلاف قدم . وقد حفر أحد الفكهين على جدار من جدران هذا القصر هذه العبارة العظيمة الدلالة : « لقد أصبحت رومة كلها مسكن رجل واحد ، وآن أن تهاجروا أيها المواطنون إلى ڤياى — إلا إذا كانت ڤياى نفسها سيحتويها بيت نيرون »(١٥) . أما داخل القصر فكان يتلألأ فيه الرخام والبرنز والذهب فضلا عن المعادن المذهبة التى تغطى تيجان العمد الكورنثية ، ومعها آلاف التماثيل والنقوش البارزة ، والرسوم الملونة ، وروائع الفن التى جىء بها من أنحاء العالم القديم أو نهبت منها نهباً ، ومنها اللاؤكون Laocoon . وكانت بعض الجدران مرصعة باللؤلؤ وغيره من الجواهر الغالية ، وكان سقف حجرة المآدب مغطى بأزهار من العاج ، يسقط منها بإشارة من الإمبراطور رشاش من العطر على الضيوف . وكان لحجرة الطعام سقف كرى من العاج ، منقوش بحيث يمثل السماء والنجوم ، تحركه حركة بطيئة دائمة آلات مختفية عن الأبصار . وكانت بالقصر طائفة من الحجرات بها حمامات حارة وأخرى باردة أو فاترة المياه ، وحمامات ذات مياه بحرية وأخرى كبريتية . ولما كاد المهندسان الرومانيان سلر Celer وسفيرس Severus يفرغان من تشييد هذا الصرح العظيم ودخله نيرون قال : « لقد سكنت آخر الأمر » . وبعد جيل من ذلك الوقت أهمل هذا القصر العظيم الذى يحاكى قصور ڤرساى فى العصر الحديث لكثرة ما يتطلبه الاحتفاظ به من النفقات ، وما يتعرض له من الأخطار ، وما يحيط من الفقر ، وشاد ڤسپازيان على أنقاضه الكلوسيوم كما شاد عليها تيتس وتراجان حماماتهما الضخام .

وشارك دومتيان نيرون فى جنون البناء ، فقد شاد له ربريوس Rabirius قصره المعروف ببيت ڤلاڤيا Domus Flavia . ولم يبلغ هذا البيت

من الضخامة مبلغ متحف نيرون ، ولكنه لم يكن ينقص عنه فى الروعة والزينة ؛ وكان فى جناح واحد منه باسلقا واسعة الأرجاء ، ولعلها هى البهو الذى كان الإمبراطور ينظر فيه القضايا التى تستأنف إليه فى مرحلتها الأخيرة ؛ وكان هذا الجناح نفسه يضم رواقاً سعته ثلاثون ألف قدم مربعة ، تجاوره حجرة للمآدب أرضها من الرخام البرفيرى الأحمر والحجر الملوى الأخضر الذى لم يقو الزمان حتى الآن على إبادته فيما أباد من الستائر الرخامية الرقيقة والنوافذ ذات العمد الجميلة التى كان المدعوون بعد فراغهم من الطعام يشاهدون من خلالها الماء يسقط فى الأحواض الرخامية من الفوارات القائمة فى خارجها. وجدير بنا أن ننبه القارئ إلى أن دومتيان لم يكن يستخدم هذا القصر إلا فى الحفلات وفى الأعمال الإدارية ، أما مسكنه فكان فى قصر أغسطس الذى يقل عن هذا القصر ضخامة وفخامة . وما من شك فى أن هذه الصروح الملكية كانت جزءاً من المظاهر الخارجية للإمبراطورية الرومانية ، قصد بها أن تلقى الروع فى قلوب الأهلين والزائرين والسفراء ، أما الأباطرة أنفسهم — مع جواز استثناء كلجيولا ونيرون — فكانوا يضيقون ذرعاً بالمراسم التى تجرى فى قاعات الحفلات ، فيفرون منها إلى الدعة والألفة فى مساكن أسرهم ، حيث يستمتعون « بلذة كونهم رجالا » على حد قول أنطونينس پيوس Antoninus Pius .

الفصل الرابع

الفنون والنقوش

وكانت مئات الفنون تستخدم فى هذه القصور وفى بيوت الأغنياء لتجعل كل شىء فيها عظيم النفقة إن فاتها أن تجعله جميلا . فقد كانت أرضها فى الغالب من الرخام المتعدد الألوان ، أو الفسفساء الذى عنى فيه صانعوه بجمع المكعبات الصغيرة الكثيرة الألوان Cesserae ، وبذلوا فى ذلك الكثير من الجهد والوقت ، فأخرجوا منها رسوماً مدهشة فى واقعيتها وثباتها . وكان أثاث هذه القصور أقل عدداً من أثاث بيوتنا وأقل منه مجلبة للراحة ، ولكنه يفوقه فى فخامة نقشه ودقة صنعه فكانت المناضد ، والكراسى ، والمقاعد ، والمضاجع ، والأسرة ، والمصابيح ، والأوانى ، كلها تصنع من المواد المتينة ، كما كانت كثيرة الزينة . وكانت خير أنواع الخشب ، والعاج ، والرخام ، والبرنز ، والفضة ، والذهب تخرط وتصقل بمنتهى الدقة والعناية ، وتنقش عليها صور لأنواع النبات والحيوان ، أو ترصع بالعاج ، والفيروز ، والصدف ، والبرنز المنقوش ، أو الحجارة الكريمة . وكانت المناضد تصنع أحياناً من خشب السرو أو الليمون الغالى ، وكان بعضها يصنع من الذهب أو الفضة ، والكثير منها يصنع من الرخام أو البرنز . أما المقاعد فكانت على أشكال لا حصر لها ، منها مقاعد تطوى إلى عروش للأباطرة ولكنها كانت أقل تشويهاً للعمود الفقرى من مقاعد هذه الأيام . وكانت الأسرة تتخذ من الخشب أو المعدن ، وكانت ذات أرجل رفيعة ولكنها ثابتة متينة تنتهى فى كثير من الأحيان برؤوس الحيوانات أو أقدامها ، وكانت عليها شبكة برنزية تحمل حشية القش أو الصوف بدل الشبكات اللولبية التى تستخدم فى هذه الأيام وكانت نضد رشيقة ذات ثلاث أرجل تستخدم فى

الأغراض التى تستخدم فيها نضدنا ، وكانوا يضعون فى أماكن مختلفة من الحجرات خزانات ذات عيون لتوضع فيها الكتب الملفوفة . وكانت مواقد من البرنز تدفئ الحجرات ، ومصابيح من البرنز تضيؤها . وكانت المرايا تصنع أيضاً من البرنز ، وتصقل صقلا جيداً ، وتنقش عليها أو تحفر فيها أزهار أو صور خرافية . وكان بعضها محدباً أو مقعراً أفقياً أو رأسياً لكى يغير من الصور المعكوسة عليها فيجعلها رقيقة أو ضخمة تثير الضحك .

وكانت مصانع كمپانيا تستخدم منتجات المناجم الأسپانية الفنية فتصنع الكثير من الآنية الفضية لتباع فى الأسواق ، وبذلك انتشرت صحاف الطعام الفضية فى بيوت الطبقتين الوسطى والعليا . وقد عثر أحد الحفارين فى عام ١٨٩٥ فى حوض لبيت ريفى فى بسكوريل Boscoreale على مجموعة عجيبة من الآنية الفضية لعل مالكها قد وضعها فيه قبل أن ينجو بحياته من نيران بركان ويزوف حين ثار فى عام ٧٩ م . ووجدت على أحد الأقداح نقوش لا يكاد يمسسها أذى لأوراق نباتية بسيطة ، ووجد على قدحين صورة هيكلين عظيمين بارزين ، وعلى إناء آخر صورة أغسطس بين الزهرة والمريخ وهما الإله والإلهة اللذان يتنازعان فيما بينهما السيطرة على الجنس البشرى ، ومنها قدح يدل على شدة الخبث والدهاء وعليه نقش يمثل زينون الفيلســوف الرواقى يشير فى سخرية إلى أبيقور وهو يلتهم قطعة كبيرة من الفطائر ، وإلى جانبه خنزير رافع ساقه الأمامية يسأله فى أدب جم أن يعطيه قطعة منها .

ويدل ما وجد من النقود والجواهر فى عصر الإمبراطورية الأول على ما وصل إليه فن الحفر من رقى . ويدل ما وجد منها من عصر أغسطس على نفس الذوق الجميل الذى تدل عليه الرسوم التى يشاهدها الإنسان على مذبح السلام كما يحتوى أحياناً على نفس هذه الرسوم . وكانت الأحجار الكريمة المستوردة من أفريقية وبلاد العرب والهند تقطع وتركب فى الخواتم ،

ودبابيس الصدور ، والعقود ، والأساور ، والأقداح ، بل وفى الجدران أحيانا ؛ وكان لبس خاتم فى إصبع واحدة على الأقل من الضرورات الاجتماعية التى لا غنى عنها ، وكان من المتظرفين عدد قليل يلبسون خواتم فى جميع أصابعهم عدا واحدة منها . وكان الرومانى يطبع إمضاءه بخاتمه ، ولهذا كان يحرص على أن يكون هذا الخاتم فريداً فى رسمه ؛ وكان من بين الفنانين الذين ينالون أعلى الأجور عدد من قاطعى الجواهر أمثال آل دسكوريدس الذين صنعوا خاتم أغسطس ؛ وقد وصل العصر الذهبى فى قطع حجر القَمْو إلى مستوى من الرقى لم يفقه فيه عصر آخر ، ولا يزال أجمل ما وجد فى العالم من جواهر جوهرة أغسطس **gemma Augusta** المحفوظة فى ڤينا . وكان جمع الجواهر والحلى ذات النقوش البارزة هواية أثرياء الرومان — ومنهم پمپى وقيصر وأغسطس . وقد ظل ما فى خزائن الأباطرة من جواهر يتكاثر على مر الزمن بما ورثوه منها عن أسلافهم حتى باعه ماركس أورليوس لينفق من ثمنه على حربه ضد المركومانى . وقد أخذت إنجلترا منصب حافظ الخاتم الأكبر أو الخاص عن منصب حارس الأختام والجواهر الإمبراطورية فى أيام الرومان .

وفى هذه الأثناء كان خزافو كپوا ، وپتيولى ، وكومية ، وأرتيوم يملأون بيوت الإيطاليين بجميع أنواع الآنية الخزفية . وكان فى أرتيوم خوابى للخلط تتسع لعشرة آلاف جالون . وقد ظل ما تصنعه من صحاف الطعام المطلية بقشرة زجاجية حمراء مدى قرن كامل أكثر الصحاف انتشاراً فى إيطاليا . ووجدت بعض هذه الصحاف فى إيطاليا بأجمعها فلم يكد يخلو منها مكان واحد فيها . وكانت الأختام الحديدية البارزة الحفر تستخدم فى طبع كل مزهرية ومصباح وقطعة من القرميد باسم صانعها ، وكان يطبع عليها أحياناً اسما القنصلين الحاكمين دلالة على تاريخ صنعها .

هذا هو الحد الذى بلغه علم القدماء بفن الطباعة ، وقد تركوه دون أن يرتقوا

به إلى مافوق هذا القدر ، لأن النساخين الأرقاء كانوا يتقاضون أجوراً قليلة[١٨].

وانتقل صناع كومية ، ولترنوم ، وأكويليا ، من صنع الخزف إلى صنع الزجاج الفنى الجميل(*). ومن أشهر أمثلة هذه الآنية الزجاجية مزهرية بورتلاند(**) وأجمل منها « المزهرية الزجاجية الزرقاء » التى عثر عليها فى بمبى والتى نقش عليها عيد خمرى لباخوس نقشاً جميلا ينبض بالحياة[١٩]؛ ويقول پلنى واسترابون[٢٠]: إن فن صنع الزجاج قد نقل فى عهد تيبريوس من صيدا والإسكندرية إلى رومة ، وسرعان ما أخرج فنانوه قنينات صغيرة ، وقداحاً وطاسات ، وأوانى أخرى متعددة الألوان دقيقة الصنع ، جميلة المنظر أصبحت فى وقت ما مطلب الأثرياء وجامعى الروائع الفنية. وقد عرض فى عهد نيرون ستة آلاف سسترس ثمناً لقدحين صغيرين من الزجاج المنفوخ المعروف فى هذه الأيام باسم « ميل فيورى mlliefiori أو « الزهرات الألف » ، صنعا بصهر عصى زجاجية مختلفة اللون . وكان أغلى من هذين ثمناً مزهريات « مورهين » Murrhine التى جىء بها من آسية وأفريقية . وكانت تصنع بوضع خيوط رفيعة من الزجاج الأبيض والأرجوانى بعضهما بجوار بعض للحصول على الرسم المطلوب ،

(*) وقد وجد السوريون والمصريون قبل ميلاد المسيح بنحو مائتى عام أن صهر الرمل مع مادة قلوية فى درجة حرارة عالية ينتج سائلا نصف شفاف ذا لون ضارب إلى الخضرة (منشؤه ما فى الرمل من أكسيد الحديد) ؛ وأن إضافة أكسيد المنجنيز والرصاص إلى هذا المزيج يجعله عديم اللون كامل الشفيف ، وأن ظلالا مختلفة من هذا اللون يمكن الحصول عليها بإضافة مواد كيمائية مختلفة إليه — فاللون الأزرق مثلا ينتج بإضافة الكوبلت . وكانت العجينة الرخوة تشكل باليد أو تنفخ فى قوالب ، وتترك حتى تجف ثم تقطع وتشكل على عجلة .

(**) وأكبر الظن أن هذه المزهرية المكونة من عدة طبقات من الزجاج بعضها فوق بعض يونانية الأصل . وقد عثر عليها بالقرب من رومة فى عام ١٧٧٠ ، وجاء بها دوق پورتلاند ، ثم أعيدت للمتحف البريطانى فى عام ١٨١٠ . وفى عام ١٨٤٥ حطمها رجل مجنون إلى ٢٥٠ قطعة ، ولكنها أعيدت إلى ما كانت عليه بنجاح بلغ من شأنه أنه لما عرضها دوق پورتلاند وقتئذ للبيع فى عام ١٩٢٩ عرض عليه ١٥٢٫٠٠٠ دولار ثمناً لها ، ولكنه رفض هذا العرض لأنه رآه أقل من قيمتها[٨] .

ﺑ ﺇﺷﻌﺎﻝ ﺍﻟﻨﺎﺭ ﻓﻴﻬﺎ ، ﺃﻭ ﺗﺮﺻﻴﻊ ﺟﺴﻢ ﺃﺑﻴﺾ ﺷﻔﺎﻑ ﺑﻘﻄﻊ ﻣﻦ ﺍﻟﺰﺟﺎﺝ ﺍﻟﻤﻠﻮﻥ . ﻭﻗﺪ ﺟﺎﺀ ﺑﻤﺒﻰ ﺑﺮﻭﺍﺋﻊ ﻣﻦ ﻫﺬﺍ ﺍﻟﻨﻮﻉ ﺇﻟﻰ ﺭﻭﻣﺔ ﺑﻌﺪ ﺍﻧﺘﺼﺎﺭﻩ ﻋﻠﻰ ﻣﺜﺮﺩﺍﺗﺲ . ﻭﺍﺣﺘﻔﻆ ﺃﻏﺴﻄﺲ ﻟﻨﻔﺴﻪ ﺑﻜﺄﺱ ﻛﻠﻴﻮﺑﻄﺮﺓ ﺍﻟﻤﺼﻨﻮﻋﺔ ﻣﻦ ﺯﺟﺎﺝ ﻣﺮﻫﻴﻦ ، ﻭﺇﻥ ﻛﺎﻥ ﻗﺪ ﺻﻬﺮ ﺻﺤﺎﻓﻬﺎ ﺍﻟﺬﻫﺒﻴﺔ ؛ ﻭﻗﺪ ﺩﻓﻊ ﻧﻴﺮﻭﻥ ﻣﻠﻴﻮﻥ ﺳﺴﺘﺮﺱ ﺛﻤﻨﺎً ﻟﻘﺪﺡ ﻣﻦ ﻫﺬﺍ ﺍﻟﻨﻮﻉ ، ﻭﻛﺴﺮ ﭘﺘﺮﻭﻧﻴﻮﺱ ﻗﺪﺣﺎً ﺁﺧﺮ ﻭﻫﻮ ﻳﺤﺘﻀﺮ ﺣﺘﻰ ﻻ ﻳﻘﻊ ﻓﻰ ﻳﺪ ﻧﻴﺮﻭﻥ ؛ ﻭﻳﻤﻜﻦ ﺍﻟﻘﻮﻝ ﺑﻮﺟﻪ ﻋﺎﻡ ﺇﻥ ﺍﻟﺮﻭﻣﺎﻥ ﻟﻢ ﻳﻔﻘﻬﻢ ﺃﺣﺪ ﻓﻰ ﺻﻨﻊ ﺍﻟﺰﺟﺎﺝ ؛ ﻭﻗﻞّ ﺃﻥ ﻳﻮﺟﺪ ﻓﻰ ﺍﻟﻌﺎﻟﻢ ﻣﺠﻤﻮﻋﺎﺕ ﻓﻨﻴﺔ ﺃﺛﻤﻦ ﻣﻦ ﻣﺠﻤﻮﻋﺔ ﺍﻵﻧﻴﺔ ﺍﻟﺰﺟﺎﺟﻴﺔ ﺍﻟﺮﻭﻣﺎﻧﻴﺔ ﺍﻟﻤﺤﻔﻮﻇﺔ ﻓﻰ ﺍﻟﻤﺘﺤﻒ ﺍﻟﺒﺮﻳﻄﺎﻧﻰ ﻭﻓﻰ ﻣﺘﺤﻒ ﺍﻟﻌﺎﺻﻤﺔ ﺍﻟﻔﻨﻰ ﺑﻨﻴﻮﻳﻮﺭﻙ .

الفصل الخامس

النحت

انتقل فن الخزف إلى النحت عن طريق الصلصال المحروق — من نقوش بارزة ، وتماثيل صغيرة ، ولعب ، ومحاكاة للفاكهة والعنب والسمك — حتى وصل آخر الأمر إلى تماثيل بالحجم الطبيعي . وقد وجد الشيء الكثير من هذه فى خرائب پمپى . وكانت قواصر الهياكل وطنفها تزينها نقوش تمثل سعف النخل ومثقفات وميازيب فى صورة رؤوس حيوانات ونقوش بارزة . وكان اليونان يسخرون من هذه الحليات ، وقد أصبحت فى عهد الإمبراطورية من الطرز العتيقة ، ولم يكن أغسطس ممن يحبون أن تزين القصور بالطين محروقاً كان أو غير محروق .

ولعل ذوقه الأتيكى هو الذى سما بفنى النقش والنحت حتى بلغا من الروعة فى رومة منزلة تضارع ما بلغته أحسن النقوش والتماثيل فى البلاد التى امتدت إليها الحضارة اليونانية ؛ فقد ظل الفنانون فى رومة جيلا ينحتون الفساقى ، وشواهد القبور ، والعقود ، والمذابح نحتاً تبدو فيه رقة الشعور ، ودقة العمل ، وروعة الشكل وهدوءه ، كما يبدو فيه قدر من التشكيل ومراعاة المنظور يرفع النقوش الرومانية إلى مستوى الآيات الفنية العالمية .

أما النحت فحسبنا أن نقول فيه إن مجلس الشيوخ احتفل بعودة أغسطس إلى رومة فى عام ١٣ ق . م بعد أن أعاد السلام إلى أسپانيا وغالة بأن أمر بإقامة « مذبح السلم الأغسطية Ara Pacis Augustae » فى ميدان المريخ ؛ وهذا المذبح أفخم ما بقى من أعمال النحت فى رومة ، ولعل شكله مأخوذ عن مذبح برجموم Pergamum ، ولعل فكرته مأخوذة عن طنف البارثنون المنقوش . وقد أقيم المذبح على مرتفع قايل فى مساحة مسورة شيد بعض أسوارها

من المرمر المنقوش . وكل ما بقي من هذا الهيكل قطع من هذه الأسوار(*) . وتمثل إحداها تلس Tellus — الأم الأرض — وبين ذراعيها طفلان ، وإلى جانبها ينمو الحب والزهر ، وعند قدميها ترقد حيوانات وادعة راضية . وتلك هي المبادئ الرئيسية التي قامت عليها إصلاحات أغسطس : عودة الأسرة إلى أحضان والديها ، وعودة الأمة إلى الزراعة ، وعودة الإمبراطورية إلى السلم . والرسم الأوسط لا يكاد يفوقه رسم آخر مهما عظم ، والحق أن فيما جمعه من الأمومة الناضجة ، والجمال الأنثوي ، ورقة القلب ، ورشاقة الشكل ، لكمالا ورقة لا ترقى إليهما آلهات البارثنون الفخمة العظيمة . » وكان لطنف السور الخارجي بروز سفلي ذو درج مسنفة (**) ، أو منقوش عليها تويجات الفاوينا والخشخاش العريضة ، وعناقيد كبيرة من ثمار اللبلاب . وهذه أيضاً نجد لها نظيراً في غير هذه التحفة الفنية . وعلى بروز آخر نقش موكبان يتحركان في اتجاهين متضادين ليلتقيا أمام مذبح آلهة السلام . وفي هذه المجموعات صور هادئة وقورة لعلها صور أغسطس وليفيا والأسرة الإمبراطورية ، ومعها عدد من النبلاء والكهنة والعذارى الفستية والأطفال . وصور الأطفال واقعية جذابة تستلفت النظر بحيائها وطهرها . ومن بينها طفل رضيع يحبو كأنه لا يجد لذة في هذا الاحتفال ، وآخر وهو ولد يفخر بما بلغه من العمر ، وطفلة صغيرة بيدها طاقة زهر . وأخرى تؤنبها أمها على عمل خبيث ومن ذلك الحين بدأ الأطفال يكون لهم شأن متزايد في الفن الإيطالي ، ولكن فن النحت الروماني لم يصل في يوم من الأيام إلى ما وصل

(*) وقد كانت أكبر هذه القطع إلى عهد قريب في متحف الترى Muses dell Terme بروما ، وبعضها في قصر الفاتيكان ، وفي معرض الأفيزي Uffizi Gallery في فلورنس ، وفي متحف اللوفر .

(**) السنف ضرب من زخرفة البناء يكون على صورة أوراق نبات السنف ، وأكثر ما يرى على قمم تيجان الأعمدة الكورنثية والرومانية والبيزنطية والأبنية في العصور الوسطى .
(المترجم)

إليه وقتئذ من قدرة على تصوير السجف ، والمجموعات الطبيعية القوية المؤثرة ، وتنظيم الأضواء والظلال تنظيما أوفى على الغاية فى الإتقان . وقد وجد الإيطاليون فى هذا النقش كما وجدوا فى شعر فرچيل أكمل وسيلة للدعاوة لأنفسهم وإذاعة مجدهم فى أنحاء العالم .

وليس ثمة نقوش رومانية تضارع هذه النقوش إلا النقوش المنحوتة على الأقواس التى كانت تقام عند دخول القواد الظافرين : وأجمل ما بقى من هذه الأقواس قوس تيتس الذى بدأه ڤسپازيان وأتمه دومتيان لتخليد ذكرى فتح بيت المقدس . ويمثل أحد هذه النقوش المدينة المحترقة ، وأسوارها المهدمة ، وأهلها الذين استولى عليهم الرعب ، وثروتها التى تنتهبها الفيالق الرومانية . ويمثل نقش آخر تيتس يسير إلى رومة فى مركبته بين الجنود ، والحيوانات ، وكبار الحكام ، والكهنة ، والأسرى ، ومن ورائه ثريات الهيكل المقدسة وغيرها من غنائم الحرب على اختلاف أنواعها . وقد كان الفنانون الذين حفروا هذه الرسوم جد جريئين فى تجاربهم : فقد حفروا صوراً تختلف باختلاف المستويات ، ووزعوها على سطوح متفاوتة الارتفاع ، ونحتوا خلفية الصورة بحيث تمثل العمق ، ولونوا الصورة كلها لتحمل إلى الرائى درجات مختلفة من الاكتظاظ والبعد ، فوق ما تحمل من المعانى الأخرى . وأما الأعمال التى تمثلها الصورة فلا تظهر كأنها حوادث متفرقة بل تبدو مستمرة دائمة ، كما تبدو فى طنف بلاد النهرين ومصر ، وكما تبدو فيما بعد على أعمدة الإمبراطورين تراچان وأورليوس ؛ وبذلك استطاعت أن تمثل معنى الحركة والحياة على خير وجه . كذلك لم يعمل العرف والمثل الأعلى عملهما فى الصورة فيخرجاها عن الواقعية ويفرضا عليها ما فرضه الفن الأتيكى على صور « مذبح السلام » اليونانى ؛ بل إن أناسه أناس واقعيون من لحم ودم وأقذار نحتوا على سنن التقاليد الإيطالية تقاليد الواقعية والحيوية . ولم يكن موضوعها هو الآلهة المكملة بل كان هو الآدميين الأحياء ..

وهذه الواقعية القوية هي التي تميز فن النحت الروماني . ولولا إخلاص الرومان المتواتر لهذه النزعة المتأصلة في نفوسهم لما أضافوا إلا القليل لعالم الفن . وقد حدث في عام ٩٠ ق . م أن جاء إلى رومة رجل يوناني من أهل إيطاليا الجنوبية يدعى پستليز Pestiles ، وأقام فيها ستين عاماً كاملة ، أخرج فيها تحفاً فنية من الفضة والعاج والذهب ، وجاء إليها بالمرايا الفضية ، وأخرج نسخاً متعددة من روائع الفن اليوناني ، وكتب خمسة مجلدات عن تاريخ الفن . فكان بذلك ڤساري وسليني زمانه في آن واحد . كذلك قدم يوناني آخر يدعى أرسسلوس لقيصر تمثالا ذائع الصيت لڤينوس چنتركس . ونحت أپولونيوس الأثيني تمثال الترسو بلڤدير Torso Belvedere في الڤاتيكان ، وهو تمثال خلت فكرته من الغلو ، فليس فيه عضلات بارزة ، بل يمثل رجلا في كمال القوة وصحة الجسم ، ولعله نحته في رومة نفسها . وكل ما نستطيع أن نقوله عن هذا التمثال أنه بلغ الكمال إلى الحد الذي كان يبغي صاحبه أن يمثله فيه . وقد ظلت مناحت الفنانين وقتاً ما تعمل جاهدة في إعطاء الآلهة الإيطالية صوراً يونانية ، ولم تستثن من ذلك التجريدات القدسية كالفرصة والعفاف . ويغلب على الظن أن جليكون Glycon الأثيني نحت في هذا الوقت نفسه وفي مدينة رومة تمثال هرقل الفرنيزي . ولسنا نعرف متى صنع تمثال أپلو بلڤدير ولا متى صنع ، ولعله صورة رومانية لتمثال أصيل نحته ليوكارس Leochares الأثيني . ويعرف كل طالب علم كيف أثار جماله الهادئ نشوة ونكلمان Winkelmann الأورانية[٢١] . ونحت ليونو في ذلك الوقت تمثالين هما تمثال يونو الفرنيزية المنحوت من حجر السماق والمحفوظ في متحف ناپلي ، وتمثال يونو اللدڤيزية المحفوظ في ترم Terme — وهو تمثال فاتر ، عابس ، ينم عن الاستقامة والعدالة ؛ إذا نظر إليه الإنسان بدأ بفهم طواف جوف وتجواله .

كانت هذه التماثيل كلها كما كان تمثال برسيوس واندرمدا Perseus and Andromeda الجميل المحفوظ في متحف الكبتول من الطراز اليوناني الذي اتخذ

طرازاً عاماً فى النقش ومثلا أعلى له ، وقدس تقديساً يبعث على الملل والسآمة . وأكثر من هذه النقوش إلفاتاً للنظر واسترعاء للانتباه التماثيل النصفية التى هى بمثابة معجم من البرنز والرخام لجميع وجوه الزمان من عهد پمپي إلى عهد قسطنطين . وهذه أيضاً قد اتخذ بعضها مثلا أعلى وخاصة رأسا يوليوس وكلوديوس ، ولكن النزعة الواقعية التسكانية القديمة ومغميات الموتى التى لم يكن فيها شىء من المجاملة والملق ، والتى لم تكن تغيب قط عن أعين المثالين ، قد جعلت الرومان لا يستنكفون قط أن يمثلوا بمعارف قبيحة على شرط أن يظهروا فى تماثيلهم أصحاء أقوياء . وقد أوصى الكثيرون منهم بتماثيلهم للميادين والأماكن العامة ، وبلغت هذه التماثيل الموصى بها من الكثرة حداً خيل معه فى وقت من الأوقات أن الذين يملكون رومة من الموتى أكثر ممن يملكونها من الأحياء ؛ وقد بلغ من حرص بعض الكبراء على أن توضع تماثيلهم فى الأماكن أنهم لم يصبروا حتى تنصرم آجالهم ، فأقاموا لأنفسهم تماثيل قبل وفاتهم . ودفعت الغيرة الأباطرة إلى تحريم هذه العجلة فى التخليد حتى تتسع رومة للأحياء من أبنائها .

وأعظم التماثيل النصفية الملونة هو التمثال المعروف باسم « **رأس قيصر** » المصنوع من حجر البازلت والمحفوظ فى متحف برلين . ولسنا نعرف من الذى يمثله هذا التمثال النصفى رغم هذه التسمية ، ولكن شعره القليل ، وذقنه المحدد ، ووجهه الرفيع البارز العظام ، وما فيه من خطوط عميقة دالة على كثرة القلق والتفكير ، والعزيمة المستسلمة للحقائق بعد أن زالت عن الأعين غشاوتها وعن العقول أوهامها ، كل هذه تتفق مع صفات قيصر الذى تعزو إليه الرواية هذا التمثال .

ويلى هذا التمثال النصفى فى القدر مباشرة التمثال الضخم الذى يمثل رأس قيصر والمحفوظ الآن فى ناپلى : وفى هذا التمثال تعمقت أخاديد الوجه حتى نمت عن حقد ومرارة ، كأن هذا الجبار قد عرف آخر الأمر أن ليس فى العالم عقل

بلغ من السعة قدراً يمكنه من فهم العالم دع عنك حكمه . وترى الواقعية التى تصل إلى حد يبعث على الاشمئزاز بادية فى تمثال يمي المقام فى ناى كارلسبرج چلپتوتك Ny Carlsberg Gluptotek بكوپنهاجن Copenhagen : وينطق هذا التمثال بأن صاحبه قد نسي فى بداية الكهولة وهزائمها ما ناله بشجاعته من مجد ونصر فى عهد الشباب . ولدينا لأغسطس نحو مائة تمثال ، كثير منها جيد غاية الجودة ، متقن غاية الإتقان : منها تمثال أغسطس الغلام (المحفوظ فى الفاتيكان) والذى يبدو فيه صاحبه جاداً ثاقب البصر نبيلا — وهو أجمل صورة لغلام حقيقى فى جميع عصور التاريخ على الإطلاق . ومنها تمثال أغسطس فى الثلاثين من عمره (المحفوظ فى المتحف البريطانى) — وهو تمثال من البرنز تبدو فيه العزيمة القوية الصادقة ، ويذكرنا بقول سوتنيوس إن الإمبراطور كان يسعه أن يطفئ نار الفتنة بنظرة ؛ ومنها تمثال أغسطس القس (فى متحف ترم) ذو الوجه الدال على التفكير العميق بارز من بين السجف المحيطة به من كل جانب ؛ وتمثال أغسطس القائد الذى عثر عليه فى خرائب قصر ليڤيا الريفى فى پريماپورتا Prima Porta والمحفوظ فى الفاتيكان ؛ وقد غطى الدرع البرنزى الذى يحمى صدر هذا التمثال الشهير بنقوش غريبة تربك الناظر وتحوله عن تأمل التمثال نفسه(*) . ووقفة أغسطس كما يصورها هذا التمثال ثابتة قوية ، وساقاه أقوى مما تكونان لشخص عليل مثله ؛ ولكن الرأس يمثل القوة الهادئة ، والثقة بالنفس تكشف عن يد الفنان العظيم ونفسيته .

وكانت لڤيا نفسها حسنة الحظ إذ سخرت الأقدار فناناً عظيما لصنع

(*) وهى تصور عودة الأعلام البارثية ، وخضوع الولايات المغلوبة ، وخصب الأرض فى وقت السلم ، والستر الواقى منشوراً فوق الجميع ما عدا جوف

المحفوظ فى كوبنهاجن . ترى فى هذا الرأس الشعر الجميل ، والأنف الرومانى الأقنى الذى ينم عن قوة الخلق ، والعينين الدالتين على الحنان والتفكير ، والشفتين الجميلتين الدالتين على القوة والثبات . وتلك هى المرأة التى وقفت وراء عرش أغسطس تدعمه بهدوئها ، والتى غلبت جميع منافسيها وأعدائها ، وسيطرت على الناس جميعاً عدا ولدها . وكان تيبريوس هو الآخر رجلا محظوظاً . ذلك أن تمثاله الجالس المحفوظ فى متحف لاتران ، وإن نحت على طراز مثل أعلى موضوع ، يعد آية فنية أخرجتها يد مثال لايقـل براعة عن المثال الذى نحت من حجر الديوريت تمثال خفرع المحفوظ فى المتحف المصرى . أما كلوديوس فلم يكن حظه كحظ من سبقوه ، وما من شك فى أن المثال كان يسخر منه ، أو أنه كان يمثل الصفات التى وصفه بها سنكا فى هجائه المشهور . فقد صوره فى صورة چوپتر المتعب المتضجر ، بديناً ، ظريفاً ، أبكم . وأجهد نيرون نفسه فى أن ينمى حاسة الإحساس بالجمال ؛ ولكن أعظم ما كان يرغب فيه هو الشهرة والضخامة ، ومن أجل هذا لم ير لزنودوتس Zenodotus اسـكوباس Scopas زمانه شيئاً أفضل من أن يقضى وقته فى نحت تمثال له فى صورة أپلون يعلو مائة وسبع عشرة قدماً(*). وأمر هدريان أن يوضع هذا التمثال فى صدر المدرج الفلافى ، ومن ثم سمى هذا المدرج باسم الكلوسيوم Collosseum لضخامة هـذا التمثال(٢٢) .

وعاد فن النحت إلى واقعيته فى عهد ڤسپازيان الأمين ، فسمح لمثاليه أن يكونوا صادقين فى تصويره فى صورة السوقى الحق ، ذى معارف غليظة خشنة ، مغضن الجبهة ، أصلع الرأس ضخم الأذنين . وخير من هذا وأكثر منه دلالة على الرحمة التمثال النصفى المحفوظ فى ترم Terme ، والذى يدل

(*) مع قاعدته البالغ ارتفاعها ١٥٣ قدماً . ويحسن أن نذكر القارئ بأن تمثال الحرية الأمريكى يبلغ ارتفاعه من غير قاعدته مائة قدم وأربع أقدام .

على نفس شغلتها شئون الدولة عن نفسها ؛ ووجه رجل الأعمال الذى يطل على الناظر إليه من الرأس الضخم المحفوظ فى متحف نابلى ؛ ويصل إلينا تيتس فى جمجمة كالسابقة مكعبة الشكل ، ووجه غير جميل . وإن المرء ليصعب عليه أن يعتقد أن هذا الشخص الذى يبدو فى تمثاله كأنه من الباعة المتنقلين هو حبيب البشر أجمعين . وقد أوتى دومتيان من بعد النظر فى العصر الفلافى ما جعله يعمل على أن يبغضه الشعب فى حياته فيحطم جميع تماثيله بعد وفاته .

ولما خرج الفنان من القصر وأخذ يجول فى الشوارع استطاع أن يطلق العنان للنزعة الإيطالية الخبيثة ، نزعة الحقيقة الفكهة المضحكة . وما من شك فى أن شيخاً طاعناً فى السن أقل حكمة ومالا من الوزير الفيلسوف هو الذى يصوره التمثال الهزيل الكث الشعر الذى كانوا يقولون عنه من قبل إنه تمثال سنكا . واستطاع الفنانون المشهورون فى فترة من الزمن أن يمثلوا عضلات الرياضيين تمثيلا يخلدها على مدى العصور . وشقت تماثيل المصارعين طريقها إلى أكبر البيوت ، سواء كانت بيوت الأثرياء الريفية أو قصور الكبراء فى الحواضر . وكان المثالون الرومان رحماء وهم ينحتون تماثيل النساء : فتراهم بين الحين والحين ينحتون تمثالا لامرأة سليطة حمقاء ، ولكنهم صنعوا بالإضافة إلى هذا تماثيل لبعض العذارى الفسقية ، ومثلوا وقارهن ورشاقتهن أحسن تمثيل ، كما صنعوا فى بعض الأحيان تماثيل تتجلى فيها رقة القلب مجسمة كتماثيل **الكلتى** Clytie المحفوظة فى المتحف البريطانى ؛ وأخرى لنساء من الأشراف هشة لينة تسحر اللب سحر دُمَى وتو Watteau أو فروجونارد Frogonard [٢٣]. وكانوا جد بارعين فى تمثيل الأطفال كما يدل على ذلك تمثال **الغلام** البرنزى المحفوظ فى متحف نيويورك ، أو تمثال **الطفلة البريئة** المحفوظ فى متحف الكبتول . وكان فى وسعهم أن ينحتوا أو يصبوا تماثيل حيوانات مدهشة فى دقتها ووضوح معالمها ،

كما نرى ذلك فى رؤوس الذئاب التى وجدت فى نيمى عام ١٩٢٩ ، أو الخيل الواثبة فى سانت مارك St. Mark . نعم إنهم لم يبلغوا قط ما بلغته مدرسة بركيز الفنية من كمال وبراعة فى الصقل ؛ ولكن منشأ هذا النقص أنهم كانوا يحبون الفرد أكثر مما يحبون الطراز ، وأنهم كانوا يعتزون بالنقائص الحقيقية التى هى سمة الحياة . وقصارى القول أن هؤلاء الفنانين رغم قصورهم قد سموا إلى أعلى مكانة فى تاريخ الفن التصويرى .

الفصل السادس

التصـــوير

لقد كان من يزور رومة فى الزمن القديم يجد فن التصوير أكثر انتشاراً من فن النحت فى هياكلها ومساكنها ، وأروقتها ، ذات العمد ، وميادينها ؛ وكان يعثر فيها على الكثير من أعمال كبار الفنانين الأقدمين أمثال پولجنوتس Polygnótus وزيوكسيس Zeuxis ، وأپليز Appeles وپروتجنيس Protognese وغيرهم . ولم تكن هذه الأعمال أقل قيمة أو أقل تقديراً فى الإمبراطورية الواسعة الثراء من صور عهد النهضة الأوربية فى أمريكا الغنية فى هذه الأيام. وكان يجد أعمال رسامى الإسكندرية ورومة أعظم وفرة فى رومة القديمة من صور النهضة فى أمريكا الحديثة وذلك لحسن تعهدها وشدة العناية بحفظها . لقد كان الفن قديماً فى إيطاليا حيث كان كل جدار يتطلب الفن ، والتجميل . وأتى على إيطاليا حين من الدهر كان نبلاؤها أنفسهم يمارسون هذا الفن ، ولكن تيار الحضارة الهلنستية الجارف جعل التصوير يونانى الطابع شديد الخضوع للعرف والتقاليد حتى انتهى الأمر بأن عجب ڤاليريوس مكسمس Valerius Maximus من أن فابيوس پكتور Fabius Pictor ينزل من عليائه فيصور على جدرانه « هيكل الصحة »(٢٤) . غير أنا نجد حالات شاذة لا ينطبق عليها هذا التعميم : من ذلك أن أرليوس Arellius قد ذاع صيته فى أواخر عهد الجمهورية لأنه كان يستأجر العاهرات ليكن نماذج لصور الآلهات ؛ وحدث فى عهد أغسطس أن اشتغل بالتصوير شريف أبكم يدعى كونتس پديوس Quintus Pedius لأن عاهته قد سدت فى وجهه جميع سبل الأعمال الأخرى ؛ واستخدم نيرون لتزيين بيته الذهبى مصوراً يدعى أمليوس Amulius كان « يرسم فى وقار جم وهو مرتد جبته(٢٥) :

ولكن هؤلاء الرجال كانوا متفرقين فى بحر المصورين اليونان الخضم الذين أخذوا يخرجون فى رومة وپمپي وسائر أنحاء شبه الجزيرة نسخاً من الرسوم اليونانية مطابقة لها أو مختلفة بعض الشيء عنها ، تمثل موضوعات يونانية أو مصرية .

وكاد فن التصوير فى رومة أن يكون مقصوراً على المظلمات والألوان المائية الممزوجة بمادة غروية لاصقة توضع فوق سطح جاف . وكان المصورون يلجأون فى بعض الأحيان إلى تثبيت الألوان بالحرارة ، وذلك بإذابتها فى الشمع الشديد الحرارة . أما من حيث حجم الصور فإنا نذكر أن نيرون أمر بأن ترسم صورته على قطعة من القماش يبلغ ارتفاعها مائة وعشرين قدماً — وهذه الصورة أول ما لدينا من صور استخدم فيها قماش التصوير . وقد سبق القول إن الألوان كانت تستخدم فى تلوين التماثيل ، والهياكل ، والمناظر المسرحية ، والصور الكبيرة المرسومة على الأقمشة التيلية لعرضها فى السوق العامة فى أوقات الاحتفال بالنصر ، ولكن مواضعها المحببة كانت هى الجدران الخارجية فى المبانى . وقلما كان الرومان يضعون الأثاث مستنداً إلى الجدران أو يعلقون عليها الصور ، ذلك أنهم كانوا يفضلون أن يستخدموا الجدار كله ليرسموا عليه صورة واحدة أو مجموعة من الصور المتصلة بعضها ببعض فى موضوعها . وبهذه الطريقة أضحت الصورة الجدارية جزءاً متمماً للبيت وعنصراً أساسياً فى هندسته المعمارية .

وقد حفظت لنا أبخرة ڤيزوف الحارقة نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة مظلم — وهى يزيد عددها فى پمپي وحدها على عدد كل ما وجد منها فى سائر أنحاء العالم القديم . وإذ كانت پمپي فى أيامها من المدن المتوسطة الحجم غير العظيمة الشأن فإن فى وسعنا أن نتصور عدد الرسوم الجدارية التى كانت تزدان بها المنازل والأضرحة فى إيطاليا القديمة . وقد نقل أحسن ما بقى من هذه الرسوم إلى متحف ناپلى ، ولا يزال لجمالها الهادئ رغم انتقالها إلى مكانها الجديد أعظم الأثر فى نفس من ينظر إليها ؛ ولكن الأقدمين وحدهم هم الذين كانوا يعرفونها عمق ألوانها وفيما بها من إطار هندسى يجعل لكل صورة من هذه

الصور معنى خاصاً وموضعا خاصا . وقد تركت الصور الجدارية التى فى بيت ڤتاى فى أماكنها الأصلية ، فترى فى المطعم ديونيشس يفاجئ أدريانى النائمة ، وترى على الجدار المقابل لهذه الصورة ديدالس Daedalus يعرض بقرته الخشبية على پاسفائى Pasifaë ؛ وفى الطرف الأقصى من الجدار ترى هرمس ينظر فى هدوء إلى هفيستس Hephaestus وهو يشد إكسيون Ixion إلى عجلة التعذيب : ونشاهد فى حجرة ثانية مظلمات مضحكة متتابعة فيها صور متعددة لكيوپد إله الحب يسخر مما فى پمپى من صناعات بما فيها صناعة الخمر فى ڤتاى . وقد عدت عوادى الأيام على هذه الصورة التى كانت من قبل ناضرة براقة ، ولكن مابقى منها يكفى لأن يشعر الزائر بما يجب أن يكون عليه من تواضع وحياء ، فصور الأجسام البشرية تكاد تبلغ الغاية فى الإتقان والجودة ، وتكاد تنبض بالحياء وتثير دم الشهوة فى عروق الأحياء من بنى الإنسان .

ولقد حاول الخبراء أن يفهموا ماهية فن التصوير فى إيطاليا القديمة ويصنفوا عصوره وأنماطه بالاعتماد على ما وجدوه من نماذج له فى إيطاليا القديمة . وهذه الطريقة فى التصنيف خطرة غير مأمونة لأن پمپى نفسها كانت يونانية أكثر منها لاتينية ؛ ولكن ما بقى فى رومة وضواحيها من رسوم قديمة يتفق إلى حد كبير مع تطور فن التصوير فى پمپى . ففى الطراز الأول (القرن الثانى قبل الميلاد) حين كانت الجدران تغطى بقشرة كاملة قبل الرسم عليها ، كانت الجدران فى أغلب الأحيان تلون بحيث تبدو كأنها مطعمة بألواح من الرخام كما تشاهد فى « بيت سلت » فى پمپى . وفى الطراز الثانى أو الطراز المعمارى (القرن الأول قبل الميلاد) كان الجدار يطلى ليمثل بناء أو واجهة أو بهواً ذا عمد ، وكثيراً ما كانت العمد ترسم كما تبدو للناظر إليها من الداخل ، وبينها مناظر الريف الحلوية ، وبهذه الطريقة كان الفنان يضفى على الغرفة التى لا نوافذ لها فى أغلب الظن محيطاً ذا نسيم عليل من الأشجار والأزهار والحقول ، والجدول ، والحيوانات الهادئة أو المرحة اللاعبة .

وكان فى وسع ساكنها السجين فيها أن يتخيل أنه مقيم فى حدائق لوكلس ، ولم يكن ذلك ليكلفه أكثر من النظر إلى الجدران كما كان فى وسعه أن يصيد السمك ، أو يقتنص الحيوان ، أو يداعب الطيور ويدللها ، ويعتز بها فى غير فصولها وأيامها ، وذلك لأن الطبيعة كانت تنقل إليه فى منزله فلا يتحمل هو مشقة الانتقال إليها . وفى الطراز الثالث أو طراز التحلية (١ — ٥٠ م) كانت الأشكال الهندسية المعمارية للزينة لا غير ، وكانت تضع المناظر الطبيعية فى المنزلة الثانية بعد صور الآدميين . وفى الطراز الرابع المختلط المعقد كان الفنان يترك العنان لخياله يخترع تراكيب وأشكالا غريبة ، ويضعها فى مواضعها وهو مرح ساخر مما تتطلبه الحشمة والوقار ، ويكدس صورته الحدائق والعمد والبيوت الريفية والجواسق بعضها فوق بعض كتشويش الرسوم فى هذه الأيام[٢٦] ؛ وكثيراً ما كان يحصل بهذا على الأثر الذى تحدثه فى الناظرة صور تكملها ذكريات لاوعيية سلطت عليها الأضواء . وكان فن العمارة فى جميع هذه الطرز المتقاربة إما خاضعاً للتصوير ومسيطراً عليه يخدمه ويستخدمه ، فأنشأ فيه بذلك تقاليد عادت إلى اليقظة بعد ستة عشر قرناً على يدى نقولاس پوسن Nicholas Poussin

ومن دواعى الأسف أن ما بقى من موضوعات الرسوم الكبرى قلما يتعدى الأساطير اليونانية : فالآلهة ، وجن الحراج ، والأبطال ، والخاطئون المذنبون — زيوس ، والمريخ ، وديونيشس ، وپان ، وأخسيل ، وأديسيوس ، وإفچينيا ، وميديا هذه كلها تتكرر تكراراً يبعث على الملل والسآمة ، وإن كانت هذه التهمة بعينها يمكن توجيهها إلى فن النهضة . وثمة صور قليلة تمثل الحياة الهادئة الساكنة ، كما أننا نعثر فى مواضع متفرقة على مطرقة أو صاحب حانة أو قصاب يلتمع فوق جدران پمپى . وكثيراً ما يسيطر الحب على المنظر برمته فترى فتاة مطرقة يتنازعها شوق كمين ليس معدوم الصلة بإيروس إله العشق الواقف إلى جانبها ، وترى الفتيات والشبان يمرحون على الكلأ يتبادلون نظرات الوجد والهيام ، وأرباب

الخمر والفسق يلعبون كأن المدينة لم تعرف فى حياتها شيئاً غير الحب والخمر ؛ وإذا ما حكمنا على نساء پمپى من صورهن التى على الجدران كانت هؤلاء النسوة خليقات بأن يكون جمالهن محور الحياة بأجمعها فى تلك المدينة ، فنحن نراهن منهمكات فى لعبة « الكعاب » أو متكئات فى رشاقة على القيثارات ، أو نشاهدهن يقرضن الشعر والأقلام بين شفاههن ، ودلائل التفكير بادية على ملامحهن ، ووجوههن هادئة من أثر النضوج ، وأجسامهن سليمة صحيحة كاملة النمو ، وأثوابهن مسبلة عليهن ، فضفاضة أنيقة كأنها من نحت فدياس ، يمشين كأنهن كلهن هلن اليونانية التى سلبت عقل باريس بن پريام ، مدركات قداستهن . وترى إحداهن ترقص رقصة باخوسية(*) لعلها فى هواء رقيق ، وذراعها ويدها وقدمها اليمنى من أجمل ما رأته العين فى تاريخ التصوير . ويجب أن تضم إلى هذه الروائع بعض صور الرجال أيضاً كصورة تسيوس Theseus وهو ينتصر على المنوتور Minotaur وهرقل وهو ينجى ديانيرا Deianira أو يتبنى تلفوس Telephus ، وأخيل يسلم وهو غضبان آسف برسيس Briseis المتمنعة الآبية . وكل شكل رسم فى هذه الصورة الأخيرة يكاد يبلغ الغاية فى الكمال ويصل فيه التصوير الپمپيائى إلى ذروة الإبداع . وللفكاهة أيضاً نصيبها من التصوير ؛ فهذا زعيم مهرج أشعث يتعثر على عكازته ، وهذا جنى ظريف يهز ساقيه فى مرح تهكمى ، وهذا سيلينس Silenus أصلع بذىء يصور وهو فى نشوة موسيقية . وللحانات والمواخير أيضاً مكانها فى زينة الجدران ، ولا يجد السائح المتقصى حاجة لأن يقال إن بريابس Priapus لا يزال يزهو بقواه الثمينة على جدران پمپى . وفى الطرف الآخر من هذه السلسلة حيث توجد بيوت الضواحى نرى طائفة من الصور الدينية توحى بأن المكان كان يستخدم للاحتفال بالطقوس الديونيشية الخفية ؛ ففى أحـــد المظلات نشاهد بنتاً أمعنت فى تقواها بغير رفق حتى شلت حركتها ؛ تقرأ فى كتاب يبدو أنه كتاب

(*) نسبة إلى باخوس إله الخمر عند اليونان الأقدمين (المترجم)

مقدس ؛ وفى مظلم آخر يتقدم موكب من الفتيات ينفخن فى الأبواق ، ويأتين بالقرابين ؛ وفى مظلم ثالث نرى سيدة عارية ترقص على أصابع قدميها وإلى جوارها راهبة مبتدئة راكعة على ركبتيها ، منهوكة القوى من شدة ما قاست فى أحد الطقوس الدينية[٢٧]. وأجمل من هذه كلها نقش جدارى عثر عليه فى خرائب ستابيا Stabiae من نوع نقوش بتيشلى Botticelli ومتقدم عليها ، ويسمى هذا النقش **الربيع** : وهو يمثل امرأة تمشى فى حديقة على مهل تقطف الأزهار ، ولا يرى منها إلا ظهرها ورأسها تديره بخفة ورشاقة إلى خلفها ؛ وقلما استطاع فن من الفنون أن يصور ما فى هذا الموضوع السهل من شاعرية تصويراً مؤثراً فى النفس مثيراً للعواطف كما صوره هذا الفنان .

وأقوى ما وجد من الصور فى هذه الخرائب صورة ميديا التى عثر عليها فى هركيولانيم Herculaneum وحفظت فى متحف نابلى ، وهى تمثل امرأة مطرقة عليها ثياب فاخرة تفكر فى مقتل أبنائها ؛ ويلوح لنا أن هذه صورة منقولة عن الصور التى أجاز عليها قيصر مصورها تيوماكس Timomachus البيزنطى بأربعين ألف وزنة (تالنت) أى ١٤٤٠٠٠ ريال أمريكى[٢٧] ؟

ولم يوجد فى رومة إلا القليل من الصور التى تبلغ هذه المنزلة ، ولكن عثر فى بيت ليفيا المقام فى بريما پورتا Prima Porta على مثل رائع من صور المناظر الطبيعية التى تسمو فيها إيطاليا على بلاد اليونان . فيه تخدع العين فيظن الإنسان أنه يجتاز بهواً إلى تكعيبة فى أرض رخامية من ورائها أجمة من النبات والأزهار بلغت من الإتقان حداً يمكن العالم النباتى فى هذه الأيام من أن يتبينها ويصنفها ؛ فكل ورقة من أوراقها رسمت بشكلها ولونها الطبيعيين ، والطيور تجثم على مواضع متفرقة منها كأنها تحط عليها إلى وقت ما ، والديدان تزحف بين الأغصان والأوراق . ويقرب من هذه الصورة فى روعتها ورقتها **عرس الدبرندينى** التى وجدت فى التل

الإسكويلى فى عام ١٦٠٦ والتى درسها روبن Rubens وڤان ديك وجيته بحماسة بالغة . وقد تكون هذه منقولة عن صورة يونانية ، وقد تكون صورة أصلية من عمل رسام يونانى استوطن رومة ، أو من عمل رومانى أصيل . وكل ما نستطيع أن نقوله واثقين أن ما عليها من صور الأشخاص — كصورة العروس الحادثة الحيية ، والآلهة التى تسديها النصيحة ، والأم المنهمكة فى الاستعداد للعرس ، والعذارى ينتظرن ليعزفن على القيثارة ويغنين — كل هذه قد رسمت برقة وحساسية ترفعان هذا الرسم الجدارى إلى منزلة الآثار الفنية القديمة الممتازة .

على أن فن التصوير الرومانى يخلو من عنصر الابتكار ، وسبب ذلك أن الفنانين اليونان نقلوا معهم تقاليدهم وأساليبهم إلى كل مكان نزلوا فيه ، وحتى النزعة التأثرية الغامضة التى فى هذه الصور قد تكون من أثر مهارة الفنانين الاسكندريين ؛ ولكن فيها مع ذلك دقة فى الخطوط ، وغزارة فى اللون نعرف منهما لم بلغ المصورون أمثال أبليز Applles وبروتوچنيز Protogenes من الشهرة مثل ما بلغه منها المثالون من طراز بولكليتس وبركستليز . واللون فى بعض الأحيان واضح غزير كما لو كان چيورچيون Giorgione هو الذى وضعه ، كما أن تدرج الأضواء والظلال يوحى فى بعض الأحيان أنه من عمل رمبرانت Remebrandt . وترى تارة رسماً خالياً من الدقة يذكر الإنسان بواقعيه ڤان جونج المنفرة . وفن المنظور فى الرسم غير صحيح كما أن السرعة فى العمل تفسد نضج التفكير . ولكن ما فى الرسوم من حيوية نضرة يغطى على هذه الأغلاط كلها ، فتناسب الثياب يخدع العين ، ومناظر الغابات والأشجار كانت بلاريب من أسباب البهجة لسكان المدن المكتظة بالسكان . ويجب ألا ننظر إلى هذه الرسوم بعين هذه الأيام ، فأذواقنا اليوم أقل تحرراً وأكثر تحفظاً من أذواق لأقدمين ، ونحن نفضل أن نترك الجدران كما هى مقصورة على وظيفتها ، وقد كنا حتى

الأمس القريب نتردد فى أن نغطيها بالألوان . أما الإيطالى فكان الجدار له بمثابة السجن ، وقلما كان يطل منه على العالم من خلال نافذة ؛ ولهذا كان يرغب فى أن ينسى هذا الحاجز القائم أمام عينيه ، وأن ينخدع بطريق الفن إلى جنان السلام المخضرة الناضرة . ولعله كان فى تفكيره هذا على حق ، فإن شجرة مرسومة على جدار لخير من منظر يتألف من ألف قمة من قمم سطوح المنازل الخشنة غير المصقولة التى تشوه جمال السماء كأنها قرح خبيثة فى الشمس ، ويطل عليها المرء من نافذة مسحورة فى جدار .

الفصل السابع

العمارة

١ — أصولها ، موادها ، أشكالها

لقد احتفظنا إلى آخر هذا الباب بأهم ما نستطيع أن نعرضه فى رومة على زائرها الذى نسيناه فى أثناء حديثنا الطويل عن فنى النقش والتصوير . أما وقد وصلنا إلى هذا الفصل الأخير فلنعرض على هذا الزائر أهم الفنون الرومانية على الإطلاق وهو فن العمارة الذى استطاعت به أن تحمى نفسها من غزو اليونان ، والذى أظهرت فيه قدرتها على الابتكار وجرأتها وقوتها . على أن الابتكار لا يكون بغير لقاح فهو كالنسب مزيج جديد من عناصر موجودة من قبل ؛ والثقافات جميعها انتقائية فى حداثة عهدها لأن التعليم يبدأ بالتقليد ، فإذا ما بلغت الروح أو الأمة أشدها طبعت بطابعها — إن كان لها طابع — جميع أعمالها وألفاظها . لقد أخذت رومة ، كما أخذ غيرها من مدائن البحر الأبيض المتوسط ، نظم العمد الدورية والأيونية والكورنثية من مصر وبلاد اليونان ، ولكنها أخذت نظام العقود والأقواس والقباب من آسـية ، ومن مزيجهما أقامت مدينة من القصور ، والأروقة ذات العمد ، والمدرجات ، والحمامات لم ير العالم مثيلا لها من قبل . ولقد أضحى فن العمارة الرومانى هو التعبير الفنى عن الروح الرومانية والدولة الرومانية : فهو يمثل الجرأة ، والتنظيم ، والفخامة ، وقد رفعت القوة العضلية هذه الصروح المنقطعة النظير فوق التلال فكانت هى الروح الرومانية ممثلة فى الجلاميد الصم .

وكان معظم كبار المهندسين المعماريين فى رومة رومانيين لا يونان ،

وقد كتب أحد هؤلاء المهندسين واسمه ماركس ڤتروڤيوس پليو Marcus Vitruvius Pallio كتاباً فى العمارة يعد من أمهات الكتب العالمية القديمة فى هذا الفن (حوالى ٢٧ ق . م)(*) . ذلك أنه بعد أن قضى فترة من الزمن مهندساً حربياً يعمل تحت إمرة قيصر فى أفريقية ، ومهندساً معمارياً فى عهد أكتاڤيان ، اعتزل العمل الرسمى فى شيخوخته ليضع أصول أعظم الفنون الرومانية وأسماها منزلة . وهو يقول عن نفسه « إن الطبيعة لم تهبنى طول القامة ، ولم تبق السنون على شىء من جمال وجهى ، وسلبنى المرض قوة جسمى ؛ ولهذا أرجو أن أكسب رضاء الناس بعلمى وبكتابى »(٢٩) . وكما أن شيشرون وكونتليان قد جعلا الفلسفة من مستلزمات الخطيب ، كذلك رآها ڤتروڤيوس من مستلزمات المهندس المعمارى ، فهى تحسن أغراضه كما يحسن العلم وسائله وأدواته ، وهى « تسمو بمداركه وتجلعه رقيق الحاشية ، عادلا ، وفياً ، غير شره ، ولا يمكن أن يتم عمل صالح من غير إيمان قوى ويدين طاهرتين »(٣٠) . وقد وصف مواد البناء ، والأعمدة ، وأجزاءها ، ومختلف أنماط المبانى فى رومة ، وأضاف إلى الكتاب بحوثاً فى الآلات ، والساعات المائية ، ومقاييس السرعة(**) ، ومجارى مياه الشرب المسقوفة ، وتخطيط المدن والصحة العامة . وقد أشار ڤتروڤيوس باستعمال النظام الإشعاعى(†) فى تخطيط المدن (وهو النظام الذى خططت عليه مدينة الإسكندرية القديمة وواشنجتن الحديثة) بدل النظام المربع الذى ثبت قواعده هبودامس Hippodamus فى كثير من المدن اليونانية ،

(*) يظن بعض العلماء أن هذا الكتاب ليس من تأليف ڤتروڤيوس بل مدسوس عليه وأنه كتب فى القرن الثالث الميلادى ، ولكن الشواهد كلها تؤيد صحة نسبته إلى مؤلفه .

(**) وإذا شئت الدقة فسمه مقياس الدورات odometer ويتكون من إسفين يصل عجلة صغيرة بقطب العجلة التى يحركها ترس ، وينشأ من دورة العجلة الصغيرة الشديدة البطء عن العجلة الكبيرة سقوط حصاة فى صندوق(٣١) .

(†) أى الذى تتشعع فيه المبانى والشوارع من مركز من وسط المدينة إلى أطرافها .
(المترجم)

أشار ڤتروڤيوس باستعمال هذا النظام الإشعاعى ولكن الرومان ظلوا يخططون مدنهم على النظام المربع نظام معسكراتهم . ومما يؤثر عنه أنه حذر إيطاليا من أن الماء الذى تشربه فى كثير من أجزائها يؤدى إلى تضخم الغدة الدرقية ، وقال إن التسمم قد ينتج من الاشتغال بالرصاص ، وفسر الصوت بأنه حركة اهتزازية فى الهواء ، وكتب أول بحث باق حتى الآن فى علاقة هندسة البناء بالأصوات . وقد كان لكتابه الذى كشف من جديد فى عصر النهضة أعمق الأثر فى ليوناردو داڤنشى ، وپلاديو Palladio وميكل أنجلو .

ويقول ڤتروڤيوس إن الرومان يبنون بالخشب والآجر ، والجبس الناعم والمسلح والحجر والرخام . وكان الآجر المادة الشائعة الاستعمال فى الجدران : والعقود والأقواس ، وكثيراً ما كان يستعمل هو والجبس لتغطية الملاط . وكان الآجر يصنع من الرمل ، والجير ، وتراب الرخام ، والماء ، ويصقل صقلا جيداً ويوضع طبقات بعضها فوق بعض ، يصل سمكها بعض الأحيان إلى ثلاث بوصات . ومن أجل هذا استطاع ذلك الآجر أن يحتفظ بشكله تسعة عشر قرناً كما نشاهد ذلك فى الكلوسيوم أما المسلح فلم تبلغ أمة من الأمم إلى وقتنا هذا ما بلغه الرومان فى صنعه واستخدامه : فقد كانوا يأخذون الرماد البركانى الكثير بقرب ناپلى ، ويخلطونه بالجير والماء ، ويضعون فيه قطعاً من الآجر ، والفخار ، والرخام ، والحجارة ، ويخرجون منها منذ القرن الثانى قبل الميلاد ملاطاً فى صلابة الصخور ، يمكن أن يصب فى أى قالب ، ولا يكاد يستعصى عليه أى شكل يراد أن يشكل به . وكانوا يصبونه كما نصبه الآن فى أحواض مصنوعة من ألواح خشبية . وبفضله استطاعوا أن يغطوا مسافات كبيرة لا عمد فيها بقباب صلبة خالية من الأكتاف الجانبية التى تحمل السقف المقوس . وهذه هى الطريقة التى شادوا بها قمة الپانثيون ، وقمم الحمامات الكبرى . واستخدمت الحجارة فى تشييد معظم الهياكل وبيوت الكبراء ، وكان من أنواعها نوع نصف شفاف يستخرج من

كبدوكية ينفذ الضوء من خلاله ، حتى أن هيكلا بنى به كان ينال كفايته من ضوء النهار وجميع نوافذه مغلقة[٣٢] وبدأت رغبة الرومان فى استخدام الرخام على أثر فتح بلاد اليونان ، وقد أشبعوا هذه الرغبة باستيراد العمد أولا ، ثم باستيراد الرخام ، ثم باستخراجه من محاجر كرارا القريبة من لونا Luna . وكان استخدام الرخام قبل أيام أغسطس مقصوراً على الأعمدة والألواح المستوية ، ثم استخدم فى عهده لتغطية الآجر والمسلح ؛ وإذا ما قال إنه ترك رومة مدينة من الرخام فيجب ألا يفهم من قوله هذا أكثر من المعنى السالف الذكر ، وهو أن بعض ما فيها من آجر ومسلح فى أجزاء متفرقة منها قد غطى بألواح من الرخام . أما الجدران المشيدة من الرخام المصمت فكانت نادرة ، وكان الرومان يميلون إلى أن يجمعوا فى البناء الواحد بين حجر مصر الأعبل الأحمر والرمادى ، وحجر عوبية البصلى[*] ذى اللون الأخضر ، ورخام نوميديا الأسود والأصفر ، وبين رخامهم الأبيض المستخرج من محاجر كرارا وأحجار البازلت ، والمرمر ، والحجر السماقى ، ولم تبلغ مواد البناء فى عصر من العصور ما بلغته فى رومه من تعدد فى الأنواع والألوان .

وقد أضافت رومة إلى الطرز الدورية ، والأيونية ، والكورنثية الأنماط التسكانية والأنماط المركبة من خليط من هذه كلها أو من بعضها بصورها الأصلية أو بتعديل فيها . وكثيراً ماكانت العمد تقام من حجر واحد بدل أن تكون من حجارة مثقوبة يرتكز بعضها فوق بعض . وكانت للعمد الدورية قواعد أيونية ، واتخذت لها شكلا جديداً رفيعاً خالياً من الثنايا ، وقد تكون للتيجان الأيونية التى تعلو الأعمدة أربع تلافيف فى بعض الأحيان حتى يكون منظرها واحداً من جميع الجوانب ، أما العمد والتيجان الكورنثية فقد بلغت فى تطورها حداً من الجمال والرقة لم تبلغه نظائرها اليونانية وإن كان الإفراط فى التجميل والتنميق قد أفسد هذا الطراز من

(*) وهو المسمى بحجر السبلينو Cipollino وهو حجر جيرى محبب يحتوى على الميكا (المترجم)

العمد فى العصور المتأخرة . ومثل هذا يقال عن الإفراط فى رسم الأزهار فوق التلافيف الأيونية لصنع التيجان المركبة من طرز مختلفة كما نشاهد ذلك فى قوس تيتس . وكانت التلافيف تنتهى أحياناً بأشكال حيوانية أو آدمية توهم الرائى بأنها ميازيب على صورة حيوانات أو أناس على غرار ما صنع منها بعدئذ فى العصور الوسطى . وكثيراً ما كان الرومان المسرفون يخلطون بين طرز مختلفة فى البناء الواحد ، كما نشاهد ذلك فى ملهى مارسلس ، يضاف إلى هذا أنهم قد بلغ بهم الشح فى بعض الأحيان حداً جعلهم يتركون العمد الجانبية ملتصقة بجسم الهيكل نفسه كما نشاهده فى البيت المربع maison carrée فى نيمز Nimes . وظل الرومان يضيفون العمد إلى مبانيهم يزينونها بها ولو لم يعد لها عمل أصيل بعد أن سلبها تطور العقود ما كان لها من شأن قديم فى استناد هذه المبانى إليها — وبقيت هذه العادة قائمة إلى عصرنا الحاضر دون أن يعرف مصدرها الذى أخذت عنه ؛

— ٢ —

هياكل رومة

لقد احتفظت رومة فى جميع هياكلها إلا قلة ضئيلة منها بنظام الأروقة ذات العمد ، المبسوطة عليها عوارض رئيسية تحمل السقف . وكان أغسطس متحفظاً فى الفن شأنه فى كل شىء سواه ، ولذلك استمسكت جميع الأضرحة التى بنيت بأمر منه بالتقاليد الصحيحة القديمة . ثم أخذ الأباطرة من بعده يضاعفون عدد الهياكل التى يقيمونها لآلهتهم التى تنافسهم فى السلطان والجاه ، ويغشون فجورهم بستار من التقى المعمارى ، حتى ازدحمت التلال وسدت الشوارع بالمزارات المقرمدة المذهبة . وكان چوپتر بطبيعـــة الحال صاحب النصيب الأوفر منها ، فكان من بين هياكله الكثيرة هيكل چوپتر المرعد ، وهيكل چوپتر المثبت الذى ثبت

أقدام الرومان وأوقف هربهم فى القتال ، واقتسم مع يونو ومنيرفا أقدس مزارات رومة فوق تل الكبتول . فقد أقيم فى الحجرة الوسطى تمثال ضخم من الذهب والعاج لجوبتر الأفضل والأعظم Jupiter Optimus Maximus يحيط به من الجانبين رواق معمد ذو ثلاث طبقات . وتعزو الرواية التاريخية أول صورة من صور هذا الصرح الأعظم من الصروح الرومانية المقدسة إلى تاركونيوس بسكس وقد دمرته النار عدة مرار ، وكان فى كل مرة يعاد بناؤه بعد تدميره . واختلس استلكو فى عام ٤٠٤ م أبوابه البرنزية المذهبة ليؤدى بها رواتب جنده ، ونهب الوندال قراميد السقف المصفحة بالذهب ، ولا تزال بعض قطع من أرضيته باقية إلى اليوم .

وكان يقوم على القمة الشمالية من قمم هذا التل نفسه هيكل يونو المنذرة أو الحارسة Juno Moneto ، وهناك كانت دار سك العملة . ولا حاجة إلى أن نذكر للقارئ أن اسم دار السك (mint) والنقود (money) مصدر كثير من المطامع ، مشتق من لفظ منيتو الذى كانت تلقب به يونو . وعلى المنحدر الجنوبى من منحدرات هذا التل كان يقوم معبد ساترن (زحل) أقدم آلهة لكبتول . ويرجع الرومان تاريخ بناء هذا الهيكل لذلك الإله إلى عام ٤٩٧ ق . م ؛ وقد بقى منه حتى الآن ثمانية عمد أيونية وعارضة واحدة فوق بعض هذه العمد . و السوق الكبرى عند سفح التل كان المعبد الصغير المخصص ليانوس Janus إله البدايات كلها . وكانت أبوابه لا تفتح إلا فى زمن الحرب ولم تغلق فى أثنائها إلا ثلاث مرات فى تاريخ رومة القديم . وفى الركن الجنوبى الشرقى من أركان السوق كان هيكل كاستر و بلكس Castor anb Pollux الذى شيد فى عام ٤٩٥ ق . م ؛ وقد وصلت إلينا من بقايا هذا الهيكل الذى جدده تيبريوس ثلاثة عمد كورنثية رفيعة ، وهى بإجماع الخبيرين أجمل العمد الرومانية على الإطلاق .

وأضاف أغسطس إلى هذه الهياكل فى سوقه هو هيكلا للمريخ المنتقم

Mars Ultor وفاء بنذره قبل فلپای Philippi ، ولا تزال ثلاثة من عمده الفخمة قائمة فى مكانها إلى اليوم . وكان أحد أطراف ساحته الوسطى عبارة عن نصف دائرة ذات سقف مقبب ، وهى طراز معمارى أصبح فيما بعد طراز محراب الكنائس المسيحية الأولى . وأقام أغسطس على تل البلاتين هيكلا فخما من الرخام الخالص للإله أپلون نظير معونته له فى أكتيوم ، وزينه بتماثيل من صنع ميرون Miron واسكوباس Scopas ، وأضاف إليه مكتبة فخمة ومعرضاً فنياً ، وبذل كل ما فى وسعه ليشعر الناس إن الإله قد غادر بلاد اليونان وجاء إلى رومة يحمل معه إليها زعامة العالم الروحية والثقافية ؛ بل إن أصدقاء أغسطس ، بعد أن زالت أسباب التحرج من هذا الهمس بوفاة والدة أغسطس ، قالوا إن أپلو متخفياً فى صورة ثعبان رشيق سريع الحركة هو الذى استولدها هذا الزعيم الداهية .

وكان فى الجزء الشمالى الغربى من المدينة هيكل عظيم لإيزيس Issis وعلى تل البلاتين مزار فسيح لسيبيل . وكانت فيه ، ملاذات لبعض المعانى المجردة مجسدة — كالصحة والشرف ، والفضيلة ، والوئام ، والوفاء ، والحظ ، وكثير من أمثالها . وكانت كل هذه الهياكل تقريباً تحتوى ساحات ملأى بالتماثيل والرسوم الملونة . وقد جمع ڤسپازيان فى معبد السلم العظيم الذى أقامه كثيراً من الكنوز الفنية التى كانت فى بيت نيرون الذهبى ، وبعض المخلفات التى جاء بها من أورشليم وأباح للناس مشاهدتها . ويمتاز هيكل فرتونا ڤريلس Fortuna Virilis القائم فى سوق بوريوم Forum Boarium بأنه أكمل بناء فى رومة من عهد ما قبل أغسطس احتفظ بأجزائه إلى اليوم . وكانت نساء العاصمة يترددن كثيراً على هذا الهيكل للعبادة فيه ، فقد كن يعتقدن أن الآلهة تعلمهن كيف يخفين عيوبهن عن أعين الرجال .

وقد أضاف مهندسو رومة إلى هذه الهياكل وإلى عشرات العشرات من الهياكل الأخرى المشيدة على الطراز المربع القديم ، أضافوا إليها عدة هياكل

دائرية الشكل تكشف عن سيطرتهم الحديثة على مشكلة تشييد القباب . وتقول الرواية التاريخية إن هذا الطراز من البناء مأخوذ من كوخ رميولوس المستدير الذى احتفظ به كما يحتفظ بالآثار الدينية على تل البلاتين قروناً طوالا .

ولا يكاد يقل عنه فى القدم بيت ڤستا Aedes Vestae الجميل المجاور لهيكل كاسترو پلكس ؛ وكانت ساحته الوسطى المغطاة جدرانها بالرخام الأبيض تحيط بها عمد كورنثية جميلة ، وكان سقفها قبة من الشبهان المذهب . وكان إلى جوارها قصر العذارى الڤستية — ويتكون من أربع وثمانين حجرة مشيدة على نظام الأديرة حول بهو ذى عمد . ولم يكن الپانثيون قد أصبح بعد هيكلا مستدير الشكل ؛ فقد كان فى صورته التى أقامه عليها أجربا مستطيلا ، ولكن كانت له ساحة مستديرة أمامه . وقد أقام مهندسو هدريان فوق هذه الساحة الهيكل المستدير والقبة الضخمة اللذين لا يزالان حتى الآن أعظم شاهدين على جرأة الإنسان وشجاعته .

— ٣ —

التحول الفجائى إلى الطراز المقوس

لقد كانت رومة فى عمارتها الدنيوية أعظم منها فى عمارتها الدينية . ذلك بأنه كان فى وسعها فى أولى العمارتين أن تتحرر من قيود التقاليد ، وأن تجمع بين الهندسة والفن — بين المنفعة والقوة من جهة ، والجمال والشكل من جهة أخرى — بطريقة اختصت بها هى لا يشاركها فيها غيرها من المدن . لقد كان الأساس الذى قامت عليه العمارة اليونانية هو الخط المستقيم (مهما أدخل عليه من التنظيم الدقيق كما يشاهد فى البارثنون) : كالعمود الرأسى ، والعارضة الأفقية ، والقوصرة المثلثة الشكل ، أما أساس هندسة البناء الرومانية الخالصة فقد أصبحت الخط المنحنى ؛ ذلك أن الرومان كانوا ينشدون العظمة ، والإقدام ، والضخامة ،

ولكنهم لم يكن فى وسعهم أن يسقفوا مبانيهم الواسعة على مبادئ الخطوط المستقيمة والأروقة ذات العمد إلا إذا أقاموا فيها مجموعة من العمد التى تعترض طرقاتها ، وكانت سبيلهم للتغلب على هذه المشكلة هى الأقواس بشكلها المستدير فى الغالب ، وما العقود إلا أقواس استطالت ، وما القباب إلا أقواس تحركت ودارت ، ولعل القواد الرومان وأعوانهم قد ألفوا فى مصر وآسية الأشكال المقوسة ، وإزدادت ألفتهم لها على مر الأيام ، فأيقظوا فى مواطنيهم التقاليد الرومانية والتسكانية القديمة التى طال العهد بطغيان الأنماط اليونانية عليها ، فأخذت رومة تستخدم العقود استخداماً بلغ من اتساعه أن اشتق منه فن البناء كله اسم جديد أصبح علماً عليه ولم يفارقه قط : وقد أنشأ الرومان القبوة المفصلية بوضع شبكة من الأضلاع المكونة من الآجر على طول خطوط الالتواء قبل أن يصب الملاط المسلح فى الإطار الخشبي لعمل السقف ؛ ثم أنشئوا ، بوضع قبوتين اسطوانيتين متعامدتين ، شبكة من الأضلاع والحنيات تستطيع أن تتحمل فوقها بناء أثقل منها كما تستطيع أن تتحمل دفعاً قوياً من الجانبين . هذان هما المبدآن اللذان قام عليهما الانقلاب الفجائى فى فن العمارة الرومانية وتحوله من طراز الخطوط إلى طراز الأقواس .

وبلغ الطراز الجديد كما له فى الحمامات والمدرجات الكبرى ، وكانت حمامات أجربا ، ونيرون ، وتيتس الحلقة الأولى من سلسلة طويلة انتهت بحمامات دقلديانوس ، فقد كانت هذه صروحاً من الملاط المسلح مغطاة بالجبس أو الآجر تعلو علواً شاهقاً فى الهواء . وكانت مزينة من داخلها بفساقى من الرخام والفسيفساء ، وبأعمدة مختلفة الألوان ، وسقف مزخرفة ، وصور ملونة وتماثيل . وكان فيها حجرات لخلع الملابس ، وحمامات ساخنة وباردة ، وحجرة وسطى ذات هواء دفىء ، وبرك للسباحة ، ومواضع للتمرينات الرياضية ، ومكتبات وحجر للمطالعة ، وأخرى للبحث ، وأرائك للراحة ، وأكبر الظن أنها كانت

تحتوى أيضاً على معارض فنية . وكانت أغلب الحجرات تسخن من مركز عام تمتد منه أنابيب كبيرة من الصلصال ، وتسير تحت أرض الحجرات وفى داخل الجدران . وكانت هذه الحمامات(*) الحارة أوسع وأفخم ما شيد من المبانى العامة ، ولم يوجد لها قط نظائر من نوعها فى العالم كله ؛ وكانت جزءاً من الاشتراكية فى الترفيه عن الشعب حاولت به الزعامة أن تبرر سلطانها المطلق المتزايد .

وكانت هذه النزعة نفسها هى الحافز على بناء أعظم دور التمثيل فى التاريخ كله . وكان عدد هذه الدور فى رومة أقل منها فى العواصم الحديثة ، ولكنها كانت أوسع منها رقعة . وكان أصغرها هو الملهى الذى شاده كورنليوس بلبس Cornelius Balbus فى ميدان المريخ (١٣ ق . م) ، والذى كان يتسع لسبعة آلاف وسبعمائة من النظارة ؛ وقد أعاد أغسطس بناء ملهى بمبى الذى كان يتسع لسبعة عشر ألفاً وخمسمائة ، وأتم بناء ملهى آخر سماه باسم مرسلس Marcellus ويتسع لعشرين ألفاً وخمسمائة . وكانت هذه الدور تختلف عن مثيلاتها فى بلاد اليونان فى أنها كانت مسورة ، وفى أن مقاعد النظارة كانت تستند إلى أبنية ذات أقواس وقباء بدل أن تستند إلى منحدرات التلال . وكان المسرح وحده هو المسقف ، ولكن النظارة كانوا يتقون الشمس بمظلة من نسيج التيل (velarium) كانت فى ملهى بمبى تغطى مساحة عرضها ٥٥٠ قدماً . وكانت فوق المداخل مقصورات للأعيان وذوى المناصب الكبرى فى الدولة ، وكان لبعض المسارح ستائر لم تكن ترفع إلى أعلى إذا بدأ التمثيل بل كانت تنزل فى فتحات معدة لها . وكان المسرح يرتفع على أرض الملهى بنحو خمس أقدام ، وكان الجزء الخلفى منه يتخذ فى العادة شكل بناء أنيق يمتد من أحد جانبيه إلى الجانب الآخر ، فيمكن

(*) ولقد كانت الحمامات الرومانية أنموذجاً أقيمت على مثاله مبان حديثة كثيرة واجهت نفس المشكلة التى واجهها الرومان ، وهى تغطية مساحة واسعة من الأرض بأبنية ليس فيها إلا أقل عدد مستطاع من العوائق ، ومن أشهر أمثلة هذه المبانى محطة بنسلفانيا ، والمحطة الوسطى فى نيويورك .

الممثلين بذلك من أن يسمعوا أصواتهم للعدد الجم من النظارة الذين يضمهم الملهى . ويحدثنا سنكا عن « صناع المسارح الذين يخترعون حالات ترتفع من نفسها أو أرضيات ترتفع فى سكون فى الهواء »[٣٢ ا] . وكان تغيير المناظر يحدث بوساطة مناشير دوارة أو بتحريك مجموعة منها إلى طرف المسرح أو إلى أعلاه فتنكشف بذلك المجموعة التى تليها . وكان يستعان على إسمـــاع النظارة أصوات الممثلين بوضع جرار فارغة فى أرض المسرح وجدرانه[٣٢ ب] . وكانت أمكنة النظارة تبردها جداول مائية تجرى فى ممراتها ، وكان مزيج من الماء والنبيذ وعصير الزعفران ينقل أحياناً إلى أعلى المقاعد فى أنابيب ثم يرش على النظارة على هيئة رشاش عطر[٣٢ جـ] . وكان داخل الملهى يزدان بالتماثيل وكانت صور كبيرة ترسم على المسرح بدل المناظر المتغيرة فى هذه الأيام . ولعلنا لا نجد الآن فى العالم كله ملهى مهما عظم يبلغ فى الاتساع والفخامة ما بلغه ملهى پمپى فى رومة .

وكانت حلبة الألعاب ومضمار الركض والمدرج أحب إلى الشعب من دار التمثيل . وكان فى رومة عدة مضامير تستخدم أكثر ما تستخدم المباريات الرياضية . وكان سباق الخيل والعربات وبعض الألعاب الأخرى تعرض فى حلبة فلامنيوس فى ميدان المريخ أو فى الحلبة الكبرى التى جدد قيصر بناءها بين تلى بلاتين وأفنتين . وكانت هذه الحلبة فى شكل قطع ناقص طوله ٢٢٠٠ قدم وعرضه ٧٠٥ ، وكان فيها مقاعد خشبية فى ثلاث جهات منها تتسع لمائة وثمانين ألفاً من النظارة[٣٣] . وفى وسعنا أن نقدر ثروة رومة إذا عرفنا أن تراجان أعاد بناء هذه المقاعد من الرخام .

وكان بناء الكلوسيوم بناء متواضعاً إذا قيس إلى هذه الحلبة الكبرى ، فقد كانت مقاعده لا تتسع لأكثر من خمسين ألفاً ، ولم يكن تصميمه جديداً ؛ لأن مدن إيطاليا اليونانية كانت من زمن بعيد تحتوى مدرجات مثله ؛ فقد أنشأ كوريو Curio كما قلنا من قبل مدرجاً فى عام ٥٣ ق . م ؛

وبنى قيصر مدرجاً آخر فى عام ٤٦ ، وبنى استاتليوس تورس Statilius Taurus مدرجاً ثالثا فى عام ٢٩ ق.م . وكان ڤسپازيان هو الذى بدأ المدرج الفلافى — وهو الاسم الذى كان الرومان يطلقونه على الكلوسيوم — كما كان تيتس هو الذى أتمه فى عام ٨٠ م ، ولا نعرف اسم المهندس الذى أشرف على بنائه : وقد اختار ڤسپازيان لبنائه البحيرة التى كانت فى حديقة قصر نيرون بين التل الكئيلى Caelian والتل الپلاتينى . وقد شيد من الحجر الترافرتينى (*) على شكل إهليلجى يبلغ طول محيطه ١٧٠٠ قدم . وكان ارتفاع ســوره الخارجى ١٥٧ قدماً ، وكان مقسما إلى ثلاثة أطباق يقوم بعض طابقه الأول على أعمدة تسكانية — دورية ، ويقوم طابقه الثانى على عمد أيونية ، والثالث على عمد كورنثية ، وبين كل عمودين عقد . وكانت الدهاليز الرئيسية مسقوفة بأقبية اسطوانية تتقاطع فى بعض المواضع على طراز أديرة العصور الوسطى . وكان داخله مقسما أيضاً إلى ثلاث طبقات تستند كل منها إلى أعمدة ، وتنقسم إلى حلقات من المقصورات والمقاعد ، متحدة فى مركزها تقطعها طرقات ذات درج فتقسمها إلى « أوتاد » cunei : ويبدو داخله للناظر إليه فى هذه الأيام كأنه كتلة ضخمة من البناء قطع فيه صانع جبار عقوداً وطرقات ومقاعد . وكان داخله يزدان بالتماثيل وغيرهما من وسائل التجميل ، وكانت كثير من صفوف المقاعد مصنوعة من الرخام ، وكان للمدرج ثمانون مدخلا خصص اثنان منها للإمبراطور وحاشيته . وكانت هذه المداخل والمخارج vomitoia تكفى لإخراج الجماهير الغفيرة التى تملأ هذا المدرج الضخم فى دقائق معدودات . وكان يحيط بالحلبة التى يبلغ اتساعها ٢٨٧ قدماً فى ١٨٠ سور يبلغ ارتفاعه خمس عشرة قدما يعلوه دربزون يحمى وحوشه الآدميين من وحوش الغاب . وليس الكلوسيوم من المبانى الجميلة المنظر ، وإن ضخامته

(*) هذا هو الاسم الذى يطلقه الإيطاليون على الحجر الجيرى الذى يتكون من رواسب مياه الفوارات الذائب فيها الجير . (المترجم)

نفسها لتنم عما فى الطبيعة الرومانية من خشونة ، كما تكشف عما فيها من عظمة : وكل ما يمكن أن يقال فى مديحه أنه أكثر الخرائب التى خلفها العالم الرومانى القديم روعة . لقد كان الرومان يبنون كما يبنى الجبابرة ، ولو أننا طلبنا إليهم أن يصقلوا مبانيهم كما يصقل الصــياغ الحلى لكلفناهم ضد طباعهم .

لقد أنشأ الفنانون الرومان فنهم من خليط مختار من الطرز الأتيكية ، والأسيوية ، والإسكندرية ، فجمعوا فيه بين التحفظ والضخامة والرشاقة : غير أنهم لم يمزجوا فى يوم من الأيام هذه الصفات لينشئوا منها تلك الوحدة الأساسية التى هى أساس من أسس الجمال . وإن فيما تتصف به المبانى الرومانية الخالصة من قوة وفجاجة لمســحة شرقية ، فهى تبعث فى النفس الرهبة لا الجمال ؛ وإن پنثيون هدريان نفسه ليعد من عجائب الصروح أكثر مما يعد من روائع الفن ؛ فليس لنا أن نتطلع فى الفن الرومانى إلى رقة الشعور ودقة التنفيذ اللهم إلا فى حالات نادرة كالنقوش والتحف الزجاجية الباقية من عصر أغسطس . بل يجب أن نتوقع هنا وجود فن هندسى يهدف إلى الغاية فى الصلابة والاقتصاد والمنفعة ، إلى افتتان العصامى بالضخامة والزينة وإصرار الجندى على الواقعية ، وإلى فن المحارب ذى القوة الباطشة . وإذا كان الرومان لم يصقلوا فنهم صقل الصياغ فما ذلك إلا لأن الفاتحين لا يصبحون قط صياغاً ، ولذلك صقلوه صقل الفاتحين .

وما من شك فى أنهم قد أنشأوا أكثر المدن فتنة وروعة فى التاريخ ، وأوجدوا فناً مرناً ، تصويرياً ومعمارياً فى مقدور كل إنسان أن يفهمه ، وشادوا مدينة يستطيع كل مواطن أن يعيش فيها وينتفع بها . لقد كانت جماهير الأحرار فى تلك المدينة فقيرة قليلة الثراء ، ولكنها كانت إلى حد ما تمتلك كثيراً من ثروتها : فقد كانت تأكل حب الدولة ، وتجلس بغير أجر ، أو بأجر هو والعدم سواء ، فى دور التمثيل ، وفى حلبات الألعاب ، وفى المدرجات وميادين السباق . وكانوا يمارسون ضروباً من الرياضة البدنية ،

ويتناولون المرطبات ، ويستمتعون بضروب التسلية ، ويتعلمون فى الحمامات ؛ ويتفيئون ظلال مئات من الأروقـــة ذات العمد ، ويمشون تحت القباب والعقود المنقوشة المزينة التى كانت تغطى أميالا كثيرة من شوارع رومة ، وتغطى ثلاثة أميال فى ميدان المريخ وحده ، ولم يشهد العالم قبل رومة عاصمة مثلها ، فقد كان فى وسطها سوق عجاجة صخابة تدور فيها رحى العمل بلا انقطاع ، وتتردد فى جنباتها أصداء أصوات الخطباء ، وتدور فيها المناقشـــات التى تزلزل قواعد الإمبراطورية ، ومن حولها حلقة من الهياكل ، والباسلقات ، والقصور ، ودور التمثيل ، والحمامات ، فى كثرة منقطعة النظير ؛ وتحيط بهذه الحلقة حلقة أخرى من الحوانيت مكتظة بالبائعين والمشترين ، تدوى فيها أصواتهم ، وتليها حلقة ثالثة من البيوت والحدائق ، فحلقة رابعة من المعابد والحمامات مرة ثانية ، وتنتهى بدائرة من القصور الريفية الصغيرة ذات الحدائق ، ثم الضياع التى تدفع بأطراف المدينة إلى الريف وتربط الجبال بالبحر . هذه هى رومة القياصرة — مزهوة ، قوية ، براقة ، مادية ، قاسية ، ظالمة ، مشوشة غير منظمة ، سامية رفيعة الذرى .

الباب السابع عشر

رومة الأبيقورية

٣٠ ق. م — ٩٦ م

الفصل الأول

الشعب

والآن فلندخل تلك المساكن ، والهياكل ، ودور التمثيل ، والحمامات لنرى كيف كان يعيش الرومان ، وسنراهم حين ندخلها ممتعين أكثر من فنونهم . وعلينا أن نذكر من بادئ الأمر أن أولئك القوم قد صاروا قبل عهد نيرون رومان من الوجهة الجغرافية فحسب ، لأن الظروف التى عجز أغسطس عن التغلب عليها ، وهى ما سرى بين الأسر القديمة من عادات الامتناع عن الزواج ، وعن التناسل ، ومن قتل الأطفال ، وتحرير الأرقاء ، وما كانت تتصف به الأسر الجديدة من خصوبة نسبية ؛ كل هذا قد غير أحوال الشعب الرومانى من الناحية العنصرية ، والأخلاقية ، والجسمية .

لقد كان الرومان فى العهد القديم تدفعهم الغريزة الجنسية إلى كثرة النسل ، كما كانت تدفعهم إليها أيضاً رغبتهم فى أن يكون لهم من بعدهم من يعنى بقبورهم ؛ أما فى الوقت الذى نتحدث عنه ، فقد عرفت طبقاتهم العليا والوسطى كيف تفصل الغريزة الجنسية عن الأبوة ، فتشبع الأولى دون أن يؤدى ذلك الإشباع إلى الثانية ، كما أصبحت هذه الطبقات ترتاب فى عقيد الدار الآخرة ؛

وكانت تربية الأبناء فى الزمن الأول واجبا على الآباء للدولة يحتمه عليهم الشرع ويلزمهم به الرأى العام ؛ أما الآن فقد بدا من أسخف الأشياء أن يطلب إلى الآباء أن يزيدوا عدد سكان المدينة التى ضاقت بمن فيها ؛ وكان المنافقون المداهنون لا ينفكون يتملقون العزاب ومن لا أبناء لهم من المتزوجين يطلبون إليهم أن يوصوا لهم بأموالهم بعد وفاتهم . وقد وصف چوفنال هذه الحال بقوله : « إن أكثر ما يحبب فيك أصدقاءك أن تكون لك زوج عقيم[1] » . وقد ورد على لسان شخصية من شخصيات پترونيوس : « ليس فى أقرطونا إلا طبقتان من السكان — متملِّقون ومتملَّقون ، والجريمة الوحيدة فيها أن تلد أبناء يرثون مالك من بعدك . فهى أشبه بميدان قتال فى فترة راحة : ليس فيه إلا جيف وطيور جارحة تلتهمها »[2] . وفقدت أم ولدها الوحيد فعزاها سنسكا بقوله إنها ستصبح محببة عند الناس مكرمة لأن « الشكل عندنا يزيد سلطان الثكلى أكثر مما ينقصه »[3] وكان فى أسرة جراكس اثنا عشر طفلا ، ولكننا لا نعتقد أنه كان بين طبقتى الأشراف والفرسان فى رومة على عهد نيرون خمس أسر من هذا النوع . وكان الزواج عند الرومان فى العهد القديم رباطاً اقتصاديا يدوم مدى الحياة ، أما الآن فقد أصبح فى نظر مائة ألف رومانى مغامرة قصيرة الأجل ، خالية من كل معنى روحى ، وعقداً ضعيفاً يسهل التحلل منه غايته الحصول على اللذة الجسمية أو السلطة السياسية . ولكى تفلت النساء من القيود المفروضة على العزاب فى الوصايا والهبات كان بعضهن يتزوجن بالخصيان حتى لا يحملن[4] ، ومنهن من كن يعقدن زيجات صورية على رجال فقراء مشترطات ألا يطلب إليهن أن يحملن ، وأن يكون لهن من العشاق بقدر ما يرغبن[5] . وكانت موانع الحمل بنوعيها الآلى والكيميائى واسع الانتشار[6] فإذا لم تفلح أسعفهن الإجهاض بأشكاله الكثيرة . نعم إن الفلاسفة والمشترعين كانوا يحرمونه ، ولكن أرقى الأسر كانت تلجأ إليه . وفى ذلك يقول چوفنال : « إن الفقيرات من النساء

يقاسين آلام الوضع ومتاعب تربية الأبناء ، أما الفرش المذهبة فقلما تضم امرأة حاملا ؛ ألا ما أشد حذق المجهضين وما أقوى العقاقير المجهضة ! » ولكنه مع هذا يقول للزوج « أعطها الدواء وأنت مغتبط ، فإنك قد تجد نفسك ، إن ولدت ، أبا لطفل حبشي »(٧) . وأما قتل الأطفال فقد كان نادراً في هذا المجتمع المستنير(*) .

على أن قلة نسل الطبقات المثرية في رومة والإمبراطورية الرومانية كان يقابله من الناحية الأخرى كثرة الهجرة وخصب الطبقات الفقيرة ، ولذلك ظل سكان رومة والإمبراطورية في ازدياد مستمر . وقد قدر بلوك Belock سكان رومة في عهد الإمبراطورية الأولى بثمانمائة ألف ، وقدرهم جين بمليون ومائتي ألف ، وقدرهم ماركوارت Marquardt (**) بمليون وستمائة ألف . وقدر بلوك سكان الإمبراطورية بأربعة وخمسين مليونا ، كما قدرهم جين بمائة وعشرين مليوناً(١١) . وظل عدد الأشراف كما كان من قبل ، ولكنهم كانوا كلهم تقريباً يختلفون في أصولهم عن الأشراف القدامى ؛ فلم نعد نسمع عن أسر إيمليوس ، وكلوديوس وفابيوس وفليريوس ؛ ولم يبق من العشائر القديمة التي ظلت من عهد قيصر تفخر بأصولها وتختال في رومة إلا أسرة كرنليوس . فمن هذه الأسر من حصدته الحروب أو الاغتيالات السياسية ؛ ومنها من قضت عليه قيود الزواج وتحديد النسل ، والعجز الجنسي ، ومنها من افتقر حتى أصبح في عداد الطبقات الدنيا . وحل محل هذه الأسر في رومة رجال الأعمال الرومان ، وأعيان البلدان

(*) وكان بعض البنات واللقطاء يعرضون أحياناً لتقلبات الجو في القرن الأول بعد الميلاد . وكان ذلك يحدث عادة عند عمود الرضاع **Columna Lactaria** — وقد سمي بهذا الاسم لأن الدولة كانت ترسل المرضعات لتغذية من يعثر عليهن هناك من الأطفال وإنقاذ حياتهم(١٠) . على أن التخلص من الأطفال غير المرغوب فيهم عادة شائعة في كل المجتمعات إلا المجتمعات التي لا تستمتع بقسط من الحضارة .

(**) وقد بلغ عدد سكان رومة في عام ١٩٣٧ حوالي ١٫١٧٨٫٠٠٠ نسمة .

الإيطالية ، وأشراف الولايات النائية . وقد قال عضو فى مجلس الشيوخ عام ٥٦ م : إن « الكثرة الغالبة من الفرسان ، والعدد الكبير من أعضاء مجلس الشيوخ ، من نسل الأرقاء »[١٢] . ولم يمض على هؤلاء الأعيان الجدد إلا جيل أو جيلان حتى تخلقوا بأخلاق من سبقوهم ، فقل نسلهم ، وزاد ترفهم ، واستسلموا لتيار المهاجرين من الشرق .

وكان أول القادمين هم اليونان — ولم تكن كثرتهم من بلاد اليونان الأصلية ، بل كانت من شمال أفريقية ، ومصر ، وسوريا ، وآسية الصغرى ، وكانوا على جانب كبير من الحماسة ، والنشاط ، ولين العريكة ، أشبه بأهل الشرق ؛ وكانت كثرتهم من صغار التجار أو المستوردين ؛ وكان بعضهم علماء ، وكتاباً ، ومعلمين ، وفنانين ، وأطبـاء ، وموسيقيين ، وممثلين ؛ وكان بعضهم يشتغلون بالفلسفة حباً فى دراستها أو طمعاً فيما يعود عليهم من المال من هذه الدراسة ؛ وكانت كثرتهم من الموظفين الإداريين ورجال المال القادرين ، وكان الكثيرون منهم لا يرعون عهداً ولا ذمة ، وكلهم تقريباً لا يؤمنون بدين . وقد أتى معظمهم فى الأصل أرقاء ، ولم يكونوا ممتازين فى شىء ، وحافظوا بعد تحررهم على مظاهر الذلة والخنوع وعلى ما كانوا يبطنونه من حقد على أغنياء الرومان ، الذين أصبحوا من الناحية الذهنية كلا على التراث الثقافى لليونان الأقدمين ، واستهزاء بهم . وغصت شوارع العاصمة باليونان الثرثارين الكثيرى الجلبة والحركة ، وكان السائر فيها يسمع اللغة اليونانية أكثر مما يسمع اللغة اللاتينية ، وكان على الكاتب إذا أراد أن تقرأ جميع طبقات الأمة كتابته أن يكتبها باليونانيـة . وكان المسيحيون الأولون فى رومة كلهم تقريباً يتكلمون اللغة اليونانية ، وكذلك كان السوريون والمصريون ، واليهود . وكانت جالية كبيرة من المصريين — تضم تجاراً وصناعاً وفنانين — تعيش فى ميدان المريخ . أما السوريون ، النحاف الأجسام ، الوادعون الظرفاء ، الماكرون الدهاة ، فكان الإنسان يلتقى بهم فى كل مكان فى العاصمة

يشتغلون بالتجارة ، والصناعات اليدوية ، والأعمال الكتابية ، والشئون المالية ، والاحتيال على الناس .

وأصبح اليهود من عهد قيصر عنصراً قوياً من عناصر السكان فى العاصمة وقد وفد منهم إليها عدد قليل من عهد ماض يرجع إلى عام ١٤٠ ق . م[١٣] وجيء بعدد كبير منهم إلى رومة أسرى حرب بعد حروب پمپي التى شبت فى عام ٦٣ ق . م ، ولم يلبث هؤلاء أن تحرروا من الرق بجدهم ، واقتصادهم ، أو لأن استمساكهم الشـــديد بأوامر دينهم كان يضايق سادتهم . ولم يحل عام ٥٩ ق . م حتى كان عددهم فى الجمعية قد ازداد إلى حد جعل شيشرون يصف معارضتهم بأنها مجازفة سياسية غير مأمونة العاقبة[١٤] . ويمكن القول بوجه عام إن الحزب الجمهورى كان معادياً لليهود ، وإن الشعب والأباطرة كانوا من أصدقائهم[١٥](*) وقبل أن ينصرم القرن الأول كان عددهم فى العاصمة قد بلغ ٢٠,٠٠٠[١٨] ، وكانت كثرتهم تسكن على الضفة الغربية من نهر التيبر ، وكانت تعانى الأمرين من جراء الفيضان الموسمى لهذا النهر . وكانوا يعملون فى أحواض السفن القريبة من مساكنهم . ويشتغلون بالصناعات اليدوية وبتجارة الأشتات فى الحوانيت ، أو بالتنقل فى أحياء المدينة . وكان منهم أغنياء ، ولكن لم يكن من بينهم إلا عدد قليل من كبار التجار ، فقد كان السوريون واليونان هم المسيطرين على التجارة.

(*) وقد ظلوا على الدوام يؤيدون قيصر ، وبسط عليهم فى نظير ذلك حمايته ورعايته ، وحذا أغسطس حذوه فى هذه الخطة ؛ أما تيبيريوس فكان معادياً لكل العقائد الأجنبية ، ولذلك جند أربعة آلاف منهم ليحاربوا فى سردينية حرباً لا تكاد تختلف فى شيء عن الانتحار ، ثم أخرج البقية الباقية منهم من رومة (١٩ م)[١٦] . ثم أدرك بعد اثنى عشر عاماً من ذلك الوقت أن سجانوس قد أضله فى هذا الأمر ، فألغى مرسوم نفيهم ، وأمر ألا يضار اليهود فى ممارسة طقوس دينهم وفى اتباع عاداتهم[١٧] . وبسط عليهم كاجيولا حمايته فى رومة ، والكنه قاومهم فى خارجها ؛ ونفى كلوديوس بعضهم على أثر ما أحدثوه فى المدينة من شغب ، والكنه أصدر فى عام (٤٢) مرسوماً عاماً يؤيد فيه حقهم أياً كان مقامهم فى أنحاء الإمبراطورية فى أن يعيشوا حسب قوانينهم . وفى عام ٩٤ نفى دومتيان اليهود من رومة إلى وادى إجيريا Egeria ، وفى عام ٤٦ أعادهم نيرفا Nerva إلى رومة ، ورد إليهم حقوقهم المدنية ، وسمح لهم أن يستمتعوا بالطمأنينة جيلا كاملا .

الدولية . وكان لهم فى رومة عدد كبير من المعابد ، لكل واحد منها مدرسته ، وكتبته ، ومجلسه المكون من شيوخهم[١٩] ، والمعروف باسم الجروسيا Gerousia. وكانت نزعة اليهود الانفصالية ، واحتقارهم للشرك وعبادة الأوثان ، وتزمتهم الخلقى ، وامتناعهم عن الذهاب إلى دور التمثيل أو مشاهدة الألعاب ، وعاداتهم وطقوسهم الدينية الغريبة ، وفقرهم وما نتج عنه من قذارة ، كان كل هذا سبباً فى كراهية العناصر الأخرى لهم ، وهى الكراهية المألوفة فى تاريخهم الطويل . وقد نجد چوفنال يندد بكثرة تناسلهم ، كما ندد تاستس بوحدانيتهم الدينية وأميانس مرسلينس Ammianus Marcellinus بشغفهم بالثوم[٢٠] . وزادت البغضاء بينهم وبين غيرهم من الطوائف بعد استيلاء الرومان على بيت المقدس وسط معارك دموية ، ومثلت فى موكب النصر الذى استقبل به تاستس جماعة كبيرة من الأسرى اليهود والغنائم المقدسة ، كما مثلت رموز من هذا النوع على ما أقيم له من أقواس النصر ، وأضاف فسپازيان إلى أذاهم السخرية منهم وأمر أن يخصص من ذلك الوقت نصف الشاقل ، الذى كان يرسله اليهود المشتتون لصيانة الهيكل ، لتعمير رومة . على أن كثيراً من الرومان المتعلمين كانوا يعجبون بعقيدة التوحيد اليهودية ، ومنهم من اعتنق هذا الدين ، وكان الكثيرون منهم حتى من بين الأسر الغنية يتخذون يوم السبت اليهودى يوم عبادة وراحة .

وإذا ما أضفنا إلى اليونان ، السوريين ، والمصريين ، واليهود ، وبعض النوميديين ، والنوبيين ، والأحباش الأفريقيين ؛ وقليلا من العرب ، والبارثيين ، والكپدوكيين ، والأرمن ، والفريجيين ، والبثينيين الأفريقيين ؛ « والبرابرة » الأقوياء من دلماشـيا ، وتراقية ، وداشيا ، وألمانيا ، والأشراف ذوى الشوارب من غالة ، والشعراء والفلاحين من أسپانيا ؛ « والمتوحشين ذوى الوشم من بريطانيا » إذا ما أضفنا هؤلاء كلهم إلى اليونان كانت لنا صـورة من الأجناس المختلفة التى تتكون منها روما الدولية . وقد دهش مارتيال أشد

الدهشة من قدرة عاهرات رومة على أن يكيفن لغتهن ومفاتنهن حسب أجناس من يترددون عليهن من هذا الخليط ، وحسب أهوائهم[٢٣] . وكان چوڤنال يقول وهو متألم إن نهر العاصى ، أكبر أنهار سوريا يصب فى نهر التيبر[٢٤]، ووصف تاستس العاصمة بأنها « بالوعة أقذار العالم »[٢٥] . وكانت وجوه الشرقيين ، وأساليبهم ، وملابسهم ، وألفاظهم ، وحركاتهم ، وإشاراتهم ، ومنازعاتهم ، وأفكارهم ، وعقائدهم ، عنصراً كبيراً من حياة المدينة الزاخرة ، وما وافى القرن الثالث بعد الميلاد حتى كانت حكومة المدينة ملكية مطلقة كحكومات البلاد الشرقية ، وما وافى القرن الرابع حتى كان دين رومة ديناً شرقياً ، وحتى خر سادة رومة سجداً لإله الأرقاء .

على أن هذا الحشد الخليط لم يخل من عناصر النبل والكرامة ، فقد جهر بسخطه على پوپيا عشيقة نيرون فى الوقت الذى صمت فيه الشيوخ فلم يجرؤوا على النطق بكلمة ؛ وهاجم مجلس الشيوخ ليحتج على قتل أرقاء بدونيوس سكندس جملة[٢٦] ، ولم تكن الفضائل البسيطة التى يتحلى بها الرجل العادى معدومة فى هذا المجتمع ؛ فقد كانت حياة الأسرة اليهودية مثلا يحتذى فى الحياة الصالحة ؛ وكانت الطائفة المسيحية القليلة العدد تقض بتقواها ورقة حاشيتها مضاجع العالم الوثنى المنهمك فى ملذاته وشهواته . لكن معظم الوافدين إلى رومة قد فسدت أخلاقهم بلا ريب حين انتزعوا من بيئاتهم ، وثقافاتهم ، وقوانينهم الأخلاقية التى نشأوا فيها ودرجوا عليها . وقضت أعوام الاستعباد الطوال على ما كانوا يتصفون به من احترام الذات الذى هو عماد الاستقامة والخلق الطيب ، وجردهم احتكاكهم فى كل يوم بطوائف من الخلائق مختلفى العادات والمشارب من كثير مما بقى لهم من أخلاق كريمة تأصلت فى نفوسهم بحكم العرف المألوف والعادة . ولو أن رومة لم تبتلع هذا العدد الكبير من الناس فى هذا الوقت القصير ، ولو أنها ألحقت هؤلاء الوافدين كلهم بمدارسها بدل أن تلحقهم بأقذر أحيائها ، ولو أنها عاملتهم على أنهم رجال ذوو مزايا كامنة فى نفوسهم تستطيع الكشف عنها

والانتفاع بها ، ولو أنها أغلقت أبوابها حيناً بعد حين فى وجه الوافدين حتى تستطيع عملية الهضم والتمثيل أن تجارى عملية الهجرة وتلاحقها ، لو أنها فعلت هذا لكان فى مقدورها فى أكبر الظن أن تكسب من هذا الاندماج قوة عنصرية وأدبية جديدة ، ولبقيت رومة رومانية ، ولظلت حصن الغرب الحصين الناطقة بمبادئه والمعبرة عن آرائه . أما وهى لم تفعل هذا فقد كان ذلك الواجب شاقاً عليها لا تستطيع الاطلاع به . وقضت على المدينة الظافرة سعة ملكها واختلاف الأجناس الخاضعة لحكمها ، ورق دمها الوطنى وخف فى محيط رعاياها الزاخر . وانحطت طبقاتها المتعلمة إلى ثقافة من كانوا عبيداً لها ، لأنهم لكثرتهم كانوا أقوى من سادتهم ، فغلبت كثرة هؤلاء على فضائل أولئك ومميزاتهم ؛ وأصبح المغلوبون المخصبون سادة فى بيوت الأسياد العقيمين المجدبين .

الفصل الثاني

التعليم

لسنا نعرف الشيء الكثير عن أطفال الرومان ، ولكن في وسعنا أن نحكم ، استناداً إلى الفن الروماني وشواهد القبور الرومانية ، أن الأطفال كانوا بعد أن يولدوا يصبحون موضع الحب المفرط غير الحكيم . ونرى جوفنال يخرج أحياناً عن غضبة ليكتب قطعة رقيقة تفيض بالعاطفة عن المثل الطيبة التي يجب علينا أن نعرضها على الأطفال ، وعن المناظر السيئة والأصوات المنفرة التي يجب أن نبعدهم عنها ، وعن مظاهر الاحترام التي يجب أن نتحلى بها أمامهم في جميع الأوقات حتى الأوقات التي نظهر لهم فيها منتهى الحب[٢٧] . ويطلب فافورينوس ، في مقال لو أنه كتب قبل عهد روسو لكان تقليداً ساخراً له ، إلى الأمهات أن يرضعن أولادهن[٢٨] . ويضرب سنكا وأفلوطرخس على هذه النغمة نفسها وإن لم يستمع إليها إلا عدد قليل ؛ فقد كان استخدام المراضع هو القاعدة المتبعة لدى جميع الأسر التي تمكنها مواردها من استخدامهن ، ويبدو أن هذه العادة لم تنشأ منها مآس لهذه الأسر(*) .

وكانت التربية الأولى تقوم بها المراضع ، وكن في العادة يونانيات . وكن يقصصن عليهم قصصاً خرافية تبدأ عادة بهذه العبارة : « يحكى أن ملكا وملكة . . . » وكان التعليم الابتدائي لا يزال من المشروعات الفردية ، وكثيراً

(*) وكانت اللعب والألعاب كثيرة كما هي في هذه الأيام ، فكان أطفال الرومان يقفزون فوق خطوط مرسومة على الأرض ، ويشدون الحبل ، ويصوبون النقود إلى هدف . وكان منها تغمية العينين ، والاستخفاء والبحث ، وكان منها اللعب بالدمى والأطواق ، والقفز على الحبل واتخاذ العصي خيولا ، وعمل الطائرات الورقية . وكان عند شباب الرومان خمس ألعاب بالكرة مختلفة بعضها عن بعض ، منها واحدة شبيهة بلعبة كرة القدم في هذه الأيام إلا أنها كانت تستخدم فيها الأيدي والأذرع بدل السيقان والأقدام[٢٩] .

ما كان الأغنياء يستأجرون المربين لأبنائهم ، ولكن كونتليان حذرهم من هذا العمل كما حذر منه إمرسن Emerson لأنه يحرم الطفل صداقة زملائه التي لا غنى له عنها في نشأته ، كما يحرمه عامل المنافسة التي تنبه قواه وتنشطها . وكان أبناء الطبقات الحرة وبناتها يدخلون المدرسة الأولية عادة في سن السابعة ؛ يصحب كلا منهم في غدوه ورواحه « مرشد الطفل » (بداجوج paedagogue) ليحافظ عليه من الناحيتين الجسمية والخلقية . وانتشرت هذه المدارس في جميع أنحاء الإمبراطورية فلم تخل منها بلدان الريف الصغيرة . وتوحي الكتابة المخرفشة(*) التي كشفت على جدران بمپي بأن أهلها لم يكن بينهم أميون ، وأكبر الظن أن التعليم كان وقتئذ منتشرا في عالم البحر الأبيض انتشاراً لا يقل عنه في أي وقت سابق لهذا العهد أو لاحق . وكان المرشد (البداجوج) والمعلم (لودى مجستر Ludi magister) من اليونان الأرقاء أو المحررين . وكان كل تلميذ في أيام هوراس وفي البلدة التي كان يعيش فيها يؤدي للمدرس في كل شهر ثمانية آسات (٤٨/١٠٠ من الريال الأمريكي)(٣٠) . وبعد ثلثمائة وخمسين سنة من ذلك الوقت جعل دقلديانوس الحد الأعلى للمدرس في المرحلة الأولية من مراحل التعليم خمسين ديناراً (٢٠ ريالا أمريكيا) عن كل تلميذ في كل شهر ، وفي وسعنا أن نحكم من هذا على ارتفاع قدر المدرس أو انخفاض قيمة الآس .

فإذا بلغ التلميذ (أو التلميذة) الثانية عشرة من عمره ، وكان ناجحا ، أدخل مدرسة ثانوية أو عالية ، وكان في رومة مائة وثلاثون مدرسة من هذا النوع . وكان التلاميذ يدرسون فيها قدراً أوفى من النحو ، واللغة اليونانية ، والآداب اليونانية واللاتينية ، والموسيقى ، والفلك ، والتاريخ ، والأساطير ، والفلسفة ؛ وكانت الطريقة المألوفة في هذه الدراسة هي المحاضرات التي تشرح أقوال الشعراء الأقدمين . ويلوح أن منهج الدراسة حتى هذه المرحلة كان واحداً للذكور والإناث

(*) في المحيط المخرفش المخلط وقد ترجمنا بها كلمة scribbling . (المترجم)

على السواء ، ولكن البنات كثيراً ما كن يتلقين فضلا عن هذا دروسا فى الموسيقى والرقص وإذ كان المدرسون فى المدارس الثانوية (جرماتيشى grammatici) من المحررين اليونان على الدوام ، فقد كانوا يوجهون معظم اهتمامهم إلى آداب اليونان وتاريخهم بطبيعة الحال ؛ ومن أجل هذا اصطبغت الثقافة الرومانية بالصبغة اليونانية ، حتى إذا ما أشرف القرن الثانى الميلادى على نهايته ، كانت اللغة اليونانية لغة التعليم العالى كله تقريباً ، وضاعت الآداب اللاتينية فى غمرة عاوم ذلك العصر وثقافته .

أما الدراسات التى تعادل الدراسات فى الكليات والجامعات فى هذه الأيام فكان مقرها مدارس الخطباء . ولم يكن فى الإمبراطورية مكان يخلو من الخطباء الذين يدافعون عمن يستأجرونهم فى دور القضاء أو يكتبون لهم الخطب ، أو يلقون المحاضرات العامة ، أو يعلمون التلاميذ فن الخطابة ، أو يقومون بهذه الأعمال كلها . وكان الكثيرون منهم ينتقلون من مدينة إلى مدينة ، يتحدثون فى الأدب ، أو الفلسفة أو السياسة ، ويعرضون على المستمعين كيف يطرقون أى موضوع بمهارة الخطباء البلغاء . ويحدثنا بلنى الأصغر عن إسيوس Isaeus اليونانى وكان وقتئذ فى الثالثة والستين من عمره فيقول :

كان يعرض على سامعيه عدة أسئلة للمناقشة ويترك لهم الحرية الكاملة فى اختيار أيها يشاءون ، بل كان يطاب إليهم أحياناً أن يختاروا له الناحية التى يجب أن يؤيدها ، ثم يقوم ، ويرتدى ثوبه ويبدأ حديثه . . . وكان يعرض موضوعه عرضاً لبقاً جميلا ، وكان قصصه واضحاً ، ونقاشه متيناً قويا يشهد بالذكاء والفطنة ، ومنطقه قويا ، ولغته بليغة إلى أقصى حدود البلاغة(٣١) .

وكان يسمح لهؤلاء الرجال أن يفتتحوا المدارس ، ويستخدموا فيها مساعدين لهم ، ويجمعوا عدداً كبيراً من الطلاب . يدخلونها حوالى السنة السادسة عشرة من العمر ، ويدفعون من الأجور ما يصل أحياناً إلى ألفى سسترس

عن كل منهج فى مادة من مواد الدراسة : وكانت أهم موضوعات الدرس هى الخطابة ، والهندسة النظرية ، والفلك ، والفلسفة — وكانت هذه المادة الأخيرة تشمل الكثير مما يطلق عليه الآن اسم العلوم الطبيعية . ويتكون من هذه المواد ما يعرف « بالتعليم الحر » أى المخصص لأبناء الأغنياء الأحرار (homoliber) ، وهم الذين لم يكونوا فى أغلب الظن يقومون بأى عمل جثماً . وقد شكا پترونيوس ، كما يشكو كل جيل ، من أن التعليم لا يؤهل الشبان لمواجهة ما سوف يعترضهم من المشاكل فى مستقبل حياتهم فيقول : « إن المدارس هى الملومة فيما يتصف به شبابنا من سخف وبلاهة ، لأنهم لا يستمعون فيها إلى شىء من شئون الحياة اليومية »(٣٢) . وكل ما نستطيع أن نقوله نحن عنها إنها كانت تربى فى الطالب المجد ملكة التفكير الواضح السريع ، الذى امتازت بها مهنة القضاء فى جميع العصور ، وعلمتهم تلك البلاغة الخلابة التى لا تتقيد بالقويم من المبادئ أو الأخلاق ، والتى امتاز بها خطباء الرومان . ويبدو أن هذه المدارس لم تكن تمنح خريجيها إجازات علمية ؛ وكان فى وسع الطالب أن يبقى فيها ما شاء ، وأن يختار من المواد ما يريد ؛ من ذلك أن أولس جليوس Aulus Gellius بقى فى إحداها حتى بلغ الخامسة والعشرين . وكانت مفتحة الأبواب للنساء حتى المتزوجات منهن . ومن شاء من الطلاب أن يستزيد من التعلم انتقل إلى أثينة لدراسة الفلسفة من منابعها الفياضة ، أو إلى الإسكندرية لدراسة الطب ، أو إلى رودس لدراسة آخر دقائق علوم البلاغة . وكان شيشرون يدفع عن ابنه فى جامعة أثينة ما قيمته أربعة آلاف ريال أمريكى فى كل عام .

وكانت مدارس البلاغة حين جلس ڤسپازيان على العرش قد بلغت من الكثرة وقوة النفوذ درجة رأى معها هذا الإمبراطور الداهية أن من الحكمة أن ينقل كبرياتها إلى العاصمة ، وأن يضعها تحت إشراف الحكومة ، وذلك بأن يدفع إلى كبار الأساتذة فيها مرتبات من قبل الدولة ، بلغ أعلاها

مائة ألف سسترس (نحو عشرة آلاف ريال أمريكى) فى كل عام . ولسنا نعرف كم عدد الأساتذة الذين خصهم ڤسپازيان بهذه المرتبات أو عدد المدن التى فاضت عليها أمواله . ولكننا نسمع بالإضافة إلى هذا عن هبات من الأفراد للتعليم العالى ، كما فعل پلنى الأصغر فى كومم Comum(٣٣) . وأعطى تراچان رواتب لخمسة آلاف طالب ، كان لهم من العقل أكثر مما لهم من المال . فلما جلس هدريان على العرش كانت البلديات هى التى تنفق على المدارس الثانوية فى معظم مدائن الإمبراطورية ، وخصص معاش للمدرسين بعد تقاعدهم . وأعفى هدريان وأنطونيوس كبار الأساتذة فى كل مدينة من الضرائب وغيرها من الأعباء العامة . وبلغ التعليم ذروته فى الوقت الذى انتشرت فيه الخرافات ، وفسدت الأخلاق وذوى غصن الآداب .

الفصل الثالث

الرجال والنساء

كانت الحياة الخلقية خاضعة للرقابة الشديدة عند البنات وللإشراف مع الرفق عند الشبان . وكان الرومان ، كما كان اليونان ، يتغاضون عن اتصال الرجال بالعاهرات . وكانت هذه المهنة ينظمها القانون ويخضعها لإشرافه ، فكان يحتم ألا توجد المواخير إلا فى خارج أسوار المدن ، وألا تفتح إلا ليلا وكان يناط بالإيديل تسجيل أسماء العاهرات ، ويحتم عليهن أن يلبسن الطوغة Toga بدل الاستولا Stola(*) . وكان بعض النساء يسجلن أسماءهن فى سجل العاهرات ليتخلصن من ضروب العقاب التى يفرضها القانون على الزانيات . وكانت الأجور تحدد بحيث لا ترهق أية طبقة من الطبقات . فقد وصلت إلينا أنباء عن « نساء يؤجرن بربع آس » . ثم نشأت طائفة مطردة الزيادة من السرارى المثقفات اللائى يسعين لكسب الأنصار بإنشاد الشعر ، والغناء ، والموسيقى ، والرقص ، والحديث المثقف . ولم يكن الإنسان فى حاجة إلى الخروج من أسوار المدينة للبحث عن هاته النسوة أو عن غيرهن من السيدات الطيعات ؛ ويؤكد لنا أوفد أن من السهل أن يلقاهن تحت الأروقة ذات العمد ، وفى حلبات المصارعة ، وفى دور التمثيل ، وأنهن « لم يكن أقل عدداً من نجوم السماء »[٣٤] . وقد التقى چوفنال بهن بجوار المعابد وخاصة معبد إيزيس الإلهة الرؤوفة بالعاشقين[٣٥] . ويتهم المؤرخون المسيحيون الرومان بأن الدعارة كانت تمارس داخل الهياكل الرومانية وبين مذابحها[٣٦] .

وكان فى البلاد أيضاً رجال مخنثون . وكان اللواط محرماً بحكم القانون ولكنه

(*) الطوغة رداء رومانى خارجى شبيه بالجبة ، والأستولا رداء خارجى مثلها ويختلف عنها فى أنه طويل سابل يصل إلى القدمين . (المترجم)

كان مباحاً بحكم العادة ، واسع الانتشار لا يرى فيه مسبة ولا عار . انظر إلى قول هوراس : « لقد أصاب قلبي سهم الحب » ، فهل يعرف القارئ من الذي رمى الشاعر بهذا السهم ؟ إنه « ليسيكوس الذي لا تضارعه أية امرأة في رقته » ؛ ولا شيء يشفي الشاعر من هذه العاطفة القوية « إلا شعلة أخرى من نار الحب تشعلها بين جوانحه فتاة جميلة أو يشعلها فتى آخر نحيل »[٣٧] . وتدور خير نكات مارتيال الشعرية حول اللواط . ومن قصائد چوڤنال في الهجو قصيدة لا يليق نشرها تردد شكوى إحدى النساء من هذه المنافسة المرذولة منافسة الغلمان للنساء[٣٨] . وكان الغزل الشعري في الذكور والإناث على اختلاف قيمته واسع الانتشار بين الشباب والفتيان الذين لم تنضج أجسامهم بعد .

وكان ثمة صراع شديد بين الزواج وبين هذه المنافذ الجنسية المنافسة له وكان يجد له أنصاراً من الذين يتوقون لأن يكون لهم أبناء ، ومن سماسرة الزواج ، وبفضل هذا العون كان في وسع كل فتاة تقريباً أن تجد لها زوجاً مؤقتاً على الأقل . وكانت النساء غير المتزوجات اللاتي يجاوزن التاسعة عشرة من العمر يعتبرن عوانس ولكن عددهن كان قليلا . وقلما كان الخطيب يرى خطيبته قبل الزواج ، ولم تكن هناك مغازلة وتحبب ، وليس في لغة الرومان لفظ للتعبير عن هذا المعنى . وقد شكا سنكا من أن كل شيء يجرب قبل الشراء عدا الزواج فإن العريس لا يجرب عروسه[٣٩] . ولم تكن الرابطة العاطفية قبل الزواج مألوفة ، وكان الشعر الغزلي يخاطب به النساء المتزوجات أو النساء اللائي لا يفكر الشاعر قط في أن يتزوج بهن . وكانت مداعبة النساء تأتي بعد الزواج ، كما كان يحدث في الظروف المشابهة لظروف الرومان في فرنسا في العصر الوسيط وفي هذه الأيام . وكان سنكا الأكبر يعتقد أن الزنى منتشر بين نساء الرومان في أوسع نطاق[٤٠] ، وكان ابنه الفيلسوف يظن أن المرأة المتزوجة التي تقنع بعاشقين تعد آية في الإخلاص لزوجها[٤١] . ويقول أوفد الساخر : ليس ثمة نساء طاهرات إلا اللاتي لم يطلبهن أحد ، وإن

الرجل الذى يغضب من صلات زوجته الغرامية رجل جلف[٤٢] . قد لا تكون هذه إلا أساليب أدبية مما يلجأ إليه الكتاب ، ولعل أصدق منها تلك القبرية التي كتبها كونتس ڤسپلو Quintus Vespillo على قبر زوجته · « قلما يدوم زواج حتى الموت من غير طلاق ، ولكن زواجنا ظل زواجاً سعيداً إحدى وأربعين سنة »[٤٣] . ويحدثنا چوڤنال عن امرأة تزوجت ثمانى مرات فى خمس سنين[٤٤] ؛ وسبب ذلك أن الرابطة بين الزوجين لم تكن فى بعض الأحيان هى الحب بل كانت المال أو السياسة ، ومن أجل ذلك كانت بعض النساء يرين أنهن قد أدين واجبهن كاملا إذا ما أسلمن بائنتهن إلى أزواجهن وأجسامهن إلى عشاقهن . ويقول چوڤنال على لسان زانية تخاطب زوجها الذى فاجأها على غير انتظار : « ألم نتفق على أن يفعل كل منا ما يحلو له ؟ »[٤٥] . وكان للمرأة فى ذلك العهد مثل ما لها الآن من « الحرية » الكاملة إذا ما استثنينا من ذلك الحقوق السياسية الشكلية وحرفية القوانين الميتة . لقد كان التشريع يبقى المرأة خاضعة أسيرة ، ولكن العادة جعلتها حرة طليقة .

وكان معنى هذا التحرر فى بعض الأحيان أن تقوم بنصيبها من العمل كما هى الحال فى هذه الأيام ؛ فمنهن من كن يعملن فى الحوانيت أو المصانع وخاصة فى الحرف المتصلة بالنسيج ، ومنهن من أصبحن محاميات أو طبيبات[٤٦] ؛ وأصبح لبعضهن سلطان سياسى قوى ، وكانت زوجات حكام الأقاليم يستعرضن الجند ويخطبنهم[٤٧] . وكانت العذارى الڤستية يتوسطن لأصدقائهن فى الحصول على المناصب السياسية ، وكانت نساء پمپي ينقشن على الجدران أسماء من يفضلن من الرجال لتولى هذه المناصب . وكان المحافظون يبدون الألم والشماتة حين ظهر لهم أن قد وقع ما حذرهم منه كاتو حين قال إن النساء إذا ما تساوين بالرجال سيحولن هذه المساواة إلى سيادة لهن . وقد ارتاع چوڤنال حين رأى من النساء ممثلات ، ورياضيات ، ومصارعات وشاعرات[٤٨] . ويصفهن مارتيال بأنهن يصارعن

الوحوش ، ومنها السباع فى المجتلد[٤٩] . ويحدثنا استاتيوس عن نساء قتلن فى هذه المصارعات[٥٠] . وكانت النساء ينتقلن فى الشوارع محمولات فى الهوادج . « يعرضن أنفسهن من كل ناحية للناظرين »[٥١] . وكن يتحدثن إلى الرجال فى الأروقة ، والمتنزهات والحدائق ، وساحات المعابد ؛ ويرافقنهم إلى المآدب العامة والخاصة ، وإلى المدرجات ، ودور التمثيل ، حيث « تكون أكتافهن العارية » كما يقول أوفد « من المناظر التى تسر العين وتبعث على التفكير »[٥٢] . والحق أن المجتمع الرومانى فى ذلك العهد كان مجتمعاً مرحاً ، متعدد الألوان ، مختلط الصلات الجنسية ، لو شهده اليونان فى عصر بركليز لتولتهم منه الدهشة ؛ وكانت نساء الطبقات الراقية فى فصل الربيع يملأن القوارب ، والشواطئ ، والبيوت الريفية ذات الحدائق فى بائى Baiae وغيرها من المصايف تعج بضحكهن ، ويعرضن فيها جمالهن ، ومغامرات عشقهن ، ودسائسهن السياسية . وكان الطاعنون فى السن من الرجال يندِّدون بهذه الفعال وهم يتمنون أن لو استطاعوا الاستمتاع بها .

وكانت النساء الطائشات أو الفاسدات يؤلفن وقتئذ كما يؤلفن الآن أقلية ظاهرة تقع عليها العين فى كل مكان . وكان ثمة عدد يماثلهن — وإن لم يكن على الدوام ظاهرات مثلهن — من النساء اللائى يعشقن الفن أو الدين أو الأدب . فقد كان الرومان يرون أن شعر سلبيشيا Sulpicia جدير بأن يتناقله الناس كشعر تيبلس Tibullus سواء بسواء . وكان شعرها غراميا متطرفا فى الغرام ، ولكنه كان موجهاً إلى زوجها ولهذا لا تكاد ترى فيه ما يبعده عن الفضيلة[٥٣] . وكانت ثيوفيلا Theophila صديقة مارتيال فيلسوفة ، متمكنة من مبادئ الرواقيين والأبيقوريين ، وكانت بعض النساء يشغلن وقتهن فى الأعمال الخيرية والخدمات الاجتماعية ، ومنهن من أنشأن فى مدنهن المعابد ، ودور التمثيل ، والأروقة ذات العمد ، وكن يناصرن جماعات الكهنة . وفى نقش عند لنورڤيوم Lanurvium

حديث عن « جمعية النساء » (curia mulierum) . وكان فى رومة ناد للسيدات ، ولا يبعد أن إيطاليا كان بها اتحاد أهلى لنوادى النساء . ومهما يكن من أمر هذه النوادى والمجتمعات فإننا بعد أن نقرأ ما كتبه عنها مارتيال وچوڤنال لا نكاد نصدق أنه كان فى رومة هذا العدد الكبير من فضليات النساء . كان فيها أكتاڤيا التى ظلت وفية لأنطونيوس رغم خياناته الكثيرة لها ، تربى أبناءه من زوجات أخرى ، وكان فيها أنطونيا ابنتها المحبوبة وأرملة دروسس الطاهرة وأم چرمانكوس الكاملة ، وملونيا Mallonia التى أنبت تيبيريوس على ملأ من الناس لكثرة آثامه ثم قتلت نفسها ، وأريا پيتا Arria Paeta التى طعنت صدرها بالخنجر حين تلقى زوجها كاسينا بيتس Caecina Paetus أمر كلوديوس بأن يقتل نفسه ثم أسلمت هذا الخنجر وهى تحتضر إلى زوجها وهى تؤكد له « أنه لا يؤلم[٥٤] » ، وپولينا التى حاولت أن تموت مع سنكا ، وپولتا التى حاولت أن تموت جوعاً حين أمر نيرون بقتل زوجها ، ثم انتحرت مع أبيها ، لما أن صدر أمر نيرون بقتله[٥٥] . وإبكارس Epicharis المعتوقة التى تحملت كل أنواع العذاب ولم تكشف عن مؤامرة پيزو Piso . وإن ننس لا ننس النساء الكثيرات اللاتى أخفين أزواجهن وحمينهن فى عهد القتل والتعذيب والتشريد ، واللاتى رافقنهم فى المنفى ، أو دافعن عنهم كما دافعت فانيا Fannia عن زوجها هلفديوس Helvidius ، وعرضن أنفسهن لأشد الأخطار : إن هؤلاء وحدهن إذا وزن فى ميزان مع العاهرات اللاتى ورد ذكرهن فى نكات مارتيال وقوارص چوڤنال ليرجحن عليهن بلا ريب .

وكان من وراء هؤلاء النسوة اللاتى اشتهرن ببطولتهن كثيرات من النساء المغمورات اللائى لم يذكر التاريخ أمرهن واللائى كان وفاؤهن لأزواجهن وتضحياتهن فى سبيل أبنائهن الدعامة القوية التى أبقت على صرح الحياة الرومانية . لقد ظلت الفضائل الرومانية القديمة — فضائل التقى والوقار

والبساطة — والإخلاص المتبادل بين الأبناء والآباء ، والشعور بالتبعة الصادر عن تعقل ورزانة ، والابتعاد عن الإسراف والتظاهر الكاذب ، ظلت هذه الفضائل كلها باقية في البيوت الرومانية . إن الأسر المهذبة الرقيقة السليمة التي يصفها بلنى فى رسائله لم تبدأ فجاءة فى عهد نيرڤا وتراچان ، بل كانت باقية هادئة فى أيام الطغاة المستبدين ، حافظت على كيانها رغم تجسس الأباطرة ، وتسفل الشعب المهين الذليل ، وانحطاط الفسقة والأراذل والمومسات . وإنا لنلمح ومضات من ضياء هذه البيوت فى القبريات التى يكتبها الأزواج لأزواجهم والأدباء لأبنائهم . وهاك واحدة منها : « هنا تثوى عظام أربليا Urbilia زوجة بريمس Primus . لقد كانت أعز على من حياتى نفسها ، لقد قضت نحبها فى الثالثة والعشرين من عمرها محبوبة من الجميع . وداعاً يا سلوتى ! » وجاء فى قبرية أخرى : « إلى زوجتى العزيزة التى عشت معها ثمانية عشر عاماً سعيدة . ولقد أقسمت من فرط حبي لها ألا أتزوج قط غيرها »[٥٦] . وفى وسعنا أن نتصور أولئك النساء فى بيوتهن — يغزلن الصوف ، يعذرن أبناءهن ويعلمنهم ، ويرشدن الخدم إلى واجباتهم ، ويحسن القيام على مصروفهن القليل ، ويشتركن مع أزواجهن فى عبادة آلهة البيت التى اعتدن أن يعبدنها من أقدم الأزمان . ولقد كانت رومة رغم ما فيها من فساد ، لا بلاد اليونان ، هى التى رفعت شأن الأسرة وسمت بها فى مدارج الرقى الجديدة فى العالم القديم .

الفصل الرابع

الثياب

إذا جاز لنا أن نحكم على الرومان من بضع مئات من التماثيل ، قلنا إن رجال الرومان فى عهد نيرون كانوا أكثر بدانة ، وألين أجساماً ، وأرق ملامح من أمثالهم فى عصر الجمهورية الناشئة . لقد كانت سيطرة الرومان على العالم سبباً فى احتفاظ الكثيرين منهم بالصلابة وشدة المراس ، يخشاهم الناس أكثر مما يحبونهم ؛ ولكن الطعام والخمر والكسل أثرت فى أجسام غير هؤلاء فأكسبتهم بدانة لو أنها كانت فى أسرة سپيو لجللتها العار . وكانوا لا يزالون يحلقون لحاهم — أو على الأصح كان لهم حلاقون (tensores) يحلقون لهم لحاهم . وكان اليوم الذى يحلق فيه الشاب لحيته أول مرة يوم عيد يحتفل به فى حياته . وكثيراً ما كان يهب شعر عارضيه الأول إلى إله من الآلهة دليلا على ورعه وتقواه(٥٧) . وقد احتفظ العامة من الرومان بعادتهم التى كانوا عليها فى عهد الجمهورية عادة تقصير شعر رؤوسهم ، أو إزالته كله ، ولكن عدداً متزايداً من الغنادرة(*) كانوا يقصون شعرهم ، وهكذا يمثل لنا ماركس أنطونيوس ودومتيان . وكان كثير من الرجال يتجلون بالشعر المستعار ، ومنهم من كانوا ينقشون على قحوف رؤسهم ما يشبه الشعر(٥٨) . وكانت جميع الطبقات فى العهد الذى نتحدث عنه تلبس داخل البيوت وخارجها اللفاعة البسيطة tunic أو الصدرة الواسة blouse ؛ أما الطوغة (Toga) أو الجبة الرومانية فلم تكن تلبس إلا فى المناسبات الرسمية ، وكان يلبسها الموالى حين يستقبلهم الشريف الذى يحميهم ،

(*) جمع غندر كجندب وقنفذ وهو الغلام السمين الغليظ الناعم وهذا اللفظ هو الذى أخذ منه العامة لفظ غندور وهو المعنى الذى استعملناه فيه هنا . (المترجم)

والأشراف إذا ذهبوا إلى مجلس الشيوخ أو مشاهدة الألعاب . وكان قيصر يلبس طوغة أرجوانية ويتخذها شعاراً لمنصبه ، وقد حذا حذوه فى هذا كثيرون من كبار الموظفين ، ولكن الطوغة الأرجوانية لم تلبث أن أصبحت امتيازاً خاصاً بالأباطرة . ولم يكونوا يعرفون السراويل (البنطلون) التى تضايقنا فى هذه الأيام ، ولا الأزرار الخداعة التى لا فائدة للكثير منها ، ولا السراويل المنتفخة الضيقة عند الركبتين . ولكن الرجال بدءوا فى القرن الثانى يلفون أرجلهم باللفافات العريضة fasciae ، أما الأحذية فكانت تختلف من الخف البسيط — وهو نعل من الجلد أو الفلين مشدود بشريط من الجلد بين الأصبع الكبرى والتى تليها كما يفعل أهل نيبون Nippon — إلى الحذاء الكامل المصنوع كله من الجلد أو الجلد والقماش . وكانوا ينتعلونه عادة مع الطوغة فى المناسبات التى تتطلب ارتداء الثياب كاملة .

أما النساء الرومانيات فى عهد الإمبراطورية الأول ، كما نشاهدهن فى المظلمات وفى التماثيل وعلى النقود ، فقد كن ذوات شبه قريب بنساء الولايات المتحدة الأمريكية فى بداية القرن العشرين إذا استثنينا من هذا التعميم أنهن كلهن تقريبا كن ذوات بشرة سمراء . وكانت أجسامهن متوسطات فى النحافة ، وكانت أثوابهن تخلع عليهن قواماً رشيقاً فاتناً ، وكن يدركن قيمة ضياء الشمس ، والرياضة ، والهواء الطلق ، وما لها من أثر فى صحة الجسم واعتدال القوام ؛ وكان منهن من يمارسن الألعاب الرياضية بالأثقال ، ومنهن من لا ينقطعن عن السباحة ، ومن يعشن على نظام خاص من الطعام . وكان بعضهن يربطن صدورهن بالمشدات(٥٩) . وكانت النساء فى العادة يمشطن شعرهن ويعقدنه خلف العنق ، وكن فى الغالب يغطينه بالشباك ، ويربطنه بشريط فوق الرأس . وتطلبت الأزياء المستحدثة بعدئذ تنظيما جديداً للشعر أرقى من هذا التنظيم القديم ، فكان يرفع أحيانا فوق أسلاك معدنية ، وتضاف إليه غدائر مستعارة شقراء اللون مأخوذة من شعر الفتيات الألمانيات(٦٠) . وكانت المرأة المتطرفة على

الطراز الحديث تستخدم عدداً من الجوارى ساعات طوالا فى تدريم أظافرها وتصفيف شعرها[61] .

وكانت أدهان الوجه والشعر كثيرة كثرتها فى هذه الأيام . ويقول چوفنال إن « التجميل » كان من أهم فنون ذلك العصر ، وقد كتب فيه الأطباء ، والملكات ، والشعراء ، مجلدات[62] . وكان صوان السيدة الرومانية مستودعاً غاصاً بالأدوات – من ملاقط ، ومقصات ، وأمواس ، ومبارد ، وفراجين ، وأمشاط ، ومكاشط ، وشباك للشعر ، وضفائر مستعارة – وأباريق أو قنانى للعطور ، والأدهان والزيوت والمعاجين ، وحجارة الخفاف ، والصابون . وكانت الجموش تستخدم لإزالة الشعر ، والمراهم المعطرة لتمويجه أو تثبيته . وكانت كثيرات من النساء تضع على أوجههن فى الليل غماء من العجين ولبن الأتان وهو مزيج اصطنعته پوبيا Poppea لأنها وجدت فيه عوناً لها على إخفاء عيوب وجهها . ومن أجل هذا كانت الأتانات تصحبها أينما سافرت ، وكانت أحياناً تصطحب قطيعاً كاملا منهن وتستحم بلبنهن[63] . وكانت النساء يطلين وجوههن بالمساحيق والمعاجين البيضاء أو الحمراء ، ويصبغن حواجبهن ورموشهن ، أو يطلينها كلها باللون الأسود ، وكانت الأوعية الدموية فى الصدغين ترسم فوقها أحياناً خطوط دقيقة زرقاء[64] . وكان مما يشكو منه چوڤنال أن المرأة الغنية « تكثر من مراهم پوبيا التى تلتصق بشفتى زوجها المنكود الحظ » ، الذى لا يرى وجهها قط . وكان أوفد يرى هذه الفنون كلها خداعاً فى خداع ، وينصح السيدات بأن يخفينها كلها عن عشاقهن عدا تمشيط شعرهن الذى يسبى عقله[66] . وأضيفت الثياب الكتانية الرفيعة فى ذلك العهد إلى أثواب النساء البسيطة التى كن يلبسنها قبل حروب هنيبال . وكانت خمرهن تسدل فوق أكتافهن ، والبراقع تخفى الوجوه فتزيدهن إغراء وفتنة . وكانت الثريات من النساء يلبسن فى الشتاء أثواباً من الفراء تزيدهن جمالا على جمالهن . أما الحرير فكان واسع الانتشار يلبسه الرجال والنساء على

السواء . وكان هو والنيل يصبغ بالأصباغ الغالية ، وكثيراً ما كان الثرى الرومانى يدفع ألف دينار ثمناً لرطل من صوف صور المزدوج الصباغة[٦٧] . وكان التطريز بخيوط الذهب والفضة يستخدم لتزيين الثياب ، والسجف ، والطنافس ، وأغطية الفرش . وكانت أحذية النساء تصنع من الجلد اللين الرقيق أو القماش ، وتفصل أحياناً تفصيلا جميلا ؛ وكانت مفتوحة من أعلاها ، تزركش أحياناً بالذهب وتحلى بالجواهر[٦٨] ، وتضاف إليها الكعوب العالية أحياناً لتعوضهن ما حرمتهن منه الطبيعة .

وكانت الجواهر عنصراً هاماً فى جهاز النساء ، فكانت الخواتم ، والأقراط وعقود العنق والصدر ، والتمائم ، والأساور ، والمشابك ، من مستلزمات الحياة . وقد ارتدت لوليا پولينا Lollia Poulina يوماً ما ثوباً مغطى من رأسها إلى قدمها بالزمرد واللؤلؤ ، وكانت تحتفظ معها بالإيصالات الدالة على أن هذه الجواهر قد كلفتها أربعين مليون سسترس[٦٩]. ويصف بلنى أكثر من مائة نوع مختلفة من الحجارة الكريمة المعروفة فى رومة . وكان تقليد هذه الجواهر تقليداً محكماً صناعة رائجة يشتغل بها عدد كبير من الصناع . وكان « الزمرد » الرومانى المصنوع من الزجاج أرقى كثيراً من مثيله فى هذه الأيام ، وقد ظل بائعو الجواهر يبيعونه على أنه زمرد حقيقى حتى القرن التاسع عشر بعد الميلاد[٧٠] . وكان الرجال والنساء على السواء مولعين باقتناء الحجارة الكبيرة التى تستلفت النظر ؛ وقد وضع أحد أعضاء مجلس الشيوخ فى خاتم له « عين هر » فى حجم البندقة ، ولما سمع بذلك أنطونيوس ، أمر بأن يدون اسمه فى سجل المحكوم عليهم بالنفى ؛ ولكن الشيخ فر وفى إصبعه مليونا سسترس . وما من شك فى أن الجواهر كانت فى ذلك الوقت — كما كانت فى كثير من الأحيان — وقاية من التضخم المالى أو الثروة . وكانت الصحاف الفضية وقتئذ كثيرة مألوفة عند جميع الطبقات إلا أفقرها . وقد أصدر تيبريوس وغيره من الأباطرة

الذين جاءوا بعد عدة مراسيم تحرم الترف ، ولكنه لم يكن فى وسعة إرغام الناس على طاعتها ، وسرعان ما أغفل أمرها . وخضع تيبيريوس للأمر الواقع وأقر بأن تبذير الأشراف والحديثى النعمة يحول بين الصناع فى رومة والشرق وبين التعطل ، ويساعد على تسرب خراج الأقاليم من العاصمة . ويقول « كيف تستطيع رومة ، وكيف تستطيع الولايات ، أن تعيش بغير الترف ؟ » .

ولم تكن ثياب النساء والرجال فى رومة أكثر ترفاً من ثياب نساء هذه الأيام ، أو أكثر فخامة وأغلى ثمناً من ثياب الأشراف فى العصور الوسطى . ولم تكن الأزياء تتبدل فى رومة بالسرعة التى تتبدل بها فى المدن الحديثة ، بل كان الثوب الحسن يبقى مدى الحياة فى بعض الأحيان دون أن يصبح زياً عتيقاً . ولكننا إذا وازنا بين حياة الطبقات العليا فى رومة وبينها فى عصر الجمهورية قبل أن يأتى بمپى ولوكلس بغنائم الشرق وملذاته ، حكمنا بأن رومة أضحت فى العصر الذى نتحدث عنه جنة ينعم فيها المترفون بأفخر الثياب وأشهى الطعام المختلف الأنواع ، وأجمل الأثاث ، وأفخم البيوت . ولما أن جرد الأشراف مما كان لهم من زعامة سياسية ، وكادوا يحرمون كل سلطان سياسى ، وانسحبوا من الجمعيات السياسية إلى قصورهم ، ولم يكن عليهم من أنفسهم وازع من الأخلاق اللهم إلا وازع الفلسفة ، أطلقوا العنان لشهواتهم وأخذوا يسعون لاغتراف اللذة والتنعم بفن الحياة .

الفصل الخامس

يوم فى حياة رومانى

لقد سار الترف فى المنزل أسرع من سير الترف فى الملابس . وحسبنا أن نذكر من بين مظاهر الترف التى كانت تزدان بها القصور فى عصر نيرون أرضها المصنوعة من الرخام والفسيفساء ، وأعمدتها المقامة من الرخام والمرمر والجزع المختلف الألوان ، وجدرانها المزدانة بالصور الزاهية أو المطعمة بالحجارة الغالية الثمن ، وسقفها المصفحة بالذهب(٧١) أو المغطاة بألواح الزجاج السميك(٧٢) ، ونضدها المصنوعة من خشب الليمون وأرجلها من العاج ، وأرائكها المنقوشة بأصداف السلاحف أو العاج أو الفضة أو الذهب ، والإستبرق الإسكندرى أو الأغطية البابلية التى كان يدفع فيها الأثرياء العاديون ثمانمائة ألف سسترس ويدفع فيها نيرون أربعة ملايين(٧٣) ، والأسرة البرنزية ذات الكلال ، والثريات من البرنز أو الرخام أو الزجاج ، والتماثيل ، والصور الملونة ، والتحف الفنية ، والمزهريات المصنوعة من البرنز الكورنثى أو الزجاج المرهينى ؛ حسبنا أن نذكر هذه ليتبين القارئ ما كان ينعم به الأثرياء فى ذلك العهد .

لقد كانت القصور أشبه الأشياء بالمتاحف ، وكان لا بد من استيراد العبيد ليحرس بعضهم هذه الثروة الطائلة ، ويحرس البعض الآخر هؤلاء الحراس ؛ وكان فى بعض البيوت أربعمائة من هؤلاء العبيد ، يخدمون صاحب البيت وأسرته ، أو يشرفون على بيته ، أو يشتغلون ببعض الصناعات المنزلية ؛ وكانت حياة الرجل حتى فى أخص خصائصها يطلع عليها هؤلاء العبيد . لقد كان يأكل والأتباع عن يمينه وشماله ، ويخلع ملابسه وعند كل حذاء من حذاءيه عبد ، ويضطجع ليستريح وعند كل باب

من أبوابه خادم . لم تكن هذه هى الجنة بل كانت هى الشقاء ؛ كل الشقاء ؛ وكأنما أراد الثرى الرومانى العظيم أن يزيد حياته شقاء على شقائها ، فكان يبدأ يومه حوالى الساعة السابعة باستقبال « مواليه » والمتطفلين عليه يعرض عليهم خديه ليقبلوهما ، ثم يفطر بعد ساعتين أو نحوهما من ذلك الوقت ، ويستقبل من يزورونه من أصدقائه أو يرد لهم الزيارات . وكانت آداب اللياقة تحتم على الرجل أن يرد الزيارة لكل صديق يزوره ، ويساعده فى قضاياه وفى قضاء مطالبه ، ويشهد الاحتفال بخطبة ابنته وبلوغ ابنه سن الرشد ، وقراءة قصائده والتوقيع على وصيته . وكان يؤدى هذه وغيرها من الواجبات الاجتماعية بأدب ومجاملة لا يفوقهما أدب أو مجاملة فى أية حضارة من الحضارات . ثم يذهب الرجل العظيم إلى مجلس الشيوخ ، أو يعمل فى إحدى اللجان الحكومية ، أو يشرف على شئونه الخصوصية .

أما حياة الرجل صاحب الثروة المتواضعة فكانت أبسط من هذه الحياة السابق وصفها ، ولكنها لم تكن أقل منها مشقة ، فكان إذا انتهى من زيارات الصباح الاجتماعية عنى بأعماله الخاصة حتى منتصف النهار . وكان عامة الناس يبادرون بالذهاب إلى أعمالهم من مطلع الشمس ، ذلك أن الرومانى العادى كان ينتفع بيومه على أكمل وجه لأنه لم يكن يشترك فى الحياة الاجتماعية فى أثناء الليل . وكان يتناول وقت الظهيرة غذاء خفيفا ، ويتناول وجبة كاملة فى الساعة الثالثة أو الرابعة ، وتتأخر هذه الوجبة كلما كان الرجل أرقى منزلة . وكان الفلاح أو العامل الأجير بعد أن يتغدى ويغفو قليلا يعود إلى عمله إلى قرب الغروب ، أما غير الفلاح والأجير فكانوا يخرجون إلى التنزه فى الخلاء أو فى الحمامات العامة . وكان الرومان فى عهد الإمبراطورية يرون الاستحمام أوجب عليهم من عبادة الآلهة ، وكانوا كاليابانيين يطيقون الروائح العامة أكثر مما يطيقون رائحتهم الخاصة ، ولم يكن يضارعهم شعب آخر فى نظافة الجسم غير المصريين . وكانوا يحملون معهم مناديل (sudaria) ليمسحوا بها عرقهم[٧٤] ، ويصطنعون

الفرجون لتنظيف أسنانهم بالمساحيق والمعاجين . وكانوا فى عهد الجمهورية الأول يكتفون بالاستحمام مرة كل ثمانية أيام ، أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فكان الرومانى يستحم كل يوم وإلا نالته نكتة من نكات مارتيال . ويقول جالينوس إن القرويين أنفسهم كانوا يستحمون كل يوم(٧٥) . وكان فى معظم البيوت أحواض للاستحمام ، أما بيوت الأغنياء فكان فيها حمامات وتوابعها يتلألأ فيها الرخام والزجاج والصنابير وصفائح الفضة المثبتة على الجدران(٧٦) . لكن الكثرة الغالبة من أحرار الرومان كانت تعتمد على الحمامات العامة .

وكانت هذه الحمامات فى العادة ملكا للأفراد ، وكان عددها فى رومة عام ٣٣ ق . م مائة وسبعين حماما ، وفى القرن الرابع بعد الميلاد كان فيها ٨٥٦ حماما عدا حمامات السباحة العامة البالغ عددها ١٣٣٢(٧٧) . وكان أهم من هذه وتلك وأكثر اجتذابا للشعب الحمامات العظيمة التى أقامتها الدولة وعهدت إدارتها إلى ملتزمين ، وعبئت فيها مئات من الرقيق . وكانت هذه « الحمامات الحارة » (thermae) التى شادتها أجربا وشادها من بعدها نيرون ، وتيتس ، وتراجان ، وكركلا ، وإسكندر سفيرس ، ودقلديانوس ، وقسطنطين ، منشآت ضخمة فخمة تطبع الدولة بالطابع الاشتراكى . وكان فى حمام نيرون ١٦٠٠ مقعد من الرخام ، وكان يتسع لألف وستمائة مستحم فى وقت واحد . أما حمامات كركلا ودقلديانوس فكان الواحد منها يتسع لثلاثة آلاف . وكانت مفتحة الأبواب لكل رومانى ، ولم يكن أجرها يزيد على ما يعادل ٣/٤ من الريال الأمريكى(٧٨) ، وكانت الحكومة تسد العجز من أموال الدولة ؛ ويلوح أن هذا الأجر كان يشمل الزيت وخدمة المستحمين . وكانت الحمامات تفتح من مطلع الفجر إلى الساعة الواحدة بعد الظهر لاستقبال النساء ، ومن الساعة الثانية إلى الثامنة لاستقبال الرجال ، ولكن معظم الأباطرة كان يبيح للرجال والنساء أن يستحموا معا . وكانت العادة المألوفة أن يذهب الزائر أولا إلى حجرة

خاصة يبدل فيها ثيابه ، ثم ينطلق إلى مكان التمارين العضلية ليلاكم ، أو يصارع ، أو يستبق ، أو يقفز ، أو يقذف القرص أو الحربة ، أو يلعب الكرة . وكانت ألعاب الكرة على أنواع منها نوع شبيه بلعبة « الكرة الطبية » عندنا ، ومنها نوع آخر تتنازع الكرة فيه طائفتان وتعدو بها كل طائفة إلى الأمام بحماسة لا تقل عن حماسة اللاعبين من طلبة الجامعات فى هذه الأيام [٧٩] . وكان لاعبو الكرة المحترفون يأتون أحياناً إلى الحمامات ليعرضوا ألعابهم على روادها[٨٠] . أما كبار السن الذين يكتفون بأن يشاهدوا ألعاب غيرهم فكانوا يذهبون إلى حجرات التدليك حيث يزيل لهم العبيد ما تراكم فى أبدانهم من الدهن .

ثم ينتقل المستحم إلى الحمام ذاته ، فيدخل أولا حجرة متوسطة الحرارة يسخنها هواء دفىء ، ثم يخرج منها إلى الحجرة الحارة ذات الهواء الحار ، فإذا أراد أن يتصبب عرقه أكثر مما تصبب فى هاتين الحجرتين انتقل إلى حجرة أخرى فيها بخار شديد الحرارة . ثم يستحم بالماء الساخن ويغسل جسمه بشىء جديد تعلمه من الغاليين — وهو صابون مصنوع من الشحم ورماد خشب الزان والدردار[٨١] وهذه الحجرات الساخنة كانت أحب الحجرات إلى الشعب ، وهى التى سمى اليونان الحمامات باسمها ؛ ولعلها كانت هى المحاولة التى بذلها الرومان لتخفيف وطأة داء الرثية وأوجاع المفاصل[٨٢] . وينتقل المستحم بعدئذ من حجرة إلى حجرة كل منها أقل حرارة من سابقتها ، حتى يصل إلى الحجرة الباردة فيغتسل فيها بالماء البارد ، ويستطيع إذا شاء أن يغطس فى حمام السباحة . ثم يدلك بالزيت أو بعض المراهم المصنوعة فى العادة من زيت الزيتون . ولم تكن هذه الزيوت والمراهم تغسل عن الجسم ، بل كان يكتفى بحكها بمكشط ثم يجفف الجسم بقطيلة ، وذلك لكى يعود بعض الزيت إلى الجسم بدل الشحم الذى أزاله منه الحمام الحار .

وقلما كان المستحم يغادر الحمام بعد أن يصل إلى هذا الحد ، لأن هذه الأماكن لم تكن حمامات فحسب ، بل كانت بالإضافة إلى هذا نوادى ، فيها

حجرات للألعاب كلعب النرد والشطرنج[٨٣] ، ومعارض للصور والتماثيل ومنصات يجلس عليها الأصدقاء ليتحدثوا ، ومكتبات وحجرات للمطالعة ، وأبهاء يجلس فيها موسيقى يعزف أو شاعر ينشد بعض قصائده ، أو فيلسوف يفسر أسرار العالم . وكان المجتمع الرومانى يلتقى فى هذه الساعات التى يقضيها فى هذه الحمامات بعد الظهيرة ، ويختلط فيها النساء والرجال بلا قيد ، ويلهون ، ويتناقشون ، ويتغازلون على سجيتهم ، ولكنهم لا يخرجون عن جادة الأدب . فى هذه الأماكن وفى الملاعب كان الرومان يشبعون شهوتهم فى الحديث وحبهم للثرثرة وتتبع الأنباء ، ويعرفون كل ما يحدث داخل البيوت من حوادث وفضائح .

وكان فى وسعهم إذا شاءوا أن يتناولوا طعامهم فى مطعم الحمام ، ولكن كثرتهم كانت تفضل الطعام فى البيت . ولعل السبب فى نشوء عادة النوم بعد هذه الوجبة هو ما يعتريهم من تراخ وكسل بسبب الجهد والحمام الحار . وكانت النساء فى بادئ الأمر يجلسن بمعزل عن الرجال حين يضطجع هؤلاء ، أما فى العصر الذى نتحدث عنه فقد كانت النساء تضطجع إلى جوار الرجال ، وقد سميت حجرة الطعام المسماة عندهم « تركلينيوم أى ذات المضاجع الثلاثة » بهذا الاسم لأنها كانت تحتوى فى العادة على ثلاثة مضاجع حول الخوان يتسع كل واحد منها عادة لثلاثة أشخاص . وكان من يتناول الطعام يسند رأسه على ذراعه اليسرى وذراعه على وسادة ، ويمد جسمه فى خط مستقيم متجه إلى الجهة المقابلة للمائدة .

وظلت الطبقات الفقيرة تعيش أكثر ما تعيش على الحبوب ، ومنتجات الألبان ، والخضر ، والفاكهة ، والنقل . ويذكر بلنى أنواعاً كثيرة من الخضر التى يطعمها الرومانى تختلف من الثوم إلى السلجم . وكان الأغنياء يأكلون اللحم ويكثرون من أكله إكثار النهمين المستهترين ، وكان أحبه إليهم لحم الخنزير . ويمتدح بلنى الخنازير لأنها تمد الرومان بخمسين نوعاً مختلفاً من الأطعمة[٨٤]

وكانت أمعاء الخنازير المحشوة Potule تباع فى الشوارع فى أفران متنقلة كما تباع فى طرقاتنا العامة اليوم .

وكان الرومانى ، إذا دعى إلى وليمة ، ينتظر أطعمة أندر من هذه الأطعمة السالفة الذكر . وكانت الوليمة تبدأ فى العادة فى تمام الساعة الرابعة وتدوم إلى وقت متأخر من الليل أو إلى صباح اليوم التالى . وكانت الأزهار والبقدونس تنثر على المائدة ، والهواء يعطر بالأرواح المحضرة من خارج البلاد ، والمضاجع تغطى بالوسائد اللينة الناعمة ، وكان الخدم يرتدون أزياء خاصة متماثلة . وتقدم أولا المشهيات (gustatio) ، ثم تأتى بينها وبين الحلوى المسماة عندهم secunda mensa أو المائدة الثانية الأصناف الشهية النادرة التى يفخر بها المضيف ورئيس طهاته . وكانت أنواع السمك والطيور والفاكهة النادرة تشبع غريزة التشوف ولذة الحلق معاً ، فكان سمك البَيَّاح(*) يبتاع بألف سسترس للرطل الواحد ، وقد ابتاع أسنيوس سلر Asinius Celer سمكة من هذا النوع بثمانية آلاف سسترس . ويقول جوڤنال وهو غضبان أسف إن الصياد كان أقل قيمة من السمكة . وكان مما يزيد بهجة الضيوف أن تحضر السمكة حية وتطهى أمام أعينهم ، حتى يستمتعوا بمختلف الألوان التى تتلون بها وهى تعالج سكرات الموت(٨٥) . وكان ڤديوس پليو Vedius Pollis يربى هذا السمك ، الذى يبلغ طول الواحدة منه قدماً ونصف قدم ، فى حوض كبير ويطعمه لحم المغضوب عليهم من العبيد(٨٦) . وكان سمك الجِرِّيث eel والحلزون snails عندهم من الأطعمة الشهية ، ولكن القانون كان يحرم أكل الزغبة (الدرموس dormouse)(**) . وكانت أجنحة النعام ، وألسنة (البشروش) (flamingo) ، ولحوم الطيور المغردة وأكباد الإوز ، من أشهى

(*) عن معجم الدكتور شرف ، وهو المعروف فى مصر باسم البربون وبالإنجليزية باسم mullet

(**) حيوان قارض بين السنجاب والفأر سمى كذلك لكسله فى فصل الشتاء .

الأطعمة الرومانية . وقد اخترع أبسيوس Apicius — وهو من مشهوري الأبيقوريين فى عهد تيبيريوس — « فطائر الأكباد السمان » وذلك بزيادة سمنة أكباد الخنازير بإطعامها التين(٨٨)(*) . وكان العرف يبيح للطاعم أن يفرغ معدته من الطعام بتناول مقيئ بعد الوليمة الثقيلة . وكان بعض النهمين يفعلون هذا فى أثناء الوليمة ثم يعودون إليها ليشبعوا جوعهم . وقد قال سنكا فى هــذا « إنهم يتقايئون ليأكلوا ويأكلون ليتقايئوا »(٩٠) (vomunt set edant, ant, edunt ut vomant) . لكن هذا كان مسلكا شاذاً ، وليس هو أسوأ من مسلك مدمنى الخمر من الأمريكيين . وكان أظرف من هذه العادة عادة تقديم الهدايا إلى الضيفان أو إسقاط الأزهار أو العطور عليهم من سقف الحجرات ، أو تسليتهم بالأنغام الموسيقية ، أو الرقص ، أو الشعر ، أو التمثيل وكانت الليالى تختتم بالحديث فتنطلق الألسن من عقالها بسبب الخمر ، ويثيرها وجود النساء فى المآدب

وليس لنا أن نظن أن هذه المآدب كانت هى الخاتمة العادية التى يختتم بها كل يوم من حياة الرومانى ، أو أنها كانت أكثر فى حياتهم من مآدب هذه الأيام . إن التاريخ ، كالصحف ، يسىء تصوير الحياة ، لأنه مولع بالشاذ من كل شىء ، ويتجنب حياة الرجل الشريف التى لا أخبار فيها ، والحياة اليومية الهادئة الرتيبة السوية . لقد كان معظم الرومان خلقاً عاديين أشبه الناس بنا وبجيرتنا ، يستيقظون من النوم كارهين ، ويفرطون فى الأكل ، وفى العمل ، ولا يلعبون إلا قليلا ، ويحبون كثيراً ، وقلما يكرهون ، ويتشاجرون بعض الشىء ، ويكثرون من الكلام ، ويحلمون أحلام اليقظة وينامون .

(*) لقد بدد أبسيوس أموالا طائلة فى بذخه وإسرافه ، فلما لم يعد يملك الا عشرة ملايين سسترس (١٠٠٠٠٠٠ ريال أمريكى) انتحر٨٩ . وبعد مائتى عام من انتحاره عزى إليه كتاب فى فن الطبخ ليست له يد فيه ، ولكنها الأساليب التى يجيزها القدامى .

الفصل السادس

يوم عطلة رومانى

١ — المسرح

كان لرومة أيام عطلة كثيرة ، كانت فى أيامها القديمة مطبوعة بطابع الوقار الدينى ، وفى الأيام التى نتحدث عنها مرحة ملؤها المباهج الدنيوية . وترجع هذه الكثرة إلى تعدد آلهتهم وكثرة الأقاليم التى تمتص خيراتها . وكان الكثيرون من فقرائها يفرون فى الصيف من حرارتها ورطوبتها إلى حانات الضواحى وشواطىء البحر وأيكها ، يشربون ، ويأكلون ، ويرقصون ، ويعشقون فى الهواء الطلق . وكان ذوو اليسار منهم يذهبون إلى شواطئ الاستحمام المنتشرة على الساحل الغربى ، أو إلى خليج بايا Baiae مع واسعى الثراء . وكان من أشد ما يرغب فيه كل من يعتد بطبقته أن يذهب إلى الجنوب — إلى رجيوم Rhegium أو تارنتم إن استطاع — ويعود منه وقد لفحت الشمس جلده ليثبت أنه من ذوى اليسار . ولكن الذين يبقون فى رومة لم يكونوا يعدمون فيها الكثير من ضروب اللهو والتسلية القليلة الكلفة . لقد كانوا يجدون فيها تلاوة الشعر ، والمحاضرات والحفلات الموسيقية ، والكثير من المجون ، والمسرحيات ، والمباريات الرياضية والاقتتال لنيل الجوائز ، وسباق الخيل ، والعربات ، والصراع المميت بين الرجال ، والرجال أو بين الرجال والوحوش ؛ والمعارك البحرية الصاخبة الزائفة فى البحيرات الصناعية — وقصارى القول أن رومة لم تكن تضارعها قبلها مدينة أخرى فى كثرة ضروب اللهو والتسلية .

وكان لرومة فى عهد الإمبراطورية الباكر خمسة وسبعون عيداً تقام فيها

الألعاب ، منها خمس وخمسون تخصص للمسرحيات أو ألعاب المجون ، و٢٢ للألعاب فى الحلبات أو المضامير أو المدرجات . وازداد عدد الألعاب حتى أصبحت فى عام ٣٥٤ م تعرض فى ١٧٥ يوماً(٩١) ؛ ولم يصحب هذه الزيادة زيادة فى المسرحيات الرومانية ؛ بل حدث عكس هذا ، حدث أن اضمحلت المسرحيات فى الوقت الذى ازدهر فيه المسرح ، وكانت المسرحيات الجديدة تكتب الآن لتقرأ لا لتمثل ، واكتفت دور التمثيل بالمآسى القديمة الرومانية واليونانية ، والمسالى والمساخر القديمة الرومانية . وكان نجوم التمثيل يسيطرون على المسرح ويجمعون من عملهم أموالا طائلة ؛ فقد ترك إيسپس Aesopus ممثل المآسى عشرين مليون سسترس بعد حياة من الإسراف والبذخ ؛ وكان رسيوس Roscius الممثل الهزلى يكسب خمسمائة ألف سسترس فى العام ، وقد بلغ من الثراء حداً جعله يمثل فى عدة مواسم من غير أجر — وكان هذا احتقاراً للمال جعل هذا العبد المحرر واسطة العقد فى مجالس الأشراف . أما الألعـــاب التى كانت تدور فى الحلبات والمدرجات فكانت تستحوذ على اهتمام الجمهور وتفسد أذواقه ، وقد مات التمثيل الرومانى ودفن فى المجتلدات ، وكان شهيداً آخر من شهداء الأعياد الرومانية .

ولما زاد الاهتمام فى التمثيل بحركات الممثلين وبالمناظر بدل الحبكات والأفكار تخلى التمثيل عن مكانه فى المسرح إلى التهريج والمساخر . وكانت المساخر لا تحتوى إلا على القليل من الحوار ، وكانت تختار موضوعاتها من حياة أحط الطبقات ، وتعتمد على تصوير الشخصيات تصويراً بارعاً فى التقليد الساخر . وبعد أن قضى على حرية القول فى الجمعيات وفى السوق بقيت بعض الوقت فى هذه المهازل القصيرة ، حيث كان فى وسع الماجن أن يجازف برفع رأسه وإطلاق لسانه لينال بذلك تصفيق الجماهير بتورية يسددها إلى الإمبراطور أو الملتفين حوله . وقد أمر كلجيولا بحرق أحد الممثلين حيا فى المدرج عقاباً له على إشارة من هذا النوع(٩٢) . وفى اليوم الذى دفن

فيه قسپازيان الشحيح مثلث مهزلة قلدت فيها جنازته تقليداً ساخراً ، كان من مناظرها أن جلست الجثة فى أثناء موكب الجنازة وسألت كم أنفقت الدولة على هذه الجنازة ؛ ولما قيل لها إنها أنفقت « عشرة ملايين سسترس » أجابت بقولها « أعطونى مائة ألف فقط وألقونى فى نهر التيبر »(٩٣) . ولم يكن يسمح للنساء بالتمثيل إلا فى هذه المهازل ، وإذ كانت هذه النسوة يعتبرن بهذا العمل من العاهرات فإنهن لم يكن يخسرن شيئاً بما ينطقن به من بذىء اللفظ . وكان النظارة فى بعض المناسبات الخاصة كعيد فلورا ربة الزهر يطلبن إلى أولئك الممثلات أن يخلعن جميع ملابسهن(٩٤) . وكان الرجال والنساء يشهدون هذا الضرب من التمثيل كما يشهدونه الآن وقد وجد شيشرون فيه عرائس له كما عثر العرائس عليه فيه .

ولما منع الكلام فى هذه المهازل منعاً باتاً ، وارتفعت موضوعاتها فأصبحت تستمد من الآداب القديمة ، تطورت المهازل الماجنة إلى استعراضات صامتة . وكان فى ترك الكلام على هذا النحو كسب للجمهور : ذلك أن سكان رومة المختلفى الأجناس كانت كثرتهم لا تفهم إلا اللغة اللاتينية البسيطة إلى أقصى حد ، ومن أجل هذا أصبح استطاعتها أن تتبع حركات الممثلين بعد أن لم تعد مثقلة بعبء الألفاظ . وفى عام ٢١ م قدم إلى رومة ممثلان أحدهما من قليقية ويدعى پيلاديس Pylades ، والآخر من الإسكندرية ويسمى باثيلس Bathylus ؛ وأدخلوا فيها التمثيل بالإيماء والحركة — وكان قد انتشر فى الشرق الهلنستى . وقد مثلا فيها مسرحيات من فصل واحد ليس فيها إلا الموسيقى ، والحركات ، والإيماءات والرقص . ورحبت رومة بهذا الفن الجديد لأنها سئمت المسرحيات المؤلفة بالشعر القديم الطنان الرنان ، وإعجاب إيما إعجاب بحذق الممثلين ورشاقتهم ، وسرت بفخامة ملبسهم وجمال أقنعتهم أو ظرفها ، وبأجسامهم المدربة التى أعدت للعمل بالغذاء المناسب المنتقى ، وبحركات الأيدى

التى تحسن التعبير عن المعانى على الطريقة الشرقية البارعة ، وسرعة تقليدهم للشخصيات على اختلاف مشاربها ، وتمثيلهم مناظر العشق المثيرة للغرائز الجنسية . وكان النظارة ينقسمون طوائف وجماعات تؤيد كل منها الممثلين المتنافسين ، وكثيراً ما كانت نساء الطبقات العليا يقعن فى حب الممثلين ويتعقبنهم بالهدايا والعناق ، حتى قطعت رأس واحد منهم بسبب علاقته بزوجة دومتيان . وما لبث هذا التمثيل الصامت أن طرد من المسرح الرومانى كل ما عداه من أنواع التمثيل ما عدا المساخر الماجنة . وحلت المراقص والمساخر محل المسرحيات الجدية .

٢ — الموسيقى الرومانية

وكان تطور الموسيقى والرقص ورقيهما هما اللذين جعلا هذا الفوز مستطاعاً ، فقد كان ينظر إلى الرقص فى عهد الجمهورية على أنه عمل مرذول يجلل الراقص العار . وكان سپيو الأصغر قد أرغم الدولة على أن تغلق المدارس التى تعلم الموسيقى والرقص[٩٥] ، وكان مما قاله فى هذا « أن الذى ذهب عقله هو وحده الذى يرقص وهو غير سكران »[٩٦] . ولكن المسرحية الصامتة جعلت الرقص طرازاً حديثاً مرغوباً فيه ، ثم جعلته بعدئذ شهوة قال عنها سنكا : « لا يكاد يخلو بيت واحد من مرقص يردد أصداء وقع أقدام الرجال والنساء ؛ وأصبح الآن فى بيوت كل ثرى معلم للرقص كما فيه طاه وفيلسوف ، وأضحى وجود هذا المعلم من مستلزمات هذه البيوت . وكان الرقص فى صورته المألوفة فى رومة يتطلب حركات منتظمة باليدين والجزء الأعلى من الجزع أكثر مما يتطلبه من حركات الأرجل والأقدام . ولم يكن النساء يتعلمن هذا الفن ويمارسنه لما يكسبهن من جاذبية فحسب ، بل لأنه يكسب الجسم مرونة ورشاقة .

وكان الرومان يحبون الموسيقى حباً لا يفوقه إلا حبهم للسلطان ، والمال ، والنساء ، والدماء . وأخذ الرومان موسيقاهم ، كما أخذوا كل شىء سواها

فى حياتهم الثقافية ، عن بلاد اليونان ؛ وكان لا بد لهذه الموسيقى أن تشق طريقها وسط مقاومة المحافظين الذين لا يفرقون بين الفن والإنحطاط . ذلك أن الرقباء كانوا قبل عام ١١٥ ق . م قد حرموا العزف على أية آلة موسيقية أو النفخ فيها ما عدا الناى الإيطالى القصير ، وكان سنكا الأكبر بعد قرن كامل من ذلك الوقت لا يزال يعد الموسيقى غير جديرة بالرجال ؛ ولكن ڤارو Varro كان قبل ذلك الوقت قد خص إلهة الموسيقى De Musica بكتاب من قلمه ؛ وأصبحت هذه الرسالة ، هى والمصادر اليونانية التى استمدت منها ، معيناً لا ينضب لمؤلفات رومانية كثيرة فى النظريات الموسيقية(٩٧) . وما لبثت الأنغام الموسيقية الخصبة الشهوانية ، والآلات اليونانية ، أن تغلبت آخر الأمر على الأنغام والآلات الرومانية الساذجة السمجة ، وأصبحت الموسيقى عنصراً أساسيا فى تعليم النساء وكثيرا ما كانت عنصرا هاما فى تعليم الرجال أيضاً . وما وافى عام ٥٠ م حتى عمت جميع الطبقات ، وتعلمها الذكور والإناث ، فكان الرجال والنساء يقضون أياماً كاملة فى الاستماع إلى الأنغام أو تأليف المقطوعات أوغنائها . وانتهى الأمر بأن أصبح الأباطرة أنفسهم من الموسيقيين ، فكان هدريان الفيلسوف ونيرون المخنث ممن يزدهون بحذقهم العزف على القيثارة . وكان المقصود من قرض الشعر الغنائى أن يغنى بمصاحبة الموسيقى ، وقلما كانت الألحان الموسيقية توضع إلا للشعر ؛ ذلك أن الموسيقى القديمة كانت خاضعة للشعر ، عكس مع ما هى عليه اليوم إذ أنها تنزع إلى السيطرة على الألفاظ وتخضعها لها . وكانت الموسيقى الجماعية منتشرة محبوبة وكثيراً ما كانت تعزف فى حفلات الزواج والألعاب والجنائز ، وفى الاحتفالات الدينية . وقد تأثر هوراس أشد التأثر بأصوات الفتية والعذارى وهم يغنون Carmen secul are . ، وكان المغنون جميعهم فى هذه الأغانى الجماعية يغنون نغمة واحدة وإن اختلفت مقاماتها ، ويلوح أن الغناء الانفرادى لم يكن معروفاً عندهم .

وكانت الآلتان الرئيسيتان عندهم هما الناى والقيثارة ، ولا تزال آلات

النفخ والآلات الوترية عندنا مجرد تحوير وتعديل لهاتين الآلتين ، فأقوى السمفونيات عندنا ليست إلا تأليفاً حكيماً بين النفخ والجذب ، والحك ، والضرب . وكان الناى يصحب التمثيل ، وكان يظن أنه يثير العواطف ؛ أما القيثارة فكانت تصحب الغناء ، وكان يرجى منها أن تسمو بالروح . وكان الناى طويلا ، ذا ثقوب كثيرة ، وأوسع مدى فى التعبير من ناى هذه الأيام . أما القيثارة فكانت أشبه بقيثارتنا ولكنها كانت على أنواع وأشكال كثيرة ، فكانت عند اليونان ذات حجم صغير ولكن الرومان زادوه إلى حد جعل أميانوس يصف القيثارة بأنها « كبيرة كالعربة »(٩٨) . ويمكن القول بوجه عام إن الآلات الموسيقية الرومانية نشأت كما نشأت آلاتنا نحن مما أدخل من تحسين على الآلات القديمة وخاصة على رنينها وحجمها . وكانت أوتار القيثارة تصنع من أمعاء الحيوان أو أوتار أجسامها ، وقد بلغ عددها ثمانية عشر وتراً . وكانت تشد عند العزف عليها بمضراب (ريشة) أو بالأصابع ، وكانت الأصابع وحدها هى التى تستطيع إخراج سلسلة الأنغام السريعة . وجاء من الإسكندرية فى أوائل القرن الأول الأرغن المائى المتعدد النغمات والأنابيب ، وقد وقع فى قلب نيرون وتأثر كونتليان الهادئ بقوته وتعدد نغماته .

وكانت تقام من آن إلى آن حفلات موسيقية رسمية ، وكان للمباريات الموسيقية شأن بعض الألعاب العامة ؛ بل إن الولائم المتواضعة كانت تتطلب قدراً ولو قليلا من الموسيقى . وكان مارتيال يعد ضيفه بالاستماع إلى نافخ فى الناى على الأقل(٩٩) . أما فى حفلات تريملكيو Trimalchio فكان الطعام يرفع عن المائدة على أصوات المغنين . وكان ليكلجيولا فرقة موسيقية وجوقة من المغنين تطربه فى قارب نزهته . وفى التمثيل الصامت كان الغناء الجماعى والرقص يصحبان عزف الفرقة الموسيقية . وكان الممثل فى بعض الأحيان يغنى أدواره الانفرادية ، وكان يحدث أحياناً أن يغنى مغن محترف ألفاظ الدور بينما كان الممثل يقوم

بالحركات التمثيلية أو الرقص . ولم يكن من الأمور الشاذة النادرة أن يصحب التمثيل الصامت ثلاثة آلاف مغن وثلاثة آلاف راقص[١٠٠] . وكان قوام الفرقة الموسيقية النايات تساعدها القيثارات ، والصنج ، والمزامير ، والأبواق والاسكابلا Scabella وهى ألواح معدنية تشد إلى أقدام بعض أفراد الفرقة يضربونها بها فتحدث أصواتاً أشد إزعاجاً من أصوات الفرق الموسيقية الحديثة فى أعلى قوتها ويشير سنكا إلى الإيقاع فى عزف الأفراد[١٠١]، ولكنا لا نجد ما يدل على وجوده عند الفرق الموسيقية القديمة . وكانت الموسيقى التى تصحب الغناء تعلو عنه فى النغمة عادة ولكن مبلغ علمنا أنها لم تكن تسير على نظام متدرج متتابع واضح .

وكان مهرة الموسيقيين كثيرين ، وكذلك كان غير الماهرين ، فقد كان ذوو المواهب يهرعون إلى مركز الذهب فى العالم من جميع الولايات ، وكان نظام الاسترقاق يسمح بتدريب فرق المغنين والعازفين فى نطاق واسع وإن كان كثير النفقات . وكان للكثير من الجماعات والهيئات الفنية موسيقيون تختص بهم ، وكانت ترسل من تتوسم فيهم النبوغ منهم إلى مهرة الأساتذة لرفع مستواهم ، فمنهم من تخصصوا فى العزف على القيثارة وأقاموا الحفلات يغنون فيها ويعزفون ؛ ومنهم من تخصصوا فى الغناء وكان هؤلاء فى العادة يؤلفون أغانيهم ، وآخرون منهم كانوا يقيمون الحفلات يعزفون فيها على الأرغن وينفخون فى الناى ، ومن هؤلاء كانوس Cannus الذى كان يفخر كما يفخر بيتهوفن بأن موسيقاه تستطيع تخفيف الحزن وزيادة الفرح ، وتعين على التقى وتلهب نار الحب فى الصدور[١٠٢] . وكان هؤلاء الموسيقيون المحترفون يطوفون الولايات النائية فى الإمبراطورية ، يكسبون المال والثناء . وتقام لهم التماثيل ويفتتن بهم النساء ، ومنهم على حد قول جوفنال ، من كانوا يبيعون حبهم ليزيدوا بذلك أجورهم[١٠٣] . وكانت النساء يتنافسن فى الحصول على الريشة التى يمس بها مشهورو الموسيقيين أوتار آلاتهم ، ويقربن القرابين على المذابح ليفوز من يحببن من الموسيقيين فى

الألعاب النيرونية والكبتولية . وفى وسعنا أن نرسم فى الخيال صورة وإن تكن غير واضحة للمنظر الرائع الذى يجمع بين الموسيقيين والشعراء من جميع أنحاء الإمبراطورية ، وهم يتبارون أمام الجموع المحتشدة ، والذى يتقدم فيه الفائزون المجهدون ليضع الأباطرة بأيديهم أكاليل أوراق البلوط على رؤوسهم .

ولسنا نعرف عن الموسيقى الرومانية ما يكفى لبسط القول فى وصفها . ويلوح أنها كانت أرقى ، وأكمل ، وأكثر عجيجاً من الموسيقى اليونانية . وقد دخلت عليها صبغة شرقية من مصر وآسية الصغرى وسوريا . وكان المتقدمون فى السن من الرومان يأسفون لأن المؤلفين المحدثين أخذوا يهجرون ما كان يمتاز به النمط القديم من تمنع ووقار ، وأنهم كانوا يتلفون أرواح الشباب وأعصابهم بالأنغام الشاذة والآلات الصاخبة . والذى لا جدال فيه أنه ما من شعب قديم أحب الموسيقى كما أحبها الرومان . فقد كانت أغانى المسرح تتلقفها الجماهير المرحة السريعة الحركة فتردد أصداءها فى شوارع رومة ونوافذ بيوتها ، وكانت أغانى التمثيل الصامت المعقدة تنطبع فى ذاكرة المعجبين بها انطباعاً بلغ من قوته أن كان فى مقدورهم إذا سمعوا أولى نغماتها أن يقولوا لك من أية مسرحية هى ، ومن أى فصل فى المسرحية . على أن رومة لم تفد الموسيقى فائدة حقة اللهم إلا ما عسى أن تكون قد فعلته من تنظيم اللاعبين إلى فرق كبيرة تنظيماً أحسن مما كان عند من سبقهم من الأمم . ولكنها كرمت الموسيقى بإشاعة استخدامها ، وبالاستجابة إليها والتأثر بها ، يضاف إلى هذا أنها جمعت التراث الموسيقى للعالم القديم فى هياكلها ، ودور تمثيلها ، وبيوتها ؛ ولما أن سقطت أورثت الكنيسة الآلات والعناصر المستخدمة فى الموسيقى التى تتأثر بها نفوسنا وتحرك مشاعرنا فى هذه الأيام .

٣ ـ الألعاب

ولما لم يعد للحرب أثر فى هذا العهد ، أصبحت الألعاب العظيمة أكثر حوادث العام إثارة لمشاعر الرومان . وكانت تقام ، أكثر ما تقام ، فى الاحتفال بالأعياد الدينية ــ كعيد الأم العظمى ، وعيد سيريس Ceres ، وعيد فلورا ربة الأزهار ، وعيد أپلو ، وعيد أغسطس وقد تكون أحياناً « ألعاب العامة » التى تقام لتسلية الطبقات الدنيا « وقد تكون « الألعاب الرومانية » التى تقام تكريماً للمدينة وإلهتها روما . وكانت تقام أحياناً احتفالاً بنصر ، أو نيل منصب رئيسى ، أو فوز فى انتخاب ، أو بمناسبة أحد الأعياد الإمبراطورية . وربما أقيمت احتفالا بمرور فترة معينة فى التاريخ الرومانى . وكانت ألعاب إيطاليا فى بادئ الأمر تقام زلفى للأموات وتكريماً لهم ، شأنها فى هذا شأن الألعاب التى أقامها أخيل تكريماً لپتروكلس . من ذلك أنه لما مات بروتس پيرا Brutus Pera فى عام ٢٦٤ ق . م عرض ابنه ثلاث مبارزات ؛ ودارت فى جنازة ماركس لپدس Marcus Lepidus عام ٢١٦ ق . م اثنتان وعشرون معركة ، وفى عام ١٧٤ احتفل تيتس فلامنيوس Titus Flaminius بجنازة أبيه بأن أقام صراعاً فى مجتلد اقتتل فيه اثنان وعشرون رجلا .

وكانت أبسط الألعاب العامة هى المباريات الرياضية التى تقام عادة فى ملعب عام . وكان معظم اللاعبين من المحترفين والغرباء ، وكانوا يتبارون فى العدو ، وقذف القرص ، والمصارعة ، والملاكمة . ولكن جمهرة الرومان الذين اعتادوا ألعاب المجتلد الدموية لم يكونوا يحبون هذه الألعاب الرياضية إلا قليلا وكانوا مولعين بالقتال لنيل الجوائز وهو القتال الذى كان اليونان ينهمكون فيه، حتى يكادوا يخرون صرعى ، وقد لبسوا فى أيديهم قفازات مقواة عند البراجم بأطواق من الحديد يبلغ سمكها ثلاثة

أرباع بوصة . ويصف ڤرچيل — وهو الرجل الرقيق — حفلة ملاكمة غير شديدة فى لغة لا تكاد تفترق عن لغة هذه الأيام فيقول :

« ثم جاء ابن أنكيسيز Anchises بقفازات من الجلد متساوية فى الوزن ، وربط بها أيدى الملاكمين . . . ووقف كلاهما فى موضعه معتمداً على أطراف أصابع قدميه ، ورافعاً ذراعه . . . ثم يبعد رأسه إلى الوراء ايتقى ضربات خصمه ويبدأ التلاكم باليدين ، ويسدد كل منهما ضربات قوية همجية إلى صدر الآخر ، وجنبيه ، وأذنيه ، وجبهته ، وخديه ، يردد الهواء صداها . ويمد إنتلس Entellus يمناه ، وينحرف دارس Dares إلى أحد الجانبين بحركة رشيقة . . . ويهاجم أنتلس دارس بقوة ، ويطرحه على أرض المجتلد ؛ ويكيل له الضربات بيمناه تارة وبيسراه تارة أخرى . . . ثم يجيء إينياس وينهى المعركة ، ويقبل رفقاه دارس ويقودونه إلى السفن تصطلك ركبتاه ويتأرجح رأسه من ناحية إلى أخرى وفمه تخرج منه الأسنان والدماء .

وكان السباق فى الحلبة الكبرى Circus Maximus أكثر من هذه الملاكمات إثارة لمشاعر النظارة . وكانت أربعون سباقاً تقام فى يومين متتالين منها سباق الخيل يركبها راكبون محترفون ؛ ومنها سباق العربات الخفيفة ذات العجلتين يجرها جودان أو ثلاثة جياد أو أربعة مشدودة إليها جنباً إلى جنب . وكانت الاصطبلات المتنافسة التى يملكها الأغنياء هى التى تؤدى نفقات السباق . وكان الراكبون المحترفون وسائقو المركبات يلبسون حللا تختلف ألوانها وتُطلى المركبات نفسها بألوان مختلفة لكل اصطبل لون خاص يميزه من غيره من الاصطبلات : منها الأبيض والأخضر والأحمر والأزرق . فإذا اقترب موعد هذه المباريات انقسمت رومة كلها شيعاً تسمى كل شيعة باسم اللون الذى تناصره وخاصة اللونين الأحمر والأزرق . وكان نصف الأحاديث فى المنازل ، والمدارس ، والمحاضرات ، والسوق الكبرى يدور حول راكبى الخيل المحترفين ، وراكبى

العربات ، وتعلق صورهم فى كل مكان ، وتعلن أنباء فوزهم فى النشرة اليومية . ومنهم من كان يجنى من وراء ذلك ثروات طائلة ، ومنهم من كانت تقام له التماثيل فى الميادين العامة . وإذا أقبل يوم السباق سار مائة وثمانون ألفاً من الرجال والنساء فى حللهم ذوات الألوان الزاهية إلى المضمار الرحب الكبير . وهناك ترتفع حماسة النظارة إلى حد الجنون ، فترى أشياع كل جواد يشمون روثه ليتأكدوا من أن ذلك الجواد قد أطعم الطعام الذى يليق به(١٠٥) . وكان النظارة يمرون بالحوانيت والمواخير الممتدة على طول أسوار المضمار الخارجية ، ثم يدخلون من مئات الأبواب ويوزعون أنفسهم على المقاعد المنظمة على شكل حذاء الفرس ، والعرق يتصبب من جباههم من فرط الشوق والقلق ، والبائعون يبيعون الوسائد لأن المقاعد كانت تصنع فى العادة من الخشب الصلب ، ولأن السباق كان يستمر طول النهار . وكان لأعضاء مجلس الشيوخ وغيرهم من العظماء مقاعد خاصة من الرخام مزينة بالبرنز ، وكان من خلف مقصورة الإمبراطور طائفة من الحجُر الفخمة يستطيع — إذا شاء — أن يأكل فيها ويشرب ، ويستريح ، ويستحم وينام . وكانت حمى المراهنات ترتفع إلى أقصى حد ، والثروات تنتقل من يد إلى يد كلما تقدم النهار . وكانت الخيل وراكبوها ، والعربات وسائقوها ، تخرج من فتحات تحت المقاعد ، وكلما بدا لون منها قابله أنصاره بتصفيق ترتج المقاعد من شدته . وكان سائقو العربات — ومعظمهم من العبيد — يلبسون جلابيب زاهية الألوان ويضعون على رؤوسهم خوذاً براقة ، ويمسك كل منهم بإحدى يديه سوطا ، وفى منطقته سكين يقطع بها السيور المربوطة فى وسطه ، إذا حدثت له حادثة . وكان شكل المضمار إهليلجيا تمتد فى وسطه « الشوكة » (spina) وهى جزيرة طولها ألف قدم تزدان بالتماثيل والمسلات ، وفى طرف من أطراف المضمار تقوم « المقاييس » (metae) وهى عمــد مستديرة ينتهى عندها السباق . وكان طول سباق المركبات سبع دورات فى العادة ، أى حوالى خمسة

أميال . وكان مقياس مهارة السائق هو قدرته على أن يدور حول الأهداف (العمد) بأسرع وأحدّ ما يستطيع من غير أن يتعرض للخطر . وكثيراً ما كان المتسابقون يصطدمون فى هذه الأماكن فتقع المآسى المروعة التى يكون ضحاياها الرجال والمركبات والحيوانات . فإذا ما وصلت الخيل أو المركبات إلى أهدافها قام النظارة ، وكأنهم قد استيقظوا من سبات عميق، وماج بهم المكان كما يموج البحر المتلاطم ، وأخذوا يشيرون بأيديهم وأجسامهم ، ويلوحون بمناديلهم ، ويصيحون ، ويبتهلون ، ويئنون ؛ ويلعنون ، ويهللون وهم فى نشوة غير طبيعية . وكان التصفيق الذى يحيا به الفائز يسمع على مسافة بعيدة خارج أسوار المدينة .

وكان أعظم المناظر روعة وفخامة منظر الاحتفالات الرومانية التى تمثل فيها المعركة البحرية الرائعة . وكانت أول معركة بحرية كبيرة من هذا النوع هى التى دارت بأمر قيصر فى حوض كبير احتفر لهذا الغرض خاصة فى خارج حدود المدينة . ولما أراد أغسطس أن يهدى الهيكل الذى أقامه « للمريخ المنتقم » إلى هذا الإله أمر أن تدور معركة بحرية تمثل معركة سلاميس بين ثلاثة آلاف مقاتل فى مياه بحيرة صناعية طولها ألف وثمانمائة قدم وعرضها ألف ومائتا قدم . وقد سبق القول إن كلوديوس احتفل بإتمام نفق فوسين Fucine بتمثيل معركة اقتتلت فيها سفن من ذوات الصفوف الثلاثة والأربعة من المجاديف ، عليها نحو تسعة عشر ألف رجل . ولكن القتال جرى فى رقة أغضبت الإمبراطور واضطرته إلى أن يرسل جنوداً إلى السفن لكى يضمن قدراً كافياً من سفك الدماء[١٠٦] . ولما احتفل بتدشين الكولوسيوم أمر تيتس بأن تغرق حلبتها بالماء وأن تمثل فيها معركة الكورنثيين والكرثيريين التى أعقبتها حرب البلوبونيز . وكان المقتتلون فى هذه المعارك من أسرى الحروب أو المجرمين المحكوم عليهم بالإعدام ؛ وكانوا يقتتلون بحق ويقتل بعضهم بعضاً حتى يفنى أحد الفريقين ؛ فإذا ما تبين

أن الفريق الفائز أظهر الشجاعة المطلوبة فى التقتيل أمكن أن يحرر من الأسر أو ينجو من الإعدام .

وكانت هذه الألعاب تصل إلى غايتها فى صراع الحيوانات والمجالدين فى المجتلد أو فى الكولوسيوم بعد أيام قسبازيان . وكان المجتلد أرضاً من الخشب فرش عليها الرمل . وكان فى الإمكان خفض أجزاء من هذه الأرض ثم رفعها على الفور إذا أريد تغيير المنظر ، أو غمر الأرض كلها بالماء بمجرد إشارة تصدر بهذا . وكانت غرف كبيرة تحت أرض المجتلد تحتوى الوحوش ، والآلات ، والرجال استعداداً لذلك اليوم : وكان من فوق سور المجتلد شرفة من الرخام صفت فيها مقاعد مزينة يجلس عليها الشيوخ والكهنة وكبار الموظفين . وكان فوق هذه الشرفة مقصورة عالية (suggestum) يجلس فيها الإمبراطور والإمبراطوة على عرشين من العاج والذهب ، ومن حولها أعضاء الأسرة الإمبراطورية والحاشية . ومن خلف هذه الدائرة الممتازة ، دائرة الأشراف ، يجلس فيها أفراد طبقة الفرسان فى عشرين صفا من المقاعد . ويفصل سور عال مزدان بالتماثيل الطبقات العليا عن السفلى فى المقاعد العالية . وكان فى وسع أى شخص من الأحرار ذكراً كان أو أنثى أن يشهد الجلاد ، ويلوح أنه لم تكن ثمة رسوم تؤدى عن الدخول ، وكانت الجماهير تنتهز فرصة وجود الإمبرطور فى المجتلد وفى مضمار السباق لتسمعه رغبتها — فى العفو عن أسير أو مصارع مهزوم ، أو تحرير عبد شجاع ، أو حضور مجالد محبوب ، أو إصلاح غير ذى بال . وكانت مظلات تنشر فوق المجتلد عند الحاجة إليها ، وتمتد على مكان فى السور إلى حواجز المجتلد لتظليل ما يتعرض من أجزائه لأشعة الشمس . وكانت فى أماكن متفرقة منه عيون تقذف الماء المعطر لتبريد الهواء . فإذا انتصف النهار أسرع معظم النظارة إلى أسلفه ليتناولوا غداءهم ، وكانوا يجدون حاجتهم من الطعام والشراب والحلوى عند أناس رخص لهم ببيعها فى هذا المكان . وكان يحدث فى بعض المناسبات أن يأمر

الإمبراطور بإطعام الجماهير المحتشدة كلها من خيراته ، وأن تنثر الأطعمة الشهية والهدايا على الجماهير فتتلقفها أيديهم . وإذا ما أقيمت الألعاب فى الليل ، وكان هذا يحدث أحياناً ، كان فى الاستطاعة إنزال دائرة من النور فوق المجتلد والنظارة . وكانت فرق موسيقية تطرب المجتمعين فى الفترات التى تتخلل الألعاب ؛ وفى الأوقات التى تبلغ المباريات حدتها ، كانت الموسيقى تعزف أنغاما مهيجة مثيرة مطردة العلو فى النغمة .

وكانت أبسط الحوادث التى تشاهد فى المدرج عرض حيوانات أجنبية تجمع من جميع أنحاء العالم المعروف : من فيلة ، وأساد ، ونمورة رُقط وسود ، وتماسيح ، وأفراس بحر ، وأوبيسات ، وقردة ، وفهود ، ودببة ، وخنازير برية ، وذئاب ، وزرافات ، ونعام ، ووعول ، وغزلان ، وطيور نادرة الوجود . وكان يحتفظ بهذه كلها فى حدائق الحيوان التى يملكها الأباطرة والموثرون من الأهلين ، وتدرب على القيام بألعاب مضحكة . فكانت القردة تعلم ركوب الكلاب وسوق المركبات ، والتمثيل فى المسرحيات ؛ والثيران تدرب على ترك الغلمان يرقصون فوق ظهورها ، وآساد البحر تدرب على النباح إذا ذكرت أسماؤها ، والفيلة ترقص على صوت صنوج تضربها فيلة أخرى ، أو تمشى على حبل ، أو تجلس حول مائدة الطعام ، أو تكتب حروفا يونانية أو لاتينية . وكان يكتفى فى بعض الأحيان بعرض هذه الحيوانات فى حلل زاهية أو مضحكة ، ولكنها فى العادة كانت تقاتل بعضها بعضاً ، أو تقاتل الرجال ، أو تُضرب بالسهام والحراب حتى تموت . وقد حدث فى أيام نيرون أن اقتتل أربعمائة نمر مع ثيران وفيلة ، وقتل فى يوم آخر من أيام كلجيولا أربعمائة دب ، ومات فى يوم تدشين الكولوسيوم خمسة آلاف حيوان(١٠٧) . وإذا تبين أن الحيوانات قد فترت عزيمتها عن القتال ضربت بالسياط ، أو رميت بالسهام ، أو كويت بالحديد المحمى ليثار غضبها فتنفر للقتال . وقد أرغم كلوديوس فرقة من الحرس البريتورى على قتال الفهود ، وأرغم نيرون فرقة أخرى على أن تقاتل أربعمائة دب وثلثمائة أسد(١٠٨) .

وأدخل قيصر إلى رومة عادة صراع الثيران والآدميين ، وهى العادة التى كانت شائعة فى كريت وتساليا من قبله بزمن طويل ، وأصبحت منذ عهده من المناظر المألوفة فى المدرجات(١٠٩) . وكان المجرمون المحكوم عليهم بالإعدام يلقون إلى الحيوانات التى استوحشت لهذا الغرض خاصة ، وكثيراً ما كان هؤلاء الرجال يغطون بجاود لكى يشبهوا الحيوانات . وكانوا يعانون فى أثناء موتهم أشد أنواع الآلام ، وكانت جراحهم تتعمق أحياناً فى أجسامهم حتى كان الأطباء يستخدمون هذه الأجسام لدراسة تشريحها الداخلى . وليس فى العالم من يجهل قصة أندركليز Androcles العبد الآبق ، وكيف ألقى به إلى أسد فى المجتلد بعد أن قبض عليه ، ولكن الأسد كما تقول القصة تذكر أن أندركليز أخرج فى ذات يوم شوكة من مخلبه ، فأبى أن يمسه بسوء ، وكيف عفى عن أندركليز بعدئذ وظل يكسب عيشه بعرض أسده المتحضر فى الحانات(١١٠) . وكان يطلب إلى المقضى عليه بالموت فى بعض الأحيان أن يمثل تمثيلا واقعياً دوراً مشهوراً فى إحدى المآسى : فقد يمثل دور منافسة ميديا ، فيرتدى ثوباً جميلا يلتهب فجأة ويحرقه ؛ وقد يمثل هرقل فيحرق حيا فوق كومة من الحطب ، وقد تجب خصيتاه علنا كما فُعِل بأرتيز (إذا صدقنا قول ترتليان Tertullian) ، وقد يمثل دور موسيوس اسكاڤولا Mucius Scaevola فيبسط يده فوق نار فحم حتى تحترق ؛ وقد يمثل دور إكارس Icarus فيسقط من السماء ، لا فى بحر رحيم ، بل بين قطيع من الوحوش الضارية ، وقد يكون پاسفيا Pasiphaë ، فيحتضن ثوراً . وألبس أحد الضحايا مرة ثياباً كثياب أرفيوس Orpheus ، وبعث به ومعه قيثارة إلى مجتلد مثلث فيه أيكة جميلة من الأشجار والجداول ، ثم أطلقت من خبايا المجتلد على حين غفلة وحوش جياع ومزقه إربا(١١١) . وصلب لص يدعى لوريوس Laureolus فى المجتلد ليتسلى النظارة برؤيته ؛ ولما لم يلفظ آخر أنفاسه بالسرعة المطلوبة جىء إليه بدب وسلطوه عليه وما زالوا يغرونه به حتى أكله

قطعة بعد قطعة وهو معلق فى الصليب . ويصف مارتيال هذا المنظر وصف المعجب به الراضى عنه(١١٢) .

وكانت أروع الحادثات فى هذه الألعاب هى قتال الرجال المسلحين ، إما فى صورة مبارزات فردية أو معارك جماعية . وكان المتقاتلون فى هذه الحالة من أسرى الحروب ، أو المجرمين المذنبين ، أو العبيد العاصين . وكان حق المنتصرين فى أن يقتلوا أسراهم من الحقوق المعترف بها عادة فى العهود القديمة جميعها ، ومن أجل هذا كان الرومان يرون أنهم رحماء كرام حين يتيحون لأسراهم فرصة ينجون فيها من الموت بإرسالهم إلى المجتلد . كذلك كان المحكوم عليهم فى الجرائم الكبرى يرسلون من كافة أنحاء الإمبراطورية إلى رومة ، فيلحقون بمدارس المجالدين ولا يلبثون أن يظهروا فى الألعاب ، فإذا ما أظهروا فى الصراع شجاعة نادرة فقد يحررون من فورهم . وأما إذا نجوا من القتل من غير أن يظهروا هذه الشجاعة فكانوا يرغمون على القتال مرة بعد مرة فى الأعياد والمواسم المتوالية ، فإذا ظلوا أحياء ثلاث سنين استبدل الاسترقاق بالإعدام ؛ وإذا ما أرضوا سادتهم عامين نالوا حريتهم . وكانت الجرائم التى يحكم على مرتكبيها بحياة المجالدين مقصورة على القتل ، والسرقة ، والتسميم ، وتدنيس الأماكن المقدسة ، والتمرد ؛ ولكن حكام الأقاليم المجدين كانوا يحرصون فى بعض الأحيان على سد حاجة الأباطرة إلى أمثال هؤلاء الناس ، فيتخطون هذه القيود إذا نقص عدد المجالدين(١١٣) . وكان الفرسان وأعضاء مجلس الشيوخ أنفسهم يحكم عليهم أحياناً بأن يقاتلوا فى المجتلد ؛ بل إن شهوة الثناء وحب التصفيق كانت فى بعض الأحيان تدفع أفراداً من طبقة الفرسان لأن يتطوعوا لهذا القتال مختارين ؛ ومن الناس عدد غير قليل كانوا يدخلون مدارس المجالدين حباً فى المغامرة ومغالبة الأخطار .

وقد وجدت هذه المدارس فى رومة من عام ١٠٥ ق . م ؛ وكان فيها أربع مدارس من هذا النوع فى عهد الإمبراطورية ، عدا ما كان منها فى

أنحاء إيطاليا وكانت واحدة فى الإسكندرية ، وكان للأغنياء فى أيام قيصر مدارس أنشأوها لأنفسهم ليعدوا فيها العبيد ليكونوا مجالدين ، وكانوا يتخذون خريجيها حرساً خاصاً لهم فى زمن السلم وجنوداً فى وقت الحرب ، ويؤجرونهم للقتال فى المآدب الخاصة ، ويعيرونهم للقتال فى الألعاب. وكان الكثيرون ممن يدخلون مدارس المجالدين المحترفين يقسمون عند دخولهم يميناً بأن « يقبلوا الضرب بالعصى والحرق بالنار ، والقتل بحد السنان »(١١٤) . وكان التدريب والنظام فيها صارمين ، وكان الأطباء يراقبون ما يقدم فيها من الطعام ، ويصفون للطلاب أكل الشعير ليقووا بأكله عضلاتهم . وكان عقاب من يخرج على القواعد والنظم الموضوعة الجلد ، والكى ، والسجن والأغلال . ولم يكن طلاب الموت هؤلاء جميعهم غير راضين عن مصيرهم ، فنهم من كانوا يزدهون بما سوف يحرزون من نصر ، وكانوا يفكرون فى شجاعتهم أكثر من تفكيرهم فيما يتعرضون له من الأخطار(١١٥) ، ومنهم من كان يشكو أنه لم تتح له فرص كافيه للقتال ، وكان هؤلاء يحقدون على تيبيريوس لأنه لا يكثر من إقامة الألعاب . لقد كان يعزيهم عن الخطر الذى يتعرضون له ، ويغريهم بركوب هذا الخطر ، ما سوف ينالون من الشهرة ، فقد كان المعجبون بهم يكتبون أسماءهم على جدران المبانى العامة ، وكانت النساء تعشقهم ، وكان الشعراء يغنون بمدحهم ، والمصورون يصورونهم ، والمثالون يخلدون للأجيال المقبلة صور عضلات أذرعهم الحديدية ، وعبوسة وجوههم الرهيبة . على أن منهم كثيرين كانوا يألمون لسجنهم الطويل ، وحياتهم الوحشية الرتيبة ، وما يتوقعون لأنفسهم من آجال قصيرة ، ومنهم من كانوا ينتحرون ، وقد انتحر واحد منهم بأن كتم نفسه بإسفنجة كان يستخدمها فى تنظيف أعضائه السرية ، وانتحر آخر بوضع رأسه بين أنصاف محاور عجلة تتحرك ، وانتحر كثيرون منهم بشق بطونهم فى المجتلد(١١٦) .

وكانوا فى الليلة السابقة للقتال تولم لهم وليمة طيبة ؛ فمن كان منهم فظاً

خشن الطباع ملأ بطنه بلذيذ الطعام والشراب ، ومنهم من كان يودع زوجته وأبناءه وهو حزين كظيم ؛ وكان المسيحيون منهم يجتمعون ليتناولوا معا « طعام المحبة » (agapé) . وكان هؤلاء وأولئك يأتون إلى المجتلد فى اليوم الثانى فى حلل فاخرة ويذرعونه من أوله إلى آخره ، وكانوا يسلحون فى العادة بالسيوف ، أو الرماح ، أو الخناجر ، ويلبسون خوذاً من البرنز ، ودروعا ، ووقايات للأكتاف وتروساً وجراميق . وكانوا يصنّفون حسب أسلحتهم ؛ فمنهم أصحاب الشباك الذين يوقعون خصومهم فى الأحابيل ثم يقضون عليهم بطعنات الخناجر ، ومنهم من يحذقون مطاردة مقاتليهم بالتروس والسيوف ؛ ومنهم من يرمون بالمقالع ، ومنهم من يقاتل الواحد منهم بسيف قصير فى كلتا يديه ، ومنهم من يقاتلون فى المركبات ، ومنهم من يصارعون الوحوش . وكان المجالدون فضلا عن هذه المغامرات كلها يتبارزون مثنى مثنى أو جماعات ، وإذا جرح أحد المتبارزين جرحاً شديداً فى مبارزة فردية طلب من أقام المباراة إلى النظارة أن يدلوا برأيهم ، فإذا رفعوا إبهامهم أو لوحوا بمناديلهم كان ذلك دليلا على أنهم يريدون الرحمة بالجريح ، وإذا ما خفضوا إبهامهم عرف أنهم يطلبون إلى الفائز أن يقتل المغلوب من فوره[١١٧] . وإذا أظهر أحد المقاتلين أنه لا يحب أن يموت أثار بذلك غضب النظارة وأثيرت حميته وشجاعته بوخزة بالحديد المحمى[١١٨] . وإذا أريدت مجازر كبيرة هيئت معارك جماعية يقتتل فيها آلاف الرجال بوحشية المستيئسين . وقد اشترك فى الثمان المعارك التى أعدها أغسطس عشرة آلاف مقاتل اقتتلوا فيها مجتمعين . وكان رجال فى ثياب كارون Charon (*) ينخسون من يسقطون فى المعركة بأسنان العصى الحادة ليعرفوا هل ماتوا حقا أو أنهم يتصنعون الموت . فإذا وجدوهم يتصنعونه قتلوهم بضربات المطارق على رؤوسهم .

(*) هو البحار فى الأساطير اليونانية الذى ينقل بقاربه أرواح الموتى فى نهر استيكس فى العالم السفلى . (المترجم)

وكان هناك رجال آخرون في ثياب عطارد رسول الآلهة يجرون أجساد الساقطين بخطاطيف في الوقت الذي يجمع فيه عبيد من المغاربة التراب المبلل بالدماء في مجارف ، ويفرشون الرمل على الأرض لاستقبال من يأتون بعدهم من الأموات .

وكان معظم الرومان يدافعون عن الألعاب في المجتلدات بقولهم إن الضحايا كانوا من المحكوم عليهم بالإعدام لما ارتكبوه من الجرائم الشنيعة ، وإن ما يلقون من العذاب يحول بين غيرهم وبين ارتكاب أمثال هذه الجرائم ، وإن الشجاعة التي يدرب عليها المقضي عليهم ليلاقوا بها الجراح والموت تغرس في قلوب الشعب الفضائل العسكرية ، وإن اعتياد العين رؤية الدماء والمعارك الحربية تعود الرومان مطالب الحرب والتضحية بالنفس .. وهاهو ذا چوڤنال الذي ندد بكل شيء عدا هذه الألعاب قد تركها من غير تجريح ، وأمتدح بلني الأصغر ، وهو الرجل الراقي المتحضر ، تراچان لأنه عرض على الشعب مناظر تثير في الناس رغبة في أن يُشْخَنوا « بالجراح الشريفة والاستهزاء بالموت »(١١٩) . وكان تاستس يرى أن الدماء التي تراق في المجتلد ، أيا كان شأنها ، هي « الدماء الرخيصة » التي تجري في عروق العامة(١٢٠) . أما شيشرون فكانت نفسه تتقزز من هذه المجازر وهو يسائل الناس « أية تسلية يمكن أن تتسلى بها الروح الرقيقة الإنسانية حين ترى وحشاً شريفاً يطعنه الصائد في قلبه بلا رحمة ، أو ترى إنساناً يمزقه وحش ضار أقوى منه جسما ؟ » ولكنه يضيف إلى ذلك قوله . « إذا ما اضطر المجرمون إلى القتال فإن العين لا تشهد طريقة تهيئ الإنسان لملاقاة العذاب واستقبال الموت خيراً من هذه الطريقة »(١٢١) . وأقبل سنكا على الملاعب في وقت الظهيرة حين خرجت كثرة النظارة للغذاء ، فهاله وحز في نفسه أن يرى مئات المجرمين يساقون ليتسلى من بقوا فيها برؤية دمائهم المراقة :

« وأعود إلى منزلي أكثر مما كنت نهماً وقسوة ووحشيةً ، لأني كنت بين آدميين . لقد شاهدت بمحض المصادفة معرضا مقاماً في وقت الظهيرة ،

وكنت أتوقع أن أرى بعض ما يبعث السرور أو الفكاهة أو يروح عن النفس بعض متاعبها . . . وتستطيع عين الإنسان أن تستريح به من رؤية المجازر التى تذهب فيها حياة أخيه الإنسان ... ولكنى رأيت عكس هذا . . إن هؤلاء المحاربين فى وقت الظهيرة يخرجون وليس عليهم دروع من أى نوع كان ، أجسامهم معرضة للطعنات فى كل جزء من أجزائها ، فكل طعنة تصيبهم فى الصميم . . . إنهم فى الصباح يلقون الناس أمام الآساد ، أما فى الظهيرة فيقذف بهم أمام النظارة ، فترى الجماهير تطلب إلى المنتصر الذى قتل خصيمه أن يقاتل الرجل الذى سوف يقتله ، ويحتفظ بالمنتصر الأخير ليُقتل قتلة أخرى . . . وهذه الأمور وأمثالها تحدث والمقاعد تكاد تكون خالية . . . إن الآدمى الذى لا يحل للإنسان قتله ، يقتل لعبا ولهوا وجلبا للمسرة »(١٢٢) .

الفصل السابع

العقائد الجديدة

رضى الدين عن الألعاب وعدها الصور الصحيحة للاحتفالات الدينية ، ولذلك كانت تبدأ بمواكب فخمة وقورة ، وكان الكهنة والعذارى الڤستية يحتلون أماكن الشرف فى دور التمثيل ، وفى مضامير السباق وأمام المجتلد ، وكان الإمبراطور الذى يرأس هذه الاحتفالات هو الكاهن الأكبر لدين الدولة .

وقد بذل أغسطس وخلفاؤه كل ما وسعهم من جهد ليعيدوا الحياة إلى الدين القديم ، إلا عنصراً من عناصره وهو الحياة الأخلاقية الفاضلة ؛ وحتى أشد الأباطرة كفراً بهذا الدين أمثال كلجيولا ونيرون كانوا يؤدون جميع المراسم والطقوس الواجبة للآلهة الرسمية ، وظل اللوپرسى يرقصون فى الشوارع فى يوم عيدهم ، كما ظل إخوان أرڤال Arval ينطقون بالدعوات والصلوات للمريخ بلغة لاتينية قديمة لا يفهم أحد معناها . وكان التنبؤ بالغيب وزجر الطير من الأعمال التى لا ينقطع الناس عن ممارستها والثقة العظيمة بها ، وكان الأباطرة الذين يخرجون المنجمين من البلاد يستشيرونهم فى مهام الأمور . وأدخل السحر والشعوذة والخرافات والأوهام الباطلة ، والرقى ، والتعاويذ ، والتفاؤل ، والتطير ، وتفسير الأحلام فى نسيج الحياة الرومانية حتى أصبحت لحمتها وسداها ، وكان أغسطس يدرس أحلامه دراسة جدية لا تقل عن دراسة علماء النفس فى هذه الأيام ؛ ويحدثنا سنكا أنه شاهد بعينيه نساء يجلسن على درج الكپتول ينتظرن أن يستمتع بهن چوپتر لأنهن رأين فى أحلامهن أن الإله راغب فيهن[١٢٣] . وكان كل قنصل يحتفل بتقلده منصبه احتفالا يضحى فيه بعدد من العجول ؛ وحتى چوڤنال نفسه ، وهو الذي كان يسخر بكل ما عدا هذه الأعمال ،

قطع بيده فى تقى وخشوع أعناق حملين وعجل حنيز شكراً للآلهة على أن صديقاً له عاد من رحلته سالماً . وغصت الهياكل بقرابين الذهب والفضة ؛ وكانت الشموع تضاء أمام المذابح ، وقد بليت شفاه التماثيل المقدسة وأيديها وأقدامها من كثرة ما طبعه عليها الأتقياء الصالحون من قبلات . وقصارى القول أن الدين القديم بدا وكأنه لا يزال محتفظاً بقوته ، وظل يخلق آلهة جدداً مثل أنونا Anona (جامعة حبوب العالم إلى رومة) ، ويبعث حياة جديدة فى عبادة فورتونا Fortuna وروما Roma ويؤيد القانون ، والنظام ، والاستبداد أقوى تأييد . ولو أن أغسطس بعث حياً بعد عام واحد من وفاته لما كان عليه حرج إن قال إن ما بذله من جهود لإحياء الدين قد نجح أعظم نجاح .

لكن الدين القديم ، رغم هذه المظاهر الخارجية ، دب فيه دبيب الفناء من أعلاه ومن أسفله على السواء . ولم يكن تأليه الأباطرة دليلا على إجلال الطبقات العليا لحكامها ، بقدر ما كان شاهداً على قلة إجلالها لآلهتها . وأخذت الفلسفة تمحو العقائد الدينية من قلوب المتعلمين وإن كانت فى الوقت نفسه تبسط على هذه العقائد حمايتها ، ولم تكن كتابات لكريشيوس Lucritius عديمة الأثر فى العقول ؛ نعم إن الناس لم يكونوا يذكرونه ، ولكن إغفالهم ذكره لم يكن له من سبب إلى أن الانغماس فى الأبيقورية كان أسهل عليهم من دراسة أبيقور أو شارحه المتحمس لمبادئه . ولم يجد الشبان الأثرياء الذين ذهبوا ليتزودوا بالدراسات العليا فى أثينة والإسكندرية ورودس ما يزيد إيمانهم بالدين الرومانى وعقائده . وكان الشعراء اليونان يسخرون من آلهة الرومان ، وسرعان ما أخذ شعراء الرومان أنفسهم يحذون حذوهم ، فكانت قصائد أوفد تفترض أن الآلهة من نسج الخيال ، وكانت فكاهات مارتيال الشعرية تفترض أن الحديث عنهم هزل لا جد فيه . ويلوح أن أحداً لم يشك من هذا أو يعترض عليه ، وقام شخص وطرد ديانا من المسرح بعد أن انهال عليها ضرباً

بالسياط ، وجاء آخر فمثل چوپتر وهو يوصى بوصيته استعداداً للموت(١٢٤) .
ولاحظ چوڤنال ما لاحظه أفلاطون قبل عهده بخمسة قرون ، وما نلاحظه نحن بعده بثمانية عشر قرناً ، أن خوف إله رقيب مطلع على السرائر لم يعد له من القوة ما يستطيع به أن يكشف الحنث فى الإيمان(١٢٥) . وحتى شواهد القبور نفسها تقرأ عليها ما يدل على ازدياد التشكك فى الدين وعلى الانغماس الصريح فى الشهوات . فقد كتبت على واحد منها هذه العبارة : « لم أكن ، لقد كنت ، ولست بكائن ، ولا أبالى » . وكتب على شاهد آخر : « لم أكن قد وجدت ، لست موجوداً ، لست أدرى » ، وعلى شاهد ثالث : « لم يكن لى إلا ما أكلت وشربت ؛ لقد تمتعت بحياتى » (١٢٦) . وكتب على شاهد آخر : « لا أؤمن بشىء وراء القبر » . ويؤكد شاهد غيره أن « ليس ثمة جحيم ولا كارون ، ولا سربس Cerebus » . وكتبت نفس قلقة كدرة : « لا حاجة لى الآن بأن أخشى الجوع ، ولا حاجة لى بأن أؤدى الريع ، ولقد تحررت من وجع المفاصل على الأقل » . وكتب شخص نكد من أتباع لكريشيوس عن جثته المدفونة يقول : إن « العناصر التى تكونت منها تعود مرة أخرى إلى أصولها ، إن الحياة عارية تعار للإنسان ، وليس فى مقدوره أن يحتفظ بها إلى أبد الدهر ، وهو إذا مات يرد ما عليه من دين إلى الطبيعة » (١٢٧) .

لكن الشك مهما يكن فيه من إخلاص لا يمكن أن يحل محل الإيمان ، ولم يجد ذلك المجتمع بين ملذاته كلها سعادة ما ، بل سئم ما فيه من تنعم ، واستنفد قواه فيما ساده من دعارة ، وظل الفقراء والأغنياء على السواء معرضين للألم والحزن والموت ، ولم تستطع الفلسفة بجميع أنواعها ، وخاصة تلك العقيدة الباردة السامية عقيدة الرواقية ، أن تهب الرجل العادى إيمانا يخفف عنه شعوره بفقره ، ويشجعه على تهذيب خلقه ، ويواسيه فى أحزانه ، ويبعث الأمل فى قلبه . لقد كان الدين القديم يؤدى الوظيفة الأولى من هذه الوظائف الثلاث ، وعجز عن أداء الوظيفتين الأخريين . ذلك أن الناس كانوا يحتاجون إلى وحى يوحى إليهم ،

ولكن الدين لم يهبهم إلا طقوساً ومراسم ؛ وكانوا يطلبون خلوداً وحياة بعد الموت ، ولكن دينهم جاء لهم بدل هذا بألعاب . كذلك شعر الناس الذين جاءوا من بلاد أخرى عبيداً أو أحراراً أنهم محرومون من هذه العبادات القومية ، ومن أجل هذا جاءوا معهم بآلهتهم ، وأقاموا لها هياكل خاصة بها ، ومارسوا شعائرهم الخاصة ؛ وغرسوا فى قلب بلاد الغرب دين الشرق . وبدأت بين عقائد الفاتحين وإيمان المهزومين حرب لم تنفع فيها أسلحة الجحافل الرومانية ؛ وكانت حاجات القلوب هى التى قررت لمن يكون الفوز .

وجاء الأرباب الجدد مع أسرى الحروب ، ومع الجنود العائدين من ميادين القتال ومع التجار . وأقام التجار الوافدون من آسية ومصر هياكل فى بتيولى Puteoli ، وأستيا Ostia وروما ليعبدوا فيها آلهتهم التقليدية . وكانت الحكومة الرومانية تنظر إلى هذه الأديان الأجنبية نظرة التسامح فى العادة ؛ ذلك أنها لم تكن تريد أن تسمح للأجانب أن يشاركوا الرومان فى عباداتهم ، ومن أجل هذا كانت ترى أن ممارستهم شعائر دينهم الذى جاءوا به معهم أفضل من تركهم بلا دين . وكانت تطلب إليهم فى نظير هذا أن يكون كل دين أجنبى متسامحاً كذلك مع غيره من الأديان ، وأن تتضمن طقوسه ما يشعر بالخضوع إلى « عبقرية » الإمبراطور ، وإلى الإلهة « روما » ليعبروا بذلك عن ولائهم للدولة ؛ وشجع هذان التساهل والتسامح الأديان الشرقية ، وكانت قد استقرت فى رومة ، فأضحت هى الأديان الكبرى المنتشرة بين العامة . وأراد كلوديوس أن يهذب هذه العبادات الشرقية فرفع القيود المفروضة على عبادة الأم العظمى ، وأجاز للرومان أن يكونوا كهنة لها وقائمين على خدمتها ، وقرر لها عيداً رسمياً حوالى الاعتدال الربيعى بين ٥ و ٢٧ مارس . وكانت منافستها الكبرى فى القرن الأول الميلادى هى إيزيس المصرية إلهة الأمومة ، والإخصاب ، والتجارة وكانت الحكومة قد حرمت المرة بعد المرة عبادة هذه الإلهة الأجنبية فى رومة ،

ولكنها لم تكن تلبث أن تعود بعد كل تحريم لأن تقوى عبادها كانت أقوى من سلطان الدولة ، وأيد كلجيولا استسلام الدولة لها بأن شاد لها من الأموال العامة ضريحاً فخماً فى ميدان المريخ . واشترك أتو Otho ، ودومتيان فى الاحتفالات الإيزيسية ، ومشى كومودس عارى الرأس خلف كهنتها يمسك بيديه فى خشوع تمثالا لأنوبيس Anubis القرد إله المصريين .

وزاد شأن هذا الغزو الدينى عاماً بعد عام ، فجاءت من جنوبى إيطاليا عبادة فيثاغورس — وهى الاقتصار على أكل الخضر ، والاعتقاد بعودة الأرواح إلى التجسد . وجاءت من هيربوليس Hierapolis الإلهة أترجاتس Atargatis المعروفة عند الرومان « بالإلهة السورية » ، كما جاء منها أيضاً أزيز Aziz المعروف « بزيوس داوكى Dolochi » وغيره من الأرباب العجيبة . ونشر التجار والأرقاء السوريون عبادة هذه الآلهة ، وما زال عبادها يقوون حتى اعتلى العرش آخر الأمر شاب من كهنة « بعل » السورى وتسمى باسم إلجبالس Elagabalus — عابد إله الشمس . وجاءت من پارثيا عدوة رومة عبادة إلهة من إلهات الشمس هى مثرا Mithra . وكان عبادها يعتقدون أنهم جنود فى الحرب الكونية العظيمة حرب الضياء على الظلام ، وحرب الخير على الشر . وكان فى هذا الدين كثير من صفات الرجولة ، ولهذا كان أكثر أنصاره من الرجال لا من النساء ، وأعجبت به الفيالق الرومانية المرابطة عند الحدود النائية حيث كان يصعب عليهم أن يسمعوا أصوات آلهتهم القومية . وجاء من بلاد اليهود إلههم يهوة إله الموحدين الذين لا يقبلون معه شريكا ، والذى كان دينه يتطلب من أهله حياة شاقة من التقى ورعاية القواعد والنظم ، ووضع لهم قانونا أخلاقيا صارماً ، وأكسبهم شجاعة كانت لهم عوناً فيما نزل بهم من محن ، وأسبغت على حياة أفقر الفقراء وأقلهم جاهاً جلباباً من النبل والشرف . وكان بين اليهود الرومان أتباع هذا الدين طائفة لم تكن قد تميزت بعد من سائر الطوائف تميزاً واضحاً ، كانت تعبد ابنه الذى حلت فيه روحه والذى بعث حيا .

الباب الثامن عشر

القانون الرومانى (*)

١٤٦ ق . م إلى ١٩٢ م

الفصل الأول

المشترعون العظام

كان القانون أخص خصائص الروح الرومانية ، وأبقى مظهر من مظاهرها وكانت رومة مضرب المثل فى النظام كما كانت بلاد اليونان مضرب المثل فى الحرية ، ولقد أورثتنا رومة شرائعها ، وتقاليدها الإدارية لتكون هى أسس النظام الاجتماعى ، كما أورثتنا بلاد اليونان الدمقراطية والفلسفة اللتين كانتا أساس الحرية الفردية . وأهم ما يجب على الساسة ورجال الحكم هو أن يجمعوا بين هذين التراثين المختلفين المتنافرين ويوحدوا بينهما ، ويؤلفوا من نغماتهما المتعارضة المنشطة نغما مؤتلفاً منسجما

وإذ كان القانون هو أساس التاريخ الرومانى وجوهره ، فقد كان من المستحيل أن نفصل هذا عن ذاك ، ومن أجل هذا لن يكون هذا الباب من أبواب الكتاب إلا مكملا لما سبقه وما سيعقبه من تفصيلات ، ولن يزيد على لبنات متفرقة فى صرح الحضارة الرومانية . والدستور الرومانى يشبه الدستور البريطانى — فلم يكن هذا الدستور طائفة من القواعد المخلدة التى يتقيد بها

(*) ليس فى هذا الفصل نفع لرجال القانون وليس فيه لذة لغيرهم .

الناس ، بل كان سلسلة متتابعة من السوابق ترشد وتوجّه ، ولكنها لا تمنع التغيير . فكلما زاد الثراء وتعقدت أساليب الحياة ، أصدرت الجمعيات وأصدر الحكام والزعماء ، قوانين جديدة ، وسايرت الشرائع الإمبراطورية فى نموها واتساع نطاقها ، فكانت كلما امتدت رقعة الإمبراطورية لاحقتها القوانين إلى الحدود الجديدة ، وتطلب تعليمُ رجال القانون ، وإرشادُ القضاة ، وحمايةُ المواطن من الأحكام الظالمة غير المشروعة ، تطلب هذا تنظيم الشرائع وصياغتها فى صورة مرتبة يسهل معرفتها والوصول إليها .
وبينما كانت الاضطرابات التى حدثت عقب ثورات ابنى جراكس وماريوس على أشدها قام پبليوس موسيوس اسكاڤولا Publius Mucius Scaevola (الذى ولى القنصـــلية فى عام ١٣٣ ق . م) وابنه كونتس Quintus (وقد ولى القنصلية فى ٥٥ ق . م) وبذلا جهوداً كبيرة لصياغة قوانين رومة صياغة يسهل فهمها . وكتب شيشرون ، وكان من تلاميذ رجل آخر يدعى كونتس موسيوس اسكاڤولا (وقد ولى القنصلية عام ١١٧ ق . م) ، رسائل بليغة فى فلسفة القوانين ، ووضع مشروع قوانين مثالية يقصد بها الاحتفاظ بالثروة الطائلة التى جمعها وبالدين الذى خسره . وخلقت القوانين المتناقضة التى سنها ماريوس وصلا ، وسلطة پمپى المطلقة التى لم يكن لها مثيل من قبل ، والشرائع الثورية التى وضعها قيصر ، والدستور الجديد الذى وضعه أغسطس ، خلقت هذه كلها مشاكل جديدة للعقول التى حاولت أن تجعل الشرائع متمشية مع المنطق السليم ، وأخذ المشترع النابه أنتستيوس لبيو Antistius Labeo يندد بما فى القوانين من اضطراب وفوضى ، ويعلن أن المراسيم التى أصدرها قيصر وأغسطس مراسيم باطلة لأنها مظهر لسلطة مغتصبة غير شرعية . ولم يكن فى مقدور عقول الأفراد أو سلطة المحاكم أن تقبل هذه القوانين الجديدة إلا بعد أن وطدت الزعامة سلطتها باستخدام القوة أولا وبسلطان العادة فيما بعد .
ويعود الفضل إلى القرنين الثانى والثالث من التاريخ الميلادى فى وضع القوانين

الرومانية فى الغرب فى صورتها النهائية — وهو عمل لا يقل خطراً عن صياغة العلم والفلسفة فى بلاد اليونان .

وفى هذا المجال أيضاً كان قيصر هو الذى حدد الهدف المقصود ، ولكن الجهود الحقيقية التى بذلت لتحقيق هذا الهدف لم تبدأ بالفعل إلا فى أيام هدريان (١١٧ م) ؛ فقد جمع هذا الإمبراطور — وهو أرقى الأباطرة كلهم تعليما — حوله طائفة من فقهاء القانون وألف منهم مجلسه الخاص ، وكلفهم أن يستبدلوا بمراسيم البريتورين المتناقضة « مرسوماً خالداً » يلتزمه فى المستقبل جميع القضاة فى إيطاليا . ولعل الذى أوحى إلى هدريان بإصلاح شرائع رومة وتنسيقها هو إطلاعه فى أثناء رحلاته الكثيرة على دساتير المدن اليونانية فى آسية وإيطاليا ؛ ذلك أن هذه المدن قد أنشأت على توالى الأيام طائفة راقية من القوانين التى تنظم شئونها البلدية ، وإن كان اليونان بوجه عام لم يخرجوا بعد أيام صولون كتاباً فى القانون يعد من الآيات الخالدة فى هذا الموضوع . وواصل الأنطونيون خلفاء هدريان هذا التقنين ، وكانت الشهرة النصف الرسمية التى تتمتع بها الفلسفة الرواقية مما جعل لليونان أثراً عميقاً فى القوانين الرومانية . فقد أعلن الرواقيون جهرة أن القوانين يجب أن تتفق مع المبادئ الخلقية القويمة ، وأن الجريمة كامنة فى نية المرء لا فى نتيجة عمله . وقد أمر أنطونيوس ، وهو ثمرة من ثمار المدرسة الرواقية ، أن يفسر الشك لمصلحة المتهم ، وأن يظل الإنسان بريئاً حتى تثبت إدانته(١) — وهما مبدآن من أرقى المبادئ فى قوانين البلاد المتحضرة .

وقد نبغ فى فلسفة القانون عدد كبير من العباقرة جاء بعضهم فى إثر بعض ، وكان من أهم العوامل فى هذا النبوغ مناصرة الأباطرة وتشجيعهم . ومن هؤلاء العباقرة سلفيوس يوليانس Salvius Julianus وهو رومانى أفريقى المولد أظهر من الجد وغزارة العلم حين كان يعمل مستشاراً قانونياً للإمبراطور ما حمل مجلس الشيوخ على أن يقرر أن يكون مرتبه ضعفى المرتب المخصص

لهذا المنصب عادة واشتهرت فتاواه بوضوحها وسلامة منطقها ، و «**خلاصته**» عبارة عن مجموعة منظمة من القوانين المدنية . وكان هو الذى صاغ المرسوم البريتوري الدائم حين كان أشهر الأعضاء البارزين فى مجلس هدريان .

وهناك مشترع آخر يدعى جايوس Gaius لا نعرف عنه غير اسمه . وقد عثر نيبهر Neioum عام ١٨١٦ م على «**أنظمته**» مكتوبة على ورق وفوقها مقالات لچيروم Jerome ، وهى الآن أكمل مرجع يعتمد عليه فى دراسة القوانين التى سنت قبل عهد چستنيان . وقد صدرت هذه «الأنظمة» حوالى عام ١٦١ م ، ولم يكن يقصد بها أن تكون عملا إنشائياً جديداً ، بل كانت كتاباً مدرسيا أوليا للطلاب والدارسين ، فإذا رأينا نحن أنها آية من آيات العرض المنظم ، ففى وسعنا أن نتصور العقلية الجبارة التى كان يتمتع بها أولئك الرجال الذين تلخص هذه الرسالة كتبهم . وبعد ستين سنة من ذلك العهد أوصل بابنيان پولس Papinian Paulus وألپيان Alpian فقه القانون الرومانى إلى ذروته ؛ وبينما كان تنفيذ القوانين يخر صريعاً للعنف والفوضى صاغه هذان العالمان صياغة منطقية متسقة خالية من التناقض ، ولم يلبث هذا العلم أن هوى بعدهما فى غمرة الخراب الشامل .

الفصل الثانى

مصادر القانون

كما أن مصطلحات العلم والفلسفة مأخوذة فى الأغلب الأعم من اللغة اليونانية فتكشف بذلك عن مصدر هذه العلوم ، كذلك لغة القانون مأخوذة فى معظمها من اللغة اللاتينية . وكان اللفظ الدال على القانون فى هذه اللغة هو ius أى العدالة أو الحق ، أما كلمة lex فقد كان معناها القانون الخاص(*) . وقد وصف فقه القانون فى مختصر چستنيان (٥٣٣ م) بأنه علم وفن معا « علم العدل وغير العدل » و « فن تدبير ما هو صالح ومقسط » وكانت كلمة ius تشمل القانون غير المكتوب أو العادات المرعية التى تحوى القانون المكتوب نفسه ، وكان هذا القانون المكتوب يتكون من ius civilen — أى « قانون المواطنين (الرومان) ، ius gentium — أى « قانون الأمه » . وكان القانون المدنى وقانون المواطنين يسمى «القانون العام» إذا كان يتعلق بشئون الدولة أو العبادة الرسمية ، و « القانون الخاص » إن كان يبحث فى العلاقات القانونية بين المواطنين بعضهم بعضا .

والقانون الرومانى بوجه عام مأخوذ من خمسة مصادر : (١) ففى عهد الجمهورية كان المصدر النهائى للقانون هو إرادة المواطنين يعبرون عنها فى الجمعيتين العشرية والمئوية بلفظ leges وفى الجمعية القبلية بلفظ plebisuta (« قررته العامة») . ولم يكن مجلس الشيوخ يقر اللجيس leges إلا إذا عرضت على الجمعيتين مصحوبة بالمراسيم المقررة وعرضها عليهما موظف كبير فى مرتبة

(*) وازن هذا بعبارتى loi droit فى اللغة الفرنسية وعبارتى Gesetz, Recht فى اللغة الألمانية .

أعضاء مجلس الشيوح . وإذا ما اتفق مجلس الشيوخ والجمعية على إنفاذ قانون من القوانين أعلن باسم Senatus Populusque Romauns

(٢) ولم يكن لمجلس الشيوخ نفسه من الوجهة النظرية فى عهد الجمهورية حق إصدار القوانين ؛ أما قراراته المعروفة باسم « استشارات الشيوخ » senatusconsulta فكانت من الناحية الرسمية توصيات إلى الحكام ؛ ثم أضحت على مر الأيام توجيهات ، ثم أوامر ، ثم صار لها فى عهد الجمهورية المتأخرة وفى عهد الإمبراطورية قوة القوانين . وكان مجموع القوانين التى أجازتها الجمعيتان ومجلس الشيوخ فى خلال ستة قرون قليلا إلى حد يدهش له من اعتاد السيل الجارف من الشرائع التى تصدرها الدول فى الوقت الحاضر .

(٣) وكانت الحاجة إلى القوانين الصغرى أو الخاصة تسدها الأوامر edicta التى يصدرها موظفو المجالس البلدية . ذلك أن كل حاكم جديد للمدينة كان يصدر فى بدء قيامه بمهام منصبه أمراً بريتوريا edictum praetorium يذيعه مناد فى السوق العامة وينقش على أحد الجدران ، ويعلن فيه المبادئ القانونية التى ينتوى الحاكم العمل بهـا والحكم بين الناس بمقتضاها فى خلال السنة التى يتولى فيها منصبه . وكان فى وسع القضاة المتنقلين praelores peregarini وحكام الولايات أن يصدروا أيضاً أمثال هذه القرارات . ولم يكن يسمح للبريتورين بمقتضى سلطة الحكم المخولة لهم أن يفسروا القوانين القائمة فحسب ، بل كان لهم فوق ذلك أن يسنوا قوانين جديدة . وبهذه الطريقة كان القانون الرومانى يجمع بين استقرار الشرائع الأساسية ومرونة الأحكام البريتورية . وإذا انتقل قانون أو انتقلت فقرة من فقراته من مرسوم بريتور إلى مرسوم البريتور الذى يليه مرات كثيرة أصبحت جزءاً لا يتجزأ من القانون الأساسى المعروف باسم ius honorarium حتى حل « قانون المناصب » قبيل عهد شيشرون محل الجداول الاثنى عشر ، وأصبح هو النص الرئيسى للأوامر القانونية فى رومة . على أن

البريتور كثيراً ما كان يخالف المبادئ التي جرى عليها سابقه ، ويصدر من الأحكام ما يناقضها كل المناقضة في بعض الأحيان ؛ وبهذا أضيف الغموض في القوانين والتعسف في الأحكام إلى المساوئ الطبيعية التي لا يخلو منها أي نظام قضائي يتبعه بنو الإنسان ؛ وهذا هو الغموض الذي أراد هدريان أن يقضي عليه حين عهـد إلى يوليانس أن يجمع القانون الأساسي ius honorarium كله في مرسوم دائم لا يستطيع تغييره إلا الإمبراطور نفسه .

(٤) وأصبحت قوانين الزعماء constituiones principum نفسها في القرن الثاني مصدراً آخر من مصادر القانون . واتخذت هذه القوانين أربعة أشكال مختلفة (ا) فقد كان الزعيم يصدر مراسيم بوصف كونه صاحب منصب في المدينة ، وكانت هذه المراسيم نافذة في الإمبراطورية كلها ، ولكن يلوح أنها كان يبطل مفعولها بعد وفاته . (ب) وكان لأوامره decreta بوصفه قاضياً ما كان لغيرها من الأوامر من قوة القانون . (جـ) وكانت ردوده الإمبراطورية rescripta أجوبة لما يوجه إليه من الاستعلامات . وكانت هذه الأجوبة تتخذ في العادة شكل رسائل epistulae أو إجابات قصيرة subscriptiones « تكتب تحت » سؤال أو ملتمس . وقد ضمت الرسائل الحكيمة الجامعة التي رد بها هدريان على ما يطلبه موظفو الحكومة من إرشادات إلى قوانين الإمبراطورية ، وظلت نافذة المفعول بعد وفاته بزمن طويل . ( ) وكانت عهود الأباطرة mandata هي التوجيهات التي يصدرونها للموظفين ، وقد تكون من هذه العهود على مر الزمن كتاب كبير من القانون الإداري .

(٥) وكان من المستطاع في بعض الظروف الخاصة أن تسن القوانين الجامعة المعروفة باسم responsa prodentium . ولقد كان من أجمل المناظ بلا ريب أن يجلس العلماء الأعلام من المشترعين على كراسي في السوق العامة (أو في بيوتهم كما كان يحدث في العهود المتأخرة) ويصدروا فتاوى قانونية

لكل من يريد استفتاءهم ، وكانوا ينالون فى بعض الأحيان على عملهم مكافآت من طريق غير مباشر . فكثيراً ما كان المحامون أو قضاة البلديات يأتون إليهم ليستشيروهم فى مشاكلهم القانونية . وكانوا يفعلون ما يفعله كبار الحاخامات اليهود من التوفيق بين المتناقضات ، ويحددون ما بين القوانين بعضها وبعض من فروق دقيقة ، ويفسرون القانون القديم بما يلائم حاجات الحياة القائمة فى وقتهم أو يلائم ظروفها السياسية ، أو يوفقون بينه وبين هذه الحاجات والظروف . وقد أضحى لأجوبتهم المكتوبة بحكم العادة غير المكتوبة قوة لاتفوقها إلا قوة القوانين نفسها . وجعل أغسطس لهذه الفتاوى كل ما للقوانين من قوة إذا توافر فيها شرطان : أولهما أن يكون المشترعون قد تلقوا من الإمبراطور حق إصدار الفتاوى القانونية ius sespondenti وثانيهما أن ترسل الإجابة مختومة إلى القاضى المعروضة عليه القضية الصادرة فيها الفتوى . ولم يحل عصر جستنيان حتى أضحت هذه الإجابات أو الفتاوى القانونية مصدراً واسعاً للشرائع وآدابها ، ومعينا لاينضب استمد منه مختصره و كتاب قوانينه وكان عماداً لها .

الفصل الثالث

قانون الأحوال الشخصية

يقول ماريوس المعروف بدقته إن القانون كله يتعلق إما بالأشخاص، وإما بالملك، وإما بالمرافعات[٣]. وكانت لفظ persona فى أول الأمر تعنى قناع الممثل، ثم صار معناها بعدئذ العمل الذى يقوم به الإنسان فى الحياة، ثم بات معناها آخر الأمر الشخص نفسه — وكأنما قصد بهذا التطور أننا لانستطيع أن نعرف شخصاً ما، بل كل الذى نعرفه هو ما يقوم به من أعمال، أو ما يلبسه من قناع أو أقنعة.

وكان الشخص الأول فى القانون الرومانى هو المواطن؛ وكان تعريفه عندهم هو أنه الشخص الذى ضم إلى إحدى القبائل الرومانية بحكم المولد أو التبنى، أو العتق، أو المنحة من قبل الحكومة. وكان الذين ينطبق عليهم هذا التعريف ينقسمون ثلاث درجات: (١) المواطنين الكاملين الذين يتمتعون بالحقوق الأربعة: حق الاقتراع (ius suffragü)، وحق التوظف (ius honorum)، وحق الزواج من حرة بمولدها ius conubü، وحق الدخول فى تعاقد تجارى يحميه القانون الرومانى (ius commercü). (٢) «المواطنين الذين لاحق لهم فى الاقتراع» وهم الذين يتمتعون بحق الزواج والتعاقد، ولكنهم لا حق لهم فى الاقتراع، ولا فى تولى المناصب. (٣) المعاتيق الذين يتمتعون بحق الاقتراع والتعاقد ولكنهم لا حق لهم فى الزواج بحرة أو فى تولى المناصب. وكان للمواطن الكامل المواطنية، فضلا عن حقوقه السالفة الذكر، حقوق يضمنها له القانون الشخصى ولا يشاركه فيها سواه؛ كحق الأب على أبنائه (patria potestas)، والزوج على زوجته (manus)، والمالك فى ملكه ومنه عبيده (dominium)،

وحق الرجل الحر على غيره إذا تعاقد معه (mancipium) . وكان ثمة نوع آخر من الحقوق هو حق المواطنية الإمكانية أو حق الدخول فى الحظيرة اللاتينية Latinitas أو ius Latii ، تمنحه رومة للأحرار من سكان المدن أو المستعمرات المفضلة ويعطيهم حق التعاقد ولكنه لا يعطيهم حق التزاوج بالرومانيات ، وينال به كبار موظفيهم حقوق المواطنية الرومانية الكاملة حين تنتهى مدة توليهم مناصبهم . وكان لكل مدينة فى الإمبراطورية مواطنوها وشروطها الخاصة لنيل حقوق المواطنية . وكان من المميزات الفذة لهذه الإمبراطورية أن الشخص يستطيع أن يكون مواطناً لعدة مدن فى وقت واحد ، وأن يستمتع فيها جميعاً بالحقوق المدنية . وكانت أثمن ميزة يستمتع بها المواطن الرومانى هى حماية القانون لشخصه ، وملكه وحقوقه ، وأمنه على نفسه من التعذيب أو العنف فى أثناء المحاكمة . وكان من مفاخر القانون الرومانى أنه يحمى الفرد من الدولة .

ويلى الأب المواطن فى الأهمية فى نظر القانون . لقد كان انتشار القانون فى الأقاليم التى كانت خاضعة فى الأزمنة القديمة لسلطان العادة سبباً فى إضعاف حقوق الآباء على الأبناء ، ولكن فى وسعنا أن نحكم على ما بقى له من سلطان إذا ذكرنا أنه حين خرج أولس فلفيوس Aulus Fulvius لينضم إلى جيش كاتلين Catiline استعاده أبوه وقتله . على أننا نستطيع أن نقول بوجه عام إن سلطان الأب على أبنائه أخذ يضعف كلما ازداد سلطان الحكومة على الأفراد ؛ وإن المواطنية دخلت الأسرة حين غادرت الدولة . لقد كان الآباء هم الدولة فى باكورة عهد الجمهورية ، فكان رؤساء الأسر هم الذين يكوّنون الجمعية القبلية ، وأكبر الظن أن رؤساء القبائل هم الذين كانوا يكونون مجلس الشيوخ . ثم ضعف نظام الحكم عن طريق الأسر والقبائل حين كثر عدد السكان واختلفت أصولهم ، وأصبحت الحياة أكثر حركة وتعقيداً ، وازدادت الصلات التجارية بين الناس فحل التعاقد والقانون محل القرابة والمكانة الاجتماعية والعادة[٤] . فنال الأبناء من آبائهم

نصيباً أوفى من الحرية ، كما ازداد تحرر الزوجات من الأزواج والأفراد من الجماعات . وشاهد ذلك أن تراچان أمر بفصل ابن عن أبيه لأنه أساء معاملته ، وأن هدريان سلب من الأب حقه فى قتل أفراد أسرته ونقل هذا الحق إلى المحاكم ، ومنع أنطونينس أباً من أن يبيع أبناءه عبيداً(٥) . وكانت العادة قد قصرت من زمن بعيد استخدام هذه السلطات القديمة على حوادث فردية نادرة . ذلك أن القانون ينزع على الدوام للسير ببطء خلف التطور الأخلاقى ، لا لأن القانون عاجز عن التعلم بل لأن التجارب قد دلت على أن من الحكمة أن تجرب الأساليب الجديدة عمليا قبل أن توضع فى صورة الشرائع .

وكانت المرأة الرومانية تحصل على حقوق جديدة كلما فقد الرجل حقوقاً قديمة ، ولكنها كانت من المهارة بحيث تستطيع أن تستر حريتها بستار من القيود القانونية المطردة الزيادة . لقد كانت شرائع الجمهورية تفترض أنها « لا حق لها على نفسها sui iuris » مطلقا بل أنها على الدوام خاضعة لولى من الذكور . وفى ذلك يقول جايوس : « توجب عاداتنا على النساء الرشيدات أنفسهن أن يبقين تحت الوصاية لخفة عقولهن »(٦) . ثم زال القسط الأكبر من هذه الوصاية فى عهد الجمهورية المتأخر وفى عهد الإمبراطورية ، وكان سبب زواله مفاتن النساء وقوة إرادتهن ، واستجابة الرجال لهذه المفاتن وهيامهم بالنساء . فكان المجتمع الرومانى من أيام كاتو الأكبر إلى أيام كمودس Commodus خاضعاً لسلطان النساء ، وإن كان من الناحية القانونية مجتمعاً أبويًّا ، وكان يسوده كل ما كانت تمتاز به سيادتهن على إيطاليا فى عهد النهضة أو الندوات الفرنسية فى عهد آل بربون من ظرف ورشاقة . وأقرت قوانين أغسطس هذه الحقيقة الواقعة بعض الإقرار بأن رفعت الوصاية عن كل امرأة ولدت ثلاثة أبناء شرعيين(٧) . وأصدر هدريان مرسوماً يجعل من حق النساء أن يتصرفن فى أملاكهن كيفما شئن بشرط أن يحصلن قبل ذلك على موافقة أوليائهن ، ولكن الإجراءات الفعلية لم تلبث

أن استغنت عن هذه الموافقة . ولم يكد يختتم القرن الثانى حتى كانت الولاية البشرية قد رفعت من الوجهة القانونية عن الحرائر من النساء متى تجاوزن الخامسة والعشرين من العمر .

وظل رضاء الأبوين إلى الوقت الذى نتحدث عنه واجباً فى الزواج الشرعى(٨) : وكان الزواج الذى يتطلب احتفالا دينيا con farreatio وقتئذ (٦٠ م) مقصوراً على عدد قليل من الأسر التى يتألف من آبائها مجلس الشيوخ . وبقى الزواج بالشراء (Coemptio) قائما من حيث الشكل ، فكان العريس يؤدى ثمن العروس بأن يزن فى ميزان آساً أو سبيكة من البرنز أمام خمسة شهود بعد موافقة أبيها أو وليها(٩) . غير أن معظم الزواج أضحى وقتئذ زواجا بالمعاشرة (usus) . وكانت الزوجة تتجنب الخضوع لحق زوجها فى تملكها (manus) بأن تغيب عن بيتها ثلاث ليال فى كل عام ، وبذلك تحتفظ بسيطرتها على أملاكها عدا بائنتها . بل إن الزوج فى واقع الأمر كثيراً ما كان يسجل أملاكه باسم زوجته تهرباً من قضايا التعويض عن الأضرار أو العقاب على الإفلاس(١٠) . وكان فى وسع كل من الطرفين فسخ هذا الزواج الذى يتسلم فيه الزوج زوجته أو أملاكها sine manu متى أراد ، أما ما عداه من أنواع الزواج فكان الزوج وحده هو الذى يحق له فسخه . وظل الزنى من الجرائم الصغرى إذا ارتكبه الرجل ، أما إذا ارتكبته المرأة فكان يعد من الجرائم الكبرى ضد أنظمة الملكية والميراث ، ولكن الزوج لم يبق له وقتئذ حق قتل زوجته إذا ضبطها متلبسة بجريمة الزنى ، بل أعطى هذا الحق لأبيها اسماً وللمحاكم فعلا . وكان عقابها هو النفى . وكان القانون يعترف بالتسرى بديلا من الزواج لا مصاحباً له ، ولم يكن يجيز للرجل أن تكون له خطبتان فى وقت واحد ، ولم يكن أبناء السرارى يعدون أبناء شرعيين أو يجعل لهم حق الإرث . ومن أجل ذلك كان اتخاذ السرارى أمراً محبباً كل الحب للرجال الذين يتكالب عليهم من يسعون لأن يوصى لهم بأملاكهم . فاتخذ

فسپازيان ، وأنطونينس پيوس ، وماركس أورليوس لهم سرارى يعيشون معهن بعد أن ماتت أزواجهم(١١) .

وحاول القانون أن يشجع الأبوة بين الأحرار ، لكنه لم يفلح فى ذلك إفلاحاً يستحق الذكر . وكان يحرم قتل الأبناء إلا إذا كانوا مشوهين أو مصابين بمرض مستعص على العلاج . وكان عقاب من يجهض حاملا أن ينفى من البلاد وأن تصادر أملاكه ، فإذا ماتت الحامل نتيجة لهذا العمل عوقب بالإعدام(١٢) . على أنه كان فى الاستطاعة الإفلات من هذه القوانين فى ذلك الوقت كما يفلت من يرتكب هذه الجرائم الآن وكان الأبناء أيا كانت سنهم يبقون تحت سلطان أبيهم إلا إذا باعهم عبيداً ثلاث مرات ، أو تحرروا من سيطرته بحكم القانون ، أو شغل الابن منصباً عموميا ، أو صار كاهناً ، أو أصبحت إحدى بناته زوجة استولى زوجها عليها وعلى مالها ، أو أضحت عذراء فستية وإذا تزوج ابن فى حياة أبيه كانت ولاية أبنائه لجدهم(١٣) ، وقد أعفت شريعة أغسطس مكاسب الابن من الجندية أو من توليه منصباً عاما ، أو كهنوتيا ، أو من الاشتغال بإحدى المهن الحرة أعفتها من الخضوع للقانون القديم الذى كان يجعل هذه المكاسب كلها من حق الأب : وكان لا يزال من حق الأب أن يبيع ابنه (Mancipium) ؛ ولكن حاله تلك كانت تختلف عن حال الرقيق فقد كان يحتفظ بما له من حقوق مدنية ؛

أما العبد فلم تكن له حقوق قانونية على الإطلاق ، والحق أن القانون الرومانى كان يتردد فى أن يطلق عليه لفظ شخص person ، ثم خرج أخيراً من هذه الورطة بأن سماه « إنسانا غير شخصى »(١٤) ؛ ولم يبحث جايوس فى أمره تحت عنوان قانون الأشخاص إلا لخطأ وقع فيه أدى إلى هذا الإنصاف غير المقصودة ؛ أما منطق الحوادث فكان يعد العبد من قبيل المتاع res فلم يكن يحق له أن يمتلك ، أو يرث ، أو يُورَّث ، ولم يكن يستطيع أن يتزوج زواجا شرعيا ، وكان أبناؤه كلهم يعدون أبناء غير شرعيين ، كما أن أبناءا لجارية كانوا يعدون كلهم

عبيداً ولو كان أبوهم من الأحرار[١٥] . وكان فى وسع السيد أن يرتكب الفحشاء مع عبيده وجواريه من غير أن ينالوا تعويضاً قانونياً ، ولم يكن فى مقدور العبد أن يقاضى من يؤذيه أمام المحاكم ، وكان الذى يحق له أن يقاضى من يتسبب فى إيذاء العبد هو سيده . وكان لهذا السيد فى عهد الجمهورية أن يضربه ، ويسجنه ، ويحكم عليه أن يقاتل الوحوش فى المجتلد ، ويعرضه للموت جوعا ، أو يقتله لسبب أو لغير سبب ومن غير أن تكون عليه رقابة إلا رقابة الرأى العام المكون من ملاك العبيد . وإذا أبق عبد ثم قبض عليه كان فى مقدور سيده أن يكويه بالنار أو يصلبه ؛ وكان أغسطس يفخر بأنه قبض على ثلاثين ألفاً من العبيد الآبقين ، وأنه صلب كل من لم يكن له مالك يطلبه[١٦] . وإذا ما استفز العبد عمل من هذه الأعمال أو غيرها فقتل سيده ، قضى القانون بأن يقتل جميع عبيد القتيل ؛ ولما أن قتل الوالى بدانيوس سكندس Pedanius Secundus فى عام ٦١ وحكم على عبيده الأربعمائة بالإعدام ، احتجت أقلية من أعضاء مجلس الشيوخ على هذا الحكم ، وطلبت جماعة غاضبة فى الشارع باستعمال الرأفة ، ولكن المجلس أصر على تنفيذ القانون اعتقاداً منه أن السيد لا يكون آمناً على نفسه من عبيده إلا بمثل هذه القسوة[١٧] .

ومما يذكر بالشكر للإمبراطورية أو للنقص فى موارد العبيد — أن أحوالهم أخذت تتحسن تحسناً مطرداً فى عهد الأباطره . ومن مظاهر هذا التحسن أن كلوديوس حرم قتل العبد الذى لا يرتجى منه نفع ، وأمر أن يصبح العبد المريض الطريد بعد شفائه حراً من تلقاء نفسه . وحرم قانون پترونيا Les Petronia ، فى عهد نيرون على الأرجح ، على الأسياد أن يحكموا على العبيد بأن يقاتلوا فى المجتلد إلا إذا وافق على ذلك موظف كبير . وأجاز نيرون للعبـــد الذى أسيئت معاملته أن يلجأ إلى تمثاله ويحتمى منه ، وعين قاضياً لينظر فى شكاوى أمثال هذا العبد — وكان ذلك تقدما متواضعاً بدا لرومة كأنه انقلاب ثورى ، لأنه فتح

أبواب المحاكم للعبيد . وقد جعل دومتيان خصي العبيد للأغراض الجنسية جناية ، وحرم هدريان ملاك العبيد مما كان لهم من حق قتل عبيدهم دون موافقة الحكام ، وأجاز أنطونينس پيوس للعبد الذى أسيئت معاملته أن يحتمى فى أى معبد ، وقرر أن يباع مثل هذا العبد إلى سيد آخر إذا أثبت أنه لحقه ضرر . وشجع ماركس أورليوس الأسياد على أن يعرضوا على المحاكم ما لحقهم من الأضرار على أيدى العبيد ، بدل أن يقتصوا منهم بأنفسهم . وكان يرجو أن يحل القانون والحكمة بهذه الطريقة محل الوحشية والانتقام الفردى(١٨) . وآخر ما نذكره من الإصلاحات أن مشترعا عظيما فى القرن الثالث هو أبليان Uplian جهر بما لم يجرؤ على الجهر به إلا عدد قليل من الفلاسفة ، وهو أن « الناس أكفاء بحكم قانون الطبيعة »(١٩) . وقال غيره من المشترعين إن من القواعد المقررة أنه إذا كان ثمة شك فى أن رجلا ما حر أو عبد كانت الشكوك كلها مؤيدة لحريته(٢٠) .

على أن خضوع العبيد القانونى لسادتهم على هـذا النحو لهو رغم هذه الملطفات كلها أسوأ وصمة يوصم بها القانون الرومانى . وكانت آخر سوءات هذا القانون ما يفرضه من الضرائب والقيود على عتق العبيد حتى لقد كان كثيرون من الملاك يتملصون من قانون فوفيا كانينا les Fufia Canina بأن يعتقوا عبيدهم من غير شهود رسميين أو احتفال قانونى ، وإن كان هذا العتق لا يعطى المعتوق حقوق المواطنية بل كل ما يمنحه إياه هو أن يجعله لاتينيا . أما العبد الذى يعتق حسب الإجراءات القانونية فكان يصبح مواطناً يستمتع بالحقوق المدنية مقيدة ببعض القيود ؛ لكن العادة كانت تتطلب أن يؤدى واجب التعظيم لسيده السابق كل صباح ، وأن يقوم على خدمته إذا دعت الضرورة ، وأن يعطيه صوته فى كل انتخاب ، وأن يؤدى إليه فى بعض الحالات قسطا من كل ما يكسبه من المال . وإذا مات المعتوق دون أن يوصى لأحد بماله ، ذهب هذا المال من تلقاء نفسه إلى سيده السابق إن كان حيا ؛ وإذا ما أوصى بماله وهو على قيد الحياة

كان ينتظر منه أن يخص هذا السيد ببعضه[٢١] . وقصارى القول أن المعتوق لم يكن يستنشق نسيم الحرية بحق إلا بعد أن يموت سيده ، وتقام جنازته ، ويوارى التراب بالطرق التى جرى بها العرف والتقاليد المرعية .

ومن واجبنا أن نضيف إلى الأقسام العامة من قانون الأحوال الشخصية السالف الذكر ذلك القسم الذى يطلق عليه فى الشرائع الحديثة اسم خاص هو القانون الجنائى . لقد كان التشريع الرومانى يحسب حساباً للجرائم التى تقع على الأفراد والدولة والهيئات الاجتماعية والتجارية بوصفها أشخاصاً معنويين . فأما الدولة فقد كان الاعتداء عليها يشمل خيانتها بالفعل أو بالقول ، وعصيانها ، والاعتداء على دينها الرسمى ، والرشوة ، وابتزاز الأموال أو الفساد فى أعمالها الإدارية ، أو سرقة أموالها ؛ أو تقديم الرشا للقضاة أو المحلفين . ونستطيع أن نتبين من هذا الثبت الذى لا يحوى إلا عدداً قليلا من الجرائم أن الفساد تمتد جذوره إلى أبعد العهود وأن فروعه فى أكبر الظن ستظل تورق حتى المستقبل البعيد . أما الجرائم التى تقع على الأفراد فكان منها الإيذاء البدنى ، والغش ، والفحش ، والقتل ؛ ويشير شيشرون فى بعض أقواله إلى قانون اسكانتنيا **lex Scantinia** الذى يعاقب على اللواط[٢٢] . وقاوم أغسطس هذه الجريمة بفرض غرامة على مرتكبها ، وقاومها مارتيال بالهجاء ، ودومتيان بالإعدام . ولم يعد الإيذاء البدنى يعاقب عليه فى ذلك الوقت بالقصاص كما هو وارد فى الجداول الاثنى عشر ، بل كان يعاقب عليه بالغرامة . ولم يكن الانتحار جريمة ، بل إنه قبل دمتيان كان يكافأ عليه فى بعض الأحيان ، فكان فى مقدور الرجل المحكوم عليه بالإعدام إذا لجأ إلى الانتحار أن يضمن عادة تنفيذ وصيته وانتقال أملاكه لورثته دون أن توضع فى سبيل ذلك العقبات . وكان القانون يترك له الحرية المطلقة فى اختيار إحدى الطريقتين ليختم بها حياته ؛

الفصل الرابع

قانون الملـــكية

وكان أكبر قسم فى القانون الرومانى هو الخاص بشئون الملكية ، والالتزامات ، والتبادل ، والتعاقد ، والديون ، ذلك أن الممتلكات العينية كانت هى حياة رومة ، وكان ازدياد الثروة واتساع التجارة يتطلبان طائفة من القوانين أكثر تعقيداً إلى أبعد حد من قوانين العَشيرة الساذجة .

وكانت الملكية تجىء عن طريق الوراثة أو وضع اليد . وإذا كان الوالد يمتلك بوصفه وكيلا عن الأسرة أو وليا عليها ، فقد كان الأبناء والأحفاد ملاكا بالإمكانية أو « ورثة أنفسهم » (٢٣) حسب النص الفذ الوارد فى القانون . فإذا مات الوالد من غير أن يترك وصية ورث أبناؤه أملاك الأسرة من تلقاء أنفسهم . وورث أكبر الآباء من هؤلاء الأبناء حق الولاية على الأسرة . وكان عمل الوصايا القانونية يحاط بمئات من القيود : وكانت صياغتها تتطلب كما تتطلب فى هذه الأيام سيلا من اللغو والتكرار والألفاظ الطنانة الرنانة . وكان كل موص ملزماً بأن يترك جزءاً من أملاكه إلى أبنائه . وجزءاً آخر للزوجة إذا رزقت منه بثلاثة أبناء ، وأجزاء أخرى (فى بعض الأحيان) إلى إخوته وأخواته ، وآبائه إن وجدوا . ولم يكن من حق أى وارث أن يستولى على أى جزء من التركة إلا بعد أن يتحمل نصيبه من جميع ديون المتوفى ، وما عليه من الالتزامات القانونية . وكثيراً ما كان الرومانى يجد نفسه متورطاً فى وصية ملعونة على حـــد تعبيرهم ، أو وصية حمراء إذا جاز هذا التعبير . وإن امرؤ هلك ليس له ولد ولم يترك وصية انتقلت أملاكه وديونه من تلقاء نفسها إلى أقرب « قريب ذكر من العصب »

أو من أولاد الظهور كما نقول نحن فى هذه الأيام . ثم ألغى هذا التقييد بالعصب فى عهد الإمبراطورية ، وقبل أن يجلس جستنيان على العرش كان لأبناء البطون مثل ما لأبناء الظهور من حق فى الإرث . وقد كان قانون قديم سن بإيعاز كاتو (١٦٩ ق . م) يحرم على كل رومانى يملك ١٠٠٠٠٠ر١٠٠ سسترس (أى ما قيمته ١٥٠٠٠ر١٥ ريال أمريكى) أو أكثر أن يوصى بأى جزء من ثروته لامرأة . وكان قانون ڤكونيا lex Voconia هذا لا يزال مدوناً فى كتب القوانين فى أيام جايوس ، ولكن الحب وجد له سبيلا إلى التملص منه ، فقد كان الموصى يوصى بأملاكه إلى وارث له حق الإرث ، ثم يلزمه بأن ينقل هذه الأملاك قبل وقت معين إلى المرأة التى يريد أن يهبها تلك الأملاك . وبهذه الطريقة وأمثالها انتقل جزء كبير من ثروة رومة إلى أيدى النساء . يضاف إلى هذا أن الهبة كانت سبيلا آخر إلى الفرار من قانون الوصية ، غير أن الهبات التى كانت توهب قرب الوفاة كانت عرضة لأن تبحث بحثاً قانونياً دقيقاً ، وأضحت فى عهد جستنيان خاضعة لنفس القيود التى كانت مفروضة على الوصايا .

وكان الاستحواذ يجىء عن طريق الأيلولة أو الانتقال المترتب على قضية حكمت فيها المحاكم . فأما الأيلولة (mancipatio أو التسليم باليد) فكانت الوسيلة إليها هى الهبة القانونية أو البيع أمام شهود وبوجود كفتى ميزان يوضع فيهما سبيكة نحاسية رمزاً لهذا البيع . فإذا لم تصحبها هذه المراسم القديمة فإن القانون لا يقر أى انتقال للملك . وكانت هناك ملكية وسطى أو إمكانية يعترف بها القانون وتسمى حق وضع اليد على الملك أو استخدامه : فكان الذين يفلحون أراضى الدولة مثلا من هذا الصنف « الحالسين » لا المالكين ، فإذا ما ظلوا عامين يشغلون هذه الأراضى ولا ينازعهم فيها منازع أصبحوا ملاكا لها لا شك فى ملكيتهم ، وكانت لهم بحق الانتفاع أو بوضع اليد فى لغة هذه الأيام . ولعل الحصول على الملك بعد شغله بهذه الوسيلة السهلة اللينة يرجع فى أصله إلى عمل الأشراف الذين حصلوا به

على الأراضى العامة[٢٤] . وبهذه الطريقة طريقة الملك بالانتفاع أو وضع اليد كانت المرأة التى تعاشر رجلا عاماً كاملا لا تغيب عنه فيه ثلاث ليال تصبح ملكا له .

وكان الإلزام هو ما يفرضه القانون قسراً على شخص ما بأن يقوم بعمل من الأعمال . وكان الشخص يلزم بعمل ما إذا ارتكب جنحة أو تعاقد على القيام بهذا العمل . فأما الجنح ، وهى الذنوب البسيطة التى تضر بالشخص أو بملكه ، فكان يعاقب عليها فى كثير من الأحيان بغرامة تؤدى إلى من وقع عليه الأذى تعويضاً له عما لحقه من الضرر . وأما العقد فكان اتفاقاً ينفذه القانون . ولم يكن يفرض فى هذا التعاقد أن يكون مكتوباً ؛ والحق أن الاتفاق الشفوى الذى كان يتم بالنطق بلفظ « أعد spondeo » أمام أحد الشهود قد ظل حتى القرن الثانى بعد الميلاد يعد أكثر قداسة من أى تعهد مكتوب . ولم تعد كثرة الشهود ولا المراسم الوقورة التى كان لا بد منها فى العهود السابقة لإتمام التعاقد القانونى ضرورية فى الوقت الذى نتحدث عنه . ونشطت الأعمال المالية والتجارية حين اعترف القانون بكل اتفاق واضح — وكان هذا التعاقد يتم عادة بأن يسجل الطرفان ما اتفقا عليه فى دفاتر حساباتهما tabulae . غير أن القانون كان يحمى الأعمال المالية والتجارية أتم حماية ، فكان يلفت نظر البائع والمشترى كليهما إلى آلاف الخدع التى تنشأ بطبيعتها فى الحياة المتحضرة . من ذلك أن القانون كان يحتم على كل بائع ماشية أو عبيد مثلا أن يكشف للمشترى عما فى أجسامها أو أجسامهم من عيوب ، وكان يعتبر مسئولا عن هذه العيوب وإن قال إنه يجهلها[٢٥] .

وكان الدين يعقد إما سلفة ، أو رهناً ، أو وديعة ، أو أمانة : وكان ما يعقد من قروض للاستهلاك يضمن عادة برهن بعض العقار أو المنقولات . وكان العجز عن أداء الدين يجعل من حق الراهن قانونا أن يستولى على

الملك المرهون . ولقد رأينا فى الفصول السابقة أن هذا العجز فى عهد الجمهورية الباكر كان يجيز للدائن أن يتخذ المدين عبداً له(*) . وقد عدل قانون پوتليا Poetelia الذى صدر فى عام ٣٣٦ ق . م هذه القاعدة بأن أجاز للمدين أن يعمل حتى يؤدى دينه وهو محتفظ بحريته . وفى عهد قيصر كانت الأملاك المرهونة التى يعجز أصحابها عن فك رهنها تباع لأداء ما عليها من الديون من غير أن يضار المدين فى شخصه . غير أن حالات من استرقاق المدينين ظلت تحدث إلى أيام جستنيان . أما العجز عن الأداء فى الأحوال التجارية فقد خفف من آثاره قانون الإفلاس ، الذى كان يجيز بيع أملاك المفلس للوفاء بديونه ، ولكنه يترك له مما يحصل عليه بعدئذ ما يكفى لمعيشته .

وكان أهم الجرائم التى ترتكب على الأملاك هو الإتلاف ، والسرقة ، والنهب — أى السرقة بالإكراه . وكانت قوانين الجداول الاثنى عشر تحكم على السارق الذى يضبط بالضرب ، ثم يجعل بعدئذ عبداً لمن سرق منه ؛ فإذا كان السارق عبداً ، ضرب ثم ألقى به من فوق الصخرة الترَبية Tarpeian Rock . فلما زاد استقرار الأمن خفف القانون البريتورى هذه العقوبات القاسية بأن فرض عليه أن يرد إلى المسروق منه ضعفى ما سرقه أو ثلاثة أضعافه أو أربعة أضعافه(٢٦) ، ولقد كان قانون الملكية فى صورته الأخيرة أكمل جزء من الشريعة الرومانية .

(*) وكان صاحب الملك المرهون من الوجهة القانونية « مرتبطاً » uexus بصاحب المال ؛ ولكن اللفظ الذى كان يستخدم لهذا الارتباط وهو لفظ nexum لفظ غامض كان يستخدم كما يبدو للدلالة على أى ارتباط قانونى أقسم المتعاقدان أن يتقيدا به .

الفصل الخامس

قانون المرافعات

كان الرومان أكثر الشعوب القديمة ميلا إلى التقاضى ، على الرغم مما امتاز به قانون المرافعات عندهم من تعقيد فني وغموض محير مربك كان خليقاً بألا يشجعهم على الالتجـاء إلى المحاكم . وما من شك فى أنهم لو شهدوا إجراءاتنا القضائية لبدت لهم هى الأخرى طويلة مضللة ؛ وكلما رجعنا فى الحضارة إلى الوراء زادت القضايا طولا ؛ ولقد كان فى وسع أى رومانى ، كما سبق القول ، أن ينصب نفسه مدعياً فى المحكمة الرومانية ، وكان يطلب إلى المدعى والمدعى عليه والحاكم فى عهد الجمهورية ، حين كان يتولى الأشراف الحكم فيها ، أن يسيروا على نهج معين يسمى **الإجراء القانونى** ، إذا حاد أحدهم عنه قيد شعرة بطلت المحاكمة . وفى ذلك يقول جايوس : فإذا قاضى شخص آخر لأنه قطع كرومه ثم أطلق عليها فى قضيته اسم « كروم » خسر القضية ، فقد كان يجب عليه أن يسميها « أشجاراً » لأن اللفظ الوارد فى الجداول الاثنى عشر هو الأشجار لا الكروم بصفة خاصة(٢٧) . وكان كل من طرفى النزاع يودع لدى الحاكم مبلغاً من المال sacramentum يضيع على من يخسر القضية ، ويصبح من حق دين الدولة ، وكان من الواجب على المدعى عليه أن يقدم كفالة تضمن بها المحكمة حضوره أمامها فيما بعد . فإذا تم هذا أحال الحاكم النزاع إلى رجل يختاره من ثبت يحتوى أسماء الرجال الذين يصح لهم أن يكونوا قضاة . وكان القاضى فى بعض الأحيان يصدر حكما تمهيديا يوجب على أحد الطرفين المتقاضيين أو كليهما أن يقوم بعمل من الأعمال أو يمتنع عن القيام به ، وإذا خسر المدعى عليه القضية كان من حق المدعى أن يستولى على أملاكه أو يقبض عليه حتى ينفذ الحكم .

وفى عام ١٥٠ ق . م ألغى قانون إيبوتيا الإجراءات المعقدة القديمة واستبدل بها إجراءات أخرى أقل منها تعقيداً ، فلم يصبح من الضرورى اتباع مراسم معينة أو النطق بألفاظ خاصة ؛ وصار من حق المتقاضين أن يشتركوا مع الحاكم فى تحديد الشكل الذى يعرض به النزاع على القاضى ، ثم يصدر الحاكم بعدئذ إلى القاضى تعليمات بالحقائق الموضوعية والمسائل القانونية التى يتضمنها النزاع . وكانت هذه إحدى الوسائل التى وضع بها الحاكم أو البريتور « القانون البريتورى » فيما بعد . وجدت فى القرن الثانى بعد الميلاد طريقة ثالثة للحكم فى القضايا غير العادية ، كان للحاكم بمقتضاها أن يفصل بنفسه فى القضية . وقبل أن يختتم القرن الثالث اختفت الإجراءات السالفة الذكر عن آخرها وأصبح الحاكم هو الذى يصدر الأحكام بطريقة عاجلة ، وكان ذلك الحاكم مسئولاً أمام الإمبراطور وحده مديناً له بمنصبه ، فكان هذا إيذانا بقيام الملكية المطلقة .

وكان فى وسع المتقاضين أن يعرضوا بأنفسهم قضاياهم ثم يصدر البريتور أو القاضى حكمه فيها دون معونة المحامين إذا شاء المتقاضيان هذا ؛ غير أنه لما كان القاضى فى كثير من الأحيان رجلا غير مدرب تدريباً مهنيا ولم يدرس القانون دراسة خاصة ، ولما كانت العقبات الفنية تعترض المتقاضين فى كل خطوة فى القضية ، فإن المتنازعين كانوا يلجئون فى العادة إلى محامين ليترافعوا عنهم **avocati** وإلى إخصائيين قانونيين **pragmatici** وإلى مستشارين قانونيين **iurisconsulti** وفقهاء قانونيين **iurisprudentes**. ولم تكن المواهب القانونية تنقص الرومان ، فقد كان كل أب يعز أبناءه يتوق إلى أن يرى ابنه محامياً ، وكان القانون وقتئذ كما هو الآن الطريق الموصل إلى المناصب العامة . فنرى أحد الأشخاص فى كتاب لپترونيوس يعطى ابنه طائفة من الكتب ذات الظهور الحمراء « ليتعلم قليلا من القوانين » لأن « القانون يأتى بالمال »(٢٨) . وكان طالب القانون يبدأ بدراسة المبادئ القانونية على معلم خاص ، ثم يشهد المرحلة الثانية

الاستشارات التي تعرض على أعلام فقهاء القانون ، ويتمرن بعدئذ عند محام يترافع في القضايا . وأنشأ بعض المستشارين القانونيين في أوائل القرن الثاني بعد الميلاد مدارس stationes في أحياء مختلفة من مدينة رومة يعلمون فيها القانون أو يصدرون فيها فتاوى قانونية . ويشكو أميانس Ammianus من ارتفاع الأجور التي كان يفرضها هؤلاء الفقهاء ، ويقول إنهم كانوا يتقاضون ثمن تثاؤبهم نفسه ، ويحلون قتل الأم إذا أدى العميل أجراً كافياً[٢٩] . وكان هؤلاء المعلمون يسمون « أساتذة القانون » ؛ ويلوح أن لفظ أستاذ professor قد أطلق عليهم لأنه كان يطلب إليهم أن يعلنوا profiteri عزمهم على أن يعلموا وأن يحصلوا بعدئذ من السلطات العامة على ترخيص بممارسة هذا العمل[٣٠]

وكان لا بد أن يوجد بين المحامين الكثيرين الذين يمارسون مهنتهم عددٌ منهم لا يتورعون عن بيع علمهم لأغراض صغيرة[٣١] ، وعن قبول الرشا لكي يعرضوا قضايا موكليهم عرضاً ضعيفاً ، وعن البحث عن ثغرات القانون يبررون بها أية جريمة ، وعن إثارة النزاع بين الأغنياء ، وعن إطالة القضايا إلى أطول أجل يمكنهم من سلب أموال المتقاضين[٣٣] ، وأن يزلزلوا المحاكم أو السوق العامة بأسئلتهم الإرهابية وعباراتهم الموجزة البذيئة . ومنهم من اضطرهم التنافس على القضايا إلى العمل على نيل الشهرة بالهرولة في الشوارع وبأيديهم أضابير من الوثائق وبأصابعهم خواتم مستعارة ، ومن خلفهم خدم وأتباع ، ومصفقون مأجورون ليصفقوا لهم وهم يخطبون[٣٤]. وقد بلغ من كثرة الأساليب التي اخترعت للتملص من قانون سنسيوس Cincius القديم الخاص بأجور المحامين أن اضطر كلوديوس أن يجعل الحد القانوني الأعلى لهذه الأجور عشرة آلاف سسترس لكل قضية ، وأن يجعل من حق المتقاضيين قانونا أن يستردا ما زاد على هذا القدر[٣٥] . لكن هذا القيد كان يسهل الإفلات منه : فنحن نسمع أن محامياً في أيام فسبازيان جمع ثروة تبلغ ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ سسترس (نحو ٣٠,٠٠٠,٠٠٠

ريال أمريكي(٣٦) . غير أنه كان يوجد وقتئذ ، كما يوجد في كل عصر من العصور ، محامون وقضاة يضعون مواهبهم الصافية المنظمة في خدمة الحق والعدالة من غير نظر إلى الأجور ، وكانت شهرة فقهاء القانون العظام الذين لا يعلو اسم على أسمائهم في تاريخ القانون ، تطغى على نقائص أولئك المحامين الأدنياء .

وكانت المحاكم التي تنظر في قضايا المذنبين على درجات تختلف من المحاكم ذات القاضي أو الحاكم الواحد إلى الجمعيات الوطنية ومجالس الشيوخ والإمبراطور . وكان في وسع البريتون أن يختار بطريق القرعة بدل القاضي الواحد محلفين لا حد لعددهم ، ولكنهم يكونون في العادة ٥١ أو ٧١ محلفا ومن بين الثمانمائة والخمسين اسما من أسماء طبقة الشيوخ أو الفرسان المدونة في ثبت المحلفين ، وكان من حق المدعي والمدعى عليه أن يقدما ما شاءا من الاعتراضات على هذا الاختيار . وكانت محكمتان خاصتان تعقدان بصفة دائمة ، إحداهما محكمة العشرة الرجال decemviri وتنظر في أحوال الأفراد المدنية ، والثانية محكمة المائة centumviri وتنظر في قضايا الملك والميراث . وكانت المرافعات أمام هذين النوعين من المحاكم علنيـــة يباح حضورها للجمهور ، لأنا نرى پلني الأصغر يصف الجمهور الكبير الذي حضر ليستمع إليه وهو يترافع أمام المحكمة الثانية(٣٧) . ويشكو چوڤنال(٣٨) وأپوليوس Apuleius(٣٩) من الارتشاء وكثرة التأجيل في هذه المحاكم ، ولكن غضبهما نفسه يوحي بأن ما يشكوان منه كان من العيوب الاستثنائية القليلة

وكانت المحاكمات تمتاز بنصيب من الحرية في القول والفعل قل أن نجد له نظيراً في محاكم هذه الأيام . وكان في وسع عدد من المحامين أن يحضروا مع كل طرف من طرفي النزاع ؛ منهم من تخصص في تحضير البينات ، ومنهم من تخصص في عرضها على المحكمة . وكان كتبة مختلفون notarii ، actuarii ، scribea يسجلون المرافعات ، كان بعضها يسجل بطريقة الاختزال . ويصف مارتيال

بعض أولئك الكتبة بقوله : « ومهما تكن السرعة التى تقال بها الألفاظ ، فإن أيديهم أسرع منها »[٤١]. ويصف أفلوطرخس الطريقة التى كان المختزلون يدونون بها خطب شيشرون ، والتى كانت تضايقه فى أكثر الأحيان ؛ وكان الشهود يعاملون حسب السوابق التى خلع عليها طول العهد ثوباً من الوقار ، والتى يصفها كونتليان بعبارته التى لا يعلو عليها وصف آخر فيقول :

« إذا أريد الفحص عن شهادة شاهد فإن أول ما تجب مراعاته هو صنف هذا الشاهد نفسه . ذلك أن الشاهد الجبان يستطاع إرهابه ، والشاهد الأبله يمكن التفوق عليه فى الدهاء ، والرجل الغضوب يمكن استثارته ، والرجل المغرور يستطاع تملقه . أما الشاهد الذكى الأريب الرابط الجأش فيجب إبعاده على الفور لأنه خبيث عنيد أو . . . إذا كان فى حياته الماضية ما يعاب عليه ، فإن شهادته يستطاع نقضها بما يمكن مجابهته به من التهم الفاضحة »[٤٢] .

وكان فى وسع المحامى أن يدلى بما يشاء من الحجج ؛ فكان يستطيع أن يطلع المحكمة على ما لديه من صور خاصة بالجريمة المزعومة ، مرسومة على القماش أو الخشب ؛ وكان فى مقدوره أن يمسك طفلا بين يديه وهو يناقش نقطة من النقط ؛ وكان يحق له أن يكشف عما فى جسم جندى متهم من ندوب وما فى جسم عميله من جروح ؛ وقد ابتدعت الدفوع لمقاومة مفعول هذه الأسلحة ؛ فهاهو ذا كونتليان يحدثنا عن حيلة لجأ إليها محام جاء خصمه بأطفال موكله إلى المحكمة ليوضح بهم مرافعته ، فما كان منه إلا أن ألقى بينهم بنرد ؛ فزحف الأطفال على أرض المحكمة ، وأفسدوا بذلك على المحامى ختام قضيته[٤٣] . وكان من المستطاع تعذيب العبيد إذا كانوا أحد طرفى الخصومة لانتزاع الشهادة منهم ، ولكن الشهادة المنتزعة بهذه الطريقة لم تكن تقبل ضد مالكيهم . وقد أصدر هدريان مرسوماً يحرم فيها تعذيب العبيد لانتزاع إقرار منهم بجريمتهم ، إلا إذا لم يفلح معهم كل ما عدا ذلك من الوسائل ، على أن يتبع فى هذا التعذيب أدق

الإجراءات المرسومة له ، ونبه المحاكم إلى أن الشهادة المنتزعة بالتعذيب لا يستطاع الوثوق بها على الإطلاق . على أن التعذيب القانونى ظل رغم هذا من الوسائل التى يلجأ إليها ، واتسع نطاقه فى القرن الثالث حتى شمل الأحرار(٤٤) . وكان المحلفون يعطون أصواتهم بإيداع ألواح ذات علامات خاصة فى وعاء ، وكانت أغلبيتهم المطلقة تكفى لإصدار القرار . وكان فى وسع من يخسر القضية فى كثير من الأحيان أن يستأنف الحكم أمام محكمة أعلى درجة من المحكمة التى أصدرته ، وكان فى مقدوره أن يستأنفه أمام الإمبراطور نفسه إذا أمكنته موارده من ذلك .

وكان القانون هو الذى يحدد العقوبات فلم تكن تترك لاختيار القضاة أنفسهم . وكانت هذه العقوبات تختلف باختلاف منزلة المحكوم عليه ، وكان أقساها ما يوقع على العبيد ، فقد كان فى الاستطاعة أن يحكم على العبد بالصلب ، أما المواطن فلم يكن يستطاع صلبه ؛ ولم يكن يستطاع جلد المواطن الرومانى ، أو تعذيبه ، أو قتله دون أن يستأنف حكم القتل أمام الإمبراطور ، ويتضح ذلك لكل من يطلع على سِفْر أعمال الرسل ؛ وكانت العقوبات تختلف فى الجريمة الواحدة باختلاف منزلة المذنب وهل هو من « ذوى الشرف » honestiores أو من « المنحطين humiliores ؛ كما كانت تختلف فى حال الرجل الحر المولد والمحرر ، والمفلس وغير المفلس ، والجندى المدنى . ولما كانت قيمة العملة تتغير أسرع من تغير العقوبات المقررة فى القانون فقد نشأ عن ذلك التغير السريع بعض الشذوذ والتناقض . من ذلك أن الجداول الاثنى عشر كانت تفرض غرامة مقدارها خمسة وعشرون آساً (وكانت فى الأصل خمسة وعشرين رطلا من النحاس) على من يضرب رجلا حراً ، فلما انخفضت قيمة الآس بسبب غلاء الأسعار إلى ما يعادل $\frac{٦}{١٠٠}$ من الريال الأمريكى أخذ لوسيوس ڤراتيوس Lucius Veratius يصفع الأحرار على وجوههم ، ومن ورائه عبد يعدّ خمسة وعشرين آساً لكل من يتلقى الصفعة(٤٥) . وكانت بعض الجرائم يعاقب عليها بفرض

« الصمت » على من يرتكبها . وكان يقصد بالصمت فى الغالب منع المحكوم عليه من الحضور فى القضايا بشخصه أو أن ينيب عنه من يمثله ؛ وأشد من هذا العقاب أن يفقد المجرم حقوقه المدنية Capitis deminutiso . وكان فقدان هذه الحقوق يتدرج من فقد الأهلية للميراث ، إلى الطرد من البلاد ، إلى الاسترقاق . وكان الطرد أقسى صورة من صور النفى : فقد كان المطرود يقيد بالأغلال ، ويحجز فى مكان حقير ، وتنتزع منه كل أملاكه . أما النفىُ Exilium فكان أخف من الطرد ، فقد كان يسمح فيه للمنفى أن يعيش حراً فى أى مكان يشاء خارج إيطاليا ؛ ويختلف الطرد والنفى عن الإبعاد ، ذلك أن الإبعاد — كما حدث لأوفد — لم يكن يتضمن مصادرة المال ، وكل ما فى الأمر أن المبعد كان يرغم على الإقامة فى بلدة معينة ، بعيدة فى العادة عن رومة . وقلما كان يلجأ إلى السجن ليكون عقوبة دائمة ، ولكن كان فى الاستطاعة أن يحكم على الرجال بالاشتغال فى الأعمال العامة ، أو فى المناجم أو المحاجر التى تستغلها الدولة . وكان فى وسع الرجل الحر المحكوم عليه بالإعدام فى عهد الجمهورية أن ينجو من العقاب إذا أخرج من رومة أو من إيطاليا ؛ وازدادت أحكام الإعدام فى عهد الإمبراطورية فى عددها وقسوتها ، فكان أسرى الحرب ، والمحكوم عليهم بالإعدام من غير الأسرى فى بعض الأحيان ، يلقون فى جب تليان ليموتوا من الجوع وفتك الحشرات القارضة والقمل فى السراديب المظلمة وسط الأقذار التى لا يستطيعون إزالتها(٤٦) . وفى مثل هذه الأماكن مات چجورتا وسيمون بن چيوڤا Simon Ben - Giova البطل الذى دافع عن أورشليم ضد تيتس ، وفى مثلها كما تقول الرواية المتواترة : عذّب القديسان بطرس وبولس قبل أن يصلبا ، وكتبا آخر رسائلهما إلى العالم المسيحى الناشئ .

الفصل السادس

قانون الأمم

وكانت أعقد المشاكل التي واجهها القانون الروماني أن يكيف نفسه ، وهو قانون الدولة السيدة ذات العقلية الممتازة ، بحيث لا يتعارض مع القوانين السائدة أو العادات المرعية فى الأراضى التى أخضعتها رومة لسلطانها بقوتها العسكرية أو بمهارتها السياسية . وكان عدد كبير من هذه الدول الخاضعة لرومة أقدم منها ، وكان لها من تقاليدها التى تفخر بها ومن أساليبها الخاصة التى تحرص عليها وتعتز بها ما يعوضها عما فقدته من قوتها العسكرية . وقد استطاعت رومة أن تتغلب على هذه المشكلة بمهارة فائقة ، فقد عينت فى بادئ الأمر بريتوراً يختص بشئون الأجانب praetor peregrinus القاطنين فى رومة ثم القاطنين فى إيطاليا ، ثم فى الأقاليم الخارجية ، وجعل من حقه أن يوفق بين القانون الرومانى والقانون المحلى توفيقاً دائماً . ولقد نشأ من القرارات التى يصدرها البريتورون ، وحكام الولايات ، والإيديلون على مر الزمن قانون الأمم الذى كان يطبق على الإمبراطورية بأجمعها ، والتى كانت تحكم بمقتضاه .

ولم يكن « قانون الأمم » قانونا دوليا ، أى أنه لم يكن طائفة من الالتزامات والأحكام ارتضه الدول بوجه عام لتحديد علاقاتها بعضها ببعض . لقد كان فى العهد القديم قانون دولى إذا لم تفهم من هذا اللفظ بمعناه فى الزمن القديم معنى أدق كثيراً مما نفهمه منه فى هذه الأيام . فقد كانت بعض العادات العامة تراعى ويتقيد بها فى السلم والحرب — كالحماية المتبادلة للتجار والدبلوماسيين الدوليين ، ووقف القتال لدفن الموتى ، والامتناع عن استخدام السهام المسمومة ، وما إلى هذا . وكان فقهاء القانون الروما يصفون قانون الأمم، هذا ius gentium بأنه قانون

عام يشمل الأمم جميعها ، ولكن هذا لم يكن إلا من قبيل التفاخر الوطنى الكاذب . على أنهم لم يكونوا يعزون إلى رومة أكبر من نصيبها الحق فيه . فقد كان فى واقع الأمر قوانين محلية كيفت بحيث تتفق مع السيادة الرومانية ، وكان الغرض منها أن يستطاع بها حكم شعوب إيطاليا والولايات التابعة للدولة الرومانية من غير أن يعطى لأهلها حق المواطنية الرومانية وغيرها من الحقوق المنصوص عليها فى القانون المدنى .

وبمثل هذه الدعوى الكاذبة حاول الفلاسفة أن يقولوا إن قانون الأمم هو « قانون الطبيعة » . وكان الرواقيون يعرفون قانون الطبيعة بأنه قانون أخــلاقى متأصل فى الإنسان بفعل « العقل الفطرى » . وكانوا يعتقدون أن الطبيعة نظام من نظم العقل ، قوامه المنطق والترتيب المحكم الكامن فى الأشياء جميعها . وهذا الترتيب المحكم الذى ينمو فى المجتمع من تلقاء نفسه ، ثم يصل إلى مستوى الوعى فى الإنسان ، هو القانون الطبيعى . وقد عبر شيشرون عن هذا الوهم بعبارة ذائعة الصيت فقال :

« إن القانون الصحيح هو العقل الحق المتفق مع الطبيعة ، والذى يدخل فى نطاقه العالم بأسره ، والسرمدى الذى لا يتبدل . . . وليس من حقنا أن نقاوم ذلك القانون أو أن نبدله ، وليس فى مقدورنا أن نلغيه ، ولا نستطيع أن نتحرر مما يفرضه علينا من التزامات بالتشريع أيا كان ، ولسنا فى حاجة إلى أن ننظر فى خارج أنفسنا لنبحث عن شرح له أو توضيح . وهذا القانون لا يختلف فى رومة عنه فى أثينة ، ولا فى الحاضر عنه فى المستقبل ... وهو قانون صحيح ثابت عند جميع الأمم وفى جميع الأحقاب . ... ومن عصاه فقد أنكر نفسه وأنكر طبيعته » (٤٧) .

ذلك وصف كامل لمثل أعلى أخذ يزداد قوة حين جلست الرواقية على العرش فى عهد الأنطونيين . وما زال ألبيان يرفع من شأنه حتى بلغ

على يديه ذلك المبدأ الواسع المدى القائل بأن ما بين الطبقات من فروق ومميزات أمور عارضة اصطناعية . ولم يكن ثمة إلا خطوة واحدة بين هذا المبدإ وبين الفكرة المسيحية القائلة بأن الناس فى حقيقة أمرهم أكفاء . غير أن جايوس حين عرف قانون الأمم بأنه ليس أكثر من « القانون الذى شرعه العقل الفطرى بين البشر جميعاً » كان يعتقد خطأ أن الأسلحة الرومانية هى الإرادة الإلهية ، ذلك أن القانون الرومانى كان هو منطق القوة وهدفها الاقتصادى ؛ ولم تكن القوانين العظمى المدنية والأممية إلا القواعد التى يخلع بها الفاتح الحكيم النظام ، والاطراد ، والقداسة الزمنية على تلك السيادة القائمة على قوة الفيالق . نعم إن هذه القوانين كانت طبيعية ، بمعنى أنه كان من الطبيعى أن يستخدم الأقوياء الضعفاء وأن يسيئوا استخدامهم .

لكن هذا الصرح المهيب من أداة الحكم التى يطلق عليها اسم القانون الرومانى كان فيه شىء من النبل . وإذا كان لا بد أن يكون الحكام هم الأقوياء فإن من الخير أن تكون القواعد التى يفرض بها سلطانه واضحة صريحة ؛ وبهذ المعنى يكون القانون هو استقرار القوة واستقهامتها . ولقد كان من الطبيعى أن ينشئ الرومان أعظم نظام قانونى فى التاريخ كله . ذلك أنهم كانوا يحبون النظام وأنهم كانت لديهم الوسائل التى تمكنهم من فرضه على الناس ، وقد فرضوا على مئات من الأمم المختلفة المشارب والأجناس التى كانت تتخبط فى دياجير الفوضى والاضطراب سلطاناً وسلاماً ، لا ننكر أنهما لم يبلغا حد الكمال ولكنهما كانا فى واقع الأمر جليلى القدر عظيمى الأثر . ولقد كان لغير رومة من الدول التى قامت قبلها قوانين ، ونشأ فيها مشترعون أمثال حمورابى وصولون سنوا طائفة مكتملة من التشريعات الإنسانية الرحيمة ، غير أنه لم يوجد قط شعب غير الرومان أفلح فيما أفلحوا هم فيه من تنسيق الشرائع وتوحيدها وتقنينها ، وهى أعمال كانت الشغل الشاغل لأصحاب العقول الجبارة فى رومة من عهد أبناء اسكافولا Scaavola إلى جستنيان .

وقد يسرت مرونة قانون الأمم انتقال القانون الرومانى إلى الدول الأخرى فى العصور الوسطى وفى عصرنا الحاضر . وكان من محاسن الصدف أنه بينما كانت الفوضى التى أعقبت غارات البرابرة تقضى على التراث القانونى فى غربى أوربا كان **قانون** جستنيان ، **وموجزه** ، **ونظم** تجمع وتصاغ فى القسطنطينية فى ظل الاستقرار والثبات النسبيين السائدين فى شرقها . وبفضل هذه الجهود ، وعشرات الوسائل الأقل منها شأناً ، وأساليب الحياة الصامتة الدائبة ، دخل القانون الرومانى فى الشرائع الدينية التى سنتها الكنيسة فى العصور الوسطى ، وكانت هى الوحى الملهم لعقول المفكرين فى عصر النهضة ، وأضحت هى الأساس الذى قامت عليه قوانين إيطاليا ، وأسپانيا ، وفرنسا ، وألمانيا ، وبلاد المجر ، وبوهيميا ، وپولندة ، بل واسكتلندة ، وكوبك ، وسيلان ، وأفريقية الجنوبية من بلاد الإمبراطورية البريطانية . ولقد استمد القانون الإنجليزى نفسه ، وهو الصرح القانونى الوحيد الذى يضارع القانون الرومانى فى اتساع المدى ، قواعد العدالة ، والقوانين البحرية ، والولاية ، والإرث من القانون الرومانى . وإذا أحصينا أثمن ما ورثناه من العالم القديم قلنا إنه هو العلوم والفلسفة اليونانية ، والمسيحية اليهودية اليونانية . والديموقراطية اليونانية الرومانية ، والقانون الرومانى .

الباب التاسع عشر

الملوك الفلاسفة

٩٦ م – ١٨٠

الفصل الأول

نـــيرڤا

اختفى من تاريخ الملكية الرومانية مبدأ وراثة العرش بعد اغتيال دومتيان قرناً من الزمان . ذلك أن مجلس الشيوخ لم يعترف قط بأن الوراثة وسيلة لارتقاء العرش ، والآن بعد ١٢٣ سنة من خضوعه لهذا المبدإ ، عاد فأثبت سلطانه ، ورشح عضواً من أعضائه ليكون زعيما وإمبراطوراً . ، كما كان يختار ملوك رومة بداية عهدها . وكان هذا عملا جريئاً ينطق بالشجاعة ولا يستطاع فهمه إلا إذا ذكرنا أن حيوية الأسرة الفلاقية قد نضب معينها ، فى نفس الجيل الذى شهد تجدد حيوية مجلس الشيوخ بما طعم به من دم إيطالى وإقليمى .

وكان ماركس ككسيوس نيرڤا فى السادسة والستين من عمره حين فوجئ بدعوته إلى هذا المركز السامى . ويظهره تمثاله الضخم المحفوظ فى متحف الفاتيكان رجلا ذا وجه وسيم تتجلى فيه صفات الرجولة الكاملة ، ويتعذر على من يشاهده أن يعتقد أن صاحبه كان من أئمة فقهاء القانون المبجلين ، وأنه كان رجلا محموداً ، وشاعراً رقيقاً ظريفاً ، حياه مواطنوه فى وقت من الأوقات ولقبوه « تيبلس زماننا »(1) . ولعل مجلس الشيوخ قد اختاره لشيبته وبعده عن الأذى ؛ وكان يستشير هذا المجلس

فى جميع خططه السياسية ، وحافظ على العهد الذى قطعه على نفسه بألا يكون قط سبباً فى موت أى عضو من أعضائه . وقد أعاد إلى البلاد من نفاهم منها دومتيان ورد إليهم أملاكهم ، وخفف من رغبتهم فى الانتقام من أعدائهم ، ووزع على الفقراء ما قيمته ٦٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس من الأراضى الزراعية ، وأنشأ الألمنتا — وهى رصيد من مال الدولة — ليشجع بها تناسل الفلاحين ويمدهم بما يحتاجونه من المال . وألغى عدداً كبيراً من الضرائب وخفض ضريبة التركات ، وأعفى اليهود من الجزية التى فرضها عليهم ڤسپازيان ودعم فى الوقت نفسه مالية الدولة بمراعاة الاقتصاد فى بيته وحكومته . وكان يعتقد بحق أنه كان يراعى العدل فى معاملته جميع الطبقات ؛ ومن أقواله فى هذا المعنى : « إننى لم أفعل شيئاً يحول بينى وبين إلقاء منصبى الإمبراطورى عن كاهلى وعودتى آمنا مطمئنا إلى الحياة الخاصة »(٢). ولكن حدث بعد عام من توليته أن حاصر الحرس البريتورى قصره ، وطالبه بتسليم قتلة دومتيان ، وقتل عدداً من مستشارى نيرڤا . وكان هذا الحرس قد فوجئ باختياره لمنصبه ، واستاء من سياسة الاقتصاد التى كان يسير عليها . ومد نيرڤا عنقه لسيوف الجند ولكنهم أبقوا عليه . وآلمه هذا الإذلال فأراد أن ينزل عن العرش ، ولكن أصدقاءه أقنعوه أن يقتدى بأغسطس فيتبنى رجلا يرضى عنه مجلس الشيوخ ، ويخلفه على العرش ، ويكون فى مقدوره أن يحكم الإمبراطورية وأن يحكم الحرس أيضاً . وأعظم ما تدين به رومة لنيرڤا أنه أختار ماركس ألپيوس ترايانس Marcus Ulpius Trajanus خلفاً له . وتوفى بعد ذلك بثلاثة أشهر فى عام ٩٨ بعد حكم دام ستة عشر شهراً .

وكان معنى مبدإ التبنى الذى عاد سيرته الأولى بهذه الطريقة الغير المنتظرة أن يشرك كل إمبراطور من الأباطرة ، حين يحس بالضعف يدب فى قواه ، معه فى الحكم أقدر من يستطيع أن يجده من الرجال ، وأكثرهم

جدارة بهذا المنصب الخطير ، حتى إذا وافاه الأجل لم تتعرض البلاد إلى أن يجلس على عرشها رجل يرفعه الحرس البريتوري وإلى ما فى هذا من سخف ، أو يرث هذا العرش وارث طبيعى ولكنه غير جدير به ، أو أن تتعرض إلى حرب أهلية بين المتنافسين على العرش . وكان من المصادفات الطيبة أن تراچان ، وهدريان ، وأنطونينس پيوس لم يكن لهم أبناء ، وإن كان فى مقدور كل واحد منهم أن يعمد إلى مبدإ التبنى من غير أن يحط من شأن أبناء له أو يكشف عن نقص فى الحب الأبوى . ولقد كسبت رومة من هذا المبدإ ، طوال المدة التى طبق فيها ، طائفة من الأباطرة العظام خلف بعضهم بعضا على العرش ، وكانوا خير من شهده العالم من الحكام وأجلهم شأناً .

الفصل الثاني

تراجان

تلقى تراجان نبأ جلوسه على العرش وهو يتولى قيادة جيش رومانى فى كولونى Cologne ؛ فلما أن تلقاه واصل عمله عند الحدود وأجل عودته إلى رومة ما يقرب من عامين . وكان مولد تراجان فى أسپانيا من أسرة إيطالية استوطنت تلك البلاد من زمن بعيد ، وقد وصلت أسپانيا الرومانية على يديه وعلى يد هدريان إلى الزعامة السياسية ، كما ارتفعت على يدى سنكا ، ولوكان ، ومارتيال إلى الزعامة الأدبية . وكان هو بداية سلسلة طويلة من القواد يبدو أن مولدهم وتدريبهم فى الأقاليم أكسبهم قوة الإرادة التي فقدها العنصر الرومانى الأصيل . ولم تحتج رومة على ارتقاء رجل من رجال الأقاليم عرش الإمبراطورية ، وكان عدم احتجاجها هذا فى حد ذاته حادثاً خطيراً ومؤذناً بتطور جديد فى التاريخ الرومانى .

وظل تراجان قائداً حتى بعد جلوسه على العرش . فقد كان ذا قامة عسكرية ، وكان مظهره مظهر السادة المؤمرين ، وكانت ملامحه قوية وإن لم تكن بادية متميزة . كان طويل القامة ، ممتلئ الجسم ، وكان من عادته أن يسير مع جنوده على قدميه ، وأن يخوض بعتاده الحربى الكامل ما يضطرون إلى عبوره من مئات الأنهار ؛ وكان رجلا شجاعا يصبر على الألم ولا يفرق بين الحياة والموت . ولما قيل له إن لوسنيوس سورا كان يأتمر به ، ذهب إلى منزل سورا ، وأكل من كل ما قدم إليه دون أن يفحص عما يأكل ، وحلق له حلاق سورا(٤) . ولم يكن تراجان فيلسوفاً بأى معنى فنى من معانى هذا اللفظ . وكان من عادته أن يصحب معه فى عربته ديو كريسستوم Dio Chrysostom الخطيب « صاحب الفم الذهبى » ليتحدث إليه فى الفلسفة ، ولكنه يعترف بأنه لم يكن يفهم كلمة واحدة

مما يقوله ديو(٥) — وبذلك خسرت الفلسفة الشيء الكثير . وكان صافى الذهن صريحاً ليس فيه التواء ، وكان ما نطق به من الهراء قليلا إلى أبعد حد ؛ وكان فيه ما فى سائر البشر من اغترار بالنفس ، ولكنه كان مبرأ من العجرفة والادعاء ولم يكن يتخذ منصبه السامى وسيلة للتعاظم على الناس أو أداة ينفع بها نفسه ، فكان يجلس مع أصدقائه على الطعام ويصحبهم فى الصيد ، ويشرب معهم بكثرة ، ويرتكب ما يرتكبونه من لواط فى بعض الأحيان ، كأنه يريد بذلك ألا يخالف عادات زمانه ، وترى رومة من مفاخره التى يستحق عليها الثناء أنه لم يسئ قط إلى زوجته پلوتينا بأن يعشق امرأة أخرى .

ولما وصل تراچان إلى رومة وهو فى الثانية والأربعين من عمره كان قد بلغ من النضوج العقلى غايته ، وسرعان ما اكتسب ببساطته ودماثة أخلاقه ، واعتداله ، قلوب الشعب الذى جرب الاستبداد من عهد قريب . واختار مجلس الشيوخ پلنى الأصغر ليرحب به . والقى ديو كريستوم أمام الإمبراطور فى الوقت نفسه خطبة فيما يجب على الملوك فى نظر الفلسفة الرواقية . ولكن پلنى وديو فرقا بين السيادة والزعامة فقالا إن الزعيم يجب ألا يكون سيد الدولة ، بل خادمها الأول ، ومندوب الشعب لتنفيذ إرادته ، ينتخبه عن طريق ممثليه أعضاء مجلس الشيوخ . « ومن أراد أن يؤمر على الناس جميعاً ، وجب أن يختاروه جميعاً »(٦) واستمع الناس إلى أقوالهما ورحبوا بها .

ولم تكن هذه البدايات الطيبة جديدة فى التاريخ ، ولكن الذى أدهش رومة أن تراچان أوفى بهذا الوعد إلى حد بعيد ، فأعطى أعوانه ورفاقه القصور الريفية متى كان أسلافه يقيمون فيها أسابيع قليلة فى كل عام ، ويقول پلنى « إنه لم يكن يرى أن شيئاً ما ملك له إلا إذا كان أيضاً ملكاً لأصدقائه »(٧) . وكان هو نفسه بسيطاً فى معيشته بساطة ڤسپازيان ، فكان يسأل الشيوخ رأيهم فى كل المسائل ذات البال ، وقد تبين أن فى وسعه أن يكون ذا سلطة مطلقة إذا لم يستخدم ألفاظ

ذوى السلطة المطلقة . وكان مجلس الشيوخ يرضى أن يترك له مقاليد الحكم إذا راعى الشكليات التى تحفظ له مكانته وهيبته ؛ وكان هذا المجلس ، كما كانت رومة كلها ، يحب فى ذلك الوقت الأمن والطمأنينة حبا لا يستطيع معه أن يحفظ بحريته . ولعله كان يسره أيضاً أن يرى تراجان رجلا محافظاً لا ينوى أن يشترى رضاء الفقراء بمال الأغنياء .

وكان تراجان إداريا قديراً لا يمل من العمل ، حسن التدبير لشئون المال ، وقاضياً عادلا . ويعزو إليه موجز جستنيان المبدأ القائل « إن فرار المجرم من العقاب أفضل من عقاب البرىء »[٨] . وقد استطاع بالإشراف الدقيق على مصروفات الدولة (وبعض الفتوح التى عادت عليها بالربح) أن يتم كثيراً من المنشآت العامة من غير أن يزيد أعباء الضرائب ، بل إنه فعل عكس هذا فخفض الضرائب ، ونشر على الشعب اعتمادات الميزانية ليعرف إيرادات الحكومة ونفقاتها ، فيبحثها وينتقدها . وكان يطلب إلى الشيوخ الذين يستمتعون بصحبته أن يكون إخلاصهم فى أعمالهم الإدارية مماثلا لإخلاصه أو قريبا كل القرب منه . واشترك الأشراف فى مناصب الدولة وعملوا فيها بجد ، ولم يكتفوا بأن يقضوا أوقاتهم فى اللهو واللعب . وإن ما بقى لدينا من الرسائل المتبادلة بينهم وبين تراجان ليوحى بأنهم كانوا يعملون بجد وعناية تحت قيادته الرقيبة الملهمة . وكانت مدن كثيرة فى بلاد الشرق قد أساءت التصرف فى أموالها حتى أشرفت على الإفلاس ، فأرسل لها تراجان حراساً أمناء أمثال پلنى الأصغر ليساعدوها على إصلاح أمرها . وأضعف هذا العمل استقلال البلديات وقلل من شأن أنظمتها ، ولكنه عمل لم يكن منه بد ، فقد قضى الحكم الذاتى على نفسه بإسرافه وعجزه .

وكان تراجان قد نشأ فى مهاد الحرب ، فكان لذلك استعماريا صريحا يفضل النظام على الحرية ، والقوة على السلم . ولم يكد يمضى على قدومه إلى رومة عام

واحد حتى خرج لفتح داشيا . وكانت داشيا فى ذلك الوقت تنطبق حدودها بوجه عام على حدود رومانيا الحاضرة ، وكانت تمتد كقبضة اليد فى قلب ألمانيا ، فكانت إذا استولى عليها تصبح عظيمة النفع من الوجهة العسكرية فى الكفاح الذى كان تراچان يتوقع قيامه بين الألمان وإيطاليا . يضاف إلى هذا أن ضمها إلى الدولة الرومانية يمكنها من الإشراف على الطريق الذى يسير على ضفتى نهر الساف إلى ملتقاه بنهر الدانوب ومن ثم إلى بيزنطة — وهو طريق برى نحو الشرق لا يمكن تقدير قيمته ، دع عنك ما فى داشيا من مناجم الذهب . وأعد تراچان لفتحها حملة عسكرية رسم خطتها بمهارة فائقة ونفذها بأكبر سرعة ، فقاد فيالقه ، وتغلب على كل ما اعترضه من الصعاب والمقاومة ، حتى وصل إلى سرمزجتوسا Sarmizegetusa عاصمة تلك البلاد وأرغمها على الاستسلام . وقد ترك لنا مثال رومانى صورة رائعة لدسبالس Decebalus ملك داشيا — ينم وجهه فيها عن قوة الجسم ومتانة الخلق . وثبته تراجان على عرشه ، وجعله قيلا من أقياله ، ثم عاد إلى رومة (١٠٢) ؛ ولكن دسبالس لم يلبث أن نقض عهده واستعاد استقلاله ؛ فسير تراچان جيشه إلى داشيا (١٠٥) ، وعبر الدانوب على جسر كان من أعجب المنشآت الهندسية فى ذلك القرن ، وهاجم عاصمة داشيا مرة أخرى واستولى عليها عنوة ، وقتل دسبالس . وأقيمت حامية عسكرية قوية فى سرمزجتوسا ، وعاد تراجان إلى رومة ليحتفل بنصره بعشرة آلاف من المجالدين (أكبر الظن أنهم من أسرى الحرب) احتفالا دام ١٢٣ يوماً أقيمت فيها ألعاب عامة . وأصبحت داشيا بعد هذا الفتح ولاية رومانية ، وجاءها مستعمرون من الرومان ، تزوجوا من نسائها ، وأفسدت اللغة اللاتينية على طريقتها الخاصة . ووضعت مناجم الذهب فى ترنسلڤانيا تحت إشراف رقيب من قبل الإمبراطور ، استطاع أن يسترد منها فى وقت قصير ما أنفقه فى الحرب من أموال . وأراد تراجان أن يكافئ نفسه على جهوده فأخذ من داشيا مليون رطل من الفضة ونصف مليون

من الذهب — وكانت هذه آخر الغنائم القيمة التى استولت عليها الفيالق الرومانية لتعد بها للرومان مهاد الراحة والخمول .

وبفضل هذه الغنائم وزع الإمبراطور ٦٥٠ ديناراً (نحو ٢٦٠ ريالا أمريكياً) على كل مواطن تقدم بطلب هذه المنحة — وأكبر الظن أن عدد من طلبوها بلغ حوالى ٣٠٠،٠٠٠ — وبقى منها ما يكفى لعلاج مشكلة التعطل الناشئة عن تسريح الجنود بالإقدام على منهاج من المنشآت العامة ، والمساعدات الحكومية ، وتزيين إيطاليا بالمبانى الفخمة ، لم تر له البلاد نظيراً من أيام أغسطس . وأصلح تراجان قنوات مياه الشرب القديمة وأنشأ قناة جديدة لا تزال تؤدى عملها إلى هذا اليوم ، وأقام فى أستيا مرفأ واسعاً تصله عدة قنوات بنهر التيبر وبمرفأ كلوديوس القديم ، وزينه بالمخازن التى كانت نماذج فى الجمال كما كانت نماذج فى النفع . وأصلح مهندسوه الطرق القديمة ، وشقوا طريقاً جديداً فى وسط المناقع البنتية ، ووضعوا مشروع طريق تريانا Traiana من بنفنتم إلى برندزيوم . وأعادوا فتح نفق كلوديوس الذى جففت به بحيرة فوستس ، وأنشأوا مرفأين عند سنتمسلا Centumcellae وأنكونا Ancona ، وطريقاً لجر مياه الشرب إلى راﭭنا ، ومدرجا فى ﭬرونا Verona. وأدى تراجان النفقات التى تطلبها إنشاء الطرق ، والجسور ، والمبانى الجديدة فى كافة أنحاء الإمبراطورية ، ولكنه كان يقاوم تنافس المدن فى إقامة المبانى ، ويحثها أن تنفق ما لديها من الأموال الزائدة على حاجتها فى إصلاح أحوال الفقراء وبيئتهم . وكان مستعداً على الدوام لمديد المعونة إلى أية مدينة نكبتها الزلازل ، أو النيران أو العواصف . وحاول أن يعمل على تقدم الزراعة فى إيطاليا بأن طلب إلى أعضاء مجلس الشيوخ أن يستثمروا ثلث رؤوس أموالهم فى الأراضى الإيطالية . ولما رأى أن هذا العمل سيزيد من عدد الضياع الكبيرة ، شجع صغار الملاك بأن قدم لهم أموالا من قبل الدولة بفوائد قليلة ، ليشتروا بها بيوتاً وأراضى زراعية ويصلحوها[٩] . وعمل على رفع نسبة المواليد

بزيادة مال الألمنتا Alimenta أى المال المخصص للإطعام . وتفصيل هذا أن الدولة كانت تقدم قروضا عقارية بسعر ٥ ٪ (وهو نصف السعر العادى وقتئذ) للزراع الإيطاليين ، وأجازت للجان الصدقات المحلية أن توزع ما يتجمع من فوائد هذه القروض على الفقراء من الآباء بمعدل ستة عشر سسترسا (١ر٦ ريال أمريكى) كل شهر لكل ولد ذكر ، واثنى عشر سسترسا لكل بنت . وقد يبدو هذا المبلغ صغيراً ، ولكن الشواهد الباقية من ذلك العصر تدل على أن مبلغاً يتراوح بين ١٦ سسترسا وعشرين كان يكفى لرعاية طفل مدة شهر فى ضيعة من ضياع إيطاليا أثناء القرن الأول (١٠) . وقد بعثه هذا الأمل نفسه لأن يجيز لأطفال رومة أن يحصلوا على إعانات من القمح زيادة على ما يحصل عليه أباؤهم منه. وقد وسع هدريان والأنطونيون نطاق نظام الإطعام هذا حتى شمل عدة أجزاء من الإمبراطورية ، يكمله الإحسان القروى . ومن أمثلة هذا النوع الأخير ما أخرجه پلنى من ماله لهذا الغرض إذ تبرع من ماله للألمنتا بثلاثين ألف سسترس لتوزع على أطفال كومم Comum ، وأوصى كيليا مكرينا Caelia Macrina بمليون سسترس لمثل هذا الغرض لتنفق على أطفال تراسينا Terracina فى أسپانيا .

وكان تراجان ، مثل أغسطس ، يفضل إيطاليا على الولايات ، ويفضل رومة على إيطاليا نفسها . وقد انتفع إلى أقصى حد بعبقرية أپلودورس ومهارته فى العمارة . وكان أپلودورس هذا يونانيا من أهل دمشق خطط الطرق وقنوات مياه الشرب الجديدة وجسر نهر الدانوب . ثم كلفه الإمبراطور وقتئذ بأن يزيل طائفة كبيرة من البيوت ، وبقطع مائة وثلاثين قدما من قاعدة التل الكويرينالى Quirinal ، وينشئ فى الفضاء الناشىء من إزالتها والفضاء المجاور لها سوقا جديدة تعادل مساحتها مساحة الأسواق السابقة كلها مجتمعة ، ويحيط هذه السوق بمبانى فخمة جديرة بعاصمة العالم التى بلغت فى عهده أوج سلطانها وثرائها . وكان المدخل الموصل إلى هذه السوق الجديدة هو قوس نصر تراجان . وكانت مساحتها ٣٧٠

قدما ٣٥٤ ؛ وكانت مرصوفة بالحجارة الملساء ومحوطة بسور عال ، وأمامها صف من العمد ، وكان سوراها الشرقى والغربى تتخللهما كوات نصف دائرية غير نافذة مكونة من عمد دورية . وقامت فى وسطها باسلقا ألبيا التى سميت باسم عشيرة ثراجان والتى كان الغرض منها أن تكون مكاتب للأعمال التجارية والمالية ، وكانت مزينة من الخارج بخمسين عموداً ، نحت كل منها من حجر واحد ؛ وكانت أرضها من الرخام ، وتحيط بصحنها الرحب عمد من الحجر الأعبل ، وسقفها القائم على كتل ضخمة مغطى بالبرنز . وأنشئت بالقرب من الطرف الشمالى للسوق الجديدة مكتبتان إحداهما للمؤلفات اللاتينية ، والأخرى للمؤلفات اليونانية . وقام بينهما عمود تراجان وخلفهما هيكله . وكانت السوق بعد أن تمت من عجائب العمارة فى العالم كله .

وكان العمود الذى لا يزال قائماً إلى اليوم فى بداية أمره شاهداً على البراعة فى نقل الحجارة . وكانت حجارته منحوتة من ثمان عشرة كتلة مكعبة من الرخام زنة كل منها خمسين طنا ، وقد حملت هذه الكتل على ظهور السفن من جزيرة پاروس ، ثم نقلت على مواعين عندآستيا Aestia ، ثم جرت مصعدة فى النهر ضد التيار ، ثم حملت على اسطوانات إلى ضفة النهر وفى الشوارع إلى المكان الذى أقيم فيه العمود . وقطعت المكعبات بعد نقلها إلى اثنتين وثلاثين كتلة ، شيدت قاعدة العمود من ثمان منها ، وزينت ثلاثة من أوجه هذه القاعدة بتماثيل منحوتة ، أما الوجه الرابع فكان يوصل إلى سلم مكون من ١٨٥ درجة رخامية ، وأما جذع العمود ، وكان طول قطره من أسفل اثنتى عشرة قدما ، وارتفاعه سبعا وتسعين ، فيتكون من إحدى وعشرين كتلة حجرية ، وفى أعلاه تمثال لتراچان يمسك بيده كرة أرضية . وقد زينت الكتل قبل تثبيتها فى مواضعها بنقوش بارزة تمثل حروب تراچان فى داشيا . وكانت هذه النقوش أعلى ما وصلت إليه الواقعية الفلاڤية وفن النحت القديم التاريخى . ولم تكن تهدف

إلى الجمال المــادئ أو إلى أنماط فن النحت اليونانى التى كانت عند اليونان مثلا عليا يحتذيها المثالون ، بل كانت تهدف إلى أن تنقل للناظر إليها صورة واضحة للأفراد الأحياء وسط مناظر الحرب وضوضائها . فكانت والحالة هذه هى بلزاك Balzac وزولا Zola بعد كورنى Corneille وراسين.

وفى وسعنا أن نتتبع فى الألفى صورة المنقوشة على المائة والأربع والعشرين لوحة لولبية فتوح داشيا خطوة خطوة ، فنرى الكتائب الرومانية خارجة من ثكناتها المسلحة أكمل تسليح ، ونشاهدها تعبر نهر الدانوب على جسر عائم ، ونبصرها تقيم معسكراً فى أرض العدو ، ثم نرى المعركة التى اختلطت فيها الحراب والسهام والمناجل والحجارة ، وفيها قرية داشية تشتعل فيها النار ، ونساؤها وأطفالها يطلبون إلى تراجان أن يرحمهم ، ونرى نساء داشيات يعذبن أسرى الرومان ، وجنوداً يعرضن على الإمبراطور رؤوس من قتلوهم من الأعداء ، وجراحين يضمدون الجروح ، ونرى الأمراء الداشيين يشربون كؤوس السم واحداً بعد واحد . وهاهو ذا رأس دسبالس يؤتى به إلى تراجان ضمن غنائم الحرب ، وها هو ذا صف طويل من الأسرى ، من رجال ونساء وأطفال ، قد انتزعوا من بيوتهم ليكونوا عبيداً للرومان فى أرض القرية — كل هذا وكثير غيره يحدثنا به العمود القاتم اللون منقوشاً أحسن نقش وممثلا لأروع قصة فى تاريخ النحت فى العالم كله . ولم يكن الفنانون الذين قاموا بهذا العمل ، ولم يكن من استخدموهم للقيام به ، مدفوعين إليه بنعرة وطنية عارمة ؛ فهم قد مثلوا ما أظهره تراجان من ضروب الرحمة والرأفة ، ولكنهم كشفوا كذلك عن أعمال البطولة التى قامت بها أمة تجاهد فى سبيل حريتها ؛ وأجمل صورة فى النقش كله هى صورة ملاك داشيا . وتلك بلا شك وثيقة عجيبة مزدحمة إلى حد يقلل من قوة تأثيرها . وبعض ما فيها من الصور فجة خشنة بدرجة يظن الإنسان معها أن محارباً داشياً هو الذى نحتها ، ونرى فن المنظور يستبدل به وضع الصور بعضها فوق بعض ؛ وقد رسم المنظر كله كان الإنسان يشاهده كما يشاهد نقش فدياس ؛

من ركن بعيد مخبوء على الأرض . ولكنه رغم هذه العيوب خروج طريف على لطراز المقرر الذى لم يستطع لوداعته وهدوئه أن يعبر عما فى الخلق الرومانى من جد غامر ونشاط فياض . « وطريقة الاستمرار » التى جرى عليها — أى تدخل كل منظر فى الذى يليه وفناوءه فيه — لتخرج إلى حيز الوجود ما يوحى به قوس تيتس وتمهد السبيل إلى النقوش البارزة فى العصور الوسطى . وقد قلد المثالون هذه القصة ، رغم ما فيها من عيوب ، المرة بعد المرة من عمود أورليوس فى رومة وعمود أركديوس فى القسطنطينية إلى العامود النابليونى فى البلاس ڤنديه Place Vendée فى باريس .

واختتم تراجان منهاجه البنائى بأن أكمل بناء الحمامات التى بدأها دومتيان وحرص على أن يجعلها حمامات عظيمة فخمة . وكان فى هذه الأثناء قد مل السلم بعد أن دامت ست سنوات ؛ ذلك أن العمل الإدارى لم يكن يوقظ ما يكمن فيه من نشاط كما توقظه الحرب ، ولم يكن يحس وهو فى قصره أنه حى ، وقال فى نفسه لم لا أبدأ فى تنفيذ خطط قيصر من حيث أخفق أنطونيوس ، فأسوى المسألة البارثية تسوية نهائية ، وأجعل للدولة — الرومانية — حدوداً أكثر مناعة وصلاحية من جهة الشرق ، وأسيطر على الطرق التجارية التى تخترق أرمينية وبارثيا إلى أواسط آسية والخليج الفارسى وبلاد الهند ؟

وبعد أن أتم استعداده بدأ يزحف مرة أخرى على رأس فيالقه (١١٣) . فاستولى على أرمينية بعد عام واحد من بداية زحفه ؛ ولم يمض عام آخر حتى كان قد اخترق بلاد النهرين ؛ ووصل إلى المحيط الهندى — فكان أول من وقف أمام ذلك البحر من القواد الرومان وآخرهم . وكان الرومان فى ديارهم يتعلمون الجغرافية بتتبع انتصاراته ؛ وكان يسر مجلس الشيوخ أن يسمع فى كل أسبوع تقريباً أن أمة أخرى قد غلبت أو أنها تعجل بالاستسلام : البسپور Bosporus ، والكلشى ، وأيبريا الأسيوية ؛ وألبانيا الأسيوية ، وأسرهوينى Osrhoene ومسينيا ، وميديا ، وأشور ، وبلاد العرب الشمالية ، وبارثيا نفسها

فى آخر الأمر . وقد جعل پارثيا ، وأرمينية ، وأشور ، وبلاد النهرين ولايات ، وكان من مفاخر هذا الإسكندر الجديد أن اختار لكل بلد من هذه البلاد التى كانت قديماً من أعداء رومة ، ملكا خاضعاً لسلطانه وأجلسه على عرشه . ووقف تراچان على شواطئ البحر الأحمر وقال إنه يؤسفه أشد الأسف أن شيخوخته تحول بينه وبين مواصلة الزحف إلى نهر السند كما فعل القائد المقدونى العظيم ، واكتفى بأن أنشأ فى البحر الأحمر أسطولا يسيطر به على طريق الهند وعلى تجارتها ، ووضع حاميات فى جميع النقط ذات الأهمية الحربية وعاد وهو كاره إلى رومة .

لكن تراچان كان قد عدا طوره فذهب كما ذهب أنطونيوس إلى أبعد مما يجب وبأسرع مما يجب ، وأهمل تنظيم فتوحه وخطوط اتصاله . فلما وصل إلى أنطاكية علم أن أسروس Asroes ملك پارثيا الذى خلعه قد حشد جيشاً جديداً استعاد به ما بين النهرين ، وأن نار الفتنة اشتعلت فى جميع الولايات الجديدة ، وأن يهود الجزيرة ، ومصر ، وقوريني قد خرجوا عليه وأشعلوا نار الثورة فى البلاد ، وأن الاستياء قد عم بلاد لوبيا ، وموريتانيا ، وبريطانيا . وأراد المحارب الشيخ أن ينزل إلى ميدان القتال مرة أخرى ، ولكن قوته الجسمية لم تسعفه . ذلك أنه أنهك جسمه بأن عاش فى الشرق الحار بنشاط الغرب البارد ، فأصيب بداء الاستسقاء ، وعدت عليه ضربة شلل جعلت إرادته القوية لا حول لها ولا طول فى جسمه المهدم . ومن أجل ذلك عهد وهو مكتئب حزين إلى لوسيوس كويتس Lucius Quietus أن يقلم أظفار الفتنة الناشبة فى أرض الجزيرة ، وأرسل مارسيوس تربا Marcius Turba لإخضاع اليهود فى أفريقية ؛ وولى هدريان ابن أخيه قيادة الجيش

الرومانى الرئيسى فى سوريا . ثم أمر أن يحمل هو إلى ساحل قليقية Cilicia ، على أمل أن يبحر منها إلى رومة حيث كان مجلس الشيوخ يعد له أعظم احتفال بالنصر أقيم لقائد من القواد من عهد أغسطس . ولكن منيته وافته فى الطريق عند سلينس Selinus (١١٧.) ، وهو فى الرابعة والستين من عمره ، بعد أن حكم تسعة عشر عاما . وحمل رماده إلى عاصمة ملكه ، حيث دفن تحت العمود العظيم الذى اختير ليكون له قبراً .

الفصل الثالث

هدريان

١ — الحاكم

لعلنا لن نعرف قط هل جلس هدريان أروع شخصية فى الأباطرة الرومان على عرش الإمبراطورية بأساليب العشق والغرام ، أو لوثوق تراجان بكفايته وعظيم قدرته . فأما ديوكاسيوس فيقول إن « سبب تعيينه أنه لما مات تراجان ولم يكن له وارث ، عملت أرملته پروتينا ، وكانت تحب هدريان ، على أن يخلفه على العرش[١٢] » . ويعيد اسپارتيانس Spartianus هذه القصة ، ولكن پلوتينا وهدريان يكذبان هذه الشائعة ، غير أنها رغم تكذيبهما إياها ظلت تلوكها الألسن طوال حكمه ، وقد فصل هو فى الأمر بأن وزع هبات سخية على جنوده .

ويقول پبليوس إيليوس هدريانس إن اسمه واسم أسرته مشتقان من مدينة أدريا الواقعة على البحر الأدرياوى ، وتقول سيرته التى كتبها بنفسه إن أسلافه هاجروا من هذه المدينة إلى أسپانيا . وشهدت مدينة إتالكا Italica الأسپانية التى ولد فيها تراجان فى عام ٥٢ مولد ابن أخيه هدريان فى عام ٧٦ . ولما مات والد الغلام فى عام ٨٦ كفله عمه تراجان وكيليوس أتيانس Caelius Attianus . وتولى ثانيهما تعليمه وغرس فيه حباً شديداً للأدب اليونانى جعل الناس يلقبونه به من قبيل الفكاهة غريقيولس Graeculus . ودرس أيضا الغناء ، والموسيقى ، والطب ، والعلوم الرياضية ، والتصوير ، والنحت ، ثم مارس فيما بعد عدة فنون أخرى . واستدعاه تراجان إلى رومة (٩١) وزوجه بابنة أخيه (١٠٠) ڤبڤيا سبينا . وكانت هذه الفتاة ، كما تدل عليها صور تماثيلها النصفية ، إن لم تكن

هذه التماثيل قد صورتها كأنها مثل أعلى للفتيات ، نقول كانت هذه الفتاة ذات جمال بارع تحس به هى وتفخر به ، ولكن هدريان لم يجد فى هذا الجمال سعادة باقية . ولعل سبب شقائه أنه كان مولعا بالكلاب والجياد فوق الحد الواجب ، وأنه كان يقضى فى الصيد مع هذه الكلاب والجياد وفى بناء القبور لها حين تموت أكثر مما يجب أن يقضيه من الوقت فى هذين العملين ، أو لعله كان زوجا غير أمين أو بدا أنه كذلك . ومهما يكن من شيء فإنها لم تلد له أبناء ، وعاشا طوال حياتهما متنافرين متباعدين وإن كانت قد رافقته فى كثير من أسفاره ، وكان يظهر لها كل أنواع الرقة والمجاملة ، ووهبها كل خير ما عدا الحب . ولما أن نطق سوتونيوس Seutonius أحد أمناء سره بما لا يليق عنها فصله من منصبه .

وكان أول قرار أصدره هدريان بعد ارتقائه عرش الإمبراطورية أن نقض سياسة عمه الإمبراطورية . وكان قد نصح تراچان بعدم المضى فى حملته فى پارثيا ، لأنها تكلفه الكثير من المال والرجال ، ولأنها تجىء فى أعقاب حروب داشيا ، وأنها فى أحسن الظروف تبشر بمكاسب يصعب الاحتفاظ بها ، ولم يغفر له قواد تراچان الحريصين على المجد هذه النصيحة قط . فلما أصبح صاحب الأمر سحب الفيالق الرومانية من أرمينية ، وأشور ، وبلاد النهرين ، وپارثيا ، وجعل أرمينية مملكة تابعة له بعد أن كانت ولاية خاضعة للدولة ، ورضى أن يكون نهر الفرات حد الإمبراطورية من جهة الشرق . وكان مسلكه بعد تراچان كمسلك أغسطس بعد قيصر ، فنظم بإدارته السلمية ما يستطيع تنظيمه من الدولة التى لم يكن لها فى سعتها مثيل من قبل ، والتى كسبتها الجيوش الباسلة المغامرة . وظن القواد الذين كانوا على رأس جيوش تراچان — بالما ، وسلسس ، وكويتس ، ونجرينس — أن هذه خطة مبعثها الجبن ، وأنها بعيدة كل البعد عن الحكمة والسداد ، وكانوا يشعرون أن وقف الهجوم ، معناه الاقتصار على الدفاع ، وأن الاقتصار على الدفاع هو بداية الموت . وبينما كان هدريان مع فيالقه على ضفاف الدانوب ،

أعلن مجلس الشيوخ أن القواد الأربعة يدبرون مؤامرة لقلب الحكومة ، وأنهم أعدموا بأمر المجلس . وكان إعدامهم دون محاكمة صدمة شديدة لأهل رومة ؛ ومع أن هدريان عاد مسرعاً إليها وأعلن أنه لم تكن له يد فى الأمر كله فإن أحداً لم يصدقه ، حتى بعد أن أقسم أنه لن يقتل شيخاً إلا بأمر المجلس . ولقد وزع على الشعب هبة سخية من المال ، وأقام له كثيراً من الألعاب ليسليه بها ، وألغى من الضرائب المتأخرة ما قيمته ٩٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس وحرق سجلات الضرائب علناً ، وظل عشرين عاماً يحكم البلاد حكماً عادلا ، حكيما تحت راية السلم . ولكنه رغم هذا كله لم يكن فى قلوب الشعب كل ما يرجوه من حب .

ويصفه كاتب سيرته القديم بأنه كان طويل القامة ، رشيقاً ، متثنى الشعر ، « ذا لحية طويلة يخفى تحتها ما فى وجهه من عيوب طبيعية »(١٤) . واقتدى به أهل رومة فأطالوا من ذلك الوقت لحاهم ، وكان قوى البنية ، وقد حافظ على قوته بممارسة الكثير من ضروب الرياضة البدنية ، وأهمها كلها الصيد ؛ وكثيراً ما قتل السباع بيده(١٥) . وقد امتزجت فى خلقه عناصر بلغت من الكثرة حدا يتعذر معه وصفها . فيقول لنا كتاب سيرته إنه كان « صارماً وبشوشاً ، فكهاً ووقوراً ، شهوانياً وحذراً ، شديداً وكريماً ، قاسياً ورحيما ، بسيطاً بساطة خادعة ، جمع المتناقضات فى كل شىء »(١٦) . وكان ذا بصيرة نافذة سريعة ، وكان نزيهاً متشككا ؛ ولكنه كان يحترم التقاليد ، ويرى أنها النسيج الذى يربط الأجيال بعضها ببعض ، وكان يقرأ كتب إبكتتس الرواقى ويعجب به ، ولكنه كان يطلب اللذة ويتذوقها دون حياء . وكان رجلا غير متدين ، يعتقد بالخرافات ، ويسخر من النبوءات ، ويمارس السحر والتنجيم ، ويشجع الاستمساك بالدين القومى ، ولا ينقطع عن القيام بواجباته بوصفه الكاهن الأكبر للدين الرومانى . وكان مجاملا وعنيداً ، قاسياً فى بعض الأحيان ، ورحيما فى العادة ؛ وربما كانت هذه المتناقضات أعمالا اقتضتها مختلف الظروف . وكان يعود المرضى ، ويساعد

المنكوبين وقد وسع نطاق أعمال الإحسان القائمة فى وقته حتى شملت اليتامى والأرامل ؛ وكان سخياً فى مناصرة الفنانين ، والكتاب ، والفلاسفة ؛ وكان يجيد الغناء والرقص ، والعزف على القيثارة ؛ وكان مصوراً قديراً ، ومثّالا وسطاً . وقد ألف عدة كتب — منها كتاب فى النحو وآخر فى سيرته . ومنها قصائد مؤدبة وأخرى بذيئة[١٧] ، باللغتين اللاتينية واليونانية ؛ وكان يفضل الأدب اليونانى على اللاتينى ويفضل لغة كاتو الشيخ البسيطة على لغة شيشرون الفصيحة السلسة الفياضة . وقد حذا كثير من كتاب ذلك الوقت حذوه ، فأخذوا يكتبون بأسلوب عتيق متكلف . وقد جمع الأساتذة الذين كانت تؤجرهم الدولة ، وأنشأ منهم جامعة علمية ، ورفع مرتباتهم ، وشاد لهم مجمعاً علمياً فخماً لينافس به متحف الإسكندرية . وكان يسره أن يجمع حوله العلماء ورجال الفكر ، ويلقى عليهم الأسئلة المحيرة ، ويضحك من متناقضاتهم ومجادلاتهم العلمية . وكان فافورينس Favroinus الغالى أعظم فلاسفة هذه الندوة حكمة ، وكان إذا ما سخر منه أصدقاؤه لأنه يوافق هدريان على آرائه ، أجابهم بأن كل رجل يشد أزره ثلاثون فيلقاً لابد أن يكون على حق[١٨] .

ولقد جمع إلى هذه المتع العقلية الجمة إحساساً سامياً بالواجبات العملية . من ذلك أنه حذا حذو دومتيان ، فلم يول معاتيقه إلا المناصب الصغيرة ، واختار رجال الأعمال ذوى الكفايات المجربة ، ليتولوا الإدارات الحكومية ، وألف منهم ومن بعض الشيوخ وفقهاء القانون مجلساً concilium يجتمع فى أوقات منتظمة للنظر فى سياســة الدولة . وعين كذلك وكيلا للخزانة advocatus fisci ليكشف عما عساه أن يرتكب من فساد أو غش فى شئون الضرائب ، وكانت نتيجة هذا أن زادت إيرادات الدولة زيادة ملحوظة من غير زيادة فى الضرائب . وكان يراقب بنفسه كل إدارة من إدارات الحكومة ؛ وقد أدهش رؤساءها ، كما أدهش نابليون رؤساء إداراته ، لإلمامه الدقيق بتفاصيل أعمالها ، ويقول اسبارتيانس إنه « كان قوى الذاكرة ،

وإنه كان يكتب ، ويملى ، ويستمع ، ويتحدث إلى أصدقائه كل ذلك فى وقت واحد[١٩] — وإن كان تكرار هذه القصة يبعث على الريبة فى صدقها . وبفضل عنايته ، وبمعونة إداراته المدنية الواسعة النطاق ، نعمت الإمبراطورية بحكم لعلها لم تنعم بمثله قبله أو بعده . وكان الثمن الذى أداه لهذا النظام المحكم هو قيام بيروقراطية مطردة الاتساع وإسرافاً فى إصدار الأوامر والنظم يبلغ حد الجنون ، قرب الزعامة أكثر من ذى قبل إلى الملكية المطلقة . وقد حرص هدريان على كل مظاهر التعاون مع مجلس الشيوخ ، ولكن موظفيه كانوا يزدادون كل يوم اعتداء على اختصاصات تلك الهيئة التى كانت تبدو من قبل « جمعية من الملوك » . ولقد كان هو قريباً من المشكلة قرباً يحول بينه وبين التنبؤ بأن بيروقراطيته القديرة المطردة التكاثر قد تصبح على مدى الأيام عبئاً باهظاً ينوء به دافعو الضرائب ، بل كان بعكس هذا يعتقد أن كل شخص فى الإمبراطورية سيجد لنفسه فى داخل هذا النطاق من القانون والفرائض الذى أنشأته الحكومة طريقاً يظهر فيه مواهبه ، وأن فى وسع كل إنسان أن يرقى من طبقة إلى طبقة أعلى منها .

ولم يكن عقله الصافى المنطقى يطيق فوضى ما تجمع من القوانين الغامضة المتناقضة ، ولهذا كلف يوليانس بأن ينسق قرارات البريتورين السابقين ، ويصدر بها مرسوماً دائماً ، وشجع غير هذا من أعمال التقنين التى مهدت السبيل لجستنيان . وكان يجعل من نفسه محكمة عليا سواء كان فى رومة أو فى أثناء تجواله فى الولايات ، واشتهر بأنه قاض عالم نزيه . وكان رحيما على الدوام بقدر ما يجيزه القانون من رحمة ؛ وقد أصدر طائفة لا عديد لها من المراسيم ، ينصر معظمها الضعفاء على الأقوياء والعبيد على الأسياد ، والفلاح الصغير على صاحب الضيعة الكبيرة ، والمستأجر على مالك الأرض ، والمستهلك على بائعى الأشتاب الغاشين ، ويقاوم بها كثرة الوسطاء بين المنتجين والمستهلكين[٢٠] . وكان يرفض ما يوجه إلى الناس من تهمة الخيانة ، ولا يقبل الوصايا من الآباء ، أو ممن لا يعرفهم من الأشخاص ، وأمر بأن

يراعى التسامح في تطبيق القانون على المسيحيين[٢١] . وقد ضرب بنفسه المثل بما اتبعه فى أراضى الدولة من وسائل إصلاح الأراضى البور ، فكان يشجع الملاك على تأجير الأراضى غير المستصلحة إلى الزراع ليغرسوا فيها الحدائق من غير أن يؤدوا عنها إيجاراً حتى تثمر الأشجار . ولم يكن هدريان مصلحا متطرفاً فى إصلاحاته ، بل كان إدارياً قديراً يسعى فى نطاق ما يكبل الطبيعة البشرية من قيود ، وما يعتورها من تفاوت فى الكفايات ، إلى أن يوفر للناس جميعاً أكبر خير مستطاع . ولقد أبقى على الأشكال القديمة ولكنه صب فيها بالتدريج محتويات جديدة كلما دعته الضرورة إلى هذا ؛ وحدث ذات مرة ، حين ضعفت رغبته فى الأعمال الإدارية ، أن رفض الاستماع إلى امرأة جاءت تعرض عليه شكواها . وكانت حجته أن « ليس لدى وقت » . فصاحت قائلة : « إذن فلا تكن إمبراطوراً » فما كان منه بعدئذ إلا أن استمع إلى شكواها .

٢ — الجوال

كان هدريان على نقيض من سبقوه ، يهتم بالإمبراطورية اهتمامه بالعاصمة . ومن أجل هذا سار سيرة أغسطس الحميدة ، فقرر أن يزور كل ولاية من ولاياتها ، ويفحص عن أحوالها ، ويتعرف حاجاتها ، ويبادر بتخفيف أعبائها بما فى يديه من موارد الإمبراطورية . وكان إلى هذا شغوفاً بمعرفة ما لدى الشعوب المختلفة فى الإمبراطورية من فنون ، وما تتبعه فى حياتها من أساليب ، وما تكتسى به من ثياب ، وما تدين به من عقائد ؛ وكان يتوق إلى رؤية الأماكن الشهيرة التى ذاع صيتها فى تاريخ اليونان ، وأن يضرب بسهم فى تلك الثقافة اليونانية التى كانت العامل الأكبر فى تهذيب عقله كما كانت هى زينته . ويصفه فرنتو Fronto بقوله : « إنه لم يكن يحب أن يحكم العالم فحسب ، بل كان يحب فوق ذلك أن يطوف به »[٢٣] ففى عام ١٢٠ غادر رومة ، ولم يغادرها بأبهة الملك وزينته ،

بل كان يصحبه فيها الخبراء ، والمهندسون المعماريون ، والبناءون » والمهندسون والفنانون . وذهب أولا إلى غالة « وأعان جميع من فيها من العشائر بما أفاض عليها من سخائه وجوده »[٢٤] ، ثم انتقل منها إلى ألمانيا ، وأدهش كل من فيها بما أظهره من الدقة والعناية فى تفتيش وسائل الدفاع عن الإمبراطورية ضد من عليها فى مستقبل الأيام ، وأعاد تنظيم الطرق الحصينة الممتدة بين الرين والدانوب ، وزاد من أطوالها ، وأصلحها .

ومع أنه كان رجل سلام فإنه كان متمكناً من فنون الحرب ، وكان يعتزم ألا يجعل ميوله السلمية تضعف من قوة جيوشه أو تغرى به أعداءه . وقد أصدر أوامر مشددة للمحافظة على النظام العسكرى ، وكان هو نفسه يخضع لما وضعه من القواعد أثناء زيارة المعسكرات ، فكان إذا حل بها عاش عيشة الجنود ، وأكل من طعامهم ، ولم يركب قط مركبة ، بل كان يسير على قدميه يحمـــل عتاده ويواصل السير عشرين ميلا بلا انقطاع ، ويظهر من الجلد ما لا يعتقد معه من يراه أنه عالم وفيلسوف . وكان فى الوقت نفسه يكافئ المتفوقين ، وقد رفع من شأن منزلة الفيالق من الناحيتين القانونية والاقتصادية ، وأمدها بالجيد من الأسلحة وبكفايتها من المؤن . وخفف عنها شدة النظام فى أوقات الفراغ ؛ وكل ما كان يصر عليه فى هذه الأوقات ، أن تكون وسائل التسلية مما لا يضعف من قدرتها على أداء واجباتها ، حتى لم يكن الجيش الرومانى فى وقت من الأوقات أحسن حالا مما كان عليه فى أيامه .

وانحدر بعدئذ فى نهر الرين نحو مصبه وأبحر من هناك إلى بريطانيا (١٢٢) . ولسنا نعلم عن نشاطه فى تلك البلاد أكثر من أنه أمر أن يقام سور من خليج سلواى Solway Firth إلى مصب نهر التين Tyne « ليفصل بين البرابرة والروومان » : وعاد من هناك إلى غالة ومر على مهل بأفنيون Avignon ، ونيمر Nimes ، وغيرها من بلاد تلك الولاية ، وألقى عصا التسيار ليقضى

الشتاء فى طرقونة Tarragona فى شمالى أسپانيا . وبينا هو سائر بمفرده فى حديقة مضيفه إذ هجم عليه عبد وسيفه مسلول فى يده وحاول أن يقتله . ولكن هدريان تغلب عليه وأسلمه فى هدوء إلى الخدم ، فوجدوه مختل العقل .

وفى ربيع عام ١٢٣ قاد بعض الفيالق ليحارب المغاربة الضاربين فى شمالى أفريقية الغربى ، والذين كانوا يغيرون على مدن مورتانيا الرومانية ، فهزمهم وردهم على أعقابهم إلى تلالهم ؛ ثم أبحر إلى إفسوس ، حيث قضى فصل الشتاء ، ثم زار مدن آسية الصغرى واستمع إلى مطالب أهلها وشكواهم ، وأنزل العقاب بمن أساءوا استخدام سلطتهم من الموظفين ، وكافأ القادرين منهم ، وأعد المال والرسوم ، والعمال لتشييد الهياكل والحمامات ودور التمثيل . وكانت سزكس Cyzicus ونيقية Nicaea ونيقوميديا Nicomedia قد نكبت بزلزال شديد ، فأصلح هدريان ما تخرب منها بنفقات من أموال الدولة ، وشاد فى سزكس هيكلا عد من فوره بين عجائب الدنيا السبع(٢٥) . ثم اتجه شرقا محاذيا ساحل بحر اليكسين إلى طرابزوس Trapezus ، وأمر حاكم كپدوكيا — المؤرخ أريان Arrian — أن يبحث أحوال جميع الثغور الواقعة على البحر الأسود ، وأن يعد له تقريراً عنها ؛ ثم اتجه نحو الجنوب الغربى واخترق بفلجونيا Paphlagonia ؛ وقضى الشتاء فى برجموم . وفى خريف عام ١٢٥ أبحر إلى رودس ومنها إلى أثينة حيث قضى شتاء طيباً سعيداً عاد بعده إلى وطنه . ولم تفارقه الرغبة فى الاستطلاع وهو فى الخمسين من عمره فانتقل من إيطاليا إلى صقلية . وتسلق جبل إتنا ، يشاهد شروق الشمس من فوق صخرة ناتئة تعلو فوق البحر ١١٠٠٠ قدم .

ومما هو جدير بالذكر أنه استطاع أن يغيب من عاصمة ملكه خمس سنين وهو واثق من أن مرؤوسيه سيصرفون شئون الدولة كما يجب . ذلك أنه قد عمل ما يجب أن يعمله الحاكم القدير ، فأنشأ ودرب أداة

حكومية صالحة تكاد تسير من تلقاء نفسها . وأقام روما ، بعد عودته إليها أكثر قليلا من عام ، ولكن حب الأسفار كان يسرى فى دمه ولحمه ، وكان لا يزال فى العالم أجزاء كثيرة تتطلب البناء والإصلاح . فغادر إيطالية مرة أخرى فى عام ١٢٨ ، وقصد فى هذه الرحلة يتكا Utica ، وقرطاجنة ، والمدن الجديدة المزدهرة فى شمالى أفريقية . ثم عاد إلى رومة فى فصل الخريف ، ولكنه غادرها بعد قليل ، وقضى شتاء آخر فى أثينة (١٢٨ — ١٢٩) . واختير فيها أركونا ، ورأس وهو مبتهج سعيد حفلات الألعاب والأعياد ، وسره أن يلقب بالمحرر ، وبهليوس Helios وزيوس ، ومنقذ العالم . وفيها اختلط بالفلاسفة ، ورجال الفن ، وأظهر ما أظهره نيرون وأنطونيوس من ظرف ولطف دون أن ينزل إلى ما نزلوا إليه من حماقة وسخف . وساءه ما فى قوانين أثينة من فوضى فكلف جماعة من كبار المشترعين أن يجمعوا هذه القوانين وينسقوها ؛ وإذ كان هو على الدوام من المهتمين بشئون الدين المتشككين فيه ، فقد طلب أن يتعرف الطقوس الإلزيانية الخفية . ولما وجد التعطل يهدد أثينة ، وكان يعتزم فى الوقت نفسه أن يعيد المدينة إلى ما كانت عليه من الفخامة فى عصر پركليز ، استدعى رجال العمارة ، والمهندسين ، ومهرة الصناع ، وبدأ مشروعا ضخما من المبانى يفوق مبانيه العامة فى رومة . فقد شاد عماله فى مساحة مربعة من الأرض تحيط بها طائفة كبيرة من العمد مكتبة عامة جدرانها من الرخام بها ١٢٠ عمودا ، ولها سقف مذهب وحجرات رحبة تتلألأ فيها أحجار المرمر والصور والتماثيل . ثم بنوا ملعباً رياضياً ، وقناة لماء الشرب ، وهيكلا لهيرا ، وآخر لزيوس « إله اليونان أجمعين » . وكان أعظم هذه الأعمال كلها هو إتمام الأولمپيوم — أى الهيكل الفخم المقام لزيوس الأولمپى والذى بدأه بيستراتس قبل ذلك الوقت بستة قرون وعجز أنتيوخس إپفانيز عن إتمامه . ولما غادر هدريان أثينة غادرها وهى أنظف وأكثر رخاء وجمالا مما كانت عليه فى أى عهد من عهودها السابقة(٢٦)

وفى ربيع عام ١٢٩ أبحر إلى إفسوس . ثم رحل مرة أخرى إلى آسية الصغرى ، وكان ينشئ المدن ويشيد المبانى أينما حل . وسافر إلى كپدوكيا ، وفتش حاميتها . ولما جاء إلى أنطاكية وهبها المال اللازم لبناء قناة لماء الشرب ، وهيكل ، ودار للتمثيل ، وحمامات عامة . وزار فى خريف ذلك العام تدمر وبلاد العرب ، ثم رحل فى عام ١٣٠ إلى أورشليم . وكانت المدينة المقدسة لا تزال مخربة ، لا تكاد تفترق فى شىء عما تركها عليه تيتس قبل ذلك الوقت بستين عاما ، يسكنها عدد قليل من اليهود الفقراء المساكين يقيمون فى حظائر وأكواخ بين الصخور . وتأثر قلب هدريان وخياله بما شاهده من آثار الدمار والتخريب بمكانها المقفر . لقد كان يرجو بما شاده فى بلاد اليونان والشرق الهلنستى وما أعاده إليها من مظاهر الفخامة أن يقيم الحواجز بين الحضارة اليونانية — الرومانية وبين العالم الشرقى إلى أعلى مما كانت قبل ؛ أما الآن فقد أصبح يحلم بأن يحول صهيون نفسها إلى قلعة وثنية ، فأمر أن يعاد بناء أورشليم لتكون مستعمرة رومانية وأن تسمى إيليا كپتولينا ، تخليداً لذكرى قبيلة هدريان وكپتول چوپتر فى رومة . وارتكب بعمله هذا خطأً نفسانياً وسياسياً كان خليقاً ألا يرتكبه رجل من أوسع الساسة عقلا وأعظمهم حكمة فى التاريخ كله . ثم انتقل إلى الإسكندرية (١٣٠) ، وابتسم ابتسامة الرجل المتسامح الواسع الأفق حين أبصر أهلها المتخاصمين المتشاحنين . وزاد محتويات المتحف ، وأعاد بناء ضريح پمپى ، ثم عمل ما لم يعمله قيصر ، فأرخى لنفسه العنان وصعد فى النيل على مهل بصحبة زوجه سبينا ، وحبيبه أنتنوُوس Antinoüs . وكان قد التقى بالفتى اليونانى فى بيثينيا قبل ذلك الوقت ببضع سنين ، وأعجبه جمال الشاب ذى الوجه المستدير ، والعينين الرقيقتين ، والشعر الملتوى ، واتخذه خادماً خاصا له ، وشعر نحوه بعاطفة قوية وحب عظيم . ولم يصل إلينا ما يدل على أن سبينا احتجت على هذه الصلة ، ولكن ألسنة السوء

فى المدينة كانت تقول إن الغلام كان جنميدى Gednyme(*) زيوس الجديد . وربما كانت الحقيقة أن الإمبراطور الذى لا ولد له قد أحب الغلام لأنه يرى أن الآلهة قد حبته به ليكون ولداً له . وفى هذه الرحلة وبينا كان هدريان فى أوج سعادته مات أنتنوُوس فى الثامنة عشرة من عمره — ويلوح أنه غرق فى نهر النيل وحزن ملك العالم « وبكى كما تبكى النساء » على حد قول اسپارتيانس ؛ وأمر بأن يقام له هيكل على شاطئ النهر ، ودفن فيه الغلام ، وأعلن للعالم أنه إله . ثم أنشأ حول ضريحه مدينة هى مدينة أنتينوپوليس التى قدر لها أن تكون فيما بعد عاصمة من عواصم الدولة البيزنطية . وبينا كان هدريان يعود محزوناً إلى رومة بدلت الأساطير القصة : فقالت إن الإمبراطور عرف عن طريق السحر أن أعظم خططه لن تفلح إلا إذا مات أحب الأشياء إليه . وسمع أنتنوُوس بهذه النبوءة فأمات نفسه طائعاً مختاراً . ولعل هذه الخرافة قد نشأت بالسرعة التى تكفى لأن تمر عيش هدريان وتهد ركنه فى سنى ضعفه وشيخوخته .

ولما عاد إلى رومة (١٣١) كان يحس بأنه قد جعل الدولة خيراً مما كانت حين جلس على عرشها . ولقد كان على حق فى هذا الإحساس ، فإن الدولة فى واقع الأمر لم تبلغ فى وقت من الأوقات ، ولا فى عهد أغسطس نفسه ، ما بلغته وقتئذ من الرخاء . ولم يصل عالم البحر الأبيض فى يوم من الأيام إلى مثل ما وصل إليه فى عهده من الاستمتاع بالحياة الكاملة ، ولم يعد مرة أخرى موطناً لحضارة بلغت ما بلغته حضارة تلك الأيام من رقى ، وسعة انتشار ، وعمق أثر فى جميع السكان . ولم يكن فى الحكام جميعهم حاكم أكثر من هدريان حبا لخيرها ، وعملا لرفاهيتها . لقد كان أغسطس يرى أن الولايات توابع لإيطاليا تفيد منها مالا وثراء ، وكان يحكمها حكما صالحا لتدر الخير على إيطاليا . أما الآن فقد نضجت آراء قيصر

(*) جنميدى هو الشاب الوسيم الذى كان ساقى زيوس بعد هيبى ، وقد حمله نسر زيوس إلى أولمپس وأصبح الاسم فيما بعد يطلق على كل غلام مخنث . (المترجم)

وكلوديوس وآتت أكلها كاملة لأول مرة ، فلم تكن رومة جابية الضرائب لإيطاليا ، بل كانت الحاكم المسئول عن دولة يستمتع كل جزء من أجزائها بقسط من عناية الحكومة مكافئ لما تستمتع به سائر الأجزاء ، وتحكم فيها الروح اليونانية بلاد الشرق ، ويحكم فيها العقل الروماني الواسع الأفق سعة الروح الرومانية الدولة والغرب ، لقد رأى هدريان قبل موته الدولة كلها بعينيه وجمع شتاتها ووحدها ، وكان قد وعد أنه « سيدبر شئون هذه المجموعة من الأمم تدبير من يدرك أنها ملك الشعب لا ملكه الخاص » (٣٧) ؛ وقد أنجز ما وعد .

٣ — البنَّـــاء

ولم يكن باقياً إلا شيء واحد — إذا حصلت عليه رومة كانت أيضاً أجمل مما كانت قبل . لقد كان هدريان الفنان لا ينفك يناقش هدريان الحاكم ، فقد أعاد بناء البانثيون في الوقت الذي كان يعيد فيه تنسيق القانون الروماني . ولسنا نعرف رجلا غيره أكثر منه بناء ، ولا حاكما شاد من المباني مثل ما شاد هو ؛ لقد كان في بعض الأحيان يضع بنفسه تصميم ما يشاد له من المباني ، وكان يفحص عنها بنفسه ويقومها بخبرته في أثناء تشييدها ، وقد أمر بإصلاح نحو مائة مبنى أو إعادة بنائها ، ولم ينقش اسمه على أي واحد منها . وقد جنت رومة الشيء الكثير من حكمته وقدرته مجتمعتين وهما قلما تجتمعان في إنسان . أما هو فقد اجتمعت فيه قوة الشباب وحكمة الشيوخ .

وأشهر ما أعاده من المباني هرم البانثيون — وهو أحسن بناء احتفظ بشكله من أبنية العالم القديم ، ولقد دمّرت النار الهيكل الرباعي الذي بناه أجربا ، ويلوح أنه لم يبق منه إلا مدخله الكورنثي الأمامي المعمد . والآن أمر هدريان مهندسيه أن يقيموا شمالي هذا الهيكل القديم هيكلا دائريا ، وإلا يخرجوا في بنائه على الأنماط اليونانية الأصيلة . وكان ينزع بحكم ذوقه اليوناني إلى تفضيل الأشكال

اليونانية على الأشكال الرومانية فيما ينشئه من مبانى فى عاصمة ملكه . ولم يكن الهيكل الجديد هو ومدخله المعمد وحدة منسجمة متناسقة ، أما داخله — وهو دائرة قطرها ١٣٢ قدماً ، خالية من الدعائم التى تعترض السائر فيها — فكان بفراغه يوحى للسائر فيه بإحساس من الحرية لايجد له نظيراً إلا فى الكنائس القوطية . وكان سمك جدرانه عشرين قدما ، وكانت مشيدة من الآجر ومغطاة فى جزئها الأسفل الخارجى بالرخام ، وفى أجزائها الأخرى بالمصيص ، تبرز منها الفصوص من حين إلى حين . وكان سقف المدخل من صفائح البرنز ، وقد بلغ من سمكها أنها حين أزالها البابا إربان الثامن وجدها تكفى لصب مائة مدفع وعشرة مدافع ، وإقامة المظلة المرفوعة فوق المذبح العالى فى كنيسة القديس بطرس(٢٩) . وكانت أبوابه البرنزية الضخمة مغطاة فى بادئ الأمر بصفائح الذهب . وأنشئت فى الأجزاء السفلى من جدرانه الداخلية الخالية من النوافذ سبعة محاريب زينت بعمد عالية ترتكز عليها دعامات هى والعمد من الرخام ، وكانت هذه المحاريب فى أول الأمر كوات غير نافذة وضعت فيها تماثيل ، أما الآن فهى محاريب صغيرة فى كنيسة فخمة . وقد غطيت بعض الأجزاء العليا من الجدار بألواح من الحجارة الغالية تفصلها بعضها عن بعض عمد من الحجر السماقى . وكانت أعظم روائع الهندسة الرومانية هى القبة المصندقة التى ترتفع فى الداخل فوق أعلى الجدران . وكانت طريقة إنشائها أن صب الأسمنت المسلح فى أقسام مضلعة ، ثم تركت حتى تتماسك فيتكون منها كلها كتلة قوية صلبة ، كأنها حجر ضخم واحد ، وكانت بهذه الطريقة فى غنى عن الدعامات الجانبية ، ولكن المهندس الذى أقامها أراد أن يزداد ثقة بقوتها . فأنشأ لها أكتافاً فى الجدران . وكانت مشكاة (يسمونها العين oculus) ، يبلغ قطرها ٢٠ ميلا ، هى الفتحة الوحيدة التى تمد الضريح بحاجته من الضوء . ويبلغ طول قطر هذه القبة الفخمة الضخمة ٢٦ قدما ، وهى أكبر قباب العالم كله قديمه وحديثه ، وقد أنشئت على غرارها سلسلة من القباب تختلف من الطراز البيزنطى إلى الطراز

الرومانى وإلى طراز قبة القديس بطرس إلى قبة الكبتول فى واشنجتن ، وما بين هذه من طرز تماثلها أو تختلف عنها تماثلا وإختلافاً متفاوتين فى القرب والبعد :

وأكبر الظن أن هدريان نفسه هو الذى وضع تصميم هيكل ڤينوس وروما Roma ذى القباءين الذى كان يقوم أمام الكلوسيوم ، لأن الخرافات تروى أنه أرسل تصميم الهيكل إلى أپلودورس ، وأنه أمر أن يعدم هذا الفنان الشيخ لأنه أرسل إليه يسخر من هذا التصميم(٣٠) . ولقد اشتهر هذا الهيكل بعدة صفات انفرد بها عن كثير من الهياكل : منها أنه كان أكبر هيكل فى رومة ، فقد كان له محرابان ، كل منهما لإحدى الآلهتين ، وكانتا تجلسان فيه على عرشين متصلين وظهر كل منهما فى ظهر الأخرى ؛ ومنها أن سقفه المقبى المصنوع من ألواح البرنز والمغطى بصفائح الذهب كان من أجمل مناظر المدينة وأكثرها لألاء . وبنى الإمبراطور لنفسه بيتاً أوسع من هذا الهيكل نفسه ، وهو القصر الريفى الذى لا تزال بقاياه تستهوى الزائرين إلى الضاحية الجميلة التى كانت تعرف فى أيام الإمبراطور باسم تيبور والتى تعرف لنا اليوم باسم تيڤولى Tivoli . فقد أقيم فى هذا المكان ، وسط ضيعة يبلغ محيطها سبعة أميال ، قصر احتوى كافة أنواع الحجرات والحدائق التى ازدحمت بالروائع الفنية الذائعة الصيت والتى بلغ من كثرتها أن اغتنى ببقاياها كل متحف من متاحف أوربا فى هذه الأيام . وقد أظهر واضع تصميم هذا القصر ما اعتاده المهندسون الرومان من عدم المبالاة بتناسب الأجزاء ، فقد كان يضيف إليه بناء إثر بناء كلما دعته إلى ذلك الحاجة أو استهواه الخيال ، ولم يحاول أن يجعل فيه من التناسق أكثر مما فى مبانى السوق الرومانية من فوضى معمارية . ولعل الرومان قد ملوا التناسب كما مله اليابانيون ، ولعلهم كانت تعجبهم مفاجآت الشذوذ وعدم الانتظام .

وقد أضاف المهندس ذو الخيال الفياض إلى ما فيه من أروقة ذات عمد ومكتبات ، وهياكل ، وملهى ، وردهة رقص ، ومضمار سباق ، أضاف إلى هـــذا

كله نماذج مصغرة من مجمع أفلاطون العلمى ، ولوقيون أرسطو ، واستمروا زينون ، كان الإمبراطور ، وهو منغمس فى هذا الثراء الباطل ، أن يظهر شيئاً من التقدير للفلسفة ويرد إليها بعض اعتبارها .

ولقد تم بناء هذا القصر فى السنين الأخيرة من حياة هدريان ، ولسنا نعلم أنه وجد فيه ما كان ينشده من سعادة ، فقد أقضت ثورة اليهود التى شبت فى عام (١٣٥) مضجعه وأمرت عيشه ، غير أنه أخمدها بوسائل رحيمة ، وساءه كثيراً أنه لم يستطع أن يختتم حياته من غير حرب ، وأصيب فى ذلك العام نفســه ، ولم يكن قد تجاوز التاسعة والخمسين من عمره ، بداء عضال — ربما كان هو ذات الرئة أوداء الاستسقاء — هد كيانه ، وبرحت به آلامه ، وأنهك شيئاً فشيئاً جسمه وروحه وعقله ، وزاد مزاجه حدة ، وأخلاقه شكاسة ، فأخذ يرتاب فى أصدقائه القدامى ، ويظنهم يأتمرون به ليقتلوه ويجلسوا على العرش بعده ، وأخيراً أمر أن يعدم جماعة منهم — ولسنا نعلم أكان على حق فى ريبته ، أم أنه أصدر أمره هذا فى ساعة ذهب فيها عقله .

وأراد أن يخمد حرب الوراثة التى كانت نارها مشتعلة وقتئذ فى بلاطه ، فتبنى صديقه لوسيوس ڤيرس Lucius Verus واختاره خليفة له . ولما مات لوسيوس بعد قليل من ذلك الوقت ، استدعى هدريان إليه وهو على سريره فى تيبور رجــلا أبيض الصحيفة اشتهر بين الناس باستقامته وحكمته وهو تيتس أورليوس أنطونينس Titus Aurelius Antoninus وتبناه وجعله وارثاً لملكه من بعده . ثم شاء أن يكون أبعد من هذا نظرا فأشار على أنطونينس أن يتبنى هو الآخر شابين كانا يعيشان وقتئذ فى بلاطه ويربيهما تربية تجعلهما أهلا لهذا المنصب السامى ، وهما ماركس أنينس ڤيرس

Marcus Aninus Verus وكان وقتئذ فى السابعة عشرة من عمره ، ولوسيوس إيليوس ڤيرى Lucius Aelius Verus ، وهو غلام فى الحادية عشرة من عمره . وكان أولهما ابن شقيق أنطونينس وثانيهما ابن لوسيوس ڤيرس . ومنح هدريان أنطونينس فى ذلك الوقت لقب قيصر ولم يكن يلقب به قبل ذلك الوقت إلا الأباطرة وأبناؤهم ومن تناسل من أبنائهم الذكور ؛ أما بعده فقد كان الأباطرة يمنحون هذا اللقب كل من وارث للعرش مفترض ، ويحتفظون لأنفسهم بلقب أغسطس .

واشتد المرض وقتئذ على هدريان وبرح به الألم ، وكثيراً ما كان الدم ينزف من منخاريه . وضاق ذرعا بالحياة ، وأخذ يتمنى الموت . وكان قد أعد لنفسه قبراً على الضفة الأخرى من نهر التيبر — وهو ذلك الضريح الضخم الذى أضحت بقاياه الآن قلعة القديس أنجيلو Castel Sant' Angelo والذى لا يزال الناس يصلون إليه فوق جسر إيليوس الذى أقامه هدريان . وكان قد تأثر بالمثل الذى ضربه الفيلسوف الرواقى يفراتيز Euphrates ، وكان وقتئذ فى رومة . ذلك أن هذا الفيلسوف لما وجد أن المرض قد هد جسمه والشيخوخة قد أنهكته طلب إلى هدريان أن يأذن له بأن يقتل نفسه ، فلما أذن له تجرع عصير الشوكران[٣١] . ورجا الإمبراطور أن يقدم له سما أو سيفا ، ولكن أحداً ممن كانوا حوله لم يجب رجاءه ، فأمر عبداً من بلاد الدانوب أن يطعنه طعنة قاتلة ، ولكن العبد فر منه ؛ ثم أمر طبيبه أن يسمه ، فلم يكن من الطبيب إلا أن انتحر[٣١] . ثم عثر بعدئذ على خنجر وهم بقتل نفسه ، ولكن الخنجر انتزع منه . وحزن أشد الحزن لأنه ، وهو الذى يستطيع أن يقتل أى إنسان ، لا يسمح له هو نفسه أن يموت . فلما ضاقت به الحيـــل صرف أطباءه وأوى إلى بايا Baiae وتعمد أن يأكل ويشرب الأطعمة والأشربة التى تعجل منيته ؛ وأخيراً خارت قواه وجن من شدة

الألم ومات (١٣٨) ، بعد أن عاش ستين عاماً وحكم واحداً وعشرين .
وقد خلف وراءه قصيدة صغيرة تعبر كما تعبر قصيدة دانتى عما ينتاب الإنسان من الأسى حين يذكر فى أيام حزنه ما مر به من أيام السعادة :

أيا نفسى ، أيا نفسى الجميلة ، أيا نفسى الخفاقة ، أيا شريكة جسمى الطينى وضيفه . إلى أين أنت مسرعة — أيتها النفس الشاحبة ، أيتها النفس الحاسية ، أيتهـــا النفس العارية — إلى حيث لا تعودين ، إلى حيث لا تعودين ؟(٣٣) .

الفصل الرابع

أنطونينس بيوس

يكاد أنطونينس ألاّ يكون له تاريخ ، وذلك لأنه لا يكاد يقع فى أخطاء أو يرتكب قط جرائم . وكان آباؤه الأولون قد جاءوا من نيمز قبل ذلك العهد بجيلين ، وكانت أسرته من أغنى الأسر فى رومة ، ولما اعتلى عرش الإمبراطورية فى الحادية والخمسين من عمره وهبها حكومة هى أعدل حكومة شهدتها طوال تاريخها ، ولم تكن أقل هذه الحكومات كفاية .

وكان أسعد من لبس التاج حظا . ويقول مؤرخوه إنه كان طويل القامة ، وسيما ، جيد الصحة ، وقوراً ، دمث الأخلاق ، حازماً ، متواضعاً ، صادق البأس ، فصيح اللسان ، يحتقر بلاغة الألفاظ ، محبباً إلى الشعب ، يكره الملق . وإذا صدقنا ما يقوله فيه متبناه ماركس ، كان علينا أن نرفض ما وصف به من أنه « كان الجبار المعصوم من الخطأ الذى لم يعرفه العالم قط » . ولقد لقبه مجلس الشيوخ « بالتقىّ pius » لأنه رأى فيه مثالا للفضائل الرومانية الهادئة ، كما وصفه بأنه أفضل الزعماء . ولم يكن له أعداء مطلقاً ، وكان له مئات من الأصدقاء ؛ غير أنه لم يكن بمنأى من الأحزان ، فقد ماتت كبرى ابنتيه وهو يستعد للسفر إلى آسية ليكون والياً عليها ، وكانت صغراهما زوجة مربيبة لأورليوس ، واتهم الناس زوجته بأن خيانتها لزوجها كانت تعدل جمالها . وتحمّل أنطونينس هذه الشائعات وهو صامت صابر ، ولما ماتت زوجته فوستينا Faustina أرصد باسمها وتكريماً لها أموالا طائلة لمساعدة الفتيات وتعليمهن ، وخلد ذكراها بإنشاء هيكل فى السوق العامة كان من أجمل هياكل رومة . وزاد على ذلك أنه لم يتزوج غيرها حتى لا يشقى أبناؤه أو ينقص ميراثهم بهذا الزواج واكتفى بأن اتخذ له حظية .

ولم يكن رجلا ذكياً ، بالمعنى الضيق لهذا اللفظ . فلم يكن له حظ من العلم ، وكان ينظر إلى رجال الأدب والفلسفة والفن نظرة الرجل الأرستقراطى الذى يتركهم وشأنهم ولا يتدخل فى أعمالهم ، لكنه مع ذلك كان يساعدهم بالمال الكثير ، وكثيراً ما كان يدعوهم إلى قصره . وكان يفضل الدين على الفلسفة ، ويعبد الآلهة القدامى بإخلاص ظاهر ، وضرب لمن تبناهم مثلا فى التقى والصلاح . كان له أعظم الأثر فى ماركس فلم ينس قط قوله : « افعل كل شىء كما يجب أن يفعله تلميذ أنطونينس » . وقد أمر نفسه بأن « يذكر استمساكه بكل عمل معقول ، واعتداله فى كل شىء ، وتقواه وصفاء ملامحه ، واحتقاره للشهرة التى لا قيمة لها . . . واكتفاءه بالقليل ؛ وجده وصبره ، واستمساكه بالدين مع بُعده عن الخرافات »[٣٤]. وكان مع هذا متسامحاً مع أصحاب الأديان غير الرومانية ، فخفف من الإجراءات التى اتخذها هدريان ضد اليهود ، وجرى على سنة أسلافه من التساهل مع المسيحيين . ولم يكن بالرجل المتزمت الذى يضيق صدراً بالمرح ، بل كان يحب النكتة ، وكثيراً ما كانت تصدر منه الفكاهة اللطيفة . وكان يلعب ، ويصيد السمك والوحوش مع أصدقائه ، ولم يكن فى وسع الإنسان أن يستدل من سلوكه على أنه إمبراطور . وكان يفضل هدوء بيته الريفى فى لنوفيوم Lanuvium على ترف قصره الرسمى ، وكان يقضى كل لياليه تقريباً مع أسرته . ولما أن ورث العرش امتنع عن التفكير فيما كان يتوق إليه من راحة وهدوء يجعلهما سلواه فى شيخوخته . ولما تبين أن زوجته تتوقع أن تزداد بعد ارتقائه العرش أبهة وعظمة أنبها على ذلك بقوله : « ألا تعلمين أننا قد فقدنا الآن ما كان لنا من قبل ؟ »[٣٥] . فقد كان يعرف أنه ورث هموم العالم ومشاغله .

وكان أول ما عمله بعد اعتلائه العرش أن وهب ثروته الشخصية الكبيرة إلى خزانة الدولة . ثم ألغى المتأخر من الضرائب ، ونفح المواطنين بهبات من المال ، وأقام على نفقته كثيراً من الألعاب والحفلات ، وسد ما كان يعانية الأهلون من

نقص فى الخمر ، والزيت ، والقمح ، بشراء هذه الأصناف وتوزيعها على الناس من غير ثمن . وواصل تنفيذ منهاج هدريان فى البناء فى إيطاليا ، وفى الولايات ، ولكنه سار فيه باعتدال ؛ ومع هذا كله فقد دبر مالية الدولة بكفاية كانت نتيجتها أن وجد فى خزانتها كلها بعد وفاته ٢٫٧٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ سسترس ، وكان ينشر على الناس إحصاء بجميع الإيرادات والنفقات ، ويعامل مجلس الشيوخ على أنه هو عضو من أعضائه لا أكثر ، ولم يقدم قط على عمل خطير إلا بعد استشارة زعمائه . وكان يعنى بدقائق الشئون الإدارية عنايته بالمشاكل السياسية ؛ « فكان يهتم بجميع الناس وبجميع الأشياء كأنهم أهله وكأنها ملكه الخاص »[٣٦] . وواصل سياسة هدريان فى صبغ القانون بصبغة الحرية ، وجعل عقوبة الزنى متساوية على الرجال والنساء ، وحرم السادة القاسين من عبيدهم ، وقيد تعذيب العبيد فى المحاكمات بقيود شديدة ، وفرض أشد العقوبات على كل سيد يقتل عبداً له . وشجع التعليم برصد المال له من قبل الدولة ، وعلم أبناء الفقراء على نفقتها ، ومنح المعلمين والفلاسفة المعترف بهم كثيراً من امتيازات طبقة أعضاء مجلس الشيوخ .

وحكم الولايات أحسن حكم مستطاع دون أن يطوف بها ، فلم يغب قط عن رومة أو ما جاورها يوماً واحداً فى أثناء حكمه الطويل ؛ وكان يكتفى بأن يعين لحكم الولايات رجالا من ذوى الكفاية المخبورة والشرف الموثوق به . وكان يحرص على سلامة الإمبراطورية دون الاشتباك فى حروب ؛ « ولم يكن ينقطع قط عن ترديد قول سپيو إنه يفضل الاحتفاظ بحياة مواطن واحـــد على قتل ألف عدو »[٣٧] . على أنه قد اضطر أن يخوض غمار بعض الحروب الصغرى ليخمد ما نشب من الثورات فى داشيا ، وآخية ، ومصر ؛ ولكنه عهد بهذه الواجبات إلى مرءوسيه ، ولم يسع إلى توسيع رقعة الدولة بل اكتفى بالحدود التى رسمها لها هدريان وراعى فى رسمها جانب الحذر . وحسبت بعض القبائل الألمانية لينة هذا

ضعفاً ، ولعل هذا اللين قد شجعها على أن تتأهب لتلك الغزوات التى اهتزت لها دعائم الإمبراطورية بعد وفاته ؛ وكان هذا هو الخطأ الوحيد الذى ارتكبه فى سياسته . أما فيما عدا ذلك فقد كانت الولايات سعيدة فى أيامه ، ورضيت بحكم الإمبراطورية ورأت فيه البديل الوحيد من الفوضى والشقاق . وأمطرته الولايات سيلا من الملتمسات والمطالب ، أجابها إليها جميعاً إلا القليل الذى لايستحق الذكر ؛ وكان فى وسعها أن تعتمد عليه ليعوضها عن كل ما يصيبها من الخسائر بسبب الكوارث العامة . وتغنى المؤرخون من أهل هذه الولايات أمثال أسترابون ، وفيلو ، وأفلوطرخس ، وأبيان ، وإپكتتس ، وإيليوس أرستيديز بمديح السلم الرومانية ؛ ويؤكد أبيان أنه شاهد فى رومة مندوبى الدول الأجنبية يرجون عبثاً أن توضع بلادهم تحت الحكم الرومانى لكى تستمتع بمزاياه(٣٨) . ولم يعرف قط قبل ذلك الوقت أن حكومة ملكية مطلقة تركت الناس أحراراً كما تركتهم حكومة پيوس ، أو احترمت حقوق رعاياها كما احترمتها هذه الحكومة(٣٩) . ولاح أن العالم قد أدرك المثل الأعلى فى نظم الحكم . فقد كان هذا الحكم وقتئذ للعقل والحكمة ، وكأن العالم يحكمه أب شفيق رحيم .

ولم يكن باقياً على أنطونينس بعد هذا كله إلا أن يختم حياته الصالحة بموت هادئ . ولقد أصيب فى السنة الرابعة والسبعين من عمره بنزلة معدية ، وانتابته حمى شديدة ، فدعا ماركس أورليوس إلى فراشه ، وعهد إليه العناية بشئون الدولة ، وأمر خدمه أن ينقلوا إلى حجرة ماركس تمثال فرتونا fortuna (الحظ) الذهبى ، وكان الزعيم قد احتفظ بهذا التمثال فى حجرته عدداً كبيراً من السنين . وأسر إلى ضابط ذلك اليوم كلمة السر « الهدوء » . ثم أدار وجهه لساعته كما لو كان يريد النوم ، وأسلم الروح (١٦١) . وأخذت جميع الطبقات وجميع المدن تتبارى فى تكريم ذكراه .

الفصل الخامس

الفيلسوف إمبراطور

يقول رينان Rcnan : « لو أن أنطونينس لم يعين ماركس أورليوس خليفة له من بعده لما استطاع أحد قط أن ينافسه فيما اشتهر به من أنه خير الملوك على الإطلاق »(٤١) . ويقول جبن Gibbon : « لو أن إنساناً طلب إليه أن يحدد فى تاريخ العالم وقتاً كان فيه الجنس البشرى أعظم ما يكون سعادة ورخاء ، لما تردد فى أن يقول إنه هو الفترة التى تمتد من جلوس نيرڤا إلى موت أورليوس . ولعل حكمهم مجتمعاً هو الفترة الوحيدة فى تاريخ العالم التى كانت فيها سعادة شعب عظيم هدف الحكومة الوحيد »(٤٢) .

ولد ماركس أورليوس ڤيرس فى رومة عام ١٢١ ، وكانت أسرة أنياى Annii قد وفدت قبل ذلك الوقت بمائة عام من سكوبا Succuba القريبة من قرطبة إلى رومة ، ويلوح أن ما اشتهروا به فى هذا البلد من شرف قد أكسبهم لقب ڤيرس أى « الحق » . ومات والد الغلام بعد ثلاثة أشهر من مولده فكفله جده الثرى ، وكان قنصلا فى ذلك الوقت ، وأخذه إلى بيته . وكثيراً ما كان هدريان يتردد على هذا البيت زائراً ، فأعجب بالغلام ، ورآه من طراز الملوك . ولم يعرف قط أن غلاماً مثله كان شبابه ينم عما ينتظره من مستقبل عظيم ، أو كان يدرك ما هيأته له الأقدار من حظ حسن . وقد كتب بعـــد ذلك الوقت بخمسين عاماً يقول : « إنى مدين للآلهة بما وهبتنى من جدود طيبين ، وآباء طيبين ، وأخت طيبة ، ومدرسين طيبين ، وأقارب وأصدقاء طيبين ، وكل شىء تقريباً طيب »(٤٣) . وأراد الدهر أن يفرض عليه شيئاً من التوازن فجعل له زوجة مريبة وابناً سافلا . وقد أحصى فى تأملاته ما يتصف به

أولئك الناس من فضائل وما تلقاه عنهم من دروس فى التواضع ، والصبر ، والرجولة ، والتعفف ، والتقوى ، وحب الخير ، و « بساطة الحياة البعيدة كل البعد عن عادات ذوى الثراء »(٤٤) ، وإن كان الثراء يحيط به من كل جانب .

ولم يلق غلام قط ما لقيه هذا الغلام من حرص ومثابرة على تربيته وتعليمه . فقد التحق فى شبابه بخدمة الهياكل والكهنة ، وحفظ عن ظهر قلب كل كلمة من كلمات الطقوس الدينية القديمة الغامضة المتعذرة الفهم ، ولم تنقص الفلسفة فى مستقبل الأيام من مثابرته على أداء تلك الطقوس القديمة المفروضة على الأتقياء الصالحين ، وإن كانت هذه الفلسفة قد زعزعت عقيدته الدينية . وكان ماركس يحب المباريات والألعاب الرياضية ومنها صيد الطير والحيوان ، وقد بذلت بعض الجهود لتقوية جسمه كما كانت الجهود تبذل لتنمية عقله وتقويم خلقه ، ولكن سبعة عشر مدرساً خاصاً يحيطون بطفل عبء ثقيل وعقبة كؤود فى سبيله . فقد كان أربعة نحاة ، وأربعة من علماء البلاغة ، وواحد من علماء القانون ، وثمانية من الفلاسفة يقتسمون رومة فيما بينهم . وكان أشهر هؤلاء الأساتذة كلهم م . كورنليوس فرنتو M. Cornelius Fronto معلم البيان . وكان ماركس يحبه ويحبوه بكل ما يحبو به التلاميذ أبناء الملوك أساتذتهم من عطف ولطف . ويتبادل معه رسائل تفيض رقة ووفاء ، ولكن الغلام رغم هذا أدار ظهره إلى فن الخطابة ورآه فناً باطلا غير شريف وانهمك فى دراسة الفلسفة .

وهو يشكر لأساتذته أنهم لم يلزموه بدراسة المنطق والتنجيم ، ويشكر لديجنيس Diognetus الرواقى أنه حرر عقله من الخرافات ، ولِيونيوس رستكس Junius Rusticus أنه عرفه بإبكتتس ، ولسكتس القيرونيائى Sextus of Chaeronea أنه علمه أن يعيش عيشة تتفق والطبيعة . وهو يحمد لأخيه سڤيرس Severus أنه علمه أخبار بروتس ، وكاتو اليتكائى ، وثراسيا Thrasea وهلڤديوس Helvdiius ويقول : « إنى تلقيت عنه فكرة الدولة

التى يكون فيها قانون واحد لجميع الناس ، والتى يتمتع أهلها جميعاً بحقوق متكافئة ، وبحرية الكلام ؛ وأخذت عنه فكرة الحكومة الملكية التى تحترم حرية المحكومين أكثر من احترامها كل شيء سواها »(٤٥) وفى هذا القول يستحوذ المثل الأعلى الرواقى للحكومة الملكية على العرش . ويشكر أورليوس لمكسمس Maximus أن علمه « أن يحكم نفسه ، وألا يسمح لشيء ما أن يضله ، وأن يكون بشوشاً فى كل الظروف ، وأن يجمع قدراً متكافئاً من اللطف والكرامة ، وأن يؤدى ما عليه من الواجبات من غير تذمر »(٤٦) وجدير بنا أن نشير هنا إلى أن من الأمور الجلية أن كبار الفلاسفة فى ذلك الوقت كانوا كهنة بلا دين ، ولم يكونوا ميتافيزيقيين بلا حياة . غير أن ماركس آمن بأقوالهم إيماناً جدياً كاد وقتاً ما أن يفقد بسببه صحته التى كانت ضعيفة بطبيعتها لانهماكه فى حياة الزهد والتقشف . فقد ارتدى وهو فى الثانية عشرة من عمره رداء الفلسفة ، وأخذ ينام على قليل من القش المنثور على الأرض ، وظل زمناً طويلا لا يأبه برجاء أمه له أن ينام على فراش . ذلك أنه كان رواقياً قبل أن يصير رجلا ، ويحمد ربه : « لأنى احتفظت بزهرة شبابى ، وأنى لم أطمع فى أن أكون رجلا قبل الأوان ، بل أجلت هذا أكثر مما كنت أحتاج إلى تأجيله . . . وأنى لم تكن لى صلات جنسية قط . . . وأنى حين انتابتنى فيما بعد نوبات من الحب ، لم ألبث أن شفيت منها بعد زمن قليل »(٤٧) .

وقد حوله عن احتراف الفلسفة والكهنوت عاملان كان لهما أثر بالغ فى حياته . أولهما ما تولاه من المناصب السياسية الصغرى منصباً فى إثر منصب ، وذلك لأن واقعية الرجل الإدارى تعارضت لديه مع مثالية الشاب الغارق فى التأملات . وكان العامل الثانى صلته الوثيقة بأنطونينس پيوس . ولم تكن حياة أنطونينس الطويلة سبباً فى مضايقته بل ظل يحيا حياته الرواقية البسيطة ، ويواصل دراساته الفلسفية ، وواجباته الرسمية ، وهو يعيش

فى القصر ، ويمارس مرانه الطويل . وكان للمثل الذى ضربه له متبنيه فى الإخلاص والنزاهة فى الحكم أقوى الأثر فى نضوج عقله وخلقه . وكان الاسم الذى نعرفه به وهو أورليوس هو اسم القبيلة التى ينتمى إليها أنطونينس ، وقد تسمى به ماركس ولوسيوس كلاهما بعد أن تبناهما . فأما لوسيوس فقد أصبح رجلا مرحاً محباً لمفاتن العالم ، خبيراً بملذات الحياة ومباهجها ؛ ولما أن رغب پيوس عام ١٤٦ أن يكون له زميل يشترك معه فى أعباء الحكم ، اختار لذلك ماركس وحده ، وترك للوسيوس دولة الحب . ولما أن مات أنطونينس جلس ماركس على العرش بمفرده ، ولكنه تذكر رغبة هدريان فاتخذ لوسيوس ڤيرس زميلا له وزوجه بابنته لوسلا Lucilla : فارتكب الفيلسوف بسبب حنوه ورأفته من الخطأ فى بداية حكمه ما ارتكبه فى نهايته ؛ ذلك أن تقسيم الحكم على هذا النحو كان سابقة سيئة ، فرقت شمل الدولة وأضعفتها فيما بعد أيام خلفاء دقلديانوس وقسطنطين .

وطلب ماركس من مجلس الشيوخ أن يخلع على پيوس مراسم التكريم القدسية ، وأتم الهيكل الذى شرع پيوس فى أن يقيمه تخليداً لذكرى زوجته ، وأظهر فيه أحسن الذوق وأكمله ، ووهبه لذكرى أنطونينس وفوستينا معا(*) . وحبا مجلس الشيوخ بكل أنواع المجاملة ، وسره أن يجد الكثيرين من أصدقائه الفلاسفة قد شقوا طريقهم إلى عضويته ، وحيته إيطاليا بأجمعها والولايات على بكرة أبيها ، ورأت فيه تحقيقاً لحلم أفلاطون : لقد أصبح الفيلسوف ملكا . ولكنه لم يفكر قط فى أن يجعل من الإمبراطورية « مدينة فاضلة » . فقد كان مثل أنطونينس محافظاً مستمسكا بالقديم ؛ ذلك أن المتطرفين لا ينشئون فى القصور ، وكان ملكا — فيلسوفاً بالمعنى

---

(١) ولاتزال عشرة من أعمدته الكورنثية المنحوت كل منها من حجر واحد من بين أجمل آثار السوق العامة الباقية إلى الآن . ومدخله باق بكامل أجزائه ، أما المحراب فهو ، وإن جرد من واجهته الرخامية ، باق إلى اليوم فى كنيسة سان لورنتزو فى بلدة ميرندا .

الرواقى لا الأفلاطونى لهذا اللفظ . وقال يحذر نفسه : « لا تؤمل قط أن تقيم جمهورية أفلاطون . وحسبك أنك أصلحت أحوال البشر إلى حد ما ، ولا تظن أن هذا الإصلاح أمر قليل الخطر . ومنذا الذى يستطيع تغيير آراء الناس ؟ وإذا لم تستطع تغيير عواطفهم ، فإنك لا تستطيع أن تجعل منهم إلا عبيداً متمردين ومنافقين متلونين » . وكان قد تبين أن الناس لا يرغبون كلهم أن يكونوا قديسين أطهاراً ، ووطن النفس على أن يعيش فى عالم ملىء بالخبث والفساد ، ومن أقواله فى هذا : « إن الآلهة المخالدين يرضون أن يصبروا آجالا طوالا على هذه الكثرة من الأشرار وعلى ما ترتكبه من آثام كثيرة ، دون أن يغضبوا ، بل إنهم يحيطون هؤلاء الأشرار بالنعم الموفورة ، فهل يليق بك على قصر أجلك أن يسرع إليك الملل ؟ »[٤٨] : وقد وطد العزم على أن يعتمد على القدوة الحسنة لا على سطوة القانون ، فجعل نفسه بالفعل خادماً للدولة ، وأخذ على عاتقه جميع أعباء الإدارة والقضاء ، بما فى ذلك القسم الذى وافق لوسيوس على أن يتحمله ولكنه أهمله ؛ ولم يسمح لنفسه بشىء من الترف ، وعامل الناس جميعا معاملة الزملاء لا أكثر ولا أقل ، وأنهك نفسه بكثرة العمـــل بأن يسر للناس مقابلته . ولم يكن ماركس بالسياسى العظيم ، فقد أنفق كثيراً من أموال الدولة فى الهبات النقدية التى كان ينفح بها الشعب والجيش ، ومنح كل فرد من أفراد الحرس البريتورى عشرين ألف سسترس . وزاد عدد الذين كان من حقهم أن يطلبوا الحبوب من غير ثمن ، وأكثر من الألعاب الباهظة النفقة ، وأعفى الناس والولايات من كثير من الضرائب والجزية المتأخرة . لقد كان هذا كرماً له سوابقه ، ولكنه كان عملا غير حكيم فى وقت كانت الثورات والحروب تهدد الدولة تهديداً لا يخفى على عين الحاكم البصير ، وكانت نيرانها مشتعلة بالفعل فى كثير من الولايات وعلى أطراف الحدود العظيمة الأمداد .

وواصل ماركس ذلك الإصلاح القانونى الذى بدأه هدريان وبذل فى ذلك الإصلاح كثيرا من الجد والنشاط . فزاد أيام جلسات المحاكم ، وقصر آجال

المحاكات ، وكثيراً ما كان يجلس بنفسه فى مجلس القضاء ، ولا يرحم من يرتكب جريمة من الجرائم الكبرى ، ولكنه كان فى العادة رحيما . وقد ابتكر وسائل قانونية لحماية عديمى الأهلية من جشع الأوصياء ، ولحماية المدينين من الدائنين ، والولايات من الحكام ، وغض الطرف عن عودة الجماعات الدينية التى كانت محرمة قبل عهده ، وبسط حماية القانون على الهيئات التى كانت فى حقيقة أمرها جماعات تعنى بدفن الموتى ، وأكسبها الشخصية المعنوية التى يحق لها بمقتضاها أن تقبل الوصايا ، وأنشأ صندوقاً لينفق منه على دفن الموتى من الفقراء . وبلغ عدد المستفيدين من نظام الألمنتا أى من الأموال التى خصصتها الدولة لتشجيع النسل بين الفلاحين أكبر عدد وصل إليه فى تاريخ هذا النظام كله . ولما ماتت زجته أنشأ صندوقاً لمساعدة الفتيات الفقيرات ، ولدينا نقش منخفض يمثل أولئك الفتيات وقد أحطن بفوستينا الصغرى وهى تصب القمح فى حجورهن . وألغى الاستحمام المختلط ، وحرم دفع أجور عالية للممثلين والمجالدين ، وفرض على ما تنفقه المدن على الألعاب قيوداً تحد من هذه النفقات وتجعلها متناسبة مع ثروتها ، وأوجب أن تكون الأسلحة التى يستخدمها المجالدون غير ذات أسنة ، وفعل كل ما تبيحه له هذه العادة الوحشيه أن يفعله لمنع قتـــل المصارعين . وأحبه الشعب ولكنه لم يحب قوانينه ، ولما أن جند المصارعين فى جيشه الذى سيره للحروب المركمانية Marcomannic قال الناس فى غضب فكه : « إنه يسلبنا أسباب سرورنا ، ويريد أن يرغمنا على أن نكون فلاسفة »(٤٩) . لقد كانت رومة تستعد للتزمت ، ولكنها لما تصبح مستعدة له .

وكان من سوء حظه أن شهرته فى الفلسفة ، وأن السلم الطويلة التى دامت أيام هدريان وأنطونينس ، قد شجعتا الثوار فى داخل البلاد ، والبرابرة فى خارجها ، على العصيان . فاندلعت نيران الثورة فى بريطانيا عام ١٦٢ ، وغزا التشاتى Chatti ألمانيا الرومانية ، وأعلن فلوجاسيز Vologases

الثالث ملك پارثيا الحرب على رومة واختار ماركس أقدر القواد لتقليم أظفار الفتنة فى الشمال ، ولكنه عهد إلى لوسيوس ڤيرس بالواجب الأكبر وهو محاربة پارثيا ، ولم يتجاوز لوسيوس فى زحفه مدينة أنطاكية ، لأن تلك المدينة كانت مسكن پانثيا Panthea التى بلغت من الجمال والتهذيب والثقافة حدا ظن معه لوسيان أن كل ما حوته آيات النحت من روعة قد اجتمعت فيها ، وأنها وهبت فوق ذلك صوتاً رخيما عذباً يسلب لب من سمعه ، وأنامل تجيد العزف ، وعقلا ملماً بروائع الأدب والفلسفة . فلما رآها لوسيوس نسى كما نسى جلجميش متى ولد ، فأطلق العنان للذاته ، للصيد أولا ثم للدعارة بعدئذ ، بينا كان الپارثيون يزحفون على بلاد سوريا التى استولى عليها الرعب . ولم يعلق ماركس بكلمة على أعمال لوسيوس ولكنه أرسل إلى أڤديوس كاسيوس Avidius Cassius الذى يلى لوسيوس فى قيادة جيشه خطة للحملة كانت من الإتقان بحيث أعانت القائد القدير المحنك على صد الپارثيين إلى ما بين النهرين ، وإلى رفع الراية الرومانية مرة أخرى على سلوقية وطشقونة . وأحرقت المدينتان فى هذه المرة عن آخرهما ، لكيلا تتخذا مرة أخرى قاعدتين لحملات الپارثيين . وعاد لوسيوس من أنطاكية إلى رومة حيث أقيم له احتفال بالنصر ، أصر كرماً منه وشهامة على أن يشاركه فيه ماركس .

وجاء لوسيوس معه بالمنتصر الخفى فى هذه الحرب — وهو الوباء . وكان قد ظهر فى بادئ الأمر بين جنود أڤديوس حينما استولوا على سلوقية ، ثم انتشر بسرعة اضطرته أن يسحب أولئك الجند إلى بلاد النهرين بينا كان الپارثيون يطربون لأن الآلهة قد انتقمت لهم من أعدائهم . ونقلت الفيالق المنسحبة الوباء معها إلى سوريا ، وأخذ لوسيوس معه جنوداً من هذه الفيالق لتشترك فى موكب النصر ، فنقلوا العدوى إلى كل مدينة مروا بها ، وإلى كل صقع من أصقاع الإمبراطورية انتقلوا إليه فيما بعد . ويحدثنا المؤرخون القدامى عن فتك هذا الوباء أكثر مما يحدثوننا عن طبيعته ، ولكن ما يقولونه عنه

يوحى بأنه قد يكون مرض التيفوس الطفحى أو الطاعون الدملى[٣٢] . ويظن جالينوس أنه من نوع الوباء الذى فتك بالأثينيين فى عهد پركليز . وسواء أكان هذا أم ذاك فقد كانت بثرات سوداء تنتشر فى الجسم ، ويصاب المريض بسعال جاف مبحوح ، ويكون « نفسه ذا رائحة خبيثة »[٥٣] . وفشا الوباء سريعاً فى آسية الصغرى ، ومصر ، وبلاد اليونان ، وغالة ، وأهلك خلال عام واحد (١٦٦ — ٦٧) أكثر ممن أهلكتهم الحرب . ومات منه فى رومة ألفان فى يوم واحد ، ومنهم عدد كبير من أشراف المدينة[٥٤] ، وكانت الجثث تخرج منها أكواماً . وعجز ماركس عن مقاومة هذا العدو الخفى ، ولكنه بذل كل ما يستطيع ليخفف من شره ، غير أنه لم يجد معونة من علم الطب فى ذلك الوقت ، وجرى الوباء فى مجراه حتى أوجد فى الناس مناعة منه أو أهلك كل من حمل جراثيمه . وكانت له فى البلاد آثار يخطئها الحصر . فقد أقفرت كثير من الأنحاء من سكانها حتى أضحت صحارى أو غابات ، ونقص إنتاج الغذاء ، واضطربت وسائل النقل ، وأتلفت فيضانات الأنهار مقادير كبيرة من الحبوب ، وجاء القحط فى أعقاب الوباء . واختفت مظاهر البهجة التى امتازت بها بداية حكم ماركس ، واستسلم الناس للحيرة والتشاؤم ، وهرعوا إلى العرافين والمتنبئين ، وغمروا المذابح بالبخور والضحايا ، وطلبوا العزاء فى الملاذ الوحيد الذى أتيح لهم ، فى الدين الجديد دين خلود النفس والسلام السماوى .

وبينا كانت هذه الكوارث تجتاح البلاد فى الداخل جاءت الأنباء (١٦٧) بأن القبائل الضاربة على ضفاف الدانوب — التشاتى ، والقادى ، والمركمانى ، واللازيجى Lezyges — قد عبرت النهر ، وفتكت بحامية رومانية عدتها عشرون ألفاً ، وأخذت تزحف على داشيا ، وريتيا Rretia ، وپاتونيا ، ونوركم ، وأن بعضها قد شقت طريقها فوق جبال الألب ، وهزمت كل الجيوش التى أرسلت لصدها ، وحاصرت أكويليا Aquileia (القريبة من البندقية) ، وأخذت تهدد ڤرونا Verona ، وتتلف الحقول الغنية فى شمالى إيطاليا . ولم تكن القبائل الألمانية

فى وقت من الأوقات أكثر مما كانت وقتئذ اتحاداً وتماسكاً فى زحفها ، ولم تهدد رومة فى يوم ما أشد من تهديدها إياها فى ذلك الوقت . وأقدم ماركس على العمل الحاسم بسرعة أدهشت الناس جميعاً ، فنبذ ملاذ الفلسفة ، وقرر أن ينزل بنفسه إلى الميدان ليخوض غمار الحرب التى تنبأ بأنها ستكون أخطر الحروب التى خاضتها رومة منذ أيام هنيبال ، وروع إيطاليا بتجنيد رجال الشرطة ، والمجالدين والعبيد ، وقطاع الطرق ، ومرتزقة البرابرة ، فى فيالقه التى حصدتها الحروب والأوبئة . وحتى الآلهة نفسها قد جندها لخدمة أغراضه : فقد أمر كهنة الأديان الأجنبية أن يقربوا القرابين إلى رومة حسب طقوسهم المختلفة ، وحرق هو نفسه من الضحايا على المذابح ما جعل أحد الفكهين يذيع رسالة بعثت بها إليه ثيران سود ، ترجوه فيها ألا يسرف فى الانتصار وتقول فيها : «ما أشد خسارتنا إذا انتصرت»(٥٥) . وأراد أن يوفر المال اللازم للحرب دون أن يفرض لها ضريبة خاصة فباع بالمزاد العلنى فى السوق العامة ما فى القصور الإمبراطورية من خزانات الثياب ، والتحف الغنية ، والحلى . وأعد العدة للدفاع بعناية عظيمة — فحصن المدن القائمة على الحدود من غالة إلى بحر إيجة ، وسد الممرات الموصلة إلى إيطاليا ، وأغرى القبائل الألمانية والسكوذية بالرشا السخية على الهجوم على مؤخرة الغزاة . ثم درب جيشه ونظمه أحسن تدريب وتنظيم بجد وشجاعة تثيران أعظم الإعجاب لجيشهما من رجل يكره الحرب . ثم قاد الجيش بنفسه فى حرب عوان وضع خططها بمهارة وقدرة حربية فنية ، وفك الحصار عن أكويليا ، وطارد المحاصرين وبدد شملهم عند نهر الدانوب ، حتى لم يكد ينجو منهم من القتل إلا من وقع فى الأسر .

ولم يكن يخفى عليه أن أعماله هذه لم تقض على الخطر الألمانى ، ولكنه حسب أن ما أدركه يجعل الموقف آمناً إلى حين ، فعاد مع زميله إلى رومة ؛ ولكن لوسيوس قضى نحبه فى الطريق بالسكتة القلبية ، غير أن الشائعات ، كالسياســة ، لا تعرف سبيلا إلى الرحمة ، فقالت إن ماركس دس

له السم . وقضى الإمبراطور الفترة الواقعة بين يناير وسبتمبر عام ١٦٩ فى رومة ليستريح من الجهود التى أضنت بنيته الضعيفة حتى كادت تقضى عليه ، وكان يشكو نزلة معوية كثيراً ما كانت تتركه ضعيفاً لا يقوى على الحركة . ولكنه عالج هذا الداء بالاقتصاد فى الطعام فكان لا يأكل إلا أكلة خفيفة فى اليوم . وكان الذين يعرفون حالته الصحية وغذاءه القليل يدهشون مما كان يبذله فى القصر والحقل من جهود ، كل ما يعللونها به أنه كان يعوض بعزيمته ما يعوزه من قوة جسمه . وقد استدعى إليه عدة مرار جالينوس البرجومى أشهر أطباء زمانه ، وأثنى عليه لبساطة ما كان يصفه له من العلاج(٥٦) .

ولعل ما توالى عليه من المتاعب المنزلية مضافة إلى الأزمات السياسية والعسكرية قد ساعد على اشتداد علته حتى أصبح شيخاً منهوكا فى الثامنة والأربعين من عمره . ولعل زوجته فوستينا ، التى ترى وجهها الجميل فى كثير من التماثيل ، لم يكن يسرها أن تشارك فى الطعام والفراش رجلا يكاد أن يكون هو الفلسفة متجسدة ، ذلك أنها كانت امرأة مرحة نشيطة ، تتوق إلى حياة أكثر بهجة مما تستطيع أن تهبها إياها فطرته الرزينة الوقور . غير أن النمامين فى المدينة كانوا يتهمونها بخيانة زوجها ؛ وهجته المسرحيات التقليدية الصامتة ووصفته بأنه ديوث ، بل ذهبت إلى أبعد من هذا فذكرت أسماء من ينافسونه على زوجته(٥٧) . لكن ماركس فعل ما فعله أنطونينس مع أمه فوستينا فصمت ولم يقل شيئاً ، ولم يكتف بالصمت بل عين عشاقها المزعومين فى مناصب عالية وأظهر إلى فوستينا كل دلائل العطف والاحترام ، وألّهها لما ماتت (١٧٥) وشكر فى تأملاته الآلهة لأنها وهبته « زوجة محبة مطيعة »(٥٨) . وليس لدينا قط دلائل ندينها بمقتضاها(٥٩) ، ولقد ولدت له أربعة أبناء ، كان يحبهم حباً لا نزال نحس بحرارته فى رسائله التى كتبها لفرنتو . وقد ماتت منهم بنت فى طفولتها ، وأما الثانية فكانت حياة لوسيوس سبباً فى حزنها ، ووفاته سبباً فى ترملها . وكان الاثنان الآخران توأمين ولدا

فى عام ١٦١ ، مات أحدهما أثناء ولادته ، وأما الثانى فهو كمودس Commodus ، وقالت ألسنة السوء إنه كان هدية إلى فوستينا من مجالد(٦٠) ، وقد ظل هو طول حياته يجاهد لتوكيد هذه القصة : لكنه كان غلاماً وسيما قوياً نشيطاً ، وكان ماركس يحبه ويحنو عليه حنواً بالغاً لا يستطيع أحد أن يلومه عليه ، وقدمه إلى الفيالق بطريقة ترمز إلى أنه سيختاره خليفة له من بعده. واستخدم خير المدرسين فى رومة ليجعلوه صالحاً للحكم . ولكن الشاب كان يفضل الشرب ، والرقص ، والغناء ، والصيد ، والمثاقفة ، ونشأت فيه روح الكراهية للكتب والعلماء والفلاسفة ، وهى كراهية نستطيع فهم أسبابها ، ولكنه كان يسر بصحبة المجالدين وهواة الألعاب الرياضية ؛ وسرعان ما بز جميع رفاقه فى الكذب ، والقسوة ، والألفاظ القذرة . وكان ماركس أشد طيبة من أن يبلغ من العظمة قدراً يستطيع معه أن يؤدبه ، أو يتبرأ منه ، وظل يأمل أن التعليم والتبعة التى ستلقى على عاتقه سيهذبان من طبعه ويغرسان فيه صفات الملوك . وأخذ الإمبراطور فى عزلته يهزل جسمه ، ويطول شعر لحيته دون أن يعنى به ، وتضعف عيناه من الهم والأرق ، ويولى ظهره إلى زوجه وولده ، ليعنى بشئون الحكم والحرب .

ولم تكن هجمات القبائل الضاربة فى وسط أوربا قد وقفت إلا إلى حين قصير ، ولم تكن السلم فى هذا الصراع القائم لتدمير الإمبراطورية وتحرير البرابرة إلا هدنة مؤقتة . ثم أقدم التشاتى فى عام ١٦٩ على غزو الأقاليم الرومانية عند مجرى الرين الأعلى ، وفى عام ١٧٠ هاجم التشوسى بلچيكا ، وحاصرت قوة أخرى سرمزجتسوسا ، وعبر الكتسبآى جبال البلقان وانقضوا على بلاد اليونان ، ونهبوا هيكل الطقوس الخفية فى إلوسيس التى تبعد عن أثينة بأربعة عشر ميلا ، وغزا المغاربة أسپانيا من موطنهم فى إفريقية ، وظهرت لأول مرة على نهر الرين قبيلة جديدة تدعى اللنجباردي أو اللمبارديين . وكان البرابرة المخصبون يزدادون فى كل يوم قوة رغم ما منوا به من الهزائم الكثيرة ، بينما كان الرومان العقيمون يزدادون ضعفا

ضعفاً . ورأى ماركس أن الحرب عندئذ حرب حياة أو موت ، يهلك فيها أحد الطرفين عدوه أو يذل له . ولم يكن فى وسع مخلوق أن يبدل نفسه تبديلا تاما من فيلسوف متصوف إلى قائد ناجح قدير إلا من نشأ نشأة رومانية عرف فيها معنى الواجب المقدس كما يفهمه الرواقيون . ولقد بقى الفيلسوف متخفياً تحت دروع الإمبراطور ؛ فبينا كانت هذه الحرب المركمانية الثانية (١٦٩ — ٧٥) حامية الوطيس ، وبينا كان ماركس فى معسكره المواجه لقبائل القاديين على نهر جرنا(*) Granna شرع يكتب ذلك الكتاب الصغير كتاب **التأملات** وهو أهم ما يذكره العالم به . وهذه الذ... ى تكشف لنا عن قديس ضعيف غير معصوم من الزلل يقلب فى ذهنه مشكلتى الأخلاق والأقدار ، وهو يقود جحفلا عظيما فى صراع يقف على نتيجته مصير الإمبراطورية ، نقول إن هذه اللمحة لهى صورة من أدق الصور التى حفظها الزمان لأعاظم رجاله وأصدقها . لقد كان يطارد السرمانيين بالنهار ولكنه كان فى وسعه أن يكتب عنهم بالليل كتابة من يعطف عليهم : « إن العنكبوت إذا أمسك بذبابة ، ظن أنه أقدم على عمل عظيم ، وكذلك يظن من صاد أرنبا . . . أو أسر السرمانيين . . . أليس هؤلاء جميعاً لصوصا ؟ »(٦١) .

ولكنه رغم هذا ظل يحارب السرمانيين Sarmatians ، والمركمانيين ، والقاديين ، واليزجيين ، حربا عوانا دامت ست سنين طوالا ، ذاق فيها الأمرين . ثم هزمهم ، ودفع بفيالقه إلى الشمال حتى بلغت بوهيميا . ويبدو أنه كان يبغى أن يجعل سلاسل جبال هرسينيا Hercynian والكربات الحدود الجديدة للإمبراطورية . ولو أنه نجح فى تحقيق غرضه ، لكان من المحتمل أن تجعل الحضارة الرومانية ألمانيا ، كما جعلت غالة ، لاتينية فى لغتها ، ويونانية فى تراثها الثقافى ، ولكنه روع وهو فى أوج ظفره ، إذ علم

(*) وأكبر الظن أنه جران Gran أحد روافد الدانوب .

أن أفديوس كاسيوس قد أعلن نفسه إمبراطوراً بعد أن أخمد ثورة شبت فى مصر . وأدهش ماركس البرابرة بأن عقد معهم صلحاً سريعا ، واكتفى بأن ضم إلى الإمبراطورية شريطا من الأرض لا يزيد عرضه على عشرة أميال على ضفة الدانوب الشمالية ، ووضع حاميات قوية على الضفة الشمالية . ثم جمع جنوده ، وأخبرهم أنه يسره أن يترك مكانه لأفديوس إذا رغبت رومة فى ذلك ، ووعد أن يعفو عن القائد المتمرد ، ثم سار إلى آسية ليواجهه . وحدث فى تلك الأثناء أن اغتال كاسيوس ضابط صغير ، وخمدت على أثر مقتله نار الثورة . واخترق ماركس آسية الصغرى وسوريا ، وجاء إلى الإسكندرية ، وحزن كما حزن قيصر لأنه لم تتح له فرصة يظهر فيها رحمته . وكان وهو فى أزمير ، والإسكندرية ، وأثينة يمشى فى الشوارع بلا حرس ، ويلبس عباءة الفلاسفة ، ويستمع إلى محاضرات كبار الأساتذة ، ويشترك معهم فى المناقشات ، ويتكلم اللغة اليونانية ؛ وأنشأ وهو فى أثينة أستاذية فى كل مذهب من المذاهب الفلسفية الكبيرة — الأفلاطونية ، والأرسططاليسية ، والرواقية ، والأبيقورية .

ووصل أورليوس إلى رومة فى خريف عام ١٧٦ ، بعد حرب دامت قرابة سبع سنين ، واستقبل فيها بموكب نصر عظيم حيى فيه بأنه منقذ الإمبراطورية . وأشرك كمودس معه فى نصره ، وأجلسه ، وهو لا يزال غلاما فى الخامسة عشرة من عمره معه على العرش . وكانت هذه هى المرة الأولى منذ قرن من الزمان التى لم يراع فيها مبدأ التبنى ، والتى عاد فيها مبدأ الوراثة . ولم يكن ماركس يجهل الخطر الذى سيحيق بالإمبراطورية من جراء فعلته هذه ، لكنه فعل ما فعل لأنه رأى أن يختار ضرراً أخف من ضرر الحرب الأهلية التى يخشى أن يخوض كمودس وأصدقاؤه غمارها إذا حرمه من العرش . وليس من حقنا أن نحكم عليه بعد أن عرفنا عاقبة فعلته ، كما أن رومة لم تكن تتوقع عواقب هذا الحب الأبوى . ذلك أنها كانت قد نسيت فتك الوباء بأهلها ، وأخذ أبناؤها يذوقون طعم السعادة من جديد ، يضاف إلى هذا أن العاصمة لم تقاس إلا القليل من ويلات الحرب التى

دبر لها ما يلزمها من المال تدبيراً روعى فيه الاقتصاد الشديد ، ولم يفرض عليها فيه إلا القليل الذى لا يستحق الذكر من الضرائب الإضافية ؛ وبينا كانت نار الحرب مشتعلة عند الحدود ، كانت التجارة رائجة فى داخل المدينة ، وكان رنين النقود يسمع فى كل مكان فيها . لقد بلغت رومة فى ذلك الوقت أوج عزها ، وبلغ حب الشعب للإمبراطور غايته ، وحياه العالم كله ، وكان فى نظره جنديا ، وحكيما ، وقديسا فى وقت واحد .

ولكنه لم ينخدع بهذا النصر المؤزر ، فقد كان يعرف أن مشكلة ألمانيا لم تحل بعد . وكان على ثقة من أن الإمبراطورية لن تستطيع صد الغزوات فى المستقبل إلا إذا اتبعت سياسة نشيطة دفعت بها حدودها إلى جبال بوهيميا . ولذلك أقدم كمودس فى عام ١٧٨ على الحرب المركمانية الثالثة ، واجتاز نهر الدانوب وهزم القاديين مرة أخرى بعد حملة طويلة قاسية ، لم يلق بعدها مقاومة . وأوشك أن يضم إلى الإمبراطورية بلاد القاديين ، والمركمانيين ، والسرماتيين (وهى بوجه التقريب بوهيميا وغاليسيا المجاورة لنهر الدانوب) ، ويجعلها ولايات جديدة تابعة للإمبراطورية . ولكن المرض انتابه وهو فى معسكره فى ڤندوبونا Vindobona (ڤينا) . ولما أحس بدنو أجله ، دعا كمودس إلى جانبه ، وأنذره أن يواصل السير على الخطة التى أوشكت أن تثمر ثمرتها ، ويحقق حلم أغسطس ، ويدفع حدود الإمبراطورية إلى نهر الإلب(*) . ثم امتنع عن الطعام والشراب ، ومرت به وهو على هذه الحال خمسة أيام ، وفى اليوم السادس استجمع آخر ما كان عنده من قوة ، ووقف على قدميه ، وقدم كمودس للجيش على أنه الإمبراطور الجديد . ثم عاد إلى فراشه ، وغطى رأسه بملاءة الفرش ، وأسلم الروح بعد قليل . وقبل أن يصل جثمانه إلى رومة ، كان أهلها قد عبدوه واتخذوه إلهاً رضى أن يعيش على الأرض زمناً قصيرا .

(*) يقول ممسن Mommsen المعروف بنزاهته « ليس من حقنا أن نكتفى بالاعتراف بصدق عزيمة الإمبراطور وصلابته ، بل إن علينا فوق ذلك أن نقر بأنه قد فعل ما توجبه عليه السياسة الرشيدة »(٦٢)

الباب العشرون

الحياة والفكر فى القرن الثانى

٩٦ – ١٩٢ م

الفصل الأول

تاستس

لقد حررت سياسة نيرڤا وتراچان عقل رومة المكبوت ، وبعثت فى أدب عهديهما روح التمرد الشديد على الطغيان الذى ولى ولكنه قد يعود إلى سابق عهده . ولقد عبر پلنى فى تقريظه عن هذا الشعور بترحيبه بأول الأباطرة الثلاثة حين جلس على العرش ؛ وقلما كان چوڤنال يتغنى بشىء آخر غير مديحهم ، ولم يكن لتاستس أنبه المؤرخين من عمل إلا التنديد بالأيام الخوالى ، والتشنيع بقلمه على ذلك القرن من الزمان .

ولسنا نعرف متى ولد تاستس أو أين ولد ، بل إننا لا نعرف اسمه الأول ؛ وأكبر الظن أنه كان ابن كورنليس تاستس الذى وكل إليه الإشراف على إيرادات الإمبراطورية ، فى غالة البلچيكية . وبفضل ما ناله هذا الرجل من الرقى فى المناصب الحكومية ، ارتفعت الأسرة من طبقة الفرسان إلى طبقة الأرستقراطية الجديدة . وأول حقيقة مؤكدة نعرفها عن هذا المؤرخ هى قوله : « اتفق أجركولا فى عام قنصليته (٧٨) . . . على أن يزوجنى ابنته ، التى كانت بلاريب تتطلع إلى صلة أرقى من هذه »[٢] وكان قد

تلقى ما يتلقاه الناس عادة من تعليم ، وأتقن الفنون الخطابية التى تجعل أسلوبه ذا بهجة ورواء ، وحذق طريقة إيراد الحجج المؤيدة والمعارضة التى يمتاز بها ما فى تواريخه من خطب . وكثيراً ما استمع إليه پلنى الأصغر فى المحاكم ، وأعجب بفصاحته وألفاظه الجزلة وسماه أعظم خطباء رومة[٣] . وعين تاستس پريتوراً فى عام ٨٨ ، وأصبح من ذلك الوقت عضواً فى مجلس الشيوخ . وجدير بالذكر أنه يعترف على نفسه ذلك الاعتراف المخجل وهو أنه عجز عن مقاومة الاستبداد ، وأنه انضم إلى الشيوخ الذين حكموا على زملائهم ضحايا دومتيان . ثم عينه نيرڤا قنصلا (٩٧) ، وعينه تراچان والياً على آسية . وما من شك فى أنه كان خبيراً بشئون الإدارة ، وأنه كان ذا تجارب عملية . ولقـــد كانت كتبه ثمرة حياته السابقة ، ونتاج شيخوخته الخالية من الكد وعقله الناضج العميق .

وتسرى فى هذه الكتب كلها روح واحدة — هى كراهيته للأرستقراطية ؛ فتراه فى حواره عن الخطباء (إذا كان هذا كتابه بحق) يعزو اضمحلال البلاغة إلى ما أصيبت به الحرية من قمع ، كما تراه فى كتابه « الأجركولا » Agricola — وهو أكمل تلك الرسائل ذات الموضوع الواحـــد التى قصر الأقدمون عليها السير — يروى بفخر وخيلاء ما قام به حموه ، وهو قائد وحاكم ، من جلائل الأعمال ؛ ثم يقص فى حقد وضغينة كيف فصله دومتيان من عمله وأهمله . ويبين فى مقاله القصير عن مركز الألمان وأصلهم الفرق بين فضائل الشعب الحر المنبعثة عن الرجولة وبين انحلال الرومان وجبنهم فى عهد الطغاة المستبدين . وتاستس حين يثنى على الألمان لأنهم يرون قتل الأطفال جريمة تجلل مقترفها العار ، ولا يعلون من شأن العقم ، لا يمدح الألمان فى واقع الأمر بل يندد بالرومان . وهكذا نرى الهدف الفسلفى يفسد موضوعية

البحث ولكنه يدل على اتساع أفق الموظف الرومانى الذى يمتدح قدرة الألمان على مقاومة رومة(*) .

وكان نجاح هذه المقالات مما أغرى تاستس على أن يوضح مساوئ الاستبداد ببيان جرائم الطغاة المستبدين بتفصيل خال من الرحمة . وقد بدأ عمله هذا بإيراد الجرائم التى كانت لا تزال حاضرة فى ذاكرته ، والجرائم التى يشهد بها كبار السن من أصدقائه — وهى التى وقعت فى الفترة المحصورة بين عهد جلبا وموت دومتيان . ولما أن أقرت الأرستقراطية الشاكرة هذه التواريخ ووصفتها بأنها خير ما كتب فى التاريخ من بعد ليفى Livy واصل قصته بأن وصف فى الحوليات Annales حكم تيبريوس ، وكلجيولا ، وكلوديوس ، ونيرون . وقد بقيت لنا من الأربعين (أو الثلاثين فى قول بعضهم) « كتاباً » من كتب التواريخ أربعة كتب ونصف كتاب ، وكلها مقصورة على أحداث السنتين ٦٩ ، ٧٠ ؛ وأما الحوليات فقد بقى منها اثنا عشر كتاباً ، وكانت عدتها فى الأصل ستة عشر أو ثمانية عشر . وهذه الكتب حتى فى هذه الصورة المبتورة تعد أقوى ما كتب فى النثر الرومانى ؛ وفى وسعنا أن نرسم منها صورة غير واضحة لعظمة الكتابين كليهما وأثرهما فى النفس . وكان تاستس يأمل أن يؤرخ أيضاً حكم أغسطس ، ونيرفا ، وتراجان ، وأن يخفف من كآبة ما نشر من مؤلفاته بتخليد ذكرى سياسة هؤلاء الأباطرة الإنشائية . ولكن الأجل لم يمهله ، وحكم عليه الخلف ، كما حكم هو على الماضى ، بأن نظر إليه من الناحية القاتمة دون غيرها

ويرى تاستس أن « أهم ما يجب على المؤلف هو أن يحكم على أعمال الناس حتى ينال الطيب من هذه الأعمال ثواب الفضيلة ، وحتى يكون ما توجهه محكمة الخلف إلى أعمال السوء من ذم وتقريع حائلا بين المواطنين وبين سيئ

---

(١) وأكبر الظن أنه كتب فى عام ٩٨ قبل حملة تراجان على الداشيين .

الأعمال »[٦] .. ألا ما أعجب هذا الرأى الذى يجعل التاريخ يوم حساب ، ويجعل المؤرخ إلها يحاسب الناس على أعمالهم . وإذا ما فهم التاريخ هذا الفهم استحال إلى مواعظ — أعنى درساً فى الأخلاق وسيلتها ضرب أشد الأمثال رهبة — وأصبح كما يفترض تاستس خاضعاً لعلم البيان . إن من السهل على من يغضب أن يكون فصيحاً بليغاً ، ولكن ليس عليه أن يكون عادلا نزيهاً ؛ ولهذا وجب ألا يقدم العالم الأخلاقى على كتابة التاريخ . ولقد كان تاستس قريب العهد بالمستبدين يحتفظ فى ذاكرته بصورتهم ، وهذا فى حد ذاته يحول بينه وبين نظره إليهم فى هدوء . ومن أجل هذا لم ير من أعمال أغسطس إلا قضاءه على الحرية ، وظن أن كل ما كان للرومان من عبقرية قد قضى عليه يوم أكتيوم[٧] . ويبدو أنه لم يخطر بباله أن يخفف من حدة التهم التى يوجهها إلى الأباطرة ، بذكر براعتهم الإدارية ، ورخاء الولايات فى عهد أولئك الطغاة الجبابرة . وما من أحد يقرأ تواريخه ثم يخطر بباله أن رومة كانت إمبراطورية كما كانت مدينة . وليس ببعيد أن « الكتب » التى ضاعت ، كانت تلقى نظرة على الولايات وعالمها ، أما الكتب الباقية فهى تجعل تاستس مرشداً مقرراً ، لا يكذب قط ولكنه لا يسجل الحقيقة مطلقاً (*) . وكثيراً ما يقتبس من المصادر التى يرجع إليها ، سواء كانت هذه المصادر كتب تاريخ أو خطباً ، أو رسائل ، أو أوامر يومية ، أو قرارات مجلس الشيوخ ، أو أخبار الأسر القديمة ، وتراه أحياناً يبحثها بحث الناقد الخبير . غير أنه لم يسمع فى معظم الأحوال إلا قصص النبلاء المضطهدين ، وهو لا يتصور قط أن حوادث إعدام الشيوخ واغتيال الأباطرة لم تكن إلا أحداثاً عارضة فى صراع طويل بين الملوك الفاسدين ، القساة ، الكفاة القادرين ، وبين

(*) يذكرنا هذا بقول مكولى « إن بعض المؤرخين يحدثون كل ما للكذب الشنيع من أثر وإن كانوا لا يذكرون غير الحقائق » . (المترجم)

أرستقراطية منحلة ، فاسدة ، قاسية ، عاجزة . وهو يفتتن بالشخصيات والحوادث البارزة ، أكثر من افتتانه بالقوى العاملة ، والعلل ، والأفكار ، والتطورات ؛ ويرسم أنبه الشخصيات وأكثرها ظلما فى التاريخ ، ولكنه لا يدرك قط أثر العوامل الاقتصادية فى الحوادث السياسية ؛ ولا يهتم مطلقاً بحياة الناس وصناعتهم ، ولا بتيار التجارة ، أو أحوال الناس العلمية ، ولا بمنزلة المرأة ، ولا بتقلب العقائد الدينية ، ولا بروائع الأدب أو الفلسفة أو الفن . وفى كتب تاستس نرى سنكا ، ولوكان ، وپترونيوس يموتون ، ولكنهم لا يكتبون ، ونرى الأباطرة يقتلون الخلق ولكنهم لا يشيدون . ولعل هذا المؤرخ الكبير كان مقيداً برغبات قرائه وسامعيه ، وأكبر الظن أنه كان يقرأ أجزاء من كتبه — كما جرت به عادة ذلك الوقت — إلى أصدقائه الأشراف الذين يقول عنهم پلنى إنهم كانوا يحتشدون لاستقباله ؛ ولعله إذا سئل عن سبب إغفاله ما أغفل قال إن أولئك الرجال والنساء كانوا يعرفون الحياة الرومانية ، وأحوال الصناعة ، والأدب ، والفن ، وإنهم لذلك لم يكونوا فى حاجة إلى من يذكرهم بها ، وإن ما كانوا يحتاجون إلى سماعه مراراً وتكراراً هو قصة هؤلاء الأباطرة الأشرار المثيرة للشعور ، وما كان يقوم به الشيوخ الصابرون من أعمال البطولة ، وكفاح تبذله طبقتهم النبيلة ضد السلطة الغاشمة . وليس من حقنا أن نأخذ تاستس بما لم يقدم عليه ، وكل ما من حقنا أن نفعله أن نأسف لضيق هدفه السامى وللقيود التى فرضها على عقله الجبار .

وهو لا يدعى قط أنه فيلسوف ، ولذلك تراه يثنى على أم أجركولا حين تحاول أن تثنى عن الاشتغال بالفلسفة ولدها « الذى أصبح أشد تحمساً للفلسفة مما هو خليق بالرومانى عضو الشيوخ[٨] » . ولقد كان خياله وفنه — كما كان خيال شيكسبير وفنه — أنشط وأكثر إبداعاً من أن يسمحا له بأن يفكر وهو هادئ فى معنى الحياة وإمكانياتها . وهو يكثر من ذكر الفضائح التى يعوزها التثبت والتحقيق كما يكثر من ذكر الشروح والتعليقات التى توضح

الحوادث وتنيرها ، ولكننا يصعب علينا أن نجد فى كتبه فكرة منسقة ثابتة عن الله ، أو الإنسان ، أو الدولة . فهو غامض غموض الحذر حين يكتب عن العقائد الدينية ، ويوحى بأن من يقبل دين بلاده أعظم حكمة ممن يحاول أن يستبدل به العلم والمعرفة . وهو لا يصدق معظم المنجمين ، والعرافين ، ولا يؤمن بالفأل ولا بالطيرة ، ولا بالمعجزات ، وإن كان يصدق بعضها . ذلك أن ظرفه وكمال أدبه يحولان بينه وبين إنكار ما يؤكده الكثيرون من الناس . ويقول إن الحوادث تنزع بوجه عام إلى إثبات « أن الآلهة لا تهتم بالأخيار أكثر من اهتمامها بالأشرار »[١٠] ، ويؤمن بوجود قوة مجهولة ، وقد تكون قوة متقلبة الأطوار والميول ، تدفع الناس والدول إلى مصائرها دفعاً لا حول لها أمامه ولا طول[١١] . وهو يأمل أن يكون أجركولا قد انتقل إلى حياة سعيدة ، ولكن يتضح من أقواله أنه يشك فى هذا ؛ وهو يقنع بآخر ما تخادع به العقول الكبيرة نفسها — خلود الشهرة الطيبة[١٢] .

وهو لا يواسى نفسه بشىء من الآمال الطوبية ؛ وفى ذلك يقول : « إن الكثرة الغالبة من خطط الإصلاح يعتنقها الناس فى بداية الأمر بحماسة وغيرة ، ولكن سرعان ما تبلى جدتها ، وتنتهى مشروعاتها إلى لا شىء »[١٤] . وهو يعترف كارهاً بأن الأمور فى أيامه خير مما كانت قبل ، وإن كان هذا الخير قصير الأجل ، ولكنه يرى أن لا شىء ، حتى عبقرية تراجان نفسه ، ستمنع عودة التدهور والاضمحلال[١٥] ، وذلك لأن رومة قد استشرى فيها الفساد ، حتى سرى إلى قلوب الناس ، ففسدت نفوس الجماهير وبدلوا الحرية فوضى[١٦] ، وأصبحوا رعاعاً « مولعين بكل ما هو جديد ، تتوق نفوسهم إلى التغيير ؛ وهم على استعداد دائم لأن ينحازوا إلى جانب الأقوياء »[١٧] . وهو يرثى إلى ما ينطوى عليه العقل البشرى من خبث[١٨] ، ويهزأ كما يهزأ چوفنال بالعناصر الأجنبية من سكان رومة . وهو لا يفكر قط فى العودة إلى الجمهورية بعد أن سوأ سمعتها الإمبراطورية ، ولكنه يرجو أن يتمكن الأباطرة من التوفيق بين الزعامة

والحرية[١٩] . وهو يظن فى آخر الأمر أن الأخلاق أعظم أهمية من الحكومة ، وأن عظمة الشعب لا تقاس بما لديه من قوانين بل تقاس بما فيه من رجال .

وإذا كنا لا نجد مناصاً من أن نضع تاستس فى مصاف أعاظم المؤرخين ، رغم ما يثير دهشتنا من أننا نجد مواعظ ومسرحيات حيث كنا نبحث عن التاريخ ، فما ذلك إلا لأن قوة فنه تعوضه عن ضيق نظرته . فنظرته قوية ، وأحياناً عميقة ، وهى دائماً واضحة ، والصور التى يرسمها أكثر وضوحاً ؛ وهى حين تخطو على مسرح التاريخ أكثر حيوية من أية صور أخرى فى الأدب التاريخى . على أن هذه الصور نفسها لا تخلو من نقائص وعيوب . فتاستس يؤلف من عنده خطباً لشخصياته المختلفة ويؤلفها كلها بطريقته الخاصة وبنثره الفخم . فهو يصف جلباً بالبلاهة ثم ينطقه بما ينطق به الحكماء[٢٠] . وهو لا يرقى إلى ذلك الفن الصعب الذى يمكنه من أن يجعل شخصياته تنمو وتكمل على مر الأيام ؛ فتيبيريوس مثلا فى بداية حكمه هو بعينه تيبيريوس فى آخره ، وإذا كان يبدو إنساناً رحيما فى البداية ، فإن ذلك فى رأى تاستس نفاق وخداع .

وأهم ما يمتاز به تاستس هو روعة أسلوبه ، فلسنا نجد كاتباً غيره قد قال كل ما قاله بمثل إحكامه . ولسنا نقصد من هذا أن عبارته كانت موجزة فهو على عكس هذا مسهب كثير الاستطراد ، يشغل ٤٠٠ صفحة من تواريخه لتدوين حوادث عامين اثنين . وتراه أحياناً يفرط فى التركيز حتى يبلغ حد التكلف أو الغموض ، وحتى تتطلب كل كلمة ثانية جملة تترجم بها ؛ وكأن الأفعال وحروف العطف عنده ليست إلا عكازات للعقول الكليلة . وهـذا الأسلوب هو النتيجة التى أدى إليها أسلوب سالست Sallust الموجز السريع ، ونكات سنكا القصيرة المحكمة ، والجمل القصيرة المتزنة التى كانت تعلم فى مدارس البلاغة . وهو أسلوب ، إذا كتب به كتاب طويل ، ولم تتخلله فقرات أكثر من فقراته اعتدالا ، يثير عقل القارئ وينهكه ، ولكنه مع ذلك يعود إليـه ويزداد به

افتتانا . وهذا الجفاف العسكرى الذى يقتصد فى الألفاظ أكثر مما يقتصد فى الرجال ، وهذا الازدراء بدعامات الجمال ، وهذه المشاعر الثائرة ، وهذا الوضوح فى التصور ، وهذا السيل الجارف من المفردات الجديدة ، وهذه العبارات اللاذعة القاتلة التى لم تبل جدتها ، هذه كلها تضفى على كتابات تاستس سرعة ، ولونا ، وقوة ، لم يضارعه فيها كاتب آخر من الكتاب الأقدمين . نعم إن اللون قاتم ، والمزاج نكد ، والسخرية لاذعة ، والنغمة كلها نغمة دانتى مجردة من رقته وحنوه ؛ غير أن الأثر الذى ينتج من هذا كله قوى عارم . وإن العنصر القصصى الذى يجمع بين المهابة والإثارة ، والجزالة والعنف ، ليحملنا على الرغم من تحفظنا وتمنعنا فى هذا النهر العكر الأسود الملىء بالتشنيع الخالى من الرأفة . فترى شخصية فى أثر شخصية تظهر على مسرح الحوادث ، ثم يقضى عليها ؛ ومظهراً فى أثر مظهر يدفع أمامنا حتى يبدو لنا أن روما كلها قد دمرت ، وأن كل من اشتركوا فى الصراع قد هلكوا ، وحتى لا نكاد نصدق حين نخرج من هذا الجو الملىء بالرعب والهول ، أن هذا العهد الاستبدادى المفعم بالجبن والفساد الخلقى قد أعقبه مجد الملكية أيام هدريان والأنطونيين ، وتأدب أصدقاء پلنى الهادئ ؟

ولقد أخطأ تاستس فى ازدرائه الفلسفة — ونعنى بها هنا مراعاة التناسب فى كتابته . وإن عيوبه كلها لترجع إلى هذا النقص . ولو أنه استطاع أن يهذب قلمه ، ويسيطر عليه ، ويسخره لخدمة عقله الواسع ، لوضع اسمه فى مقدمة أسماء أولئك الرجال الذين بذلوا جهودهم ليخلدوا تراث البشرية ، ويصوروا هذا التراث فى صورة حية خالدة .

الفصل الثانى

چـــوڤنال

ومما يؤسف له أن چوڤنال يؤيد تاستس ويعزز أقواله . فالذى يكتبه ثانيهما عن الزعماء والشيوخ فى نثر حاد نافذ فى الصميم ، ينشده أولهما عن النساء والرجال فى شعر لاذع قارص :

كان دسيمس چونيوس چوڤنالس Decimus Junius Juvenalis ابن أحد المعتقين الأثرياء . وقد ولد فى أكوينم Aquinum من أعمال لاتيوم Latium فى عام ٥٩ . وجاء إلى رومة يطلب العلم ، وأخذ يمارس صناعة المحاماة « ليتسلى بها » . وتدل أشعاره الهجائية على ما ينتاب الأذواق الريفية من دهشة وصدمة إذا ما التقت بصخب حياة المدن المنحلة . ولكن يبدو مع هذا أنه كان صديقاً لمارتيال ، الذى تدل فكاهاته على أنه لم يكن من دعاة الأخلاق الفاضلة . وتقول إحدى الروايات غير الموثوق بصحتها إن چوڤنال ألف قبل موت دومتيان بزمن قليل قصيدة هجائية فيها للراقصات من أثر فى البلاط ووزعها على أصدقائه ، ويقال إن باريس الممثل الهزلى الصامت أغضبه هذا فسعى يعمل على نفيه إلى مصر . ولسنا نستطيع أن نجزم بصحة هذه القصة ، كما أننا لسنا واثقين من تاريخ عودة چوڤنال إلى رومة . ومهما يكن من أمر فإنه لم ينشر شيئاً حتى مات دومتيان . وقد ظهر المجلد الأول من قصائده الهجائية الست عشرة فى عام ١٠١ ، ثم ظهر الباقى منها فى أربعة مجلدات على فترات متقطعة فى أثناء حياته الطويلة ، وأكبر الظن أنها كانت ذكريات من عهد دومتيان الذى لم يعف الشاعر عما لحقه من أذى فيه ، ولكن الحقد وهو السبب فى وضوحها وقوتها وارتيابنا فى صدقها ليوحى بأن سنى « الأباطرة الصالحين » القليلة لم تمح المساوئ التى يندد بها . أو لعله

قد اختار الهجاء لأنه من الأساليب التي تميز الرومان من غيرهم من الشعوب . وأنه وجد أمثلة يحتذيها ، ومادة يقتبسها فى كتابات لوسليوس ، وهوراس ، وپرسيوس ؛ وصاغ سخطه وغضبه على أساس المبادئ البيانية التي تعلمها فى المدرسة . والحق أنا لا نعرف مقدار التقدم الذى خلعه على الصورة التي فى ذهننا عن رومة الإمبراطورية ، وما كان يجده الكتاب والشعراء من لذة فى التشهير والسباب .

ويتخذ چوڤنال كل شيء موضوعا لشعره . وهو لا يجد قط مشقة فى أن يجد فى كل شيء ناحية تتحمل الذم ، ويظن « أننا قـد وصلنا إلى الدرجة القصوى فى الرذيلة ، وأن من يأتون بعدنا لن يستطيعوا أن يتفوقوا فيها علينا » وهو صادق فى هذا . ولقد كان أصل البلاء كله طلب الثروة بجميع الوسائل الطيب منها والخبيث . وهو يسخر من العامة الذين كانوا فى الأيام الخالية يحكمون الجيوش ويخلعون الملوك ، ولكنهم أضحوا الآن يُشترون بالخبز والألعاب[٢٣] . وتلك عبارات من مئات العبارات التي خلدها چوڤنال بقوته وحيويته . وهو يستنكر ذلك السيل المتدفق من الوجوه ، والثياب ، والأساليب ، والروائح ، والآلهة الشرقية ؛ ويحتج على نزعة اليهود القَبَلية ، وأقل من يحبه من الخلق هو « اليوناني القمئ الشره » وهو السلالة المنحطة لشعب كان من قبل عظيما ولكنه لم يكن قط شريفاً . وهو يظهر اشمئزازه من المخبرين ، أشباه رجيلس Regulus الذى يصفه پلنى ، والذين يثرون بنقل ما ينطق به الأفراد من عبارات « غير وطنية » ؛ ومن الذين يجرون وراء الوصايا فيحومون حول من لا أبناء لهم من الطاعنين فى السن ؛ ومن حكام الولايات الذين يعيشون طول حياتهم عيشة الترف بما يبتزونه من الأموال فى أثناء حكمهم ومن المحامين الناهبين الذين يطيلون القضايا كما يطيل العنكبوت نسيجه الذى يتبرزه من بطنه ؛ وأشد ما يعافه هو الإفراط فى الصلات الجنسية والشذوذ الجنسى : الخليع المتهتك الذى إذا تزوج وجد أن عهره قد جعـله ضعيفاً عاجزاً ؛ ومن الشبان المنافقين الذين لا نستطيع أن نميزهم من النساء لتشبههم بهن ،

فى أخلاقهم ، وتعطرهم وشهواتهم ؛ ومن النساء اللائى يعتقدن أن معنى التحرر أن يتشبهن فى كل شىء بالرجال حتى لا تستطيع تمييزهن منهم .

وقد خص الجنس اللطيف بقصيدته الهجائية السادسة وهى أشد قصائده صرامة . نرى فيها پستيومس Postumus يفكر فى الزواج ، فيحذره چوڤنال من التورط فى هذا العمل ؛ ثم يصور الشاعر نساء رومة ويصفهن بأنهن أنانيات ، سليطات ، مخرفات ، مسرفات ، كثيرات الشجار ، متعجرفات ، مغرورات ، محبات للنزاع ، زانيات لا يكدن يتزوجن حتى يطلقن ، ويستبدلن الكلاب المدللة بالأطفال »[٢٤] . ويخلص من هذا الوصف إلى أنه لا تكاد توجد فى رومة كلها امرأة خليقة بأن تكون زوجة . ويقول إن الزوجة الصالحة عصفور نادر ، أندر من الغراب الأبيض . ويدهشه أن پستيومس يفكر فى الزواج على حين أن هناك « حبالا كثيرة للشنق ، ونوافذ كثيرة عالية شاهقة يستطاع الوصول إليها ؛ وعلى حين أن جسر إيميليوس لا يبعد عنه إلا قليلا » . حذار أن تتزوج ، بل ابق عزبا ، واخرج من مستشفى المجانين الذى يحطم الأعصاب ، والذى يسمونه رومة ، وعش فى بلدة إيطالية هادئة ، تلتقى فيها برجال أشراف ، وتأمن فيها على نفسك من المجرمين والشعراء ، والمبانى المنهارة ، واليونان[٢٧] . واطرح المطامع وراء ظهرك ، فإن الهدف لا يستأهل ما يبذل فى الوصول إليه من جهود . ألا ما أطول الجهد ، وما أقصر ما يعقبه من صيت . عش عيشة بسيطة ، وازرع حديقتك ، ولا تطلب أكثر مما يسد رمقك ، ويطفئ ظمأك ويرد عنك البرد والحر[٢٨] . وعود نفسك الرأفة ، وأشفق على الأطفال ، وكن ذا عقل سليم فى جسم صحيح[٢٩] . والأبله وحده هو الذى يرجو طول الأجل .

وليس من العسير علينا أن نفهم هذا المزاج . ذلك أن مما يسر له الإنسان أن يفكر فى نقائص جيرانه وفى ضعة العالم وحقارته إذا قورن بأحلامنا . وإن مما يضاعف سرورنا ونحن نفكر هذا التفكير أن نرى هـــذه الآراء

مصوغة فى ألفاظ چوڤنال التى جمعها من ألسنة الغوغاء فى أزقة المدن وأشعاره السلسة السداسية الأوتاد ، وفكاهته الساخرة ، وأسلوبه البذىء . ولكن ليس من حقنا أن نأخذه بحرفية أقواله . لقد كان يكتب وهو غاضب ، لأنه لم يشق طريقه فى رومة بالسرعة التى كان يرجوها . وكان يحلو له أن يثأر لنفسه بأن يكيل الضربات قوية لكل من حوله مدفوعاً إلى ذلك بحقده الذى لم يدع فى يوم من الأيام أنه حقد عادل . لقد كان معياره الخلقى عالياً وسليما وإن كان قد لوثته أهواء المتحفظين وآراؤهم الخاطئة عن الماضى الطاهر الشريف . وفى وسعنا إذا استمسكنا بهذه المعايير ، واتبعناها فى غير رحمة واعتدال ، أن ندين أى جيل من الناس فى أى مكان . وقد أدرك سنكا قدم هذا اللهو فكتب يقول : « لقد كان أسلافنا يشكون ، ولا نزال نحن نشكو ، وسيظل أبناؤنا وأحفادنا يشكون ، من فساد الأخلاق ، ومن تمكن الشر من النفوس ، ومن تردى الناس فى مهاوى الخطايا كل يوم أكثر من الذى قبله ، ومن أن أحوال الناس تنتقل من سيئ إلى أسوأ منه[٣٠] . إن من وراء الفساد الخلقى الظاهر فى كل مجتمع دائرة من الحياة السليمة يتسع نطاقها اتساعاً مستمراً ويكفى ما فيها من خيوط التقاليد ، وأوامر الدين التى تحض على الخلق الصالح ، وما تفرضه الأسرة من واجبات اقتصادية ، وما تدفع إليه الغريزة من حب الأبناء والعناية بأمرهم ، وما للمرأة ورجال الشرطة من رقابة ، يكفى ما فيها من هذا كله لأن يجعلنا أمام الناس مؤدبين محتشمين عاقلين معتدلين . لقد كان چوڤنال أعظم الهجائين الرومان ، كما كان تاستس أعظم المؤرخين الرومان ، ولكننا نخطئ إذا أخذنا الصورة التى يرسمانها على أنها صورة صحيحة ، كما نخطئ إذا قبلنا من غير بحث وتمحيص المنظر الراقى الجذاب الجميل الذى يتراءى أمامنا ونحن نقرأ رسائل پلنى .

الفصل الثالث

سيد رومانى كامل

لما ولد فى كومو Como سمى پلينيوس كاسليوس سكندس Plinius Caecilius Secundus . وكان لأبيه ضيعة وقصر صغير ذو حديقة قرب البحيرة ، وكان يشغل منصباً كبيراً فى المدينة . وتيتم وهو صغير فتبناه وعلمه أولا ڤرچينيوس روفس Virginius Rufus والى ألمانيا العليا ، ثم عمه كيوس پلينيوس سكنـــدس Caius Plinius Secundus مؤلف كتاب التاريخ الطبيعى . وتبنى هذا العالم المجد ابن أخيه وأورثه ملكه ثم مات بعد ذلك بقليل . وتسمى الولد باسم متبنيه كما جرت به العادة فى تلك الأيام ، وأدى ذلك إلى ارتباك فى الأسماء ظل قائماً ألفى عام . وتلقى العلم فى رومة على كونتليان ، فنشأه على تذوق شيشرون ، وإليه يرجع بعض الفضل فى أسلوب پلنى الشيشرونى السلس . ولما بلغ الثامنة عشرة من عمره قيد فى جدول المحامين ، وفى التاسعة والثلاثين اختير لإلقاء خطاب ترحيب بتراچان . وفى السنة نفسها عين قنصلا ؛ وفى عام ١٠٣ عين عرافاً ؛ وفى عام ١٠٥ عين « حارساً على مجرى التيبر وضفتيه وعلى مجارى المدينة » . ولم يكن يأخذ أجراً أو هدايا على أعماله القضائية ، ولكنه كان واسع الثراء ، فى وسعه أن يكون كريماً عظيما . وكانت له أملاك فى إترووريا ، وبنفنتم ، وكومو ، ولورنتم ، وعرض ثلاثة ملايين سسترس ثمناً لملك آخر[٣١] .

وكان يفعل ما يفعله كثيرون من أشراف ذلك الوقت فيتسلى بالكتابة : كتب أولا مأساة يونانية ، ثم عدة قصائد ، كلها خفيفة الروح ، وبذيئة فى بعض الأحيان . ولما لامه بعضهم على هذا اعترف بخطئه ولكنه لم يرجع عنه ، وعرض مرة أخرى أن « يندفع فى تيار المرح ، والفكاهة ، واللهو ،

ويندمج فى روح أشد أنواع الأدب خلاعة وفجوراً » (٣٢) . ولما سمع الناس يثنون على رسائله ، ألف بعضها لينشر ، ونشرها فى فترات متقطعة بين عامى ٩٧ ، ١٠٩ . وإذ لم يكن ينشر هذه الرسائل للجمهور فحسب ، بل كان يقصد أيضاً أن تستمتع بها الأوساط التى يصفها فيها ، فقد تجنب وصف النواحى القاتمة من الحياة الرومانية ، وأغفل المسائل الفلسفية والسياسية الواسعة لأن فيها من الجد أكثر مما يتفق مع غرضه . وتنحصر قيمة هذه الرسائل فى صدقها وظرفها ، وفيما تضفيه على الخلق الرومانى وعلى أساليب الأشراف من أضواء وردية براقة .

ويكشف پلنى عن نفسه بنصف الصراحة التى يكشف بها عن نفسه منتانى وبكل ما فى كتابات منتانى من سلاسة التعبير . وهو يتصف بالغرور الذى يستطيع أى مؤلف أن يتحاشاه ، ولكن صراحته فى غروره هذا تجعله غروراً لا يكاد يسىء . انظر مثلا إلى قوله : « إنى لأعترف ألا شىء أقوى أثراً فىَّ من الرغبة فى أن يخلد اسمى » (٣٣) . وهو يقدر غيره كما يقدر نفسه ، ويقول إن « فى وسع الإنسان أن يثق بأن شخصاً ما يتصف بكثير من الفضائل إذا سمعه يعجب بفضائل غيره » (٣٤) . ومهما تكن عيوب پلنى فإن مما يستريح له الإنسان بعد دراسة چوڤنال وتاستس ، أن يستمع إلى مؤلف يثنى على بنى جنسه . ولقد كان كريماً فى أعماله كما كان كريماً فى أقواله ، لا يتردد قط فى أن يفعل المعروف ، ويقرض المال ، أو يقدم الهدايا ، ولا يضن بعمل الخيرات على اختلاف أنواعها ، سواء كانت شخصية كالبحث عن زوج لابنة أخ صديق ، أو زيادة ثروة المدينة التى ولد فيها . ولما وجد أن كونتليان عاجز عن أن يقدم لابنته بائنة تليق بمقام الرجل الذى ستتزوج به ، بعث إليها بخمسين ألف سسترس ، واعتذر فى الوقت نفسه عن حقارة الهدية(٣٥) . ووهب رفيقاً قديماً له فى الدراسة ثلثمائة ألف سسترس ، ليمكنه من أن ينضم إلى طبقة الفرسان ؛ ولما وجد أن ابنة صديق له حُمِّلت بعد موت أبيها بديون باهظة أداها كلها عنها ، وأقرض مبلغاً كبيراً إلى

فيلسوف نفاه دومتيان وتعرض بذلك لبعض الخطر . ووهب كومو هيكلا ، ومدرسة ثانوية ، ومعهداً للأطفال الفقراء ، وحماماً للبلدية ، وأحد عشر ألف سسترس لإنشاء مكتبة عامة .

وأكثر ما يسر له الإنسان من صفاته هو حبه لموطنه ، أو إن شئت فقل لمواطنه ، وهو لا يذم رومة ، ولكنه يكون أسعد حالا فى كومو أو لورنتم بالقرب من البحيرة أو البحر . وأهم ما كان يعمله هناك هو القراءة وعدم القيام بعمل ما . وهو يحب حدائقه ، وما وراءها من المناظر الجبلية ؛ ولم يكن عليه أن ينتظر روسو ليعلمه حب الطبيعة . وهو يتحدث بمنتهى الحنان عن زوجته الثالثة كلبرنيا Calpurnia فيصف طبعها الحلو ، وعقلها الصافى ، وابتهاجها بنجاحه ، وحبها لكتبه ، ويعتقد أنها قد قرأتها كلها وأنها تحفظ الكثير من صحائفها عن ظهر قلب . وقد لحنت قصائده وغنتها ، وكان لها فرقة خاصة من الرسل يأتونها بجميع ما يحدث من التطورات أثناء نظره فى قضية هامة . ولم تكن هى إلا واحدة من نساء كثيرات طيبات فى محيطه . فهو يحدثنا عما تتصف به فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها من تواضع ، وصبر ، وشجاعة . وكانت هذه الفتاة قد خطبت من وقت قصير ولكنها ما لبثت أن عرفت أنها مصابة بداء عضال لا تشفى منه ، فأخذت تنتظر منيتها وهى مبتهجة [(٣٦)] . ويحدثنا كذلك عن زوجة پمپيوس سترنينس Pompeius Saturninus التى كانت رسائلها لزوجها أناشيد حب ونماذج باللغة اللاتينية الظريفة [(٣٧)] ؛ وعن فانيا Fannia ابنة ثرازيا Thrasaea التى قاست آلام النفى دون أن تشكو أو تتململ لأنها دافعت عن زوجها هلفديوس ، والتى مرضت قريباً لها فى أثناء إصابته بمرض خطر ، فأصيبت بذلك المرض وقضى على حياتها ؛ ثم يقول فيها : « ألا ما أكمل فضائلها ، وطهرها ، واستقامتها ، وشجاعتها ! » [(٣٨)] .

وكان له مائة صديق ، بعضهم من العظماء ، وكلهم من خيار الناس ، وقد

انضم إلى تاستس فى محاكمة ماريوس پرسكس لخيانته وقسوته فى أثناء ولايته على أفريقية . وصحح كلا الخطيبين خطبة صاحبه ، وأثنى عليه أجمل الثناء . وأشاد تاستس ببلنى ورفعه إلى عنان السماء ، حين قال إن عالم الأدب اعترف بهما زعيمى الكتاب فى عصرهما(٣٩) . وكان يعرف مارتيال ، ولكنه يعرفه من بعيد معرفة الأرستقراط . واستصحب معه سوتنيوس إلى بيثينيا ، وساعده على التمتع بميزة من « له ثلاثة أبناء » دون أن يكون له ابن واحد . وكان محيطه يطن بهواة الأدب والموسيقى ، وبمن ينشدون الشعر ويلقون الخطب على الجماهير . وفى ذلك يقول العالم بواسييه Boissier : « لست أعرف أن الأدب كان يحبه الناس فى عصر من العصور بالقدر الذى كان يحبه به أهل ذلك العصر »(٤٠) . فقد كانوا يدرسون هومر وڤرجيل على ضفاف الدانوب ؛ وكانت البلاغة تزلزل نهرى الرين والتيمز . لقد كان النصف الأعلى من ذلك المجتمع ظريفاً ، أنيساً ، محبوباً ، غنياً بما فيه من أزواج متحابين ، وآباء عاطفين ، وسادة رحماء ، وأصدقاء أوفياء ، ومجاملات لطيفة . وقد جاء فى إحدى الرسائل : « إنى أقبل دعوتك للعشاء ، ولكنى أشترط عليك مقدماً أن تأذن لى بالخروج بعد قليل ، وأن تكون مقتصداً فيما تقدمه إلى ، وألا تجعل مائدتنا تزدحم إلا بالأحاديث الفلسفية ، وحتى هذه دعنا نستمتع بها فى نطاق محدد »(٤٢) .

وكان أكثر الرجال الذين يصفهم بلنى من الأشراف الجدد الذين نشأوا فى الولايات . ولم يكن هؤلاء ممن لا يقومون بعمل ، لأنك لا تكاد تجد واحداً منهم لا يشغل منصباً عاماً أو لا يشترك فى الإدارة البارعة التى كانت تدير شئون الإمبراطورية فى عهد تراجان . وقد عُين بلنى نفسه والياً على بيثينيا بعد أن كان پريتوراً فى رومة ليعيد إلى بعض مدنها مقدرتها على أداء ديونها . وتشمل رسائله بعض الأسئلة الموجهة إلى الزعيم ، ومعها إجابات

تراچان السديدة . وهى تظهر پلنى بمظهر الرجل الذى ينجز مهمته بمقدرة وأمانة ، وشرف ، وإن كانت تظهره أيضاً بمظهر الرجل الذى يعتمد على نصيحة الإمبراطور فى كل صغيرة وكبيرة . وهو يرجو الإمبراطور فى رسالته الأخيرة أن يغفر له إرساله زوجته المريضة فى عربات البريد الإمبراطورى . ويختفى پلنى بعد هذه الرسالة من ميدان الأدب والتاريخ ، تاركاً وراءه ما يعوضنا عن فقده — صورة الرومانى السميذع ، وصورة لإيطاليا فى أسعد أيامها .

الفصل الرابع

اضمحلال الثقافة

لو أننا أحطنا هذه الشخصيات البارزة بأضواء أقل من أضوائها لطمسناها وأخفيناها عن أعين الناظرين . ذلك بأنه لم يخلفها فى الآداب اللاتينية الوثنية جبابرة أمثالها ، لأن العقل قد بذل كل ما كان يدخره من جهد من عهد إنيوس إلى عهد تاستس حتى لم يبق لديه جهد مدخر ؛ ولهذا فإنا نصدم أكبر صــــدمة حين ننتقل من عظمة كتابى **التواريخ والحوليات** إلى كتاب سوتنيوس المزرى المسمى **حياة الرجال النابهين** (١١٠) : فى هذا الكتاب ينحط التاريخ حتى يصبح مجرد سير ، وتنحط السير حتى تصير قصصاً . وتمتلئ صفحات الكتاب بالنذر ، والمعجزات ، والخرافات . ولم يرفع الكتاب إلى منزلة الكتب الأدبية إلا الأسلوب الإليصاباتى الذى ترجمه به فليمون هلند Philemon Holland (١٦٠٦) ؛ وأقل من هذا إثارة للاشمئزاز الانحدار من رسائل پلنى إلى رسائل فرنتو . ولعل هذه الرسائل الأخيرة لم يكن يقصد نشرها ، وليس من العدل لهذا السبب أن نفاضل بينها وبين رسائل پلنى . لكننا يجدر بنا أن نقول إن بعضها قد أفسده جرى الكاتب وراء العبارات العتيقة ، وإن كان فى الكثير منها شىء من العطف الحقيقى الذى يشعر به المعلم نحو تلميذه . وقد أيد أولس جليوس Aulus Gellius حركة الرجوع إلى العبارات العتيقة فى كتابه **الليالى الأتكية** (١٦٩) — وهو أكبر مجموعة من السخافات الحقيرة التافهة فى الأدب القديم ؛ ووصل أپوليوس Apuleius بهذه الحركة إلى غايتها فى كتابه المسمى **الحمار الذهبى** . وقد جاء أپوليوس وفرنتو من أفريقية وربما كان من أسباب نشأة

هذه الهواية أن الأدب اللاتيني فى تلك البلاد لم يكن قد اختلف عن لغة الشعب والجمهورية بقدر اختلافه عن هذه اللغة فى رومة . وكان فرنتو قوى الاعتقاد بأن من الواجب أن يقوى الأدب بلغة الشعب ، كما يجدد الإنسان قوة النبات بتقليب الأرض عند جذوره . لكن الشباب لا يعود قط إلى حياة الرجل ، أو الأمة ، أو الأدب أو اللغة(*) . لقد كانت النزعة الشرقية قد بدأت تدب فى هذه الكتب ، ولم يكن من المستطاع وقف سيرها . وكانت اللغة اليونانية العامية المنتشرة فى الشرق الهلنستى وروما المستشرقة تصبح شيئاً فشيئاً لغة الأدب ، ولغة الحياة جميعاً . وقد اختارها تلميذ فرنتو ليكتب بها **تأملاته** ، وكما اختار أبيان Appian ، وهو يونانى إسكندرى اتخذ رومة موطناً له ، اللغة اليونانية ليكتب بها كتابه الواضح الساطع فى **تواريخ** حروب رومة (حوالى ١٦٠) ؛ وكذلك فعل كلوديوس إيليان Claudius Aelian . وهو رجل رومانى المولد والدم ، وكتب ديوكاسيوس ، وهو رجل رومانى من أعضاء مجلس الشيوخ ، بعد نصف قرن من ذلك الوقت ، تاريخاً لرومة باللغة اليونانية . ذلك أن زعامة الأدب قد أخذت وقتئذ تعود من رومة إلى الشرق اليونانى ، على أن هذه العودة لم تكن عودة إلى الروح اليونانية الأصيلة ، بل إلى الروح الشرقية ، وإن كانت تستخدم اللغة اليونانية . لقد وجد فى الأدب اليونانى بعد هذا الوقت جبابرة ، ولكنهم كانوا قديسين مسيحيين .

وكان اضمحلال الفن الرومانى أبطأ من اضمحلال الآداب اليونانية . ذلك أن الكفاية الفنية قد طال عهدها وأخرجت طائفة قديرة من المبانى ، والتماثيل ، والصور ، والفسيفساء . ومن أمثلة تحف ذلك العصر رأس نيرڤا المحفوظ فى

(*) لا شك أن قياس حياة الأمة ، والأدب ، واللغة بحياة الفرد قياس مع الفارق ، وأن القول بأن شبابها إذا ولى لا يعود قط لا يستند إلى أساس علمى صحيح ؛ فكثيراً ما رأينا شباب الأمم والآداب واللغات يتجدد ويعود أقوى مما كان . (المترجم)

الفاتيكان ، والذى يتمثل فيه الطابع الواقعى الواضح الذى نشاهده فى الصور الفلاڤية ؛ وعمود تراچان مثـــل من النقوش الرائعة رغم كثرة ما فيه من فجاجة . ولقد بذل هدريان جهوداً مضنية لإحياء الفن اليونانى القديم ، ولكنه لم يجد من يغدق عليه ماله وعونه كما أغدق پركليز المال والعون على فدياس . يضاف إلى هذا أن الإلهام الذى كان يحرك بلاد اليونان بعد مرثون ، ويحرك رومة بعد أكتيوم ، كان معدوماً فى عصر يكبل فيه الناس أنفسهم بالقيود ، ويصطنعون القناعة ويجنحون للسلم . من أجل هذا نرى تماثيل هدريان النصفية تعوزها الصفات المميزة لشخصيته لما فيها من خطوط هلنستية ملساء ؛ ورأسا پلوتينا وسابينا جميلان ، ولكن النفس تشمئز من صور أنتينووس لما فيها من تفاهة مخنثة ناعمة . وأكبر الظن أن هدريان قد أخطأ إذ حاول العودة إلى الفن اليونانى القديم : فقــد قضى بهذه المحاولة على ما كان يمتاز به فن النحت الفلاڤى والتراچانى من نزعة طبيعية وفردية دافعة قوية ، كانت لها جذور متأصلة فى التقاليد والأخلاق الإيطالية ، وما من شك فى أن شيئاً ما لا يستطيع أن يتضح إلا عن طريق تحقيق طبيعته الخاصة به .

وقفز فن النحت اليونانى إلى قرب ذروته فى عهد الأنطونيين ، بل إنه وصل فى هذا العهد إلى درجة الكمال مرة واحدة على الأقل ، وذلك فى صورة فتاة مثل فيها رأسها المقنع وثيابها المتواضعة تمثيلا رقيقا ساحراً ، وبخطوط غاية فى القوة[٤٣] . وتكاد تضارعها فى الجمال صورة فوستينا لماركس ، وهى التى تثير من الشهوة ما يتفق مع لمزات التاريخ . وقد نحتت لأورليوس نفسه أو صبت له تماثيل لا تقل أشكالها عن ألف شكل تختلف من تمثال الكپتول النصفى الذى يمثله شابا مفكراً سليما من المكر والخداع ولكنه

شديد الحاسية ، إلى تمثاله فى هذه المجموعة نفسها والذى يمثله فى صورة استاذ ذى شعر ملتو ودروع سابغة . وليس ثمة سائح يجهـل تمثال الامبراطور أورليوس الفارس ذلك التمثال البرنزى الفخم الذى يشرف ، من يوم أن أعاده ميكل أنجلو ، على ساحة الكپتول .

وبقى النقش البارز إلى آخر العهود فنا رومانيا محبوبا . وعادت فى أيام هدريان العادة التسكانية والهلنستية ، عادة حفر المناظر الأسطورية والتاريخية على التوابيت حين اتخـذ الأمل فى الخلود صورة شخصية بل صورة جسمية ، وحل دفن جثث الموتى محل إحراقها . وتظهر إحدى عشرة لوحة باقية من أقواس النصر التى أقيمت لتخليد ذكرى حروب أورليوس(*) الطراز الطبيعى فى أكمل أشكاله : فليس فى هذه اللوحات صورة واحدة لشخص قد رسم على أنه مثل أعلى للأشخاص ، بل إن لكل فرد فيها خصائصه الفردية التى يمتاز بها من غيره ، فصورة ماركس وهو يستقبل فى غير فخر أو كبرياء خضوع أعدائه المغلوبين صورة يستثير صاحبها الحب ، والمغلوبون لا يظهرون كأنهم برابرة همج بل يبدون فى صورة رجال خليقين بكفاحهم الطويل فى سبيل حريتهم . وقد أقام مجلس الشيوخ والشعب فى عام ١٧٤ عمود أورليوس الذى لا يزال يزين الساحة التى أقيم فيها ، وقد استلهم من أقاموه فكرته من عمود تراچان ، فصوروا فيـه الحروب المركمانية وأظهروا فى فنهم هذا من العطف ما يشرف الغالبين والمغلوبين على السواء .

وكانت روح الإمبراطور هى التى ساعدت على تشكيل فن هذا الوقت وأخلاقه . ذلك أن الألعاب فى أيامه كانت أقل قسوة ، وأن القوانين كانت أكثر رعاية للضعفاء ، وكان الزواج فيما يبدو أدوم وأرضى للزوجين . نعم إن الفساد الخلقى قد بقى كما كان فى كل العهود ، تجهر به القلة ، وتخفيه الكثرة ولكنه كان قد جاوز غايته فى عهد نيرون ، ولم يعـد هو طراز الوقت

(*) وتزين ثمان منها قوس قسطنطين ، وتوجد ثلاث فى متحف الكنسر فتورى .

المحبب ، وأخذ الرجال والنساء يعودون إلى الدين القديم ، أو يهبون أنفسهم لأديان جديدة ، ووافقهم الفلاسفه على هذا وذاك . وغصت رومة وقتئذ بأولئك الفلاسفة ، فمنهم من دعاهم أورليوس ، ومنهم من رحب بمجيئهم ، ومنهم من سمح لهم بالإقامة . وقد أفادوا كل الإفادة من كرمه وسلطانه ، فازدحم بهم بلاطه ، ونالوا منه المناصب والهبات ، وألقوا ما لا يحصى من المحاضرات ، وافتتحوا كثيراً من المدارس ، ووهبوا العالم فى شخص تلميذهم الإمبراطور مجد الفلسفة القديمة وانحلالها .

الفصل الخامس

الإمبراطور الفيلسوف

جلس ماركس أووليوس فى خيمته قبل موته بست سنين ليصوغ أفكاره عن الحياة البشرية ومصيرها . ولسنا واثقين من أن كتابه المسمى « إلى نفسه » كان يقصد به أن تطلع عليه أعين الجماهير ، ولكننا نرجح أن هذا كان قصده لأن الناس جميعاً ، حتى القديسين ، لا يسلمون من الغرور ، ولأن أعظم رجل عامل مجد تمر به لحظات من الضعف يتمنى فيها أن يكتب كتاباً . ولم يكن ماركس اموءلفاً قديراً ، وقد أضاع معظم ما علمه إياه فرنتو من اللغة اللاتينية لأنه أخذ يكتب باللغة اليونانية . هذا إلى أن تلك « الأفكار الذهبية » قد كتبت فى الفترات التى تتخلل أسفاره ، وحروبه ، وما كان يقع فى البلاد من فتن واضطرابات كثيرة . وليس لنا أن نلومه لأنه جعلها متقطعة غير منسجمة ، ولأنه يعمد فيها إلى التكرار الكثير ، ولأنها فى بعض الأحيان مسئمة مملة ، ولأن قيمة الكتاب لا تعتمد إلا على محتوياته — على رقته وصراحته ، وعلى ما يكشفه دون وعى كامل منه عن نفسية تجمع بين الوثنية والمسيحية ، وبين العصر القديم والعصر الوسيط .

وكان أورليوس يرى كما ترى كثرة فلاسفة زمانه ان الفلسفة ليست وصفاً نظرياً للانهاية ، بل هى مدرسة لتعليم الفضيلة وطريقة للحياة . وقلما كان يشغل باله بالبحث فى حقيقة الله ، وتراه يتحدث أحياناً كما يتحدث اللا أدريون ، فيعترف أنه لا يعرف ، ولكنه بعد أن يقر على نفسه هذا الإقرار يقبل دين آبائه وأجداده بتقوى الرجل الساذج ، ويسأل نفسه قائلا : «وماذا يعود على من حياتى فى عالم خال من الآلهة ومن قوة تصرف شئونه ؟ »(٤٤) وكان إذا

تحدث عن الله تحدث عنه تارة بصيغة المفرد وتارة بصيغة الجمع ، وفى حديثه كل ما فى سفر التكوين من عدم مبالاة . وهو يصلى ويقرب القرابين للآلهة القدامى ، ولكنه فى خبيئة نفسه يؤمن بألوهية الكون ، ويتأثر أشد التأثر بنظام العالم وكلمة الله فيه ، وهو يحس كما يحس الهنود باعتماد العالم والإنسان كل منهما على الآخر . ويثير عجبه نمو الطفل من بذرة صغيرة ، لا تلبث أن تتشكل فتكون لها أعضاء ، وقوة ، وعقل ، وأمانى ، وكل ذلك بقليل من الطعام[٤٥] . ويعتقد أننا لو استطعنا أن نفهم الكون على حقيقته لوجدنا فيه كل ما الإنسان من نظام وقوة خالقة مبدعة ويقول : « إن الأشياء جميعها متشابكة بعضها ببعض ، والرابطة التى بينها رابطة مقدسة . . . وفى الأشياء العاقلة كلها عقل مشترك ، وثمة إله واحد يسرى فى كل شىء ، ومادة واحدة ، وقانون واحد ، وحقيقة واحدة . . . وهل يمكن أن يكون فيك أنت نظام واضح ، وفى الكون كله اضطراب واختلال؟ »[٤٦] .

وهو يعترف بما يجده الإنسان من صعوبة فى التوفيق بين الشر والألم والشقاء الذى يبدو أن الإنسان لا يستحقه ، وبين وجود قوة مدبرة خيرة ، ولكنه يعقب على هذا بقوله إننا لا نستطيع أن نحكم على موضع عنصر أو حادثة فى نظام الأشياء إلا إذا رأينا هذه الأشياء كلها ، ومنذا الذى يدعى أنه أوتى القدرة على أن ينظر إلى الأشياء هذه النظرة الجامعة ويدرك علاقتها بعضها ببعض ؟ ولهذا كان من السخف والوقاحة أن نحكم على العالم ؛ وإنما تكون الحكمة فى الاعتراف بعجزنا وفى العمل على أن نكون أجزاء متناسقة مع النظام العام للكون ، وأن نحاول أن نستشف ما وراء جسم العالم من عقل ، وأن نتعاون معه راضين مختارين . ومتى أدرك الإنسان هذه الفكرة أدرك أن « العدل فى كل ما يحدث » أى أنه يحدث وفقاً لمنهج الطبيعة[٤٧] ، ولا يمكن أن يكون شىء يحدث وفقاً لمنهج الطبيعة شراً[٤٨] . وكل شىء طبيعى جميل فى نظر من يفهم[٤٩] ؛ وكل شىء يقرره العقل العالمى العام أى المنطق الكامن فى جميع الأشياء ، وعلى كل جزء أن يرحب ،

فى رضاء وابتهاج ، بنصيبه المتواضع وبمصيره . « والاتزان » (وهو الذى أوصى به أنطونينس ساعة وفاته) هو أن يقبل الإنسان طائعاً مختاراً كل ما تحدده طبيعة المجموع كله »[٥٠] .

« كل ما يوائمنى يوائمك أيها الكون ، وليس شىء يحدث فى الوقت الذى يناسبك يحدث لى مبكراً عن موعده أو متأخراً عنه . وكل شىء تأتى به فصولك أيتها الطبيعة ثمرة ناضجة لى ، كل الأشياء تصدر منك ، وكل الأشياء مستقرة فيك ، وكل الأشياء عائدة إليك[٥١] .

وكل ما للمعرفة من قيمة أنها أداة للحياة الصالحة . « وما الذى يرشد الإنسان ويهديه إذن ؟ لا شىء إلا الفلسفة »[٥٢] — على ألا تكون منطقاً أو علما ، بل تدريباً على السمو الخلقى دائما متصلا « كن مستقيما وإلا فلتقوم »[٥٣] . ولقد وهب الله الإنسان ديمونا أو روحا داخلية — هى عقله . والفضيلة هى حياة العقل .

« تلك هى مبادئ النفس العاقلة ، وهى تسرى فى الكون كله ، وتشرف على شكله ، وتمتد إلى الأبدية ، وتحتضن التجدد الدورى لجميع الأشياء ، وتدرك أن من سيخلفوننا لن يروا شيئاً جديداً ، وأن من سبقونا لم يروا أكثر مما رأينا ، بل إن من فى الأربعين من عمره ، إذا كان لديه شىء من الإدراك ، قد رأى بطريقة ما ، وبفضل هذه الوحدة المتناسقة ، كل ما كان وما سيكون »[٥٤] .

ويرى ماركس أن مقدماته تضطره إلى أن يكون من المتزمتين فهو يقول : « ليست اللذة طيبة أو نافعة »[٥٥] . وهو ينبذ الجسم وكل أعماله ويتحدث أحيانا كما يتحدث ماركس أنطونيوس .

« ألا فانظروا إلى حقارة الأشياء وسرعة فنائها ؛ إن ما كان بالأمس قطعة صغيرة ، سيصبح غداً جثة أو رماداً ... ألا ما أقصر حياة الإنسان كلها ، وما أكثر ما يعانيه فيها من متاعب ... ؛ وما أكثر شقاء الجسم الذى يجتازها به ! ... قلبها ظهراً لبطن تر أية حياة هى[٥٦] . والعقل فى رأيه يجب أن يكون

حصناً محرراً من الشهوات الجسمية ، والانفعالات ، والغضب ، والحقد ؛ ويجب أن يكون منهمكاً فى عمله انهماكاً لا يكاد يلاحظ معه تقلبات الحظوظ أو سهام العداوات . « إن قيمة كل إنسان تعدل بالضبط قيمة ما يشغل به نفسه من الأشياء »(٥٧) . وهو يسلم كارهاً بأن هذا العالم أشراراً ، ويقول إن الطريقة التى يجب أن يتبعها الإنسان معهم هى أن يذكر أنهم هم أيضاً رجال ، وأنهم الضحايا العاجزون لأخطائهم التى ارتكبوها مدفوعين بجبرية الحوادث والظروف(٥٨) . « وإذا أساء إليك إنسان ، فالضرر واقع عليه ، ومن واجبك أن تعفو عنه »(٥٩) . وإذا أحزنك وجود الأشرار من الناس ، ففكر فى العدد الكثير من الأخيار الذين التقيت بهم ، وفيما يمتزج فى الأخلاق غير الكاملة من فضائل كثيرة(٦٠) . والناس كلهم إخوة ، أخياراً كانوا أو أشراراً ، وكلهم أبناء الله ينتسبون إليه ، والهمجى البشع نفسه مواطن فى الوطن العام الذى ننتمى كلنا له . « فأنا بوصفى أورليوس تكون رومة وطنى ، وبوصفى رجلا يكون وطنى هو العالم كله »(٦١) . ترى هل هذه فلسفة خيالية غير عملية ؟ كلا ، إن الأمر على عكس هذا تماماً ولا شىء أقوى وأشد منعة من الفطرة الطيبة ، إذا لازمها الإخلاص(٦٢) . إن الرجل الصالح حقاً لا تؤثر فيه مصائب الدهر ، ومهما يصبه من الشر لا يسلبه نفسه :

« هل هذا (الشر) الذى أصابك يمنعك أن تكون عادلا ، كريماً ، معتدلا ، حصيف الرأى . . . متواضعاً ، حراً ؟ . . . ولنفرض أن الناس قد لعنوك ، أو قتلوك ، أو مزقوك إرباً ! فماذا تستطيع هذه الأشياء أن تفعل لتمنع عقلك أن يبقى طاهراً ، حكيما ، متزناً ، عادلا ؟ وإذا وقف الإنسان بجوار نبع رائق صاف ولعنه ، فإن النبع لا يقف عن إرسال الماء النظيف وإذا دنسه أو رمى فيه الأقذار ، فسرعان ما يلقى بها إلى خارجها ولا يتدنس بها مرة أخرى . . . ولا تنس كلما أصابتك كارثة أن تطبق هذا المبدأ القائل : إن ذلك ليس شقاء حل بك ، بل إن الصبر عليه صبر الكرام هو

السعادة بعينها . . . ألا ما أقل الأشياء التى إذا حصل عليها الإنسان استطاع أن يحيا حياة هادئة مطمئنة تشبه حياة الأرباب »(٦٣) .

بيد أن حياة ماركس لم تكن تتصف بالهدوء ؛ فلقد اضطر أن يقتل الألمان وهو يكتب هذا « الإنجيل الخامس » ، وأن يلقى الموت آخر الأمر دون أن يجد عزاء فى الابن الذى سيخلفه ، وألا يكون له أمل فى أن يحظى بالسعادة بعد مماته ، لأن النفس والجسم على السواء ، على حد قوله ، يعودان إلى عناصرهما الأولى :

« فكما أن تبدل الأجسام وانحلالها ، يفسحان المكان لأجسام أخرى كتب عليها الموت ، فكذلك تتبدل الأرواح التى تنتقل إلى الهواء وتتبدد . . . وتتوزع فى عقل العالم الأصلى وتخلى مكانها إلى أرواح جديدة(٦٤) . . . لقد وجدت أنت بوصفك جزءاً من كل . . . وسوف تفنى فى ذلك الذى أخرجك . . . وهذا أيضاً هو ما تريده الطبيعة . . . فاجتز إذن هذه الفترة القصيرة من الزمن حتى تصل هادئاً إلى الطبيعة ، واختم رحلتك وأنت راض ، وليكن مثلك كمثل حبة الزيتون تسقط حين تنضج ، وتبارك الطبيعة التى أخرجتها ، وتثنى على الشجرة التى حملتها» (٦٥) .

الفصل السادس

كمـــودس

ولما أقبل ضابط الحرس يسأل ماركس وهو على فراش الموت عن كلمة السر لذلك اليوم أجابه بقوله : « اذهب إلى الشمس المشرقة ؛ أما شمسى فهى غاربة » . وكانت الشمس المشرقة وقتئذ فى التاسعة عشرة من العمر ، وكانت هى فتى متين البنية قوى الجسم ، جريئاً ، لا يصده شىء عما يريد ، وليس له وازع من خلق أو خوف . ولقد كان الإنسان يتوقع أن يرى فيه أكثر مما يرى فى ماركس ، القديس العليل ، وأن يراه أكثر مما يرى ماركس ينهج سياسة الحرب إلى النصر أو الموت . لكن الذى حدث أنه عرض من فوره الصلح على الأعداء . وكان ما عرضه من الشروط أن ينسحبوا من الأراضى المجاورة لنهر الدانوب ، وأن يسلموا معظم أسلحتهم ، ويعيدوا جميع الأسرى والفارين من الرومان ، وأن يؤدوا إلى رومة جزية سنوية من الحبوب ، وأن يُقنعوا ثلاثة عشر ألفاً من جنودهم بالتطوع فى الفيالق الرومانية(٦٦) . ولامته رومة كلها على فعلته هذه ما عدا الشعب . فأما قواده فقد استشاطوا غضباً لأنه سمح للفريسة الواقعة فى الشرك أن تفلت منه لتقاتلهم مرة أخرى . على أن قبائل أراضى الدانوب لم تسبب قط متاعب للإمبراطورية فى عهد كمودس .

والحق أن الزعيم الشاب ، وإن لم يكن جبانا خوار العود ، كان قد شهد كفايته من الحروب ، وكان فى حاجة إلى السلم ليستمتع بالحياة فى رومة . فلما عاد إلى عاصمة ملكه انتهر مجلس الشيوخ ، وأثقل العامة بالعطايا التى لم يعهدوا مثلها من قبل — فوهب كل مواطن ٧٢٥ دينارا . ولما لم يجد فى السياسة ميداناً يظهر فيه شدة بأسه عمد إلى صيد الوحوش فى الضياع الإمبراطورية ، وبرع

فى استعمال السيف والقوس براعة اعتزم معها أن يظهرها أمام الجماهير . فغادر القصر وعاش فى مدرسة المجالدين فترة من الزمان ، وأخذ يسوق المركبات فى مباريات السباق ، ويصارع الحيوانات والرجال فى المجتلد[٦٧] . ولا حاجة إلى القول بأن من كانوا يتبارون معه كانوا يحرصون على أن يكون هو الفائز ؛ ولكنه لم يكن يبالى أن يخرج بمفرده قبل الفطور ليقاتل فرس نهر ، أو فيلا ، أو نمراً لا يعبأ قط بالملوك[٦٨] . وقد بلغ من إتقانه الرماية أن استطاع فى استعراض واحد قتل مائة نمر بمائة سهم . فكان يترك النمر يهاجم مجرماً من المحكوم عليهم بالإعدام . ثم يرميه بسهم فيقتله ، ويترك الرجل سليماً يواجه الموت مرة أخرى[٦٩] . وقد أمر أن تسجل هذه الأعمال المجيدة فى صحيفة الحوادث اليومية ، وأصر على أن يؤدى إليه من خزانة الدولة أجر على كل صراع من الألف الصراع التى قام بها .

ولقد كان المؤرخون أمثال تاستس ، الذين لا بد لنا من الرجوع إليهم فى هذا الموضوع ، ينظرون إلى هذه الأعمال بعين الأشراف الحانقين ، ويحكمون عليها حسب تقاليدهم ؛ ولهذا فإنا لا نعرف كم من العجائب التى يروونها تاريخ صحيح ، وكم منها أملته الرغبة فى التشهير به والثأر منه . فهم يؤكدون لنا أن كمودس كان يسكر ويقامر ، ويبدد أموال الدولة ، وأن فى حريمه ثلثمائة امرأة وثلثمائة غلام ، وأنه يحلو له أن يكون امرأة فى بعض الأحيان ، أو فى القليل أن يلبس ثياب النساء حتى فى الألعاب العامة نفسها . وقد رووا لنا عنه قصصاً من القسوة لا يقبلها عقل . فيقولون مثلا إن كودس أمر أحد كهنة بلونا Bellona أن يبتر ذراعه ليبرهن بقطعها على تقواه ، وإنه أرغم بعض النساء اللائى نذرن أنفسهن لخدمة إيزيس أن يضربن صدورهن بثمار البلوط المخروطية حتى يمتن ، وإنه كان يقتل الرجال بلا تمييز بينهم بهراوة هرقل التى كان يمسكها بيده ، وإنه جمع المقعدين وقتلهم بسهامه وحداً بعد واحد . . .[٧٠] ويلوح أن إحدى عشيقاته كانت مسيحية وأنه عفا من أجلها عن بعض المسيحيين الذين حكم عليهم بالعمل فى مناجم سردينية

ويوحى إخلاص هذه السيدة لكمودس بأن هذا الرجل ، الذى كان أشد وحشية من الوحوش الضارية ، لم يكن مجرداً من عناصر طيبة غفل عن ذكرها التاريخ .

وكان خوفه من الاغتيال يدفعه ، كما كان يدفع أسلافه ، إلى أقسى ضروب الوحشية . من ذلك أن عمته لوسلا Lucilla ائتمرت به لقتله فلما كشف المؤامرة أمر بقتلها ، كما أمر بقتل عدد كبير جداً من ذوى المقامات العالية ، ثبت عليهم الاشتراك فى المؤامرة أو حامت حولهم شبهة الاشتراك فيها . وقد بلغ من عدد القتلى أنه لم يكد يبقى على قيد الحياة أحد من ذوى المكانة فى أيام ماركس . وعاد المخبرون إلى نشاطهم ومكانتهم بعد أن كادوا يختفون من رومة قرناً كاملا ، وساد المدينة عهد جديد من عهود الإرهاب . وعين كمودس پرنيس Perennis رئيساً للحرس البريتورى وأسلمه أزمة الحكم ثم استسلم هو (على حـد قول الرواة) إلى الفسق والفجور ، وحكم پرنيس البلاد حكما حازما ولكنه كان حكما صارما خالياً من الرحمة ؛ فنظم حكما للإرهاب قتل فيـه جميع معارضيه . وظن الإمبراطور أن پرنيس يعتزم اغتصاب العرش لنفسه ، فأسلم هذا السيچانس الثانى(*) إلى مجلس الشيوخ . وتورط المجلس نفسه فى طائفة من أعمال الانتقام المتأجج الخالى من الرحمة . وخلف پرنيس فى رياسة الحرس البريتورى معتوق يدعى كليندر Cleander[185] ، وبزه فى الفساد والقسوة ، فكان أى منصب من المناصب يناله من يؤدى نظيره رشوة طيبة ، وكان من المستطاع إلغاء أى حكم تصدره أية محكمة والحصول على حكم يناقضه ، وقد أعـدم بأمره الشيوخ والفرسان بعد أن اتهموا بالخيانة أو بانتقاد أعماله ، فلما ضاق الشعب به ذرعاً حاصر الغوغاء فى عام ١٩٠ القصر الذى كان يقيم فيه كمودس وطلبوا إعدام كليندر . وأجابهم الإمبراطور

(*) يشبهه المؤلف بلوسيوس إيلوس سيجانس رئيس الحرس الإمبراطورى عام ٣١ م ؟ . (المترجم)

إلى ما طلبوا ، وعين ليتس Laetus بدلا منه . وظل ليتس يصرف الأمور ثلاث سنين أيقن بعدها أن منيته قد دنت ، فقد وقع فى يده مصادفة ثبت بأسماء المحكوم بإعدامهم ، وكان يحوى أسماء أنصاره وأصدقائه ومارسيا Marcia . فلما كان آخر يوم من عام ١٩٢ قدمت مارسيا لكمودس كأساً من السم ، ولما أبطأ مفعول السم ، خنقه اللاعب الذى كان قد أبقاه فى الحمام ليثاقفه ، وكان وقتئذ شاباً فى الحادية والثلاثين من العمر .

ولنعد إلى الوراء قليلا فنقول إن رومة حين مات ماركس كانت قد بلغت أوج عظمتها وبدأت فى الاضمحلال . فقد امتدت حدودها إلى ما وراء نهر الدانوب ، ووصلت إلى إسكتلندة ، والصحراء الكبرى ، وجبال القوقاز ، وروسيا ، وأبواب پارثيا ، وكانت قد وهبت هـذا الخليط المضطرب من الشعوب والأديان وحدة ، إن لم تكن فى اللغة والثقافة ، فقد كانت فى القليل وحدة فى الاقتصاد والتشريع . وقد صاغت منها مجموعة عظيمة من الأمم المرتبطة برباط واحد ؛ وكان تبادل السلع يجرى فى داخلها حراً موفوراً بدرجة لم يكن لها نظير من قبل ؛ وظلت قرنين من الزمان تصد البرابرة عن هذه الدولة العظيمة وتهبها الأمن والسلام . وكان عالم الجنس الأبيض ينظر إليها على أنها مركز العالم كله ، وأنها المدينة الخالدة القادرة على كل شيء . ولم يشهد العالم فى عصر من العصور السابقة مثل ما شهده فيها من الثراء ، والعظمة والسلطان .

وفى وسط هذا الرخاء الذى كانت مظاهرة تتألق فى رومة خلال هـذا القرن الثانى كانت تنبت جميع بذور الأزمات التى قضت على إيطاليا فى القرن الثالث . وكانت لماركس اليـد الطولى فى خلق هذه الأزمات لأنه رشح كمودس للجلوس على العرش من بعده ، ولأن ما خاضه من الحروب زاد السلطة تركيزاً فى يدى الإمبراطور . فقد احتفظ كمودس فى زمن السلم بالسلطات التى وضعها أورليوس فى يده زمن الحرب . فذوى غصن الاستقلال الفردى والمحلى ، والابتكار والأنفة

بسبب نماء سلطان الدولة واتساع دائرة اختصاصها ، ونضبت موارد ثروة الأمم بما فرض عليها من الضرائب التى أخذت أعباؤها تزداد زيادة مستمرة على مر الأيام ، لكى تقام بها بيروقراطية تضاعف نفسها ، وبسبب حروب العدوان التى ما فتئت الدولة تثير عجاجها للدفاع عن نفسها . وأخذت ثروة إيطاليا المعدنية تتناقص(٧) ، وقضت الأوبئة والمجاعات على الكثيرين من أهلها ، وظهر عجز نظام الزراعة باستخدام الأرقاء ، وأقفرت خزانة الدولة من الأموال وانحطت قيمة العملة بسبب الزيادة المطردة فى نفقات الحكومات وفى إعانة العجزة والمساكين . وأخذت الصناعات الإيطالية تخسر أسواقها فى الولايات لمنافسة الولايات نفسها لهذه الصناعة ، ولم توضع قط سياسة اقتصادية حكيمة لتعوض البلاد عن التجارة الأجنبية الكاسدة بتوزيع قوة الشراء فى داخل البلاد على نطاق أوسع من ذى قبل . وبينا كان هذا يحدث فى إيطاليا نفسها كانت الولايات قد أخذت تفيق مما أصابها من جراء انتزاع ثروتها على أيدى صلا ، وبمپى ، وقيصر ، وكاسيوس ، وبروتس ، وأنطونيوس ؛ فعاد إليها حذقها القديم ، وازدهرت صناعاتها ، وأخذت ثروتها الجديدة تعين بالمال العلم والفلسفة والفن . وسد أبناؤها ما حدث فى الفيالق من فراغ ، وعقدت أولوية هذه الفيالق للقواد من أهلها ؛ وما لبثت جيوش الولايات أن وضعت إيطاليا تحت رحمتها وعينت قوادها أباطرة ، وانقضى عهد الفتوح وانقلبت الآية وأخذ المغلوبون من ذلك الحين يبتعلون الغالبين .

وكأنما أدرك عقل رومة هذه النذر والمشاكل ، فاستسلم فى أواخر أيام الأنطونيين إلى عهد من الكلل الثقافى والروحى . وكان حرمان الجمعيات الشعبية أولا ثم مجلس الشيوخ بعدئذ من سلطانها حرمانا يكاد أن يكون كاملا قد ذهب بالحافز الذهنى الذى ينبعث من النشاط السياسى الحر ، ومن الشعور الواسع الانتشار بالحرية والسلطان . وإذ كانت السلطة كلها تقريباً قد تركزت فى يد الزعيم فقد ألقى المواطنون عليه التبعة كلها تقريباً ، فانزوى عدد متزايد

منهم فى أسرهم ، وقصروا جهودهم على شئونهم الخاصة ؛ وأصبح المواطنون ذرات ، وأخذ المجتمع يتمزق من داخله إرباً فى الوقت الذى لاح فيه أن الوحدة على أتم ما تكون . وخاب رجاء الناس فى الملكية ، كما خاب رجاؤهم من قبل فى الدمقراطية ، وكثيراً ما كانت « أفكار » أورليوس « الذهبية » أفكاراً من الرصاص ، يزيدها ثقلا ظنه أن مشاكل رومة مستعصية على الحل ، وأن البرابرة الذين يتضاعف عددهم بلا انقطاع لن تستطيع سلالة عظيمة جانحة إلى السلم أن تصمد لهم زمناً طويلا . وأخذت الرواقية ، التى بدأت عهدها بالدعوة إلى القوة ، تدعو الآن إلى الاستسلام للمقادير ، وعقد الفلاسفة كلهم تقريباً الصلح مع الدين . وبعد أن ظلت الطبقات العليا أربعمائة عام تتخذ الرواقية بديلا من الدين ، أطرحت هذه الطبقات الآن ذلك البديل ، وأدارت الفئة الحاكمة ظهرها إلى الفلاسفة وولت وجهها شطر مذابح الآلهة . على أن الوثنية هى الأخرى كانت تلفظ آخر أنفاسها . فقد كانت كإيطاليا تنتعش بفضل المعونة الحكومية ، فلما امتنعت عنها هذه المعونة أوشكت قواها أن تخور ؛ لقد غلبت هى الفلسفة ، ولكن أرباضها أخذت قبل ذلك العهد تستمع فى خشوع إلى أسماء الآلهة الغازية . وكان هذا العصر عصر البعث للولايات والنصر المؤزر الذى يتجاوز حدود العقل للمسيحية .

المراجع مفصلة

الأرقام الرومانية الكبيرة تدل على رقم المجلد تتلوها أرقام الصفحات ، أما الأرقام الرومانية الصغرى فتدل على رقم الكتاب أو المقال فى الكتابُ القديم يتلوها رقم الباب أو الآية وأحيانا رقم الفقرة .

CHAPTER XI

1. Suetonius' "Augustns," 33.
2. Dio, liv, 17.
3. Ibid., lv, 4.
4. Suetonius, 40.
5. Gibbon, E., *Decline and Fall of the Roman Empire*, ed. Bury, I, 65.
6. Suetonius, 23 ; Dio, lxi, 17.
7. Plutarch. *Moralia*, 207 D.
8. Charlesworth, M., *Trade Routes and Commerce of the Roman Empire*, 8.
9. Suetonius, 41.
10. Ibid., 42.
12. Augustus, *Res gestea*, iii, 21.
13. Dio, lv, 25.
14. Suetonius, 58.
16. Pliny, xiv, 5.
18. Cf. Himes, N., *Medical History of Contraception*, 85f and 188.
19. Dio. liv, 19.
20. Tacitus, *Annals*, xv, 19.
21. Ibid., iii, 25.
22. Horace, *Odes*, iii, 24.
23. Davis, *Influence of Wealth*, 304.
24. Gellius, x, 2.2.
25. Ibid.
26. Dio, lv, I.
27. Ovid, *Ars Amatoria*, 637.
28. Augustus, *Res gestae*, ii, 10.
29. Buchan, 286.
30. Suetonius, 76-83.
31. Ibid., 81 ; Dio, lii, 30.
32. Snetonius, 76.
33. Ibid., 84.
34. Ibid., 90-2.
35. Ferrero, IV, 175.
36. Plutarch, *Moralia*. 207C
37. Suetonius, 64.
38. Dio, lvii, 2.
39. Suetonius, 64.
40. Macrobius, *Saturnalia*, ii, 5, *ad finem* : "I never take on a passenger unless the vessel is alredy full."
41. Seneca, *Moral Essays*, III, vi. 32. 1.
42. Suetonius, 99.

CHAPTER XII

1. Macrobius, ii, 4.
2. Horace, *Epistles*, ii, 1. 117.
3. Jnvenal, *Satires*, i, 2 ; iii, 9.
4. Martial, *Epigrames*, i, 67, 118 ; Friedländer, III, 37.
4a. Lanciani, *Ancient Rome*, 183.
5. Ovid., *Tristia*, i, 1.105.
6. Tacitus *De oratorisbus*, 13.
8. Virgil. *Eclogues*, i, 46.
9. Ibid., i, ix.
10. Suetonius, *On Poets*, "Virgil,"9.
11. Vipgil, *Georgics*, iii, 284.
12. Ibid., i, 145.
13. II, 490.
14. In Duff, *Literary History of Rome*, 455.

15. *Georgics*, iii, 46.
16. *Aeneid*, vi, 860 f ; Suetonius, "Virgil," 31
17. *Aeneid*, ii, 293.
18. Ibid., iv, 331-61.
19. VI, 126'
20. VI, 852.
21. IV, 508.
22. Suetonius, 230.
23. Ibid., 43.
24. Voltaire *Philosophical Dictionary*. art. *Epic Poetry*.
25. Suetonius, *On Poets*, "Horaçe"
26. Horace, *odes*, iii, 2.
27. *Epodes*, ii, 241.
28. *Satires*, i, 1.
28a. *Epistles*, i, 16 ; Rostovizeff, *Social and Ecomomic of the Roman Empire Empire*, 61.
29. Horace, *Satires*, ii, 5.
30. Ibid., ii, 7.105.
31, Ibid., 23.
32. I, 1.69.
33. *Odes*, ii, 10.
34. *Satires*, i, 1.105.
35. Ibid., ii, 1.1,
36. *Odes*. iii, 29.12.
37. *Satires*, ii. 660.
39. *Odes*, iii, 16.29.
40. *Epodes*, ii, 1.
41. Petronius, *Satyricon*, 118.
42. *Odes*, ii, 11.
43. I, 9.
44. I, 28.
45. I, 35.
46. III, 30.
47. *Ars poetica*, 139.
48. Ibid, 343.
49. Ibid., 102.
50. *Epistles*, i, 6.1.
51. *Odes*, ii, 3.
52, Ibid., ii, 10.
53. *Satires*, ii, 7,83.
54. *Odes*, iii, 3.
55. *Epistles*, i, 4. 16 ; cf. i, 17
56. *Satires*. ii, 6.93.
57. *Epistles*, ii, 2.55.
58. *Odes*, ii, 14.
59. *Satires*, i, 1.117.
60. *Epistles*, ii 2.214.
61. *Odes*, ii, 17.
63. Taine, H., *Essai sur Tite Live*, 1.
64. Pliny, *Natural History*, dedication.
65. Taine, l.c., 10.
66. E.g., Livy, ii, 48.
67. E.g., cf. Livy, xiv, 12 with Polybius, xxxix 27 ; or Livy, xxiv, 34 with Polybius, viii, 5,
68. Pliny, *Letters*, ii, 3.
69. Tibullus, i, 1.
70. Ibid., i, 6.
71. I., 3, 10.
72. Propertius, ii, 57.
73. Ibid.. ii, 6.
74. I, 8.
75. Ovid, *Trisia*, iv, 10.
76. Ovid. *Ars amatoria*, 157.
77. Ibid., 99.
78. Ibid, 171.
79. *Amores*, ii, 4.
80. Ibid., i 1 ; ii, 18.
81. II, 1.
82. 1, 4.
83. II, 5.
84. II, 10.
85. III, 7 ; ii, 10.
86. *Ars amatoria*, 97.
90. *Remedia amoris*, 183.
91. Ibid., 194.
92. *Heroides*, iv.
93. *Tristia*, ii, 103.
94. *Ex Ponto*, iv, 641.

15. *Tristia*, i, 1:iii 8.

16. Ibid., iii, 3.15 ; *Ex Ponto*, I,447.

CHAPTER XIII

1. In Holmes, *Architect of the Roman Empire*, 108.
2. Suetonins, "Tiberius." 68.
3. Ibid., 69.
4. Tacitus, *Annals*, i, 11.
5. Suetonius, 23.
6. Dio, lvii, 18.
7. Ibid., 6; Suetonius, 30 ; Tacitus,
8. Suetonius, 27.
9. Tacitus, l.c.
10. Suetonius, 32.
11. Ferrero, G., *Women of the Casears*, 136.
12. Tacitns, ii, 50.
13. Ibid., iv, 57.
14. Dio, lvii, 11.
15. Ferrero, *Women*, 140.
16. Tacitus, iv, 57; Suetonius, 42-4.
17. CAH X. 638.
18. Tacitus, iv, 58.
19. Suetonius, 60.
20. Tacitus, iv, 70.
21. Ibid., vi, 50.
22. Mommsen, T., *Provinces of the Roman Empire*, II, 187.
23. Josephus, *Antiquities*, xix, 1.15.
24. Suetonius, "Gaius," 50-1.
25. Ibid.
26. Dio, lix, 5.
27. Suetonius, "Gaius," 29, 32.
28. Dio, lix, 26.
29. Suetonius, 24.
30. Ibid.
31. Sencecs *Ad Helviam*, x. 4.
32. Suetonius, 40.
33. Ibid., 38.
34. Ibid., 30.
35. Dio. lix, 3.
36. Suetonius, 27.
37. For a defense of Caligula of. Balsdon, *The Emperor Gausi* 33 etc.
39. Dio, lix, 28.
40. Balsdon, 161.
41. Ibid., 168.
42. Dio, lix, 29.
43. Suetonius, "Claudius," 29.
44. Dio, lx, 10.
45. Suetonius, 21.
46. Senca, *Apoclocyntosis*, 3.
47. Tacitus, xii, 53.
48. Suetonius, 28.
49. Brittain, 244.
50. Suetonius, 37 ; Dio, lx, 14.
51. Suetonius, 50.
52. Dio, lx, 18.
53. Tacitus, xi, 18.
54. Ibid., 25.
55. Dio, lxi, 31.
56. Ferrero, *Women*, 226.
57. Buchan, 247.
58. Tacitus, xi, 25.
59. Pliny, *Nat, Hist.*, ix, 117.
60. Tacitus, xiii, 43.
61. Dio, lxi, 34.
62. Ibid., 2.
63. Suetonius, "Nero," 52.
64. Dio, lxi, 3.
65. Tacitus, xiii, 4.
66. Henderson, B., *Life and Principate of the Emperor Nero*, 75.
67. Tacitus, xv, 48.
68. Suetonius, 56.
69. Ibid., 27.
70. Tacitus. xvi, 18.
71. Dio, lxii, 15; 7 lxi, Suetonius, 26.
72. Dio, lxii, 14 ; Tactitus. xiv, 5. adds that some writers question the story.

73. Tacitus, xiv, 10.
74. Ibid., xiii, 3.
75. Suetonius, 20.
76. Ibid., 41 ; Dio, lxiii, 26.
77. Suetonius, 52.
78. Ibid., 11.
79. Tacitus, xiv, 60.
80. CAH, X, 722.
81. Tacitus, xv, 44.
82. Ibid., xiv, 6 ; Suetonius, 25.
83. Dio, lxii, 27; Suetonius, 27.
84. Tacitus xvi, 18.
85. Suetonius, 22.
86. Ibid.
87. Dio, lxiii, 23.
88. Suetouius, 43.
89. Ibid , 57.
90. Sutonius, "Galba," 23.
91. Tacitus, *Histories*, i, 49.
92. Suetonius, "Otho," 5.
93. Tacitus, *Hist.*, iii, 67.
94. Suetonius, " Vitellius," 17.
95. Suetonins, "Vespasian," 13.
96. Ibid., 16.
97. Dio, lxv, 14.
98. Suetonius, 18.
99. Ibid., 21.
100. Tacitus, *Hist*, ii, 2.
101. Suetonius. 23-4.
102. Snetonius, "Titus," 8.
103. Suetonius, "Domitian," 18.
104. Dio, lxvi, 26.
105. Suetonius, 22; Dio, lxvii, 6.
106. Frank, *Economic Survey*, V, 56.
107. Dio. lxvii, 14.
108. Suetonius, 10.

CHAPTER XIV

1. Lucan, *Pharsalia*, ii 67.
2. Ibid., i, 128.
3. Petronius, *Epigrams*, frag. 22 in Robertson, J. M., *Short History of freethought*, I, 211.
4. Petronius, "*Satyricon*, 11.
5. Ibid, 48.
6. 71.
7. 35, 40, 47.
8. 74.
9. Seneca in Boissier, G., *La réligion romaine*, II, 204.
10. Tacitus, *Annals*, xiv, 59; xvi, 34.
11. Lucian, *Icaromenippus*, 4.
12. Seneca, *Epistulae Morales*, xii; *Moral Essays*, III, vii, 11.1.
13. Monroe, *Source Book*, 401.
14. Quintilian, *Institutes*, x, 1.125.
15. Dio, lxii, 2.
16. Friedländer., III, 238,
17. Tacitus, *Annals*, xiii, 42.
18. Senceca, *De vita beata*, xvii-xvii.
19. Davis, *Influence of Wealth*, 154.
20. Seneca, *Epist* xv.
21. *De vita beata.* xv.
22. *De clementia*, i, 3.
24. *Epist* vii.
25. Tacitus, *Annals*, xviii, 2.
27. Boissier, *Tacitas*, 11.
28. Seneca, *Epist*, lxxvi.
30. Seneca, *Epist.*, lxxv.
31. Ibid., vii.
32. XXVI.
33. *De providentia*, ii, 6.
34. *Epist.*, xli.
36. *De providentia*, v. 8.
37. *Epist.* xxxi.
38. Ibid., ce; *ad Marciam*, xxiv, 3.
39. In Henderson, *Nero*, 309.
40. *Epist.*, lxxii and iii.
41. Ibid., ixxii.
44. XXXIII.
45. *De brevitate vitae*, xiv.
46. *Epist.*, lxix.

47. Ibid., ii.
48. VII ; XXV.
49. XXIII.
50. LXX.
51. *De ira*, v. 15.
52. *Epist.*, lviii.
53. Ibid., lxi.
54. *De ira*, ii, 34.
55. *Epist*, i, lxi.
56. Tertullian, *De anima*, xx.
57. In Acton, Lord, *His'ory of Freedom*, 25.
58. *Epist.*, xxxi.
59. Gummere, R. M. *Seneca the Philosopher*, 131.
60. Seneca, *Medea*, 864.
61. *Quaestiones naturales*,vii, 30-33.
62. Ibid., vii, 25, 30.
63. Pliny, xxxvi, 15.
64. Ibid,, ii, 5.
65. Plutarch, "Sertorius."
66. Pliny's *Letters*, iii, 5.
67. Pliny, *Nat. Hist.*, iii, 6.
68. Ibid., ii, 5.
69. II, 30.
70. II. 33.
71. II, 6, 64.
72. II, 90-92.
73. II, 63.
74. XXXIV, 39.
75. XXXVII, 27.
76. XIX, 4.
77. XVIII, 76
86. Pliny, ii, 5, 117.
87. XXXIII. 18.
88. II, 5.
89. VII, 56.
90. XXVIII, 7.
91. VIII, 67.
92. VII, 13.
93. XVIII, 78 f.
94. II, 67.
95. Jones, W. H. S. *Malaria and Greek History*, 61.
96. Pliny's *Letters*, I, 12.
97. Castiglione, 237.
98. Tacitus *Hist.*, iv, 81; Suetonius pasian" 7.
99. Dill, Sir S. *Roman Society from Nero to Marcus Aurelius*' 92.
100. Pliny, *Nat. Hist.*, xxix, 8.
101. Luncian, "To an Illiterate Book-Fancier," 29.
102. Pliny, xxvi, 7 - 8 ; Castiglione, 200 ; Garrison, *History of Medicine*, 106.
103. Castigolione, 233,240.
104. Ibid., 226.
105. Soranus in Friedländer, I 171.
106. Castiglione' 237 ; Garrison, 118.
107. Bailey, C., *Legacy of Rome*, 291; Williams, H.S., *History of Science*, I, 274.
108. Pliny, xxviii, 2.
109. Ibid., 8.
110. Garrison, 119.

116. Bailey, 284.
117. Quintillian, vi, pref.
118. I, 12. 17.
119. I, 10·36.
120. X, 3.9, 19.
121. X, 4.1.
122. II, 12.7.
123. II, 5.21.
124. Juvenal, vii, 82.
126. Martial, xi, 43, 104.
127. II. 53·
128. IV, 49.
129. I, 16.
130. X, 4.
131. IV, 4.
132. IX, 37.
133. I, 32 ; III, 65.
134. I, 32.
135. E g., ix, 27.
136. XI, 16.
137. III, 69.
138. Pliny's *Letters*, iii, 21.

CHAPTER XV

1. Columella, *Dere*, *rustica*. i 3.12.
2. In Davis, *Influence of Wealth*, 144.
3. Pliny, *Nat. Hist.*, xvii 4 ; Heitland 224. Frank. *Economic Survey*, V. 176.
4. Columella, iii, 3.
5. Strabo, v. 4. 3.
6. Frank. V, 158.
7. Pliny, xv, 68-8?.
8. Columella, iii, 8.
9. Rostovtzeff, *Roman Empire* 182-3
10. Suetonins, "Domitian," 7.
11. Cato *De agricultura*, 144.
12. Pliny, xix, 2.
13. Paul-Louis, 274-6.
14. Tacitus' *Agricola*, 12.
15. Pliny, ii, 108-9.
15a Ammianus Marcellinus, xxii.4.15
16. *Encyclopaedia Britanica*, V,868.
17. Paul-Louis, 287.
18. Frank, V, 229.
19. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 252.
20. Haskell. H. J., *New Deal in Old Rome*, 24-6.
21. Scott. S. P.' *Civil Law*, Fragments of Ulpian in Justinian, *Digest*, iii, 2.4.
22. Friedländer, I, 289-91.
23. Gibbon, Everyman Lib. ed., I. Bailey, C., *Legacy of Rome*,158.
24. Seneca *Ad Helviam*, vi.
25. Plutarch, *Maralia*, "On Exile," 604A.
26. Hallidy, W. R', *Pagan Background of Early Christianity*, 88.
27. Josephus, *Life*, p. 511.
29. Athenacus, ii, 239.
30. Josephus, *Life*, p. 511.
31. Mommsen, *Provinces*, II, 278.
32. Friedänder I, 286.
33. Pliny, xix, I, 4.
34. Ibid., ii, 57.
35. Cf. the crane pictured on the tomb of the Haterii in the Lateran Museum Rome, in Wickhoff. F. *Romap Art*, p. 50; cf. also Gest, 60, and Bailey. 462.
36. Reid, *Municipalities*, 28.
37. Gest, 110-131.
38. Pliny. xxxvi, 24.
39. Bailey, 290.
40. Frontinus, *Stratagems*, iii, 1.
41. Frontinns, *Aqueducts*, ii 75.
42. Ibid., i 16.
43. In Friedländer I, 13.
44. Carter, F., *Invention of Printing* 86 ; Gibbon, Everyman ed., I 55.

45' Tarn, W. W., *Hellenistic Civilization*, 206.
46. CAH, X, 417.
47. Strabo, xvii, 1.3.
48. Pliny' vi, 26, computes Rome's annual payment to India at 550,000,000 sesterces; but this is probably an exaggeration for elsewhere (xii, 41) he estimates the yearly loss of Rome to India, China, and Arábia at 100,000,000 sesterces each.
49. Hailliday, 97.
50. Tacitns, *Annals*, vi, 16 - 17 : Suetonius, "Tiberius." 48; Davis, *Influence of Wealtb*, 1 Renan, in *Lectuces on the Influence of Rome on Christianity*,25, and *The Apostles*, 170 cempares Tiberius' reliel measures to the Crédit Foncier of France in 1852; and Haskell compares the situation with the "easy money" period in the United States, 1923 - 9. the crisis of 1929, and the Reconstruction Finance Corporation (*The New Deal in Old Rome*, 183, 188).
51. Ovid *Gasti*, i 191.
52. In Toynbee, B., *Study of History*, I. 41 n.
53. Davis, a42.
54. Beard, M., *History of the Business Man*, 47.
55. Athenaeus, vi, 104.
56. Seneca *De Clementia*, i 24.
56a. Sandys, Sir J., *Companion to Latin Studics*, 354.
57. Pliny, vii, 40.
58. Friedländer, II, 221.
59. Boissier, *La rèligion romaine*, II, II, 330.
59a. Sence *De ira*, III. 3.
60. Juvenal, vi, 474.
61. Ovid, *Ars amatoria*, 735;*Amores*, I, 14.
62. In Holmes, *Architect of the Roman Empire*, 132.
63. Dill, 116.
64. Statius, *Silvae*, ii, 6.
65. Seneca, *Epist.*, xivii, 13.
66. Dill 117.
68. Rostovtzeff, *Roman Empire*, 105; Reid, 323, 521.
328, 521.
69. Toutain, 304.
70. Frank, *Ecoomic Survey*, V, 235.
71. Frank, *Economic History*, V, 235.
72. Petronius, 44.
73. Rostovtzelt, 172; Declareul, J., *Rome the Law Giver*, 269.
74. Pliny, xiii, 23.
74. Pliny, xiii, 23.

CHAPTER XVI

1. Seneca in Friedlander, II, 321.
2. Livy, xxiv, 9; Pliny's *Letters*,
3. Strabo, v, 3.8.
4. Juvenal, iii, 236-244..
5. Ibid., v, 268.
6. Martial, cxvii, 7.
7. Friedländer, I, 5.
8. Pliny, xxxv, 45.
9. Friedländer, II, 317, 330.
10. Mau, A., *Pempeii*, 231; Rostovzeff, *Roman Empire*, 135; Gest
11. Vitruvius, *De architectura*, ii, 21.
12. Seneca, *Epit.*, cxxii.
13. Juvenal, iii, 223.
14. Pliny's *Letters*, ii, 17; v. 6.
15. Juvenal, iii, 223.
16. In Boissier'*Rome and Pompeii*119
17. Pliny, *Nat Hist.*, xxxii, 45.
18. Boissier, *Tacitus*, 223.

18a. N. Y. *Times*, Apr. 27, 1943.
19. Mau, 414.
20. Pliny, xxxv, 66; Strabo, xvi, 25.
21. Winckelmann, J., *History of Ancinet Art*, II. 312.
22. Reid' 278.
23. Cf. Strong. *Art. in Ancient Rome*, II, fig. 341.
24. Valerius Maximus, *Factorum et dictorum*, viii, 14.
25. Pliny, xxxv, 37.
26. Cf. Maiuri, A., *Les fresques de Pompcli*, Table XXXIII.
27. Cf. Rostovtzeff, *Mystic Italy passim*.
27a. Pliny, xxxv. 40.

CHAPTER XVII

1. Juvenal, v, 141.
2. Petronius in Henderson, *Nero*, 326.
3. Seneca *Ad Marciam*, xix, 2.
4. Juvenal, vi, 367.
5. Friedländer, I, 238.
6. Cf. Pliny, xxxiv, 11: "They say that if the male organ is rubbed with (oil or gum of) cedar just before coitus, it will prevent impregnation." Cf. also Humes, 85 f, 186.
7. Juvenal, vi, 592.
10. Gatteschi. G., *Restauri della Rome Impeirale*, 64.
11. Gibbon, I, 42; Friedländer, I, 17; Sandy 355 · 7; Davis, 196; Paul-Louis, 15, 227.
12. Tacitus, *Annals*, xiii, 27.
13. Vogelstein, H., *Rome*, 10.
14. Cicero, *Pro L., Flacco* 28.
15. Edersheim, A., *Life and Times of Jesus the Messiah*, I, 67.
16. Tacitus, *Annals*, ii, 85; suetonius "Tiberius, 36.
17. Dio, lvii, 18; Schürer, *History, of the Jewish People* Div. II, Vol. II, 234,
18. Vogelstein, 17.
19. Ibid., 31, 33: Renan, *Lectures*, 50
20. Tacitus, *Annals*. ii, 89: Ammanianus, M., xxii, 5.
21. Dill, 83-4.
22. Dio, ix, 33.
23. Martial, vii., 30.
24. Juvenal, iii, 62.
25. In Bailey, 143.
26. Tacitus, xiv, 60.
27. Juvenal, xiv, 44.
28. Gellius, xii, 1.
29. *Enc. Brit.*, X, 10.
30. Horace, *Satires*, i 6.75.
31. Pliny's *Letters*, ii, 3.
32. Petronius, 1.
33. Pliny's *Letters*, iv. 3.
34. Ovid, *Ars amatoria*, 98.
35. Juv., ix, 22.
36. Minucius Felix, *Octavius*, 67; Tertullian, *Apology*, 15.
37. Horaces, *Epodes*, xi.
38. Martivl, viii, 44; xi, 70,88, etc.; Juv., ii, vi' ix.
39. In Friedländer I, 234.
40. Seneca the Elder, *Controversiae* in Friedländer, I, 241.
41. Seneca, *Ad Helviam*, xvi, 3; *Ad Marciam*, xvi 3.
42. Ovid, *Amores*, i, 8:43; iii, 4-37.
43. Friedländer, I, 241.
44. Juv., vi, 228.
45. Ibid., 281.
46. t, 22.
47. Boissier, *La rêligion romaine*, II, 197.
48. Jnv., vi, 248.
49. Martial, *De spectaculis*, vi'
50. Statius, *Silvae*. i. 6.
51. Seneca, *Moral Essays*, i 9.4.
52. Ovid *Ars amatoria*, 113.

53. Martial, x 35.
54. Ibid., i, 14.
55. Taciius, *Annals*, xvi, 10.
65. Friedländer, I, 265.
57. Tacitus, xiv, 5.
58. Martial, vi, 57.
59. Catullus, lxxxvi.
60. Ovid *Ars*, 158 ; Kohler, K. *History of Costume*, 118 ; Pfuhl, E: *Masterpices of Greek Drawing*, Fig. 117.
61. Tibullus, i, 8.
62. Juv., vi, 502.
98. Pliny, xxxiii, 12.
64. Guhl and Konar, 498.
65. Martial, ix, 63.
66. Ovid, *Ars*, 160.
67. Pliny, ix, 63.
68. Ibid., xxxviii, 12.
69. IX, 58.
70. Friedländer, II. 181.
71. Pliny, xxxiii, 18.
72. Seneca, *Epist.*, lxxxvi.
73. Pliny, viii, 74.
74. Quintilian, 3.
75. Galen in Friedländer, II, 227. The remainder of this chapter is particularly indebted to Friedländer's devoted accumulation of Roman mores.
76. Juv., vii, 178.
77. Jones, H.S., *Companion to Foman History*, 116 ; Friedläuder, 1, 12.
78. Seneca, *Epist.* lxxvi.
79. Ker, W.C., in Martial, I, 214n.
80. Gardiner, E. N., *Athletis of the Ancient World*, 230.
81. Pliny, xxviii, 51.
82. *Journal of the American Medical Association*, Aug. 1, 1942, 1089.
83. Ovid, *Ars*, 165 ; *Tristia*, ii, 477-80.
84. Pliny, viii, 51 77.
85. Ibid., ix, 30, 31.
86. Ibid., 39.
87. VIII, 82.
88. VIII, 77.
89. Seneca *Ad Belviam*, x, 9.
90. Ibid , 3.
91. Sandys, 502.
92. Mantzius, K., *History of Theartical Art*, I, 217.
93. Suetouius, "Vespatian," 19.
94. Mantzius, I, 218.
95. Boissier, *La régligion romaine*, II, 215.
96. Cicero *Pro Murena* 6.
97. Lang, P. N. *Music in Western Civilization*, 36.
98. Ammianus, xiv, 6.
99. Martial, v, 78.
100. Ammianus, xiv, 6.
101. Seneca, *Epist.*, lxxxviii.
102. Philostratus, *Life of Apollonius of Tyana*, v, 21.
103. Lang, 3.
104. Virgil, *Aeneid*, v, 362f.
105. Frieplander, II, 5.
106. Dio, lxi, 33.
107. Lecky, W. E., *History of European Morals*, I, 280.
108. Friedännder, II, 5.
109. Pliny, viii, 70.
110. Friedländer, II, 5.
111. Boissier, *Tacitus*, 246.
112. Martial, *De spectaculis*, vii.
113. Friedänder, II, 43.
114. Ibid., 49.
115. Epicteins, *Discourses*, i 27-37.
116. Seneca, *Epist.*, lxx.
118. Juv., iii, 36.
119. Pliny II, *Panegyricus*, xxxiii.
120. Tacitus, *Annals*, xiv.
121. Cicero, *Letters*, vii, , to Marcus, 55. B. C.

122. Seneca, *Epist.*, vii, xcv.
123. In St. Augustine, *City of God*
124. Tertnlian, *Apology*, 15.
125. Juv., xiii, 35.
126. Abbott, *Common People of Ancient Rome*, 88; Dill, 498.

CHAPTER XVIII

1. Bury, J. B., *History of the Roman Empire*, 527.
2. Justinian, *Digest* i, 1, in Scott, *The Civil Law.*
3. Gaius, *Institutes*, i, 8.
4. Maine, Sir H., *Ancient Law.* This generalization has been questioned, but seems substantially true.
5. Justinian, *Codex*, vii, 16. 1.
6. Gaius, i, 144.
7. Ibid., 145, 194.
8. Buckland, W. W., *Textbook of Roman Law*, 113.
9. Gaius, i, 114.
10. Friedländer, I, 236.
11. Suetonius, "Vespasian," 3; *Hist. Aug.*, "Antoninus," 8: "Aurelius," 29.
12. Castiglione, 227.
13. Gaius, commentary, p. 66.
14. Ibid., p. 64.
15. Gaius, i 56.
16. Davis, *Influence of Wealth*, 211.
17. Tacitus, xiv, 41.
18. Renan, *Marc Aurèle*, 24.
19. Ulpina, in *Digest*, L, 17. 32.
20. Lecky, I, 295.
21. Gaius, iii, 40-1.
22. Cicero *Ad Familiares*, viii, 12,14.
23. Gaius, ii, 157; iii, 2.
24. Maine, 117.
25. Buckland, 64.
26. Caius, iii, 186; iv, 4.
27. Ibid., iv, 11.
28. In Friedländer, I, 165.
29. Ammionus, xxx, 4.
30. Ulpiana in *Digest*, *L*, 13. 1.
31. Quintilian, xii, 1. 25.
32. Pliny's *Letter*, v, 14.
33. Martial, vii, 65.
34. Pliny's *Letters*, ii, 14.
35. Tacitus, *Annals*, xi, 5.
36. David, 125.
37. Pliny's *Letter,s* vi, 33.
38. Juv., xvi, 42.
39. Juv., xvi, 42.
39. Apuleius, *Golden Ass*, p. 245.
40. Psalms, cxvi, 11; St. Paul, Epistle to the Romans iii, 4.
41. In Taylor, H., Cicero, 77.
42. Quintilian, v. 7. 26.
43. Ibid., vi, 1. 47.
44. *Codex Theodosius*, ix, 35, in Gibbon, II, 120.
45. Gellius, xx, 1, 13.
46. Sallust, *Catilline*, 55.
47. Cicero, *De re publica*, iii, 22; cf. *De offieiis*, i, 23; *De legibus*, i, 15.
48. Gaius, i, 1.

CHAPTER XIX

1. Ker, W., in Martial, II, 54n.
2. Dio, ixviii, 13.
3. Renan, *Marc Aurèle*, 479.
4. Dio, lxviii, 15.
5. Mahaffy, J., *Silver Age of the Greek Word*, 307.
6. In CAH, XI, 201, 855.
7. Pliny II, *Panegyricus*, 50.
8. Justinian, *Digest*, xiviii, 19. 5.
9. Bury *Roman Empire*, 437.
10. Brittan, 366.
11. Wickhoff, 118.
12. Dio, ixix, 1.
13. Hist. *Aug.*, "Hadrian," i, 4.
14. Ibid, xxvi, 1.
15. Ibid.

16· XIV. I.
17. Martial, viii, 70; ix, 26.
18. *Hist Aug.*, "Hadrian" xv, 10.
19. Ibid., xx. 7.
20. Henderson, *Hadrian*, 207.
21. Eusebius, *Ecclesiastical History*, iv, 9.
22. Dio, lxix, 6.
23. Fronio, M.. *Correspondence*,A.D. 162 : II, 4.
24. *Hist. Aug.*, "Hadrian" x, 1.
25. Winckimann, I, 327.
26. Bevan, E. R., *House of Seleucus* II' 15.
27. *Hist Aug* ., viii, 3.
29. Simpson. F. M., *History of Architectural Devvelomemt*, 123.
30. Dio, lxix, 4;cf. Henderson, 247.
31. Cio, lxix, 8.
32. *Hist Aug.*, xxiv, 8.
33. Merivale, *History of the Romans under the Empire*, VIII, 255.
34. Marcus Aurelius, *Meditations*,16.
35. *Hist. Aug.*, "Antoninus". iv, 8.
36. Ibid., viii, 1.
37. IX. 10.
38. Appian, preface, 7:
39. Bury, 566.
40. Renan, *The Christian Church*,
41. Renan, *Marc Aurèle*, 2.
42. Gibbon, I, 76.
43. Marcus, i 17.
44. Ibid., 1.
45. I, 14.
46. I, 15.
47. I, 14.
48. VII. 70.
49. *Hist Aug.*, "Marcus," xxiii, 4.
50. Frielánder, III, 191.
51. Waston, P. *Marcus Antoninus*,
52. Castiglione, 244.
53. Galen, in Friedländer, I, 28.
54 Dio, lxii, 14.
55. Ammianus, xxv, 4.
56. Willams, H., I, 280.
57. Renan, *Marc*, 469.
58. Marcus, i, 17.
59. Bury, 647.
60. *Hist, Aug.*, "Marcus," xix. 7
61. Marcus, x, 10.
62. Mommsen, *Provinces*, I, 253.

CHAPTER XX

1. Boissier, *Tacitus*, 2.
2. Tacitus, *Agricola*, 9.
3. Pliny's *Letter*, ii, 1; vi, 16.
4. *Agricola*, end.
5. *Germania*, 25, 27.
6. *Annals*, iii, 65.
7. *Historiae*, i 1.
8. *Agricola*, 4.
9. *Germania*, 34.
10. *Annlas*, xvi, 33.
11. Ibid., iii, 18; vi, 22.
12. *Germania*, i, 33.
13. *Agricola*, 46.
14. *Annalo*, vi, 17.
15. *Agrieola*, 3.
16. *Dialogue on Orators*, 40.
17. *Historiae*, iii, 12, 64.
18. *Agricola*, 18.
19. *Historiae*, *i* 16.
20. Ibid.
21. Juvenal, i, 147.
23. X, 81.
24. VI, 652.
25. 434.
26. 448.
27. III.
28. XIV, 316.
29. X, 356.
30. Seneca, *De beneficiis*, i, 10; *Epist.*, xcvii.
31. Pliny's *Letters*, iii, 19.

32. V, 3.
33. 8.
34. I, 17.
35. VI, 32.
36. V, 16.
37. I, 16.
38. VII' 19.
39. VII, 20; IX, 28.
40. Boissier, *Tacitus*, 19.
41. Gibbon, 1, 57.
42. Pliny's *Letters*, iii, 12.
43. Strong, II. fig. 435.
44. Marcus, ii, 11.
45. VII, 75.
46. Ibid., 9 : iv, 40, 27.
48. II, 17.
49. III, 2.
50. X, 8.
51. IV, 23
52. II, 17.
53. VII, 12.
54. XI, 1.
55. IVIII, 10.
56. IV. 42, 48; viii, 21.
57. VII, 3.
58. II, 1.
59. IX, 38; vii, 26.
60. VI. 48.
61. 44.
62. XI. 18.
63. IV, 49; viii, 61; ii, 5.
64. IV, 21; viii. 18; ii, 17.
65. IV, 14, 48; ix, 3.
66. Dio, lxxii, 2-3.
67. *Hist. Aug*, "Commodus", 2, 14, 15.
68. Dio, lxxiii, 19
69. *Hist* Aug, 13.
70. Ibid., 2, 10, 11.
71. Paul-Louis, 215.

فهرس الأعلام والأماكن

(ا)

(ب)

(ث)

(ج)

(ح)

(خ)

(د)

(ز)

(س)

(ش)

(ق)

(ك)

(ل)

(هـ)

(و)

(ى)

الفهرس

الكتاب الثالث ـ الزعامة

الموضــوع الصفحة

الباب الرابع عشر : العصر الفضى

الباب الخامس عشر : رومة العاملة

الباب السادس عشر : رومة وفنونها

الباب السابع عشر : رومة الأبيقورية

الباب الثامن عشر : القانون الرومانى

الباب التاسع عشر : الملوك الفلاسفة

الموضـــوع الصفحة

الباب العشرون : الحياة والفكر فى القرن الثا

فهرس الأشكال والصور